

مباحث فی علوم القرآن

تألیف
حسین صمدی عمامہ

اجزاء الثانی

دار المجتہد البیضاء

مكتبة دارالمحفوظ محفوظات
الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م



مكتبة نرجس PDF

www.narjes-library.blogspot.com

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب. ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٢٨٧١٧٩/٠٣ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



العصمة

قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يُهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء : الآية - ٧٣ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْتَابُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَلَنْ يَكْفُرَ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَئِيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهِدَاهُمْ آتَيْنَاهُ قُلْ لَا اسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام : الآية - ٨٩ .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ ﴾ آل عمران : الآية - ١٦٦ .
﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْمُنْجَى ، إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة : الآية - ١٤٥ .

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء : الآية - ١١٣ .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَتَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴾ الأحزاب : الآية - ٢١ .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٢٤ .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ الشرح : الآيات - ١ - ٢ .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ الضحى : الآية - ٧ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُسَبِّحَ بِحَمْدِهِ عَلَيْكَ وَيَهْتِفُ بِصِرَالِنَا مُسْتَقِيمًا ﴾ الفتح : الآيات - ١ - ٢ .

تحديد العصمة :

العصمة في اللغة يقصد بها " المنع " . يقال عصم الله فلاناً من المكروه : حفظه ووقاه، كما يقال اعصم بالله : التجأ إليه وامتنع بلفظه عن المعصية . فالعصمة : هي ملكة اجتناب المعاصي أو الأخطاء^١ .

يقول السيد المرتضى :

" أصل العصمة في موضوع اللغة : المنع ، يقال : عصمت فلاناً من السوء ، إذا منعت من حلوله به ، غير أن المتكلمين أجروا هذه اللفظة على من امتنع باختياره عند اللطف الذي يقطعه الله تعالى به ، لأنه إذا فعل به ما يعلم أنه يمتنع عنده من فعل القبيح فقد منعه من القبيح ، فأجروا عليه لفظة المانع قهراً وقسراً ، وأهل اللغة يتعارفون ذلك أيضاً ، ويستعملونه لأنهم يقولون فيمن أشار على غيره برأي فقبله منه مختاراً ، واحتمى بذلك من ضرر يلحقه ، وسوء يناله : إنه حماه من ذلك الضمير ، ومنعه وعصمه منه ، وإن كان ذلك على سبيل الاختيار^٢ .

بهذا التحديد ترتبط العصمة بالشخصية للتوبة التي لا ترتكب معصية ولا إثمًا ، سواء ذلك بالصدقة ، أم بالملكة ، أم بالاختيار .
فالعصمة هي البراءة من الذنوب والخطيئات والتسرع عن المعاصي ، صفاتها وكبارها ، سواء عن وعي وقصد أم عن خطأ أو غفلة أو نسيان .

قال المحقق الطوسي في التجريد : " ولا تنافي العصمة القدرة " ، وتابع يقول :
" يختلف القائلون بالعصمة في أن المعصوم هل يتمكن من فعل المعصية أم لا ، فذهب قوم منهم إلى عدم تمكنه من ذلك ، وذهب آخرون إلى تمكنه منها " .

أما الأولون فمنهم من قال : إن المعصوم مختص في بدنه أو نفسه بخاصية تقتضي امتناع إقدامه على المعصية .
ومنهم من قال : إن المعصية هي القدرة على الطاعة ، وعدم القدرة على المعصية ، وهو قول أبي الحسن البصري .

^١ - انشيد : ٥١٠ .

^٢ - معارج الأوارق : ٧٤ .

ولما الآخرون الذين لم يسلبوا القدرة :

فمنهم من فسرها بأنه الأمر الذي يفعله الله تعالى بالعبد من الأطايف المعترية إلى الطاعات التي يعلم معها أنه لا يقدم على المعصية بشرط ألا ينتهي ذلك الأمر إلى الإلجاء . ومنهم من فسرها ، بأنها ملكة نفسانية لا يصدر عن صاحبها معها المعاصي .

وآخرون قالوا : العصمة لطف يفعله الله لصاحبها ، لا يكون له معه داع إلى ترك الطاعات ، وارتكاب المعصية . وأسباب هذا التلطف أربعة :

أحدها : أن تكون لنفسه أو لدنه خاصية تقتضي ملكة مانعة من العجز ، وهذه الملكة مغيرة لتفعل .

فالإنسان يكون قوي الإرادة لا ينفذ مع شهوته ورغائيه النفسية ، وذلك هو المراد بالملكة المانعة من العجز والشرور الباعثة على الطاعة .

الثاني : أن يحصل له علم بمطالب المعاصي ، ومناقب الطاعات ، فلا يجهل فوائد الطاعة ولا مضار المعصية .

الثالث : تأكيد هذه العلوم بتتابع الوحي أو الإلهام من الله تعالى ، بحيث يتحقق البيان من الله سبحانه ويتبين به المكلف .

الرابع : مواخذته على ترك الأولى ، بحيث يعلم أنه لا يترك مهماً ، بل يضيف عليه الأمر في غير الواجب من الأمور الحسنة ، أي أن يحاسب على الخطأ ولو كان نسبياً أو سهواً ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان الإنسان معصوماً ، ملكة تدعو الإنسان إلى الطاعة ، علم بمضار المعصية ومنافع الطاعة ، بيان من الله وأصل إلى هذا الإنسان ، محاسبة على الخطأ ولو كان سهواً أو نسبياً . كل هذا تحصل به العصمة التي هي عبارة عن عدم المعصية خراجاً بل تكون هذه الأمور الأربعة مقدمة للعصمة .

ويضيف الطوسي على ذلك مختاراً المذهب الثاني ، وهو أن المعصية لا تنافي القدرة قائلاً : ' العصمة لطف يفعله الله سبحانه بالمكلف ، بحيث لا يكون له داع إلى ترك الطاعة ، وارتكاب المعصية مع قدرته على ذلك ، لأنه لو لا ذلك لم يحصل الوثوق بقوله فتتغنى فائدة البعثة ' ، ولا يستحق بذلك المدح على ترك المعصية ولا الثواب ، وليلط الثواب والعقاب في حقه ، فكان خراجاً عن التكليف ، وذلك باطل بالإجماع وبالتالي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ .. ﴾ فصلت : الآية - ٦ .

وجاء في كتاب الحق اليقين :

" العصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادراً على المعاصي كلها،
وليس معنى العصمة أن الله يجبره على ترك المعصية بل يفعل به إلتافاً يترك معها المعصية
بإختياره مع قدرته عليها " ^١ .

❖ **العصمة عند الكتابيين :**

لا يرى الكتابيون بالعصمة ، كتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش
للمنافية لحسن الأسوة .

إن النصارى يجعلون معاصي الأنبياء دليلاً على عقبتهم ، فالسيد المسيح هو
المعصوم وحده لأنه رب وإله ومخلص للناس من الخطيئة الملازمة لكل ذريسة آدم
بالوراثة .

يقول السيد المسيح :

" ولما باب الخراف ، جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص " ^٢ .
ولا يمكننا القول بأن المسيح يقصد بهذا القول المدعين رسالات الله زوراً وغروراً
لأنه عم بقوله : " وكل الذين أوتوا من قبلي " وما هو ملوك " باب الخراف " ؟

إن الذي يعنيه من هذا القول بأنه فدى نفسه ، وضحي دون خراف الأمة ، ولكن الذين
سبقوه لم يصح واحد منهم ليصبح حاملاً لخطايا أمته ، يحط عنهم أوزارهم ، أيضاً كانت
معاصيهم ومآسيهم حيث نسخت شريعة الناموس بما ضحي ، فلم يبق مجال للعصيان ، أيضاً
كان العصيان .

آدم في التوراة :

إذا كان إله التوراة يغش ويكذب ، يخدع ويظلم ، إذا كان هذا الإله جسماً كإنسان ،
لا يرى آدم في الجنة حيث اختفى ، يصارع يعقوب ويتغلب عليه يعقوب .
إذا كان إله التوراة إلى هذه النواقص ، فليس من الغرابة في شيء أن يرتكب آدم
التوراة المعاصي والمآثم .

^١ - شرح التحرير : ٢٠٤ و ٢٠٥ ، وأخبار الأنوار جلد ١٧ ص ٩٤ .

^٢ - ١٠ : ٧ - ٨ .

”وأوحى الربّ الإله لآدم قائلاً : من جميع شجر الجنة تأكل ، وأما شجرة معروفة الخير والشر فلا تأكل منها شيئاً ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت “^١ .

ألا يقضي هذا القول للتوراتي بأنّ الله إما أن يكون جاهلاً أو كاذباً حين يقول لآدم : ” يوم تأكل منها موتاً تموت “ حيث أكل من الشجرة ولم يموت ؟
لقد كان آدم للتوراتي نائباً عن نزيّته ، فأخذ الله عليه العهد الغليظ ، والميثاق المؤكد فنكث ونقض ليعصي ربه بأكله من الشجرة المحرّمة .

« نوح (ع) :

موبدا نوح (ع) في العهد العتيق ، في التوراة كان رجلاً يظلم ، وكان من الذين يتعاطون شرب الخمر .

”إن نوحاً بعد ما خرج من الفلك ، ونجا من العرق ، أخذ يفرس الكرم ، ويشرب الخمر ، فسكر وتعرّى داخل خبائه ، فستر عليه ولده ” سام ويافت “ ، ووجهاه إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمره لعن كنعان ولده الأصغر دونما نسب ، إلّا أنه أبصر عورة أبيه عند عراه وسكره ، فأخبر أخويه فستراها فدعى على كنعان أن يصير عبداً لأخويه “^٢ .

لكن نوحاً في العهد الجديد :

” هو السابع من ولد آدم . ولقد كان رجلاً عادلاً كاملاً ، وكان يحظ في الله إلى العبدل والنّصفه ، وكان مشهوراً بالإيمان “^٣ .

« إبراهيم (ع) :

وإبراهيم في التوراة يشك في صدق الوعد الإلهي وإنجازه :
” ... أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها ، فقال أيها السيد الرب ! بماذا أعلم أنّي أرثها ؟ “^٤ .

^١ - تكوين : ٢ : ١٦-١٨ و ٣ : ١-٢٦ .

^٢ - [تك : ٩ : ١٨-٢٧] .

^٣ - [٢ بط : ٢ : ٥] .

^٤ - [تك : ١٥ : ٧-١١] .

« موسى (ع) :

إن التوراة تعتبر بين الحين والحين موسى وهرون غير مؤمنين بالله :
 ' فقال الرب لموسى وهرون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقسماني أمام أعين بنى
 إسرائيل ، لذلك لا تدخلن هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتكم إياها ' .

« داود (ع) :

وداود التوراة ابتلى بالمعاصي ، وارتكب الكبائر : لقد زنى بالمحصنة وقتل زوجها :
 ' ... هكذا قال الرب إله إسرائيل (داود) : أنا مسحك ملكاً على إسرائيل ، وأنتقدت من يد
 شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ، ونساء سيدك في حضنك ، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا ...
 ولماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر في عيني ، قد قتلت أورياً الحنفي بالسيف ، وأخذت
 امرأته لك ، وإياه قتلت بسيف بني عمون - والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك
 احتقرتني ... هكذا قال الرب : ها أنذاك أقيم عليك الشر من بيتك ، وأخذ نساءك أمام عينك ،
 وأعطيتهم لقريبك ، فيضطجع مع نساءك في عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالشر وأنا
 أفعل هذا الأمر قدام جميع بني إسرائيل وقدام الشمس ... وضرب الرب الولد الذي ولدته
 أورياً لداود قتل ... ' .

أنيس من الغربة أن يلقى التوراة دواود تهمة للتحشيق لزوجته أميرة جنده ، فيزني بها ، ثم يقتله
 لينفرد بها ، وإله التوراة يهدده بأخذ نساءه علانية والانتقام منه بهن ؟

« سليمان (ع) :

إن سليمان المهدين ظلوم كفار ، مشرك مسرف ، منحرف السلوك ، نزق الأخلاق :
 ' أصبح سليمان في سلطانه ثرياً للغاية ، فأخذ في السرف والترف والتعشيش الممنوع
 أكيداً ' ، " ولقد هدده الله ووبخه في رؤياه الثانية ، فبذل أن يتعظ استنكر ونسأل في أمر
 ربه ونسي ربه ' ، " أخذ يعاشر ويعاشق النساء الغريبات اللاتي منع الله عشرتهن ، فنكح
 منهن سبعماية بالعقد الدائم ، وثلاثماية منقطعاً ، فاجتذبن وأملن قلبه عن ربه إلى أنفسهن ، وهو

١ - [١١ : ٢٠] .

٢ - صويل ١٢ : ٧-٢٣ .

٣ - نت ١٧ : ١٦-١٧ .

٤ - ملوك ١-١٩ ، ٢-١٩ ، ٧-١١ : ٢٢ .

على كهولته وشيوخته نحل نوحن ، وحذا حنوحن إلى حيث بنى لكل واحدة منهن منبجاً
للأوثان على الأنتل *^١ ، ولذلك غضب الله عليه ومزق ملكه شرّ تمزيق .

* ... وهكذا انحرف في سلطانه وقدرته عن العدل ، وبالنسبة لرعيته حيث أجبرهم
على خدمته ، وظلمهم في الخراجات الثقيلة المخرجة لحد اضطّرّ المظلومون المحطّمون أن
يتّظلموا إليه جهاراً في جنوس يربعام *^٢ ، * هذا وإن مخازي سليمان التوراة لا تنحصر فيما
أشار إليه بوست ، فقد ينص العهد العتيق أن كثرة النساء محرمة على الملوك *^٣.

فلسليمان التوراة يجمع بين المحرّمين وزيادة هي أتباعهن في الشرك ، ومع الأسف إن
ذلك كان في زمن شيوخته : أن نساءه أمكنّ قلبه راء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع
الرّب إلهه كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة للصبيونيين وملكوم رجس
العمونيين ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة كلموش رجس للموايبين على الجبل الذي تجاء
أورشليم *^٤.

والعهد الجديد ليس أقلّ اتهاماً لسليمان من التوراة حين يقول :
" إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا *^٥ .

ملاحظات سريعة حول هذه المواقف التوراتية والإنجيلية :

يقول الصدوق :

" اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة صلوات الله عليهم أنهم معصومون
مطهرون من كل دنس ، وأنهم لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً ، ولا يعصون الله ما أمرهم
ويقولون ما يؤمرون ، ومن نفى عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم ، واعتقدنا
فيهم أنهم موصوفون بالكمال والثّمام والعلم من أوائل أمورهم إلى أواخرها ، لا يوصفون في
شيء من أحوالهم بنقص ولا جهل *^١ .

^١ - ملوك ١ : ١١ - ٨ ، وشميا ١٣ : ١٦ .

* - ملوك ١٢ : ٣ - ٢٠ قبل مع ١ صرّين ٨ - ١٠ : ١٨ .

- مت ١٧ : ١٧ .

^٢ - ١ ملوك ٢٣ : ١٤ و ١ ملوك ١١ : ١١ .

^٣ - متى ١ : ٦ .

^٤ - اعتقادات : ٩٩ .

أما الكتّابيون ومن تخرّج من مدارسهم فيذهبون عن هذا المذهب ، فالأكبّاء عندهم بشر ، والنقص صفة ملازمة للصفة البشرية في الإنسان . فالإنسان ليس له إلا أن يخطئ لأنه ناقص ، سواء كان هذا الإنسان نبياً أم إنساناً عادياً .
 إن التوراة تعتبر آدم عاصياً ، ولا تنكر له توبة ، ولا ندامة على عصيانه ، والانجيليون الجدد يرون أنه ذاتي العصيان ، فلا يفارقه هو وبنوه إلا بالفداء الصليبي ، وإنه لحكم حاسم على آدم وذريته ، ومنهم الأنبياء والرسل على أنهم عصاة وبغاة^١ .

إن الظاهر القرآني ينسب لآدم خطيئة واحدة هي الأكل من الشجرة بتسويل من إبليس ، حينما كان آدم وزوجته لا يزالان في الجنة قبل النبوة .
 وتاب آدم إلى ربه ، وتاب ربه عليه ، فاصطفاه للنبوة بعد هذه التوبة النصوح ، وبعد للهبوط المبارك إلى الأرض .

والقرآن يثبت العصمة خلال النبوة ، وقد يختص طائفة من النبيين بالعصمة العلمية قبل النبوة كمثل أولي العزم من الرسل وأضرابهم .
 ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ قَتَابًا عَلَيْهِ وَهْدًى ﴾ طه : الآيات - ١٢٢-١٢١ .

ألا تفرّز هذه الآية أن مخالفة آدم لربه كانت قبل النبوة ؟
 ألا تعتبر هذه الآية أن نبوة آدم كانت بعد توبته وهدايته واجتباؤه ؟
 وهل تلاحظون أن هذا العصيان كان نتاج العمد ، وصناعة الإصرار ، ووليد اتباع الشهوة ؟
 لقد أكل آدم وزوجته من الشجرة ظناً منهما أن الله أباح لهما ذلك بعد أن ضلّ إبليس وسول .

يقول الإمام الرضا (ع) في هذا الصدد :
 " إن الله عزّ وجل خلق آدم حجة في أرضه ، وخليفته في بلاده ، ولم يخلقه للجنة ، وكانت للعصية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتمّ مقادير أمر الله عزّ وجلّ ، فلمّا أهبط إلى الأرض ، وجعل حجة وخليفة عصم بقوله عزّ وجلّ :
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَالْإِسْرَافِيلَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران : الآية ٣٣ .

^١ - كتاب عقائدنا للمصطفى ص ٣٣٢ .

لقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة : الآية- ٢٥
ولم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة ولا مما كان من جنسها فلم يقربا تلك الشجرة ،
وإنما أكلا من غيرها لما أن وسوس للشيطان إليهما وقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ الأعراف : الآية- ٢٠ وإِنَّمَا نَهَاكُمَا أَنْ تَقْرَبَا غَيْرَهَا ولم ينهكما عن
الأكل منهما ، ﴿وَقَسَمْنَاهُمَا إِنِّي نَكَمًا لِمَنِ النَّاصِحِينَ﴾ الأعراف : الآية- ٢١ ، ولم
يكن آدم وحواء شاهداً قبل ذلك من يخلف بالله كاتباً ، فدأبهما بغرور ، فأكلا منها فقة
بيمينه بالله ، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحق به دخول
النار ، وإِنَّمَا كَانَ مِنَ الصَّغَائِرِ الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول السوحي
عليهم ، فلما اجتنب الله وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة ﴿ثُمَّ
اجْتَنَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ طه : الآية- ١٢٢.

وعجباً للعهد العتيق ، كيف ينسب لنوح شرب الخمر ، وإيقاع الظلم ؟ وإنه لخبط
وخلط .
كيف يحق لملعون بشرب الخمر أن يلعن ولده الصغير رغم أنه أبصره عرياناً فأخبر
أخويه ليستراه ؟

هل الذي لا يفعل مكلف ؟
هل شرب الخمر لم يكن محرماً ؟
ولئن كان الأمر كذلك فليس إلّا القضاء على دعوات الأنبياء حيث لا ثقة بمن أصابه خبط
بالشرب ، وهل الذي يمسّه طائف من السكر هو بنجوة من الخطأ والهلوسة أو النسيان ؟

وكيف سيكون شأن المدعو إذا كان الذاعي هذا شأنه من الضياع والانحراف ؟ والحق
يقال : ضعف الطالب والمطلوب .
وها هو ذا إبراهيم (ع) يلصق به التوراة الشك بالوعد الإلهي وإنجازه رغم أن هذا
الوعد ليس بأمر خارق ولا معجز ، إنما هو الأمر العاديّ ، وهل الوعد بإعطاء إبراهيم
الأرض ليرثها يتجاوز العادي من الوعد ؟

وإبراهيم الخليل (ع) نبأ من قومه وما يعبدون ، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ آل عمران : الآية - ٦٧ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ إبراهيم : الآية - ٤٠ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّخَذَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ النساء : الآية - ١٢٥ ، وهل إسراع إبراهيم إلى ذبح ولده الوحيد إسماعيل بعد منام الوحي أنه يذبحه يشير إلى غير إيمانه المطلق بربه ، وطاعته لأوامره دون تعقيب ؟

وكيف يجوز أن نسيئ لظن بهذا الخليل لله ، وبهذا المصطفى عبده ، وبهذا الذي بلغت تضحياته الرسالية والإيمانية للحدود القصوى لنسب له الزور والشك والغرور وكل ما يمس كرامته ؟

أما موسى الكليم (ع) وأخوه هرون في التوراة فهما اللذان لم يؤمنا بالله حق الإيمان ، بل كانا باهه مشركين :

" فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقسماني أمام أعين بني إسرائيل ... " وبلغ التناقض التوراتي مبلغه حين يجعل من موسى إلهاً لأخيه هرون بعد أن لصق به عقيدة الشرك :

" إني الله حمي غضبه على موسى ، فقال موسى للرب استمع أيها السيد : ليس أنا صاحب كلام منذ أمس ، ولا أول من أمس ، ولا من حين كلمت عندك ، بل أنا ثقيل القسم واللسان ، فقال الرب: من صنع للإنسان فما أومن يصنع أخرس أو أصم أو بصيراً أو أعشى ، أما هو أنا الرب ، فالآن اذهب ، وأنا أكون مع فمك ، وأعلمك ما تتكلم به ، فقال استمع أيها السيد : أرسل بيد من ترسل فمي غضب للرب على موسى وقال : ليس هارون للآوى أخاك ، أنا أعلم أنه هو يتكلم ، وأيضاً ها هو خارج لاستقبالك ، فحينما يراك يفرح بقلبه ، فنكلمه وتضع الكلمات في فمه ، وأنا أكون مع فمك ، ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان ، وهو يكلم الشعب عنك ، وهو يكون لك فماً ، وأنت تكون له إلهاً " ١ .

هذا هو موسى للتوراة لا يتق بوعده ربه ، ولا يؤمن به يقيناً ، ويطلب إليه أن يقلبه من الرسالة ، ويعينها إلى أخيه هارون ليبلغ عليه غضب ربه أشده .

١ - { خروج ٤ : ١٠-١٦ } راجع مقالنا للصادق ص ٣٩٢ .

أليس من التناقض الواضح الموقف التوراتي في هذا الشأن ؟
ألا يبعث على الاستغراب تناقض إله التوراة حين ينقلب جزء من الصنيع لرسوله موسى (ع) أن يجعل منه إلهاً لأخيه هارون ؟

وإنه ليعتد على الأسى من جانب وعلى الاستمزاز والنفور من جانب آخر على الحالة التي تزدى بها التوراة بأسباب الأيدي العابثة زيفاً وتحريفاً، وبأسباب الغفلة أو الضلالة، أو سوء الطوية من الانجيليين . ليس لنا إلا أن نرثي التوراة ونكيها لما فعله كتبتها في موساهن وغير موساهن من الأنبياء من تشويه واقتراء .
أما موسى القرآن فهو الرسول الذي اصطنعه الله لنفسه . هو الذي إيمانه أقوى ، وعقيدته أصلب إن في قلبه ، وإن في لسانه ، وإن في عمله .

إنه من النبيين الصالحين الذين لم يقتربوا إثمًا ، ولم يرتكبوا معصية ، ولم يكن للعصيان ولا للشيطان عليهم من سبيل ولا سلطان

أما قتله للقطبي فقد كان قبل النبوة ، ولم يكن نتاج العمد ، ولا حصيلة الأصرار ، إنما كان حصيلة أخلاقية الواجب الدفاعي عن الإسرائيليين الموحدين .
والقبح القبيح ما في التوراة المحرف من قذف بسع لداود النبي وأخلاقه وإيمانه .
وارتكب داود التوراة الفواحش ، واقترب المعاصي والكبائر .

ألم يرتكب فاحشة الزنا بالمحصنة ؟

ألم يقتل زوجها القائد ليخلو له أمرها ويتفرد بها ؟

ألم يرقص داود التوراة أمام الرب بكل قوته ؟

وكان وقت المساء أن داود قام عن سريريه ، وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت امرأة جميلة المنظر جدًا ، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بنت بشيع اليعام امرأة أوريا الحثي ، فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضجع معها ، وهي مطهرة من طمئنها ، ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حبلتي ، فأرسل داود إلى يوناث يقول : أرسل إلي أوريا الحثي... فأتى أوريا إليه... فقال دانو لأوريا : أقم هنا اليوم وغداً أطلقك ... ودعاه داود فأنكل أمامه وشرب وأسكره ... وفي الصباح كتب داود إلى يوناث : إجلعوا أوريا في وجه الحرب

الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ... فقتل أوريا كذلك ... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجلها نديت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة ، وولدت له ابناً . وأما الأمر الذي فعله فقبح في عيني الرب " ١ .

" إن داود الملك ولد سليمان من التي لأوريا " ٢ . ها لنذا بالإنم صوّرت وبالخطيئة حبلت بي أمي " ٣ ، إن الذي في التوراة يقضي بأن داود الأب وسليمان الابن كانا حصيلة عملية سفاح وزنى ، وكان للشجرة هذه من أصولها إلى جذوعها فساد على فساد .

وأجاب الإمام الرضا (ع) حين سئل عن هذه القصة بخلفياتها وأصولها قائلًا :
 " إن للمرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبدًا . وأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود " ٤ .

أين للتوراة أن يكون وثيقة تاريخية مأمونة وهو يحمل لنا هذه الأراجيف والأباطيل ؟ وكيف يمكن أن تكون النبوة في أشخاص نمازهم فاسدة ، وأصولهم مشبوهة ؟ وإنها لغرية دنسة . وهل يفعل هذه الأفاعيل إلا الأتلون من الناس ؟

فالأبناء إذا كانوا على هذا المستوى المنحط من السلوك فهم القدوة للطلالة السوداء رغم أنهم الأسوة الحسنة .
 أما داود في نظرية القرآن فهو قيمة أخلاقية سامية ولا شبهة فيها :

إن داود القرآني ينسجم في شخصيته مع الشخصية النبوية وما تتطوي عليه من مثل :
 ﴿ يَا دَاوُودَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ص : الآية- ٢٦ .
 ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّا لَهُ عَنَّا لَرْزَاقٌ وَحُسْنُ مَالٍ ﴾ ص : الآية- ٢٥ .

١ - ٢ صرته ١١ : ٢-٢٦ .

٢ - متى ١ : ١-٣ .

٣ - مز ٥١ : ٥ .

٤ - بحار الأنوار جلد ١١ ص ٧٤ .

داود القرآن عالي الهمّة ، قويّ الرّوح للرّساليّة ، جريء في قوله الحق ، شديد اللّوطة
في ذات الله يقحم الهول ، ويتحدّى القوى الغاشمة ، لا يهيمه دخل في الموت أم يدخل الموت
عليه طالما السّاحة لله وفي سبيل الله .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ الإسراء : الآية- ٥٥ .
﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ
لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ الأنبياء : الآية- ٧٩ - ٨٠ .
﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَانْكِرْ عَبْدُنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يَسْبِّحْنَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْضُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ
وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴾ ص : الآية- ١٧ - ٢٠ .

إنّه النّبّي المصطفى ، إنّه النّبّي الذي فضّله الله على بعض من الأنبياء بالزبور ، في
قلبه الوعي ، وفي عقله الحكمة ، وعلى لسانه الخطاب . قوّاه الله بملكه ، وسخّر له الجبال
يسبحنه ، وحشّر له الطّير أوابّة .

يا له من تكريم إلهي يخصّ به الله من عباده من يشاء ، وينتهي بنا الحديث إلى
سليمان (ع) وما نسب إليه من مقابح الأخلاق ، وما أسند إلى سلوكه من شرور ومساوئ . إن
سليمان (ع) من مبتدئه إلى خبره فاسد الطّوية في العهدين .

لقد ولد من فجور أبيه بمحضه ، وشادى به الفجور بالنساء المحرّمات المشركات
حتى كان منه الشرك بالله ، واستطال ملكه ، وقويّ سلطانه ، وأثرت خزائنه ، فأخذ بأسباب
السّرف والتّرف ، واستكبر في الناس ، وبلغ به الجور ما بلغ .

ما لإله التّوراة يصطفي أنبياءه من الأذلين أخلاقاً ؟
ألا تفسد لامة تقتري على أنبيائها بهذه الشّوهات التي تبلغ مبلغ الشرك !
ولكن سليمان القرآن معصوم كما الأنبياء معصومون .

وعصمة الأنبياء عبرة لساائر الناس ليهتدوا بهداهم ، وعصمة الملوك من الأنبياء
كداود وسليمان عبرة وحجة على الملوك لكيلا يعتزّروا في استكبارهم وعوّهم بما جباهم الله من

قوة الملك وشوكته ، فبما الحجة على الملوك الظالمين هو سليمان المعصوم عن الزلزال ومن إليه من ملوك الأنبياء ، ولا المنهمك في الشهوات والزلالات^١ .

إن سليمان القرآن هو عطية الرحمن ، إنه البرّ التقى النقي ، إنه الطاهر الذليل ، المظهر من دنس الزنا .

﴿ وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص : الآية - ٣٠ .

﴿ وَإِنْ لَهُ عُنْدُنَا لَنُتَقَى وَحُسنُ مَتَابٍ ﴾ ص : الآية - ٣٥ .

﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ص : الآية - ٣٦ .

وملك سليمان غير مسبوق بعظمته ، وليس له لاحق بأهنيته .

من رعاياه الجن والأنس والظير والريح ، وما تحت الأرض وما فوقها يجري بأمره رضا حيث أصاب . إن سليمان القرآن يبني للقيس المشتركة هراً من قوارير لتأخذ بأسباب الاعتبار ، فتؤمن لا كما زعم النوراة بأن سليمان كان رهين شهواته ، وكان لعبة النساء للمشاركات حتى ذهبن بقلبه وليماته إلى الشرك .

إنه من الذين عصم ربك بالنبوة ، وإنه الملك العادل الذي يتورع عن أن يؤذي نملة على طريق ، فما للنوراة تحكم عليه بما ليس فيه ؟

❖ العصمة في موازين الفرق :

العصمة لا إجماع إلا على بعض من جوانبها وقضاياها رغم بدايتها ، وذهب أهل النظر وقيادات الفرق فيها مذاهب . إن الاختلاف بين العلماء يرجع إلى أقسام أربعة :

- ما يقع في باب العقائد .
- ما لا يتجاوز دائرة التبليغ .
- ما يقع في الأحكام والفنيا والتشريع .
- ما ينور حول أفعالهم وسيرهم .

إن الكفر والشرك ، وإن الجحود والضلال في المعتقد قد أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء عن ارتكابهم لهذه المعاصي سواء قبل النبوة أم بعدها ، ما عدا جماعة الأزارقة من

^١ عقائدنا للمصطفى ص ٤٣٠ .

الخوارج الذين قالوا بجواز ارتكاب الأنبياء للذنوب ، وكل ذنب عند هؤلاء كفر . وورد عن هؤلاء بأنهم قالوا: يجوز أن يبعث الله نبياً علم أنه يكفر بعد نبوته^١ !

أما مسألة التلويح فقد اتفقت الأمة وجميع أرباب المثل والشرائع على وجوب عصمة الانبياء عن الكذب والتحريف فيه ، سواء كان ذلك عمداً أم سهواً . إلا أن القاضي أبو بكر البقلائي البصري الأشعري قد خرق هذا الإجماع وجوز ما كان من ذلك على سبيل التيسير وفلانت اللسان .

وأما ما يتصل بمسألة الغتيا والأحكام فقد أجمعوا على أنه لا يجوز أن يخطئوا فيها لا عمداً ولا سهواً إلا شريطة من العامة .

لكن أفعال الأنبياء قد اختلفوا فيها على خمسة اتجاهات ومواقف :

- الأول : مذهب شيعة الإمامية الذي يرى أنه لا يصدر عن الأنبياء الذنوب لا صغائرهم ولا كبائرهم ، لا عمداً ولا سهواً ، لا لخطأ في التأويل ، ولا للإسهاء من الله سبحانه .

وخالف هذا الاتجاه الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد حيث جوزا الإسهاء لا السهو الذي يسببه الشيطان ، والأئمة الطاهرون شأنهم في العصمة شأن الأنبياء .

لقد ورد في كتاب " من لا يحضره الفقيه " للشيخ الصدوق :

" بأن سهو النبي (ص) ليس كمهونا لأن سهوه من الله عز وجل ، وإنما هو إسهاء لا السهو ليعلم أنه بشر مخلوق ، فلا يتخذ رتياً ومعيداً دونه ، ويعلم الناس بسهوه حكم السهو متى يسهون ، وسهواً عن الشيطان ، وليس للشيطان على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة صلوات الله عليهم سلطان ، إنما سلطانه على الذين يتولون " والذين هم به مشركون وعلى من تبعه من العاوين " .

- الثاني : أنه لا يجوز عليهم الكبائر ، ويجوز عليهم الصغائر إلا الصغائر الخسيسة المنقرة ، كسرقة حبة أو لقمة ، وكل ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعمة ، وهذا قول أكثر المعتزلة .

^١ - (هم أصحاب دفع بن الأزرق ضروري أحد زعماء الخوارج) .

- الثالث : أنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة على جهة العمد ، لكن يجوز على جهة التأويل أو السهو ^١ .
- الرابع : أنه لا يجوز أن يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ ، لكنهم مأخوذون بما يقع منهم سهواً ، وإن كان موضوعاً عن أهمهم لقوة معرفتهم ، وعلو رتبهم ، وكثرة دلائلهم ، وإنهم يقدرّون من التحفظ على ما لا يقدر عليه غيرهم ^٢ .
- الخامس : أنه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً أو سهواً أو خطأ ^٣ .

وختلف هؤلاء الفرقاء في وقت العصمة على ثلاثة مواقف :

- الأول : العصمة تلازم الأنبياء ما بين المهد والحد ^٤ .
 - الثاني : العصمة تبدأ حين بله غمهم ، دون جواز الكفر والكبيرة قبل النبوة ^٥ .
 - الثالث : منذ النبوة ، أما قبلها فيجوز صدور المعصية ^٦ .
- إن العصمة في مذهب الإمامية هي من الضروريات كما ورد على ألسنة أئمتنا عليهم السلام ^٧ .

❖ مذهبينا في العصمة :

أنظر بليجاز ، تأمل مسرعاً تترك مطمئناً ، ويعتمد قلبك باليقين بأن القرآن الكريم يرفع الأنبياء مكاناً عليّاً ، وينزّه المرسلين عن الشّوّهات العقلية ، والنواقص الخلقية .

إن الأنبياء هم حملة الوحي ، وموطن الأمانة ، وقوة الخلاق في الفضائل وصالح الأعمال . إنهم مبرأون من جملة ما ألصقه بهم المزيّفون ، لأنهم كلمة في معراج الإنسانية .

^١ - هذا ما قال به أبو عبيد الله الخليلي المعتزلي .

^٢ - قول النّظام وحده من سنن المعتزليين ومن تبعهما .

^٣ - قول اخشوية وكثير من أصحاب الحديث من العامة .

^٤ - مذهب الإمامية .

^٥ - مذهب الكثرين من أهل الاعتزال .

^٦ - مذهب أكثر الأشاعرة ومنهم الإباضي وكذلك أبو هذيل والبخاري من المعتزلة .

^٧ - راجع تاريخ الأئمة ٨٩ و ٩٠ .

عصمتهم من التقصير في التبليغ ، والخطأ في الأداء ، والزيف عن الخط القويم ،
والانحراف عن نهج الله قد قررها القرآن بالتأكيد والتكرار .
عصمة الرسل من الضروريات القيادية في الدعوة إلى الله . من البدهة أن يكون
الأنبياء على عصمة .

وهذه العصمة من أصول الإسلام شهد بها الكتاب وأخت عليها السنة ، وقال بها
العقل ، وأكدها الأئمة عليهم السلام ، واجمعت على العصمة جميع فرق الأمة ، إلا أن لم
يتدبروا القرآن بالوعى والتفكير ، ولم يحسنوا التأويل الدقيق ، ولم يعمقوا بالفهم إلى غاية
الحقائق لأن عقولهم لم تكن غواصة جارية ، فلم تترك أهمية الرسائل ومنزلة النبوات .
ولعلها من جانب آخر قد تناولت ما عند الأمم الكتابية التي لا ترى بالعصمة واقتبست منها
وتأثرت بها .

إن الأنبياء هم أشرف الخلق ، معصومون عن الأخطاء كبيرها وصغيرها ، قبل
النبوة وبعدها ، سيواً كان ذلك أو عمداً .

❖ أدلتنا على مذهبنا :

ولم نذهب هذا المذهب في العصمة متسرعين ارتجاليين ، إنما ذلك صنعة
الاستيعاب لحقيقة النبوة ومنزلتها ، إنما ذلك وليد الدراسة الواعية من جانب
ونائج البدهة التي لا تعقيب عليها من جانب آخر .

بعض الأنبياء التوراتيين اقتصروا الأثام ، وارتكبوا المعاصي ، والكتابين يرون ذلك
إلى بشرية الأنبياء التي يلزمها النقص ، فالنبي أيا كانت منزلته ونقواه من طبيعته النقص
والله وحده المنزه .

فالأنبياء عند الكتائبيين معصومون عن الخطأ في تبليغ الرسالة ، لا سبيل إلى عصمتهم
في الأعمال العادية ، وسيزمهم الخلق طالما الطبيعة البشرية على ضعف ، وطالما هذه النفس
أثرة بالموت ، لذلك فلا عجب عندهم إذا اخطأ إبراهيم ، أو عصى موسى ، أو خالف داود أو
ارتكب إثم سليمان . لهذا ولغير هذا كانت الإنسانية أحوج ما تحتاج إلى من يخلصها من
آثامها ، وإلى فاد يحمل عنها أوزارها ، فكان الفداء الصليبي الذي اختصر الإنسانية بآلامها
ليزيح عنها كابوس الخطيئة ونتائجها .

وكأن الإنسان حسب هذا المنطق مسيراً في العصيان لا يستطيع له دفعاً ، ولا يمكنه التحول عنه . والبداية تقتضي أنه لا عصيان ولا مخالفة ولا تكليف حيث يكون الجبر ! لا ثواب ولا عقاب حيث تقتضي الإرادة .

وما هو معنى الفداء في مسألة العصيان والعصمة ؟
هل من شأنه أن يرفع عن الإنسان التسيير الإلهي لينقلب الإنسان معصوماً عن الأخطاء ؟
هل الفداء يبدل طبيعة الإنسان ، وذات الإنسان فلا يعود الإنسان إنساناً كما بُحلت طبيعة الإله ؟
لا هذا ولا ذاك بصنفان .

أليس التبدية والواقع المعاش يتعارضان مع رفع التسيير الإلهي في العصيان ليفقد الإنسان معصوماً ؟ وما هو ذا يخوض بالباطل والشر حيناً ، وبالمخالفات والخطيئات حيناً آخر ؟
أليس الفداء الذي يعصم الإنسان عن الخطأ هو نفي للملازمة الذاتية بين الإنسان والخطأ ؟ إن الإنسان يمتلكه حسن دخلي بأنه هو الذي يعمل عليه ويختار فعله .

وإن الإنسان قد تشده الشهوة النفسية إليها ليكون الفجور والشرور ولكن الوازع العقلي والرداع الشرعي يكرمان حدة الشهوة ويتحولان بها إلى دائرة الطهارة والنظافة ، وخاصّة ذلك الإنسان الذي اصطفاه ربه من بين الناس أجمعين .

وهل الله في علمه وعلمه وكمالهِ يأتمن على خلقه من لا يؤمن شره وضره ، ومن هو مثله في الضلال ؟

إن عظمة النبي في العصمة كونه حراً مختاراً يقدر على المعصية ولا يفعل إلا الطاعة والخير لأنه مكتمل الشخصية في المعنى الإنساني ، إنه إنسان الذائقة الجمالية ، والغنى النفسي ، والقوة الإيمانية ، وإن منطق العصمة يرفض الجبرية والصرقة ويتلام مع الاختيار والحرية لتصدق المسؤولية ، ويكون للتكليف موطنه الملازم ، وللثواب مكانه المنسب .

١ ' ألا ترون أن المصليين أو الذنبي لو صدر عن النبي للزم اجتماع اللصدين ، وهما وجوب متابعتها ومخالفتها ١٠ .

ولإن اتباع النبي واجب والإجماع فيه ليس فيه اختراق . يقول تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ آل عمران : الآية - ٣١ .

والأنبياء هم على سواء في وجوب الاتباع لأوامرهم ونواهيهم ولا استثناء ، ولكن إذا لم يكن النبي معصوماً واركتب معصية فهل لنا أن نقف به ونتخذ أسوة ونتبعه ؟ من البداهة إن اتباع المذنب ليس من الشرع ولا من المنطق في شيء ، إنه لحرام ومرفوض من مبتدئهِ إلى خبره .

- أي امرئ يفترى لا بد من رده وجره .
- أي إيمان تمتد يده بالإيذاء لا بد من منعه وتقريعه عملاً بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لكن أليس ذلك محرماً مع الانبياء لأنه يستلزم إيذاءهم المحرم بالإجماع :
" إن الذين يؤثرون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة " الأحزاب : الآية - ٥٧ .
- لا يليق بالنبي أن يكون غليظ القلب ، خشن الطبع ، صعب المعاشرة ، جافي الطبع .

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَكُنْتَ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاتَّخَذَ عَنْهُمْ اسْمُفِيرٌ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ آل عمران : الآية - ١٥٩ .
﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ﴾ آل عمران : الآية - ١٦١ .
ووصف موسى (ع) : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ مريم : الآية - ٥١ .
وتحتت عن إسماعيل : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَانِقَ الْوَعْدِ ﴾ مريم : الآية - ٥٤ .

إن الرسل مبشرون ومنفرون ، يلقون رسالة السماء للعباد بأمانة وإخلاص وإيمان ، والإيمان بهؤلاء الأنبياء معرفة بالله وإيمان به :
﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ النساء : الآية - ٦٥ ، ويقولون متابعا :

١ - محار الأنوار جلد ١١ ص ٩٤ .

﴿ كُنْ لِلنَّاسِ أُمَةً وَاحِدَةً قَبْلَ إِلَهِ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مِنْهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ البقرة : الآية - ٢١٣ .
فالإسلام في الآية الثانية يربط بين الرسل في الغاية .

هم جميعاً مصلحون يكافحون الشر والكفر ، ولا يهانون ولا يراؤون ، يقولون كلمتهم ويمشون نون تهيب أو وجل .
هذا اللقاء الكبير والذي لا شروط فيه يقرب بين جوانب الإنسانية ، ويزيل الأوهام الضائعة التي تضع سدوداً بين الفئات والفئات ، وتفتعل الخلافات بين مبادئ الأنبياء ، والتناقضات بين رسالات السماء . فالرسل الذين أرسلوا ليحرروا الإنسان من عبودية الإنسان والهوى والمال ، ويمدونه عن ويلات الشرور ، ويمالجوه من جنون الضلال ، وهوس الشهوات ، لا ية وأن يسلموا بأخلاقهم ، ويرتفعوا بأدابهم ، وينهضوا بذخاتهم فوق نوافه الأنبياء ، وصفائير الأمور .

لقد كانوا القادة المعلمين ، والرافدين المرشدين ، والأسوة الفذة بالحركة والقولة والفكرة والممارسة لأن رسالتهم تحتم أن يكونوا كلمة في ميزان الإنسانية حتى يكسبوا الثقة للمطمئنة من الناس .

فالرسل محمد (ص) كان يختصر الرسل جميعاً في معاكسة العصمة ، وإذا تحول نحوه الحديث فكانما تحول نحوه جميعاً . وأحدث جماعته قبل بعثته حكماً موجزاً . وكم هو بليغ ذلك الحكم الذي يلقيه بالأمين ، ويمثيه بالصديق . لقد كان في أعينهم في ذلك العصر "الصديق" وفي ميزانهم "الأمين" . هذه الشهادة التاريخية تعطينا تفصيلاً ثميناً وراقياً للصوره النفسية التي تمتلك خيالنا وتصورنا .

لعل خطبة عنه حين زواجه بخديجة تنهض شهادة أخرى وموازية لشهادة بني قومه .
يقول عنه :
" أما بعد :

فإن محمداً من لا يوزن به فتى من قریش إلا رجح به شرفاً ونبلأً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلاً فإنما للمال ظل رائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك " .

أليست هذه التطور تصلنا باطمئنان بصورة " الصادق الأمين " وتتفق من كل وجه مع الصورة التاريخية لبطل أعظم ملحمة إنسانية في التاريخ الديني .
فالأنبياء منزّهون عن ارتكاب الذنوب عدداً أو سهواً قبل البعثة وبعدها ، لأن النبي إذا لم يرتفع بين جماعته مثلاً أعلى قبل البعثة ولم يكن مكتمل الفضيلة ، فلا ينهض القدوة الموثوقة والأسوة المعلّمة .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب : الآية- ٢١ .

كيف يسمو إنسان للنهوض برسالة السماء ورسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو يخوض بما يخوض به الأثومون المشرّبون ؟
كيف يكون إنسان الأمانة الكبرى وهو لا يؤتمن على نفسه وعلى الناس في الخليفة ؟
إن الرسول الذي يكذب قبل البعثة لا يصدق أحد بعدها ؟
للرسول الذي تحيط به الشبهات وتحوم حوله الشكوك ، لا تتغير البعثة من أمره شيئاً .
من البداية أن يكون ذلك الإنسان الذي اختارته إرادة السماء سفيرها وأمينها ورسولها طاهراً في نفسه مطهراً في قلبه ، قوياً في سلوكه .

يقول السيد المرتضى :

" ... فإن قيل : لم يبق إلّا أن يدلّوا على أن تجوز الكبائر بقدر فيما هو الغرض بالبعثة من القبول والامتنال قلنا : لا شبهة في أن من تجوز عليه كبائر المعاصي ، ولا نأمن منه الإقدام على الذنوب لا تكون أنفسنا ساكنة إلى قبول قوله ، واستماع وعظه ، وهذا هو معنى قولنا : إن وقوع الكبائر ينفّر عن القبول ... "

فإن قيل : فهذا يقتضي أن الكبائر لا تقع منهم في حال النبوة ، فمن أين لنا أنها لا تقع منهم قبل النبوة ، وقد زال حكمها بالنبوة المسقط للعقاب والذم ، ولم يبق وجه يقتضي التفتير ؟ قلنا : الطريقة في الأمرين واحدة ، لأننا نعلم أن من تجوز عليه الكفر والكبائر في حال من الأحوال وإن تاب منه وخرج من استحقاق العقاب به لا نسكن إلى قبول قوله مثل سكوننا إلى من تجوز ذلك عليه في حال من الأحوال ، ولا على وجه من الوجوه ، ولهذا لا يكون حال الواعظ لنا ، للداعي إلى الله تعالى ونحن نعرفه مقارفاً للكبائر مرتكباً لبعضهم الذنوب ، وإن كان قد فارق جميع ذلك وتب منه ، عندنا وفي نفوسنا كحال من لم يبعد منه إلّا النزاهة ولطهارة ، ومعلوم ضرورة الفرق بين هذين الرجلين فيما يقتضي السكون والنفور .

ولهذا كثيراً ما يميز الناس من يهدون منهم القيتاح المتقدمة بها ، وإن وقعت التوبة منهم ، ويجعلون ذلك عيباً ونقصاً وقادحاً ومؤثراً ... الشيطان قد يشتركان في التفسير وإن كان أحدهما أقوى من صاحبه ، ألا ترى أن كثير السخف والاستمرار عليه والانهماك فيه منفر لا محالة ، وإن القليل من السخف الذي لا يقع إلا في الأحيان والأوقات المتباعدة منفر أيضاً... ؟

فإن قيل : فمن أين ، أن الصغائر لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام في حال النبوة أو قبلها ؟

قلنا : الطريقة في نفي الصغائر في الحاليين هي الطريقة في نفي الكبائر في الحاليين عند التأمل ، لأننا كما نعلم أن من نجوز كونه فاعلاً لكبيرة متقدمة قد تاب منها ، وأقلع عنها ، ولم يبق معه شيء من استحقاق عقابها ونمها لا يكون مكوناً إليه من لا نجوز ذلك عليه . فكنك أن من نجوز عليه من الأنبياء عليهم السلام أن يكون مقدماً على القيتاح نجوز عليه فعل شيء منها " .

ومن الذي لا شك فيه أن الذي يقول بجواز صدور الصغائر عن الأنبياء يلزمه القول بجواز أكثر الذنوب وعظائمها ، بل لا فرق بينه وبين من يقول بجوازها جملة .

إن الإنسان الذي يرتكب الفواحش لا يصلح لرئاسة الدين والدنيا ، ولا بد أن تكون النفوس منه نافرة مجانية ، بل يرفض الشرع والأخلاق والناس أن يكون هذا الإنسان واعظاً عادياً ، فكيف لنا أن نجوز ارتكاب المعاصي ممن قال تعالى فيهم : ﴿لِلَّهِ يُصْطَلَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ الحج : الآية - ٧٥ .

" وإذا ثبت بطلان هذا النوع من التنزيه أمكن التمسك في إثبات ما ذهب إليه أصحابنا من تترهم صلوات الله عليهم عن كل منقصة ، ولو على سبيل السهو والتيسير من حين الولادة إلى الوفاة بالإجماع المركب ، ولا يضر خروج شاذ من المعروفين من أصحابنا بعد تحقيق الإجماع كما يقول المجلسي " .

عجبا : كيف لغير الصالح أن يكون مصلحاً ، ولغير المنتهي عن المنكر أن يكون ناهياً عنه .

^١ - سيد المرتضى ، كتاب تنزيه الأنبياء ، جامع كتاب : مدار الأنوار جلد ١١ ص ٩٤ .

^٢ - البحار ، جلد ١١ ص ٩٤ .

الذي نذهب إليه ونحن على يقين منه هو أن المبادئ بأهلها وبالقائمين عليها كما هي بذاتها تأثيراً وفاعلية من حيث الجذب والتدفع ، من حيث قبول الناس ورفضهم .
كان النبي الذي يقترب الأتنام يشد أثر العصاة ، ويخلق لهم تبرير العصيان ، ويدعم موقفهم في الانحراف ، وبضيف إلى أهوائهم منطقاً لا يصدّها أو يردعها إنما يشجعها على مواصلة طريقها الضال .

أليس الرسل حجج الله على خلقه حين يهدونهم ؟

كيف ينهضون بتلك الحجج وهم عصاة مخالفون ؟

لا إخال الأنبياء إن عصوا إلا مشجعين للخطأ فيما يقتضون حيث يقتدون بهم ليكونوا حجة على الله بالرسل حيث يعصون ، بينما الغاية من بعثة الرسل أن يكونوا هم حجج الله في الناس .

من أظهر معائب المرء أن لا تتماشك شخصية الإنسان ، ولا يشك بعضها ببعض لتكون الازدواجية والانفصال بين القول والعمل ، بين الظاهر والباطن ، بين الفكرة والحركة .

وهذا هو القرآن الكريم بغضب أشد الغضب على هذا الإنسان الذي لا هوية له ولا ميزان ، ويتمزق بين قوله وعمله . إن القرآن ينهي بحزم وحسم أن يأمر تارك المعروف بالمعروف ، وإن ينهي فاعل المنكر المنكر لأن ذلك سخرية بأحكام الله ، ولأن ذلك ركّام من انقصاد بعضه فوق بعض .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة : الآية - ٤٤ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَثِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ الصف : الآية - ٢-٣ .

والنبي شعيب (ع) يدرك أهمية القدوة إن في الخير وإن في الشر كما يعلن إلى بني قومه بأنه متماشك الشخصية وأنه لا فصل بين عمله وقوله في تنهي عن المنكر :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنِّي أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود : الآية - ٨٨ .

الله لطيف بعباده ، يرسل رسله رحمة للعالمين .

والرسل هم حجج الله على خلقه ، ولو عصوا لكانوا حججا على الله فيما يخالفون ، ويعصي العاصون .
 ألا يحق للعصاة أن تكون حجته في عصيانهم أن يقولوا بقوة وثقة :
 ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا مَنَازِنَتَنَا وَكَبَّرْنَا عَنْهَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ ﴾ الأحزاب : الآية - ٦٧ .

في ظل هذا المفهوم الذي لا يقول بعصمة الرسل تنتفي ظاهرة اللطف من الله بعباده لتتقلب بعنة الرسل لغوا لا خير فيه بل تتقلب سلبية أكثر مما هي إيجابية لأنها تحمل معها بأسباب أشخاصها وحملت الضرر أكثر مما تحمل النفع .
 ليس الله بإمكانه أن يصطفي لتحقيق لطفه بالخلق رجالاً منزهين معصومين في التبليغ والفن والقول والعمل ليكونوا حجة الله لا حجة على الله .

أن نقول : لا عصمة للأنبياء وكأننا تصدر الأحكام الآتية :

- ١ . الله يجهل بما سوف يصدر عن نبيه من خطأ وعصيان .
- ٢ . أو أن الله عاجز عن اصطناع واصطفاء المعصومين من عباده .
- ٣ . أو أن الله بخيل على عباده حيث ترك لهم اصطفاء الأشرف رغم علمه وقدرته .

والعقل والنقل يرفضان أن يكون شيء من هذا علم الله وقدرته وعدله ولطفه وحذانه اللامتناهي ، لذلك فلا سبيل لتصديق نبوة غير المعصوم ليغدو عدم العصمة في مدعي النبوة من أدلة كذبه في دعواه^١ .

إن النبي إذا أخطأ في تلقي الوحي أو في تبليغه أو أنه تمرّد على الأوامر والنواهي في ممارساته فإن طاعته إما أن تكون واجبة على إطلاقها أو أنها محرمة على إطلاقها أو أنها واجبة عند موافقته الحق ومحرمة عند مخالفته ؟

ألا يلاحظ من الافتراض الأول وجوب مخالفة الحق بأمر الله عند خطأ النبي أو عصيانه رغم حرمة هذه المخالفة ؟

ألا يصبح إرسال الرسل لغوا بمقتضى الافتراض الثاني حيث لا تجب طاعتهم ؟

^١ - كتاب عقائد الصادي ص ٣٢٧ .

وأخيراً ألا يقتضي الافتراض الثالث بأن الناس هم أكثر معرفة بالحق وبالباطل من الرسل حيث يوافقونهم في الحق ، ويخالفونهم في الباطل ، أو أن يؤمروا بذلك على جهلهم تكليفهم بالمحال ، فإن كانوا يعرفون الحق دون بلاغ من الرسل ، إذ لم يكونوا بحاجة إلى الرسل ، وإن كانوا لا يعرفون فكيف يكلفون أن يطيعوهم في موارد الصواب ، ويعصوهم في غيرها ؟^١

وهل تقبل شهادة النبي لو أقدم على فساد وإفساد ، على فسق وعصيان ؟
﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ للحجرات : الآية- ٦ .

ألا يكون الانسان العادي الملتزم بإيمانه العادل بموقفه احسن حالاً ، وأكثر ثقة من النبي حيث شهادته مقبولة لا مردودة رغم أن النبي شهادته موثوقة في التبليغ ، ومقبولة في الدين القويم ، وهو الشهيد على الكل يوم الدين ؟
﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة : الآية- ١٤٣ .

إن الأنبياء لهم درجات العلى ، خصهم الله بالاصطفاء ، وجعل منهم على وحيه أمناء ، وفي عبادته وبلاده خلفاء .

لكن ألا تتقلب درجاتهم خفيضة دون العصمة ؟
ألا يتجاوزهم عصاة الأمة رقماً ، أو أرقاماً في المنزلة لولا التنزه البديهي ؟
إن ارتكبت الأنبياء للمعاصي ، والإعراض عن الأوامر الإلهية هما أشد بشاعة ، وأقبح وجهاً من مآتي العصاة ؟

ليس عجباً أن يستحق الأنبياء بدون العصمة المذاب واللعن والتفريع على ما يعصون ويظلمون ويعتكون :

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ النساء : الآية- ١٤ .
﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هود : الآية- ١٨ .

^١ - المصدر السابق ص ٣٦٨ .

أليس ذلك باطلاً بالضرورة ؟
أو لم يكن مردوداً ذلك بالإجماع ؟

وقال تعالى على لسان إبليس :
﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ص : الآيات-٨٢-
٨٣ .

وتابع تعالى قوله مخرجاً الأنبياء من دائرة إبليس في الإغواء :
﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرْنَاهَا الْذَّكْرَ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾ ص : الآيات-
٤٥-٤٧ .

والعصمة هي على سواء بين الأنبياء ، فإذا ثبتت في البعض ثبتت في الكل لأنهم على
سواء في الاصطفاء والاختيار .
وهؤلاء هم في الآيات إبراهيم وإسحق ويعقوب من المصطفين الأخيار ، ومن
المخلصين الأبرار الذين هم بنجوة من إغواء الشيطان !
وهذا يمكن أن يكون الأنبياء من حزب الشيطان وتباعه الأخسرين أعمالاً ، الضالين
سبيلاً :

﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ المجادلة : الآية- ١٩ .

إن النبوة عهد قدسي ، وأمانة لا تقل ، وميثاق لا أعظم ولا أوثق :
﴿ لَا يَتَأَلَّ عِثْبِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة : الآية- ١٢٤ .
فالرسل بشر يتفكرون مع صفات الناس في أعرق أوصاف البشرية .

والرسول (ص) الذي يختصر الأنبياء عليهم السلام رفعة وشرفاً قد ألح القرآن على
بشريته لينتزه التوحيد عن كل كدرة وشائبة :
﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ فصلت : الآية- ٦ .
بهذا التجانس الكامل ، وبهذا الالتقاء الكبير بين الرسل والناس في الجنسية يتوسر
الأخذ عنهم فيما يقولون ويفعلون .

لكن نفوسهم قد تسامت إلى مكانة رفيعة في الصفاء المشرق ، والكمال الأشرف
ليخصهم الله بنصطفائه ، وبصحو جديرين بالتلقي لوحى الله عن ملائكته ، والاحتفاظ بما
يتفون به القلوب الواعية ، والذاكرة الحافظة ، ليبلغوه إلى الناس دون تحريف :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلُّ صُنَاجِكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ النجم : الآيات ١-٤ .

فالأنبياء أشرف الخلق ، معصومون عن الأخطاء بالمطلق .

ولعل مسؤولية النبوة أخطر المسؤوليات ، ولعل صاحبها أكثر علماً بالله ، وأشد قرباً
منه ، وأرفع منزلة عنده ، وأسوأ من جهل الجاهل خيانة العالم ، ومسؤولية الإنسان بمقدار ما
يعلم ، وبمقدار ما هو قادر أن يعلم .

ليس من المنطق في شيء أن يتسارى الرسول والآخرين بجواز ارتكاب المعاصي ،
وإن بصغائرهما لأن ذلك يفقده خصوصية القوة ويرفع الصالحين بل العصاة فوقه منزلة
ورفعة .

الأنبياء منزّهون بالمعنى الإنساني لأن عصيانهم وإن لم يمس أئمتهم على
المعصية ذاتها ، ولكن الأنبياء يأمرون بالضلال لا بالهدى ، وبالمعصية لا بالطاعة ، وهذه
الظاهرة يرفضها الدين والعقل والبداية ، ﴿ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبَهِدَاهُمْ فَقَدِ الْأَنْعَامَ :

الآية - ٩٠ .

﴿ وَمَنْ يَطْع اللَّهَ وَالرَّحْمَنَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ
وَالْمُهَذَّبِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ :
وَالْمُهَذَّبِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ : الآية - ٦٩ .

وكيفما انقلب الأمر فالعصمة عن الخطأ في التلويح والتلويح ، والمعصية التي تنافي
العبودية لا تعقب عليها ، ولا شبهة فيها ، لتكون العصمة بإيجاد سبب في الإنسان الطبيعي
تصدر عنه أفعاله الاختيارية صواباً وطاعة لأن النبي فيه هيئة نفسانية لا تخشى في تلقي
المعارف وتبليغها ولا تعصي في العمل .

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ
فَهَذِهِ أُلُوهُ الَّذِينَ أَمَنُوا إِذَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ حَقِّ بَيِّنَةٍ ﴾ البقرة : الآية - ٢١٣ .

ولئن دلت الآية على شيء فإنما تدل على أن الله بعث الأنبياء بالتبشير والإنذار ، وإنزال الكتاب ، وهذا هو الوحي ، ليبيّنوا للناس الحق في الاعتقاد ، والحق في العمل ، ويهدوهم إلى سواء السبيل في ذلك . وهذا هو غرضه الأهم سبحانه من بعثة الرسل عليهم السلام . قال تعالى :

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ طه : الآية- ٥٢ .

فإنه الذي له المثل الأعلى لا ضلال في فعله ، ولا خطأ في شأنه .

ولئن أراد الله شيئاً فإنما يريد من طريقه الأمين الذي لا يخطئ في إيصاله ، ولا يضل في سلوكه .

كيف لا يكون الله إلى كل ذلك ، وبيده الخلق والأمر ، وله الملك والحكم ؟

لقد أرسل الله أنبياء بالوحي إلى الناس للهداية ، وليس ذلك إلا أن يتم ، كما وأرسلهم بالرسالة للتبليغ ولا بد أن يكون ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ الطلاق : الآية- ٣ .

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ يوسف : الآية- ٢١ .

وهل لله أن يكون مريداً وغير مريد ، أسراً وناهياً ، محتجباً ومبغضاً بالنسبة إلى فعل واحد بعينه . إن الأنبياء معصومون من المعصية والمخالفة في التلقّي للوحي فلا يخطئون ، ومن جهة حفظه فلا ينسون ولا يحرقون ، ومن جهة إلقائه إلى الناس وتبليغه لهم قولاً وعملاً ، ولا يفترون معصية صغيرة ولا كبيرة لأن في الفعل تبليغاً كالقول .

❖ شبهات وإيضاحات :

لحديث العجول ، الدراسة غير الأصلية ، البحث الذي يفصل الآية عن الروح العائمة أو الكلية للقرآن ، الموقف الشخصي المغالط ، هذه جميعاً تجد في آيات قرآنية تشير بظاهرها إلى أحداث جرت على أيدي الرسل ، وتزرع الريب والشكوك في العصمة بل وتتسفعها نسفاً .

الدراسة للقرآنية في سبيل أن تكون بنجوة من الشوائب والتهافت ينبغي أن تتزود بالأمور الآتية :

١ . الموضوعية المبرأة من المؤثرات الشخصية والتجرد من الحكم المتلفي .

٢. عدم الغربية ثقافياً عن الحركة النبوية في تاريخها ومناخها وأبطالها .
٣. المعرفة بأسباب الفُزول للآيات القرآنية خاصة .
٤. معرفة أصيلة بتعاليم الشريعة وروحيتها وخصوصياتها .
٥. إلمام واسع بفقهِ اللغة وأصوله وقواعده .
٦. ثقافة عقلية وأدبية غنية وذائقة جمالية مرهفة .
٧. قدرة على التمييز والاستنباط .

وقال الإمام الرضا (ع) لعلّي بن الجهم الذي أنكر العصمة :

"ويحك يا عليّ ، أتق الله ، ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش ، ولا تتأول كتاب الله برأئك ، فإنّ الله عز وجل يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ آل عمران : الآية- ٧ .

والراسخون في العلم هم الأمة المجتوبون عليهم السلام ، ومن تخرّجوا من مدارسهم ، واستحقوا إجازاتهم وتقتهم .

١- ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُنْكَ لِبَعْضٍ عَٰدُو فَاٰمًا يٰٓأٰدِمُ كُلُّكُمْ مِّنِّي هٰذَا فَمَنْ آتٰبَعِ هٰذَا فَا لَا يَصِلْ وَلَا يَشْفٰى ﴾ طه : الآية- ١٢١ .

- اختلفت في هذه الآية الآراء والتفسيرات حسب اختلاف المذاهب في عصمة الأنبياء .

- إن الغيّ هو خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع ، والغيّ هو غير الضلال الذي هو الخروج من الطريق ، تفسير الغيّ بمعنى الضلال مردود .

لعل الأخذ بأسباب الغيّ هو ترك الأولى كآكل آدم من الشجرة ، وإنها لمعصية تحمل معنى مخالفة الأمر الإرشاديّ الناصح لا أكثر .

يقول الرضا (ع) :

"فإنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم حجة في أرضه ، وخليفته في بلاده ، لم يخلقه للنّجّة ، وكانت المعصية من آدم في النّجّة لا في الأرض لتتمّ مقادير أمر الله عزّ وجلّ . فلما أهبط

إلى الأرض وجعل حبة وخليفة عصم بقوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران : الآية- ٣٣ ... وقال تعالى لآدم : ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ البقرة : الآية- ٣٥ ... لم يقل لهما لا تأكلَا من هذه الشجرة ولا مما كان من جنسها ، فلم يقربا تلك الشجرة وإنما أكلَا من غيرها . لما أن وموس الشيطان إليهما ، وقال : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠) وقاسمتهما إني لكما لمن الناصحين ﴿الأعراف : الآيات- ٢٠- ٢١ . ولم يكن آدم وحواء شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ، فأكلا منها ثقة بيمينه بالله ، وكان ذلك من آدم قبل النبوة ، ولم يكن ذلك بجنب كبير استحق به دخول النار ، وإنما كن من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي ، فلما اجتباه الله وجعله نبياً كان معصوماً لا يئنب لا صغيرة ولا كبيرة ﴿لَسْمُ اجْتِبَاءُ رَبِّهِ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَذَى طه : الآية- ١٢٢ .

لقد كان لآدم أن يأكل من كل الثمار سوى شجرة واحدة . ولقد كانت هذه الشجرة تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيده الشخصية ، والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد ، فلا تستبعداها الرغائب وتقهرها ، وهذا هو المقياس الذي لا يخطئ في قياس الرقي البشري والشخصية البشرية .

من أجل ذلك شاعت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعدّه لخلافة الأرض في الجنة قبل مسؤوليته التي سينتدب لتحملها ، وذلك لاختبار إرادته ، وتبنيه قوة المقاومة فيه ، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان ، وإرادته وعهده للرحمن .

٢- قال تعالى على لسان نوح في قومه :

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ (٢٤) ... وقال نوح رب لا تفرج عني الأرض من الكافرين دياراً ﴿الآيات- ٢٤- ٢٥ .
﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي وَأَعْيَيْتُكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَكْثَمُ الْخَاكِينَ﴾ (٤٥) قال يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُنَادِنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّنِي آعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٤٦) قال رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿هود : الآيات- ٤٤- ٤٦ .

٣- اتهام وإرتياب :

لقد أثار الكتّابيون والمُشكّكون في العصمة حول نوح (ع) تساؤلات اتّهام وارتياب في سلوكه وأخلاقه وعقيدته .

- نوح القرآني يدعو على المشركين والظالمين والكافرين بزيادة ضلالتهم وانحرافهم كما يدعو عليهم بالإعدام والإفناء .

-- نوح القرآني يتوسل لابنه الجاحد أن ينقذه الله من الغرق مع العصاة للكفار .

- الله يهتد نوحاً ويزجره ويقرّعه على فعلته .

- نوح للقرآني يصرع مترجعاً ليستغفر ويطلب من ربه الصّحّ الجميل .

- ألا تشير هذه المواقف لنوح بين الدّعاء بالشرّ على الظالمين الكافرين وبين

الاستغفار إلى الذنب المرتكب ، وإلى الخفة في العقيدة ، وإلى التّأثر بالمشاعر

الأبويّة على حساب الحقّ والإيمان وقضاء الله ؟

عجباً أيّ سبب لهذه المفتريات المشبوهة الجاهلة !

ويمكننا الإجابة على هذه المزاعم المتهافّة بالتوجهات الآتية :

ا- يكذب قوم نوح دعوة نوح استكبراً ألف سنة إلا خمسين ؟

ألم يعتدوا عليه بالظلم والشتم والاستهزاء بما لا يطاق ؟ ولقد كان الصّابرين المحتسبين

رجاء أن يصرّب الإيمان إلى قلوبهم ، وبلغ اليأس في قلبه ما بلغ ليلجأ إلى ربه شاكياً

مستعيناً . وماذا كان الوحي ؟ وحسم للوحي الأمر بقوله :

﴿يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هود : الآية- ٣٦ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْزِلَتْهُمْ آيَاتُ الْبَيِّنَاتِ أَمْ لَمْ تُنْزِلْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ البقرة : الآية- ٦ .

ب- وجادلوه فأكثرُوا جداله ، وحاوهم فتطاولوا واستكبروا وسفّهوا وانتهوا إلى التّحدي

البحود بقولهم :

﴿يَا نُوحُ هَذَا جَدَلُكَ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَلْيَبْأِ بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٣٢) قَالَ

إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْجِي إِنْ أَرَنْتُ أَنْ

أَنْصَحَ لَكُمْ ... هود : الآيات- ٣٣-٣٢ .

ج- لقد كان قوم نوح الفجار والكفار . لقد كانوا يعيشون في الأرض فساداً وإفساداً . لقد تمادوا جهلاً وغبياً ، وأمعنوا اعتداءً وبغياً ، وأصبحوا كائنات سامة وفاتكة ولا خير منهم يرجى ، ولا أمل فيهم بيمان .

أليس فرضاً مفروضاً ، واجباً محتوماً إبادة الجراد القاتل ، والجراثيم القاتلة ، والأوبئة الضارة ؟ أليس مطلباً إنتاجياً قطع الأغصان الينوسة والمعرضة في الشجرة ؟ لقد تأصل الفجر في نفوسهم ، والكفر في قلوبهم ليضلوا العباد ، ولا يسدوا إلا الفجار والكفار لأن الفجر ينزو من دمائهم ، والكفر يتأصل في الأصلاب منهم والأرحام .

كيف لنوح ، وقد أصبح قطعة من العذاب من شرهم ، لأنهم كانوا المعوقين لكل خير ، والمحاربين لكل حق ، كيف له أن لا يدعو عليهم بالتمار والبوار ؟
د- لقد كان من الله الوعيد والتحذير أن يأخذهم بالعذاب الشديد ، وكان منه الإنذار والتهديد أن يستأصلهم بكفرهم قبل أن يرسل نوح دعاءه ، وبعد أن أرسله إن استمر بهم الفسوق والجحود .

وهل كان دعاء نوح محظوراً عقائدياً ؟
وكيف استجاب الله لهذا الدعاء وجعل قوم نوح بطفاً لطوفان جاسح غطى السهول والجبال لو كان الخطر ؟
هل من اللخير أن يدوم الكفر ويستمر الفساد والظلم ؟ وكان شأن قوم نوح كالذين يقتلون صنّاع حياتهم ، أو كالعبيد الذين يشترون القيود على أيديهم خشية الحرية .

ألا إن أولياء الله لا يلتسمون منه إلا وفق مشيئته ، ولا يتصرفون إلا ابتغاء مرضاته ؟ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَرْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا سَبْكَارًا ﴾ الآية- ٥ .

هـ- إن الأشياء بأسبابها الطبيعية وغير الطبيعية .

ولم يكن دعاء نوح (ع) على قومه أن يرغمهم الله على الضلال ليزدادوا ضللاً ، إنما كان عرض دعائه أن يدعهم الله في غيهم يعمهون ، وأن يذرهم في ضلالهم يتردّون ، والضلّال لا ينتج إلا الضلال .

إن الأفعال بأسبابها ودوافعها ، والإنسان ليس مجبراً على ضلال أو هداية إنما نفسه هي المرجع والمصدر .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الرعد : الآية - ١١ .

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين : الآية - ١٤ .

د- قال تعالى :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنِّي وَغَدَاكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود : الآية - ٤٥ .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَلِّهِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ هود : الآية - ٤٦ .

هل تعيد الآية الأولى أن نوحاً طلب من ربه ما ليس له فيه حق بشأن ابنه الكافر ؟

إن هذه الآية تحتاج إلى إيضاحات كاشفة ، وذلك لدقتها في التركيب والمداول . لذلك لا يمكننا أن نرسل الحكم فيها على عجل ، وإلا كان ارتكاسنا في الزلل والخطأ . إليكم المشكلة بمراحلها ، والدراسة بخطواتها :

أ- هذه الآية للكرامة ليست طلباً من الله بالعفو عن ابنه الكافر ليكون مسأخوذاً بالعاطفة الأبوية ، ولكنها مقامة لسؤال يقول : كيف اجتمع هلاكه مع وعد الله أن ينجي أهله وابنه من أهله ؟

ب- السؤال لا يتجاوز الاستفسار عن حكمة الله في ذلك ؟

ج- حين قال نوح عن ربه " وأنت أحكم الحاكمين " كان يعلن عن بالغ تسليمه لربه ، وأنه الحق ، وأن حكمه العدل ، وأنه الأكثر حكمة بين الحاكمين .

د- لقد كان أقصى ما يبغيه هو أن يرتفع غطاء الجهل عن الحكمة الإلهية ، وأن ينمو علمه بأسرار هذه الحكمة وحقيقتها .

• ما كان من نوح إلا إرادة السؤال لا الدعاء . ولما كان في السؤال ما قد يتعارض مع التسليم له أدركته العصمة الإلهية في سبيل ألا يقع في محذور السؤال فنجاه ربّه عنه قللاً:

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَاحِبْهُ مَا فِي بَيْتِكَ بِهِ عَسَىٰ إِنِّي أَعْطِيكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود : الآية - ٤٦ .

أنيس في هذه الآية لطف من الله بنوح (ع) حين يجيبه عما جهل من وجه الحكمة قيل سؤاله ؟

أنيس في هذه الآية رحمة من الله بنوح حين نهاء عن هذه الأسئلة التي قد تقوح منها راحة عدم التسليم بحكم الله وقضائه ؟

و- وانتهى نوح (ع) عما أراد فلم يسأل ولم يجهل .
ز- إن النهي الإلهي لم يكن عما فعل نوح (ع) بل كان عن محذور لم يفعله . إن النهي كان عن شيء قبل ارتكابه لا عن تركه بعد فعله . ليست هناك أية دلالة تدلنا على أن نوحاً سأل وجهل ، بل أن قوله تعالى " إني أعطيك أن تكسون من الجاهلين " يدلنا على النهي عن جهل مستقبل لو سأل ، ولو كان السؤال متحققاً قبل ذلك لكان حقّ الكلام : لماذا تجهل مقام ربك في سؤالك ما ليس لك به علم ، فإنّك أن تركز من هذه الجهالة ^١ .

ح- ولئن كان هناك من سؤال يبغى كشف الأسرار للحكمة الإلهية في هلاك ابنه فما هو هذا السؤال بمحرّم في التشريع الإلهية العامة كشراب الخمر وما إليه ؟
ط- لم يناد نوح ربّه في زوجته رغم ندائه في ابنه ، وقد يستأنس من ذلك أنه ما كان يعلم كفر ابنه حيث ينهاء أن يكون مع الكافرين حين عزل نفسه خلال الطوفان :
﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ هود : الآية - ٤٢ .

ي- ليس في القرآن إلماحة إلى حزن نوح أو نأسقه على غرق ابنه .

^١ - راجع كتاب : عقائدنا ص ٣٥٠ .

ويخلص بنا القول إلى أن نوحاً (ع) بذل الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم لهداية بني قومه الضالين المضلين ألف سنة إلى خمسين ، وكانت الحصلة مريّة . ولكن الرسالة هي الرّسالة .

وبعد كلّ الجهاد الطويل ، والعناء المرير ، والتّوجيه الرّاشد ، والتّوير المرشد وبعد الإنذار الصّاعق ، والوعد بالمال والبنين والرخاء كان العصيان الوقح ، وكان الضلال في السير وراء القيادات المضلّة التي تخذع الاتباع والأشباع بما تملك من مظاهر الجاه والسلطان والمال .

لم يكن بدّ من الدّعاء على هؤلاء الظّالمين الماكرين الكائنين بالضلال والبوار بعد أن استيقن نوح بأنّه لا خير في هذه القلوب العاتية ، وبعد أن أدرك أنه محال هدايتها ، وأنّها لا تستحقّ النّجاة .

لقد كان لا بد من غسل يطهر وجه الأرض من الشرّ العام ، فكانت دعوة نوح (ع) السّاجدة السّاحقة ليمسّجيب الله للدّعاء ، فتكون الإبادة لكلّ العاتين الكافرين أيّاً كان العلّون الكافرون وإن كانت زوجة نوح وابن نوح .

٤- العبادة زمن إبراهيم :

قال تعالى في إبراهيم : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْنِ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَفِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ الأنعام : الآيات - ٧٩-٧٦ .

قال الرضا (ع) :

" إن إبراهيم (ع) وقع إلى ثلاثة أصناف : صنف يعبد الزهرة ، وصنف يعبد القمر ، وصنف يعبد الشمس . فلما جنّ عليه الليل رأى الزهرة فقال : " هذا ربّي " على الإنكار والاستخبار " فلما أفل الكوكب " قال لا أحبّ الأفلين " لأنّ الأفول من صفات الحدث لامن صفات القدم " فلما رأى القمر بازعاً قال هذا ربّي " على الإنكار والاستخبار " فلما أفل قال لننّ لم يهني ربّي لأكونن من القوم الضّالّين " يقول : لو لم يهني ربّي لكنت من القوم الضّالّين " فلما " أصبح والشمس بازغة قال : " هذا ربّي هذا أكبر " من الزهرة والقمر على

الإنكار والاستخبار لا على الإخبار والاقرار^١ فلما أفلت^٢ قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس : ﴿... قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام : الآيات - ٧٨-٧٩ . وإنما أراد إبراهيم بما قال أن يبين لهم بطلان دينهم ، ويثبت عندهم أن العبادة لا تحقّ لما كان بصفة الزهرة والقمر والشمس ، وإنما تحقّ العبادة لخالقها وخالق السموات والأرض^٣ .

كلمة فصل تقال إن نسبة الربوبية إلى النجم والقمر والشمس لم تكن وليدة شكّ بئدئ ذي بدء في نفس إبراهيم (ع) إنما كانت حاجة ناجحة على عبدة النجوم مؤسمة على ما يقبلون ، لتنتهي تزييفاً لما كانوا يعتقدون ، وإنها محجة بالغة ، وإنها لأقوى الحجج وأقربها إلى القبول أن يعتبر مقبول الخصم حقاً في ظاهر الحجاج لاستجلاب بالغ نظره فيه ثم القضاء عليه من مجاري تفكيره .

وإنها لبراعة في المنطق حين يخاطبهم على قدر عقولهم وبما يفهمون ، ودخل عليهم منخل المعجب بألهمتهم ولكن اغتصمها فرصة حين كان أقول هذه الكواكب المعبودة . هل الله يغيب ؟ هل الله يتبدل طبيعته من حال إلى حال ؟ هل الله هو أسير التنقل والتبدل ، للشروق والغروب ؟ ليس في ذلك العيب والنقصان والخلال ؟

وخاطبهم بالحسن والبداهة ، وحاورهم بلغة العقل والبرهان ، وبالاسلوب الذي به يفهمون ، واستطاع أن يثبت أن الكواكب المتنقلة والمتغيرة لا سبيل لها أن تكون آلهة ؟ وكيف يصحّ ألا يكون لها خلق يخلقها ، ويدير أمرها ؟

أنظر إلى القوة في المحاجة ، وأنه لطريق في الحوار حكيم ، ومنهج في الحجاج قوي .
أنظر إليه كيف يحاكمهم في اعتقادهم ولا يعلن مخالفتهم ، أو يسفّه أحلامهم .
أليس ذلك ادعى إلى إنصاتهم لمقالاته ، وتفهمهم لحجته ؟

وبعد أن اطمأن إلى تجاوبهم انقضّ على قولهم ينقضه من طريق خفيّ ينبئ عن سداد رأيه ، ونفاذ بصيرته . حيث قال بعد أقول الكوكب "إني لا أحب الأفلين"^٤ .

^١ - معجم الأتوزر مجلد ١١ ص ٧٩ .

وكيف يأكل الإله ، ويكون حائناً ومتغيراً كخلقه ؟

وانتهى إلى التبرؤ مما يشركون بعد أن أفل الكوكب والقمر والشمس ليختم الحوار

بقوله : "وما أنا من المشركين" لتكون حجة الله :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ...﴾ الأنعام :

الآية- ٨٣ .

٥- قال تعالى :

﴿وَلَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ النقرة : الآية- ٢٦٠ .

قال للرضا (ع) إن الله تبرك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم أني متخذ من عبادي خليلاً إن سألني إحياء الموتى أجبت ، فوقع في نفس إبراهيم أنه ذلك الخليل فقال : رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال لو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " على الخلقة " قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم " ، فأخذ إبراهيم نسراً وبطاً وطاووساً وديكاً ، ففطعن وخططن ثم جعل على كل جبل من التيجال التي حوله - وكانت عشرة - منهن جزءاً ، وجعل مناقيرهن بين أصابعه ، ثم دعاهن بأسمائهن ، ووضع عنده حباً وماء ، ففتطابرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان ، وجاء كل بدن حتى انضم إلى رفيقه ورأسه ، فخلى إبراهيم (ع) عن مناقيرهن فطرن ثم وقعن فشرين من ذلك الماء " ، والتقطن من ذلك الحب ، وقلن : يا نبي الله ، أحييتنا أحيك الله ، فقال إبراهيم (ع) بل الله يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ^١ .

لعل التشكيك الذي لثاره البعض حول الإيمان الإبراهيمي القرآني هو أن إبراهيم الخليل (ع) كان يشك بالمعاد الجسماني ، ويشك في قدرة الله على إحياء الموتى وإن ذلك لمؤثر على ضعف هذا الإيمان وخلله ، فإن إبراهيم الخليل والعصمة ؟ أين هو واليقين في إيمانه ؟

قيل في تأويل هذه الآية وهذه المسألة أقوال منها :

- أن الخليل (ع) رأى يوماً جيفة تمزقها السباع ، فيأكل منها سباع البرّ ودواب البحر وأكلة اللحوم من الطير فسال ربه الذي يجمع هذه الجيفة من بطون هذه السباع ويحيها أن يريه كيفية ذلك الإحياء معيّنة ، هذه هي شبهة الأكل والمأكول حيث اشتملت على وثوب الحيوانات بعضها على بعض ، وأكل بعضها البعض ، ثم فرّعت على ذلك تعجّب إبراهيم وسؤاله .

- إن نواقع السؤال هي منازعة نمرود إياه في الإحياء .

لقد قال له نمرود وهو يجانله في الحقيقة الإلهية : أنا أحيي وأميت . أقتل من أشاء وأعفو عنّ من أشاء . وها أنذا أطلق سراح سجين ، وأقتل إنساناً حيث كان التنفيذ . فقال له الخليل (ع) : ليس هذا بإحياء . وكانت المناسبة مناسبة التحدي ، وفي ظلّ هذا الجهد المكفهر دعا الخليل ربه قائلاً : ربّ أرني كيف تحي الموتى ، ليعلم نمرود ذلك . وهناك رواية تذهب إلى أن نمرود توعدّ الخليل بالقتل إن لم يحيي الله الميت عياناً ، لذلك قال الخليل " ليطمئن قلبي " فلا يقتلني هذا الجبار السفّاح . وبهذا تبدو حقيقة هذا الاطمئنان المرتجى وأنه من خوف لا من شك .

- إن الخليل (ع) أحبّ أن يجمع في إيمانه بين الاستدلال والبرهان ، وبين المشاهدة والمعاناة ليكون الإيمان أوثق وأقوى ، والأنبياء لا يعيشون إلاّ على مراتب اليقين . لعل هذا الوجه من التّأويل هو أقوى الوجوه وأولاهها بالاعتبار^١ .

- الاستدراك على الجواب بكلمة " بلى " على ما سألّه ربه " أو لم تؤمن ، بأنني أحيي الموتى " ، لأنّ ذلك الاستدراك على شيء فإنما يدلّ على أن المسألة فيها أصل وفرع ، فالأصل هو الإحياء والمعرفة ، والفرع هو كيفية هذا الإحياء . فالخليل (ع) مستيقن من قدرة الله على الإحياء وبدافع غريزة حب الاطلاع وبالإحاطة بالمسألة من جملة جوابها ، يطلب من ربه أن يريه كيفية هذا الإحياء حتى لا يفوته من الأمر شيء .

لقد سأل الخليل (ع) :

" الرؤية دون البيان الاستدلالي ، فإن الأنبياء ، وخاصة مثل النبيّ الجليل إبراهيم الخليل ، أرفع قدراً من أن يعتقد البعث ولا حجة له عليه . والاعتقاد النظري من غير حجة

^١ - راجع الطبرسي بحمد ١ و ٢ ص ٣٧٢ .

عليه إما اعتقاد تقليدي أو ناشئ عن اختلال فكري، وشيء منهما لا ينطبق على إبراهيم (ع)، على أنه (ع) إنما سأل ما سأل بلفظ كيف، وإنما يستفهم بكيف عن خصوصية وجود الشيء لا عن أصل وجوده^١.

لماذا لا نتحول بالآية إلى أن المعجزة المحتوية مع الأنبياء كانت حسية أكثر منها عقلية ؟

ألم يكن النشاط الحسي لدى الإنسان قديماً أظهر من النشاط العقلي ؟ ونقد كان لا يؤمن إلا باللمس والمشاهد لأنه لا يملك الفكر الذي يتجاوز الحسيات ويفترق الحجب .
ألم تكن المعجزة النبوية غير المحتوية خارج دائرة الكتب المنزلة لتأتي بالنار مع إبراهيم وبالعصا مع موسى ، وبإحياء الموتى مع عيسى ؟

ألا يمكن أن يكون طلب الخليل (ع) من ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه بأنه قادر أن يتحدى نمرود وأمثاله من الكفرة بأن ما يدعو إليه هو الحق ؟ ألا يمكن أن يكون قلب الخليل كان مضطرباً قلقاً أن هاجسه الذي كان يقض مضجعه هو الوسيلة التي كان يفتش عنها ليقنع للخصوم ، ويستجيبوا لدعوته فكان طلبه من ربه أن يحقق له هذه المعجزة ، وهي مشاهدة كيفية إحياء الموتى ليطمئن به القلب إلى قوة حجته ، ولتنصير دعوته ؟

إبراهيم (ع) هو خليل الرحمن قال الرضا (ع) :
" إن الله تبارك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم : إني متخذ من عبادي خليلاً إن سألني إحياء الموتى أجبت ، فوقع في قلب إبراهيم أنه ذلك الخليل فقال : " رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي بالخلة " .
هذه الرواية تشير إلى أن مقام الخلة يستلزم استجابة الدعاء . فالخلة هي الحاجة والخليل إنما يسمى خليلاً لأن الصداقة إذا كملت رفع الصديق حوائجه إلى صديقه ، ولا معنى لرفعها مع عدم الكفاية والقضاء .

أليس من الاستحالة أن يكون إبراهيم خليل الله ويشك في كمال الله وقدرته الله ؟ وكيف استجاب الله لدعائه وإيمانه على حرف ؟

^١ - الميزان - جلد الثاني : ٣٦٧ .

يمكننا أن نتلمس في الآية تشوقاً من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضي ، العابد القريب الخليل يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصفة الإلهية في قلب أقرب المقربين من الله .

إنه تشوق لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلباً للبرهان أو تقوية للإيمان ، إنه أمر الشوق الروحي إلى ملازمة السر الإلهي في نشاء وقوعه العملي ، إنه تشوق يريد أن يرى قدرة الله وهي تعمل ليحصل على مذاق هذه الملازمة ، فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها ... وهي غير إيمان إبراهيم الذي لم يبعده إيمان .

إن الأنبياء لا يستقر بهم حال دون أن يعرجو إلى أعلى معارج اليقين ، وإبراهيم (ع) بعد أن استكمل علم اليقين وعين اليقين بالنسبة لإحياء الموتى ، أراد الاستزادة منه ، ولكي يصل إلى حق اليقين وثابته كان عليه أن يدعو ربه لكي يريه بعينه الظاهرة والباطنة دونما حجاب بينه وبين الملوك ، ولذلك أجابه الله قائلاً: ﴿ فَخَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الطُّيْرِ فَصَرَّهِنَّ إِلَيْكَ ﴾ البقرة : الآية - ٢٦٠ حيث فرض فعله إليه بإذنه .

إن الإيمان وحده لا ينافي اضطراب القلب ، وإن العقيدة التي هي حسيطة العقل يصديقها العقل ، إلا أن محكومة الإنسان للحسن تجعله يضطرب ما لم يجتمع تصديق حسه إلى عقله ^١ .

وإن الخواطر المنافية للعقائد اليقينية لا تنافي الإيمان والتصديق دائماً ، إلا أنها تؤذي النفس ، وتسلب السكون والقرار منها ، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلا بالحسن والمشاهدة ^٢ .
إن إبراهيم القرآن بلغ أسمى مدارج الإيمان ، وأرفع مراتب اليقين . إنه مطهر عن الأرجس كلها ، ومنزه عن الشك والارتياب . أمّا إبراهيم للتوراة فهو كرب إبراهيم ، وحاشا لله أن يكون بينه وبين أحد من عباده شبه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٥- موسى (ع) :

أ- قتل القبطي : قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ غُوتِهِ فَاسْتَفَانَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ غُوتِهِ فَوَكَّزَهُ مُوسَى

^١ - عندنا للصادق ص ٣٧٥ .

^٢ - البراء عند ٢ ص ٣٧٤ .

فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿ القصص : الآية - ١٥-١٧ .

وقيل أن يخصوص بنا الحديث في هذه المسألة لا بد من ملاحظات والتفانيات :

- ابن موسى وهارون (ع) التوراتيين لم يؤمنا بالله ، وإنَّ إله التوراة بغضب على مومناها ويجعله إلهاً لأخيه حين التمس منه وزيراً ردهاً له صدقه ، ويكون له فما يكلم عنه الشعب وفرعون .

- أما القرآن فقد رفع موسى (ع) مكاناً علياً ، وجعل منه كليماً لله ، ورعاه حق الرعاية لينقلب في ميزانه نموذج صدق ، لقد ورد اسمه في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة في مناسبات مختلفة إجمالاً وتفصيلاً تناهز الربع .

إن موسى القرآني هو إنسان الإيمان اليقيني إن في العقيدة وإن في العمل ، وإنه الذي أخلصه الله واصطفاه لنفسه .

﴿ وَأَنكَرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ مريم : الآية - ٥١-٥٢ .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ طه : الآية - ١٣ .

﴿ وَاصْطَفَيْنَاكَ لِلنَّبِيِّ ﴾ طه : الآية - ٤١ .

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ النساء : الآية - ١٦٤ .

إن موسى (ع) للقرآني هو إنسان الاخلاص الصافي ، والتقريب المحب ، واللوجهة البانخة ، والاحسان الغامر ، والصلاح المستقيم ، والاجتهاد المفضل ، والهداية الرائدة .
إن موسى القرآني هو واحد من الأنبياء الخمسة أولي العزم الذين هم للأنبياء سادة ، والذين خصهم الله بكتبه وشرائعه :

^١ - الفقرة ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ، طه ، الأنبياء ، الحج ، المؤمنون ، الفرقان ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الحديد ، الأحزاب ، الصافات ، عاقر ، فصلت ، ممتنوى ، الزمر ، الأحقاف ، الفاترات ، النجم ، الصف ، الشارعات ، الأعتى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب : الآية - ٧] .
 إن موسى القرآن (ع) اختص من بين الأنبياء بالمعجزات الكثيرة كإفلاق العصا شعباناً ، وخلق البحر ، وإزالة المن والسلوى وما إلى ذلك .
 إن موسى القرآن (ع) هو خليل الله وأنى لخليل الله أن لا يكون معصوماً عن الخطأ والمأثم ؟

إن حياة موسى (ع) القرآنية بالنسبة للتوراة هي ذات شعب ثلاث :

١. المماثلة على اختلاف يسير في التعبير فيكملها القرآن ببيانه الساحر للمعجز .
٢. التصحيح على توجه الذي يحق الحق ، ويتناسب مع حقيقة الوحي .
٣. تسجيل الوحي وغير الوحي مما غفل عنه كتبة التوراة الذين حرقوا ما حرقوا إن بالزيادة أو بالنقصان وجماع الآيات في هذه المناسبات تتبدى بالآتي :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : الآيات - ١٥-١٦] .

﴿ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل : الآية - ٦٤] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : الآية - ٧٦] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ [هود : الآية - ١١٠] .

إن الأصل القرآني ينزه موسى (ع) ، عن ارتكاب المأثم والذنوب كيانها وصغارها ، ابتداءً وانتهاءً .

إن هذه الآيات التي بين أيدينا محكمة لها معناها الواحد وما تشابه من الآيات في شأن موسى (ع) يحمل عليها ولا يتجاوزها .

لما في شأن قتل القبطي فقد ورد على لسان الإمام الرضا (ع) :

"... إن موسى (ع) دخل مدينة من مدائن فرعون "مصر" على حين غفلة من أهلها ، وذلك بين المغرب والعشاء " فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه " فقتل موسى (ع) على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات " قال هذا الشيطان " عدو مضل " ثم تابع (ع) بوضح قوله تعالى على لسان موسى "رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي" بأن موسى (ع) يقول : إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة " فاغفر لي " أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلونني " فغفر له إله هو الغفور الرحيم ، " قال موسى رب بما أنعمت عليّ " من القوة حتى قتل رجلًا فوكزه " فإن أكون ظهيراً للجرمين " بل أجاهد في سبيلك بهذه القوة حتى ترضى " .

- بعض الشكّكين يرون أن القرآن ينسب إلى موسى ارتكاب المعاصي والخطايا قتلته القبطي عدواً ومخالفة وحراماً ليكون موسى ظالماً ضالاً يعمل عمل الشيطان كما في التعبير القرآني على لسانه :

- ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ القصص : الآية - ١٥ .
 ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ القصص : الآية - ١٦ .
 ﴿ فَعَلَيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الشعراء : الآية - ٢٠ .

يمكننا مناقشة هذا الشكّك في فلة موسى (ع) بالتخريجات التالية :

١. الأنبياء معصومون على مدى الرسالة في تلقى الوحي وتبليغه والعمل به ، واختص بعضهم بالعصمة العملية قبل الرسالة ، وإن كانت بعض المذاهب تحصر العصمة بفترة الرسالة .
٢. إن قتل القبطي كان قبل نبوة موسى (ع) بعشر سنين :

﴿ قَلَّمَا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَرََّ بِأَهْلِهِ أَنَّهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ... قَلَّمَا أَنَاثَا نُودِيَ مِنَ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ... وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ ... اسْمُكَ يَذَكُّ فِي جَنَّةِكَ ... وَاضْمَعْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّحْبِ فَذَابَكَ بِرُحْمَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ... قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ القصص : الآيات - ٢٩-٣٣ .

﴿ قَالَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَنَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُزْمِلِينَ ﴾ الشعراء : الآيات - ١٨- ٢١ .

٣. لم يكن القتل عمداً ولا معصية ، إنما ضرب موسى القبطي بجمع كفه فكان مصادفة وخطأ ، وليس في الآية إشارة ولا إشعار بأن موسى (ع) قد قتل أو أراد قتل القبطي ، إنما هي اللوحة للقضية دون تعمد أو تقصد .

٤. إن الاقتتال بين المؤمن والمُشرك لا وكز موسى هو " من عمل الشيطان " . إن فعل المُشرك هو صناعة عمل الشيطان دون المؤمن .

٥. أليس القبطي فرعونياً مُشركاً بالله ؟

ألم يكن بنازع الإسرائييلي الموحّد ويقائله ؟

ألم يستغث الإسرائيلي بموسى ويستنصره ؟ ألا تشير هذه الاستغاثة على أنّ الإسرائيلي كان مستضعفاً ؟ وهل لموسى (ع) إلّا أن يسارع لتجدة ومناصرة الإسرائيلي الموحّد المظلوم ؟

إنّ اللوازع الإيماني ، والواجب الأخلاقي كانا يفرضان على موسى أن يحافظ على النفس للمحرمة والمؤمنة ، وأن ينصر المعتدى عليه وإلّا كان مسؤولاً .

٦. وأما مقالة موسى (ع) : " ربّ إني ظلمت نفسي " فأولى أن تدلّ على الظلم الواقع على موسى (ع) ، من أن تدلّ على ظلم وقع على القبطي . لماذا لم يقل موسى (ع) ظلمت غيري وقال ظلمت نفسي ؟ ولماذا اعتبر موسى (ع) المطالبين بدم القبطي ظالمين غير محقّين عندما خرج خائفاً يترقب :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص : الآية - ٢١ .

ولئن صحّ أنّه ظلم نفسه أو غيره بما فيه الخطأ المحض لا الإثم ولا العصيان فإنما هو نظير ما وقع من آدم وزوجه قبل النبوة : " وعصى آدم ربه فغوى " .

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف :

الآية - ٢٣ .

" وفعله ذاك ، وإن لم يكن معصية منه لوقوعه خطأ ، ويكون دفاعه عن الإسرائيلي دفعاً لكافر ظالم ، لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية ، كذلك يوقعه

في مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقة كما أوقع آدم وزوجه فيما أوقع من أكل الشجرة المنهية فأذى ذلك إلى خروجهما من الجنة^١ وليس في ذلك مخالفة للأصول .

٧. وكيفما انقلب الأمر فإن موسى (ع) قد دخل عاصمة فرعون على غفلة من أهلها ، وحين غفلت العيون ، إن في وقت الظهيرة ، وإن في العمل بعد خروجه من قصر فرعون ناقماً على البطش والارهاب ، ومتعاطفاً مع بني إسرائيل المضطهدين في المقموعين ، ومحال لموسى (ع) أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد . لقد التقى في هذه الأثناء برجلين يقتتلان ، أحدهما قبطي من حاشية فرعون أو هو طبّاح القصر ، والآخر إسرائيلي ، حيث استغاث به الإسرائيلي خوفاً وشعوراً بالصنف إزاء رجل فرعوني إرهابي ، فانتصر له موسى (ع) بوكزة واحدة تركت القبطي إلى حلقه دون نقصد ، ممّا يشير إلى قوة موسى (ع) الخارقة ، وغضبه الثائر ، وضيقه الأسود بفرعون وزبانيته الطغاة .

وندم موسى (ع) على فعلته حين رأى جثة هامة بين يديه ، لا لأنه ارتكب معصية بل خشية الإرهاب الفرعوني ، لذلك رأى بأنه ظلم نفسه لا غيره ، فدعا ربّه أن يستره ويغفر له ، وخرج موسى (ع) خائفاً يترقب ، وكلفاً يتلفت ويتوجس ، ومضطرباً يتوقّع الشرّ والمكيدة والانتقام بعد أن أخذ على نفسه العهد الوثيق أن لا يكون لفرعون المجرم ظهوراً ولا لجلاوزته الشيطانيّين نصيراً .

ب- طلب موسى (ع) رؤية الله :

﴿ وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكِ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكِ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَسِرَ مُوسَى مَعَهُ قَلْبًا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ نَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف : الآية- ١٤٣ .

إن المفاهيم القرآنية تقضي بأن الله تعالى ليس كمثل شيء ، وله المثل الأعلى ، إنّه الكمال المطلق الذي لا حدود له . إنه ليس بجسم ولا جسماني ، لا يحيط به مكان أو زمان ،

^١ - تبيان عمدة ١٦ ص ١٩ .

لا تحويه جهة ، لا تماثله أو تشابهه صورة خارج الذهن أو داخله ، إن في دنيا ، وإن في
آخرة .

ولطالما الشان لله هو هذا فإن الله إذن ﴿ لَا تُزَكُّهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُزَكِّي الْأَبْصَارَ ﴾
الأنعام : الآية- ١٠٣ ، لأنَّ اللامحدود لا يدركه المحدود . والمادية تذهب إلى أنَّه لا وجود
إلا للمحسوس ، فأنَّه إذن وهم أو خرافة لأنَّه لا يخضع للحواس . هذه المادية التي رفضت
وجود الخالق أو شكَّت في وجوده تريد - لكي تؤمن به - أن تخضعه لأجهزتها المادية
العلمية ، وأن تسلط عليه مجاهرها للكاشفة كما تفعل في مختبراتها وتحليلاتها للكشف عن
عناصر مادة من المواد . إن هذه المادية تريد أن ترى الله بألم عينها خاضعاً لتجاربيها
واختباراتها ، كما تريد أن تدرس ما وراء المادة بوسائل ومقدمات مادية ، وإنَّها لدراسة
فاشلة لأنها لا تنزل الأشياء في منازلها .

إنَّ الوسائل والمقدمات المادية لا خير فيها ولا جوى منها إلا في حقلها المادي ، وإذا
أرادت المادية هذه أن يكون لمحاولاتها نصيب من النَّجاح في دراسة فكرة الألوهة فليس لها
إلا استخدام مقدمات غير مادية ، بوسائل عقلية وجدانية ضميرية . وحينذاك مسترى الله
الخالق الحكيم ببصيرتها لا ببصرها ، وبقلبيها لا بحواسها ، مثلاً بآثاره في كل الوجود ، بل
مستمع صوته في كل كائن حولها ، صغر ذلك الكائن أو كبر .

وهذا هو موسى القرآن كما هو في ظاهرة القرآن يطلب من الله قسائلاً ﴿ رب أرني
أنظر إليك ﴾ ليكون الحجاب الحاسم نفيّاً تأليديّاً ﴿ لن تراني ﴾ ﴿ ولكن أنظر إلى الجبل ﴾
الزَّابِضِ والنَّاشِظِ إزاءك ﴿ فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني ﴾ ، وحين تجلَّى الله للجبل
وظهر جعله الله " دكّاً " متلاشياً في الجو ليخرَّ موسى (ع) صعقاً مغشياً عليه من هول ما
رأى " قلتمْ أفاق قال سبحانهك ثبت إليك وأنا أول المؤمنين " بأنك لا ترى .

وسؤال يطرح نفسه بالحاج : هل موسى (ع) يجهل أن الله لا يرى ليقول " رب أرني
أنظر إليك ليذهب إلى ما تذهب إليه للمادية ؟

هل من اللائق في شيء بموسى الكليم الخليل ، بموسى النبي المميز ، بموسى أحد
الأنبياء الخمسة أولى العزم " أن يعنى نفسه بأن الله سبحانه يقوِّي بصر الإنسان على أن يراه
ويشاهده منزهاً عن وصمة الحركة والزمان ، والجهة والمكان ، والنوات للمادة الجسمية

وأعراضها رغم أن الإبصار الذي عندنا ، وهو خاصة مادية من المستحيل أن يتعلّق بها لا أثر عنده من المادة الجسميّة وخواصّها ^٢ .
إن البهانة تقتضي بأن موسى (ع) لا يجهل بأن الرؤية البصرية منفتحة ، لذلك فبهديته الانتفاء لم يتعلّق بها سؤال أو جواب .

" إن كلم الله موسى (ع) علم أن الله تعالى أعزّ من أن يرى بالإبصار ، لكن قومه قالوا له " لن نؤمن حتى نرى الله جهره " إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجبتك ، فقال موسى (ع) : يا قوم إن الله لا يرى بالإبصار ، ولا كيفية له وإنما يعرف بآياته . فقالوا : لن نؤمن لك حتى نسأله ، فقال موسى (ع) : يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل ، وأنست أعلم بصلاحتهم ، فأوحى الله جلّ جلاله إليه : يا موسى سلني ما سألوك فإن أؤاخذك بجهنهم ، فعند ذلك قال موسى (ع) : رب أرني أنظر إليك ، قال لن تراني ، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه " وهو يهوي " فسوف تراني ، فلما تجلّى ربّه للجبل " بأية من آياته " جعله دكساً وخزّ موسى صمغاً ، فلما أفاق قال سبحانه ثبت إليك " يقول : رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي " وأنا أول المؤمنين " منهم بأنك لا ترى " ^٣ .

بهذا للتأويل الإيماني للرضا (ع) يتبدّى لنا أن موسى (ع) لم يسأل الرؤية لنفسه ، لأنه يدرك استحالتها ، وإنما سألها لقومه حين قالوا له " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره " ولذلك قال (ع) لما أخذتهم الرحمة أنهلكننا بما فعل المستهزاء منا ؟

يمكن أن يقال بأن المراد بالرؤية هو حصول العلم الضروري مبالغته في الظهور ليكون المسؤول نوع الرؤية بمعنى الإبصار الذي يتنزّه موسى (ع) عن الجهل باستحالته .

هناك رؤية للقلب . يقول تعالى :

﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ وهل هناك شبهة في أن الفؤاد الذي رأى هو النفس الإنسانية الشاعرة لا الفؤاد للحم المعلق على يسار الصدر داخلًا ؟

إن في القرآن إشارة إلى وجود رؤية ثابتة هي وراء الرؤية البصرية الحسية . هذه الرؤية هي نوع من المعرفة الإلهامية المباشرة أو هي شعور إنساني داخلي نحو شيء دون استخدام آلة حسية أو فكرية .

^٢ - الميزان : جلد ٨ ص ٣٢٨ .

^٣ - بحار الأنوار : جلد ١١ ص ٨٦ .

يمكن أن يكون للإنسان شعور فطريّ وجدانيّ برّبه عن غير طريق الإبصار الجسمانيّ الماديّ ، وعن غير سبيل الفكر والمقومات الألفيّة والبراهين من غير أن يحجبه عنه حجاب ولا يجرّه إلى الغفلة عنه إلّا لشتغاله بنفسه وبمعاصيه التي اكتسبها .

الا يحتمل أن يكون ذلك موسى (ع) للرؤية هو العلم الضروريّ ، والرؤيا العرفانيّة الصافيّة .

وبعد أن خصّ الله موسى (ع) بالعلم عن طريق النظر العقليّ في آياته ، وبعد أن اصطفاه برسالته ، وبعد أن كلّّمه وعلمّه عن طريق سمعه انقلب موسى (ع) يرجو الله المزيد من العلم بهذه الرؤيا الوجدانيّة القلبية التي لا تكون إلّا للخاصّة من عباد الله الصالحين^١ .

سئل أمير المؤمنين (ع) : يا أخا رسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لم أعبد ربّاً لم تره العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان ، ويلهم ألم يسمعوا قول الله تعالى " لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " وقوله لموسى " لن تراني " .

ويقول الصادق (ع) :

" إن الرؤية على وجهين : رؤية القلب ورؤية البصر ، فمن عني برؤية القلب فهو مصيب ، ومن عني برؤية البصر فقد كذب وكفر بالله وأياته نقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من شبه الله بخلق فقد كفر " .

لقد كان النزاع حاداً في شأن هذه المسألة بين سائر الفرق الإسلامية ؟ فالمعتزلة ينفرون الرؤية البصرية مستكئين على مذهبهم بالعقل والنقل ويؤولون ما يدلّ على جوازها من الآيات والروايات .

أما الأشاعرة فينهم يثبتونها في الآخرة مستكئين بالآية وبغيرها مثل ﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴾ (٢٢) ﴿ فِي رَبِّهَا ظُظْرَةٌ ﴾ القيامة : الآيات- ٢٢- ٢٣ ، ويؤولون ما يحتمل ظاهراً استحالة الرؤية .

^١ - راجع تفصيلات في «مهران محمد الشاس ٢٤١» .

"وربما استدلوا لذلك بأنه لا دليل على وجوب انحصار الرؤية البصرية في الجسمانيات ، فمن الجائز أن يتعلق بغير الأمور المادية وبأن الإبصار يتعلق بالجواهر والعرض ، ولا جامع بينهما إلا الموجود المطلق ، فكل موجود يمكن أن يتعلق به الإبصار وإن لم يكن جسماً أو جسمانياً^١ ، وهناك الظاهريون أو الحشويون الذين يقولون بالرؤية البصرية في الدنيا والآخرة .

٥. يوسف (ع) وامرأة العزيز :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَتَّعَ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٢٤ .

يوسف في القرآن :

وقبل أن نلج بنا الدراسة للآية لا بد لنا من الوقوف على شخصية يوسف القرآنية ليكون ذلك موطناً للحكم ، وثيقة تاريخية تتسحب بجوها ومناخها على الآية . إن يوسف القرآن تختصر شخصيته المميزة بأنه نبيّ والنبوة شهادة إلهية تشير إلى اصطفاء صاحبها واجتباؤه من لدن ربه ، تشير إلى طهارته وتطهره ، إلى إيمانه الوثيق ، وبقينه المكنن : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الأنعام : الآية - ٨٧ .
إن النبوة معصومة عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب لأن النبي يعلم من ربه علماً خاصاً لا يعلمه غيره ، يقول تعالى مخاطباً نبيه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء : الآية - ١١٣ .

إن المعصوم ينصرف عن المعصية بنفسه اختياراً لا إجباراً ، ولعل هذا الاختيار لا يتعارض مع ما أشار إليه القرآن والأخبار بأن العصمة للأنبياء هي بتسديد من الله .
﴿ ذَلِكَ هَذِي اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ الأنعام : الآية - ٨٨ .

^١ الميزان الحقه للناس : ٢٥٧ .

أليس من مؤشرات الآية أن بإمكان الأتقياء رغم الاجتناب والهدى الإلهيين أن يشركوا بالله ؟

إن العلم الخاص بالأتقياء الذي هو ملكة العصمة لا يغيّر الطبيعة الإنسانية المختارة في أفعالها الإرادية ولا يتحول بها إلى مناخ الإرعام ، وساحة الإجبار .

- يوسف القرآن هو من عباد الله المخلصين المنزهين عن الشوائب في الحدود الإنسانية :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف : الآية- ٢٤ ، ومحال أن يهمل بهذه الفاحشة وهو يحمل شهادة إلهية بأنه من العباد المخلصين إيماناً وخلقاً .

- يوسف القرآن صبور على البلاء ، مقاوم بنون حدود للشدائد بفعل الإيمان ، لقد احتمل محنة الجب وإذلال البيع والشراء ، وهمة لا تتوفّر إلا في نبي ، عفا عن ظلمه ، وأعطى من حرمة من إخوته ، وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة لا تثریب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " إن الصبر هو خلاصة الفضائل . لقد نوّه به القرآن في نيف وسبعين موضعاً :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ السجدة : الآية- ٢٤ .
﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة : الآية- ١٥٥ ، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ آل عمران : الآية- ١٢٥ .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ الاعراف : الآية- ١٣٧ .

أوليس الصّبر هو حبس النفس على ما تكره ؟

إنّ الصّبر على شهوة البطن والجنس عفة ، إنّه في الحرب شجاعة ، وعند الغضب حلم ، وعند اليسير من الحظّ قناعة ، وعند فضول العيش زهد .

- يوسف القرآن هو القدوة للفريفة في الصّبر ، صبر يوسف جمع فأوعى . لقد صبر على إيذاء الإخوة من تجريدهم إياه لتوبة ، وتعذيبهم له باللطم الموجه واللكز المبرح ، والإلقاء في الجب للإهلاك .

صبر على بيعه سلعة رخصية :

﴿ وَتَزَوَّجَ بَنَاتَهُ بِخَنَازِيرَ دَرَاهِمَ مَعْنُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ يوسف .
الآية - ٢٠ .

صبر على نعمة الله فأحارها بالشكر سواء في بيت العزيز ، أم حين أتاه الله الحكم ،
أم حين خز له أبواه وإخوته سجداً :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ تُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ مَسْتَعْمَرُهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَسِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف : الآية - ١٠٠ .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَسَاطِرُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَكَيْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُؤَفِّقُنِي سُبُلًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾
يوسف : الآية - ١٠١ .

- وصبر يوسف على شهوة الجسد ونزوته في لحظات فيضه الحيوي ، والتهاب
شهوته الطافرة بين يدي سيده التي راودته عن نفسه بجمالها الأخذ ، وإغرائها
الفاتن والساحر .

- يوسف القرآن رزاة وترصن وإباء ، ألم يرفض الخروج من السجن قبل كشف
المؤامرة وجلاء الحقيقة ليخرج من السجن خروج السيف جلاء صيقله .

- يوسف (ع) عاشق لدينه ، مبلغ برسالة ربه ، وانقلب في السجن معلماً راشداً أو
مرشداً . وانتهازها فرصة في السجن ليدعو رئيس الخبازين ورئيس السقاة إلى
دينه ، موضحاً لهما خلال عقائد المصريين في الآلهة المتعددة ، والأرباب
المختلفة . لقد أول لهما زواياهما وأمسك ذلك التأويل إلى علم ربه ، وأنه مجتنب
ملة الأوثام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومتبع ملة التوحيد التي هي الدين
القيم ، ولكن الناس في غفلة عنه بعمهون . لقد كان شجاعاً في السجن حين جاهر
بدعوته لاتباع ملته ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا نَذِيرًا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَأَتَيْتُ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) بِإِصْحَابِي السِّجْنِ أَلَرَأَيْتَ أَنْتَقِرُونَ خَيْرَ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ لَكُمْ مِنْهُ آيَاتٌ فَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يوسف :
الآيات - ٤٠ - ٣٧ .

- يوسف القرآن هو بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - وكل إذا عذ الرجال مقتم -
قد ارتضع أفريق الرسالة ، واعنذ بتعاليم النبوة .

ألم ينشئه أبوه على التقوى ، ويتعهد بالأخلاق النبوية الفاتكة ، ويهين له النشأة الصالحة ؟
وكان أبوه يعقوب ينكره بأبائه الصالحين المصطفين ، ويمنيه أن يتخرج من مدرستهم
ويرفعهم قدوته .

ألم يقل له قولته الشهيرة حين قص يوسف عليه روياء :
﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّنَّا عَلَى أَبِيكَ مِنْ الْقَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ يوسف : الآية - ٦ .
هذا هو الرجل الذي ينهيا للنبوة ، ويرعاه الله ، ويعدّه لنشر دينه ' الله أعلم حيث يجعل
رسالته ' .

يقول (صن) : ' من عمل بما علم ورتبه الله علم ما لا يعلم ' .
- يوسف القرآن شب على فضيلة بائخة ، عمله هو علمه وكلن الشيء في الشيء ،
ولكم ارتشف من مدراس آبله الأنبياء من علم كثير !
وجمع يوسف القرآن بين الفطرة للصافية والمكتسب الغنسي السمخي ، بين
الفطنة الحادة ، والبصيرة النفاذة وبين التجربة الواعية المستوعبة .

وزاده الله علماً على علم ، وقذف في قلبه نور الإيمان وعلمه تأويل الأحاديث
فقصدي للشهوات وتحداها ، وانقلب سديد الرأي ، سليم الموقف، صلب المبدأ،
عميق الإيمان، صادق القول، عادل الحكم، بعيد الرويا، يقيني الاستخلاص .

- يوسف القرآن أغنى إيمانه بلأوه في سبيل هذا الإيمان ، وما أكثر ما أبلى وابتلي
به يوسف (ع) ! وحسبه من بلاء وابتلاء محفته بامرأة العزيز .

وكن يوسف ملتهب الشهوة في جمره الشباب ، وكان الفتى الغض الإهاب ،
وكانت معه امرأة العزيز السيّدة تدعوه إليها بإغراء فيعرض ، وترأوده عن
نفسه بفطنة فيرفض ، وتطوقه بذراع المنة فيأبى ، وتنازعه ثوبه قدأ فينبو
الى الباب هارباً ناجياً . استمساكاً بعفة وتقوى ، بوفاء والتزام .

وهل هذه الحضانة اليوسفية تتأتى إلّا لمن عصم ربك ؟

- يوسف للقرآن يلوذ بربه عند الابتلاء ، ويلجأ إليه في المحن الشداد ، لقد توعدته
امرأة العزيز التي لا تصغي لعظة ، ولا ترعوي عن غي بقولها :

﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ يوسف : الآية-

. ٣٢

ولجأ إلى ربه مستغيثاً خائفاً يقول :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
الْبَيْنِ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ يوسف : الآية- ٣٣ ، وكان السجن الكريه هو
المنجاة ليوسف في هذا الاختيار الصعب .

الآية في ميزان المفسرين :

لعل هذه الآية للكريمة هي أكثر الآيات التي اختلف فيها التأويل ، وتشعب بها التفسير ،
وتناقص بها التحليل .

كثيرون هم المفسرون الذين وقعوا أسرى للظاهر الفاقع للآية، وارتبكوا إزاء الروايات
الإسرائيلية فقالوا من يوسف (ع) وعصمته في تخريجاتهم لينسبوا إليه الهم بالفاحشة
مع امرأة العزيز لولا أن رأى برهان ربه رغم أن يوسف القرآن هو الذي اجتنباه الله

لعبوديته ، وأخلصهم لنفسه ، وآتاه حكماً وعلماً ، وعلمه تأويل الأحاديث ، وكان له من نقواه حصانة ، ومن صبره مناعة ، ومن إحسانه بركة ونجدة ، ومن إلحاقه بأبلائه إبراهيم وإسحق ويعقوب مدرسة .

❖ يقول الميزان التفسير :

” وأما من ذهب لوجهه في معصية الله وهم بما هو من أفحش الإثم في دين الله وهو زنا ذات البعل ، وخيانة من أحسن إليه الإحسان في عرضه وأصر عليه حتى حلّ التكة ، وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فأنته لصرفه أية فلم ينصرف ، وازنجر ببناء بعد نداء من كل جانب فلم يستح ولم يكف حتى ضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من رؤوس أصابعه ، وشاهد ثعباناً أعظم ما يكون من عن يمينه فذعر وهرب من هول ما رأى ، فقتله أخرى به أن لا يسمى إنساناً فضلاً أن يتكئ على أريكة النبوة والرسالة ، ويأتمنه الله على وحيه ، ويملأ إليه مفاتيح دينه ، ويؤتيه حكمه وعلمه ، ويلحقه بمثل إبراهيم الخليل .

لكن هؤلاء المتعلقين بهذه الأقنويل المختلفة والإسرائيليات والآثار الموضوعية ، إذ يتهمون جدّه إبراهيم (ع) في زوجته سارة لا يبالون أن يتهموا نجله (ع) في زوجة غيره ^{١٥} .

من اتجاهات المضمرين ما يلي :

١. الهمّ للمضاجعة مشترك بين يوسف وامرأة العزيز ، يوسف قد منها مقعد الرجل من امرأته بعد أن خلع ثوبه ، في هذه اللحظة ، في هذه اللحظة هبط عليه جبريل وأفرغ في أذنه بأنه سيكون لله نبيّاً ، وليس مما يليق بنبيّ هذا العمل المنكر ، حينذاك انصرف يوسف عنها ، إذن يوسف لسولا أن رأى برهان ربه لا ارتكب الفاحشة.

٢. قال الحسن البصري بأن يوسف (ع) رآها تغطّي شيئاً فقال: ما تصنعين ؟ قلت : أعطيت وجه صنمي لئلا يراني فقال يوسف : أنت تستحيين من الجماد الذي لا يعقل ولا يرى ، فأنا أولى أن استحيي ممن يراني ويعلم سرّي وعلانيّتي ، استحي من المميع البصير ، العليم بذات الصدور .

^{١٥} - عند ١١ من ١٣٩ .

٣. ابن البرهان الذي رآه وهو على هذه الحال هو أنه التفت فرأى وجه أبيه وهو يوثقه ويقرعه على فقلته عاضاً على أنامله لسوء ما رأى .
٤. ابن يوسف نوذي في سره من الله : يا يوسف إنك مكتوب في ديوان الأنبياء وتعمل عمل للسفهاء .
٥. قيل : بأن السقف قد انفرج فرأى يوسف (ع) صورة حسنة تقول : يا رسول الله العصمة لا تفعل فيك معصوم .
- وقيل : ابن يوسف هم هم الطبيعة الذي لا اختيار للمرء فيه .
- قيل : إنه هم ليضربها.
- وقيل : أنه ملك ومسح جناحيه على ظهره فخرجت شهوته من أصابع رجليه .
- وقيل : وقع بينهما حجاب فلا يرى أحدهما صاحبه .
- وقيل : رأى جارية من جواري الجنة فأخذته الحيرة لحسنها فقال : لمن أنت ؟ قالت لمن لا يزني .
- وقيل : رأى زليخا على قبح فهرب منها .
- وقيل : رأى شخصاً فقال : يا يوسف انظر إلى يمينك فنظر فرأى ثعباناً فقال : الزاني في بطني غداً فهرب منه .
- وقيل : إنه تمثل له يعقوب فضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من أطراف أنامله .
- وقيل : إنه هم ترك لا فعل .
- وقيل : بأنه سمع صوتاً : إياها فلم يكثر له فسمعه ثانياً فلم يعمل به فسمع ثالثاً : أعرض عنها فلم يلتفت حتى مثل له يعقوب عاضاً على أناملته .
- قيل ضرب يده في صدره فخرجت شهوته من أنامله .
- وقيل : صيح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له .
- وقيل : همت بأن تفعل وهم بأن لا يفعل .
٦. ابن هم امرأة العزيز كان كاملاً أما هم يوسف فقد كان معلقاً على شرط هو برهان ربه . ولقد تحقق البرهان ولم يتحقق الهم ، والمشروط عدم إذا لم يوجد شرط.

٧. إن هم يوسف (ع) قد امتنع لوجود البرهان الذي هو حرصه على الطاعة واستمسكه بأذاب ابائه وبأخلاقهم المبرأة من الشوائب ، وبأن قوله تعالى " وهم بها " لا يصلح جواباً لأن " لولا " لها الصدارة ، لأننا لا نقول بأن هذا هو الجواب ولكنه دليل الجواب ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ قَوْلًا أَلَمْ مُؤْمِنًا فَاِرْعَا إِن كَانَ لَتُنذِرَ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قُلُوبِنَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ القصص : الآية - ١٠ . لأن " لولا " حرف امتناع لوجود ، امتنع الهم لوجود البرهان ، وامتنع إيداء أم موسى بما في نفسها على ابنها لوجود ربطنا على قلبها ، والجواب محذوف تقدّم دليله على " لولا " .

٨. لقد همت به في منامها وهم بها في منامه فعند ذلك علم أنها له فلذلك هم بها وبهذا يختلف معنى رؤية البرهان باختلاف استخلاص المفسرين ، إنه سبب يقيني شاهده يوسف (ع) . أو إن الآيت التي ظهرت له ردعته عن الانزلاق أو أنه العلم بحرمة الزنا وعذابه ، أو أنه ملكة العفة أو أنه العصمة والطهارة .

❖ موقفنا من هذه الشبهة :

لنا أن نستخلص من الآية للنتائج التالية :

١. يوسف نبي معصوم لا يرتكب صفات الفواحش فكيف بهذه الفاحشة النكراء ؟
٢. لقد جاهد يوسف نفسه مجاهدة أولى العزم من الأنبياء في محنته مع امرأة العزيز خاصة ومع سائر محنته عامة ، لقد استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين التي آخرها القرآن للحجة على سائر الكتب السماوية .

ألم يكرمّه الله ويخصّه بمسورة من كتابه ؟

ألم يشهد له ربه بأنه لسان صدق في الآخرين ؟ أم يلحقه بجدّه ابراهيم (ع) ليكون القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في العصمة المتأبسية ، والصبر للمجاهد، والإزار الطاهر ، والتحصن في مواقع العثار ؟

٢. المفسرون الحثويون الظاهريون ، والجبريون المقيّدون للضيّقون هم الذين
ضيقوا مفهوم الآية ولم يربطوها بحكمة النبوة وعصمتها ، ولم ينسحبوا بها على
مساحة الأخلاقية اليوسفيّة المنزهة كلّها .

لعل هؤلاء الطفيليين من المفسرين قد ركنوا في أقوالهم إلى أمرين اثنين :
- أحدهما : إقراطهم من الركون إلى الآثار والنقل ، وقبولهم الأحاديث والأخبار وإن
تعارضت مع صريح العقل ، ومحكم الكتاب .

هؤلاء الدخلاء على التفسير والمفسرين كانوا قيد الروايات الإسرائيلية ، والأخبار
المدسوسة ، والمشاهدات المحسوسة ، ولم ينفذوا بعقولهم إلى ما وراء الظاهر والحد ، ولم
يستوعبوا مسألة النبوة والعصمة وغيرهما من القضايا الدينية المعنوية الرفيعة .

عجبا لهم : يقيسون الخالق على المخلوق ليسمع كما نسمع ، ويبصر كما نبصر
ويتحرك كما نتحرك ، كما يقيسون نفوس الأنبياء المصطفاة على سائر النفوس التي تتقلب بين
الاهواء والجهل ، والتي لا تتجاوز مرتبة التقوى إن بلغت ، والتي تتعثر في سقطات الأخطاء
إن قليلاً وإن كثيراً .

- ثانيهما : ظاهرة قوله تعالى : " ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه " .
انطلاقاً مما ذهب إليه النخاعة بأن جزاء " لولا " لا يتقدم عليها قياساً على إن
الشرطيّة فينقلب قوله تعالى " وهمّ بها " جملة تامّة غير متعلّقة بالشرط ، وجواب
" لولا " قولنا " لفعل " والتقدير " ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه
لفعل ، وهو المطلوب .

وهذا التفسير على فساد لأن قوله تعالى " ولقد همت به " جملة قسميّة وإلام تقيد القسم
والمعنى : وأقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه لا يكون لهم إلا بأن تشفع الإرادة بشيء
من العمل .

أما قوله : " وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ " فهو معطوف على منقول لام القسم من الجملة السابقة والمعنى : أقسم لولا رؤيته برهان ربه لهم بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه ^١ .

البرهان البرهاني الذي رآه يوسف هو العلم اليقيني الذي لا يخالطه جهل ولا نقص ولا ضلال . إن الدلالة على أن البرهان هو علم قول يوسف ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْحَابُ الْبَيْتِ وَأَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٢٣ هذا العلم ليس عاديًا مكتسبًا قد يؤدي إلى الضلال والمحصية ، وقد يصنر عنه حسن الأفعال وقبحها . يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ الجاثية : الآية - ٢٣ ، ﴿ وَخَذُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ النمل : الآية - ١٤ .

إن هذا البرهان هو علم لا يخالطه جهل ، ولا يؤدي إلى هوى نفساني ، أو تمويل شيطاني . يقول تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يوسف : الآية - ٢٢ .
إن الذي أتاه الله ليوسف من الحكم لا يخالطه الشك ، وإن الذي أتاه من العلم لا يمازجه جهل . وهل المواهب الإلهية عابثة ؟

فالنفوس التي تواتى هذا الحكم والعلم لا تستوي هي والنفوس الخاطئة في حكمها ، والضائعة في جهنها .
﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا ﴾ الأعراف : الآية - ٥٨ .

إن هذا البرهان أو العلم هو جزاء يوسف المحسن الطاهر وليس هو موهبة ابتدائية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٢٢ .

وإن هذا العلم هو من جملة ما وعد الله ليوسف أن يعلمه من تأويل الأحاديث ﴿ وَنُعَلِّمُهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف : الآية - ٢١ . ﴿ نَلَكُمَا مِنْهَا عِلْمَنِي رَبِّي ﴾ يوسف : الآية - ٣٧ .

إن هذا العلم والحكم العظيمين يشيران إلى أن جزاء الله لعباده يستوي مع إحسانهم وتقواهم وإيمانهم .

^١ - ابن جرير ، المجلد ١١ ص ١٢٨ .

فالأخلاق وحدها ليست الوافية لإسماع المجتمع ، وليست وحدها الشافية للأمراض البشرية ، إنما هي الأخلاق المرتبطة بالله ، والصادرة عن تقواه ، أخلاق عمدتها الإيمان بالله الواحد الأحد ، للعالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل ثوابه وعقابه .
والتقوى هي بين رجاء بجنة أو خوف من نار ، أو حبّ بالله لأن الله أهل للعبادة .

إن الذين يعبدون الله حباً هم الذين عرفوه يقيناً ، وأدركوا أنه يملك من أمرهم كل شيء ، وأنه ليس عليهم إلا أن يعبدوه ويطلبوا من مرضاته لذاته لأنه للكمال المطلق والجمال المطلق :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ الأنعام : الآية - ١٠٢ .
﴿ الَّذِي أَحْضَنَ كُلَّ شَيْءٍ حُلُقَهُ ﴾ السجدة : الآية - ٧ .
﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْتَجِبْ بِحَمْدِهِ ﴾ الإسراء : الآية - ٤٤ .

هؤلاء يحيون الله لأنهم يعرفونه بأياته ، والجمال قد يُحبّ لذاته فكيف بالجمال على إطلاقه ؟ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَتَدْرُكُ حُبّاً ﴾ البقرة : الآية - ١٦٥ .

يقول الصادق (ع) : هل الدين إلا الحب ؟ وإنّي أعبدّه حبّاً له ، وهذا مقام مكنون لا يسته إلا المطهرون .

وهل الإخلاص في العبادة يحققه إلا الحب الذي لا غاية وراءه إلا الحب ؟
إن قوام المؤثرات للمحبة هي أن يكون الله وحده في القلب والفكر والعمل والغاية ، فالمحب ليس له أن يشغله شيء عن الله ، ليس للمحب أن يحب أو يبغض إلا ما يحبه الله أو يبغضه . هذا الحب هو النور الذي يضيء لصاحبه سبيل العمل .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مُتَيِّماً فَاحْزِنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ الأنعام : الآية - ٢٢ .
والذين يحيون الله لا يخافون من شيء ، ولا يحزنون على شيء ، و ينتهجون بسبيله لأن الله هو مرجع كل شيء .

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿
يونس : الآيات - ٦٢-٦٣ .

المحبون هم لله المقربون حيث لا حجاب بينهم وبين الملائكة الأعلى من وهم أو محسوس أو شيطان أو هوى .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْزَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَتْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْسُومٌ (٢٠) يُشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ المطففين : الآيات - ١٨-٢١ .

إنَّ المحبين لله يتوكلون عليه ، يرضون بقضائه ، تستقر في نفوسهم أخلاقية الإخلاص لله ، أولئك هم الذين يستخلصهم الله ويحببهم .

هؤلاء المحبون هم الذين خلقهم الله على استقامة للقطرة فكانت لهم النشأة الصافية ، والقلوب الواعية ، والعقول النافذة ، والنفوس الخالية من التلوثات المكتسبة .

هؤلاء المحبون المخلصون هم المقربون المكرمون عند ربهم ، هم الأنبياء والأئمة المصطفون الذين اجتباهم الله وأخلصهم لنفسه :

﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الأنعام : الآية - ٨٧ .

هؤلاء المحبون يعلمون من ربهم ما لا يعلمه غيرهم ، إنهم بمحببتهم هذه لا يريدون إلا ما يريد الله منهم ، وينصرفون عن المعاصي كبرها وصغيرها فتتأني العصمة .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَوِّذَنَّهُمْ لَأَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ص : الآيات -

٨٢-٨٣ .

إنَّ هذه المحبة الخالصة هي التي تؤدي إلى العلم من الله وبالله لا يعلمه الآخرون .

هذا العلم الذي يخالف سائر العلوم هو الذي يعصم عن الخطأ بل هو العصمة ذاتها :

﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء : الآية - ١١٣ .

ولا ينبغي لك الظن إلى أنَّ هذا العلم الذي هو ملكة العصمة يهب بالطبيعة الإنسانية

للمختارة في أفعالها الإرادية ويغيرها ويخرج بها إلى مناخ الإيجاب وطبيعة الإضرار . ألا

تشير هذه الآية إلى اختيار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فعله ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ... ﴾ المائدة :

الآية - ٦٧ .

فالإنسان المعصوم إما ينصرف عن المعصية بنفسه اختياراً ، ونسبة الصروف إلى عصمته تعالى كتسبة انصراف غير المعصوم عن المعصية في الإرادة والاختيار .
هذا هو يوسف (ع) في الآية وقد انصرف عن ارتكاب الفاحشة على علم ليكون من المخلصين المعصومين .

وينتهي بنا القول إلى أن يوسف (ع) قد شهد الله تعالى ببراعته " إنه من عبادة المخلصين " وشهد الشيطان ببراعته فيعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " وشهد ببراعته الشاهد من أهل العزيز ﴿ إِنَّ كَانَ قَبِيصَةً قَدْ مِنْ قَبْلِ قَصْدَتِ وَهُوَ مِنَ الْكَانِبِينَ ﴾ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَبِيصَةً قَدْ مِنْ دُبُرِ فَكَذِبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَبِيصَةً قَدْ مِنْ دُبُرِ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَ إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ لَسْتَ بِكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿ يوسف : الآيات - ٢٦ - ٢٩ ، وشهد ببراعته النسوة اللاتي قطعن أيديهن بقولهن " ما علمنا عليه من سوء " وشهدت ببراعته امرأة العزيز * ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٥١ ، فالذي يريد أن يستقيم يوسف (ع) ويلصق به اللواتي عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب للشيطان ، وكلاهما شهد ببراعة يوسف .

٦. العصمة المحمدية :

- الرسالة المحمدية هي خلاصة وتكملة .

إنها خلاصة الرسائل السماوية واختصار لها وإنها تكملة وخاتمة للوحي الإلهي . وإذا كان الرسل الأوائل على عصمة فما بالك بالرسول الخاتم !

ومحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم النسخة المفردة في الناس بعد خصه الله بالرسالة الشاملة الخالدة التي لا يأتيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .
محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم الصالح الأمين ، البشير النذير ، الأنبي الذي بعث في الأميين يتلو عليهم آيات الله ويذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وهو على الخلق العظيم .

محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو ورسالته حاجة الإنسانية في جملة الشؤون على مساحة كل الزمان وكل المكان ولا تعقيب عليها .

سيس من عباده ان يكون المعصوم عن اللوثات ، والمبرأ من المأثم والخطيئات ؟
ما هو مبرر اجنباء الله له ؟ وما هو مبرر اصطفاؤه لينهض بالرمالة الأخيرة إذا كان
يخطئ كما يخطئ العاديون من الناس ؟

ولئن كان من ظاهري بعض من الآيات القرآنية ما يحدث الاضطراب في فهمها فما
تلك من الآيات في ذاتها ، إنما الشأن هو شأن العقول الفاصرة والمفسرة ، وإنما الشأن هو
شأن النفوس المشبوهة التي لا تلتزم بالموضوعية الخالصة ، ولا يتصل بها الإيمان عريقاً
عميقاً .

❖ شبهات :

من الآيات التي كانت مثار شبهة حول العصمة المحمدية قوله تعالى :
ا. إِنْ فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَسْتَمِرَّ
نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿ الفتح : الآيات - ١ - ٢ .
- قيل بالفتح بأنه صلح الحديبية ، وقيل بأنه فتح مكة ، وقيل بأنه فتح خيبر ، وقيل
بأنه الظفر على الأعداء بالحجج الدامغة والمعجزات الظاهرة الباهرة ، وإعلاء
كلمة الدين ، ولكن السياق القرآني لهذه الآيات لا يأتلف وهذا المتجه الأخير .

- اما آية الغفران فقد ذهب المفسرون في تأويلها مذاهب لا تتسجم مع العصمة في
معظمها :

- أولاً : المراد بما تقدم وما تأخر من الذنب هو ما كان من النبي قبل البعثة
وبعدها أو ما صدر قبل الفتح وما صدر بعده .
- ثانياً : هو ما وقع وما لم يقع على الوعد بأنه يغفره له إذا وقع .
- ثالثاً : هو ما تقدم من ذنب أبويه آدم وحواء ببركته وما تأخر من ذنوب
أمته .
- رابعاً : هو قديم ذنبه وحديثه لو كان له ذنب .

□ خامساً : القول هو بمثابة التعظيم وحسن الخطاب والمعنى : غفر الله لك
كما في قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَبْتَ لَهُمْ ﴾ التوبة : الآية - ٤٣ .

□ أساساً : هو ترك المندوب والأولى من الأوامر الإرشادية دون التمرد على التكليف ، والأنبياء يؤاخذون على ترك الأولى كما يؤاخذ غيرهم على ترك المعاصي كما قيل : " حسنات الأبرار سيئات المقربين " .

□ سابعاً : ما ورد على السنة جماعة من أصحابنا كان له وجهان :

- غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر هو غفران ما تغتفر من ذنوب أمته ، وما تأخر بشفاعته ، ولا شائبة في إضافة ذنوب أمته إليه للاتصال المباشر بينه وبين أمته . قال الصادق (ع) جواباً على سؤال : والله ما كان له ذنب ولكن الله سبحانه ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة علي (ع) ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر .

- ما ذكره المرتضى هو أن الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول ، والمراد ما تقدم من ذنوبهم إليك في منعهم إياك عن مكة وصدهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المغفرة على هذا التأويل هو الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يزيل الله عنك ويمسح عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكة فتدخلها فيما بعد جزءاً على جهادك .

وبأنه لتأويل دقيق إلا أنه يخالف ظاهر الآية ولا يأنف مع السياق لأن المغفرة للذنوب لا علاقة لها بالفتح .

ثامناً : ورد في الميزان قوله :

" قيام النبي بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة ، وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله وسلم ذا نية سيئة عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة ، وما كانوا لينسوا زهوق ملتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه ، غير أن الله سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة ، فذهب بشركتهم وأحمد ناره فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم الذنب وأمنه منهم .

فالمراد بالذنوب - والله أعلم - التبعة السيئة التي لدعوته عند الكفار والمشركين ، وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه : ﴿ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ الشعراء : الآية - ١٤ ، وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة ، وما تأخر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنييتهم ، ويؤيد ذلك ما يتلوه من قوله " وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ إِنْ أَنْ قَالَ - وَيَنْصُرَكَ نَصْرًا عَظِيمًا " ١ .

وفي هذا التوجه كان فهم الرضا (ع) للآية حين سأله المأمون قاتلاً : يا ابن رسول الله: أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال فأخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿ نَبِيغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الفتح : الآية - ٢ .

قال الرضا (ع) :

لم يكن أحد عند المشركين من أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله صلى الله عليه وآله لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً ، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْتَنُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَآذُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأَةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خِتْلَاقٌ ﴿ ص : الآيات ٥ - ٧ ، فلما فتح الله عز وجل على نبيه مكة قال له : يا محمد " إنا فتحنا لك " مكة " فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر " عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم من مكة . ومن بقي منهم لم يقرر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه ، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم فقال للمأمون : " ش ترك يا أبا الحسن " ٢ .

هذا التأويل الدقيق ، وهذا الفهم العميق للآية هما اللذان ينسجمان مع أخلاقية الرسول صلى الله عليه وآله ويأتلفان مع موقعه ومهمته .

^١ - المجلد : ١٨ ص ٢٥٤ .

^٢ - البحار : جلد ١١ ص ٨٣ .

وحين يكون التأويل للإمام الرضا (ع) خاصة وللأئمة عليهم السلام عامة فليوقف
تأويل أهل العلم والفكر أجمعين .

ولطالما أن العصمة قطعية وبيّنة للأئمة نقلاً وعقلاً فلا مجال لتأويل الآيات خارج
هذه الدائرة !

عجباً لأولئك المتحذلقين الذين يقيسون الأنبياء المخلصين على سائر البشر في الخطأ
والصواب ، في الرذيلة والفضيلة . ألا تجد في هؤلاء المتحذلقين ضعفاً في إيمانهم ، ونقصاً
في فهمهم ؟

ما معنى اجتناء الله لمحمد واصطفائه وإخلاصه وانتدابه لأعظم مهمة بشرية ؟

ب- قال تعالى :

﴿ عَسَىٰ وَتَوَلَّىٰ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يُرَىٰ (٣) لَوْ يَتَذَكَّرُ فَنَتَفَعَلَهُ
الذِّكْرَىٰ (٤) لَأَمَّا مَنْ اسْتَعْنَىٰ (٥) فَلَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ (٧) وَأَمَّا
مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْفَىٰ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١)
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي مَضْجٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِإِنْشَادٍ مُّسْتَفَرِّغَةٍ
(١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ عيس : الآيات - ١ - ١٦ .

من وحي الآيات :

تبدأ الآيات بصيغة الغائب حين تقول " عيس وتولى أن جاءه الأعمى " بسبب مجيء
الأعمى بمعنى يمر وقبض وجهه وأعرض وصرعان ما تتحوّل الآيات في العتاب إلى صيغة
الخطاب " وما يدريك لعلّه يركى " .

إن المعنى بالخطاب الإلهي المعاتب قد تقيس وجهه وأعرض عن الأعمى حين جاء ،
والحال أنه لا يدري لعلّ هذا الأعمى يتطهر بمصالح الأعمال بسبب مجيئه وتعلّمه واتعاضه .

يبدأ العتاب هادئاً ، وما يدريك أن يتحقّق هذا الخير على كثرة ، أن يتطهر قلب هذا
الرجل الأعمى الفقير الذي جاء راعياً بالخير ، أن يتيقظ قلبه فتنفعه الذكرى ، وما يدريك أن
يشرق هذا القلب بيقين من نور الله ، فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء ؟ ليس
الأمر بالبصر إنما الأمر بالبصيرة والقلب .

وتعلو نيرة العتاب وشدة ، لينقل إلى التعجيب والتوبيخ ﴿أَمَا مَنْ اسْتَفْنَى﴾ (٥) فقلت
لَهُ تَصْدَى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرْكَبُ (٧) وَأَمَا مَنْ جَانَكَ يَسْمَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فقلت عنه
تَلْهُى ﴿عيس : الآيات - ٥-١٠ .

أليس الرجل رغم عماه جاء يتعلم ويتذكر ويتزكى ؟

إن حاجته في دينه ، إن رغبته في التفقه في أحكام الله ، إن سعيه الشاق طلباً للمعرفة
دو على عصى في بصره لا بصيرته ، كل ذلك مدعاة لأن ينال الرعاية والرحمة والإقبال
والاهتمام لأن ينال الإعراض والانقباض والاشمزاز .
من الذين ذهب بهم الفهم إلى أن المخاطب هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رأوا
في التعبير عنه أولاً بضمير الغيبة إجلالاً له لإيهام أن من صدر عنه العيوس والتسولي هو
غيره صلى الله عليه وآله لأنه لا يصدر مثله ، وثانياً بضمير الخطاب إجلالاً له أيضاً لما فيه
من الإيثار بعد الإيجاش ، والإيثار به الاعراض .

- لقد وردت الروايات من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في عبد الله بن أم مكتوم
الأعمى الفقير، إنه عبد الله بن شريح القهري الذي جاء النبي صلى الله عليه وآله ،
وكان مشغولاً بأمر جماعة من قريش يدعوهم إلى الإسلام ، وهو لا يعلم بأنسه
مشغول بأمر القوم ، يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله فكره الرسول هذا وعيس
وجهه وأعرض عنه، فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول عتاباً شديداً،
ويقرر القيم في حياء الجماعة للمسلمة في أسلوب قوي حاسم كما يقرر حقيقة هذه
الدعوة وطبيعتها .

وتروى في المجمع أكثر تفصيلاً حين يروي عن هذه الطرق بقوله بأن عبد الله بن أم
مكتوم أتى الرسول وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبياً جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب
وأبياً وأمياً ابني خلف يدعوهم ويرجو إسلامهم ، فقال : يا رسول الله أقرني وعلمني مما
علمك الله ، فجعل يناديه ويكرر النداء ، ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت
الكرامة في وجه رسول الله لقطعه كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه
العميان والعبيد ، فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فنزلت الآيات ، وكان رسول الله

بعد ذلك بكرمه وإذا رآه قال : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي . ويقول له : هل لك من حاجة ، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين .

لعل هذه الروايات تسمح بمدخلات ومناقشات لأنها ليست موثقة من جانب ولا تتسجم مع مفهوم العصمة من جانب آخر .

- قال المرتضى : ليس في ظاهر الآية دلالة على توجيهها إلى النبي بل هو خير محض لم يصح بالخير عنه ، وفيها ما يدل على أن المعنى بها غيره لأن العيوس ليس من صفات النبي مع الأعداء المبائنين ، فضلاً عن المؤمنين المسترشدين ، ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء ويتهلى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة ، ويؤيد هذا القول قوله سبحانه في وصفه " وإنا على خلق عظيم " وقوله " ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضتوا من حولك " فالظاهر أن قوله عيس وتولى " المراد بها غيره .

- قال الصائق (ع) بأنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي ، فجاء ابن أم مكتوم ، فلما رآه تقدّر منه ، وجمع نفسه ، وعيس ، وأعرض بوجهه عنه ، فحكي الله سبحانه ذلك ولكره عليه .

- وقال الصائق (ع) : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال : مرحباً ، والله لا يعابني الله فيك أبداً ، وكان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي مما يفعل به .

- لقد نوه القرآن بالنبي وأثنى عليه في أخلاقه قبل نزول هذه السورة . هل يصح أن يعظم الله خلق النبي ثم ينقلب فيعابته على أخلاقه ، وأنه تهلى عن أهل الفقر وإن آمنوا واسترشدوا ، وتصدى لأهل الغنى وإن كفروا وأعرضوا .

- كيف يكون من النبي عيوس وإعراض عن المؤمنين وقد تنزل عليه قبل ذلك قرآن مبين يقول ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الحجر : ٨٨ ، ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الحجر : الآية ٩٤ .

- إن العيوس والإعراض عن الفقير لفقراء ، والأقبال على الغني لغناه إنما هما من المقابح العظيمة المنافية للخلق الإنساني ، والتي لا تحتاج في تجنبها إلى نهى لفظي.

وبهذا وبغير هذا يصدق الردّ والجواب على ما قيل بأن الله لم ينه النبي عن هذا الفعل إلا في هذا الوقت فلا يكون معصية بعده وأما قيل النهي فليس ذلك بمعصية^١ .

.. إن هذا التوبيخ الإلهي لهذا الأموي الذي أخذته العزة بالغرور هو مدرسة تقرر بأن الإيمان لا يستوي معه شيء ، وأن قيمة الإنسان ليست بالمال أو الجاه ، ولا بالمظهر أو الشكل ، إنما هي بالخلق الفذ ، والعقل النير ، وانقلب الراشد .

- وإن هذا الأمر هو أعظم وأشمل من هذا الحادث الفرد ومن موضوعه المباشر . هذا الأمر هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " والأكرم عند الله هو الذي يستحق الرعاية والاحتفال ، ولو تجرد من كل المقومات التي يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضي ، كالنمب والقوة والمال والجاه وسائر القيم التي لا وزن لها حين تنعزى على الإيمان والتقوى .

- واستطاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يحطم موازين البيئة وقيمتها المنبثقة من اعتبار الأرض . لقد زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية لمولاه زيد بن حارثة . أخی بین المسلمين في أول الهجرة حيث جعل معه حمزة ومولاه زيداً أخوين ، وبعث زيداً أميراً في غزوة مؤتة . أمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم وهو يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، رد على لفظ الأكنة بشأن سليمان الفارسي بقوله " سليمان من أهل البيت " . فالقضية عنده - صلى الله عليه وآله وسلم - إما إسلام وفيه قيم للسماء وموازين السماء وإما جاهلية وفيها قيم الأرض وموازين الأرض .

- بذلك التوجيه الإلهي وبهذا الهدي النبوي كان الميلاد لخير مجتمع بشري ، بل لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر لتكون للمعجزة الإسلامية الكبرى التي لا تتحقق إلا بإرادة إله وعمل رسول .

^١ قول ابن عباسي كما ورد في المصحف .

﴿لَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَنِّتْ﴾ الضحى : الآيات - ٦- ١١ .

وأنثرت شبهة حول العصمة انطلاقاً من هذه الآية التي تشير في ظاهرها إلى أن النبي كان ضالاً في عقيدته فهده الله . وذهب المتأولون والمفسرون في هذه الآية مذاهب منها :

- النبي كان على حيرة في أمر معاشه فهده الله إلى وجوه الرأشدة . يقال للرجل الذي لم يهتد إلى طريق مكسبه وجه معاشه بأنه ضال لا يدري إلى أين يذهب .
- النبي لا يعرف الحق فهده الله إليه بإتمام عقله ، وإقامة الأدلة حتى عترف الله بصفاته بين قوم أخذ منهم الضلال والشرك كل مأخذ ، فكان ذلك من لطف الله ونعمه عليه .
- النبي ضل في طريق مكة حينما عادت به حليلة بعد أدائها حق الرضاع إلى جده عبد المطلب .
- إشارة إلى أنه ضل في شعاب مكة وهو صغير ، فرآه أبو جهل ورده إلى جده فمن الله سبحانه عليه إذ رده إلى جده على يد أصدقائه .
- النبي ضل في مسيره إلى الشام مع عمته أبي طالب في قافلة ميمرة غلام خديجة .
- النبي كان مغموراً بين الناس ، مجهولاً شأنه ، خاملاً ذكره لا يعرف الناس له حقه ، فهدهم الله إلى معرفته ، وأرشدهم إلى فضله ، والاعتراف بصدقه ، وتعظيم أمره . وإنها لوجوه ضعيفة لا يمكن للركون إليها ، أو الأخذ بأحدها .
- الضلال هو عدم الهداية ، النبي كانت نفسه لذاتها ضالّة وإن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها . لا هداية لأحد من الخلق إلا بالله . لقد كان النبي ضالاً عما هو عليه الآن من النبوة والشريعة وكان غافلاً عنهما فهده الله إليهما .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تُدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ الشورى : الآية - ٥٢ .

ويلتقى مع هذا أيضاً قوله تعالى على لسان موسى ﴿ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الشعراء : الآية - ٢٠ ، وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ يوسف : الآية - ٣ .

ألا تجد أن الضلال هو عدم العلم بالشيء ؟ كما في قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ البقرة : الآية - ٢٨٢ .

- لماذا لا يذهب بنا التأويل إلى أن هذه السورة التي نزلت بعد فترة من الوحي لمسة حنان ، ونسمة من رحمة ، وطائفة من ود ، وتسلية وتسرية وترويح وتطمين للخطر القلق ، والقلب الموجوع .

لقد فتر الوحي ، فقال المشركون : " ودّع محمد ربه " فأنزل الله تعالى هذه السورة الحانية المؤنسة التي تفيض بالمودة الإلهية وتبعث على الأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

ولعلها الهداية من حيرة التلق والاضطراب بعد فترة الوحي ، لعلها كانت هداية بسبب ما كان يعانيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الفترة من انقطاع الوحي ، وشماتة المشركين ، ووحشة الحبيب من الحبيب ، فجاءت هذه تنكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه ، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة .

د- قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ النَّاسِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ مِيقٌ لَمَسَكُمُ فِيهَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِنْهُ غَنَمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنفال : الآيات - ٦٧ - ٦٩ .

- آيات بدرية نزلت عقب وقعة بدر الكبرى ، تعاتب أهل بدر وتبيح لهم الغنائم .
- لقد كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين ، قتل منهم علي (ع) سبعة وعشرين ، وكان الأسرى سبعين ، ولم يؤسر أحد من الصحابة . لقد جمعوا

الأسرى وغرنوهم في الجبال وساقوهم على أقدام . لقد قتل من أصحاب النبي تسعة رجال منهم سعد بن خيثمة وكان من النّفياء وكان من الأوس .

- إن الآيات تطلب من المعسكر الإسلامي أن يكون همّه ابتداء هو القضاء على قوّة الطاغوت بتحطيم كل أسباب قوّته ، فإذا كان أسر المعتقلين وفداؤهم لا يحقق هذه الغاية ، فإنّ هذا الإجراء يستبعد أمره لأنه ليس للرسل وأتباعهم أن يكون لهم أسرى إلا بعد أن يثخنوا في الأرض ويستقرّ دينهم بين الناس ، فيدمروا قوّة عدوّهم ، ويستعلوا في الأرض ، ويكون لهم التمكن ، لا أسرى ولا فدية قبل الإثخان في الأرض .
- إن الغنائم ، ومنها فدية الأسرى ، هي حلّ للمسلمين في المعركة من أموال المشركين ، كما أحلّ لهم أن يأخذوا فدية الأسرى بعد أن يثخنوا في الأرض ويتمكنوا فيها ويخضتوا شوكة عدوّهم ويحطّموها .
- إن الأسرى في المعسكر المسلم ينبغي أن يرغبوا في الإسلام ، بوعد الله لهم أن يعطيهم خيراً ممّا أخذ منهم من الغنيمة أو القداء مع تحنيرهم من الخيانة بيار الله الذي أمكن منهم أول مرّة .
- واختلف المفسرون أيّ اختلاف في تأويل الآيات وتفسيرها .

.. يمكن لهذا الاختلاف أن يكون مصدره الاختلاف حول سبب النزول ، أو حول معانيها انطلاقاً من اختلاف الروايات وتعارضها في هذا الشأن . إن التهديد أو العتاب ينصبّ إمّا : على النبيّ والمؤمنين أجمعين ، وإمّا على النبيّ والمؤمنين ما عدا عمر ، أو ما عدا عمر وسعد بن معاذ ، وإمّا على المؤمنين دون النبيّ وإمّا على شخص أو أشخاص أشاروا عليه بالفداء لا بالقتل بعد أن استشارهم .

.. قال ابن اسحق - وهو يقص أخبار الغزوة - : فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار ، يحرسون رسول الله ، يخافون عليه كرهة العدو ، ورأى رسول الله ، فيما ذكر لي في وجهه سعد الكراهية لما يضع الناس ، فقال له رسول الله : والله لكأنك يا سعد تكره ما

يصنع القوم . قال : أجل والله يا رسول الله . كان أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال .

- لما كان يومئذ النصارى فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر منهم سبعون رجلاً ، واستشار رسول الله أبا بكر وعمر وعلياً . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنوا النعم والعشيرة والإخوان ، وإنسي أرى أن تأخذ منهم الغدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً . فقال رسول الله : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال قلت : والله ما أرى رأي أبي بكر ، ولكني أرى أن تمكّني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه وتمكّن علياً من عتيل فيضرب عنقه ، وتمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأنستهم وقادتهم ! ... فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال أبو بكر ، وأخذ منهم الغداء ، فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبي وأبي بكر وهما يبيكان ، فقلت : ما يبيكما أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ! قال النبي : للذي عرض على أصحابك من أخذهم الغداء ، لقد عرض عليّ عذابكم من لدن هذه الشجرة - لشجرة قريبة من النبي - وأنزل الله عز وجل : " ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ... " .^١

- " ... استشار النبي الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : إن الله قد أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله إضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ، فقال : أيها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس . فقام عمر فقال : يا رسول الله إضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ، فقال للناس مثل ذلك . فقام أبو بكر فقال : يا رسول الله نرى أن نغفر عنهم وأن نقبل منهم الغداء . قال : فذهب عن وجه رسول الله ما كان فيه من النعم ، فغفر عنهم وقبل منهم الغداء . قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال : الآية - ٦٨ .

^١ - مستند أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير .

- قال الرسول صلى الله عليه وآله لأصحابه يوم بدر في الأسارى : إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعذبتهم . وكانت الأسارى سبعين ، فقالوا بل نأخذ الفداء فنستمع به ، وننقوى به على عدونا ولمستشهد منا بعذبتهم . قال عبيدة : طلبوا الخيرتين كليهما فقتل منهم يوم أحد سبعون . وفي كتاب علي بن إبراهيم لما قتل رسول الله للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى ، فقالوا يا رسول الله : قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك ، أتجد أصلمهم ؟ فخذ يا رسول الله منهم الفداء ، وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش ، فلما طلبوا إليه وسألوه نزلت الآية " ما كان للنبي أن يكون له أسرى... " فأطلق لهم ذلك وكان أكثر الفداء أربعة آلاف وأقله ألفاً ، فبعت قريش بالفداء أولاً بأول .
- وتنتهي الآيات بالترغيب للمشتى ، والوعد بالغفران ، والسعادة للأسرى إن أسلموا ، أما إذا أرادوا خيانة للنبي فله غني عنهم .
- بعد هذا العرض الموجز لهذه الروايات المختلفة نلقت إلى خلفياتها وضعفها ونوقف عند تعارضها مع مقام النبوة والنبى .

١. النبى لم يستمر أصحابه لافى الأسرى ولا فى الغنائم ولا فى الفداء ، والآيات بظاهرها هل تشير إلى ذلك ؟
٢. الفداء والغنائم بعد نزول الآيات لا قبلها .
٣. حاشا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يستحل شيئاً قبل أن يأذن الله له بوجي ، وحاشا له أن يهتد بنبيه بعذاب ذي بأس شديد دون أن يرتكب إثماً أو أن يأتي بمعصية . والعذاب الشديد لا ينزل بصاحبه إن كانت ذنوبه من الصفات حسب فهم البعض لهذه المخالفة وأنها ليست من الكبائر .

٤. النبى معصوم ومنزّه عن الخطأ بحكم مقامه واصطفاء الله له .
٥. العتاب هو على المؤمنين لا على النبى لأخذهم الأسرى عند نزول الآيات وليس العتاب بأسباب استباحة الفداء "فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً" ، واتقوا الله إن الله غفور رحيم" لقد ألحوا على النبي أن يعطيهم الغنائم والفداء فبأبح الله لهم ذلك لكنه عاتبهم على أخذهم الأسرى .
٦. كيف يسألون النبي الأنفال كما في آية صدر التورة ولا يسألونه الفداء الذي يقارب المائتين والثمانين ألف درهم ؟

٧. لفظ الآية وسياقها ليس فيها ما يدل على أن للنبيَ يشارك علامة جماعته العناب ولا أنه استشارهم في الأسرى ، في شأن الأسرى أو أنه رضي بذلك ، ولم يرد في شيء من الآثار بأنه أوصى بأخذ الأسرى ، بل كان ذلك بما أقدمت عليه عامة المهجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب : إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء ، فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر ، وكان الرجل يقي أسيره أن يقاتله الناس بسوءه إلا على عليه السلام فقد أكثر من تمثل الرجال ولم يأخذ أسيراً^١ .

وجملة ما يمكن أن يقال في مثل هذه الآيات أنه ما كان للنبي أنياً كان النبي أن يكون له أسرى حتى يثنى في الأرض ويستقر دينه وتنتشر دعوته ، أنتم معاشر أهل بدر تبغون عرض الحياة الدنيا ، ومتاعها المربع وما عند الله في الآخرة خير وأبقى ، والله يريد الآخرة بما أمر ، وبما شرع ، وبما أخبر بشأن قتال الكفار ، والله عزيز لا يغلب على أمره ، حكيم يحسن الحكم ولا يبلغو فيه " ولولا كتاب من الله سبق " ويقضي بأن لا يحبسكم ولا يأخذكم بذنوبكم " لمسكم فيما أخذتم " من الأسرى لا من الفداء والغنائم " عذاب عظيم أليم هو لأصحاب المعاصي الكبيرة .

٨. وينتهي بنا القول في الآية إلى أن الأنبياء الذين سبقوا كانوا إذا حاربوا الأعداء وظهروا بهم يزلون فيهم الرعب ، وينكّلون بهم ثقيلاً لينقلبوا عبرة لمن بعدهم فلا يحاتون الله ورسوله . ثم يكن للملث من الأنبياء أسرى ولا فداء حتى يثخنوا في الأرض ، ويعلو شأن دينهم ، وتستقر دعوتهم في العباد والبلاد .

وماذا قال نوح بعد أن ينس من قومه ؟

ثم يقول ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَكُونُوا إِلَّا فَاغْرًا كَغَرًا ... ﴿ محمد : الآية - ٤ .

وماذا قال تعالى بعد أن ارتفعت راية الاسلام خفالة في الحجاز واليمن ؟

ثم يقول ﴿ ...فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فِئًا مِّنْهُنَّ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ﴿ نوح : الآيات - ٢٦-٢٧ .

^١ - ابن جرير ، جلد ٩ ص ١٣٦ .

- لقد كانت غزوة بدر الكبرى هي المعركة المتحدية الأولى بين المسلمين والمشركين ، وكان المسلمون ما يزالون قلة والمشركون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ، ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين . ومن جانب آخر فالمسلمون أشداء على الكفار رحماء بينهم يجب أن يكون في قلوب المؤمنين هودة للمشركين .
- وتتحول الآيات إلى الأسرى فتحيي فيها الرجاء ، وتمنيهم بكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار ، ومغفرة ورحمة من الله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنفال: الآية- ٧٠.

إنه الخير المشروط بصلاح قلوبهم ، وإنه الخير الذي ليس فيه شائبة ، إنه الإيمان . إن الإسلام مع الأسرى مدرسة تلمس مكامن الخير والصالح فيهم ، وتوقف في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى . إن الإسلام لا يستل انتقاماً ، ولا يسخر استغلالاً كما كان شأن الفتوحات الرومانية وغيرها .

عن الزهري عن جماعة سمّاهم قال : بعثت قريش في فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يا رسول الله قد كنت مسلماً ! فقاتل رسول الله : الله أعظم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفك عتبة بن عمرو وأخي بني الحارث بن فهر . قال : ما ذاك عندي يا رسول الله ! قال : فأين المال الذي دفنته أنت وأُم الفضل ، قلت لها : أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل حسب يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كلن معي ! فقال يا رسول الله : لا . ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك . ففدى نفسه وبني أخويه وحليفه . فانزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنفال : الآية- ٧٠ ، قال العباس : فأعطاني الله مكلن العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كل في يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

ولكن للآيات التفاتات أخرى غير الترغيب ، إنها التحذير من خيانة الأسرى للرسول
كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير :
﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال :
الآية- ٧١ .

لقد خانوا الله فأنشروا به غيره ، فإن أراونا خيانة رسوله وهم أسرى في يديه
فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التي أوقعتهم في الأسر ، ومكنت منهم رسول الله وأوليائه .
والله أعلم بمسرئهم " حكيم " في إيقاع العقاب بهم .

قال القرطبي في التفسير ، قال ابن العربي : لما أسر من المشركين ، تكلم قوم منهم
بالإسلام ، ولم يعضوا فيه عزيمة ، لا اعترفوا به اعترافاً جازماً . ويشبهه أنهم أراونا أن
يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان في قلبه
وبلسانه ولم يعض فيه عزيمة لم يكن مؤمناً ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافراً إلا ما
كان من الوسوسة التي يقدر على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد تبين الله لرسوله
الحقيقة فقال : " وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ " أي إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرراً " فقد خانوا الله
من قبل " كفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك : وإن كان هذا القول منهم خيراً ، ويعلمه الله ،
فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيراً مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم
ومكرهم .

- ومن الآيات التي توهم بظاهرها عدم العصمة المحمدية :

﴿ وَلَمَّا اتَّبَعْتُ أُمُوًّا فَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴾ البقرة : الآية- ١٢٠ .
﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ البقرة : الآية- ١٤٧ .
﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَسُبْحَانَ ظَالِمِيْنَ ﴾ آل
عمران : الآية- ١٢٨ .

﴿ إِنْ أَرَادْنَا لِيُكَفِّرَنَّ عَنْكَ سَائِرَ الذُّنُوبِ يَبْرَأَنَّكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِيِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا
تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ أُنْفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴾
النساء : الآيات- ١٠٥-١٠٧ .

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِبِهِمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأنعام : الآية - ٣٥ .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ الأنعام : الآيات - ٥٢-٥٣ .

﴿ وَإِذَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الاعراف : الآية - ٢٠٠ .

﴿ غَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ التوبة : الآية - ٤٣ .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا نَزَّلْنَا إِلَيْكَ فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرَعُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ يونس : الآيات - ٩٤-٩٥ .

﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَتَوَلَّى كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِنُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَفْعِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هود : الآيات - ١١٢-١٠٩ .

﴿ وَلَمَّا اتَّخَذْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِاسِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ الرعد : الآية - ٣٧ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْعَثَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ الاسراء : الآية - ٢٢ .
﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَفْتَنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تُخَذِّلُكَ خَلِيلًا (٧٣) وَتَوَلَّى أَنْ تَفْتَنَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنْ إِيَّاهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَأَذْنُكَ

ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿الاسراء : الآية ٧٣ .

﴿وَكُنْ شَيْئًا لِّذَهَبٍ بَالِدِيٍّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ الاسراء : الآيات - ٨٦- ٨٧ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَلَّى الْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيُجَسِّلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ اتَّوُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
الحج : الآيات - ٥٢- ٥٤ .

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ الشعراء : الآية - ٢١٣ .

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونْ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصْنَعُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
القصص : الآيات - ٨٦- ٨٨ .

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾
الأحزاب : الآية - ٣٧ .

﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ فإِنَّمَا أَصَلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اسْتَدْنَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ سبأ : الآية - ٥٠ .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لِيُخْلِفَنَّ عَنْكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر : الآية - ٦٥ .

﴿لَمْ يَقُولُوا اقْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كِتَابًا فَبِئْسَ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الشورى : الآية- ٢٤ .

﴿وَسَأَلَ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَذُونَ﴾ الزخرف : الآية- ٤٥ .

﴿قُلْ إِنْ كُنْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الزخرف : الآية- ٨١ .

﴿وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم : الآية- ٣-٤ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التحريم : الآية- ١ .

نزول القرآن

قال تعالى :

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ : الانسان : الآية - ٢٣ .
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ : القدر : الآية - ١ .
﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ : البقرة : الآية - ١٨٥ .
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ﴾ : الدخان : الآية - ٣ .

النزول في اللغة :

النزول ، في الأصل ، هو الهبوط والانحطاط أو الورد على المحل من علو ، والعلو كما يكون مكانياً فيقال : علا الطائر إذا ارتفع عن مستوى الأرض ، فقد يكون شائئياً معنوياً فيقال : علا مستوى الشعب إذا ارتفع شأنه ومكانته .

النزول في الاصطلاح :

هو وصول القرآن إلى النبي من جانب الله تعالى . هذا الاستعمال نعتبه استعمالاً مجازياً استعاريّاً ، وبين للمعنى الحقيقي والمجازي الاستعاري علاقة المشابهة لأن وصول القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وآله يشبه النزول ، ولأن هذا الاستعمال يشير إلى علو الجهة التي اتصل بها النبي عن طريق الوحي ، وإن كان المقصود بالعلو هو المعنوي لا العلوي المكاني لأن الله لا جهة له في المكان حيث يتجاوز الزمان والمكان .

- ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ : الفحل : الآية - ٨٩ .
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ : الانسنان : الآية - ٢٣ .

لقد كانت هناك محاولة لغوية لافتة للتفريق بين الإنزال والتّزِيل ، محاولة تذهب إلى أن لفظ الإنزال يفيد معنى التّزِيل دفعة واحدة أو يفيد النزول الإجمالي :

" إنا أنزلناه في ليلة القدر " أي نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل بعدها منجماً ، وقال القسطلاني : كما أنه كان في نزوله مع أفضل الملائكة في ليلة مباركة إلى سماء الدنيا جملة واحدة في بيت العزة خيرات متزايدة ^١ .

ومحاولة أخرى تجري بأن لفظ التنزيل يفيد معنى النزول التدريجي أو الذي يقال له التنزيل المنجم . يقول تعالى : ﴿ وَقرآننا فرقناه لقراءة على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ الإسراء : الآية - ١٠٦ . قال ابن عباس : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ولطالما كان نزول القرآن بواسطة الوحي ، فالوحي لغة هو الاعلام في خفاء ، وقد أطلق هذا اللفظ على الطريقة الخاصة التي يتصل بها الله تعالى برسوله نظراً إلى خفائها ودقتها وعدم تمكن الآخرين من الإحساس بها .

والوحي لم يكن الطريقة الخاصة بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم وحده بين الأنبياء والتي بها كلمات من ربه ، إنما الوحي هو الطريقة العامة لاتصال الأنبياء بالله . ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وإليها يؤنس وهارون ومسلمان ... ﴾ النساء : الآية - ١٦٣ .

وإذا صح أن القرآن نزل دفعة واحدة فتكون الغاية من ذلك تصوير النبي بالعلوم الربانية والأسرار الكونية ليمتلئ بها قلبه ، وتغنى بها نفسه ، وذلك يشير إلى أن النبي كان على علم سابق بمحكم القرآن ، ولعل قوله تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحية ﴾ وقال ربنا زدني علماً ﴿ طه : الآية - ١١٤ .

أما التنزيل المنجم فغاياته تربية النبي والمؤمنين معاً كما سنوضح .

نزوله في شهر رمضان :

قال تعالى :

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ القدر : الآية - ١ .

^١ تعاضد الإشارات ج ٦ ص ٢١ .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٥ .
﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ ﴾ النحلان : الآية - ٣ .

وابتدأ التنزيل في ليلة القدر من شهر رمضان .
شهر رمضان الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى خلوته المعتكفة
المنعقدة بغار حراء^١ .

روي عن الرسول صلى الله عليه وعلى آله قوله :
" نزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزل التوراة لسبب مضين من
رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلّت من رمضان ، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلّت
من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلّت من رمضان " .^٢
وليلة القدر في مذهبنا تتردد بين ثلثين من ليالي العشر الأخير من شهر رمضان :
الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ؟

وقال الصدوق : " اتفق مشايخنا على أنها ليلة ثلاث وعشرين " .^٣
لكن هذا التحديد لنزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر يثير تساؤلات عدة منها :
١ - ألا يتنافى ذلك - ظاهراً - مع ما اتفق عليه الإمامية وبعض من الأحاديث
الواردة عن طريق غيرهم على أن البعثة كانت في رجب . وهل البعثة تتحقق
دون أن تقتصر بنزول أي من القرآن ، خمس آيات من أول سورة العلق .
فكيف يتم ذلك مع القول بنزول القرآن - كله أو بدء نزوله - في شهر
رمضان في ليلة القدر ؟

٢ - ما المقصود من نزول القرآن في ليلة القدر ؟

^١ - مذكرات والتحفيف ونشد : هو غار في جبل من حلال مكة على ثلاثة أميال . وكان النبي قبل أن يهبط عليه الوحي بالتسربل
يعزل اليدين ويضمده فيه .

^٢ - كتاب أسباب النزول للرحمدي عن عبد الله بن حار : ٤ ونسب الطبري ج ٢ ص ٨٢ .

^٣ - وسائل الشريعة : ج ٧ باب ٣٤ من أبواب أحكام شهر رمضان .

هل نزل القرآن كله جملة واحدة في تلك الليلة رغم أن القرآن نزل نجومياً لفترة عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً حسبما تقتضيه المناسبات والحاجات والتي سميت باسم "أسباب النزول" .

٣. ما هي السورة القرآنية الأولى والآية الأولى ؟
٤. هل هي سورة العلق ؟ هل بعض من آياتها ؟
٥. وإذا كان الأمر كذلك فلم سميت سورة الحمد بفتحة الكتاب ؟
٦. ولا يمكننا تبرير هذه للتسمية بأنها السورة مرتبة في بدء المصحف !
٧. ألم تكن تسمى هذه السورة بفتحة الكتاب منذ بداية نزولها " لا صلاة إلا بفتحة الكتاب " ^١ .

ولعل الإجابة على هذه التساؤلات يمكن أن نوجزها بأن بدء البعثة لم يقتصر ببداية نزول القرآن ككتاب سنوي . فمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبى ولم يؤمر بالتبليغ العام إلا بعد ثلاث من السنين ، كان خلالها يدعو بسرية وخفية حتى نزل قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : الآية - ٩٤] ، وكان بدء نزول القرآن بعد تلك الفترة في ليلة القدر من شهر رمضان ، وبهذا الاعتبار صبح التعبير بأن القرآن قد نزل في ليلة القدر ، وإن كان نزوله تبعاً قد استغرق عشرين عاماً ، إذ كل أمر خطير يكون له مد ولمتداد، فإن تاريخه يبدأ ببدايته ^٢ . وكانت البعثة في رجب كما هي روايات أهل البيت وجماعة غيرهم .

أما القرآن كونه كتاباً سماوياً فلم ينزل إلا بعد فترة من الزمن بلغت الثلاث من السنين المتكتمة . لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إلى الله سرّاً ويكتم أمره إلا على نفر قليل من الناس ، وكان يصلّي إذ ذاك مع أربعة : علي ، جعفر ، زيد ، خديجة . وأقام صلى الله عليه وآله وسلم بمكة ثلاث سنين يكتم أمره ^٣ . وبعد ثلاث سنين من بعثه نزل " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " فأمر أن يجهر بالدعوة ويعم الإنذار ^٤ .

^١ - حديث شريف ، صحيح مسلم ج ٢ ص ٩ .

^٢ - راجع التمهيد في شرح القرآن لشمس معرفة جلد ١ ص ٨٠ .

^٣ - تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩ .

^٤ - سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٠ وبحث ج ١٨ ص ١٩٢ .

قال الصادق (ع) : مكث رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بمكة بعدما جاءه النوحى عن الله بآرك وتعالى ثلاث عشرة سنة ، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره حتى أمره الله أن يصدع بما أمر به ، فأظهر حينئذ الدعوة ^١ .

وقال الصادق (ع) أيضاً : " ثم نزل القرآن في طول عشرين عاماً " كما ورد في رواية الكليني ^٢ ، والعلاني ^٣ ، والصدوق ^٤ ، والمجلسي ^٥ .
أما الروايات والنصوص التي تحدد فترة النزول بعشرين عاماً فهي على كثرة ^٦ .
ماذا يفهم من القول بنزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان ؟

ليس من المنفق عليه أن القرآن نزل منجماً طيلة عشرين أو ثلاث وعشرين سنة في فترات مختلفة ، ومناسبات خاصة ، هي أسباب النزول للآية أو الآيات ؟
للقوف على هذه الظاهرة علينا أن نلجأ بتأويلات العلماء ، وآراء الباحثين في هذا الحقل .

من هذه التأويلات :

- ١ . بدء نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان ^٧ .
- قال الرازي مبرزاً ذلك بأن مبادئ الملل والدول هي التي تؤرخ بها ، لكونها أشرف الأوقات ، ولأنها أوقات مضبوطة معلومة ^٨ . يقول (ص) : لو يعلم العباد ما في رمضان سأي من خير - لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان .

يقول صلى الله عليه وآله وسلم : أيضاً : أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم تعطها أمة نبي قبلي :

^١ - الغيبة : الشيخ الطوسي ص ٢١٧ وكمال الدين للصفدي والبحار ج ١٨ ص ١٧٧ .

^٢ - تفسير العلاني ج ١ ص ٨٠ .

^٣ - تكملة - الأمروز - ج ٢ ص ٢٩ .

^٤ - الاعتقادات ص ١٠١ .

^٥ - بحار الأنوار ج ١٨ ص ٢٥٣ .

^٦ - راجع الاتفاق ج ١ ص ٢٠ .

^٧ - محمد بن اسحق ، مجمع البيان ج ٢ ص ٢٧ ، والشعي : الاتفاق ج ١ ص ٢٠ .

^٨ - التفسير الكبير ، ج ٥ ص ٨٥ .

إذ كان أول يوم منه الله عز وجل إليهم فإذا نظر الله عز وجل إليهم لم يعذبهم بعدها .
وخلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك .

وتستغفر لهم الملائكة في كل يوم وليلة منه ، ويامر الله عز وجل جنّته فيقول: تزيّني لعبادي المؤمنين ، يوشك أن يستريحوا من نصب الدنيا وأذاها إلي جنّتي وكرامتي ، فإذا كان آخر ليلة منه غفر الله عز وجل لهم جميعاً^١ .

هذا التوجه في فهم الآية نذهب مذهبه ونركن إليه ، نحن نجد أن اختلاف مناسبات الآيات تبعاً للأسباب والظروف هو أظهر دليل على اختلاف مواطن نزولها . ألا ترتبط كل آية بحادثة لها زمانها ومكانها ؟

إن القرآن لم ينزل جملة واحدة وإلا لكان قوله تعالى على لسان المشركين "لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة" لغواً وعبثاً .

ألم يكن لله تعالى رده على هذا الاعتراض بقوله ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ الفرقان : الآية - ٣٢ . إن نزول القرآن على فترات هو أدعى لأطمئنان القلب ليكون الشعور بعناية الله ورعايته في كل أن .

إن الآية الأولى أن يكون مقصودها أنه نزلت جملة منه ليلة القدر ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي . فأمّا أن يكون قد نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عما يقتضيه ظاهر القرآن ، والمتواتر من الأخبار ، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء^٢ .

وقال ابن شهر آشوب : " شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " أي ابتداء نزوله^٣ ، إن نزول القرآن هو من الأهمية بمكان ، وكيف لا يكون ذا خطورة بالغة ، والقرآن هو الكتاب السماوي الخاتم الخالد ، وهو للإنسانية كلها وفي كل زمانها ومكانها ، وكل حادثة حليـل وخطير له مدة وامتداد زمنيّان فإنّه يسجّل تاريخياً لحظة بدايته ، وحين شروعه .

^١ - صحيح التلخيص في ردود على الصمدوني : شرح عقائد الصمدوني ص ٥٨ .

^٢ - مناهج آرائي طالب ج ١ ص ١٥٠ .

٢. نزول القرآن في ليلة القدر هو أنه كان ينزل في كل ليلة قدر من كل عام ما كان الناس بحاجة إليه في تلك السنة من القرآن ، ثم ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً بما يأمره الله تعالى ، فيكون المقصود من شهر رمضان : هو النوع لا رمضان خاص .

هذا الاحتمال هو من تأويل الرازي^١ وابن جريج^٢ وابن عباس^٣ والقرطبي والحليمي والماوردي وغيرهما^٤ .

لكن ما هي الفائدة المرجاة من نزول آيات قبل مناسبتها ، وقيل الحاجة إليها ولا موقع لها ؟
٣. شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن أي في فرض صيامه . والمراد من القرآن آية أو آيات منه^٥ .

" شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن " أي الذي أنزل صومه في القرآن^٦ وقال سفيان بن عيينة : معناه أنزل في فضله للقرآن ، واختاره الحسين بن الفضل وابن الأثيري^٧ هذا التأويل وهذا الفهم يخص آية البقرة دون غيرها ، وإنه لتأويل بعيد عن الواقع ولا مستند له .

٤. إن معظمه نزل في أشهر رمضان وذلك من باب تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا ما ذهب إليه سيد قطب بقوله " الشهر الذي أنزل فيه القرآن إما بمعنى أن بدء نزوله كان في رمضان أو أن معظمه نزل في أشهر رمضان " .
هذا التأويل لم يؤكد سيد قطب بل أدرجه مدرج الاحتمال والظن ، وبالمراجعة لا نجد دليلاً وثائقياً على أن معظم آيات القرآن قد كان نزولها في أشهر رمضان وفي ليلة القدر خاصة .

❖ مدة الوحي :

واستمر الوحي المنجم حسب الوقائع والحاجات الفردية والاجتماعية طيلة عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً .

^١ - تفسير الكبير ج ٥ ص ٨٥ .

^٢ - الدر المنثور ج ١ ص ١٨٩ .

^٣ - مجمع ج ٢ ص ٢٧٤ .

^٤ - الألفاظ : ج ١ ص ٤٠ .

^٥ - مجمع ج ١ ص ٢٧٤ واكتشاف ج ١ ص ٢٢٧ .

^٦ - الضحاك ، الدر المنثور ج ١ ص ١٦٠ .

^٧ - التفسير الكبير للرازي ج ٥ ص ٨٠ .

^٨ - في طلال القرآن مجلد ١ ص ٢٤٥ .

والسَنَمَجْ يعني المَفَرَقَ الموزَّعَ بعدد المصالح ، والمنجَم هو في الأصل الكوكب ، ثم نقل إلى الوقت المضروب المعين ، وذلك لأنهم كانوا يتعرفون على الأوقات بالنجوم ، قيل : نجوم الكتابة وهم يعنون الأوقات المعينة لأداء حصصها ، ثم استعمل في تلك الحصص المؤداة في تلك الأوقات ، ثم اشتق الفعل فقيل : نجم الكتابة أو الذية أي وزنها حصصاً ، وأذاها دفعات^١ .

رأى فريق بأن نزول القرآن ابتدأ ببداية البعثة وللنبي حينذاك أربعون من العمر على وجه التقريب ، وتتابع النزول إلى قرب انتهاء حياة الرسول صلى الله عليه وآله .
قال ابن عباس بعث رسول الله لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ، ثم أمر بالهجرة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وسنين^٢ .

وقيل إن مدة إقامة النبي في مكة بعد البعثة عشرة أعوام ، وقيل خمسة عشرة عاماً ، ولكن أرجح الأقوال أنها كانت اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً . بدأت هذه الفترة من السابع عشر من رمضان لعام واحد من مولده وانتهت يوم أول ربيع عام ٢٤ من مولده كما في روايات .

أما الإقامة النبوية بالمدينة فقد استغرقت تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام حين بلغ النبي الثالثة والستين من العمر ، وهذا العام هو ذاته عام الوفاة ، ويوافق لعام العاشر من الهجرة . كل ذلك يقضي بأن نزول الوحي دام ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاماً باستثناء المدة التي فتر فيها الوحي وتبلغ ثلاث سنوات . وقد قدر بعضهم مدة نزول الوحي بخمسين وعشرين سنة .

هذا هو مذهب الفريق الذي يرى بأن القرآن نزل مرة واحدة على سبيل التدرج والتجسيم . أما الثابت عندنا في تحديد مبعثه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان في السابع والعشرين من شهر رجب . لذلك صيامه مستحب ، والقيام فيه بأدب وعبادات خاصة مستحسن ومندوب .

وقال (ع) :

لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فإنه اليوم الذي نزلت فيه النبوة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم^٣ .

^١ - من مفهومة الكتاب ص ٤ .

^٢ - البحار ٥٧/٤١ .

^٣ - الكتاب ج ٤ ص ١٤٩ .

وقال الرضا (ع) :

بعث الله عزّ وجلّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين في سبع وعشرين من رجب ، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً^١ .

وما أكثر الروايات الموثقة بهذا الشأن من طرق أهل البيت عليهم السلام^٢ . وهناك روايات من جماعة آخرين تؤكد هذا التحديد ليوم التبعثة :

^١ من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً ، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة ، وأول يوم هبط فيه جبرائيل^٣ .

^٢ في رجب يوم وليلة ، من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة ، وهو ثلاث بقين من رجب وفيه بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم^٤ .
^٣ وأوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وآله يوم الإثنين السابع والعشرين من رجب وله من العمر أربعون سنة^٥ .

وقال العلامة المجلسي : اختلف في اليوم الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وآله على خمسة أقوال :

- الأول : سابع عشر شهر رمضان .
- الثاني : ثامن عشر شهر رمضان .
- الثالث : رابع وعشرون شهر رمضان .
- الرابع : ثاني عشر ربيع الأول .
- الخامس : سابع وعشرون شهر رجب .
- قال : وعلى الأخير اتفاق الإمامية^٦ .

^١ - المكارم ج ٤ ص ١٤٩ .

^٢ - وسائل الشريعة لمصباح المصابي ، كتاب الصوم والاب ١٥ .

^٣ - السيرة الحسنة ج ١ ص ٢١٨ .

^٤ - منتخب كثر الثقات لمعتمد بنسند ج ٣ ص ٣٤٢ .

^٥ - الثنايب : ابن شهر آشوب ج ١ ص ١٥٠ والحرار ج ١٨ ص ٢٠٢ عن ابن عباس وأبي مالك .

^٦ - الحرار : ج ١٨ ص ١٥٠ .

و هناك قول سادس : ثامن ربيع الأول وقول سابع : ثالث ربيع الأول^١ .

ولعل معظم القائلين بالبعثة في شهر رمضان قد التمس عليهم أو اشتبه مبدأ حادث النبوة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه هدى للناس وبيئات من الهدى والفرقان .
والثابت أنه لا صلة بين الحادثين ، فالرسول صلى الله عليه وآله كانت بعثته في السابع والعشرين من رجب بينما بدأ نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان عقب ثلاث سنين من بعثته صلى الله عليه وآله ، فكانت مساحة نبوته الزمنية ثلاثاً وعشرين عاماً بينما فترة نزول القرآن منجماً قد استغرقت عشرين عاماً .

❖ التنزيل للمجمل :

للقرآن تنزيلاً في مذهبنا ، وهو بهذا الاعتبار بين إجمال وتفصيل . يذهب فريق إلى أن القرآن نزل مرة واحدة على سبيل التدرج والتتجيم .
أما الذي عليه روايتنا ومذهبنا فيقضي بأن القرآن نزل مرتين على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، نزل مرة مجملاً ونزل أخرى مفصلاً منجماً خلال فترة الوحي .

والتنزيل المجمل يقصد به نزول المعارف الإلهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبي لكي تمثل روحه بنور المعرفة القرآنية^٢ .
ولعل سبب التنزيل المجمل هو تربية النبي وتنقيفه بالقرآن ، وإبارة قلبه بالرشد قبل أن ينطلق إلى الناس بدعوته . بهذا كُن القرآن يعد النبي إعداداً خاصاً وكاملاً ليصبح موطناً قادراً على التبليغ . هذا الإنزال تدفه تنوير النبي بالمعارف الإلهية ، وأسرار الكون العظيمة ليمتلئ قلبه بالعلوم القرآنية والحقائق للكونية الجليلة .

قال الزنجاني : على أنه يمكن أن نقول بأن روح القرآن وهي أغراضه الكلية للنبي يرمي إليها تجلت لقبه الشريف في تلك الليلة ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِنُكُونِ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ الشعراء : الآيات - ١٩٣ - ١٩٤ .

^١ - نسخة الخليفة ح ١ ص ٢٣٨ .

^٢ - مجلة رسالة الإسلام الصادرة عن كلية أصول الدين في بغداد العدد الرابع ١٣٨٦ ص ١٣ .

هذا التوجه في فهم الأنزال القرآني يرى بأن القرآن كان جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر ، إلى بيت العزة أو ثبيت المعمور ، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في فترات ومناسبات طيلة عشرين عاماً أو ثلاث وعشرين عاماً .

حديث عن ابن عباس يقول :

" أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة " ^١ . وعنه أيضاً أنه قال : الذي نزل جبريل بالقرآن جملة إلى السماء الدنيا ... ثم نزل بعد ذلك على محمد يوماً بيوم ، آية وأيتين وثلاثاً وسورة .

" نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور في السماء الرابعة ، ثم نزل من ثبيت للمعمور في مدة عشرين سنة . وإن الله أعطى نبيه العلم جملة واحدة ثم قال له : ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يفضى إليك وحيه " ^٢ .

وتعقيباً على هذا القول قال المجلسي :

" قد دلّت الآيات على نزول القرآن في ليلة القدر ، والظاهر نزوله جميعاً فيها ، ودلّت الأكثر والأخبار على نزول القرآن في عشرين ^٣ أو ثلاث وعشرين سنة ^٤ ، وورد في بعض الروايات : أن القرآن نزل في أول ليلة من شهر رمضان ودلّ بعضها على أن ابتداء نزوله في المبعث فيجمع بينها بأن في ليلة القدر نزل القرآن جملة من النوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة إلى الأرض تدريجاً ، ونزل في أول ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليعلمه هو ، ولا يتكلمه على الناس ، ثم ابتداء نزوله آية وسورة وسورة في المبعث أو غيره ليعلمه على الناس " ^٥ .

وقال الصادق (ع) :

نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ، ثم أنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة ثم قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان ، وأنزلت للقرآن المستمضين من شهر رمضان ، وأنزلت

^١ - أخرجه النسائي والحاكم وصحيفي .

^٢ - للاختلافات ص ١٠١ .

^٣ - أمول الكافي : كتاب فضل القرآن ج ٢ ص ٤٢٩ .

^٤ - مدة نزل النبي صلى الله عليه وآله بناء على ابتداء نزول القرآن يوم سبته واحسانه يوماته .

^٥ - سائر الآثار : ج ١٨ ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وأنزل الزبور لثمانى عشرة من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان ' .

وهناك أحاديث تذكر للقرآن تنزلات ثلاثة أولها إلى اللوح المحفوظ ، وثانيها إلى السماء الدنيا ، وثالثها هو النزول المنجم على الرسول صلى الله عليه وآله خلال بعثته ' .

ولقد نزل القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القدر المباركة :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٥ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر : الآية - ١ .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ الدخان : الآية - ٣ .

لئن دلّت هذه الآيات على شيء فإنما تدلّ على الإنزال الإجمالي كما في تأويل الإنزال التدريجي ولا إلى ابتداء الإنزال كما يزعم البعض ، أو تشير إلى التنزيل دفعة واحدة على سبيل الإجمال .

إن قول القرآن الكريم : [كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لئن حكيم خبير] يمكن تأويله على أن هناك مرحلتين إثنين في التنزيل : محكمة ومفصلة أو أن هناك تنزيلاً اثنين : تنزلاً على دفعة واحدة مجملة ، وتنزيلاً على سبيل من التفصيل والتعجيم . والذين ذهبوا هذا المذهب رأوا في هذا التعدد في النزول فوائد وإيجابيات .

قال الزرقاني :

" إن في تعدد النزول وأماكنه مبالغة في نفي الشك عن القرآن وزيادة للإيمان به ، وباعتناء على الثقة فيه ، لأن الكلام إذا سجل في سجلات متعددة وصحت له وجودات كثيرة كل ذلك أنفي للريب عنه ، وأدعى إلى تسليم ثبوته وأدناه إلى وفرة الإيمان به مما لو سجل في سجل واحد " .

' - تفسير العياشي ج ١ ص ٨٠ .

' - الذي كان ينجح إلى هذا الرأي هو المحمود ، يقول التركشي في المرفاع ج ١ / ٢٢٩ في هذا الرأي : إنه أشهر وأصح رأيه ذهب الأكثرون ، وابن حجر في " فتح الباري " يسميه بالرأي الصحيح المختار .

' - مناقب المرفاع : ٣٩/١ .

ويقول أبو شامة في بيان حكمة نزول القرآن :

"في تقييد الأمر ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلام سكان السماوات الصنع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ولقد صرفناه إليهم لينزله عليهم " ^١ .

ويقول الرازي :

"ويحتمل أن يكون ذلك تسهيلاً على جبرائيل لمصلحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في توقع الوحي من أقرب الجهات " ^٢ وأنه نقول ساقط ، وتأويل وإلا لا حظ له من المنطق إنه لا يستند لا إلى حق ولا إلى واقع .

وقال المولى الفيض الكاشاني مأولاً البيت المعمور إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

"وكانه أريد بذلك : نزول معناه على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى : "نزل به الروح الأمين على قلبك " ثم نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه على ظاهر لسانه ، كما أتاه جبرائيل (ع) بالوحي وقرأه عليه بالفاظه " ^٣ .

ولا يتجاوز الزخاني في تأويله هذا المنحى حين يقول :

"ويمكن أن نقول بأن روح القرآن ، وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها ، تجلت لقلبه الشريف في تلك الليلة " نزل به الروح الأمين على قلبك " ثم ظهرت بلسانه الأظهر مفركة في طول السنين " وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً " ^٤ .

وانتهى التأويل بميزان الطباطبائي إلى هذا الفهم والتخريج بقوله :

"إن الكتاب ذو حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي ، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة ، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول . وإنما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طراً عليه بعد ذلك الأحكام ، قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَكْمَلْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود : الآية - ١ ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨) لا ينسئه إلا

^١ - الاقنات : ٤٤٩/١ ، والبرهان ١/ ٦٣٠ .

^٢ - التفسير ، ج ٥ ص ٨٥ .

^٣ - الفاضل في ج ١ ص ٢٢ تقدمت خامسة .

^٤ - تاريخ القرآن ص ١٠ .

المُطَهَّرُونَ^١ الواقعة : الآيات - ٧٧-٧٩ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ الْأَعْرَافُ : الآية - ٥٢ .

إن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر : إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفعة ، كما أنزل القرآن المفصل في فواصل وطرُوف على قلبه أيضاً تدريجياً في مدة الدّعوة النبويّة^٢ .

❖ لا بدّ من مناقشة وإعراض :

هذه التّأويلات التي تخالف ما يقتضيه ظاهر القرآن هي تبريرية أكثر منها وثائقيّة منطقيّة . كل باحث في هذا الشأن لم يكن محققاً متوقفاً بمقدار ما كان يحسن الظن بالنقطة والرواة ، فالمشكلة في هذه المسألة تقع على عاتق أهل الظاهر من أصحاب الحديث الذين لا يتركون للعقل أن يكون له نشاطه ولا أن يشارك في التّوجه والقبول . أولئك الذين يستريحون إلى المدلول الظاهريّ من النقل والنصّ إمّا تعبداً محضاً وإمّا عجزاً عن الفهم لأبعاد النصّ .

إنّ المحقق العالم لا يأخذ بما لا يمكن تعمله . إنّ المحقق هو باحث مقارن ، وسوّق ، معالّل ، وممثل مستخلص السؤال الذي يطرح نفسه إزاء هذه المسألة هو :

ما هي الغاية المرجّاه أو ما هي الفائدة المباشرة وغير المباشرة من وراء نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السّماوات العلويّ ليتبع هذا النزول تدريجي على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟

لنا أن نتساءل متوقّفين في هذه المسألة عند الأمور التّالية :

١ . ما هو المستند الذي اعتمدته المؤلّون في تأويل البيت المعمور الذي هو في

السّماء السابعة أو تأويل بيت العزّة الذي هو في السّماء الدنيا إلى قلب رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

٢ . التّأويل لا ينبغي أن ينطلق كيفما كان ، إمّا له أصوله وله ارتباطاته بالواقع ،

والحقيقة بالظّاهر وروح القرآن .

^١ - طهران ج ٢ ص ١٥٠ .

٣. التأويلات التي بين أيدينا ليست مبررة ، ولا مستند لها ، والأخذ بظاهر مدفولات هذه الروايات تعيداً محضاً مردود ، ولا نأخذ به ، لذلك لا ينبغي حمل الرواية على منلول ظاهرها بالمطلق ، كما لا يجوز أن يكون التأويل غايته التخلص من المأرق في البحوث النظرية لينقلب حذقة وتحملاً للنص ما لا يتحمله .

٤. ما قاله المحقق الشيخ المفيد في هذه المسألة فيه خير كثير ، وفيه التفاتات مثيرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

قال علامتنا رداً على الصنوق :

'الذي ذهب إليه أبو جعفر - رحمه الله - في هذا الباب ، أصله حديث واحد ، أي ليس من التواتر المقطوع به - لا يوجد علماً ولا عملاً - ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالا فحالا يدل على خلاف ما تضمنته هذا الحديث . وذلك أن القرآن قد تضمن حكم ما حدث وذكر ما جرى على وجهه ، وذلك لا يكون على الحقيقة إلا لوقت حدوثه عند السبب

مثلاً قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ خَائِرُكُمْ ﴾ المجادلة : الآية - ١ ، نزلت هذه الآية بشأن خولة بنت خويلد التي جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصامت من الذي كان قد ظاهرها ، وكان ذلك طلاقاً في الجاهلية ' وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ الجمعة : الآية - ١١ ، وقوله : ﴿ رَجُلًا صَنَفُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب : الآية - ٢٣ .

وكثرة في القرآن لفظة ' قالوا ' و ' جاؤوا ' و ' جاء - بلفظ الماضي - كما أن فيه ناسخاً ومنسوخاً... كان ذلك لا يتناسب ونزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك .

قال - رحمه الله - ولو تتبعنا قصص القرآن لجاء مما ذكرناه كثيراً لا يتسع به المقال ، وما أشبه ما جاء به هذا الحديث بمذهب المشبهة للذين زعموا أن الله سبحانه لم يزل متكلماً

^١ - مجمع البحار ج ٩ ص ٢٤ .

بالقرآن - أي القول بقدم القرآن - ومخبراً عما سيكون بلفظ كان ، وقد رَدَّ عليهم أهل التوحيد بنحو ما ذكرناه .

قال : وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر : أنه نزلت جملة منه ليلة القدر ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عما يقتضيه ظاهر القرآن ، والمتواتر من الأخبار ، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء ...^١ .

٥. قال تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾
البقرة : الآية - ١٨٦ .

- إن هذه الآية الكريمة تحدد الأيام المعدودات التي كتب فيها الصوم تحديداً صارماً ، فتحصرها بأيام شهر رمضان التي تستمد شرفها وأهميتها من نزول القرآن فيها ، وتحديداً في ليلة واحدة منها هي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر .
- ألا ترسم إزاء هذه الآية تساؤلات ... لتطرح نفسها بوضوح وجزم ؟

إن بداية نزول القرآن كان يوم البعثة النبوية ، والمتواتر من الروايات وكتب السير أن تاريخ المبعث كان في السابع والعشرين من شهر رجب ، مما يوحي بأن بداية النزول القرآني كانت في رجب ، وإنه ليمتعارض مع ما في الآية من طروحها .

ليس لنا إزاء هذا إلا اللجوء إلى واحد من موقفين اثنين :

- الأول : هو الموقف الذي اعتمده بعض المفسرين بأن النزول دفعة واحدة على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في هذا الشهر ، وإن نزل نجوماً متفرقاً في غيره فيما بعد .
- الثاني : إن إنزاله من البيت المعمور إلى اللوح المحفوظ قبل النزول إلى الدنيا كان في هذا الشهر .

^١ - شرح عقائد الصمدية ص ٥٨ .

لو طرحنا كلا الموقفين كان لا بدّ من التزام موقف ثالث يتمثل برفض كل الروايات والسيرة التي تؤرّخ ابتداء البعثة في رجب ، واعتماد الاتجاه الغالب بأنها كانت في شهر رمضان.

نحن نعتبر أن هذا الموقف الثالث هو الأقرب إلى الصحة استناداً إلى الروايات الكثيرة القائلة بطرح كل ما يتناقى مع الروح القرآنيّة ويتعارض مع كتاب الله .
من البداية للقول بأن هذه الروايات تتعارض مع الكتاب الذي يحدّد النزول فسي ليلة القدر . المفروض أن المراد بالآية هو بداية النزول القرآني لا مجموع النزول .

ومن البداية القول أيضاً بأن نزوله إلى السماء الدنيا أو اللوح المحفوظ لا أثر له عندنا، بل هو ساقط باطل لأن القرآن هو الكتاب البشير النذير ، هو الهادي المعلم ، وكتاب هذا شأنه ينطلق من نزوله على النبي وعلى الناس لا من وجوده في اللوح المحفوظ ، وهذا ما يقال حول نزوله دفعة واحدة في ليلة القدر ، فإنّ هذا النزول لا يمنحه صفة الهداية الحقيقية لعدم وضعه في أيديهم ، وعدم تواجده بينهم يعلم ويرشد . لا بدّ إذن أن يكون المراد هو بداية النزول لا كل النزول .

والدراسة الواعية لا يسعها إلا أن تحكم بأن سور القرآن وآياته لم يكن نزولها دفعة واحدة ، وبالإضافة إلى تضاعف الموضوع من التاريخ الذي يشهد بالنزول طيلة ثلاث وعشرين سنة فإنّ الآيات نفسها شاهدة على ذلك . قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ الاسراء : الآية - ١٠٦ .
وفي القرآن الناسخ والمنسوخ بلا شك ، وفيه أيضاً آيات تدل على قصص وأحداث لا يمكن جمعها في زمن واحد لنذهب إلى وحدة زمن النزول^١ .

يمكن أن نضيف إلى ذلك بأن السور والآيات القرآنية لم يكن نزولها على الترتيب القرآني الزمان ، لأنّ الوقائع التاريخية ليست وحدها هي الشاهد على ذلك ، بل إن مضامين الآيات ومفاهيمها لها شهادة عليه أيضاً .

أليست بعض الآيات بمضامينها تتناسب والحقيقة الأولى من البعثة رغم أنّها مرتبة في لواخر القرآن كسورة الطلق والنون ؟

^١ - القرآن في الإسلام ، محمد حسين الخطاطباتي ص ١٥١ .

أليس بعض آخر من الآيات يتناسب مع العهد المندني رغم ترتيبها في أوائل القرآن
كمسورة البقرة وآل عمران والنساء والانفال والتوبة ؟
أليس ذلك كله يفرض علينا الأخذ بأن القرآن نزل في الفترة التي تستغرق كسل عهد
النبوّة والتي تمتد ثلاثاً وعشرين سنة ؟

❖ التّزليل المنجم :

هو نزول القرآن بألفاظه المحدّدة وآياته المتعاقبة قضاء حاجة ، وإصداراً لحكم ،
ونتيجة لسبب ، وجلاء لأمر .

ما بين زواج النبي صلى الله عليه وآله ونزول الوحي خمسة عشر أو ثمانية
عشر عاماً ، إنها حقبة الإنطواء والعزلة ، إنها مرحلة تنفر من واقع العرب في عقيدة
الأصنام لتتحول إلى الذات في خلوتها المتألمة في غار حراء العظيم . إنها العهد الذي
هيا النفس المحمدية للتلقّي ، لكنها فترة تمنع في الغموض لأنسا لا نملك إلا التّنفّس
والتنفّس من أخبار هذه العزلة . فالنبي قد توارى عن أعين الزّمان ، وابتعد عن مجتمع
الناس ليبقى في خلوته نزولاً غار حراء .

ها هو مشرف على وإد يمشي الهويّنا ولكن صوتاً سريعاً جهيراً واضحاً يأخذ عليه
سمعه ويهزّ كيانه : " يا محمد ، أنت رسول الله حقاً !

توقّفت الخطى وشخص ببصره إلى الأفق القريب والبعيد .
انفضّاء نور على نور ، وليس من شيء له حضور أو شخوص .

وفي روايات هي على كثرة أنّ محمداً قد ارتاع فزعاً إزاء هذا الصوت المجهول ،
وهو لا يدري إلاّ وبلوذ بخديجة الأمانة ، والزوجة المخلصة المتفتّحة يشكو إليها أمره وهمه ،
ويبئها حزنه ومخافته ، وهو في هذه المرّة أشتت الشعر ، أغبر الوجه ، مكتئب القلب ،
مضطرب الخلط .

إنّه محمد تأخذه الرّجفة والوجفة ، وما تعود إلاّ النظافة والتجمل ، وما عرف إلاّ
الهدوء والتّفة والتماسك !

وتمسك خديجة نفسها إزاء ما ألمّ بالزوج ، وتجاه ما كان من جديد مجهول ، فترسل
كلمات هادئات كانت برد اليقين على قلبه ، وكانت وداعة الاطمئنان في نفسه .

ولكنه لم يدر إلا والخطي تسوقه سوقاً إلى كهف عزله .

الليل يسدل حوله أستاره ، الظلام يملك أمر الغار ، الصفاء الخالص يسود .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم يستشعر حضوراً .

قائمة فزاعة تتنصب أمامه متسحة بلبياض .

إنها تتقدم على تمهل .

إنها تقرب ببطء .

صوت جبير يقول :

اقرأ ...

ما أنا بقارئ !

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتراجع ويحاول التخلص من ذلك الشخص الذي

مال عليه يضمه برفق قاذلاً :

اقرأ ...

ما أنا بقارئ !

اقرأ باسم ربك الذي خلق علم الانسان ما لم يعلم .

هي أولى آيات القرآن الكريم على الأرجح - تنزل على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

يتوارى الوحي وتبطئ به العودة سنتين أو ثلاثاً ، والنبي في أقصى حنينه إليه ، وشوقه

لصوته وحضوره .

النبي يتابع عزله في غاره وهو حزين كئيب يريد ذلك المجهول .

صوت الغار البعيد يقرع أذن النائم في منزله فيرجه رجاً ويوقظه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ ﴾ المدثر : الآيات -

١-٤ .

وغب فزعاً وجللاً في روايات .

ودخلت الزوجة للريقة عليه فوجدته جالساً والتأمل يغمر كيانه ، فتسرع لتسأله :

لم لا تنام يا أبا القاسم ؟

انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته . فمن ذا أدعو ... ومن ذا يستجيب ؟
وحجبي الوحي وتتابع ، وسارت به الطريق موصلة عشرين عاماً أو ثلاثة وعشرين عاماً.

وكان نزول القرآن المنجم حسب ما تقتضيه الحاجة والمناسبة .

يقول أمير المؤمنين (ع) :

" أنزل القرآن خمساً خمساً إلّا سورة الأنعام ، ومن حفظ خمساً لم ينسه " .

وأخرج البيهقي عن خالد بن دينار قال :

" قال لنا أبو العاتبة : تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يأخذ من جبريل خمساً خمساً " .

وقيل بنزول عشر آيات ^١ . وقيل بنزول : " غير أولى الضرر " وجدها وهي بعض آية ^٢ . وكذا قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ للتوبة : الآية - ٢٨ وأول الآية : " يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " إلى آخر الآية نزلت بعد نزول أول الآية ^٣ . على هذا النهج استمرّ القرآن ينزل نجوماً ليقراه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على مكث ، ويقراه المؤمنون على مهل ، ويتلوها أصحابه بالتتابع شيئاً بعد شيء ^٤ .

والنزول المنجم ميزة مختصة بالقرآن دون سواء من الكتب السماوية . ولقد كان النصراني واليهود ينعون على الرسول أنّ القرآن لم ينزل دفعة واحدة ،، وهناك آيات كريمة هي على كثرة تحكي أقوالهم ، وتردّ عليها بالحجة القاطعة .

❖ حكمة التنجيم في النزول :

- ممّا ينبغي أن يلاحظ في هذا الأمر أنه كان سبباً لأجتهاد المجتهدين ، وتأويل المتأولين . وربما أسرف بعضهم في التكلّف فيما يجتهد وفيما يتأويل .

^١ - من أول سورة " المؤمنون " : قد أضح المؤمنون إلى قوله : الذين يرون الفردوس هم فيها جاثقون .

^٢ - " لا يستوي الظالمون من المؤمنين غير أول الضرر والعامدون في سبيل الله " النساء : ٩٥ .

^٣ - الانعام : ج ٩ ص ٧٣ .

لهذا ينبغي الأخذ بأسباب الحذر الشديد عند التحول إلى دراسة ص. سر. ر. كما يجدر الابتعاد عن الإسراف في افتعال الحجج . إن الإسلام رسالة إصلاحية وتغييرية في شؤون المجتمع . والمنهج الإسلامي منهج تدريجي في التعليم والتغيير ، طيفاً لما يتلاءم مع فطرة الإنسان وطبيعته ، ومع سنة الله التدرجية في الخلق والتكوين والتغيير .

إن التدرج في النزول القرآني يتفق مع هذه السنن وهذه الطبائع . ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على وحدة المصدر للكون والحياة والإنسان ، كما يدل على أن مصدر القرآن هو خالق الإنسان وصانع الوجود . لماذا هي كثرة تلك المناهج والأطروحات التغييرية التي نزلت إلى الساحة الإنسانية دفعة واحدة ، ولم يكن لها حظ من النجاح ، ولم يكن لها القدرة على التغيير ؟

ولماذا لم يكن للإسلام نظير في ترمّحه وتقبّله ونجحه في التغيير ؟ ولعل من أهم الأسباب في ذلك هو المنهج التدريجي الفريد في النزول والتربية والمواجهة !

لن الاصطلاحات الإنسانية ، والتفيزات الاجتماعية . تمثيلاً مع طبيعة الإنسان وفطرته ، لا يتم لها النجاح إذا كانت منهجاً شبيهاً بالحركة الميكانيكية لا الحركة الديناميكية .

والمنهج الإسلامي الفريد لم يملك دروب العفوية ، ولا سبل الارتجال ، ولا قلق الفرضية وشروطها ، إنما كان منه حسن التدبير ، وعادل الميزان ، ووعي الحكم والتقدير .

- يمكن أن نستخلص حكمة التجيم في النزول من خلال الآيات دون تكلف وافتعال، ويمكن أن نوجز هذه الحكمة بصفاتها من حيث الآتي :

قال تعالى :

﴿وَرَأَيْنَا فِرْقَانَهُ لِثْقَاءِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ الاسراء : الآية - ١٠٦ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ الفرقان : الآية - ٣٢ .
﴿ وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِبُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ هود : الآية - ١٢٠ .

- في هذه الآيات إيماء مباشرة إلى اعتراض الكفار على نزول القرآن مفروقاً ، والرد بما يتلاءم مع حكمة التنجيم . وبما يبين أسرار هذا التدرج في النزول .
- في هذه الآيات تثبيت مكين لغزاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما يتجدد نزوله من القرآن عقب كل حادثة واقعة .

قال أبو شامة^١ :

" فإين قيل : ما السرّ في نزوله منجماً ؟ وهلاً أنزل كسائر الكتب جملة ؟ قلنا : هذا سؤال قد تولى الله جوابه " وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة " يعنون : كما أنزل على من قبله من الرسل فأجابهم تعالى بقوله " كذلك " أي أنزلناه مفروقاً " لنثبت به فؤادك " أي لنقوّي به قلبك . فإن الوحي إذا كان يتجدد في حلقة كالقوى للقلب ، وأشدّ غنابة بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه ، ويتجدد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز ، فيحدث له السرور ما تقصر عنه العبارة . ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة لقاء جبريل " .

وقال ابن عباس :

" كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن . فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة " .

في الآية الأولى كان رفيقاً برسوله ، راعياً للمؤمنين ، فلنزل القرآن مفروقاً ليسهل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حفظه ، وليقراء للناس على مكث قراءة المتتالي حتى يستطيعوا حفظه واستيعابه . أليس في هذه الآيات المنزلة من حول العرش من التفسير

^١ - هو عبد الرحمن بن إسحاق المقدسي ، الفقيه الشافعي . له كتاب : [المرشد الموحى إلى عموم شعبت القرآن بفهمه] ١٦٥

للمحكم، والحكم العجيبة ، والأسرار الغريبة ما لا يسهل استيعابه لو كان القرآن مقتزلاً جملة واحدة ؟

لنَّ التَّجَمُّعَ تَرَكَ مَجَالَ الحِفْظِ والتَّنْبِيْهِ إِذَا هُجِرَ الرِّسَالُ وَصَحِبَهُ النَّاسُ كَانُوا يَكْتُبُونَ عَنْهُ مَا كَانَ يُوْحَى إِلَيْهِ وَيَحْفَظُونَهُ .

لقد كان الكُتَّابُ فِي المَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ النَّاشِئِ قَلَّةٌ نَادِرَةٌ ، كما أَنَّ أَمْوَاتَ الْكُتَابَةِ كَانَتْ بِدَائِيَّةٍ وَضَيْقَةٍ ، فكيف كان مثل هذا المجتمع يمكنه تسجيل القرآن وحفظه لو نزل على أفرادهِ دَفْعَةً وَاحِدَةً ؟

٢. كَانَ هَذَا التَّنْزِيلُ التَّنْزِيْجِيُّ إِعْدَادًا مَعْنَوِيًّا مُسْتَمَرًّا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَ تَقْوِيَّةً لَأَمَلِهِ بِالنَّصْرِ ، وَاسْتِهَانَةً بِمَا يَسْتَجِدُّ وَيَتَعاقَبُ مِنْ مَحَنٍ ثَقِيلَةٍ ، وَمَشَاكِلَ مُتَدَاخِلَةٍ عَصِيَّةٍ .

إِنَّ نَزُولَ الْوَحْيِ مُنْجَمًا فِي سَنَوَاتِ الْكِفَاحِ مِنْ أَجْلِ نَشْرِ الْإِسْلَامِ وَرَفْعِ رَايَتِهِ كَانِ بِحَقِّ وَبَيِّنٍ مَعِينًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْفُتُوحِ الْوَائِقِ بِأَعْيَاءِ رِسَالَتِهِ الشَّامِلَةِ ، مُقَوِّيًا لِعَزِيمَتِهِ ، أَخْذًا بِيَدِهِ ، كَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَوَّلُونَ يَسْتَمِدُّونَ مِنْ تَكَرُّرِ نَزُولِ الْوَحْيِ الْعَزْمِ وَالْقُوَّةِ كُلَّمَا أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَيَّامُ ، وَقَسَتْ الْحَوَائِثُ ، وَاضْطَرَبَتْ بِهِمُ الْأَحْوَالُ .

- مِنْ قِبَلِ التَّثْبِيْثِ أَيْضًا مَا حَفَلَتْ بِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مِنْ تَعَزِيَةٍ رَاعِيَةٍ لِلرَّسُولِ (ص) وَتَدْعِيمٍ مَكِينٍ لَهُ فِي مَوَاقِفِهِ وَمُنَاسِبَاتِهِ ، وَتَسْلِيَةٍ لَهُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ لِنَهْوِيْنِ الشَّدَائِدَ عَلَيْهِ .

وَكَلَّمَا أَمِنَتْ - عَلَيْهِ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مَحَنَةُ كَانِ الْقُرْآنُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ الصَّبْرَ وَالتَّصَبُّرَ .

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الْأَحْقَافُ : الْآيَةُ - ٣٥ .
﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ الْمَزْمَلُ : الْآيَةُ - ١٠ .

- وَيَنْتَقِلُ الْقُرْآنُ لِيُنْهَاهُ عَنِ الْحُزَنِ بِقَوْلِهِ :
﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْتَنُونَ ﴾ يَسُ : الْآيَةُ - ٧٦ .
﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ يُونُسُ : الْآيَةُ - ٦٥ .

- ويذهب القرآن أحياناً كثيرة مخففاً عنه ومعطماً له بأن الكافرين لا ينالون من شخصه ، ولا يتهمونه بالكذب الجاثج لذاته ، وإنما يعاندون الحق بغياً ، ويجحدون بآيات الله افتراءً واستكباراً كما هو شأن الجاحدين في كل عصر ومصر :

﴿ قَدْ عَلِمَ إِنْهُ لَيَحْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنْ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يُحْجِدُونَ ﴾ الأنعام : الآية - ٣٣ .

- إن الرسول (ص) وصحبه في سنوات الدعوة المكيّة الصعبة كانوا أحوج ما يكونون إلى ما يثبت قلوبهم إزاء ما كانوا يلقونه من عنت واضطهاد . هي كثيرة تلك الآيات الكريمة التي تتمنى على المؤمنين أن تثبت بهم القلوب ، وتطمئن بهم النفوس . ومن البداهة القول بأنهم كانوا أحوج إلى ما يقويهم من صاحب الرسالة ، معلمهم وهاديهم وقوتهم .

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ النحل : الآية - ١٠٢ .

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال : الآية - ١١ .

وأية كريمة تومئ إلى مازرة الوحي للرسول صلى الله عليه وآله وسلم في محنته مع المشركين الجاحدين :

﴿ وَلَوْ لَا أَنْ تُثَبِّتَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنْ فِيهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ الاسراء : الآية - ٧٤ .

ونكم كان له صلى الله عليه وآله وسلم من الإيذاء الجارح من مشركي مكة !
لكم كانت تمتد إليه أيادي السوء الملاحقة والمطاردة !
لكم أنهم بهتاناً وافتراءً من لدن الحاقدين المارقين والحمقى الماقتلين !

وظل ثلاثة عشر عاماً يدعو قومه بصبر إلى الإيمان . لم يؤمن به إلا قليلون محتسبون حتى اضطر أن يتحول مهاجراً إلى المدينة . وفي المدينة قضاهها مرحلة الكفاح الصعب مع الكفر .

- لقد حفلت هذه المرحلة بالغزوات المجهدة المرهقة ، والمضايقات الحادة للصّامة . وتكرر نزول هذه الآيات المسلية ، والمرشدة الموجهة إلى الصبر الجميل ، والأسوة الحسنة هو الحكمة للمرتجاة أو المبتغاة من إيراد أنباء الرسل وقصص قصصهم .

- ولقد استمر بالمشاركين اضطهاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو انقطع عنه الوحي الموثب لقلبه ، فلم يتجدد نزول الآيات المسلية له ، لشعر بما يشعر به البشر العاديون في مثل هذه الحالات من استيلاء الحزن على قلبه ، واستبداد اليأس بنفسه ، وامتلاك القلق لأمره .

إن الله لم ينه عن الحزن إلا لأنه كسائر البشر في طبيعته واستعداده لجميع هذه الانفعالات النفسية . وقد أثار هذا المعنى من رشيد رضا التفاتة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَلَوْ ذُنُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ الأنعام : الآية - ٣٤ ، فقال : والآية تسلية للرسول بعد تسلية ، وإرشاد إلى سنته تعالى في الرسل والأمم ، أو هي تنكير بهذه السنة وما تتضمنه من حسن الأسوة ، إذ لم تكن هذه الآية أول ما نزل في هذا المعنى . ونولاً أن دفع الأسى بالأسى من مقتضى الطبع البشري لما ظهرت حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية . فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلو للقرآن في الصلاة ولا سيما صلاة الليل . فربما يقرأ المورة ولا يعود إليها إلا بعد أيام يفرغ فيها من قراءة ما نزل من سائر السور ، فاحتيج إلى تكرار تسليته وأمره بالصبر المرة بعد المرة لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له من شأنهما أن يتكررا سببهما ، ويتذكرهما عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفار ومحاجتهم وإنذارهم^١ .

ولعل نزول القرآن منجماً لا دفعة واحدة كان لتيسير حفظه حيث كان للنبي أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أما التوراة فقد أنزل على موسى (ع) الذي كان يحسن القراءة ويحسن الكتابة.

٣. خلال ثلاث وعشرين سنة من الدعوة كانت المحن للقاسية ، والشدائد الصعبة ، وكانت الانتصارات الكبيرة المذهلة ، وهذه كلها تنعكس على الإنسان في روحه وأقواله وأفعاله ، ويتأثر بها . لكن القرآن الذي واكب تلك المئين بمختلف مظاهرها وحالاتها في الضعف والقوة ، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار ، كان يسير دائماً على خطه الرفيع ، ولم ينعكس عليه أي لون من ألوان الانفعال البشري الذي تثيره تلك الحالات ، إن هذا لمن مظاهر الإعجاز في القرآن التي تبرهن على تنزيله من حكيم خبير عزيز ، ولم يكن القرآن

^١ - تسم الفتر : ٣٧٧/٧ .

ليحصل على هذا البرهان لولا إزاله على سبيل من التدرج في ظروف مختلفة وأحوال متعددة^١.

٤. والنزول التدريجي يساير طبيعة النَّاس ويُلبي حاجتهم ، ويتمشى مع ما يناسب قابليتهم في التعلّم والتّغيير .

كان يراعي حال المخاطبين في عقولهم وأخلاقهم وأعرافهم . الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول : " إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل للناس منازلهم ونخاطبهم على قدر عقولهم " .

لم يكن القرآن ليفاجئ الناس بتشريع أو بتغيير عادة أو تقليد . والرسالة المحمدية هي إحدى سنن الكون في البناء ، وهل اقتضت سنن الكون إلا للتدرج في خلق السموات والأرض؟

ليس بناء الإنسان على تدرج في تكوينه ونشونه وحياته واطواره وتلاشيته وبعثه وإثابته وعقابه ؟

إن السنن الطبيعية بينها وبين السنن الروحية في القرآن وجه لقاء . ليس مصنعهما واحداً ؟ ليس الصانع المنشئ هو تلك القوة المطلقة في الخلق والابداع والتتبر والحكمة ؟ إنها القوة القادرة على إحكام الأمر والصنع كلّمح بالبصر "وما أمرنا إلا واحدة كلّمح بالبصر" وإيها القوة القادرة على التمهّل والاستمهال ، على التدرج والتباطؤ وفقاً لسنن الكون وطبيعته ، وانسجاماً مع قوانين الحياة ونظمها .

وكان يراعي الأحوال والظروف ، لذلك كان حازماً دائماً في زحمة الأحداث ، وتجدد الوقائع ، وكان النزول يتلاءم مع طبيعة الرسالة المتدرجة من السهل إلى الصعب ، ومن الكلّيات العامة إلى التفاصيل الجزئية . فالقضايا الفردية والاجتماعية العميقة واللمتكنة كان القرآن معها متمهلاً متباطئاً لأن الإسلام ينظر إلى النَّاس كهنف رئيسي في رسالته ، فاهتم به ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَرَوَاهُ تَنْزِيلًا﴾ الاسراء : الآية - ١٠٦ .

وكل قضية سطحية تنزلق إلى نفس الفرد أو إلى نفس الجماعة فتفسد عليها فطرتها للزكية النقية فهي جريمة في الحياة الإنسانية لا يجوز المكوث عنها ، فليقطع الإسلام فيها

^١ - راجع عنه رسالة الإسلام العدد الرابع ص ١٤ .

برأيه ، ولكن حدوده فيها غير قابلة للنقاش ، فما يناقش في أمر هذه الحدود إلا الخارج على مقتضى الفطرة المنسلخ من الكرامة الإنسانية^١ .

فالجانب الاجتماعي للرسالة الإسلامية يتبدى في آيات الأحكام التي وضعت الأسس لتنظيم العلاقات بين الأفراد ، وإرساء قواعد المجتمع الصالح ، وقد قضت الإرادة الإلهية أن يتم هذا الإصلاح الاجتماعي بصورة تدريجية .

فالشرعية الإسلامية كان لها أحكامها المختلفة، وكلّ منها ينظم جانباً من حياة المجتمع، أو يحرم بعض الرذائل التي كانت شائعة فيه . ولم يكن ممكناً هذا التغيير فجأة ، وقد تجلّى هذا التدرج في تنبؤ نزول الأحكام من ناحية وفي نسخ بعض الأحكام التي كانت قد نزلت مجازة للصالح العام من ناحية أخرى .

فالتفريق بين المتمكّن من الأشياء وغير المتمكّن بين الأعماق والسطحيّات في الأفراد والجماعات هو الذي جعل الإسلام ينظر إلى القتل والسرقة والغصب وأكل أموال الناس بالباطل ومختلف ضروب الفسّ في المعاملات والرتى نظرة حاسمة فكان التحريم قطعاً لا تساهل فيه . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّثَى إِنَّمَا كَانَ قَابِضَةً وَأَنَا سَبِيلًا ﴾ الإسراء : الآية - ٣٢ .
﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء : الآية - ٩٣ .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ المائدة : الآية - ٣٨ .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذْكُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لَتَأْكُلُوا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٨ .

هناك فرق كبير بين تدرج التشريع وبين تأخيرها للحظة الحاجة . لقد أخر الله نزول آيات كثيرة في الحلال والحرام . لقد كان التكليف بادئ ذي بدء بالصلاة والصنّة والصيام .

إلا أنّ الصلاة كانت في البداية صلاة مطلقة بالغداة والعشي ، وكان فرضها بعندها في اليوم والليلة وركعاتها وأشكالها قبل الهجرة بمسنة .

^١ - قارن بفعل القرآن ٦٠/٢ .

وعرف المسلمون في أول أمرهم أنواعاً من الصدقة والصَّيام ، ولكن مقادير الزكاة وشروط الصيام لم تفرض إلا بعد الهجرة بسنة ، كل ذلك كان من يسر الإسلام وسماحته :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج : الآية - ٧٨ .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٥ .

فالإسلام ليس دين المشقة ولا دين التكليف بما لا طاقة للإنسان به .

إن الإسلام رفيق بالعبادة ، رحيم بالناس .

فالتدرج في التنزيلات القرآنية بما يتصل بآيات الأحكام نجدته يتصل بالظواهرات الشعورية ، والأمراض النفسية كالخمر والميسر ، كما يتصل بالتقاليد والأعراف الدولية كاسترقاق الأسرى .

وحسبنا في هذا الشأن التحريم القرآني المترج للعادة الشعورية المسمّاة بإيمان المسكرات .

الآية الأولى في هذا التحريم قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ البقرة : الآية - ٢١٩ .

قيل هذه الآية وجه الله أنظار المسكرى إلى أن الحرمة إنما تقوم على غلبة الشر ، والأعمال والأشياء قد لا تكون شرّاً خالصاً . فالخير يتلبس بالشرّ والشرّ يتلبس بالخير في هذه الأرض . ولكن مدار الحلّ والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشرّ . فإذا كن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع فتلك علة تحريم ومنع ، وإن لم يصدرح هذا بالتحريم والمنع^١ فيما يكن في الخمر من منافع اقتصادية في المتاجرة بها ومن منافع ظاهرة في حمرة الخدّ التي تروهم الصحة الحسنة ومن منافع اجتماعية فيما تدفع إليه من السخاء والجود في حالة السكر والعريضة أو من الشجاعة التي تبلغ أحياناً حدّ التهوّز في ساحة الحرب ، فإن إثمها أكبر من نفعها ، فتلك علة كافية لتحريمها ، فكانت الخطوة الأولى تحريكاً للمنطق التشريعي في نفوس المسلمين^٢ .

^١ - في ظلال القرآن ج ٢ ص ٤٣ .

^٢ - ساحت في علوم القرآن ، صبي الصالح ص ٦٠ .

ومسب الخطوة الثانية بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء : الآية - ٤٣ .

وفي هذه الآية تضيق لفرص السكر ومزاولة لأن الصلوات متقاربة فسي أوقاتها لا تتسع للسكر والعريضة ولا يكفي ما بينها للإفاقة .

وبعد أن تهيأت النفوس ، وضائق فرص مزاولة الخمر كان التحريم الحاكم الجازم الذي لا شبهة فيه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ﴾ المائدة : الآيات - ٩٠-٩١ .

إن الإسلام في المسائل العقيدية والإيمانية لا يؤجل أو يمتد أو يمتد إنما قضائه حاسم منذ اللحظة الأولى ، إنه في شأن التوحيد لا يتردد ولا يجامل ولا يمانم ، لأن التوحيد هو القاعدة الأساسية التي لا يصلح بدونها إيمان .

أما الإسلام مع الإلف والعادة والتقليد فإنه يأخذ باليسر والرفق واليسر ، ويترك التنفيذ للظروف الملائمة .

وهكذا كان موقفه من عادة الخمر والميسر وكل عادة تحتاج إلى علاج ، إلى نهضة نفوس ، إلى تغيير مناخ .

وبدأ الإسلام بتحريك الوجدان للذني والمنطق التشريعي في نفوس المسلمين الذين أراد الله أن يأخذ بأيديهم خطوة خطوة في الطريق الذي أراده لهم الذي لا تتلأم معه تلك المضيعة في الخمر والميسر ، ولا تتأسيه بعثرة العمر والوعي والجهد .

^١ - الأنصاف : الشيء المنصوب وهو ما عد من ذنوب الله من الأصنام والشايل . والأنصاف حجارة كانت حول الكعبة تعصب كهل عبيها ويحج بنو الله . والأزلام : هي القنادح التي هي سهام كانوا يجلبونها للقمار .
^٢ - رخص : اسم لكل ما استعمل من عمل .

ولطالما أن الإسلام في منهجه التربوي يسير في تربية النفس على هيئة ويسر وتزودة ،
ففي الخطوة الأولى في تحريمه للخمر والميسر بأن أوحى بأن إثمهما أكبر من نفعهما ليكسبون
ليحاووه بأن تركهما هو الأولى .

وجاءت الخطوة الثانية للتحريم في الصلاة ، والصلاة خمسة أوقات لا يكفي للسكّر
والإفاقة ، وفي هذا كسر لعادة الإنسان التي تتصل بمواعيد ، إذ المعروف أن المصنوع يشعر
بالحاجة إلى ما أمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله ، فإذا تجاوز هذا
الوقت ، وتكرر هذا التجاوز فترت حدة العادة وأمكن التغلب عليها لأن العادة يمكن إغلاؤها ،
أما الغريزة فيمكن تعذيبها لا إغلاؤها ، وما كانت هاتان الخطوتان ينتهي بهما المطالبات حتى
أعقبها الإسلام بالنهاي الحسم ، والتحريم القاطع ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأُمْنَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^٢ .

هذه الظاهرة جديرة بالإهتمام والاهتمام ، إنها تحتاج إلى النزول التدريجي لإحكام
الأمر في صياغة النفوس في إطار جديد . لأن الواقع الجاهلي بأعرافه ومفاهيمه ومعاييره لا
تجدي معه الثقة السريعة والغورية في التغيير ، وإلا قد ينقلب الأمر ردة مضادة تذهب بكل
شيء . إن إلغاء القديم الممتثل لا يتحقق إلا خطوة خطوة . هل كان في الجزيرة إلا عقائد
متجانبة متنافرة ؟

فالتصانبة لها طقوسها وشعائرها المرتبطة بالكواكب وتأثيرها على الأحداث الأرضية
والوثنية القرشية ، والمسيحية قد ألم بها وبتعاليمها التحريف في الزيادة والنقصان ، وحسبها
من التحريف التنثيث المصطنع ، والتزمت الميت ، والعزلة القاتلة .

واليهودية لم تقف عند حد في التحريف للكلم عن مواضعه ، وانقلبت الحياة في
الأخلاق والاجتماع والسياسة خيانة عهد ، ونقض ميثاق ، واحتكار مبلغ ، وأكل الأموال
بالباطل ، وجمع المال بالرأيا الفاحش ، والعش الكاذب .

١ - الأصنام : لمحيى المصروب وهو ما عبد من دون الله من الأصنام والتمثيل . والأصنام حجارة كانت حول فكرة نصب كُتُبٍ
عليها ويدعى لعز الله . والأزلام : هي القذاح التي هو سهام كانوا يملكونها للقتال .

٢ - الرجس : اسم لكل ما يستفتر من عمل .

٣ - رابع في ظلال القرآن ج ٢ ص ٢٢٢ .

وماذا في الجاهلية غير الأرجاس والأنداس ، غير البغاء والفحش المرذولين ، غير الكفر الهابط والالتواء الساقط : كيف يمكن للثورة الإسلامية أن تلغي كل هذه القيم بين عشية وضحاها ؟
إنها التربية المتمهّلة وحدها هي القدرة على التغيير الجذري لهذه الأمور المتأصّلة في النفوس والعقول والحياة !

٥. وهكذا فالترّج في الوحي يرثي النبيّ وينشئه على عينه ، إنه يعلمه ويوجّهه الوجهة الرائدة الصحيحة . بذلك وغيره كان خلق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ، وبذلك صدق فيه قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَنَعْلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم : الآية - ٤ .
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة : الآية - ٢ .
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء : الآية - ١٠٧ .

- والترّج كان له ما له من تأثير في تربية المؤمنين ، كان لهم الإيمان القوي ، واتعمّقة للرأسخة ، ولللهجة الصادقة ، وللخلق السهل ، وبعد أن كان القرآن يقبّح العادات المنيئة والتقاليد الجامدة المهترئة ، والعقائد الباطلة على سبيل من التدرّج .

- لقد عمل النزول المنعم على تقوية العزائم في الشدائد وتقوية الضمان من الشوائب ، وتعزية النفوس في المكاره والمصائب . فالوحي إذا تجسّد في كل حادثة كان أثبت للفوائد وأدعى للحفظ والاستظهار ، وأشدّ عناية بالمرسل إليه فلا يغيب عنه إلا ويهبط عليه ، وذلك يتطلب النزول المتكاثر للملك عليه وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة .

- ولقد ساعد هذا النزول على حفظ القرآن في الصدور ، وتدبّره في العقول والقلوب ، وتحقّقه على اللسان قولاً وفي الحياة عملاً .

- ولعلّ الترّج في النزول ينهض دليلاً بين الأداة على أن القرآن وحي منزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم من ربّ محمد .

٦. ميزة القرآن الفريدة عن الكتب السماوية ، كونه نزل على التدرّج لا دفعة واحدة ، وكان لهذا الأسلوب الجديد في النزول أثر خطير في نجاح طريقه ، وتحقيق أهدافه ، وإخراج الأمة المحيية . كان المشرك مطالباً بإعلان الإيمان فور سماعه الآية الواحدة . وذلك منذ ابتداء نزول الوحي حتى نهاية نزوله ، ممّا يشير إلى أن القرآن في إعجازه لا فرق بين جزئه وكله ، فالنزول التدريجي أقوى دلالة على الإعجاز من النزول جملة واحدة .

- فالنزول المنجم ادعى للقبول في الحقّة ، وأعظم في التحدي ، فلا يستطيع العرب أن يأتوا بسورة من مثله ، ولا بأية من آياته ولو نزل دفعة واحدة لخسف ميزان الإعجاز ، ولكن الآية أو الآيات كانت تنزل في وقت واحد ، وكان يفصل بين وقت وآخر زمن يكفي لأن تنهيا نفوس لمعارضته أو الإتيان بمثله ، ولكنهم كانوا يعجزون رغم الفرصة الكافية التي كانت تسنح لهم وخاصة إذا اعتبرت أن أكثر ما نزل في ابتداء الوحي إلى أن هاجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة إنّما هو من قصار السور وذلك ولا ريب ممّا تنهيا فيه المعارضة ^١ .

٧. ولا بدّ أن نحكم بأهميّة هذا التنجيم الفذّ للوحي بما يتصل بنجاح الدعوة ، فتجزيّة الوحي لها القيمة التربويّة . فالوحي سيهدي خطوة خطوة ، ويعزّز الجهود العظيمة ، وينفع الأرواح والإرادات نحو هدف الملحمة الفريدة في التاريخ ، فيكرّم بأية صريحة قضاء شهيد ، أو استشهاد بطل .

ماذا يكون لو أنه لم ينزل لكل تصحية جزاءها ، ولكل ألم عزاءه العاجل ، ولكل هزيمة أملها ، ولكل نصر درسه ، ولكل عقبة إشارة إلى ما يقتضيها من جهد ، ولكل خطر أدبيّ أو ماديّ روح التشجيع اللازم لمواجهته . وكلّما كان الإسلام ينتشر في ربى الحجاز ونجد كان الوحي ينزل بالدرس الضروريّ في المثابرة والصبر والإقدام والإخلاص يلقّنه أولئك الأبطال الأسطوريين أبطال الملحمة الخارقة ، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لتحوّل سريعا إلى حكمة مقدّسة خادمة ، وإلى فكرة ميتة لا مصدراً لبعث الحياة في حضارة جديدة . فالحركة التاريخيّة والاجتماعيّة والروحيّة التي ينهض بأعبائها الإسلام لا سرّ لها إلاّ للتجسيم ^٢ .

^١ - راجع كتاب : روح القدس الإسلامي : ٢٨ .

^٢ - الطائفة المرقونية ، ثالث من جى ص ١٦٦ .

وهكذا كان نزول القرآن منجماً ، وتكاد الأمة تجمع على هذا النوع من النزول ، وتصح به الآثار الاستقرائية ، لأن هذا التنزيل يستجيب للضرورة الملحة ، وتقتضيه الحكمة الفذة في تعاقب التعليمات الإلهية يسراً ومرونة واستيعاباً . ويمكن أن ينتهي بنا القول إلى أن التنجيم في النزول من شأنه تيسير حفظ القرآن ، وتثبيت فؤاد النبي ، ومعرفة الناسخ من المنسوخ ، والإجابة على أسئلة السائلين ، والتدليل على الإعجاز ، وتجاوب الوحي مع المؤمنين .

يضاف إلى ذلك كله أن القرآن في منهجيته الاستقرائية يريد كتابة التاريخ الإنساني بجزئياته ، وما فيها من مفارقات وأحداث ونوازع وتطورات . والتاريخ لا يتألف جملة واحدة إنما يُنَجَّم موضوعات وصوراً ومشاهد عن الماضي والحاضر لإثارة المستقبل ، وتشكيل الآثار الناشئة البارزة لحال من الأحوال .

- موضوع الرسالة كان مندرجاً . فالقرآن المكي كان عقائدياً ، والعقيدة هي الجوهر والأساس في نظرية الإسلام ، أما القرآن المدني فكان لوضع القوانين وتنظيم الفرد والمجتمع ، وإثبات الأمر لا حق على العقيدة في نظرية الإسلام .

- نشر الرسالة كان مندرجاً . الخطوة المباشرة كانت دعوة العشيرة والأقربين ، وابن كانت الرسالة الإسلامية أصلاً هي للناس أجمعين ، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الشعراء : الآية - ٢١٤ ، وباتساع الدعوة كان التبليغ للناس والملوك الرؤساء في العالم ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الحجر : الآية - ٩٤ ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء : الآية - ١٠٧ . وإنها لفكرة مردودة مما يزعمه الزاعمون من المستشرقين بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يفكر بشمولية رسالته وإقامة دولته إلا في المدينة بعد الاستقرار .

- أسلوب الدعوة متلون ومندرج . أسلوب القرآن المكي هو غيره الأسلوب المدني ، هو في مكة ترغيب وترهيب وإيجاز وهو في المدينة تفصيل وهدوء وإطالة وأحكام ، وذلك تمشياً مع الموضوع والمناسبة والمخاطبين .

- التدرّج في النزول وكثرة ترداد الوحي على النبي كانا لإظهار عظمة النبوي ، وإعلاء شأنه .

- وهل تفتيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيام المحن إلا بإطلاقة الوحي عليه في كل حين ، وفي مناسبات الشدة على الخصوص : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذُّونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ (٣٢) وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّى آتَانَهُمْ نَصْرَنَا ﴾ الأنعام: الآيات - ٣٣ - ٣٤ .

- وهل يتيسر للقرآن حفظ من النبي دون التدرّج في النزول وهو الأمسي الذي لا يقرأ ولا يكتب ؟ موسى (ع) كان كاتباً وقارئاً : * وقال للرب لموسى أكتب لنفسك هذه للكلمات ، لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ... فكتب على اللوحين كلمات العهد للكلمات العشر ^١ .

وقال ابن فورك : قيل أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبي يقرأ أو يكتب وهو موسى . وأنزل القرآن مفزاً لأنه نزل غير مكتوب على نبي أمي ^٢ . والأمية لا تنال من شأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنما تكرمه وتكون ادعى لإظهار إعجاز القرآن .

- التدرّج في النزول أكثر إيضاحاً لإعجاز القرآن ، فالسورة إعجاز ، والآية وحدها إعجاز ﴿ فَاتَّبِعُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ البقرة : الآية - ٢٣ .

- إن التشريع الإسلامي لم يكن ليتحول عملياً مقبولا في الممارسات والتطبيق لو لم يكن متدرّج النزول ، في تدرجه كان اليسر لا العسر ، وكانت القدرة على تغيير الإنف والعادة ، وكانت قوة الإلزام والاقناع ، كما كان دفع الضيق والمشقة من التشريع ، والأظهر من ذلك كله كان هذا التدرّج عاملاً من عوامل ربط المسلمين بالمصدر التشريعي ليرتقبوا وحياً إلهياً ، وحكماً سملوياً كلما وقعت واقعة ، أو حدثت حادثة .

^١ - التوراة : سفر الخروج . ١٧/٢٤ ، ٢٨ .

^٢ - السيرة : معرك الأقران ج ٢ / ٤٠٦ .

وبين القرآن التامسح والمتمسوخ ، والقرآن الجواب على سؤال مقتضاه التجسيم في النزول ، وإلا فأنظر التعارض في آيه ، والتناقض في مواقفه وأحكامه ، وعدم الانسجام مع الوقائع والأحداث .

ألم تكن الأسئلة المتكاثرة التي لا يحلّ إلّا الإجابات المحددة ؟
ألم تكن الحوادث التي تستدعي القول للفصل ؟

وكانت الأسئلة في الخمر والميسر ، عن المحيض وعن القتال ، عن الأهلّة والساعة ، وعن الرّوح والأنفال ، عن ذي القرنين والجبّال .

وكان الاستفتاء في النّماء والكلالة ، في الظّهار والإيلاء ، في الزّكّي والسّرقة ، فهي جزئيات ليس لنا حصرها ، وكان النزول القرآنيّ التدريجيّ جواباً على هذه الأسئلة ، وأحكاماً في هذه الوقائع .

- وهكذا كان تنزّج التنزيل في موضوع الرّسالة ، ونشر الرّسالة ، وأساليب الرّسالة فتأخذ طريقها إلى الناس بالتأثير البالغ ، وكان التنزّج بما يختصّ بإظهار عظمة الرّسول ، وتثبيت فوائده وتيسير حفظه له وكان من حكمة التنزّج للقرآن بيان إعجازه وبيان ميزته العلميّة ، وعظمته التشريعيّة . إن حكم التنزيل المنجم تنبؤ في قوة الإلزام والإقناع ، وربط المسلمين بالمصدر التشريعيّ ، ودفع الضيق والهرج التشريعيّين ، ليكون الكتاب الدستور والكتاب المربيّ ، والكتّاب النافع أبداً.

أول وآخر التفضيلات

قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ العلق : الآيات - ١ - ٤ .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُنْتَرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَيَبَّيْكَ فَطَهَّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاصْجِرْ (٥) وَلَا تُنْمِنْ تَمَسَّكُنْ ﴾ المنتر : الآيات - ١ - ٥ .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... ﴾ الفاتحة : الآيات - ١ - ٢ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة : الآية - ٢٧٨ .

وكما تختلف الروايات في مختلف المسائل فإنها تختلف في تحديد أول وآخر ما نزل من القرآن المنجم ، أما في النزول الأول من الآيات أو السور فالتاس فئات ثلاث :

١- سورة العلق :

ثلاث أو خمس آيات من هذه السورة هي الآيات الأولى التي أنزلت على قلب ومسمع للنبي في الغار عندما فجأه الحق .

- فقد ورد في الفهرست لابن النديم بالسند قوله :

" أول ما نزل من القرآن على النبي " اقرأ باسم ربك الذي خلق ... " . كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه ، فقال : " رسول الله (ص) فقلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني ^١ حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : " اقرأ باسم ربك الذي خلق " حتى بلغ " ما لم يعلم " فرجع بها رسول الله

^١ المغط : هو المصير للشهيد .

(ص) ترجف بواندره أو فواده - فدخل على خديجة فقال : زملوني ، زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت : كلاً ، ما يحزنك الله أبداً ، إنك لتصل للرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ^١ .

قال الصائغ (ع) :

: أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله : ' بسم الله الرحمن الرحيم . إقرأ باسم ربك ، وآخر ما نزل عليه إذا جاء نصر الله ' ^٢ .
وقال القاضي أبو بكر في " الانتصار " وأثبت الأقاليل ، إقرأ باسم ربك ... وأول ما نزل من أوامر التبليغ ' يا أيها المدثر ' وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة ^٣ .

٢- سورة المدثر :

روى جابر بن عبد الله الأنصاري عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال :
" أول ما نزل من القرآن سورة المدثر " ^٤ . روي عن ابن مسعود ، قال : سألت جابر بن عبد الله الأنصاري أي القرآن أنزل قبل ؟ قال : يا أيها المدثر . قلت : أو اقرأ باسم ربك ؟ قال : أحذركم ما حدثنا به رسول الله . قال صلى الله عليه وآله وسلم : إنني جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارتي نزلت فاستبطنت الوادي ، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالني - ولعلّهُ سمع هاتفاً - ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبرائيل - فأخذتني رجة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدنروني ، فأنزل الله : " يا أيها المدثر ، قم فأنذر ... " ^٥ .

٣- سورة الفاتحة :

وفئة ثالثة قرّ بها الرأي على أنّ الفاتحة هي السورة الأولى في التنزيل ^٦ .
لقد قيل بأن أول ما نزل سورة الفاتحة ، روي ذلك من طريق أبي اسحق عن أبي مسيرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سمع الصوت انطلق هارباً ،

^١ - صحيح البخاري ج ١ ص ٣ وصحيح مسلم ج ١ ص ٩٧ .

^٢ - أصول الكافي ج ٢ وعيون أخبار الرضا : ج ٢ . والبحار ج ٢ ص ٣٩ . والبرهان ج ١ ص ٢٠٦ .

^٣ - البرهان ج ١ ص ٢٠٧ .

^٤ - يمكن هذه الآية نزلت بعد فترة الوحي التي استمرت ثلاث سنوات ولم يتسوّز خلالها وحى والتي بعدها شرع الوحي يتسوّز بكثافة ، لكل حائز أول ما سمع من النبي هذه الآية بعد فترة الوحي فاعتبر ذلك أول قرآن نزل على الأمتلاد .

^٥ - صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ .

^٦ - انظر السيوطي في الانتان ج ١ ص ٢٤ .

وذكر نزول الملك عليه وقوله قل : " الحمد لله رب العالمين " ^١ إلى آخرها . لكن القاضي أب بكر في " الانتصار يقول بأن هذا الخبر منقطع " . قال الزمخشري : أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل . وروى للطبرسي في المجمع عن علي (ع) أنه قال : سألت النبي عن ثواب القرآن ، فأخبرني بثواب سورة على نحو ما نزلت من السماء ، فأول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ، ثم اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم ^٢ . وروى الواحدي في كتاب أسباب النزول : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خلا وحده سمع نداءً فيزع له ونلمرة الأخيرة ناداه الملك : يا محمد ! قال : لبيك ، قال : قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ... حتى يبلغ : ولا الضالين .

ومما لا شبهة فيه أن النبي كان يصلّي منذ بعثته ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . وقال الميوطي : لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة .

إن الروايات المتواترة تتوقف عند أية " اقرأ .. " كيداية للوحي المحمدي . وهذا ما نرجح ، وخاصة أن السياق يؤيد هذا التوجه . فالجملة هي أمر بقراءة الكتاب ، وهي من الكتاب كقول القائل في مفتتح كتابه لمن أرسله إليه : اقرأ كتابي هذا واعمل به ، ف قوله هذا هو أمر بقراءة الكتاب وهو من الكتاب .

والدراسة المقارنة لا تجد في هذه الأقوال تعارضاً أساسياً وجوهياً ، فسورة العلق قد نزلت تبشيراً بالنبوة ، وبعد فترة الوحي كان أول سورة المدثر هو أول ما نزل والنبي هي سورة التبليغ ، أما سورة الفاتحة فهي السورة الأولى التي نزلت كاملة ، وبذلك كان لها أن تسمى بالفاتحة ، أو أن يطلق عليها فاتحة الكتاب .

ونكاد نفتتح بأن أوائل سورة العلق هي أول ما نزل من القرآن ، وإنه لاقتناع صاندر عن نقل وعقل ، فالنقل مصدره إجماع المفسرين ورواة الأثر تقريباً . أما العقل فيرى أن القرآن أنزل على أمي ليعلم ويذكر به أميين . إنها الدعوة الفطرية إلى العلم والإيمان في أن ، والقرآن هو كتاب هداية وعلم يكسر الجمود الفكري والتفوق على الأوهام ، وأما ما قيل عن

^١ - فاتحة الكتاب : ٢ .

^٢ - مهران ج ١ ص ٢٠٧ .

^٣ - مجمع ج ١٠ ص ١٠٥ .

ضرورة نزول الصورة نزول البسطة معها . فهي الآية القرآنية الأولى ولا تعيب .

أما آخر ما نزل من القرآن فقد اختلف فيه على عشرة أقوال أو مذاهب :

١- سورة النصر :

جاء في رواياتنا أن آخر ما نزل من القرآن سورة النصر ، لقد روي أنها لما نزلت وقراها على أصحابه فرحوا واستبشروا سوى العباس بن عبد المطلب فإنه بكى . قال صلى الله عليه وآله وسلم : ما يبكيك يا عم ؟ قال : أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله . فقلت : إنه لكما نقول . فعاش صلى الله عليه وآله وسلم بعدها سنتين^١ . وقال الصائغ (ع) : وأخر سورة نزلت : إذا جاء نصر الله والفتح^٢ . وأخرج مسلم عن ابن عباس ، قال : آخر سورة نزلت : إذا جاء نصر الله والفتح^٣ .

٢- قال ابن واضح البقوي :

وقد قيل : إن آخر ما نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة : الآية - ٣ ، قال : وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة ، وكان نزولها يوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بغدير خم^٤ .

إن سورة النصر هي آخر سورة نزلت كاملة ، وقد نزلت بشارة بالفتح أو بمكة عام الفتح ، أما آخر آية نزلت فهي آية الإكمال لأنها آية الإعلام بكمال الدين حيث كانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه صلى الله عليه وآله وبالبلغ والأداء .

٣- ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ البقرة : الآية - ٢٨١ ، نزل بها جبرائيل وقال : ضمها في رأس المائتين والتسعين من سورة البقرة . وعاش الرسول بعدها واحداً وعشرين يوماً وقيل سبعة أيام^٥ .

^١ - مجمع البيان ، ج ١٠ ص ٥٥٤ .

^٢ - تفسير البرهان : شجران ج ١ ص ٢٩ .

^٣ - الاتقان ، ج ١ ص ٢٧ .

^٤ - تاريخ البغوي ، ج ٢ ص ٣٥ .

^٥ - تفسير شجر ، ص ٨٣ .

٤- آية الرِّبَا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَرَوْا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^١
البقرة : الآية - ٢٧٨ .

٥- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَلَّفْتُمْ بِذِينَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَكُتِبُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴾ البقرة : الآية - ٢٨٢ .

٦- ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى ﴾ آل عمران :
الآية - ١٩٥ .

٧- ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ
عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء : الآية - ٩٣ .

٨- ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ النساء : الآية - ١٧٦ .

٩- ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ ﴾^٢ التوبة : الآية - ١٢٨ .

١٠- ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾
الكهف : الآية - ١١٠ .

وكيفما انقلب الأمر فالذي يرجح الأخذ به من هذه الاتجاهات والأقوال هو أن آية
الإكمال للتين والإتمام للنسمة هي آخر ما نزل من الآيات . أما سائر الأقوال فبأنها ساقطة
لأنها غير موثقة ، ولا تستند إلى نص مقبول أو معصوم .

قال القاضي أبو بكر في " الأنصار " :

وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز
أن يكون قاله قلناه بضرب من الاجتهاد ، وتغليب الظن ، وليس العلم بذلك من فرائض الدين ،
حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط .

ويحتمل أيضاً أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم
وسلم مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرها
وتلاوته ، فيظن سماع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب^٣ .

^١ - رواه البخاري .

^٢ - راجع مستفرد الحاكم عن ابن عباس .

^٣ - الترمذي في الترتيب ج ١ ص ٦٠٠ .

وكانت الآيات تنترّل على النبيّ طوال أيام البعثة لا على تسلسلها للوارد في المصحف المدوّن ، فلربما نزلت آية أو يضع آيات من سورة ثم نزلت آيات آخر من سورة أخرى ، وكان رسول الله بصورة توفيقية وبتوجيه وأمر من الله تعالى يلحق الآيات بسورها فيقول :
" الحقوا الآية كذا بالسورة كذا ... " .

وقال ابن عباس :

كان جبرائيل اذا نزل على النبيّ بالوحي يقول له ضع هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا^١ . وكان الملك الأمين يقرئ رسول الله صلى الله عليه وآله ما نزل من القرآن كل عام ، وأن جبرائيل عرض القرآن على الرسول مرتين في العام الأخير من حياته الكريمة^٢ .

^١ - تاريخ المشرك - ج ٢ ص ٣٦ .

^٢ - ابن كثير ، فضائل القرآن ص ٣ .

علم أسباب النزول

سبب النزول :

كثيرة هي السور والآيات التي لها علاقة بالوقائع وترتبط بالحوادث والأحداث التي كان وقوعها إيذان بالدعوة كسورة البقرة والحشر والعاديات ، أو نزلت لحاجات ضرورية من الأحكام والقوانين الإسلامية كسورة النساء والأنفال والطلاق وأضرابها^١ .

إن سورة البقرة مدنية وكان نزولها في السنة الأولى من الهجرة ، بعض من آياتها يفرغ لليهود والمناوئين للدعوة ، وبعض آخر فيه تشريع وأحكام كتغيير القبلة وتشريع الصوم والحج .

وإن سورة الحشر نزلت في مسألة لجلاء يهود بني النضير ، أما سورة العاديات فقد نزلت في أضراب وادي يابس ، أو كما روي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث خيلاً فاسهت^٢ شهراً ولم يأتها منها خير ، فقال المنافقون " قتلوا جميعاً ، فأخبر الله تعالى عنها فغزلت^٣ والعاديات ضبحاً^٤ " .

اقرأ سورة النساء تجد أنها تتحدث عن أحكام الزواج وراث المرأة . تصفح سورة الأنفال وقرأها فإنك تقع فيها على مسألة غنائم الحرب والأسرى ، أما سورة الطلاق فإنها تتناول مشكلة الطلاق من خلال فائض خاصة .

هذه القضايا المختلفة كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر في نزول السورة أو الآية والتي نسميها " أسباب النزول " . لأسباب النزول هي أمور وقعت ، وحوادث حدثت ، في عصر النبوة اقتضت نزول الوحي بشأنها . وكما للمؤمن أسباب نزول فللآيات أسباب .

لقد بنى المنافقون مسجد ضرار فقتل للمسلمين ، وإضراراً بالدعوة مما اقتضى نزول الآية : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً أُولَئِكَ يَجْعِلُونَ لَهُمْ مَسْجِدًا لِلْكَافِرِينَ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً أُولَئِكَ يَجْعِلُونَ لَهُمْ مَسْجِدًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

^١ - القرآن في الإسلام ، السيد الطباطبائي ص ١٥٥ .

^٢ - أسباب النزول لمؤلفه ص ٣٣٦ .

^٣ - سبوت : أُنشئت في السور - وهي الأرض الراسية .

وسأل بعض من أهل التكتب النبي عن الروح فكان الجواب وحياً :
﴿ وَسَأَلُوكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
التوبة : الآية - ١٠٧ .

وكان لمشركي مكة سؤال لبعض علماء اليهود عن أهدى سبيلاً وأصحابه أم
هم المشركون ؟ وأسرع جواب اليهود المتملق يقول : أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه
فنزلت الآية :
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء : الآية - ٥١ .

لهذه الأسباب ومعرفتها أثر إيجابية كثيرة ، وحسبنا من ذلك أننا نحيط علماً بالغاية
والسر للآية حين نعرف سبب نزولها .
لقد كان القرآن يتنزل إما إجابة عن سؤال يرفع إلى الرسول صلى الله عليه وآله ، أو
تحديداً لموقف يجد عند المسلمين أو حكماً لواقعة حدثت .

فالسبب هو ما نزلت من أجله أية أو أكثر ، مجيبة عنه أو حاكية له ، أو مبيّنة حكمه
، كما نجد في مسألة مسجد ضرار ، وإضعاف المسكين والأسير واليتيم ، والتصدق بالخاتم .
فأسباب النزول ليست على نمط واحد ، وإنما قد تكون مدحاً أو إضرأء لموقف ، أو حلاً
لمشكلة ، أو جواباً على سؤال ، أو تعقيباً على حادث ، أو بياناً لحكم ، أو نحو ذلك حسب
الافتضاء .

فالآيات القرآنية أو السور يمكن تصنيفها بوجه عام في هذا الصدد إلى صنفين اثنين :
- **الصنف الأول** : هو ما نزل لسبب وكان هذا السبب هو المثير والداعي للنزول ،
ولا شك أنه كان معاصراً للوحي .

- **الصنف الثاني** : ما نزل ابتداءً دون واقعة وقعت أو أمر حدث في عصر السوحي
اقتضى نزول الوحي بشأنه ولأجله ، وهذا القسم يشمل أحداث الأمم الماضية التي
وردت في القرآن للتوعية والتدبر والاعتبار ، كما يشمل الأنبياء الغيبية ، وتصوير
البرزخ ومشاهد البعث والنشور وأحوال يوم القيامة ، وأهل الجنة والنار ،
وأوصاف الجنة والنار ، وقصة بناء الكعبة ونحو ذلك . إن قصص الأمم الغابرة

أوردتها القرآن لإعلام الرسول والمؤمنين بوقائعها وأحداثها ونتائجها ، ولكن أحياناً قد يرفع سؤال من الصحابة وغيرهم إلى الرسول عن قصة ذي القرنين مثلاً :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ الكهف : الآية -

. ٨٣

❖ أهمية علم الأسباب :

لعلم الأسباب من الأهمية الملحوظة والملفتة ما لا يسمح لنا أن نغضّ من شأنها ، أو ننقصها قدرها وحقيقتها " العلم بالسبب يورث العلم بالمصيب " . لكل شيء سببه ودافعه ، ولكل أمر ظروفه ومقدماته ، ولكل ظاهرة عواملها وبواعثها .

ألا تجد أن الربيع الفاتن لم يكن لولا النصف المثير ، والمطر المحيي بإذن ربه ؟
ألا ترى أن المولود لا يبصر نور الحياة ، ولا يطلّ على دنيا الانطلاق إلاّ بعد أسباب وأسباب ، وإلاّ بعد أطوار وأطوار ؟
إن للأحزان أسبابها السوداء ، وإن للأفراح عواملها المشرقة !
إن للإيمان دوافعه الهادية المهدية ، الرائدة المرشدة ، وإنّ للكفر ظروفه الجافة الهابطة ، الرديئة المسحوقة !
ونعلّم علم التاريخ يصدق فيما نحن ذاهبون إليه كل الصدق .

فالحقيقة التاريخية وما إليها لا يمكن لنا استنباطها أو استنتاجها دون معرفة أسبابها ، ودون الإلمام بالملايسات والظروف التي أحاطت بها .
كيف نعرف دولة في شأن نشوئها ونمائها وانحلالها أو انهيارها دون أن نحيط علماً بأسباب ذلك النشوء ، وعوامل ذلك الفناء ، وبواعت ذلك الانحلال أو الانهيار ؟ أيّ تمحيص لخبر ، أو تحقيق في رواية لا بدّ من التعليل ، ولا بدّ من ربط الأسباب بالمسببات ، ولعلّ من أهم القوانين التاريخية التي قال بها ابن خلدون هو قانون السببية الذي تأمن به من الكذب ، والاحتيال والوهم والخرافة .

ليس التاريخ وحده إلى هذا المسبيل !

هناك العلوم الطبيعية ، والدراسات الاجتماعية ، وهناك الفنون الأدبية الشعرية منها
والنثرية ، وهناك الأحكام الشرعية ، والانظمة الاجتماعية ، والقوانين المختلفة ، هذا وغير
هذا لا يمكن للباحث أو المحقق أن يطمئن فيه إلى حكم مستيقن بدون معرفة الأسباب .

إن النتائج مرتبطة بالمقدمات ، والحقائق متصلة بالأسباب .
إن الاقتران المشاهد في الطبيعة ، وغير الطبيعة بين ما يقال له أسباب ومسببات هو
لاقتران نلازم بالضرورة ، فليس في الإمكان ولا في المقنن إيجاد العلّة بدون المعلول ولا
المعلول بدون العلّة .

ولعلّ أوثق الفنون اتصالاً بما نحن في صده هو الفنون الأدبية على اختلافها
وتنوعاتها .

كيف لنا أن نتنوّق للنص الأدبي طعمه ونكهته دون معرفة مناسبة الخاصة والعامة ،
ودون معرفة ظروفه المتعددة ، أليس الأدب نتاج البيئة ، وصناعة الأديب ؟
أليس الأدب مرآة المحيط ، وصورة الأديب ، وابن المناخ العام والخاص الذي
ترعرع فيه ؟

وهل يعني ذلك إلّا أن أسباباً بيئية وظرفاً نفسية ، وعوامل اجتماعية وما إليها هي
التي نحمل الأديب على إنتاج الأدب الذي له خصوصية ألفاظه وصوره ومعانيه ؟

تأمل أيّها المتفكّر المحقّق ، والأديب للمتفكّر ما يقوله سعد بن مالك :

يا يؤس للحرب التي	وضعت أراها فاستراحوا
والحرب لا يبقى لجامحها	التخيّل والمراح
إلّا الفتى الصّبار في	التجذات والفرس الوقاح ^١

ألا تأنّس لألفاظ هذه المقطعة ؟

ألا تجد في هذه الألفاظ اليسر والسهولة والعذوبة ؟

أليست هي من الوضوح الذي لا يدفعك إلى استفتاء معجم ؟

^١ - حاشية في غلام شرح المزدودي ٥٠٠/٢ رقم الحاشية ١٦٧ .

ومن جانب آخر إذا أردت أن تستعمل شرح الأبيات وتحليلها ألا يلتفت نظرك في أول هذه المقطعة لفظ 'الأراط' الذي يحتل الزقع على القاعية ، أو النصب على المفعولية ؟ وهل هؤلاء الأراط قد وضعوا الحرب واعتزلوها وآثروا السلامة بعيداً عن مناسبات القتال وساحاته ؟ أم هل الحرب قد وضعت من شأن أولئك الأراط وجنحت بهم إلى اللذل والهوان حتى استسلموا للعدو وركنوا إلى الذعة وأخذوا بأسباب السكون ؟

هل في مفتاح هذه المقطعة تأريث لنار الحرب وتهكم بالذين قعدوا عنها وجانبوها ؟ فيابؤس للحرب من ويلاتها وشروها ، وبا حصرة فيها على للقاعين الذين لا حضور لهم في ميدان ، ولا وجود لهم في ساح ! هل في مطلع هذه الأبيات ما يفتح الحرب التي ليس لها إلا أن تذل الكبرياء ؟ فيا لسعير هذه الحرب ما أقصاه ! وأخر أن تستبدل بها السلام !

وسرعان ما تزول حيرة الباحث وتحول ؟
ومتى ذلك ؟

حين يتمكن الباحث من استقصاء الظروف ، ومعرفة المناسبة التي حملت سعد بن مالك على نظم هذه الحماسية !

حين يستخلص الدارس ويكتشف من خلال الروايات المختلفة والأخبار المتواترة أن شاعرنا سعداً إنما يعرض بالحارث بن عباد الذي كان من القاعين الذين اعتزلوا الحرب وجنبوها ، وكان للشاعر كان من دعاة الحرب ، وكان من أولئك الذين يصلون للحرب نارها وسعارها حتى لا يكون فارس على مهانة ، ولا أحد على استكافة^١ .

فالنص الأدبي لا سبيل إلى فهمه على سداد وعمق إلا بالإلمام الشامل للمناخ البيئوي لهذا النص ، للظروف الخاصة والعامة التي حملت على إنتاج هذا النص ، للمحيط الذي نشأ فيه هذا النص ، للعوامل البيئية والنفسية التي كان لها تأثيرها وأثرها في النص .

وفهم الآية عن هذه الحالات المبيبة ليس ببعيد !
ومحال أن تهتم الآية على دقة وتأول على صحة دون معرفة قصة الآية والأسباب التي اقتضت نزولها !

^١ - راجع لطف الفرزدق لابن عبد ربه ، ص ٢٢٠ .

وحسن من تفران ايضاً إزاء شيء فوق اللغة وقواعدها وأدائها وفهمها .
 للتعبير القرآني ظلال .
 لمفردات آياته إحياءات .
 تفصيصه ولوحاته ألوان وألوان من التصاوير المعبرة والفنية .

وكل هذا يرتبط أوثق ارتباطاً بأوكده بالوقائع الحية ، والأحداث الناطقة ، والمشاهد
 الشخصية ، وكان أبطالها ما انفكوا على مسرح الحياة يقدون ويرجون ، يتحركون وينطقون ،
 وكانهم إزاءنا بلحمهم ودمهم لم يفرقونا ولم يتحولوا غناً ، فأنى للشروح اللغوية الجامدة
 الجافة ، والاصطلاحات البلاغية التي لا رواء لها ولا حياة أن تستطلع في الوقائع يقين
 أخبزها ، أو تستبطن من الأحداث خفي أسرارها ، وهي أعيا من أن ترجع في الأذان
 أصداءها الحلوة العذاب ، وإرنتها الخفق في القلب قبل اللسان ؟

ونحن من القرآن - آخر الأمر - أمام شيء فوق التاريخ نفسه ، فإن وقفنا على سبب
 النزول التاريخي لم نكن قد نقصنا كل شيء ، فما أكذب التاريخ ، وما أكذب المؤرخين على
 لسانه !

وكم في التاريخ من فجوات ينبغي أن تملأ ، وثغرات يجب أن تسد !

أما أسباب النزول من وجهة النظر الدينية فليس لنا فيها إلا أن نستوحي الواقع لا
 صورته ، والإنسان لا شبيهه ، والحق لا صده ، فهل من عجب إذا حرم العلماء المحققون
 الإقدام على تفسير كتاب الله لمن جهل أسباب النزول ؟ وهل بالغ الواحد في حين قال في كتابه
 أسباب النزول * : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ^١ .

وقال ابن دقيق العيد : معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن ^٢ .
 ويقول أبو الفتح القشيري : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب
 العزيز ، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحف بالقضايا ^٣ .

^١ - هو علي بن أحمد ويكنى : أبا الحسين هو عوي مفسر توفي ٤٢٧ هـ .

^٢ - لاقتى ١/١٨٨ .

^٣ - الرماد ١/٢٢٦ .

وقيل : لمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية ، والتعرف على أسرار التعبير فيها لأن النصّ القرآني المرتبط بسبب معين للنزول تجيء صياغته وطريقة التعبير فيه وفقاً لما يقتضيه ذلك السبب ، فما لم يحدد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة ^١ .

وقال السيد الطباطبائي :

" هذه قضايا التي سببت نزول السور أو الآية هي المسماة بـ " أسباب النزول " ومعرفتها تساعد إلى حد كبير في معرفة الآية المباركة وما فيها من المعاني والأسرار ^٢ .
إن لمعرفة سبب النزول أهمية بالغة في التعرف على منلول الآية ومفهومها ، ووجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ومما لا ريب فيه أن صياغة الآية وطريقة التعبير عنها تتأثر إلى حد كبير بسبب نزولها ، فالاستفهام مثلاً هو لفظ واحد ولكنه يخرج إلى معانٍ أخرى كالنفي والنفي والتعجب ، ولا يفهم المراد إلا بالأمور الخارجية ، والقرائن الحالية .

ومثل " العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب " . إن أكثر المفسرين قدرة على إتقان التفسير وتحقيقه هم أكثرهم علماً بأسباب النزول . ولماذا كان أمير المؤمنين (ع) أعظم المفسرين ؟ ليس لإحاطته علماً بأسباب النزول ؟

أليس هو القائل : " والله لم تنزل أية إلا وأنا أعلم فيما نزلت وفيمن نزلت ، وأبين نزلت " وقال (ع) في إحدى خطبه : سلوني فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من أية إلا وأنا أعلم أبليغ نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل ^٣ .

إن لمعرفة للزمان والمكان والأشخاص ومنازل ظروف واقعة الآية والسورة أكبر تأثير على سير غورها وإمطاة اللثام عن مكنون مرادها ، أما الجهل بتلك الأمور فإنه يؤدي إلى تعطيلها ، ولربما العمل بخلاف مؤداه ومراريتها ، قال الواحدي : لا امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها نون الوقوف على قصتها وبيان نزولها ^٤ .

^١ - علوم القرآن ص ٣٩ للسيد محمد باقر الحكيم .

^٢ - القرآن في الإسلام ص ١٥٥ .

^٣ - الانتظام ، المبروطي ، ج ١ ص ١٨٧ .

^٤ - أساس النزول ص ٤ .

... - - - - - . سجد سجد معرفة أسباب النزول هي التي حملت فريقاً من محذني الصحابة والتابعين على الاهتمام بالأحاديث التي شجّل قصة أسباب النزول ، وإنّما لأحاديث بلغت من الكثرة ما بلغت .

وتجاوزت هذه الأحاديث الألاف العدة لدى فريق ، ولكنّها ليست موثقة ولا مسندة ، لذلك اخترقها الكثير من الأحاديث المرسلّة الضعيفة ، وأما عن طريق الشيعة ، فهذه الأحاديث قليلة وربما لا تبلغ إلاّ عدة مئات . إنّ عدم التوفيق لهذه الأحاديث كل مدعاة للارتياح والشك في هذه الأحاديث .

والذي بدعونا إلى هذا الشك في الكثير من الأحاديث إنّما يعود إلى أمور منها :

- أولاً : قصة السبب لا تروى عن طريق السماع المباشر ولا عن طريق المشاهدة ، إنّما عن طريق النقل ليكون هذا السبب سبباً اجتهادياً نظرياً لا سبباً ضابطته بحدوده الدقيقة للمشاهدة والمعينة .

وهل هذه الأحاديث المتناقضة حول الأسباب يمكن إلّا أن تكون مثار الشك ؟ وإلّا أن تكون موطناً للتهاافت ؟

والشاهد على البلاء في هذا الشأن أنّ بعضاً من الآيات يروى عن شخص واحد كسائر عباس مثلاً ، أسباب متباينة لنزولها ولا يمكننا الجمع منها ، بل الشاهد على ما نقول هذا التناقض الكبير في هذه الأحاديث ، وذلك أنّ الآية الواحدة يذكر فيها أحاديث عدة في أسباب النزول لينقض بعضها البعض ، ولا يمكن جمعها بشكل من الأشكال .

والأحاديث التي هذه حالها لا تتجاوز واحداً من محملين اثنين :

١ . إنّما أن تكون هذه الأسباب نظرية اجتهادية لا نقلية وإنّما أن تكون هذه الأحاديث على جعلتها أو معظمها صناعة النسخ والكذب ، ذلك من التهاافت في الحكم الركون إلى خبر الأحاد وإلى الثقة بالناقلين وإلى توهم الصدق .

٢ . ثانياً : لقد حالت الخلافة على مدى تسعين عاماً بين الأحاديث النبوية وتدوينها ممّا أدّى بالرواة أحياناً كثيرة إلى النقل بالمعنى .

وهذا النوع من النقل يفتح الباب واسعاً لآراء الغير تحريفاً إن بالزيادة وإن بالنقصان ، ممّا يسقط أحاديث أسباب النزول ويتركها متهافنة وفي واقع مرعب .

ولو حاولنا التوقف عند الأحاديث في مختلف كتبها لوجدنا منها الإسرائيلية ومنها المكتوب المدهوس ، ومنها ما هو صناعة التفاف والخلفيات التي لا تريد بالإسلام إلا الشر والتعويق ، ومنها ما هو منقول بالمعنى لا بالحرف ولا بالنص . هذا وغير هذا من العوامل أنزل أحاديث أسباب النزول منزلة الشك والارتياب ، وأسقطها من ميزان الاعتبار ، إلا أن البقية الباقية منها فإنها تكسب كل الاعتبار وكل الوثوق .

وكيفما انقلب الأمر فالحديث أحوج ما يحتاج إلى التوثيق القرآني وتأييده حتى يكسب قيمته ، وليس إلى ذلك من سبيل إلا بعرض الحديث على القرآن لا عرض القرآن على الحديث كما ورد في أحاديث عن الرسول وأهل بيته عليهم السلام ، معاً وافق مضمونه مضمون الآية سواء القول أو كان للعمل ، وما خالف كان مردوداً ومطروحاً من الحساب . وبهذا فالحديث هو الذي يعرض دائماً على القرآن لا القرآن هو الذي يعرض على الحديث .

ولطالما أن التعاليم القرآنية إنسانية عالمية خالدة فإن بعضها لا يحتاج إلى أسباب النزول .

والحق يقال : إن علم أسباب النزول هو من للمباحث الجليلة الخيرة بين مباحث علوم القرآن .
إنه علم غريب الفوائد ، عزيز الجوانب ، غني العطاء .

إنه علم يعتمد عليه في فهم قسم من القرآن نزل لأسباب خاصة ومحددة ، إجابة على سؤال ، أو بياناً لحكم يتصل بحادثة من الحوادث التي وقعت أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .
ولقد غني به بعض من العلماء منذ عهد مبكر ، وما ذلك إلا لإدراكهم أهمية معرفة الأسباب .

وذكر السيوطي أشهر من ألف في هذا العلم وهم علي بن المديني البخاري والواحدي ، وإن كان ينسب إليه القصور ، والجعبري الذي اختصر كتاب قواعد بحذف أسانيده ، وابن حجر العسقلاني الذي ترك مسودة للكتاب في أسباب النزول لم يكتمل كما ذكر الميوطي عقب ذلك الكتاب الذي ألفه ودعاه " لباب النقول في أسباب النزول " ^١ .

^١ - راجع : القرآن في الإسلام لمحمد الطباطبائي ص ١٦٦ .

وذهب البعض إلى أنه لا خير في هذا العلم ولا طائل وراءه لأنه لا يتجاوز أو لا يعدو أنه يكون جاريًا مجرى التاريخ .

لكن ألا تجد أن في هذا المذهب أو في هذا التوجه كثيراً من الزيف ، وكثيراً من البعد عن الصواب ؟

إن سبب النزول يساعد أثناء المساعدة على معرفة صنوف الحكمة التي تحمّل على تشريع الحكم ، وكثيرة هي المباحث في أصول الفقه التي كان رصيدها ومستنداتها في منهجها قائمين على معرفة سبب النزول ، وحسبنا من ذلك مسألة خصوص السبب عن أولئك الذين يذهبون هذا المذهب ، والذي يعنيه هذا المصطلح هو تخصيص الحكم بناء على خصوص السبب ، وحسبنا من ذلك أيضاً أن النطق قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه ، وإذ ذلك ينزّم التخصيص .

إن معرفة أسباب النزول لها أثر كبير في فهم الآية ، والتعرف على أسرار التعبير فيها لأن النص القرآني المرتبط بسبب معنى للنزول تحيى صياغته وطريقته في التعبير وفقاً لما يقتضيه ذلك السبب ، فما لم يعرف ويحدد ، قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة .

ولنا على هذه الأهمية لعلم أسباب النزول أكثر من مثل وأكثر من دليل :

١- قال تعالى :

﴿ إِنِ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حُجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصَوِّفَ بِهِمَا ۖ ﴾ البقرة : الآية - ١٥٨ .

يستفاد من الآية للكرمية أن السعي بين الصفا والمروة هو جزء من شعائر الحج واجب الأداء ، أما عبارة " فلا جناح " فلا تفيد الفرضية والوجوب .

كما يستفاد من الآية أنها تركز على نفي الإثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن يكون لها إيدان أو تصريح بوجوب هذا السعي ، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أن تعلن وجوب السعي ؟

وقد كان هناك إشكال عند بعض الدارسين في هذا الشأن لأن ظاهر هذه الآية لا يفيد وجوب السعي . أي ما هو السر في اكتفاء الآية بنفي الحرمة دون إعلانها فرضية السعي ووجوبه ؟

وذهب جماعة إلى أن السبب في ذلك هو أن بعض الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة لأنه من عمل الجاهلية ، فنزلت الآية الكريمة ، وبأسلوب آخر : إن سبب ذلك هو أن الجاهلين كانوا يطوفون ويسعون بين صميين أحدهما يقال له أساف والآخر يقال له نائلة وكان على المروة ، فجنب المسلمون ذلك وكرهوه مخافة أن يكون ذلك من أفعال الجاهلية ، فنزل الله تعالى الآية .

وموقف آخر من هذه المسألة لجماعة آخرين رأوا بأن جماعة الجاهلية كانوا يكرهون أن يسعوا بينهما فظن قوم أن في الإسلام مثل ذلك . وحطم الصنمان بعد أن ارتفعت راية الإسلام ، لكن المسلمين تخرجوا في الطواف بينهما فنزلت الآية .

إن سبب النزول كان عنه توضيح الأمر ، وأنه رد على تخرج المسلمين في الطواف وليس إلغاء لفرضية هذا الطواف .

فالآية هي بصدد نفي فكرة أن السعي بين الصفا والمروة هو من عمل الجاهلية ومفترياتها ، وإعلان أن الصفا والمروة من شعائر الله ، وأن السعي ليس أمراً سائغاً فحسب بل هو واجب . لقد أدى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الآية عند البعض ، إلى فهم مرتبك وخاطئ في تأويلها ، إذ اعتبر اتجاه الآية نحو نفي الإثم بدلاً عن التصريح بالفريضة والوجوب ، دليلاً على أن السعي ليس واجباً وإنما هو أمر سائغ ، إذ لو كان واجباً لكان الأجدر بالآية أن تعلن وجوبه لا أن تعلن مجرد نفي الإثم ، ولو كان هذا لا يجهل سبب النزول والهدف المباشر الذي نزلت الآية لتحقيقه لعرف السر في طريقة التعبير ، والسبب في اتجاه الآية نحو نفي الإثم والتركيز على ذلك .

١. ورد عن عثمان بن مظعون وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : للخمير مباحة والمستند عندهما قوله تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ المائدة : الآية - ٩٣ .

ولقد كان سبب نزول الآية عندهما على خفاء ، فكان التيسر وكان الإيهام في الفهم والحكم .

أما سبب النزول فإنه يرفض هذا المذهب . قال الإمام الحسن (ع) وغيره ، لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم وقد أخبرنا الله بأنها رجس ، فأنزل الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾^١ .

٢- قال تعالى :

﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عِلْمُهُ﴾ البقرة : الآية - ١١٥ .

ظاهر الآية أنه إن دل على شيء فإنما يدل أنه للإنسان أن يصلي موجهاً وجهه في أي من الجهات يشاء ، وإن التوجه شطر المسجد الحرام ليس واجباً .

أما الروايات التي وردت عن سبب نزول هذه الآية الكريمة إنما نرد هذا الفهم وترفضه وتحكم بوجوب التوجه في الصلاة إلى المسجد الحرام ، وإن اختلفت روايات سبب النزول ، وحين نقف على سبب النزول نستخلص أن الآية قد عالجت حال نفر من المؤمنين صلوا في ظلمة وقد خفيت عليهم جهة القبلة .

فلما أصبحوا إذا هم قد صلوا إلى غير القبلة فأخبروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية^٢ .

وقيل : كان ابن عمر يصلي حين توجهت به راحلته في السفر تطوعاً ليكون مذهبه سبب نزول الآية بأنها في صلاة التطوع بالناقلة^٣ .

وقال ابن عباس بأن الآية منسوخة بآية ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ البقرة : الآية - ١٤٤ ، وقال : أول ما نسخ من القرآن القبلة . قال تعالى : " أينما تولوا فثم وجه الله " قال : فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ، وترك البيت العتيق ، ثم صرفه الله تعالى إلى البيت العتيق^٤ .

^١ - ابنهان ٢٨/١ ، وانظر أسباب النزول للرحدي ١٩٦ وتفسير ابن كثير ٩٧/١ والافتان ٥٣/١ .

^٢ - انبياد لتطوسي اعتمد الأول من ٢٢٤ .

^٣ - ابنهدي ص ٣٠ .

^٤ - ابنهدي ص ٣١ .

- قال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أُحْذِرُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلًا نُفْسًا
مُسْتَوْحًا أَوْ لَحْمِ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ الأنعام : الآية - ١٤٥ .
هذه الآية لا تشتمل على جميع ما حرم أكله ، والموقوفة في القرآن تحريم للمنخفظة
والموقوفة^١ ، والمتريبة^٢ ، والنطيحة ، وما أكل السبع ... قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالنَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ وَمَا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ^٣ بِهِ وَالْمُنْخَفَضَةُ
وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾^٤
سورة المائدة : الآية - ٣ .

فالآية الأولى لا تشتمل على كل ما حرم أكله ولا تحصره وإن كان سياقها يفيد
الحصر . إن دفع الحصر يستفاد من سبب نزول الآية . فالآية قد نزلت بسبب أولئك
الكفار الذين أبوا أن يحرّموا ما أحل الله ، وكما رفضوا أن يحلّوا ما حرم فنزلت الآية
في هذا الحصر للمحرّمات لتتفصّل قول للكفار لا لتحصر المحرّمات كلها من
الأطعمة . هذه التماذج من الآيات والتي هي قليل من كثير تحيطنا بمعرفة بأهمية علم
أسباب النزول ، وتعلّل بنا على أسرار التعبير فيها لأن النص القرآني المرتبط بسبب
معين من الأسباب تأتي صياغته وتتلون طريقة تعبيره وأسلوبه وفقاً لما يقتضيه ذلك
السبب . إن لم نعرف سبب النزول للآية وتحدّد فقد تبقى مقاصدها وأسرار صياغتها
على غموض عندك .

وكيفما انقلب الأمر فإن معرفة سبب النزول كما تبين لنا من دراسة الآيات
تحيطنا علماً بوجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم . إنها تساعدنا في معرفة المعنى
المراد من الآية . كما لها تأثيرها في كشف أمر اللفظ إذا كان عاماً ويقوم الدليل على
التخصيص ، ونختصر القول في هذا الصدد : إذا عرفنا السبب لنزول الآية عرفنا

^١ التي صرّحت حتى الموت .

^٢ التي سقطت ، يقال ترى نوزباً أي سقط وهو .

^٣ أي ما رغب المسلمون لغير الله عند ذبحه ، فذبح من حالف الإسلام محرّمة لأنّها يذكر عليها غير اسم الله .

روي عن النضر وثمّاد عن عليّ بن السلام أنّ أذن ما يدرك به الحركة يتحرك أذنه أو ذنبه أو تنظر عنه .

^٤ المحترمة التي كانوا يصبونها بالذبح على اسم الجاثان أو ما ذبح للأوثان تقريباً إليها .

معظم ما فيها وما حولها ، وإذا جهننا السبب اسقط في أيدينا وغاب عنا معظم أنبيائها
في المغزى والمعنى المراد .

❖ القرآن باعتبار سببية النزول قسمان :

وينقسم القرآن الكريم بهذا الاعتبار الى قسمين اثنين :

قسم نزول ابتداء بدون سبب من الأسباب التي نعرفها والتي اصطلح على تسميتها
بأسباب النزول ، وقسم نزل عقب واقعة لافقة ، أو سؤال مشكل .

والقرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية مرشدة ، وكتاب تربية نكرواح والعقول
في أن ، إنه للكتاب الذي يشخص العلل ويحدد العلاجات الشافية والحلول الصحيحة
بكل مشكلة طارئة على الدعوة في مختلف مراحلها ، وإنه لكتاب لا يحار إزاء سؤال ،
ولا يعجز عن الإجابة على استقهام ، سواء كان ذلك من أتباعه المؤمنين أو أعدائه
المنافقين والكافرين .

١ . فالقسم الأول من القرآن هو الذي مهمته هداية النفس ، وتربيتها في جملة جوانب
شخصياتهم لصناعة الإنسان الأفضل " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون
عن المنكر " هذا القسم القرآني لم ينزل بسبب مباشر أو علة معينة محددة في فترة
الوحي وعصره كالإجابة عن سؤال ، أو كحل لمشكلة ، أو التعليق على حادثة كأكثر
الآيات المشتملة على قصص الأمم الغابرة مع أنبيائها ، أو وصف بعض الوقائع
الماضية ، أو الأخبار المغيبة المستقبلية أو تصوير قيام الساعة ، أو مشاهد القيامة أو
أحوال الحمام العسير أو أحوال التعميم المقيم والعذاب الأليم .

إن سورة الفيل ليس سببها فنوم الأحباش كما ذهب الواحدي لأن السورة لم تنزل بعد
وقوع الواقعة مباشرة ، إنما السورة من باب الإخبار عن الوقائع والأحداث الماضية كذكر
قصة آدم ونوح وعاد وثمود وبنو إسرائيل وبناء البيت^١ .
وإن قول أمير المؤمنين (ع) : والله ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيما نزلت وفيمن نزلت
وأينما نزلت^٢ يشير الى إحاطة أمير المؤمنين بالقرآن فهما وعلمًا وحفظًا لا إن لكل آية سببها
في النزول وإن كان بعضهم يشكك بأصل هذا القول^٣ .

^١ راجع الإتيان للتبرطي ٥٣/١ .

^٢ من هؤلاء صحي الصحاح في الشايع من ١٣٢ .

ولقد ظن أكثر العلماء أن لا بد لكل آية من سبب نزول حتى في وقائع الأمم الماضية التي دفنت معها أسبابها ونتائجها ، وطويت في رموسها مقوماتها وعواقبها . فإن كان لزوم التناس سبب نزول لها فيمكن متعلّقاً بالأحياء على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركين أم من أهل الكتاب .
وهذه قصة موسى المتواجدة في مواطن كثيرة من القرآن والتي تكرررت على-صور شتى ، وفي مناسبات عدة ثم يكن نزولها أصلاً قائماً على أسباب خاصة .

ولئن كان لا بد من ردّ هذه القصة إلى سبب قائمها لا تتجاوز تلمية النبي ، وتثبيت فؤاده في أيام محنته ، وساعات شدة التي كان يعاني منها ما يعاني على أيدي بني قومه الجفاة الغلاظ .

ليس من المقبول في شيء أن يقال إن هذه القصة قد نزلت في موسى (ع) وقومه بعد أن قضى موسى وقومه وطونهم قرون وقرون !
إنما الذي يمكننا قوله بأن القصة ما نزلت إلا تعزية للنبي وسلبته .

أمّا القصص القرآنية التي تنزلت إجابة على سؤال فليست من هذا القبيل في حال .

لقد ورد أن الصحابة قالوا يوماً يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى سورة يوسف: ﴿الرَّتْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يوسف : الآية - ١ ، إلى قوله : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يوسف : الآية - ٣ ، ففلاّ عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله تعالى ﴿اللَّهُ أَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ الزمر : الآية - ٢٣ .

أليس واضحاً كل الوضوح أن هذه السورة إنما نزلت إجابة لأسئلة الصحابة للنبي ؟
إن الصحابة كانوا متعصّين للقصص القرآني يبتلى عليهم منه ذكر ، وليتعلموا منه ويتروّكوا ، ولكون لهم منه العبرة الواعظة ، والحكمة المتعلمة ، فطلبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلو عليهم ما يتسرّ من أحسن القصص فكان نزول السورة .

وسأل اليهود عن ذي القرنين فأنزل الله تعالى قوله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْ ذِكْرٍ﴾ الكهف : الآية - ٨٣ .

هذا القسم القرآني الذي نزل ابتداء على غير سبب لا يشتمل على كل الوقائع الماضية بل جلّها ، ولا ينطوي على جملة القصص القرآني بل معظمه . ولا يتحدث عن كل مشاهد القيامة وصور الجنة والنار بل أكثر هاتيك الصور والمشاهدة .

" ولا شيء يمنع أن يكون لبعض هذه النوازل أسباب ، ولا مفرّ للباحث من أن يسلم بقلّة احتياجها إلى هذه الأسباب حين يوازن بينها وبين غيرها من القضايا التشريعية والتوجيهية في كل من الميدانين الفردي والاجتماعي .

فما أقرب ما يفكر القارئ بسبب النزول إذا وقعت عنه على آية في أحكام العبادات أو المعاملات أو الحلال أو الحرام أو الغزو أو الجهاد أو الأحوال الشخصية أو الحقوق المدنية أو المعاهدات الدولية ، فما يفهم شيء من هذا إلا إذا ارتبط بسبب نزوله التاريخي ، وسلك في نطاقه النفسي أو الاجتماعي الذي كان سر مهبط الوحي فيه " ١ .

وبصورة عامة حسب تحديدنا وتعريفنا لأسباب النزول إنّ الوقائع التي حدثت مع الأمم التي عبرت وغيّرت ، والتي يستعرضها القرآن ليست من أسباب النزول لأنها قضايا تحولت إلى التاريخ السابق وعصر النبي .

ليس من المنطق في شيء أن نعتبر حياة يوسف ، وناس إخوته عليه ونجاته وتمكنه منهم سبباً لنزول سورة يوسف (ع) .

وليس مقبولاً أنّ الوقائع التي حدثت لموسى مع فرعون وبني إسرائيل كانت سبباً في نزول الآيات التي تتحدث عن تلك الوقائع .

٢ . أما القسم القرآني الثاني عقب واقعة أو سؤال ، والذي له سببه المباشر والخاص فإنّ مناسباته نسميها بأسباب النزول .

هذا القسم من القرآن هو الذي نزل بسبب له أهميته وله إثارته وقد وقع في حياة النبي واقتضى نزول الوحي والقرآن فيه .

من هذه الأسباب مشكلة تعرض لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتطلبت حلاً أو عائق تصدّى للدعوى وتطلب إزالة أو سؤالاً استدعى الجواب عنه ، أو واقعة كان لا بد من

الإخبار عنها ، والتعليق عليها ، والتعريف بخلفياتها وأسبابها ونتائجها ، والحكمة التي تستفاد منها .

إن أسباب النزول هي أمور وقعت في عصر النبي واقتضت نزول الوحي بشأنها لدراستها والحكم عليها .

وإن بناء المنافقين لمسجد ضرار سعياً وراء الفتنة هي مشكلة حادثة تعرضت لها الدعوة واستدعت نزول قرآن فيها ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ للتوبة : الآية - ١٠٧ .

وسؤال نفر من أهل الكتاب للنبي عن الروح وحقيقتها وخصائصها اقتضى نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء : الآية - ٨٥ .

هذه الوقائع ولشكلائها وهذه الأسئلة وأضرابها مما قد وقع في عهد النبوة المحمدية كانت مدعاة لنزول القرآن ونسبتها بأسباب النزول .

❖ الصعوبة في معرفة أسباب النزول :

لئن اهتم بحثنا ودراستنا هذان بأمر من الأمور فإنما يهتمان ابتداء وانتهاء بأسباب النزول لأن الآيات التي تنزل بأسباب ووقائع إنما هي التي تعالج كل ما يشكل من القضايا ، ولها الكلمة الفصل في كل أمر ، ولها الحكم في كل شأن ، والمعظم من هذه الأسباب يتصل إن من قريب وإن من بعيد بآيات الأحكام بقول تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ الشورى : الآية - ١٠ ، ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ النساء : الآية - ٥٩ .

ولقد كان الصحابة عامة وأهل البيت خاصة يتدبرون القرآن ويتذكرونه ، يتتبعونه ويحفظونه ، يراعونه في صدورهم قبل سطورهم . لقد كانوا يتلاوتهم له في المحراب مصليين وفي الزوايا خاشعين وكان لهم دويّ معه كدويّ النحل لامتلاك منهم العقول ، وغزا منهم القلوب. لقد استحاثوا فيه إلى ظاهرة إيمانية صنعت منهم كباراً كباراً من الناس لينقلوا نسخة مفردة على مساحة الزمان والمكان ، وما الذي نستخلصه ونستفيد من قول أمير المؤمنين (ع) : والله ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيما نزلت

« لا يشير إلى لسانه اللّاذكر . وقلبه الحاشع ، وصدره الحافظ ، وتتبعه وتذكره للقرآن في كل شروته ؟ في القرآن علم الأولين والآخرين ، والصحابة كل منهم يحقّق نوعاً من هذا العلم . زيد للفرانض . معاذ للحلال والحرام . أبي للقراءة ، عبد الله بن عباس بحر أو حبر لإختصاصه دونهم بالتفسير والتأويل . يقول فيه أمير المؤمنين (ع) : كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .
أما أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنه لكل صغيرة وكبيرة في القرآن وشؤونه . أليس هو القائل : " لو أردت أن أملي وقرأ بعيز على الفاتحة لعفت " .

وقال ابن عطية :

" فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب ، ويثوره ابن عباس رضي الله عنهما " .

وعلماء القرآن جاءوا ضفة بعد طبقة فيبلغ منهم الحد والعطاء ما بلغ ، وكل ينقّ من سعته ، ومما آتاه الله من رزقه في العلم والفهم .

ولهذا كان سهل بن عبد الله يقول :

" لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه لأنه كلام الله ، وكلامه صفة ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه . وكلام الله غير مخلوق ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فيسوم معدّته مخلوقة " .^١

فإن علماء وإن كان غنياً ما فاتهم من العلم فلا يحيطون بأسباب النزول إحاطة وافية . والذي ساعد على عدم هذه الإحاطة للشاملة هو أن التكوين كان معدوماً ، والتصنيف كان على غير توقّر .

وجه العلماء الكثير الكثير من أسباب النزول ، وكلما امتد الزمان امتد جهلهم بهذه الأسباب لأن انقطاعاً أو ما يشبه الانقطاع يحل بينهم وبين الإنبياء والأصول .

ليس عجباً بعد ذلك أن يضع السلف الصالح شروطاً فنية على الروايات المنصلة بأسباب النزول من حيث روايتها ووثانها ومتونها . حتى لكان هذه الشروط أشبه ما تكون بشروط المتحقيقين على رواية الأحاديث .

^١ - البرهان ، لوزكني ج ١ ص ٨ .

^٢ - البرهان ج ١ ص ٩ .

مرفوض ومردود اللجوء إلى الاجتهاد والركون إلى إبداء الرأي الشخصي في رواية الأسباب . لا بد من الرواية الصحيحة في هذا الشأن تواتراً وصنفاً ومعينة . لا بد من عرض الرواية على القرآن لا عرض القرآن على الرواية ليكون الاطمئنان واليقين ، وإلا فالارتباب والشك في الرواية . قال الواحدي في مسألة الأسباب :

« ... إذ هي أوفى ما يجب للوقوف عليها ، وأولى ما تصرف العناية إليها لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها . ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والمعجم ممن شاهدوا التتزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحوثاً عن علمها . وجئوا في الطلاب . لقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثر في هذا العلم بالنار »^١ .

وتخرج السلف الصالح في القول بأسباب النزول مخافة الكذب والافتراء على القرآن بغير علم ولا هدى ولا كذب منير .

وكانت للواحدي حملة عنيفة على علماء عصره لأنه رأى بأنهم لا يحتاطون في رواية الأسباب ، ولا يفتقون ، أو يمتصون في رجالاتها وأسانيدها ونصمها ، ولا يتورعون عن الكذب والافتراء على الله ورسوله ، وكأنهم في رأيه لا يخشون الله ، ولا يبالون بوعيده وتهديده لمن افترى على الله الكذب ، قال في ذلك :

« وأما اليوم فكل أحد يبتدع شيئاً ، ويخلق إفكاً وكذباً ملقياً زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية ، وذلك الذي حدا بي إلى إسماء هذا الكتاب الجامع للأسباب ، لينتهي إليه طالبو هذا الشأن والمتكلمون في نزول القرآن فيعرفوا الصنق ، ويستغفروا عن التمويه والكذب ، ويجتروا في تحفظه بعد السماع والطنب »^٢ .

ومهما نجد في طلاب الروايات الصحيحة التي توصلنا إلى أسباب نزول الكتاب لن يكون في وسعنا أن نجمع الآيات كافة التي وقع نزولها بعد أسئلة أو أسباب . فذلك يلجئنا إلى وضع تصانيف كثيرة تحيط بهذه المعلومات الدقيقة الواسعة بعد تمحيص كل ما ورد فيها من متون وأسانيد^٣ .

^١ - أسباب النزول ، ص ٨ .

^٢ - أسباب النزول ، ص ٩ .

^٣ - مناقش ، ص ١٣٥ .

وما أكثر التصانيف في هذا العلم ، وما أكثر الذين تصدوا للبحث في أسباب النزول ؛
لكن ليس الأمر أن نبحث إنما المطلب الإجابة والإتقان ، الصدق والاختصاص لله وللرسول
وللعلم فيما نبحث .

وهذا هو الميوطي العالم الباحث يعدد لنا أولئك الذين صنفوا في هذا الحقل بدءاً
بأقدمهم علي بن المديني^١ لكنه يتناولهم بالنقد والمواخذات .

لقد توقف عند كتاب الواحدي منذاً بعجزه وإعوازه ، وتحول إلى الحديث عن
اختصار الجعبري لهذا الكتاب وما فيه من قصور وتقصير ، من حذفه لأسانيده من نون أن
يضيف عليه شيئاً^٢ .

وهذا هو الميوطي أيضاً يخوض في الموارنة بينه وبين السابقين لينتهي به الحكم على
أن صنائعه هي في كتابه " آباب النقول في أسباب النزول " ، والذي يثير الأسف هو أن هذا
الهازل وهذه الثغرات ليست وحدها في هاتيك المصنفات المختلفة .

كيفما يلتفت الباحث فإنه يلقى تلك المصنفات تضج بالأخطاء التاريخية ، والمغالطات
المنطقية ، والمبالغات الفاحشة ، والغرائب العجيبة النادرة .

لك أن تتوقف عند الواحدي في بعض أخطائه التاريخية ، وغرائب أحكامه
واستخلاصاته حين يقرأ مثلاً قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا
أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خِلَافِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴾ البقرة : الآية - ١١٤ .

وإنه لسوء شديد من الفهم حين يذهب إلى أن الآية ليست وعبداً عاماً مطلقاً للذين
يستهيئون بالمعابد ، ولا يرفعونها حق رعائيتها ، بل ويعطلون الشعائر ، وينتهكون الحرمات ،
ويسعون في بيوت الله خراباً . إن الواحدي يقع في خطأ تاريخي فاحش إما لجهل ، وإما لعدم

^١ - شيخ البخاري .

^٢ هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم المشهور بالخموي والملقب بوهان الدين . له كتاب " روضة الطرائف في رسم المصاحف " و
عقد احسان " و " شرح للشافية في علوم القرآن " توفي ٧٢٢ [الدار الكائن ٥٠/١] .

^٣ - الإتقان ص ٤٨ .

تحقيق وتدقيق ، وإمّا لثقة بالنقل ، وما كان له ولا لغيره أن يحملوا القرآن خطأ من أخطائهم ،
أو رثة من زللهم .

لقد ذكر قول قتادة على علّته وعلى هذه في سبب نزول الآية . يقول قتادة : " إن
الآية نزلت في بختنصر البابلي وأصحابه ، فقد غزوا اليهود ، وخربوا المقدس ، وأعانتهم
على ذلك النصارى من الروم " ^١ .

إنه ليذكر تعاون النصارى مع بختنصر على تخريب بيت المقدس ، رغم أن حاشية
بختنصر هذا ، قد وقعت قبل ميلاد السيد المسيح بستماية وثلاثين سنة " ^٢ .

والذي يخفف عن الواحدي التّريب على هذا الخطأ أمران اثنان :

- أحدهما : أنه لم يكن في عداد المؤرخين .
- وثانيهما : أنه لم يختَر رأي قتادة ، ولم يعتمد وثيقة بل اكتفى بذكره ، وكأنّه
يحتمل التصديق والأخذ به لكن لا على سبيل اليقين .

والطّبري لا يذهب بعيداً عمّا رواه قتادة في شأن هذه الآية . يقول الطّبري في تفسيره :
" وأول التأويلات التي ذكرتها بتأويل الآية قول من قال : عن الله عز وجل بقوله :
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ البقرة : الآية - ١٤٤ النصارى ،
وذلك أنهم هم الذين سَمِعُوا في خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا
موسى بني إسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر عنهم إلى بلاده " ^٣ .

وكما أنه ليس كل المؤرخين بمؤرخين ، فليس كل المفسرين بمفسرين ، والقرآن يجب
الاحتياط في تفسيره وتأويله أكثر من كتابة التاريخ . ما أكثر أمثال هذه الأخطاء التاريخية
التي حملها الرواة والمفسرون على أسباب النزول ؟
من خلال ما تقدم نلاحظ أن العلماء يرون بضرورة سببية النزول لكل آية ، وإن فسي
وقتئذ الأمم الماضية التي دفنت معها أسبابها ، وتوارت معها نتائجها .

^١ - الواحدي ، أسباب النزول ص ٢٤ .

^٢ - لسان تفسير المنار ٤٣١/١ .

^٣ - الطّبري ص ٣٩٣ .

هذه الآية ، إذا كان لا بد من التماس سبب نزولها ، والتعريف على النواحي المباشرة وغير المباشرة لهذا النزول ، فليكن ذلك مرتبطاً بالأحياء الذين عاصروا النبي سواء كانوا من المؤمنين ، أم من المشركين أم من أهل الكتاب . ولماذا سبب نزول هذه الآية التكريمة هو دخول بختنصر بيت المقدس لتلّيل من قسميته ، وتخريبه وتهديمه ؟

لماذا لا تكون في الآية النظرة الفاحصة ، والوقف المتأمل للسائق للقرآن قبلها ؟ لو كان ذلك لأمكن ملاحظة أن الآية كانت خطاباً لأهل الكتاب عامة ، ومن هم على شاكلتهم ، لو كان ذلك لتبين أن القرآن لم يرحب بتوجه هؤلاء وأمثالهم يندد ويستكر كل حادثة سؤذي إلى انتهاك حرمة المعابد ، سواء أوقع ذلك في عهد هؤلاء أم في عهد أملافهم ، وسواء أصدرت عنهم أم عن غيرهم ، في أي من الأزمنة والأمكنة ، وسواء أوقعت أم سوف تقع ، أم يمكن أن تقع .

إن الخطاب بهذه الآية ليس فيه ما يشير إلى الغاية من نزول هذه الآية من حيث تعيين الأشخاص أو الأمكنة أو الأزمنة ، وإنما الآية تتناول وعيداً وتهديداً لكل من تراوده نفسه ، أو تحدثه بتخريب المعابد ، وانتهاك حرمتها في أي زمان وأي مكان .

الأجد أن الأخذ بهذا التأويل ، أن الإيثار لهذا المذهب في التفسير هو منجاة للمفسر من كل إشكال في سبب النزول ، بل هو إنقاذ له من الخطب الضائع والأعصى في مسألة الأسبب .

إن هذا المنحى في التفسير يفرد آيات وسوراً نزلت ابتداء بكون سبب مباشر وبدون واقعة أو حادثة ، وكان المنطق نفسه من مقتضياته أن يكون التنزل هكذا ابتداءً ، أن المنطق من مقتضياته أن يكون للآية سبب عام .

وهذه هي قصة موسى قد تكررت في مواطن كثيرة من القرآن بصور شتى فإنها قد نزلت ابتداء غير قائمة على أسباب ، ومن ألبى إلا أن يلتصق لها أسباباً ربطها جميعاً بسبب واحد عام هو تسلية النبي ، وتثبيت فؤاده في أيام شدائده ، وفي ضمة الانزعاجات التي كانت توجه إليه من قومه الظلمة الفجرة ، ومن جماعته العناية البغاة ، لكن الآيات التي صورت قصة موسى وقد نزلت في غير زمن صاحبها ، يقال أنها نزلت لتسلية محمد لنزولها في زمانه ، ولا يقال أنها نزلت في موسى وقومه لأنها تنزلت بعد إبدال الستار على تلك القصة بغرور وأجبال .

لا معنى إذن ، أن يعترض معترض بمثل قصة يوسف التي ورد فيها أن الصحابة قاتلوا يوماً : يا رسول الله : لو قصصت علينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي بَيَّنَّا يَوْسُفَ : الْآيَةَ - ١ ، إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يوسف : الْآيَةَ - ٣ ، لأن سبب نزول السورة كلها ، لا آياتها الأولى ، وحسب أمر صريح يتعلق بالصحابة والمائلين أنفسهم ، فقد كانوا على تعطش شديد إلى قصص قرآني يكون لهم فيه موعظة حسنة ، وعبرة نافعة ، وقد رغبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبة خالصة لا شبهة فيها في الاستماع لأحسن القصص ، وما في ذلك مكان لعجب ، كما لم يكن في سؤال اليهود عن ذي القرنين موطن لدهشة حتى قال قتادة :

" إن اليهود سألوا نبي الله عن ذي القرنين : فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ الكهف : الْآيَةَ - ٨٣ .

❖ كيف نعرف سبب النزول ؟

ليس بالرأي ، ولا بالاجتهاد يعرف سبب النزول ، وإنما يعرف بالنقل الصحيح والرواية الموثوقة . لا يعتبر النقل صحيحاً ، ولا موثقاً إلا الوارد عن آل البيت النبوي . هؤلاء هم العارفون بأسباب التنزيل ، إلى جانب الصحابة الموثوقين المتابعين للقرآن ، والمتفهمين فيه كابن عباس وأضرابه .

أما الذي يروي من أسباب النزول بسند ينتهي إلى تابعي فحكمه أنه لا يقبل إلا إذا أتته رواية أخرى بسند عن تابعي آخر شريطة أن يكون الراوي لسبب النزول من أئمة التفسير الأخذين عن آل البيت ، وعن الصحابة أخذاً مباشراً كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير .

❖ التمييز بين سبب النزول وبين الموضوع الذي يتحدث عنه الآية :

إن سبب النزول في معناه الاصطلاحي الذي تحدثنا عنه يكون من قبيل السؤال بوجه إلى الرسول ، أو الحادثة تقع في زمانه ، فينزل الله ما يجيب به عن هذا السؤال ، أو يبين به الحكم في هذه الحادثة . أما ما ترويه الآيات من أخبار عن الأمم الماضية والأحداث السالفة ، فليست هذه الأخبار مما يدخل في المعنى الاصطلاحي لسبب النزول .

إنَّ قُومَ الْأَحْبَاشِ لَنَافِخُونَ وَلَنُفِثُونَ مِنَ حَرَمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لَيْسَ سَبَبُ لِنَزُولِ سُورَةِ "الْفِيلِ" إِذَا قُصِدْنَا الْمَعْنَى الْأَصْطِلَاحِيَّ لِعِبَارَةِ سَبَبِ النُّزُولِ ، وَلَكِنْ هَذَا الْقُومُ ، مَوْضُوعُ هَذِهِ السُّورَةِ ، قَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ فِيهَا كَمَا ذَكَرَ الْأَحْدَاثَ السَّالِفَةَ ، شَأْنُهُ فِي ذَلِكَ شَأْنُ قِصَّةِ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَبَنِيَاءَ الْبَيْتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ^١ .

❖ التَّعْيِيرَاتُ الَّتِي يَفْهَمُ مِنْهَا سَبَبُ النُّزُولِ :

إنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ هُوَ النُّقْلُ وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ يَجِبُ مُحَاوَلَةُ اسْتِقْصَاءِ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تُصَوِّرُ بِهَا الرُّوَايَاتُ الْمَعْتَبَرَةُ عَنْ تِلْكَ الرُّوَايَاتِ .

مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ مَا هُوَ نَصٌّ فِي السَّبَبِيَّةِ إِذْ يَصْطَرِّحُ بِعِبَارَةٍ : " سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ كَذَا " ، أَوْ تَذَكُّرُ الْحَاطَّةِ لِقَتِي نَزَلَتْ بِمُنَاسِبَتِهَا وَمِنْ أَجْلِهَا الْآيَةُ مُشْفَعَةٌ بِغَاءِ السَّبَبِيَّةِ كَأَن يَقَالَ " وَقَعَ كَذَا فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى ... " وَتَذَكُّرُ الْآيَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِسَبَبِ نَزُولِهَا . وَرَبَّمَا يَفْهَمُ سَبَبُ النُّزُولِ مِنْ قَرِينَةٍ وَاضِحَةٍ كَأَن يَقَالَ : مِثْلُ الرَّمُولِ عَنْ كَذَا ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ جَوَابًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ... وَتَذَكُّرُ الْآيَةِ هَذِهِ الْأَحْوَالُ كُلُّهَا نَصًّا فِي السَّبَبِيَّةِ .

وَهُنَاكَ أَحْوَالٌ تَرِدُ فِيهَا عِبَارَةٌ : " نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا " . وَمِثْلُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ لَا تُعْبَرُ بِالضَّرُورَةِ عَنْ سَبَبِ النُّزُولِ ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ مَجَرَّدَ تَعْيِيرٍ عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ ، فَلَوْ قِيلَ مِثْلًا أَنَّ سُورَةَ " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ " نَزَلَتْ فِي مُحَارَبَةِ الْأَشْرَافِ الَّذِي كَانَ مُنْتَشِرًا بِمَكَّةَ ، فَلَيْسَ هَذَا مِنْ قِبَلِ التَّعْيِيرِ عَنْ سَبَبِ النُّزُولِ بِالْمَعْنَى الْأَصْطِلَاحِيَّةِ بَلْ هُوَ تَعْيِيرٌ عَنْ مَضْمُونِ السُّورَةِ . فَإِذَا وَرَدَتْ حَوْلَ إِحْدَى الْآيَاتِ رَوَايَتَانِ عَنْ سَبَبِ نَزُولِهَا ، إِحْدَاهُمَا تَتَضَمَّنُ نَصًّا صَرِيحًا بِالسَّبَبِيَّةِ ، وَالْأُخْرَى لَا تَتَضَمَّنُ نَصًّا صَرِيحًا فَكَمَّتِ الرُّوَايَةُ الَّتِي تَعْبَرُ بِصَرَاحَةٍ عَنْ السَّبَبِيَّةِ .

قَالَ الْمَرْكَشِيُّ فِي كِتَابَةِ الْبَرَاهَانِ :

قَدْ عَرِفْنَا مِنْ عَادَةِ لِلصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قَالَ " نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا " فَلَيْسَ يَرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ هَذَا الْحُكْمَ . لَا أَنَّ هَذَا كَانَ السَّبَبَ فِي نَزُولِهَا .

^١ - انظر السببوني ، الإيضاح ، ج ١ ص ٣١ .

❖ تعدد الأسباب والمنزل واحد ، وتعدد المنزل والسبب واحد ، وكيفية الترجيح بينهما:

○ أولاً : تعدد الأسباب والمسبب واحد :

... وعرفنا فيما مضى أنه قد يحدث في عصر الوحي ما يكون سبباً لنزول آية أو أكثر ، وهذا السبب نفسه قد يتكرر في أكثر من مكان أو زمان ، أو من أكثر من شخص أو ظرف ، ويستدعي ذلك نزول الوحي بجواب له ، وتسمى هذه الحالة تعدد الأسباب والمنزل من الوحي واحد . يقول الزركشي :
" ونزول الشيء أكثر من مرة قد يكون تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه ^١ .

وبتعبير أوضح ، قد تروى أسباب متعددة وكلها تتضمن نصاً في السببية حول نازل واحد ، أي قد يصادف حصول وقائع متعددة متكررة ، تستدعي نزول قرآن ، ولكن تلك الروايات بالفاظ صريحة في إفادة السببية ، فللعلماء في مثل هذه الحال ميزان دقيق يرجحون به إحدى تلك الروايات أو يوفقون بينها توفيقاً سائغاً مقبولاً .

- إن تعدد الأسباب ، قد يقتضي تعدد النزول ، وإن كان النزول واحداً . سورة الاخلاص ، نزلت مرتين ، إحداهما بمكة جواباً للمشركين من أهلها ، والأخرى بالمدينة جواباً لأهل الكتاب من أهلها ، وذلك بعد الهجرة للمباركة إليها . ألا تجد هنا أن النزول واحد رغم تعدد النزول وتعدد الأسباب ؟

في حالة تعدد الأسباب قد يوجد فاصل زمني بين أحد السببين والآخر فيؤدي السبب الأول إلى نزول الآية فعلاً ثم يتجدد نزولها حين يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدة فيكون السبب متعدياً والنزول متعدياً ، وإن كانت الآية في الترتيلين واحدة كما في نزول سورة الإخلاص .

- وقد يتفق وقوع عدة أشياء في عصر الوحي تتفق في إشارة واحدة ، وتستدعي نزول القرآن بشأنها ، كما إذا تكرر السؤال من النبي مثلاً عن مشكلة واحدة ، فإن كان كل سؤال يقتضي نزول الوحي بجوابه ، ويقال في هذه الحالة أن الأسباب متعددة والمنزل واحد .

^١ الزحمان ، ج ١ ص ٢٩ .

أن يكون نزولها في أكثر من سبب واحد ، كما هو الحال في تعدد الأسباب والمنزل واحد ، وكذا الحال إذا ما اختلفت الروايات في ما نزل من الآيات بسبب من الأسباب ، فإنه جائز أن يتعدد الدال والسبب واحد . ومن الجائز أيضاً أن ينقل سبب النزول ويراد به التفسير لا سيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك أن الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب في نزولها .

حين تتعدد الروايات في سبب نازل واحد لا يعد الأمر أن تكون إحدى هذه الروايات أقوى سنداً وتوثيقاً ، فهي بهذا ترجح على ما عداها ، وربما يكشف البحث عن صحة إحدى هذه الروايات وزيف ما سواها ، وهنا نختر الرواية الصحيحة ، وربما كان السببان صحيحين وأنهما وقعا في زمانين متقاربين فنزلت الآية للحكم فيهما معاً ، ومثال ذلك :
روي أن عويمراً قد أتى عاصم بن عدي ، وكان سيد بني عجلان ، فقال : كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً أبقته فقتلوه أم كيف يصنع ؟ سئل لسي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك : فأتى عاصم النبي فقال يا رسول الله ، فكره رسول الله المسائل وعابها ، فقال عويمر : والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله عن ذلك .

فجاءه عمير فقال : يا رسول الله . رجل وجد مع امرأته رجلاً أبقته فقتلوه أم كيف يصنع ؟ واتفق في مرة ثانية أن هلال بن أمية^١ قذف امرأته عند النبي بشريك بن مسحاء فقال النبي : البينة لو حد في ظهرك فقال : يا رسول الله ، إذا وجد أحداً مع امرأته رجلاً ينطلق يلتصق البينة^٢ فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه :

﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ النور : الآية - ٦ ، إنها أسباب متعددة استدعت نزول السوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته إذا أطلع على خيانتها ، وما إذا كان من الجائز له أن يقتلها ويتهما بدون بيعة أو لا يجوز له ذلك إلا ببينة فإن اتهم بدون بيعة استحق حق القذف كما هو شأن غير الزوج ، إذا قذف امرأة أخرى ولأجل ذلك نزلت الآية ، فكان السبب متعدداً والمنزل واحد .

ولقد تكرر السؤال عن مشكلة واحدة في وقتين متقاربين ، حيث بدأ أحد هذين الصحابييين سؤال رسول الله عن الموضوع ، ثم تلاه الآخر قبل أن يجيبه صلى الله عليه وآله

^١ - لافان ، العبري ح ١ ص ٣٦ .

^٢ - هو هلال بن أمية بقرابي أحد الثلاثة الذين سئلوا وصالت عليهم الأرض بما رحبت .

^٣ - روي رواية أخرى أنه قال : والذي بعث بالحق نصادق ولينزل الله تعالى ما يرضى ما ظهر من الحد ، البخاري ١٠١٦٦ .

وسلم ثم أنزل آيات الملاعة في سورة النور إجابةً لكتلا السائلين ونيس ببعيد ، كما يقول الحافظ الخطيب ، أن يكون " قد اتفق لهما ذلك في وقت واحد " وحمل الأمر على تعدد السبب هو الظاهر وهو أولى بالاعتبار ، ولا مانع من تعدد الأسباب على حدّ تعبير ابن حجر ^١ .

ولو صحّت روايتان عن سبب نزول آية واحدة ، وكان السبب المرويّ في إحداهما يبعد في زمان وقوعه عن السبب المرويّ في الأخرى حمل الأمر هنا على تكرار نزول الآية ، ورتباً تكرر نزول الشيء تعظيماً لشأنه . يقول الزركشي : وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه ، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيان ، وهذا كما قيل في القاتحة التي نزلت مرتين : مرة بمكة وأخرى بالمدينة . وكذلك سورة الإخلاص " قل هو الله أحد... " التي هي جواب للمشركين بمكة ، وجواب لأهل الكتاب بالمدينة الذين كانوا يجاورون النبيّ بعد الهجرة.

وما يروى أنّ النبيّ وقف على صخرة حين استشهد أحد المجاهدين وقد مَلَّ به فقتل :
لَأَمْتَنَ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَائِكَ ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَالنَّبِيُّ وَقَفَ بِخَوَاتِمِ سُورَةِ النَّحْلِ :
﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾
وَصَبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ للنحل : الآيات - ١٢٦ - ١٢٨ .

ولما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمُتُوا به ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله وإن عاقبتكم... ^٢ .
فلا بد لنا من القول بتعدد ونزول هذه الآية لصحة السند ولتباعد الحادثين إذا كانت الأولى في غزوة أحد والثانية في فتح مكة ، وإن كانت الروايتان صحيحتين ، ويمكننا ترجيح إحداهما لأنها أصحّ من الأخرى أو لأنّ راويها شهد الحادثة دون راوي الأخرى ، فلا ريب أنّ سبب النزول يأخذ من الراجحة الأصحّ .

عن ابن مسعود قال : كنت أمشي مع النبيّ في المدينة وهو يتوكأ على عسيب فمرّ بنفر من اليهود فقال لبعضهم : لو سألتموه ، فقالوا : حدثنا عن الروح فقام ساعة ، ورفع رأسه فعرّفت أنّه يوحى إليه حتى صعد الوحي ، ثمّ قام :

^١ - الاقتار ، ٥٦/١ .

^٢ - مصدر نفسه ، ٥٧/١ .

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الاسراء : الآية - ٨٥] .
وعن ابن عباس أنه قال : " قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسال هذا الرجل ،
فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسالوه فأنزل الله " ويسألونك عن الروح " .

فالرواية الأولى أرحح لأن ابن مسعود حضر الحادثة وعائنها ، وهذا وجه في
ترجيحها .

وإذا صحت إحدى الروايتين دون الأخرى فلا يقول إلا على الصحيحة ، ولا يأخذ إلا
بأسبابها .

يروى أن النبي لم يعم ليلة أو ليلتين ، فأنته امرأة : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد
تركك ، فأنزل الله " والضحى والليل إذا سجي ، ما ودعك ربك وما قلى ... " .

ويروى أن جرواً دخل بيت النبي ، فدخل تحت السرير فمكث النبي أربعة أيام
لا ينزل عليه الوحي . فقال : يا خولة ، ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتيني !
فقلت في نفسي : لو هيأت البيت وكنته ، فأهويت بالمكتمة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ،
فجاء النبي تردع لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة . فأنزل الله " والضحى " إلى قوله
" فنرضى " .

وجاء في مباحث علوم القرآن تعليقاً على هذه الرواية قوله :

" ورأحة الوضع ظاهرة في الرواية الثانية . فكل ما فيها من اللفظ والمعنى يدعو إلى
الدشة والاستغراب فلا مبرح لتردنا وتساؤلنا : أنهما تعمل ، وأنهما تهمل ؟ إذ لا مكان
للباطل إلى جانب الصحيح . فقال ابن حجر : قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن
سبب نزول الآية غريب ، وفي إسناده من لا يعرف ، فالمعتمد ما في الصحيح " .

وكما يتعدد السبب والمنزل واحد كذلك قد يتفق كون السبب واحداً في نازلين ، وهذا
ما يعبر عنه بقولهم " تعدد النازل والسبب واحد " .

قال ابن عباس : كان رسول الله جالساً في ظل شجرة فقال : " انه سيأتكم إنسان
ينظر إليكم بعين شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فسدعاه

^١ الاقنان ، ٥٥/١ .

^٢ - المباحث ص ١٤٩ ، رواية ابن حجر وردت في الاقنان ٤٥/١ ، وهو إجماع كلنا مع تعليق ابن حجر في الصفحة نفسها .

قالوا حتى تجاوز عنهم . فأنزل الله :

﴿ يَحْطِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَسُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا
وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَبِمَنْ يُتَوَلَّوْنَ يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَأَنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ التوبة : الآية - ٧٤ .

وجاءت رواية تقول ، فأنزل الله :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ نَهْ كَمَا يَحْطِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا
أَنَّهُمْ هُمْ الْكَافِرُونَ (١٨) سَخَّوْذٌ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَمَّا هُمْ فَنَكَرُوا اللَّهَ لَوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا أَنْ
حِزْبُ الشَّيْطَانِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴾ المجادلة : الآيات - ١٨ - ١٩ .

بعد هذا الذي استعرضناه يبدو لنا وجوب عدم الإسراع في الحكم بالتعارض بين
روايتين تحتثان عن أسباب النزول إذا ذكرت كل منهما سبباً للنزول أية بغاير السبب الذي
ذكرته الرواية الأخرى لنزول نفس تلك الآية ، أو إذا تحدثت الروايتان عن سبب واحد فذكرت
كل منهما نزول أية بذلك السبب غير الآية التي ربطتها الرواية الأخرى به لأن من الممكن
فهم الاختلاف بين الروايتين والتوفيق بينهما على أساس إمكان تعدد سبب النزول لأية واحدة
أو تعدد الآيات النازلة بسبب واحد فلا يوجد بين الروايتين تعارض على هذا الأساس^١ .

هذه الموازين وهذه التخريجات والترجيحات في أسباب النزول ، إن دلت على شيء
فإنما تدل على الجهد الواسع ، الذي كان يبذله العلماء المحققون ، كما يحيطنا ذلك علماً بدقّة
الملاحظة ورهافة الحس ، واتساع الثقافة القرآنيّة ، يضاف إلى ذلك الإخلاص في البحث
والحرص على الوصول إلى اليقين ، وحسبهم من ذلك كله أنهم جعلوا دراسة القرآن فوق
روايات التاريخ ، مثلاً جعلوه فوق علم التفسير وقواعد اللغة والبيان .

❖ كيف كان الترابط بين الآيات والصور رغم التنزيل المنعجم ؟

هذه الدراسة النقدية الرشيدة أظهرت لأهلها المحققين الواعين أن نزول الآيات بأسبابها
الفردية الخاصة لا يتعارض مع وضع الآيات في مواضع تناسب سياقها . فالقرآن

^١ علوم القرآن ، محمد باقر حكيم ، ص ٤١ .

كان ينزل على الأسباب منجماً تنبأ لما تفرق من الوقائع ، وكان النبي يأسر بكتابه
الآية أو الآيات مع ما يناسبها من الآي في المواضع التي علم من الله أنها مواضعها
تتلياً لمفهوم الوحي ، ورعاية لنظم القرآن وحسن السياق .

وكان في جمعهم بين السبب التاريخي والسياق الأدبي ما لا تترك العبارة وصفه من
رهافة حسهم اللغوي والفني ، فما أغفلوا التماسق الفني حين أقصوا فكرة الزمان لمرعاة
السياق ، لأن الزمان ، كما يقول الزركشي إنما يشترط في سبب النزول ولا يشترط في
المناسبة . إذ المقصد منها وضع آية في موضع يناسبها^١ . إن قوله تعالى :

﴿ لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ^٢ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ النساء : الآية - ٥١ ، قد نزل في
رجل من أهل الكتاب يسمى كعب بن الأشرف .

جاء في مجمع البيان حول سبب نزول هذه الآية قوله :

" إن كعب بن الأشرف خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد
ليحالفوا قريشاً على رسول الله ، ولينقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ، فنزل كعب
على أبي سفيان فأحسن مواءمه ، ونزلت اليهود في دور قريش فقال أهل مكة إنكم أهل كتاب ،
ومحمد صاحب كتاب ، يمكن أن يكون هذا مكرأ منكم ، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد
لهذين الصنمين وأمن بهما ففعل ، فذلك قوله " يؤمنون بالجبت والطاغوت " ثم قال كعب : يا
أهل مكة ، ليحيى منكم ثلاثون ، ومنّا ثلاثون ، فنصق أكبادنا بالكعبة ، فشهد رب البيت ،
لنجهن على قتال محمد ، ففعلوا ذلك ، فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ
الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم ، فأبنا أهدى طريقاً ، وأقرب إلى الحق ، نحن أم محمد ؟
قال كعب : إعرضوا على دينكم ، فقال أبو سفيان : نحن ننحز للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ،
ونقري الضيف ، ونفك العاني ، ونصل الرّحم ، ونعمر بيت ربنا ، ونطوف به ، ونحن أهل
الحرم ، ومحمد فارق دين آبائه ، وقطع الرّحم ، وفارق الحرم . وديننا القديم ودين محمد
الحديث فقال : أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد ، فأنزل الله : ﴿ لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ... ﴾ النساء : الآية - ٥١ .

^١ - راجع المباحث ص ١٤٩ والرهاف : ٢٥-٢٦ .

^٢ - الجبت : الساحر أو الساحر أو الشيطان : الطاغوت : الشيطان ، ويُفهد بما هنا الصنمان اللذان كانا يعرضن وسجدنهما كعب
بن الأشرف .

بـ بحق هذا الرجل ، وحق من شاركه من أهل الكتاب في تلك الحادثة يتحول القرآن إلى وجهة أخرى في سياقه ، وإلى أية جديدة في مقطع جديد ، يدور الحديث فيه حول أداء الأمانات إلى أهلها ، فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ النساء : الآية - ٥٨ .

وجاء في مجمع البيان أيضاً بأنها :

” خطاب للنبي برداً مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم فتح مكة ، وأراد أن ينفعه إلى العباس لتكون له الحجابة والسقاية . فالآية الأولى نزلت في كعب بن الأشرف عقب بدر ، والثانية نزلت بعد الفتح ، فلما جعلت الثانية في موضع من السورة يتلو موضع الأولى من السورة مباشرة رغم أن بينهما ست سنوات ، ورغم الفاصل الزمني البعيد بينهما . إن قضية الأيتام واحدة وموضوعهما واحد ، وبينهما تلاحم أجزاء وترابط أهداف .

ومناسبة الثانية للأولى أن في الأولى إشارة إلى كعب بن الأشرف الذي كان قد قدم إلى مكة ، وشاهد قتلى بدر ، وحرص الكفار على الأخذ بثأرهم ، وغزوا النبي . وقيل لما سأل ” من أهدى سبيلاً ؟ “ أنتم أهدى سبيلاً “ . كل ذلك على سبيل الكذب والافتراء لأنه من أهل الكتاب ، وأهل الكتاب يجدون عذمتهم في كتابهم بعث النبي وصفته وقد أخذت عليهم الموائيق أن يكفوا ذلك ، وأن ينصروه ، وكان ذلك أمانة لازمة لهم فلم يؤتوها وخانوا فيها ، وذلك مناسب لقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وفي هذا الصدد يقول ابن العربي في تفسيره :

” وجه للنظم أنه أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد وقولهم : إن المشركين أهدى سبيلاً فكان ذلك خيانة منهم ، فتجزأ الكلام إلى ذكر جميع الأمانات “^١ .

لذلك نرى المفسرين أحياناً يقتضون ذكر المناسبة بين الآيات على معرفة سبب نزولها ” ولعلمهم بلغوا نزوة التحقيق العلمي حين أوجبوا البداءة بذكر سبب النزول حين يكون وجه المناسبة متوقفاً على معرفة الأسباب ، كما في أداء الأمانات إلى أهلها ، فلولوا التحقيق من سببها لنتنظر على الفارئ للعادي للتماس وجه تناسبها مع السياق القرآني ، سابقة ولاحقة .

^١ - راجع طبرستان ١/٢٦٦ .

لأن ارتباط الآيات بعضها ببعض ، وتناسق كلماتها وجملتها ، والاختلاف مشاهدتها وصورها ، كل ذلك ساعد على التفسير واستخلاص الأحكام . ومن المفسرين من يسأل دائماً : لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ؟ وما الحكمة في جعل هذه إلى جنب هذه السورة ؟ وجاء في البرهان قوله :

‘ قد قلّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ، ومن أكثر منه فخر للدين الركاكي ، وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط . وقال بعضهم : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضها ببعض لئلا يكون منقطعاً .

وهذا النوع يهمل بعض المفسرين ، أو كثير منهم رغم أن له فوائد متعددة ، وإيجابيات كثيرة . لقد قيل : إن ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المعاني . وأول من أظهر ببغداد علم المناسبة ، ولم تكن سمعناه من غيره هو الشيخ التيسابوري . وقد وهم من قال : لا يطلب للأبي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المنفردة ، وفصل الخطاب ، أنها على حسب الوقائع تسريلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ’ .

أما للمناسبة بين السور وارتباطها بعضها ببعض ، فهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي ، حيث نوضع الآية في مكانها المناسب ، ونوضع السورة في موقعها الملائم ، وكل ذلك بأمر من الله . هذه الظاهرة تجعل غالباً الآيات يأخذ بعضها بأعناق بعض لتكون السورة ذات موضوع بارز تألف عليه جزئياتها .

وبين السورة السابقة ، واللاحقة علاقة وارتباط ، ولهذا كان العلماء يتحسّنون عن العلاقة بين خاتمة السورة السابقة ، وفاتحة السورة اللاحقة . لكن هذه العلاقة ، وهذه المناسبة هي أشدّ خفاء في السور منها في الآيات ، وما ذلك إلا لأن السورة لها نوع من الاستقلال بموضوعها الذي تتعاقب حوله الآيات مفسرة ومؤكدة ومذيكة وساردة ومعتزلة .

وفي سبيل أن تتبين مناسبة الآيات علينا أن نستخدم الذوق الأدبي ، ومنطقه اللغوي ، لنحد بينها ربطاً عاماً أو خاصاً ، ذهنيّاً أو خارجيّاً ، عقليّاً أو حسيّاً أو خياليّاً . وكثيراً ما نكون

١ - القاضي بن العربي في "سراج المبرزين" ، راجع البرهان ج ١ ص ٣٦ .

العلاقة بينهما علاقة علّة ومعلول . وكثيراً ما تتقابل الآيات تقابل الأضداد ، كذكر الرحمة بعد ذكر العذاب ، ووصف الجنة بعد وصف النار ، وتوجيه القلوب بعد تحريك العقول .

والمناسبة بين السور تبقى على غموض في أكثر وجوهها . لذلك فدراستها تحتاج إلى تكلف ، وليس فيها إلا قلة من الجدوى والفائدة .

إن دراسة للتناقض الفني بين الآيات ، واقتناص أسرارها ليعوض كثيراً عن عدم معرفة أسباب نزول الآيات .

❖ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب :

سؤال يطرح نفسه : هل السبب الذي استدعى نزول الآية يخصّص المدلول القرآني العام لها أو يفقده ؟

وبتعبير أكثر وضوحاً : هل إن الذي نزل من القرآن لسبب من الأسباب يقتصر على ذلك السبب في ما أفاد من حكم ومدلول أم يتعداه إلى غيره من الأمور والوقائع المطابقة ؟
إذا نزلت الآية بسبب خاص ، وكان اللفظ عاماً ، هل العبرة بعموم اللفظ أم بخصوص السبب ، حيث لا يكون التقيد بالمدلول القرآني العام ؟

وكثيرة هي الآيات التي تنزلت بأسباب خاصة ، أو وقائع معينة ، ولكن أنفاظها قد تكون عامة . ماذا نعتبر في الآية لفظها أم سببها الخاص ؟

لقد اتفق علماء الأصول على أن العبرة باللفظ لا بخصوص السبب ، وأرادوا بهذا أن السبب الذي نزل بعده الوحي لا يفقده التشريع العام ، وإنما يكون ذلك السبب مجرد مشير لنزول الوحي ، فيشملة الحكم النازل ، ويبقى هذا الحكم على عمومته سارياً على كل الوقائع والأحداث المماثلة لذلك السبب . إن سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص ، وقد جرت عادة القرآن أن تنزل أحكامه وتشريعاته وتعليماته وإرشاداته على أثر وقائع وأحداث تقع في حياة الناس ، وتتطلب حكماً وتعليماً من الله لكي يجيء البيان القرآني بأبلغ تأثيراً ولأن أهمية في نظر المسلمين ، ولأن كان له المضمون الشامل ، والموضوع العام . لذا أمثلة قرآنية على ما أوردناه من استخلاصات :

١- قَالَ تَعَالَى :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كُفْرًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَلُوتَنْ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيحَتَيْنِ مَتَّابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المجادلة : الآيات ١-٤ .

إن آيات الطَّهَارِ في أوائل سورة المجادلة نزلت في أوس بن الصامت الذي ظاهر من امرأته فحرمها على نفسه كظهر أمه . وصرحَت الآيات بأن كثرة الطَّهَارِ تحرير رَقَبَةٍ ، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً . ثم وقعت لسلمة بن صخر واقعة مماثلة ، فظاهر زوجته حتى ينسلخ شهر رمضان ، ثم واقعها فيه على حين غفلة منه ، فلما سأل النبي عن شأنه أفته بما أنزل الله في أوس ، ولم يكن حديث سلمة مسبب نزول الآيات ، ولكن حديث أوس كان سبب النزول . بيد أن العلماء اتفقوا على تعدية هذه الآيات إلى غير سببها ، فقالوا في أوائل تفسيرها على سبيل التجوز : نزلت آيات الطَّهَارِ في سلمة بن صخر .

إن القول بتعدية الآيات إلى غير أسبابها حمل العلماء إلى الأخذ بعموم التَّنْظِيفِ لا بخصوص السبب ، والواقع أن الناس تنازعوا في شأن اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ لم يقل أحد أن عوميات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعني ، وإنما غاية ما يقال : إنها تختص بنوع ذلك الشخص ، فتعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ . والآية التي لها سبب معين ، إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص وبغيره ممن كن بمنزلة .

٢- قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْتَبَاهُوهُنَّ فَجُودَةٌ جُنْدَةٌ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ النور : الآية - ٤ .

إن لفظ المحصنات يشمل الزوجات وغيرهن ، فوقع الصحابة في حرج ، وذهبوا إلى رسول الله ، وهم كارهون ، وشرحوا له ما أشكل أمره عليهم قائلين يا رسول الله : إذا رأى أحد منا رجلاً مع امرأته ، إن أخير بما رأى جلد ثمانين جلدة لعدم البينة ، وإن التمس أربعة شهداء قضى الرجل منها حاجته وانصرف ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ النور : الآيات ٦-٧ .

قال الفراء :

وقوله " والذين يرمون أزواجهم " بالزنى : نزلت في عاصم بن عدي لما أنزل الله الأربعة الشهود قال : يا رسول الله إن دخل أحدنا فرأى على بطنها رجلاً [يعني امرأته] احتاج أن يخرج فيأتي بأربعة شهداء يكون قد قضى حاجته وخرج ، وإن قتلته قتلته به ، وإن قتل فمض بها جلست الحد ، فابتلى بها ^١ .

إن نزول آية " والذين يرمون أزواجهم ... " في مثل هذا الظرف لا يقصد حكمها على من نزلت بهم ، وإنما هي حكم عام لمن قذف زوجته بالخيانة الزوجية في أي زمان ومكان .
إن آية اللعان هذه ، تشرع حكماً شرعياً عاماً لكل زوج يتهم زوجته بالخيانة ، وإن نزلت في شأن هلال بن أمية ، وهكذا شأن سائر الأحكام التي تضمنتها آيات نزلت بأسباب خاصة ، فتبها على عمومها دون أن يخصصها السبب .

إن المنافقين في الإسلام الأول كانوا من قبيلة الأوس وقبيلة الخزرج . ونزلت فيهم سورة كاملة تصور أراجيفهم وبلادتهم وجنودهم وجنهم رغم أجسامهم الفرغة ، ومظاهرهم الخادعة ، وأقوالهم المراوغة . هذه السورة وإن نزلت بأشخاص معينين بأسمائهم فإنها تتجاوز زمانهم ومكانهم إلى كل المنافقين في مختلف الأزمنة والأمكنة . ولذلك أصاب المفسرين التوفيق حين رأوا في تأويل نظائر هذه الآيات في سورة "المنافقون" إنها تعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كنن على أمرهم .

^١ - معاني القرآن : ج ٢ / ٢١٦ .

" وقد يكون السبب خاصاً والصنعة عامة لينبّه على أن العبارة بعموم اللفظ " .
على أن هذه النماذج الإنسانية المتكررة في كل جيل المتشابهة في كل بيئة وإن ظهرت
كالمخطّية لكل زمان ومكان فإنها خضعت أول ما خضعت لمناشبات وأسباب بتناولها
أشخاصاً معينين تتأولا أولياً مباشراً ، ولكن في القرآن أمثالاً إنسانية أخرى مهما يجهد
المفسرون أنفسهم لتعيين المقصودين بها لا يهتدون إلى تعيينها سبيلاً ، إذ وردت في القرآن
حقاً فوق الزمن والمكان والأشخاص ، ونزلت ابتداء من غير أسباب ولا مقدمات ولا نطاق
حاصر ولا محصور ، كأنها لوحات فنية تصور الجنس الإنساني وحدة كاملة متشابهة ، أو
أفراداً من هذا الجنس تفرقت بلامح يحكي بعضها بعضاً " .

ليقل المفسرون ما يحلو لهم في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا أُشْرِقَ لِحَنِّهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَلِيلًا مِّنْ مَّا كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَىٰ صُورَةٍ مَّا كُنَّا لَمْ
يُدْعَا إِلَىٰ صُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ يونس : الآية - ١٢ .

فإن أحداً منهم لن يستطيع تعيين شخص مقصود بهذه الصورة الحية الفريدة ، وإن
أحداً منهم لن يجد فيها أدع وأروع وأصدق انطباقاً على الواقع النفسي من قوله الكاتب
الإسلامي المعاصر المبدع سيد قطب: الإنسان هكذا حقاً ، حين يمتد الصرّ ، وتتعلّق فيه دفعة
الحياة ، يلتفت إلى الخلف ، ويتذكر القوة الكبرى ، ويلجأ عندئذٍ إليها ، فإذا انكشف للصرّ ،
وزالت عوائق الحياة ، انطلقت الحيوية للدافعة في كيانه ، وهاجت دواعي الحياة فيه ، فلبى
دعاءها المستجاب ، من كان لم يكن بالأمن شيء " .

ولو تجاوز بنا البحث دائرة القرآن الكريم إلى أقوال الخالدين في الشعر والحكمة
والنثر ، لرأينا بعضها له مناسبتة الخاصة وأسمائها الخاصة ، ولكنها تتجاوز المناسبة للزمينة
والمكانة لتتحول سائرة على طريق الخلود تعلم وترشد .
حكم أمير المؤمنين (ع) كثيرة منها لها أسبابها الخاصة ولكنها لا تزال تعلمنا بدون
حدود ، ويقول في أهل الكوفة :

" يا لشباب الرجال ولا رجال - لا رأي لمن لا يطاع - ما غزي قوم في عقر دارهم إلا

^١ - رقمان ٣٢/١ .

^٢ - راجع المبحث ص ١٦٢ والتفسير المنقذ في القرنين ص ١٧٨ الطبعة الثانية .

تَلَوُا ، وَاللَّهُ يُمِيتُ الْقُلُوبَ ، وَيُحْيِيهَا . اجْتَمَاعُ هَؤُلَاءِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقُكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ * .
يَقُولُ الْمُتَنَبِّئِيُّ مُخَاطَبًا سَيْفَ الدَّوْلَةِ :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعِزِّ نَأْتِي الْعِزَّائِمَ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْكَرَامَ
وَنُعْظِمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صَغَارَهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَامَ

وَيَقُولُ :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لَنُفْسٍ حَرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعِلَاءِ كُلِّ مَكَانٍ

وَيَقُولُ شَمُوقِي فِي نِكْبَةِ دِمَشْقَ :

وَالْحَرِيرَةُ الْحَمْرَاءُ بَابٌ بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يَدِقُ
هَذِهِ الْحُكْمُ الْبَالِغَةُ ، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ لِلرَّائِدَةِ الْمُرْشِدَةِ لَهَا مَنَاسِبَاتُهَا وَأَسْبَابُهَا الْخَاصَّةُ وَلِنَكْتَاهَا تَتَوَجَّهُ
إِبْسَانِيَّةٌ تَعْلَمُ فِي كُلِّ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمَكْنَةِ وَلَا تَتَّقِيْدُ بِشَخْصٍ يَعْيْنُهُ أَوْ مَنَاسِبَةٍ زَمْنِيَّةٍ أَوْ مَكَانِيَّةٍ
بَعِيْنَهَا .

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْأَصُولِ عَلَى أَنَّ الْمُتَّبِعَ هُوَ مَدَى عُمُومِ النَّصِّ الْقَرَأَنِيِّ
وَشُمُولِ النَّظْفِ فِيهِ ، وَإِنَّ سَبَبَ النَّزُولِ هُوَ مُجَرَّدُ سَبَبٍ مُشِيرٍ نَزُولَ الْحُكْمِ ائْتَامَ وَلَيْسَ تَحْدِيدًا
لَهُ فِي نِطَاقِهِ الْخَاصِّ ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ نَزُولِ حُكْمٍ لِلْعَانَ عَقِيبَ قِصَّةِ هَلَالِ بْنِ أُمَيَّةٍ - مَثَلًا - يَسُدُّ
إِطْلَاقًا عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ يَخْتَصُّ بِهِ وَلَا يَبْطُلُ عُمُومُ اللَّفْظِ وَشُمُولُ النَّصِّ لِمَا نَرَى الْأَرْوَاجَ^١ .
وَالَّذِي يَجْعَلُنَا نَطْمِنُ إِلَى هَذَا التَّوَجُّهِ وَإِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ هُوَ وَرُودُ نِصُوصٍ عَنِ ائْتَمَةِ
أَهْلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ تَوْكِدَ هَذَا الْمَعْنَى وَتَعَزُّزَهُ . فَفِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
الْبَاقِرِ (ع) أَنَّهُ قَالَ :

" إِنَّ الْقُرْآنَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَالْآيَةُ حَيَّةٌ لَا تَمُوتُ ، فَلَوْ كَانَتِ الْآيَةُ إِذَا نَزَلَتْ فِي الْأَقْوَامِ
وَمَاتُوا مَاتَتِ الْآيَةُ ، لَمَاتَ الْقُرْآنُ وَلَكِنْ هِيَ جَارِيَةٌ عَلَى الْبَاقِيْنَ كَمَا جَرَتْ فِي الْمَاضِيْنَ * .

وَعَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ (ع) أَنَّهُ قَالَ :

" إِنَّ الْقُرْآنَ حَيٌّ لَمْ يَمُتْ ، وَإِنَّهُ يَجْرِي كَمَا يَجْرِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَكَمَا تَجْرِي الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ ، وَيَجْرِي عَلَى آخِرِنَا كَمَا يَجْرِي عَلَى أَوَّلِنَا . فَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ يَقُولُ لِمَشْيِهِ إِنَّهُ فِي شَيْءٍ
وَاحِدٍ * .

^١ - رَاجِعْ عَمْدًا ، رِسَالَةَ الْإِسْلَامِ ، مُحَمَّدُ تَافَرُ الْحَكِيمُ ، الْعُمْدَةُ لِزَيْنِ الْعَبْدِينِ ١٣٨٦ - ١٩٦٦ .

القرآن المكي والمدني

❖ عمر النبي حين الوحي الأول ومغالطات المستشرقين :

نحكمة إلهية ، كان الرسل قبل النبي يبعثون ، عادة ، في سن الأربعين ولعل ذلك -
وه في خلقه شؤون - كان لما تحتاجه الرسالة من نضج العقل ، وصدق في العزم ،
وقوة في البأس ، وغنى في التجربة ، وتماسك في الشخصية ، ورشد في الرأي ،
ومضاء في الإرادة .

إن الروايات المتواترة الموثوقة تذهب إلى أن بعثة النبي " صلى الله عليه وآله وسلم " قد كانت في سن الأربعين . وذهب بعض المفسرين^١ يستخرجون من نصوص القرآن عمر النبي يوم البعثة . لقد فسر هؤلاء كلمة " عمراً " في قوله تعالى : ﴿ قُلْ نُوْثِيْهُمَ مَا نُوْثِيْهُمَ عَلَيْهِمْ وَلَا يُزِلُّوْهُمْ بِهِ قَدْرًا لِّبَيْتٍ فَيَكُمُ عُمْرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴾ يونس : الآية - ١٦ ، بأنها ترادف سن الأربعين على وجه اليقين . وفي هذا التفسير إخضاع مدلول اللغة لواقع التاريخ ، بل في هذا خلط بين هذا المدلول وهذا الواقع . وإن في ذلك غاية التكلف ، وغاية الافتعال . فلفظة " العمر " لا تحدد عدد السنين تحديداً صريحاً وإبناً الذي تقيده وتشير إليه هو طول المدة التي قضاها قبل البعثة .

وكانت للمستشرقين حملة ذات عنف على هذا التفسير ، وأشاروا حولـه شبهات وتشكيكات ، وزعموا أن لا قبل لباحث بتحديد عمر النبي في بدء الوحي^٢ . وعلل تعثر هذا التحديد باضطراب الروايات وتناقضها^٣ .
وفسره آخرون بما درج عليه العرب وأكثر الساميين من إخفاء صفة سحرية على رقم الأربعين الذي ينطوي على أعماق الأسرار^٤ .

ومذاهب هؤلاء المستشرقين قائمة إبناً على علم ، ولكنه مشبوه مسموم وله خلفياتـه ، وإبناً على سفه جاهل لا دقة فيه ، ولا تحقيق ، ولا يقين .

^١ - الطبري ١/٦٧١ ، وطرواية عر حادة .

^٢ - من هؤلاء المستشرقين : بلاشير في مستهل ترجمته للقرآن .

^٣ - أنظر مقالة الأب لاسير في المجريدة الأسبوعية ١٩١١ .

^٤ - استند بلاشير - للقول بهذا - إلى مقالتين نشرتا في مجلة إلمانية تصدر في ليربغ .

المت نرى أن ما يزعمونه من اضطراب بالروايات لتعندها يعني أنهم يعلمون كذب دعواهم ، وباطل أقوالهم لأنّ تعدّد الروايات لا يقضي بالاضطراب على سبيل الحتمية ، ولا بالارتباك على سبيل اليقين ، وإنما يقع التناقض والتضارب إذا تعادلت الروايات ، وتساوت ، وتعدّ الترجيح بينها كما ذكر نقاد الحديث في مصطلحاتهم العلمية الدقيقة ؟^١

أمّا إذا رجحت رواية على أخرى فما من فرصة بعد للقول بالتناقض ولا من مجال بعد للاعتقاد بالارتباك .

ولينقل المؤرخون عشرات الروايات في عمر النبي حين البعثة ، وحين النزول الأول للوحي ، فسيظل الرأي الأشهر هو الرأي الأصحّ ، والذي يمكن الأخذ به كما رجحه المحققون من أهل التفسير^٢ ، وقد بدأ ابن كثير بالرأي المشهور القائل بأن عمر النبي قبل بعثته كان أربعين سنة ثم عقبه برأي معيد بن المسيب ، أنه ثلاث وثلاثون ، ولكنه انتهى إلى قوله : والصحيح المشهور هو الرأي الأول^٣ .

أمّا جهالة المستشرقين أو تجاهلهم ، فإنّه يبدو من خلال اضطرابهم وحيرتهم ، حقاً كان ذلك الاضطراب والحيرة أو كان اصطناعاً لدى تحديد الرقم السحري الملقى بالأسرار عند العرب والساميين ، والبالغ هذا الرقم الأربعين .

‘ لا مفرّ إذن من مجابهة أولئك المستشرقين ، مغالطتهم ومتجاهلهم ، بأن الله بعث نبيه حقاً على رأس الأربعين من غير استناد إلى تفسير ‘ العمر ‘ في الآية ، ومن غير تأثير بعقائد الساميين في هذا الرقم العجيب ، بل اعتماداً على ما نطقت به الروايات الصحيحة المشهورة التي كادت حدّ التواتر ، إذ استفاضت بين الخاصة والعامة ، وتناقلتها الألسنة في القديم والحديث ‘ .

‘ وما من ريب أن إثارة الشبهات حول عمر النبي في بدء الوحي هي محاولة أوليّة للتشكيك في منطلق الدعوة الإسلامية بمكة تنقلوها أخرى للفضّ من قيمة المعلومات الماثورة المتعلقة بمراحل الوحي المتعاقبة في مكة ثم في المدينة ، فأنى للباحث أن يتصور كيف كانت

^١ انظر تدريب الرازي للسيوطي ٩٣ وتوضيح الأفكار للشمساني ٤٧/٢ .

^٢ . راجع أهم هذه الروايات في ‘ الطبقات الكبرى ‘ لابن سعد ٢ ٨٢/٢ .

^٣ تفسير ابن كثير ٤١٠/٢ .

تتابع نوازل القرآن إذا كانت صورة بدء الوحي قد انطبعت في ذهنه غامضة لا تحكي الأصل في شيء؟^١ .

❖ أهمية العلم المكي والمدني :

- كان لنا وقفة متأملة ومحقة عند أهمية علم أسباب النزول ، إذ أن الأية لا تفهم على وجهها الصحيح دون معرفة قصتها ، ودون إلمام بأسباب نزولها ، ودون إطلالة على عوامل وجودها .
- وسنكون لنا وقفات طويلة مع القرآن في إعجازه المتحدي للتكوين ، والدافع لفسهم الجاحدة ، والمبتدئ للشبهات المسمومة الزائفة .
- إلى وقفات مع تشريعه العدل ، وأحكامه القصل ، إليها تلك التشريعات الموائمة لنفطرة البشرية ، والمتجاوزة لحدود الزمان ، ومناسبة المكان ، حيث هو النموذج الفريد في أحكامه .
- إلى وقفات تنير إلى أهمية جمع القرآن ، وحفظه في السطور كما حفظ في الصدور ، فإذا به متفرد بهذه الخصوصية دون سائر الكتب السماوية السالفة " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " .
- فالعلم المكي والمدني أحوج إلى تمحيص الروايات ، وتحقيق النصوص والتحاكم إلى التاريخ الصحيح من أسباب النزول ، إنه الأصل في معظم علوم القرآن .
- فاعلم بأسباب النزول ليس له علاقة إلا بالمناسبات الفردية والاجتماعية ، ولا يتدارس إلا الجزئيات أما الكليات فليست من مهماته . إن علم أسباب النزول ليس من شأنه أن يتصل بالتفصيلات القرآنية التي نزلت ابتداء غير مبنية على أسباب لو وقائع وأحداث .
- ولو تحولت بنا الدراسة إلى العلم المكي والمدني لوجئنا ممتداً إلى القرآن كله سوراً وآيات . فالقرآن بسوره كلها ، وآياته كلها إما مكي وإما مدني .

^١ - ساحت علوم القرآن ص ١٦٦ .

- فالعلم المكي والمدنيّ جذير بالدراسة والعناية ، وخلق بالتحقيق والتدقيق الثالعين ،
إن الدعوة الإسلامية لها مراحلها وأطوارها في شخصيتها العقلانية والاجتماعية
والأخلاقية والتشريعية ، ولا يكشف سرّ ذلك ، ولا يتعرف على الحكمة في ذلك
إلا العلم المكي والمدنيّ .

فالدعوة الإسلامية سارت على خطى من التدرّج مسابرة للأحداث وطبيعة الحياة
والإنسان ، والدعوة الإسلامية كانت متجاوبة مع الأحداث والوقائع ، وكانت تحسن التدبّر
والتصرف في البيئة العربية المكيّة والمدنيّة ، البدوية والحضرية لتخاطب الناس سواء كانوا
مؤمنين أم مشركين أم أهل كتاب بما يناسبهم ، وبما يحقق أهدافها فيهم ، يضاف إلى ذلك كله
أن من فوائد العلم للمكي والمدنيّ معرفة النسخ والمنسوخ من الآيات .

هذا العلم يتوزع بنشاطه الباحث على الترتيب الزمنيّ والتحديد المكانيّ ، والتبويب
الموضوعيّ ، والتعيين الشخصيّ .

إن أهمية العلم المكي والمدنيّ وفائدته يمكن تلخيصهما بالقضايّا التالية :

١- أولاً : معرفة النسخ والمنسوخ :

والنسخ في الاصطلاح شيخ الطائفة : " بأن استعمال هذه اللفظة في الشريعة على
خلاف موضوع اللغة ، وإن كان بينهما تشبيهاً ، ووجه التشبيه : أن النصّ إذا دلّ
على أن مثل الحكم الثابت بالنصّ المتقدم زائل على وجه لولاه لكان ثابتاً بمنزلة
المزيل لذلك الحكم ، لأنه لولاه لكان ثابتاً " ١ .

ولعله يريد من قوله : إنه " على خلاف موضوع اللغة " : أن النسخ في الحقيقة دفع لا
رفع فالنسخ حينئذ ليس مزيلاً حقيقة إلا باعتبار ما قاله من التشبيه .
والنسخ مسلم أمر وجوده في القرآن الكريم . قال كبير المحققين : إن نسخ الحكم دون
التلاوة هو المشهور بين العلماء والمفسرين ٢ ويشهد لهذا قوله تعالى :

١ - عمدة الأميرال ، ج ٢ ص ٢٥ .

٢ - مغربي . البهار في تفسير القرآن ص ١٩٦ .

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَهَا نَزَّلَ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا... ﴾ البقرة : الآية - ١٠٦ .
 يقول أمير المؤمنين (ع) : إن أمر النبي مثل القرآن ، منه ناسخ ومنسوخ ، وخاص وعم ' .
 إن الناسخ متأخر عن المنسوخ ، ومعرفة أي الآيتين مكية متقدمة ، والأخرى مدنيّة متأخرة لتكون هذه ناسخة لتلك ، فيما لو لم يمكن الجمع بينهما . بتعبير أوضح : لطالما للناسخ متأخر بطبيعته عن المنسوخ زماناً ، فإذا وجدنا حكيم ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أن نفرّق الناسخ عن طريق التوقيت الزمني فيكون المدنيّ منهما ناسخاً للمكيّ لأجل تأخره عنه زماناً .

وهذه مسألة فقهية ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية التي ينسخ المدنيّ فيها المكيّ أحياناً .

والحق أن علمائنا القدامى قد عوّا في هذا الجانب عناية فائقة ، تتناسب مع جلال القرآن وعظمته ، واعتبروا علم نزول القرآن زمانياً ومكانياً من أشرف علوم القرآن حتى ذهب بهم الحكم إلى أن من لم يعرف مواطن النزول وأماكنه وأزمته ، ويميّز بينها محرمّ عليه أن يتكلم في كتاب الله .

١٠ ثانياً : المساعدة على إيضاح المعنى وفهمه :

وكثيراً من الأحيان ، يحتاج وضوح الكلام ، وضعاً أو عرفاً ، إلى التقرّان ، كالعلم بمكان الصدور وزمانه ، ومعرفة المخاطب بهذا الكلام ، والجو الذي ورد فيه ، فإذا عرف كل ذلك يتعقد للكلام ظهور في المعنى المفصود منه .
 والقرآن الكريم لا يخرج عن هذه الدائرة ، ولا عن هذه القاعدة الضابطة ، فالعلم بالآية كونها مكية أو مدنيّة ، وبأنّها نزلت قبل الهجرة أو بعدها هو قرينة توضّح المعنى المراد ، وتتقلب عوناً للمفسر على فهم الآية .

يقول النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن :
 " أشرف علوم القرآن علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب بما نزل بمكة والمدينة ... فهذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ، ولم يميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله " ١٠ .

١٠ - كتاب سليم بن عيسى ط النسخ من ٨٥ .

١١ - لا تقار المصحح الأول من ٨ عنه .

٥٦ ثالثاً : معرفة تواريخ الوقائع والأحكام على وجه الإجمال :

هذه المعرفة لتاريخ الأحداث والأحكام من شأنها أن تحيطنا علماً بصحة وفساد بعض المقولات غير الدقيقة من جانب وغير المسؤولة من جانب آخر من لدن بعض المؤرخين للمأجورين أو المغفلين والمتعصبين . إن معرفة المكي من القرآن تشير إلى أن أحداثه قد وقعت قبل الهجرة ، وإن معرفة المدني تدلّ على أن وقائمه قد حصلت بعد الهجرة .

٥٧ رابعاً : الثقة بالقرآن :

وتبدو الأهمية القصوى للعلم المكي والمدني كونه يوفّر الثقة بالقرآن . يقول الزرقاني : " ومن فوائده أيضاً : الثقة بهذا القرآن ، وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف . ويدلّ على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام ، حتى ليعرفون ، ويتناقلون ما نزل منه قبل الهجرة ، وما نزل بعدها ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ... فلا يغفل بعد هذا أن يسكتوا ، ويتركوا أحداً يعمته ، ويعيث به ... " .

٥٨ خامساً : التعرف على مراحل الدعوة :

إن العلم المكي والمدني يجعلنا نتعرف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبي ، فالهجرة المباركة ليست مجرد حدث عابر وطارئ في حياة الدعوة ، وإنما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة ، وهما مرحلة العمل الفردي ، ومرحلة العمل ضمن دولة ، ولئن كان بالإمكان تقسيم كل من هاتين المرحلتين بدورهما أيضاً ، فمن الواضح أن التقسيم الرئيسي على أساس الهجرة ، فإذا ميزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما نزل منها بعد الهجرة استطينا أن نواكب تطورات الدعوة والخصائص العامة التي تجلّت فيها خلال كل من المرحلتين .

❖ معنى المكي والمدني في القرآن ، وأسس التمييز بينهما :

وبدأ نزول القرآن الكريم بمكة ، وتوالى هذا النزول تبعاً بعد الهجرة إلى المدينة . وليس ترتيب القرآن في المصحف ممابراً لتاريخ النزول ، إنما هو ترتيب تسويقي . فالنزول ليس على الترتيب القرآني المشاهد ، بل أن تكون أولاً سورة الفاتحة ثم البقرة ،

* - ماعز تفرغان - ج ١ ص ١٨٨ .

ثم آل عمران ، ثم النساء لأنه بالإضافة إلى الشواهد التاريخية على ذلك ، فإن مضامين الآيات نفسها تشهد عليه ، لأن بعض السور والآيات لها مضامين تتناسب أوائل زمن البعثة ، وموقعها في أواخر القرآن كمسورة العلق والنون ، وبعضها تناسب ما بعد الهجرة ، وأواخر عصر الرسول وموقعها في أوائل القرآن كمسورة البقرة وآل عمران والنساء والأفغال والتوبة .

فالعلماء تواضعوا على استعمال اصطلاح " المكي " على قسم من القرآن الكريم ، و " المدني " على القسم الآخر منه . قال اليعقوبي :

" نزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون سورة على ما رواه محمد بن حفص بن أسد الكوفي عن محمد بن كثير ، ومحمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، ونزل بالمدينة اثنتان وثلاثون سورة ^١ .

ولأهمية العلم المكي والمدني من القرآن اهتم به العلماء ، ورعوه حق الرعاية ، وتركوا فيه مباحث كثيرة ، واختلفوا في مذاهب القول فيه .

لقد ورد في الاتقان :

إعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

- الأول : إن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أو نزل بالمدينة
- الثاني : أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ... ^١ .
- الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

إن الأساس الفاصل والمميز بين المكي والمدني عند العلماء إما الخطاب وإما المكان وإما الزمان .

١. الخطاب والأشخاص :

يقسم القرآن عند علماء التفسير إلى مكي ومدني . إن بعض آياته مكية وبعض آياته مدنية . وذهب المفسرون في تفسير هذا المصطلح مذاهب .

^١ - تاريخ اليعقوبي : ج ٢/٩ .

^٢ - الأغان ، النوع الأول من ٩ .

أحد هذه المذاهب ينهض على أساس مراعاة " الأشخاص المخاطبين ، فالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة ، فالأشخاص هم عنصر التاريخ ومادته الأولى .

وقرر بعضهم أن القرآن المكي هو ما جاء الخطاب فيه [يا أيها الناس] لأنه يخاطب أهل مكة ، وقررروا أن المدني هو ما جاء الخطاب فيه [يا أيها الذين آمنوا] ، أهل مكة لم يكونوا مسلمين فجاء الخطاب [يا أيها الناس] ، وأهل المدينة كانوا مسلمين فجاء الخطاب [يا أيها الذين آمنوا] .

المكان :

إن القرآن المكي هو ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة ولو قبل الهجرة ولطالما أن لوجي لم ينزل إلا على الرسول صلى الله عليه وآله ، فمكان الرسول عند نزول الآية أو السورة هو أساس التمييز بين المكي والمدني ، فإن كان النبي في مكة فالقرآن مكي سواء قبل الهجرة أم بعدها ، وإن كان في المدينة فالقرآن مدني . هذا القول ينظر إلى مكان النزول دون الالتفات إلى حدث الهجرة ، فالمكان هو جزء من التاريخ في عملية التحديد .

الزمان :

إن المكي من القرآن هو ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة . فالاعتبار هو زمان النزول لا مكانه ولا أشخاصه ، والقسم الأكبر من القرآن هو القسم المكي ، وعلى الأخص المتور القصيرة .

بعض السور والآيات نزلت في السفر ، وبعضها في الحضر ، وهكذا تنقسم إلى ما نزل بالليل أو بالنهار ، أو ما نزل في الحرب أو في السلم أو ما نزل في الأرض أو في السماء ، أو ما نزل بين الناس أو في حال الانفراد . هذا القول هو المشهور ، ينظر إلى الزمان من خلال حدث الهجرة ، والزمان هو جزء من التاريخ إن لم يكن التاريخ بعينه .

ويقول السيوطي :

" وبخلاف مكة ضواحيها ، كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية ، وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببئر وأحد وسلع مثلاً . أين هي الحقيقة في هذه التأويلات لهذين المصطلحين ؟ أنها يجانبه الصواب ، وأنها يرجح ويمكن الأخذ به ؟

❖ المناقشة والترحيل :

ليس لنا إلا أن نناقش ونبحث لننتهي إلى قرار يرجح ، وإلى موقف يميز .

« أولاً :

إن الاتجاه الأول الذي يقول بالأشخاص دون الزمان والمكان ، ويذهب إلى أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة ، إن هذا الاتجاه أو هذا المقياس لا يمكننا إلا أن نطرحه جانباً لأنه يقوم على أساس خاطئ ، وذلك لأن الخطاب القرآني عام وانطباقه حين نزوله على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونه خطاباً لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاماً .

هذا الاتجاه غير شامل لبعض السور . سورة الفتح مثلاً نزلت بتمامها أو بعضها بين مكة والمدينة عند رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحديبية . هذه السورة غير مصدرة بيا أيها الناس لتكون مكية ، ولا بيا أيها الذين آمنوا لتكون مدنية ، وأما على المختار فهي مدنية لنزولها بعد الهجرة . إن يحاول القائلون بهذا المذهب أن يضعوا له ضوابط وموازين فيقولون بأن كل آية صدرت بلفظ " يا أيها الناس " أو بصيغة " يا بني آدم " فهي مكية لأن الكفر كان غالباً على أهل مكة ، وإن كان غيرهم داخل فيهم . أمّا ما صدر من القرآن بعبارة " يا أيها الذين آمنوا " فهو مدني لأن الإيمان كان غالباً على أهل المدينة وإن كان غيرهم داخل فيهم .

هذا الاتجاه هو من الضعف والهلهلة بمكان بل هو أضعف الاتجاهات الثلاثة . هذا الاتجاه يمكن الاعتراض عليه بل يمكن رده بأمور عدة .

- أولها : إن أهل مكة وأهل المدينة هما موضوعان من موضوعات القرآن الكريم . لكن هناك آيات ليس فيها خطاب لأي من هذين للفريقين . فما موقعها بين المكي والمدني ؟

وما جدوى القول حينذاك بأن القرآن ينقسم إلى مكّي ومدني؟ ليست كل المور والآيات فيها خطاب ليكون أسلوب الخطاب أساساً للتمييز .

- **ثانيها :** لا بدّ من بيان أن لفظ مكّي أو مدني ليس لفظاً شرعياً ، وليس من فرائض الأمة التي حدّدها الإسلام أو النبي ، ووضع له مفهوماً يندور النفاث والترجيح بين مذاهب العلماء على أساسه ، بل هو ما تواضع عليه الباحثون وعلماء التفسير وسلكوا الاتجاهات الثلاثة السابقة للتمييز بين المكّي والمدني^١ .

- **ثالثها :** إن الضوابط التي ذكرت لتعيين المكّي والمدني - وفق هذا المقياس - لا تطرد في القرآن الكريم . هناك آيات مدنية صُنّرت بقوله تعالى " يا أيها الناس اعبدوا ربكم " كما في سورة البقرة ، وكذلك كان مفتتح سورة النساء المدنية قوله تعالى " يا أيها الناس اتقوا ربكم " .

ومن ناحية أخرى ورد الخطاب بصيغة " يا أيها الذين آمنوا " في آيات مكية . قال تعالى في سورة الحج " يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا " .

- **رابعها :** هذا التقسيم في الخطاب إلى مكّي ومدني لا طائن وراءه ، ولا جدوى منه في دراسة تاريخ القرآن لأنه يستبعد الجانب الزمني . كما أنه لا يعتبر تقسيماً موضوعياً ، لأن خطاب أهل مكة وخطاب أهل المدينة ليسا سوى جانبين من جوانب كثيرة تناولها القرآن الكريم .

< **ثانياً :**

أما التقسيم القرآني إلى مكّي ومدني بالنسبة إلى مكان للنزول فإنه لا جدوى منه في بيان ما تقدم نزوله من القرآن وما تأخر . إنه تقسيم قائم على مكان النزول فحسب ، وإنه لا يفيد الحصر في جميع الحالات . هناك آيات أنزلت على الرسول في غير مكة والمدينة ، فقد نزل عليه الوحي في تبوك وفي بيت المقدس والجحفة^٢ والطائف .

^١ - علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم ، ص ٤٤ .

^٢ - فريدة على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل .

وهناك تنزيل مكّي يشبه التنزيل المدنيّ كقوله تعالى في سورة النجم : " الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللغم "١. وهناك تنزيل مدنيّ يشبه التنزيل المكّي . يقول تعالى " لو أردنا أن نتخذ لهم أوتاراً لآتخذناه من لدنا " الألباء : الآية - ٧ ، وكذلك سورة " والعاديات ضبحا " . فالمقياس المكانيّ يمكن الاعتراض عليه بأنّه لو اعتبرنا ما نزل يعرفات ومنى والحديبية قرأناً مكياً ، وما نزل ببئر وأحد وسلع قرأناً مدنيّاً لبقي لدينا آيات لا مكّيّة ولا مدنيّة باعتبار المقياس المكانيّ كآيات التي نزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في إسرائه .

٢- ثالثاً :

المكّيّ ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدنيّ ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان بغير المدينة . هذا المقياس ، وهذا الاصطلاح هو الذي نرجّحه ونختاره ، ونسير في بحثنا على ما يقتضيه هذا المقياس هو المشهور وهو المسائد ، ويضاف إلى شهرته أنّه تعريف جامع لا يشدّ عنه أيّ من الموارد ، لأنّ التقسيم على هذا الاصطلاح يكون من قبيل الحصر العقليّ الدائر بين النفيّ والإثبات دون أن يكون هناك واسطة بخلاف التعريفين الأول والثاني فإنهما غير شاملين لبعض السور ٢ .

هذا المقياس قائم على الترتيب الزمنيّ لآيات في نزولها واعتبار الهجرة هي الحدّ الزمنيّ الفاصل بين مرحلتين ، إن هذا الاتجاه يشمل الآيات والسور جميعها ، ما من آية أو سورة إلّا ونزلت إمّا قبل الهجرة وإمّا بعدها ، فالمقياس الزمنيّ فيه الدقّة وفيه الشمول ، وفيه توضيح جليّ لمراحل الدعوة .

إنّ المجتمعين ، المكّيّ والمدنيّ ، على اختلاف شديد ، وتباين بالغ . مجتمع مكة مشرك يناهض الدعوة ، ومجتمع المدينة مؤمن يسائر الرسالة ويأخذ بتعاليمها . إنّه لرأي هو أصوب الآراء وأولاهها بالقبول لأنه يستند على تاريخ النزول .

١ - لكاتب : كل ذب عاقبه آثار . والفواحش : كل ذب فيه حدّ . وتلغم : هو من تخلف من الغروب . نزلت في نهان ونزارة من رابدها على نفسها ، فأبت ، وبالفظة مشهورة ، واستقرت بما قلنا ، والتبيل على صحنه أنه لم يكن عكة حدّ ولا غزو " أمّ هانئ ج ١ ص ١٩٦ " .

٢ - يجرى في تاريخ القرآن وعلمه ، مرمّدي ، ص ٣٢٧ .

إنَّ المقياسَ الزمنيَّ أظهرَ بفوائدهِ ومنافعه للدراساتِ القرآنيَّةَ لأنَّ التمييزَ من ناحيةِ زمنيَّةٍ بينَ ما أنزلَ من القرآنِ قبلَ الهجرةِ وما أنزلَ بعدها أكثرُ أهميَّةٍ للبحوثِ القرآنيَّةِ من التمييزِ على أساسِ المكانِ .

ونعلِ أظهرَ ما تتجلَّى به أهميَّةُ التمييزِ الزمنيِّ من التمييزِ المكانيِّ والخطابيِّ هما مسألتانِ اثنتانِ :

إحداهما بيانِ مراحلِ الدعوةِ والأخرى بيانِ الناسخِ والمنسوخِ في القرآنِ .

١ . مسألة بيان مراحل الدعوة :

إنَّ التقسيمَ الزمنيَّ لأنبياءِ إلى مكِّيَّةٍ ومدنيَّةٍ يساعدُ في معرفةِ مراحلِ الدعوةِ وتطورها على يدِ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم .

فالهجرة النبويَّة هي حدثٌ ذو بالٍ ، حدثٌ ليسَ عابراً في حياةِ الدعوةِ ، وإنَّما هو حدٌّ فاصلٌ بينَ مرحلتينِ متباينتينِ في كثيرٍ من الأمورِ ، في الفترةِ المكِّيَّةِ كانَ العملُ الفرديِّ وفي المرحلةِ المدنيَّةِ كانَ العملُ ضمنَ دولةٍ ، في المرحلةِ المكِّيَّةِ كانَ معظمُ الناسِ على غيرِ الإسلامِ ، في المرحلةِ المدنيَّةِ كانَ القليلُ للقليلِ على غيرِ دينِ الإسلامِ .

أمَّا الاختصارُ على مقياسِ مكانِ النزولِ وإهمالِ عاملِ الزمنِ فهو يرسمُ لنا صورةً مفصَّلةً عنِ هاتينِ المرحلتينِ ويتركهما على خليطٍ من الأمرِ .

بالبقياسِ الزمنيِّ يتَّوَمَّرُ لنا مواكبةُ سيرِ الدعوةِ وإدراكِ الأصولِ العامَّةِ لنظريةِ التغييرِ الاجتماعيِّ على أساسِ الفكرِ الإسلاميِّ .

ولا يفوتنا أنْ نذكرَ أنَّ فترةَ الوحيِ المكِّيِّ قد استغرقتْ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، ونزلَ خلالها ثلثُ القرآنِ ، وأنَّ فترةَ الوحيِ المدنيِّ قد استغرقتْ عشرَ سنواتٍ تقريباً ونزلَ خلالها ثلثُ القرآنِ . إنَّ المرحلةَ المكِّيَّةَ هي مرحلةُ التغييرِ العقائديِّ ، والجهادِ ضدَّ الوثنيَّةِ ، ومقاومةِ الشركِ ، وتكوينِ القاعدةِ للملتزمةِ من المؤمنينِ والتصاقها بالقيادةِ النبويَّةِ أما المرحلةُ المدنيَّةُ فهي مرحلةُ الحكمِ والإدارةِ والقضاءِ ضمنَ دولةِ ذاتِ سيادةٍ وسلطانٍ .

٢. مسألة بيان النسخ والمنسوخ :

ومسألة النسخ والمنسوخ هي مسألة فقهية ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية .
فالنسخ متأخر بطبيعته عن المنسوخ في الزمان ، فإذا وجدنا حكيم ينسخ أحدهما
الأخر كان لنا أن نعرف النسخ بواسطة التوقيت الزمني ، فيكون المدني منهما نسخاً
للمكي لتأخره عنه زماناً .

فالمقياس الزمني له أهميته الكبرى في معرفة النسخ والمنسوخ واستنباط الأحكام ،
فالآية التي تتناول موضوعاً أو حكماً تتاولته آية سابقة عليها تكون نسخة لتلك الآية السابقة .
وهكذا فالمصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني أكثر فائدة وأظهر نفعاً
من الاتجاهين الآخرين للدراسات القرآنية . وحسب هذا المقياس من أهمية أنه يميز بين
النسخ والمنسوخ ، وحسبه أن يكون الميزان الذي بواسطته نتعرف على مراحل الدعوة
وأطورها ، وإن كانت قدرة الأساس الزمني على التمييز بين النسخ والمنسوخ من الآيات
تحتاج إلى نظر .

فالآية المنسوخة والنسخة المكينة لا مجال لمعرفة السابقة لتكون منسوخة ، ولللاحقة
لتكون نسخة ، وكذلك الآية للنسخة والمنسوخة المدينيتان لا مجال لمعرفة النسخة من
المنسوخ منهما ، هذا بالإضافة إلى أن الرأي الراجح هو أن النسخ في القرآن لم يقع إلا في
مجالين اثنين^١ .

فالمجال الأول قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المجادلة : الآية - ١٢ . هذه الآية لم يعمل بها
إلا الإمام علي (ع) ثم نسخت وقد نسخها الآية :

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ قَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتُ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المجادلة : الآية - ١٣ .
هاتان آيتان في سورة المجادلة التي أبيتهما مدنية كلها .

^١ - انظر : النشر في البغاني الإسلامي : عبد القادر عودة ، تعليق السيد محمد باقر الصدر ج ١/ ٣١١ .

أما المجال الثاني فقولته تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الأنفال : الآية - ٦٥ ، وقد نسخته الآية التي تليها : ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال : الآية - ٦٦ .

" وبهذا المنهج التاريخي الزمني الذي لا يتعارض عن الأفق النفسي ، والأطوار الاجتماعية ، ولا يتجاهل أثر البيئة في الحياة والأحياء أخذ المحققون من علمائنا وشكّدوا في ما أخذهم عليه حتى منعوا الجاهل بمراحل الدعوة الإسلامية أن يتصدى لكتاب الله مفسّراً لأياته، خائضاً فيه " .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري^١ :

" من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً و انتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ، وما نزل بمكة من أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة من أهل مكة ، ثم ما يشبه نزول المكّي في المدني ، وما يشبه نزول المدني في المكّي ، ثم ما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، ثم ما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً وما نزل مشياً ، وما نزل مفرداً ، ثم الآيات المنفّيات في السور المكّيّة ، والآيات المكّيّة في السور المدنيّة . ثم ما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة . ثم ما نزل مفسّراً ، وما نزل مرموّزاً ، ثم ما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : مكّي ، وقال بعضهم : مدني . هذه خمسة وعشرون وجهاً ، من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحلّ له أن يتكلم في كتاب الله " .^٢

والحق أن ابن حبيب النيسابوري قد نبّه إلى جزئيات وحيثيّات مهمة ، مضافاً إلى تقسيمه المكّي ، ومثله المدني إلى مراحل : أوليّة ، ووسطيّة ، ونهائيّة ، وهي تقديرات تعنى بالتاريخ الدقيق لنزول سور القرآن وآياته ، وكأنّه بهذا قد فتح الطريق أمام المستشرقين

^١ هو الشجري الفسّر ، وكثير رحلات عصره في الثغرات توفي سنة ٤٠٦ [سنة الومعة ٢٢٧] .

^٢ - شرحه ، الفرعوني ، ج ١ / ١٩٢ .

لنخوض في هذه التفصيلات في محاولة لترتيب القرآن زمنياً ، ووصف كل ما يتعلق بمراحل نزول الوحي القرآني ، وقد علقوا على ذلك أهمية كبرى ، وكان المستشرق الألماني الاستاذ تيورد نولكه [١٨٣٦ - ١٩٣٠] من أبرز المقتنعين في هذا المنهج وضرورة استقصائه ، وقد أخضع في ضوئه الحوادث الهامشية في الحروب والمغازي والمراسلات والوقائع لاستنتاجاته العلمية ^١ .

إن ما جنح إليه بعض المستشرقين من ترتيب القرآن على أسباب النزول ، وتقسيمه إلى مراحل ست أو أربع لا ضرر فيه لذاته ، إذ أباح الخوض فيه علموا بالأعلام ، وإنما يتجسد الضرر فيه حين يتجافى هذا الترتيب عن الروايات الصحيحة ، ويأخذ بالرأي المرتجل . نشير بهذا إلى محاولة "موير" ترتيب القرآن إلى ست مراحل : خمس في مكة ، والسادسة في المدينة ، ومحتولة "ويل" التي قسم القرآن بها إلى أربع مراحل : ثلاث في مكة والرابعة في المدينة ، وأخذ بها كل من "نولكه" و"شغالي" و"بل" و"بلاشير" ^٢ .

ونعود للاستيفاد بما ذهب إليه النمساوي ، فنقول بأن مثل ما نزل بالمدينة وحكمه مكّي : سورة الممتحنة ، نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان ، وكان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزمان ، ووقعت خطاباً لأهل مكة إذا أردنا الأشخاص ، واشتملت على توجيه اجتماعي إذا رغبنا بمعرفة موضوعها . وهذه السورة هي قصة خاطب بن أبي بلتعة وسارة والكتاب الذي دفعه إليها ، وقصتها مشهورة ، فخاطب بها أهل مكة .

مثال ما نزل بمكة وحكمه مدني :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ مَشْجُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾
الحجرات : الآية - ١٣ ، نزلت بمكة إذا التمسنا المكان ، ويوم الفتح بعد الهجرة إن تحريفا الزمان ، والغاية منه هو التعارف ، وتذكير الإنسانية بوحدة أصلها إن عيّن الموضوع . وهو خطاب لأهل مكة والمدينة على السواء .

❖ وجوه النزول وجهود العلماء في الاستقصاء والتحري :

قال النمساوي في كتاب " التنبيه على فضل علوم القرآن " .

^١ - تاريخ القرآن ، محمد طه ص ٥١ .

^٢ - مباحث ، ص ١٥٩ .

” من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي ... ”^١ .

إنَّ علم أسباب النزول غنيّ ببحوث العلماء الأكاديمين . فقد أفض به كل من الواحددي والتركشي والسيوطي وأضرابهم ، ونفّلوا فيه آراء السنف ، ولمنّا حاجة إلى نقدها ولا إلى سردها^٢ . والحق أن تعيين أسباب النزول له فوائد الجمة في معرفة المكّي والمدنيّ في وجه من الوجوه لارتباطه بالأحداث والتاريخ والأشخاص ، ولكن أغلب ذلك في الآيات لا في السور ، والروايات فيه متعارضة ومتضاربة .

وقد عانى العلماء في تتبع مراحل الوحي الكثير من الجهد ، وبلغت عنايتهم بالقرآن أقصى ما يبلغه المدقّقون من البحث والتحري والاستقصاء لشكر الجزئيّات والتفصيلات .

لقد كانت للعلماء التفاتة وملاحظة حول نزول القرآن في النهار . قال النيسابوري :
” نزل أكثر القرآن نهاراً ” وقال السيوطي : ” أمثلة النهار كثيرة ”^٣ .

كما كانت لهم التفاتة بأن سورة مريم قد نزلت ليلاً . لقد روى الطبراني^٤ عن أبي مريم الغساني أنه قال :

” أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : ولدت لي الليلة جارية فقال ” واللييلة نزلت عليّ سورة مريم ” ، وأول سورة الفتح نزلت ليلاً . قال صلى الله عليه وآله وسلم : لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت الشمس ، فقرأ [إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً] ، وأول سورة الحج [يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم] ، نزل ليلاً في غزوة بني المصطلق ، وهم حيّ من خزاعة ، والناس يسبيرون ”^٥ .

^١ - البرهان ١٩٢/١ : مكة النسخ ص ٣١٨ .

^٢ - تفصيل ذلك في كل من : الواحددي ، ” أسباب النزول ” والتركشي : البرهان ج ١ ص ٢٢ - ٢٣ ، والسيوطي ، الاتقان ج ١ ص ٨٢ - ٩٨ .

^٣ - الاتقان ، ج ١ ص ٣٤ .

^٤ - هو المحافظ الفقيه ، صاحب التصانيف النفيسة وأشهرها المعجم الثلاثة : الكبير والصغير والأوسط ، توفي ٣٦٠ هـ . عن مائة سنة وخمسة أشهر [أنظر رسالة السطرنجة لعبد بن جعفر الكاكي ص ٢٠] .

^٥ - الاتقان ، ص ٣٥ .

^٦ - البخاري ، ج ١ ص ١٣٥ .

^٧ - البرهان ، ج ١ ص ١٩٨ .

ولقد بلغ بالعلماء الاستقصاء ما بلغ ، مما جعلهم يلاحظون النزول القرآني في الليل إن في أوله ، وإن في وسطه ، وإن في آخره .

لقد كان عند أم سلمة وقد بقي من الليل ثلثة حين نزلت عليه آية الثلاثة الذين خلّفوا . حيث قال تعالى : ﴿ وَالْأُولَى الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ التوبة : الآية - ١١٨ .

ونزلت هذه الآية في شأن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وذلك أنهم تخلّفوا عن رسول الله ، ولم يخرجوا معه ، لا عن نفاق ولكن عن توان ، ثم نسوا ، فلما قدم النبي المدينة جاءوا إليه واعتذروا ، فلم يكلمهم النبي ، وطلب إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم ، فهجروهم الناس حتى الصبيان . وجاءت نساءهم إلى الرسول فقلن له يا رسول الله: نعزّلهم ؟ فقال : لا ، ولكن لا يقربوك ، فضاقت عليهم المدينة ، فخرجوا إلى رؤوس الجبال ، وكان أهاليهم يجنبون لهم بالطعام ، ولا يكلمونهم ، فقال : بعضهم لبعض قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم ، فهلاً نتهاجر نحن أيضاً ، ففترقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه ، فقبل الله توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية ^١ .

وإن الآيات التي نزلت في غزوة تبوك إنما كانت في شدة الحر ، وإن رجلاً من المنافقين قال يومئذ : لا تنفروا في الحر ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ التوبة : الآية - ٨١ .

وإذا كان أكثر القرآن قد نزل في الحضر فإن تنقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الدعوة جعله يتلقى الدعوة أحياناً في بعض أسفاره ، تنبيهاً لفواذه ، وتأييداً لجهاده . وكثيراً ما يعبر الرواة عن هذا بمثل قولهم : نزلت الآية أو الآيات على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في "مسير" له ، ويطلب عليهم تعيين المسير ، وتحديد السفر ومكانه وزمانه ، إن قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ المائدة : الآية - ٣ ، قد نزل عشية يوم عرفة

^١ - نظم سي ، جلد ٥ ص ٧٩ .

^٢ - ونظر الاثنان ، ٣١/١ .

^٣ - بحسب بعضه ، ٣١/١ .

عام حجة الوداع ، وإن خاتمة سورة النحل قد نزلت بأحد والنبي صلى الله عليه واله وسلم واقف على صخرة حين استشهد^١ .

وكثر نزول الآيات في الغزوات ، لقد نزل في بدر عقب الواقعة أول الأنفال : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٢ الأنفال : الآية - ١ .

وفي عمرة الحديبية نزل قوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾^٣ البقرة : الآية - ١٨٩ .

وفي تبوك نزل قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانُوا لَا يَفْقَهُوْا ذَلِكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^٤ الاسراء : الآية - ٧٦ .

ونزل في بيت المقدس عندما أسري بعبده : ﴿وَإِسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أُخِيفْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ الْهَيْعُ يَعْجَذُونَ﴾^٥ الزخرف : الآية - ٤٥ .

بهذا التدقيق الباحث ، والاستقصاء المحقق ، وبهذا التحري العلمي الشغوف بالوقوف على الحقيقة كان العلماء يفرقون بين ما يشبه تنزيل المدينة في السورة المكية ، وما يشبه تنزيل مكة في السور المدنية^٦ . ولاحظ العلماء أن لكل سورة طابعها العام ، وملامحها الخاصة بها كما لاحظوا ما يشبه هذا الطابع العام شبيهاً يكاد يلحقه به .

فإذا وجدت في سورة هود المكية مثل قوله تعالى :

^١ - دلائل البهجة ، راجع لاهان ٣٦/١ .

^٢ - لاهان ، ٣١/١ .

^٣ - وانظر لاهان ، ٣٠/١ ، ويرى بعضهم أنها نزلت في غزوة الفتح أو في حجة الوداع .

^٤ - البرهان ، ١٩٦/١ .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾^١ فليس من الضرورة أن نعتبرها مدنية وإن أضيفت التنزيل المدني، وإذا وجدت في سورة الأنفال: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا جَارَءَ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَنْتَبِئْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴾ الأنفال: الآية: ٢٦، فلا يعني أنها مكية وإن كان فيها طوابع التنزيل المكي.

وإننا نجد أنفسنا في هذه العجالة عاجزين كل العجز عن الإحاطة بالتفصيلات لهذه المباحث التي كانت على أيدي العلماء، هؤلاء العلماء الذين تَصَرَّوْا الروايات وضبطوها ليرتبوا السور القرآنية تبعاً لتطورات الدعوة، وتبعاً لألق جزئياتها وتفصيلاتها.

لكن الدهشة لتمكننا من أقطارنا حين نلاحظ أن المستشرقين يهتمون الرواة والروايات ويتدخلهم الشك والارتباك في إيمان ترتيب القرآن اعتماداً على سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

❖ معرفة المكي والمدني:

هناك طريقتان للتمييز بين المكي والمدني هما: الرواية الصحيحة الثابتة والاستنباط الاجتهادي.

❖ الرواية الصحيحة:

وانطلق الباحثون وأهل العلم - بادئ ذي بدء - في التمييز بين مكي للقرآن ومدني معتمدين على الروايات والنصوص التاريخية المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو أهل بيته (ع)، أو أصحابه الذين شاهدوا قرآن الأحوال، وتبعوا مسيرة الوحي بدءاً وانتهاءً. وقد كان جزء من ذلك متوافراً فيما نلمسه من روايات وأثر في كتب التفسير وعلوم القرآن، من نصوص يوردها الإثبات ويتناقلها التقاة، وإن كان بعضها لا يخلو من تضارب، أما الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقد ادعى أنه: "لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة"^٢.

^١ - قيل إننا نزلت في رص من أنصار بسى أما اليسر بن عمرو، ورد ذلك في تفسير القرطبي ٢١/٩ وفي الدرهم ١٩٦/١ بما نزلت في مثل بن الحسين بن عمرو بن فليس والمراة التي انتشرت مع نشر فرادها عن نفسها. والآية من سورة هود ١١٤.

^٢ - الدرهم ١٩٦/١.

لقد استقصى العلماء الروايات والنصوص المنقولة التي تؤرخ السورة أو الآية أو تشير إلى زمن نزولها قبل الهجرة أو بعدها ، أو مكان نزولها ، كما استقصى العلماء الأحداث التاريخية البارزة التي عاصرت النزول ، أو كان النزول بسببها ، وبأسباب هذا الاستقصاء للروايات والنصوص التي استوعبها هؤلاء المفسرون وأحاطوا بها ، كانت المعرفة لعدد كبير من السور والآيات المكية والمدنية وكان التمييز بينها . وهذه الطريقة قد مار على نهجها المستشرق الألماني " نولدكه " في دراسته لتاريخ القرآن .

❖ الطريقة الاجتهادية :

هذه الطريقة قائمة على إعمال الفكر ، ودراسة الأحداث ، ومعرفة أسباب النزول ، والمقارنة بين الآيات نفسها .

هذه الطريقة عند المفسرين الذين عفا بمعرفة المكي والمدني هي دراسة مقارنة لتلك الآيات والسور التي تعرفوا على تاريخ نزولها عن طريق النصوص ، واعتبار القرآن الحالية والمقالية ، والسياق والنظم ، ووحدة السورة الموضوعية ، وما إلى ذلك من الأدلة ، وخاصة فيما لا رواية حوله ، ليكون تحديد معرفته بواسطة الأدلة والبراهين والمرجحات ليؤخذ بأقربها حجة ، وهذا هو الذي يلاحظ في شأن الآيات والمور التي نزلت ابتداء ، والآيات والسور التي كان الاختلاف حول نزولها الزمني والمكاني .

هذه الدراسة الاجتهادية المقارنة مكنت المفسرين من اكتشاف خصائص عامة وشائعة في السور والآيات المكية والمدنية لجعلوا من تلك الخصائص العامة موازين تعرف بها سائر الآيات والسور التي لم تثبت رواية ، ولا نصّاً حول سبب نزولها . هذه الخصائص العامة دونها أهل العلم في كتب المصاحف والتفسير ، لتصبح هذه الكتب من مصادر معرفة المكي والمدني .

من هنا كان لمعرفة المكي والمدني طريقتان : الطريقة الاستقرائية التي تعتمد على النقل والسماع ، والطريقة الاستنباطية التي تعتمد على العقل والاجتهاد وقد تسمي بالقياسية .

ويمكننا القول بأن أسلم المواقف هو الأخذ بطريقتين معاً ، فالطريقة الاستقرائية وحدها قد نفدت الأحداث والنصوص التي يمكنها التمييز بين المكي والمدني . أمّا

الطريقة الاستنباطية فليست يقينية ولا قطعية في تمييزها وأحكامها ، والأقوى بين الطريقتين هي الطريقة النقلية شريطة أن تكون الرواية صحيحة وثابتة .
قال الواحدي : " لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا في علمها " .

❖ تنبيهات حول مسألة الرواية :

كثيرة هي السور والآيات التي ترتبط بالوقائع والأحداث التاريخية ، والتي كان حصولها خلال الدعوة كمسورة البقرة والحشر والعاديات ، أو أن نزولها كان لتشريع وأحكام كمسورة النساء والأطفال والطلاق وأضرابها .

مسورة البقرة نزلت في السنة الأولى للهجرة ، بعض من آياتها فيه تقرير لليهود الذين كانوا من المعوقين للتقدم الإسلامي . أما بقية آيات هذه المسورة فهي في تشريع بعض الأحكام كتغيير القبلة وتشريع الصوم والحج .

مسورة الحشر نزلت بصدد جلاء يهود بني النضير ، ومسورة العاديات نزلت بشأن أعراب وادي يابس وغيرهم .
أما مسورة النساء فتتحدث عن أحكام للزواج وإرث المرأة ، ومسورة الأنفال فهي تدور في دائرة غنائم الحرب والأسرى ، أما مسورة الطلاق فموضوعها بأغلبه يخوض بأحكام الطلاق .
هذه الوقائع والأحداث هي التي نطلق عليها اسم " أسباب النزول " ، والوقوف على معرفة هذه الأسباب هو عون على اكتشاف الآية بمعانيها وأسرارها .

وكن الاهتمام بالغاً من جماعة الصحابة والتابعين بأحاديث " أسباب النزول " ، وإنها لأحاديث كثيرة ، ولعلها بلغت الآلاف في هذا الشأن قد وردت عن طريق أهل السنة ، أما الأحاديث التي وردت عن طريق الشيعة فليست إلى هذه الكثرة ، هذه الأحاديث من صفتها عدم الإسناد ، ومن صفتها الإرسال والضعف والتهافت . معظم ما في هذه الأحاديث يبعث على الشك فيها .

١ - "الافتان" ، السويطي / ١ ، ٨٩ .

إنها لأسباب تعتمد على الاجتهاد النظري لا على الحفظ والنقل والمعانيه ، وإنها لأحاديث تتناقض فيما بينها حول سبب نزول الآية ، وهذا التناقض يحملنا على القول بأن أسباب النزول هذه إما أنها اجتهادية لا نقلية وإما أنها وليدة الدس ، ونتاج الأكاذيب .

إن الخلافة كانت تمنع تدوين الأحاديث ، بل كل ورقة مدون عليها حديث كان نصيبها للحرق ، أما الفترة التي استمر فيها منع الحديث من التدوين فقد استغرق تسعين عاماً تقريباً ، كل ذلك كان من نتائجه فتح الطريق لرواية الحديث بمعناه لا بنصه ، ليروى على وجوه مختلفة ، وتبعث فيه أيدي التحريف زيادة ونقصاً .

فالتس في الأحاديث ، والافتراء على الرسول ، وإخسال الإسرائيليات ، وصناعة المنافقين وذوي الخلفيات ، والنقل بالمعنى ، كل هذا كان إيجاباً لمنزلة الأحاديث في أسباب النزول ، وإسقاطاً لها في الميزان .

لذلك لا بد للحديث في سبيل أن يبقى موثقاً من التأيد القرآني ، ولا بد من عرضه على القرآن كما ورد في أحاديث عن الرسول وأهل بيته . هذه الطريقة تسقط أكثر أحاديث أسباب النزول .

إن أسباب النزول ينبغي الحذر إزاءها ، فلا تحمل على علانها ، بل يجب عرضها على القرآن فما وافق القرآن أخذ به ، وما عارض القرآن طرح . هناك التناقض في بعض الروايات ، وهناك القصص الخرافية ، وهناك الإسرائيليات ، وهناك ما لا يوحى بالسبب فيسمى سبباً .

" لا سبيل لنا إلى القطع بالمكي أو المدني في القرآن إلا الرواية الصحيحة الثابتة ، أو الأحداث التاريخية ، كل ذلك يقتضي للتعين الزمني أو التحديد المكاني ، أو معرفة أسباب النزول بأشخاصه وأماكنه ووقائعها ، لا دواعيه ومماتلته ولوازمه ، وبذلك يكون التدوين التاريخي لقصي القرآن ، مكبه ومدنیه ، أمثل ترتيباً ، وأكثر صحة " ^١ .

لقد روى ابن حجر عن الإمام علي عليه السلام : أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي (ص) وخرجه ابن أبي داود ^٢ .

^١ - تاريخ القرآن ، محمد تميم ، ص ٥٤ .

^٢ - الألفاظ ، السيرة ، ٢٠٢/١ ، تاريخ القرآن ص ٤٨ .

وقد ذهب صاحب الميزان هذا المذهب وأيد وجود ذلك ، وتحدث عن خصوصيته فقال : بعد ما ارتحل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى جلس علي عليه السلام ، الذي كان بنص من النبي أعلم الناس بالقرآن ، في بيته حتى جمع القرآن في مصحف على ترتيب النزول ، ولم يمض ستة أشهر من وفاة الرسول إلا كنن علي قد فرغ من عمل الجمع وحمله للناس على بعير^١ .

وقد أثبت في 'كتاب المباني لنظم المعاني' جدولاً لهذا الترتيب الزمني^٢ . إلا أنه يختلف عن ترتيبه فيما ورد بأصل النسخة المطبوعة في ليبسك [١٨٧١-١٨٧٢ م] ولما أثبتته الزنجاني في تقسيمه لجمع الإمام علي للمصحف في سبعة أجزاء^٣ . وإذا صححت هذه الرواية ، فقد فائتاً تاريخ دقيق على النزول يستند إلى أعظم رواية قد شاهد عصر التنزيل وصاحب مسيرته ، وبذلك يكون الإمام علي (ع) أول من حقق في تثبيت نزول القرآن تاريخياً .

قال القاضي أبو بكر في الانتصار ، على ما نقله في الإتيان :
 إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك قول ، لأنه لم يؤمر ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة^٤ .

ولقد أحسن الزرقاني القول في هذا الصدد :
 * لم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بيان للمكي والمدني ، وذلك لأن المسلمين في زمانه لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان ، كيف وهم يشاهدون الوحي والتنزيل ، ويشهدون مكانه وزمانه ، وأسباب نزوله عياناً ، وليس بعد العيان بيان ...^٥ .

هناك بعض من الروايات في كتب الإمامية عن أئمة أهل البيت ، وإن كانت قليلة العدد ضعيفة السند ، تنص على أن هذه السورة أو الآية هي مكية أو مدنية . من هذه الروايات :

^١ - القرآن في الإسلام ، للفاضل نغلا عن : النصف للسخاني ، والإتيان ٥٩/١ .

^٢ - مقدتان في علوم القرآن ، ص ١٤ .

^٣ - الزخاوي ، تاريخ القرآن ، ٦٩ وما بعدها .

^٤ - الإتيان ، النوع الأول ص ٩ .

^٥ - معاني الثرفان ، ج ١ ص ١٨٩ .

١. ورد في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال :

قال علي بن أبي طالب عليه السلام : نزلت سورة للمائدة قبل أن يقبض النبي (ص) بشهرين أو ثلاثة^١ .

٢. روى الكافي عن محمد بن سالم ، عن أبي جعفر (ع) :

ثم بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكة عشر سنين ، فلم يمت في تلك العشر سنين أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله (ص) إلا أدخله الله الجنة بإقراره ، وهو إيمان التصديق ... إلى أن قال (ع) : وتصديق ذلك : أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة بني إسرائيل في مكة : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... ﴾ الإسراء : الآية - ٢٣ ، ثم بعد أن عتد (ع) بعض ما أنزله الله في مكة قال : فلما أذن الله لمحمد (ص) في الخروج من مكة إلى المدينة بني الإسلام على خمس ، إلى أن قال : [في المدينة] في بيان القائل ... وعتد بعض ما أنزل في المدينة ، ثم قال : وأنزل في المدينة : الزاني لا ينكح إلا زانية ... إلخ . ونزل بالمدينة : " والذين يرمون بالمحصنات " وسورة النور نزلت بعد سورة النساء^٢ .

٣. وزوى الأمين الطبرسي ، عن عني بن إبراهيم ، أن أباه حدثه عن علي بن ميمون وعن أبي عبد الله (ع) قال : كان عند فاطمة شعير فجعلوه عصيدة ، فلبثا أنصجوها ووضعوها بين أيديهم ، جاء مسكين ، فقال المسكين : رحمكم الله ، فقام علي عليه السلام فأعطاه شئها^٣ ، وفي هذا دلالة على أن السورة مدنية ، كما نقل عن ابن عباس .

والحق الحق نقول بأن تمييز المكي عن المدني أحوج ما يحتاج إليه هو الأثر والنقل ، هي الروايات والنصوص ، هو الطريقة الاستقرائية السماعية وأن ما سوى ذلك ممّا ذكر ضابطاً ومميزاً لا يصلح لذلك إلا بمقدار ما يؤيده النقل والمعانة .

❖ أعمال المستشرقين في هذا الحقل :

عجبا لأولئك المستشرقين الذين يرون أن بإمكانهم ترتيب القرآن زمنياً رغم أنهم يفكرون كل أثر للرواية الصحيحة في هذا الترتيب !

^١ - تفسير العياشي ، سورة المائدة

^٢ - أصول الكافي لشفة لإسلام الكوفي ط ص ٣٢٠ .

^٣ - تفسير جمع الجوامع ، سورة الإنسان .

القضية عندهم ليست قضية التشدد في الرواية حيث لا يقبلون إلا الرواية الصحيحة ، ولو كن موقفهم هذا التشدد لكن الأمر حيناً ، وكانت القضية مقبولة ولا تثريب عليها أو تعقيب ، لأن العلماء المسلمين المحققين هم أيضاً يترنون الرواية الضعيفة غير المؤتقة ، ويرفضون الأخذ بها في المكي والمدني وما إليهما من المباحث التي ترشد إلى مراحل الوحي القراني ، وترتيب مسوره وآياته . ونسردج تعاليمه وتوجيهاته .

هناك بعض من المستشرقين يحدثوا هذا الموضوع بطريقة تأتي في جوانب كثيرة مع طريقتنا . فالنيسابوري في تقسيمه القرآن إلى مكي ومدني حسب المقياس الزماني قد نبه إلى جزئيات وحيثيات مهمة ، مضافاً إلى هذا التقسيم ، تقسيم القرآن إلى مراحل : أولية ، وسطية ونهائية ، وهي تقديرات تعنى بالتاريخ الدقيق لنزول سور القرآن وآياته . وكأنه بهذا قد فتح الطريق أمام المستشرقين للفرغ في هذه التفصيلات في محاولة لترتيب القرآن زمنياً . ووصف كل ما يتعلق بمراحل نزول الوحي القراني ، وقد علقوا على ذلك الأهمية الكبرى .

فالمستشرق غريم قد اعتمد على الروايات والأسانيد الإسلامية في سور القرآن ، لكن : ' يبوخذ عليه إمران : أما أحدهما فعدم تمحيصه صحيح تلك الروايات وسقيمتها ، وعجزه كمائر المستشرقين عن هذا التمحيص ، ولذلك لم يبال بترتيب القرآن على أسام واه من الأسانيد الضعيفة أحياناً والباطلة أحياناً أخرى . وأما الآخر فهو تخليه عن المنهج الذي اشتراطه على نفسه من احترام الروايات ليصدر في نهاية المطاف - في مواطن مختلفة - عن رأي المستشرق ' نولدكه' في وصف المراحل المتعاقبة على الوحي القراني .

والواقع أن المستشرق نولدكه كان مقتنعاً بضرورة ترتيب القرآن زمنياً على غير الطريقة الإسلامية . وقد رسم لنفسه منهجاً جديداً تأثر به كثيرون ، فأصبح موضوع هذا الترتيب يشغل أذهان المستشرقين جميعاً ، ويعلقون عليه أخطر النتائج في عالم الدراسات القرآنية^١ .

لقد كان المستشرق الألماني 'نيورد نولدكه' [١٨٣٦-١٩٣٠م] من أبرز المقتنعين في هذا المنهج الإسلامي وضرورة استقصائه ، وقد أخضع في ضوئه الحواث الهامشية في الحروب والمغازي والمراسلات والوقائع لاستنتاجاته العلمية .

وقد سلك في كشف تاريخ السور مسلكاً قوياً يهدي إلى الحق أحياناً ، فإنه جعل الحروب والغزوات الحادثة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلم تاريخها كحرب بدر والخندق وصلح الحديبية وأشباهاها من المدارك نفهم تاريخ ما نزل من القرآن ، وجعل اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي ، دليلاً لتأريخ آياته ، وهو يرتب في بحثه التحليل في الروايات والأحاديث وأقوال المفسرين في تأريخ القرآن ، وفي نفس الوقت يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره ، ويرشده إلى تأريخ السور والآيات ونظمها أحياناً ^١ ، ويبدو أن منقصف القرن التاسع عشر قد شهد حركة علمية قرآنية في أوروبا ، وعرف محاولات لترتيب سور القرآن ودراسة مراحلها التاريخية من قبل المستشرقين ، والتعاملين بالحقول العلمية الإسلامية في أوروبا .

فالمستشرق * وليم موير * الذي له كتابان يتصلان بدراسة هذه المحاولات اتصالاً مباشراً ، قد قسم المراحل القرآنية إلى ست ، خمس منها في مكة ، وسادستها في المدينة . لقد كان معتمده في هذه المحاولة هو سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وما حوئها من روايات وأسانيد بعد أن درسها دراسة نقدية واسعة فيها الكثير من معلوماته التاريخية .

ورغم ذلك فإن أخطاءه كانت عديدة ، وكانت واضحة ، حيث أنه اعتمد أحياناً كثيرة على روايات ضعيفة واهية ^٢ .

ومن هذه المحاولات : محاولة * ويل * التي بدأها عام ١١٤٤ م ، ولم تتخذ صورتها النهائية إلا سنة ١٨٧٢ ، وقسم في ضوئها المراحل القرآنية إلى أربع : ثلاث في مكة ، وأربعة في المدينة ، فتابعه على ذلك نولكه وشغالي ، وتأثر بذلك المستشرق * بلاشير * وغيره .

إلا أن هؤلاء جميعاً قد رفضوا الأثر والروايات في تأريخ النزول ، مما خالفوا به مصدراً رئيسياً من مصادر التعيين في ترتيب للنزول ، وذلك عن طريق الجمع بين الروايات وقريلتها والأخذ بأوثقها ^٣ .

^١ - بولده : كتاب المستشرقون والدراسات القرآنية ص ٨٨ وما بعدها .

^٢ - نبأحت ، ص ١٧٦ ، وسفر مصادره .

^٣ - تاريخ القرآن : عماد الصفير ص ٥٢ .

❖ ضوابط القرآن المكي والمدني وطريقة معرفته

وكان لنا حديث عن المقياس الذي يمكننا التمييز بين المكي والمدني من القرآن ، وانتهى بنا المطاف إلى هذا المقياس الذي يتوزع على جانبين اثنين :

أحد هذين الجانبين هو الأخذ بأسباب النصوص والروايات ، أو ما يقال له الطريقة النقليّة أو السماعيّة أو الاستقرائيّة ، والجانب الآخر هو الذي يعتمد على الفكر والمقارنة بين الآيات والسور ، والتحقيق في أسباب النزول والسياق والنظم ، ووحدة السور الموضوعيّة بالأدلة والبراهين والمرجحات لاكتشاف خصائص عامّة تكون مقاييس وموازين يميّز بها المكي عن المدني ، هذا الجانب يمكن أن يقال له : الجانب الاجتهادي أو الطريقة الاستنباطيّة أو القياسيّة .

وانتهى العلماء المحققون من هذه الدراسة المقارنة إلى تحديد سمات وخصائص تميّز بها كل من السور المكيّة والمدنيّة . كل خاصّة تتفق مع الخصائص العامّة للآيات والسور للمكيّة حكم للعلماء بأنّها مكيّة ، وكل ما كان أقرب إلى الخصائص العامّة للمدنيّة وأكثر انسجاماً معها أدرجه العلماء في دائرة المدني من الآيات والسور .

هذه الضوابط ليست حتميّة ، ولكنها إشارات غالية وسمات ترجيحية ، لتوافر استثناءات في بعضها .

ويمكن إيجاز خصائص الأسلوبية والموضوعية الغالبة والشائعة في القرآن المكي والمدني التي ذكرها العلماء فيما يلي :

د أولاً : الضوابط أو الخصائص البارزة في القسم المكي :

١. الدعوة إلى أصول العقيدة كإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وتصوير مشاهد الحساب ، والجنة والنار وأهل الجنة والنار .

٢. الدعوة إلى التمسك بالفضائل من الأخلاق ، والمحامد من الصفات ، والصالح من الأعمال والخير من الممارسات ، والاستقامة من السلوك .

٣. قصر الآيات والسور ، وإيجازها بصورة عامّة ، وتجانسها الصوتي بأسباب التقطيع والازواج والممع والتوازن والتكافؤ .

٤. مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم ، وإبطال عقائدهم .
٥. كثرة القسم : بالله ، باليوم الآخر ، بالبيت ، بالقرآن وغير ذلك^١ .
٦. استعمال السورة لكلمة ' يا أيها الناس ' وعدم استعمالها ' يا أيها الذين آمنوا ' ، والقاعدة ليست عامة ، لأن سورة الحج تستثنى من ذلك لأنها استعملت ' يا أيها الذين آمنوا ' بالرغم من أنها مكية .
٧. كثرة قصص الأنبياء والأمم الخالية وقصة آدم وإبليس ما عدا سورة البقرة .
٨. كل سورة فيها حروف التهجي إلا البقرة وآل عمران ، وفي سورة الرعد خلاف .
٩. كل سورة فيها لفظ [كلاً] .
١٠. كل سورة فيها سجدة^٢ .

□ ثانياً : خصائص القرآن المدني وضوابطه :

١. طول السورة أو الآيات ، وإطنابها .
٢. كل سورة فيها ' يا أيها الذين آمنوا ' وتستثنى سورة الحج التي هي مكية ورغم ذلك فقد ورد فيها ' يا أيها الذين آمنوا ' .
٣. تفصيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية .
٤. مجادلة أهل الكتاب ، ودعوتهم إلى نبذ الغلو في دينهم^٣ .
٥. التحدث عن المنافقين ، وكشف مواقفهم ، وإظهار مشاكلهم ما عدا سورة العنكبوت .
٦. التفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعاهدات والمواثيق الدولية .
٧. كثرة ذكر الجهاد ، والاذن به ، وتفصيل أحكامه .

^١ - ورد القسم في التكمي ثلاثين مرة تقريباً ، وفي المدني واحدة^١ من ورني لبعض الناس / ٧ .

^٢ - فإن يرد الأقوال وتفصيلها في كل من : التوركتشي ، الطبري ١٨٨/١ وما بعدها . السبكي ، الأتقان ٢٧/١ وما بعدها .

^٢ - كـ في سورة البقرة وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والطه .

هذه الضوابط استقرائية ترجيحية وليست شاملة ولا يقينية . إنها ضوابط من الدقة وال ضبط بحيث تشمل جميع آيات القرآن وسوره ، إنها ترجيحية في الآيات والمور التي لم يرد فيها نص صحيح متناً وسنداً ، والتي لم ترتبط بواقعة مشهورة ، أو واقعة بارزة تشخص هويتها . هناك سور مكية وتحمل بعض خصائص أسلوب السور المدنية ، وهناك سور مدنية وتحمل بعض خصائص أساليب السور المكية ، ما عدا الآيات التي تشمل على تشريعات للحرب وقواعد القانون الدولي والحقوق السياسية والمعاهدات .

لطالما هذه الضوابط ترجيحية ظنية فلا يجوز الأخذ بها لمجرد الظن ، أما إذا أنت تلك المقيمين إلى الاطمئنان والتأكيد من تاريخ السورة ، وأنها مكية أو مدنية فلا حرج في الاعتماد عليها كآيات الحرب والمعاهدات .

قال الواحدي :

لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسمع ، ممن شاهدوا للتزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها ^١ .

ولو سلمت أسباب النزول من الثغرات كانت خير سبيل لمعرفة تاريخ النزول ، والكشف عن كثير من الحالات النفسية والعقلية التي عليها القوم .

إن تعيين أسباب النزول عون على معرفة المكي والمدني لارتباطه بالأحداث والتاريخ والأشخاص .

لقد ورد في الإتيان :

" ما كان في القرآن : يا أيها الناس ، يا بني آدم ، فإنه مكي ، وما كان ، يا أيها الذين آمنوا فإنه مدني " ^٢ .

هذا الكلام ليس مقبولاً على إطلاقه لأمرين :

أولاً : إن المعجم القرآني المفهرس قد دَوَّن فيه قائلته بأنها مكية كل آية فيها " يا أيها الناس " وأنها مدنية كل آية فيها " يا أيها الذين آمنوا " ^٣ إلا في موارد وهي الآيات التالية :

^١ - الإتيان ٨٩/١ .

^٢ - البرق الأول ص ١٧ .

^٣ - المعجم المفهرس مزيج محمد فؤاد عبد الباقي ، وهو كتاب جُهد في بابه ، وقد جرى في تعيينه الفكي والمكي على وفق استحقاق الأمر الذي تراءت حكومة المصرية طبعه سنة ١٣٤٤ هـ وقيل في هذه الطبعة : إن أنما الإسماعي قد تلقى هذه الطبعة بالبحر .

بالقبول ، وطبعت ملايين منه نسخاً شاعت في علوم القرآن ، ص ١٠٠ .

- ١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ۖ الْبَقَرَةُ ۖ : الآية - ٢١ .
- ٢- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ۖ : النساء : الآية - ١ .
- ٣- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ ۖ : النساء : الآية - ١٧٠ .
- ٤- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ ۖ : النساء : الآية - ١٧٤ .
- ٥- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ : الحج : الآية - ١ .

هذه الآيات جميعاً قد كُتِبَ في قبائلها : أنها مدنيّة ، وقعت في السور المدنيّة ، ولكنهم لم يستثنوها في المصحف الأميري . ولكن ما كان فيه : يا بني آدم ، قد كتّبت في المعجم المغيرس أنه مكّي .

٥ ثانياً :

إنّ هذا الضابط على فرض صحته ، فهو غير مطّرد في جميع القرآن ، وهو لا يبيّن لنا حال الآيات التي ليس فيها : ' يا أيها الناس ' ولا ' يا بني آدم ' ولا ' يا أيها الذين آمنوا ' حيث نحتاج في تمييزها إلى ضوابط وعلامات أخرى .

٥ ثالثاً :

إنّ تلك العلامات المذكورة إنّما جعلت علامة بعد أن فهنا المكّي والمدني من الآثار المنقولة عن الأصحاب ، كابن عباس وغيره .

إنّ سعة أنّ المكّي فيه هذه الجملة دون تلك والمدنيّ بعكسه متوقّفة على النقل والآثار إلا أنّنا إذا رأينا كلمة ' يا بني آدم ' مثلاً عرفنا أنّ السور مكّيّة مباشرة . ولعلّ هذا القائل تخيّل أنّ قلّة المسلمين في مكة لا تناسب توجيه الخطاب إليهم ، بل المناسب الخطاب للأكثر . ولكن كثرتهم في المدينة أوجب صحة توجيه الخطاب إليهم " يسا أيها الذين آمنوا ... " .

ولكن هذا تخيّل صرف ، وحسن لا يوجب الاطمئنان ، بل الاطمئنان حاصل بخلافه ، وذلك لأنّ خطابات القرآن ليست على نحو القضية الخارجيّة ، وإنّما هي على نحو القضية الحقيقيّة التي لا يفرق فيها بين كثرة الموجودين وقتّهم .

كل من دخل تحت عنوان الخطاب ، ولو بعد سنين يكون مشمولاً له . ربّما يقال : إنّ الخطاب للمشتمل على بعض الأحكام كالجهاد ونحوه ممّا يحتاج إلى القدرة والتمكن المفقودين عند مسلمي مكة لا يكون توجيّهه إليهم مناسباً^١ .

ولو قيل : إنّ كل ما فيه أحكام فرعية فهو مدنيّ ، هذا الضابط ، أو هذا المقياس وإن كان سليماً بنحو جزئيّ ، وصادقاً على سبيل غير كلّ ، فإنّه لا يمكن اعتماده على إطلاقه لأنّه أخصّ من المدعى ، لأنّ ثبوت أنّ هذه الآية مدنيّة لا يلزم عن ذلك أنّ السورة مدنيّة .

لبس في السورة المكيّة أحكام فرعية كالسور المدنيّة ، وإن كانت بالنسبة إليها قليلة ؟
أنظر إلى قوله تعالى في سورة الأنعام المكيّة :

- ١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ٧٢ .
- ٢- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ١٥١ .
- ٣- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ١٥١ .
- ٤- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ١٥١ .
- ٥- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ١٥١ .
- ٦- ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ۖ الْإِنَّمَامُ : الآية - ١٥١ .
- ٧-

هذه الآيات التي تتضمن أحكاماً فرعية قد وردت في سورة الأنعام وهي مكيّة :
كما في قوله تعالى :

- ١- ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ الْأَعْرَافُ : الآية - ٣٢ .
- ٢- ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ ۖ الْأَعْرَافُ : الآية - ٣٣ .

قد ورد في سورة الأعراف وهي مكيّة :

- ٨- ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۖ إِبْرَاهِيمَ : الآية - ٣١ .

قد ورد في سورة إبراهيم وهي مكيّة :

- ٩- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ ۖ الْإِسْرَاءُ : الآية - ٣٢ ، قد ورد في سورتي " الإسراء " و " المؤمنون " المكيّتين .

^١ - نبحث في تاريخ القرآن وعلومه ، ج ١ ، المجلد ١٠٠٠ ص ٢٢٢ .

وما سوى ذلك من السور المكية ، فليس فيها ما يدل على أحكام فرعية .

هذه آيات مكية ومن سورة مكية تتضمن أحكاماً فرعية . لذلك لا يمكننا اعتبار هذا الضابط دقيقاً كل الدقة ، ولا شاملاً كل الشمول .

وفيق إن كل قرآن فيه كلمة " كلاً " هو مكِّي النزول .

ولكن هذا الضابط ليس لنا أن نعتده إلا بعد تميّز المكِّي عن المدني بالنقل عن الأئمة عليهم السلام ، وابن عباس وغيره ، ولولا ذلك لم يستطع أحد أن يفهم ، ولا جنز له أن يميّز بين المكِّي والمدني بوجود " كلاً " وعدم وجودها . وينتهي بنا الحديث إلى أن تميّز المكِّي عن المدني يحتاج إلى الأثر والنقل ، وأن ما سواه مما ذكر ضابطاً ومميّزاً لا يصلح مقياساً يقينياً^١.

هذه الخصائص للمكية أو المدنية حين تنطبق على سورة من السور فلا يقضي ذلك بأن كل آياتها مكية ، أو مدنية إذ تستثنى من السورة المدنية آيات مكية ومن السورة المكية آيات مدنية .

سورة الرعد مكية كلها على ما نقله مجاهد عن ابن عباس ، ولكن استثنى الكلبي الآية الأخيرة منها وهي قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَ عِلْمِ الْكِتَابِ ﴾ الرعد : الآية - ٤٣ ، حيث أنهم يقولون بأن هذه الآية قد نزلت في عبد الله بن سلام ، وهو إنما أسلم بعد الهجرة ، فلا يمكن أن تكون هذه الآية المقصود بها عبد الله بن سلام مكية .

ولكن في هذا توهمًا وتخيلاً ! أليس من الممكن أن يكون المقصود بالآية غير عبد الله بن سلام ممن أسلم في مكة المكرمة ، وتكون السورة مكية بكل آياتها .
لقد قيل : هذا وأمثاله مما يتخذ منه أعداء الإسلام مطعناً في القرآن ، ويقولون : " إن السورة مكية ولا يمكن أن يراد من قوله : من عند علم الكتاب " عبد الله بن سلام ، فإذا قلنا : هذه الآية مدنية ، لم يكن كافيّاً لإقناعهم ، ولعل المراد منه ورقة بن نوفل من أهل مكة ، أو غيره ، فتكون السورة كلها مكية^٢ .

^١ راجع منه في كتاب : " نوت في تاريخ القرآن وعلوم " أبو الفضل مير محمدي ص ٣٦٨ .

^٢ عبد الفضل الصمدي ، رسالة الإسلام الصادرة عن دار التفریب في القاهرة ، السنة الثانية عشرة من ١٣٦١ .

وفي اللزّ المنشور أنّ سعيد بن جببر أكر نزول هذه الآية في ابن سلام . وقسّل الشعبي: ما نزل في ابن سلام شيء من القرآن^١ وسورة التوبة مدنيّة بينما الأيتان الأخيرتان مكيتان ، وسورة البقرة مدنيّة بالإجماع إلا آية ، وهي ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ البقرة : الآية - ٢٨١ ، فإنها نزلت يوم النحر في حجة الوداع بمعنى . أما سورة الزمر فهي مكية بينما أياتها [٢٥ ، ٥٣ ، ٥٤] فهي مدنيّة .

- لنن كان من أخصّ خصائص الآيات ، والسور المكيّة القصير والإيجاز ، والقرآن للمدنيّ الطول والإسهاب ، فإنه لا يعني أنّ هذه القاعدة عامّة ولا استثناء .

إن سورة النّصر ، وهي ثلاث آيات ، وإن سورة الزلزلة ، وهي ثمانى آيات ، وإن سورة البينة وهي ثمانى آيات ، هي سور مدنيّة ، بينما سورتا الأنعام والأعراف مكيتان ، رغم طولهما وإسهابهما .

- قال تعالى : ﴿ الَّذِي لَقِّنَ كُلُّ شَيْءٍ ابْنُ خَبِيرٍ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ النمل : الآية - ٨٨ .

بهذا المقياس لا يمكن اتخاذ هذه الخصائص المكيّة والمدنيّة مثال شبهات تنهّم القرآن بأنّه نتاج تأثره بالبيئة ، وبأنّه بشريّ من صناعة محمد . والحقّ يقال : إنّ هذه الفوارق البارزة بين المكي والمدنيّ سواء في الأسلوب أم في الموضوع ، فإنها كانت مراعاة لظروف الدعوة الإسلامية ، لضمان انتشارها وتأثيرها في البيئة التي نحلّ بها .

د الرابعة :

ما قيل : من أنّ ما فيه كلمة : " كَلَّا " فهو مكّي

هذا صحيح ، ولكن سبق أن ذكرنا أن ذلك لم يعلم إلّا بعد تميّز بين المكي والمدنيّ بوجود " كَلَّا " وعدم وجودها .

ونخلص إلى القول بأن تمييز المكيّ عن المدنيّ أحوج ما يحتاج إليه هو الأثر والنقل ، وأن ما سواه مما ذكر ضابطاً ومميّزاً لا يصحّ لذلك .

^١ - منه المنشور ج ٤ ص ٦٩ .

❖ الماثور في تمييز المكي والمدني :

من المتفق عليه أن السور والآيات القرآنية يمكن تثبيتها في القرآن على ترتيب نزولها على الرسول (ص) . ولئن اعتمد علماء الإسلام القدامى وخاصة أهل السنة على شيء في ترتيب السور والآيات ، فإنما كانوا يعتمدون على الحديث .

نقد تقدم بعض ما نقل عن أئمتنا (ع) في بيّن بعض الموارد ، وننقل هنا ما نقل عن بعض الأصحاب فنقول :

روى في الإنجاز عن فضائل القرآن لابن ضريس بسند ذكره عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتب بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء . وكان أول ما أنزل من القرآن :

" اقرأ باسم ربك "

ثم " ن " .

ثم " يا أيها المزمل " .

ثم " يا أيها المنتثر " .

ثم " نبت يدا أبي لهب " .

ثم " إذا الشمس كورت " .

ثم " متح اسم ربك الأعلى " .

ثم " والليل إذا يغشى " .

ثم " والفجر " .

ثم " والضحى " .

ثم " ألم نشرح " .

ثم " العصر " .

ثم " والعاديات " .

ثم " إنا أعطيناك " .

ثم " ألهم الكائنات " .

ثم " أرأيت الذي يكذب " .

ثم " قل يا أيها الكافرون " .

- ثم " ألم تر كيف فعل ربك " .
 ثم " الغيل " .
 ثم " قل أعوذ برب الفلق " .
 ثم " قل أعوذ برب الناس " .
 ثم " قل هو الله أحد " .
 ثم " والنجم " .
 ثم " عيس " .
 ثم " إنا أنزلناه في ليلة القدر " .
 ثم " والشمس وضحاها " .
 ثم " والسماء ذات البروج " .
 ثم " التين " .
 ثم " لإيلاف قريش " .
 ثم " القارعة " .
 ثم " لا أقسم بيوم القيامة " .
 ثم " ويل لكل همزة " .
 ثم " والمرسلات " .
 ثم " ق " .
 ثم " لا أقسم بهذا البلد " .
 ثم " والسماء والطارق " .
 ثم " اقتربت الساعة " .
 ثم " ص " .
 ثم " الأعراف " .
 ثم " قل أوحى " .
 ثم " يس " .
 ثم " الفرقان " .
 ثم " الملائكة " .
 ثم " كهيعص " .
 ثم " طه " .
 ثم " الواقعة " .
 ثم " طسم الشعراء " .

ثم " طس " .
 ثم " القصاص " .
 ثم " بني إسرائيل " .
 ثم " يونس " .
 ثم " هود " .
 ثم " يوسف " .
 ثم " الحجر " .
 ثم " الأنعام " .
 ثم " الصافات " .
 ثم " لقمان " .
 ثم " سبأ " .
 ثم " الزمر " .
 ثم " حم " .
 ثم " المؤمن " .
 ثم " حم السجدة " .
 ثم " حم عسق " .
 ثم " حم الزخرف " .
 ثم " الدخان " .
 ثم " الجاثية " .
 ثم " الأحقاف " .
 ثم " الذاريات " .
 ثم " الغاشية " .
 ثم " الكهف " .
 ثم " النحل " .
 ثم " إنا أرسلنا نوحاً " .
 ثم " إبراهيم " .
 ثم " الأنبياء " .
 ثم " المؤمنين " .
 ثم " تنزيل السجدة " .
 ثم " الطور " .

ثم " تبارك الملك " .
ثم " الحاقة " .
ثم " سأل " .
ثم " عمّ يتساءلون " .
ثم " النازعات " .
ثم " إذا السماء انفطرت " .
ثم " إذا السماء انشقت " .
ثم " الروم " .
ثم " العنكبوت " .
ثم " ويل للمطففين " هذا ما أنزل الله بمكة .

ثم أنزل الله بالمدينة :

سورة " البقرة " .
ثم " الأنفال " .
ثم " آل عمران " .
ثم " الأحزاب " .
ثم " الممتحنة " .
ثم " النساء " .
ثم " إذا زلزلت " .
ثم " الحديد " .
ثم " القتال " .
ثم " الرعد " .
ثم " الرحمن " .
ثم " الإنسان " .
ثم " تطلق " .
ثم " لم يكن " .
ثم " الحشر " .
ثم " إذا جاء نصر الله " .
ثم " النور " .
ثم " الحج " .

ثم ' المناقون ' .
 ثم ' المجادلة ' .
 ثم ' الحجرات ' .
 ثم ' التحريم ' .
 ثم ' الجمعة ' .
 ثم ' التغابن ' .
 ثم ' الصف ' .
 ثم ' الفتح ' .
 ثم ' المائدة ' .
 ثم ' براءة ' .

❖ مناقشة هذا الحديث والأحاديث الأخرى :

لنا في هذا الشأن للملاحظات التالية :

١ . هذا الحديث كما يبدو ، قد سقطت منه سورة الفاتحة رغم أنها أول سورة نزلت بمكة على ما نقل في الإتيان عن الكشاف عن أكثر المفسرين ^١ . عدد المور كما هو ظاهر من الحديث عن ابن عباس مائة وثلاث عشرة [١١٣] . فالفاتحة غير واردة في الحديث .

ونقل أيضا عن جابر بن زيد أن أول ما نزل بمكة " اقرأ باسم ربك " إلى أن قال " ثم يا أيها المدثر " ، ثم الفاتحة ^٢ .

ولا نفوتنا هنا الإشارة إلى أن الأمين الطبرسي قد روى حديث ابن عباس الألف في مجمع البيان ^٣ لكنه قد اشتبه ، واعتبر سورة القمر ، وسورة " اقتربت " سورتين ، رغم أنهما واحدة .

^١ - الإتيان : تنوع الأول من ١١ وراجع البرزكشي ، العلمان ١٩٣ وما بعدها .

^٢ - الإتيان ، فروع الأول من ٢٥ .

^٣ - ج ١ ، ص ٤٠٥ .

وهي خمس وثمانون سورة ، فإنه لو فرض تعدد السورة عنده بتعدد الإسمين
لصار عدد السور عنده مئاً وثمانين سورة . كما أن ابن النديم قد أورد رواية ابن
عباس المذكورة في فهرسته فلنراجع^١ .

١. حديث آخر عن ابن عباس يقول بأن عدد السور مائة وأربع عشرة سورة [١١٤].

٢. حديث رواه البيهقي ورد في الإتيان ١٠/١ عن عكرمة أن عند السور [١١١].
فالفتحة والأعراف والشورى غير منكرة في هذا الحديث .

لكن الحديث الثاني والثالث اعتبرا سورة المطففين من السور المدنية خلافاً
للحديث الأول الذي اعتبر سورة " المطففين " مكية ، يضاف إلى ذلك تغيير
ترتيب السور بالنسبة إلى هذه الأحاديث .

٤. روي حديث آخر عن علي بن أبي طلحة يقول فيه : نزلت بالمدينة سورة البقرة ،
وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والحج ، والنور ،
والأحزاب والذين كفروا ، والفتح ، والحديث ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ،
والحوريين ، يريد الصف ، والتغابن ويا أيها النبي إذا طلقتم النساء ، ويا أيها
النبي لم تحرم ، والفجر ، والليل ، وإنا أنزلناه في ليلة القدر ، ولم يكن ، وإذا
زلزلت ، وإذا جاء نصر الله ، وسائر ذلك بمكة .

لعل هذا الحديث يميز بين السور المكية والمدنية بصرف النظر عن مسألة ترتيب
النزول لأن سورتي المائدة والتوبة إنما تقعان يقيناً في الترتيب بعد الذي ورد وفي
الحديث بكثير ، لقد اعتبر هذا الحديث سورة الفجر والليل والقدر من السور
المدنية بينما الأحاديث السابقة اعتبرتها من السور المكية .

٥. ورد عن قتادة حديث في الإتيان يقول : نزل في المدينة من القرآن : البقرة ، وآل
عمران ، والنساء ، والمائدة وبراءة والراعد ، والنحل ، والحج ، والنور ،
والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات والحديد ، والرحمن ، والمجادلة ،
والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ،

١ - فهرست ص ٤٥ .

ويا أيها النبي لم تحرم ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله والفتح ، وسائر القرآن
نزل بمكة .

- هذا الحديث يخالف الأحاديث السابقة ، وخاصة حديث آخر مروى عن قتادة نفسه في سورة المطففين ، والإنسان ، ولم يكن .
- ألا تجد أن هذه الأحاديث لا يمكن اعتمادها لضعفها ؟

ليس لهذه الأحاديث قيمة الأحاديث الدينية لأن سندها لم يتصل بالنبي ، ولم يعلم أن ابن عباس ، مثلاً ، قد تعلم الترتيب من النبي ، أو من إنسان آخر ، أو هو اجتهد في نظري .

وليس لهذه الأحاديث مكانة النقول التاريخية لأن ابن عباس ، مثلاً ، أدرك مدة قصيرة من حياة الرسول (ص) ولم يكن يلزمه دائماً حتى يشاهد كيفية كل السور والآيات ، فإذا لم يكن قد اجتهد في هذا الترتيب ، فلا بد أن يكون قد نقله عن إنسان آخر لا ندري من هو ، ولا كيف هو ! كل نقل تاريخي مجهول المصدر لا قيمة له في ميزان النقد والتحقيق .

- يضاف إلى ذلك أن هذا المذهب هو خبر أحد لا خبر سواثر ، وفي أصول الفقه ، أن الخبر الواحد غير حجة في ما عدا الفقه .
- فالسبيل الوحيد لمعرفة المكي والمدني إزاء هذه الأحاديث المتهاشة والرواية غير الثابتة ، هو التنبر في الآيات ، والنظر في مدى موافقتها لما جرى قبل الهجرة أو بعدها . إن مضامين سورة الإنسان والعاديات والمطففين تشهد بأنها مدنية رغم أنها ذكرت في بعض من الأحاديث على أنها مكية [راجع القرآن في الإسلام ، الطباطبائي ص ١٣٠] .

- ابن خلدون يذهب في قوانين العمران والتاريخ إلى أن قانون الإمكان والاستحالة في التمييز والتحقيق هو الذي ينبغي اعتماده ، وهو سابق على التعديل والتجريح .

واختلف الرواة في آخر ما نزل بمكة ، ف قيل " العنكبوت " وقيل " المؤمنون " وقيل " ويل للمطففين " ، واستقرت الرواية من الثقة على أن عدد السور المكية خمس وثلاثون سورة ، وأن السور المدنية عدها تسع وعشرون سورة [تفصيل الاختلاف ، وقارن في كل من المباني في نظم

المعاني ٨-١١ ، والاتقان ١/٢٥-٣٧-٧٢-٧٤ . وتاريخ القرآن
الزنجاني ٤٩-٦١] .

- من الذي اختلف العلماء في شأن نزوله هو فاتحة الكتاب ، قال ابن عباس
والضحاك ومقاتل وعطاء أنها مكية ، وقال مجاهد أنها مدنية .
والحق أن فاتحة الكتاب مكية لأمرين :
الأول : ذكرها في سورة الحجر " ولقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن
العظيم " . والسبع المثاني هي الفاتحة لأنها تنتمي في الصلاة ، وسورة
الحجر المكية .
والثاني : أن الصلاة شرعت في مكة ، ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب ،
مضافاً إلى ذلك أن هناك قولاً بأنها أول ما نزل من السجدة [الإتقان
السيوطي ١/٧٠] .
هناك بعض المور المكية وفيها آيات مدنية ، وبالعكس ، وقد عيّنت من
قبل الباحثين [البرهان ١/١٩٩] .

❖ المصاحف المطبوعة اليوم وحديث ابن عباس :

إن المصاحف المطبوعة بالنسبة إلى حديث ابن عباس متفاوتة وغير متطابقة ويلاحظ:
١. أن القرآن الذي أعده عبد الوود يوسف ، وطبع بموافقة دار الإفتاء ، ووزارة
الإعلام السورية بتاريخ ١٠/٨/١٩٧٥ قد وافق رواية ابن عباس الألفية ، حتى
في عدم استثناء بعض الآيات ، فعنون السورة كلها بمكية أو مدنية دون
استثناء .

٢. إن المصحف المطبوع في إيران بخط طاهر خورشنويس ، وقابل مع القرآن
السلطاني (ع) قد وافق رواية ابن عباس إلا في موارد هي :
أ- سورة الحمد ، فإنها لم ترد في الرواية ، ولكن جاء في المصحف
السلطاني أنها مكية .
ب- سورة الرحمن ، مدنية في الرواية ، مكية في السلطاني .
ج- سورة التحريم ، مدنية في الرواية ... مكية في السلطاني .

١ - كتب القرآن السلطاني في عصر السلطان سليم بعد فتحه مصر ، وكان قد استفاد من المطابعين والمثاقين والمساحين إلى
نماسته وكبره : تشهد في علوم القرآن ج ١ ص ٣٥٦ .

٣. ابن المصنف الذي طبع في القاهرة بخط قدرغه لسي ، وقوبل بالمصنف الأميري الذي أقرته اللجنة المعينة من قبل فؤاد الأول ، ملك مصر في وقته ، تحت إشراف مشيخة الأزهر ، هذا المصنف قد وفق رواية ابن عباس ، إلا أنه قد استثنى فيه بعض الآيات ، مثلاً : سورة البقرة مدنيّة إلا آية ٢٨١ فمكية . لكننا قلنا : إن هذا الاستثناء لا دليل عليه إلا رواية عن ابن عباس تقول أنها نزلت بمضى قبل وفاة النبي (ص) بواحدٍ وثمانين يوماً ... ولكنها معارضة بما يدل على خلاف ذلك ^١ .

٤. ثمة مصحف مطبوع في تركيا لسنة ١٣٤٢ هـ بإشراف لجنة ، وهو أيضاً لم تستثن فيه آيات أصلاً . ولعل هذه هي طريقة معظم المصاحف المطبوعة .

وبنتهي بنا القول إلى أن ٨٦ سورة مضافاً إليها سورة الفاتحة كلها مكيّة وإن ٢٨ سورة كلها مدنيّة دون استثناء ، وأن المراد بالمكيّة : ما أنزلته الله قبل الهجرة ، وبالمديّة ما أنزلته الله بعدها ، وهو الاصطلاح المعروف والمشهور ^٢ .

❖ الشبهات المكيّة والمدنيّة ودفعها

القرآن المكي والمدني والفروقات الملاحظة فيه أثير شبهة عند المستشرقين حوله ، لينتهي بهم القرار إلى أن القرآن قسماً هو بشري ، ونتاج بشر .
ألا تشير هذه الفروقات بين القرآن المكي والمدني ، إلى في الموضوعات وإلى الأساليب ، إلى خضوع هذا القرآن لظروف بشرية اجتماعية وشخصية تركبت بصماتها على مبناء ومعناه ، على أسلوبه ومادته وموضوعاته ؟

وقبل الحديث عن هذه الشبهات ومناقشتها لا بد من ملاحظة أمرين :
- الأول : لا بد من التمييز بين فكرة تأثر القرآن بالظروف البيئويّة ، وبين مراعاة القرآن لهذه الظروف ليؤثر فيها تطورها ، ويأخذ بيدها نحو الأفضل .

^١ :راجع ابن المنشور ج ١ ص ٣٧٠ .

^٢ :جوت في تاريخ القرآن وعلمه ، أبو الفضل مير محمدي ص ٣٣٧ .

فالفكرة الأولى مؤداها أن القرآن بشري يتأثر ببيئته ويؤثر فيها . أمّا الفكرة الثانية فمؤداها أن هذه المراعاة تفرضها طبيعة القرآن التي تستهدف التغيير ، كما تفرضها طبيعة الأهداف التي يبغى القرآن تحقيقها والوصول إليها .

وكم من الفرق بين أن تفرض الظروف نفسها على الرسالة ، وبين أن تفرض الأهداف والغايات التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع أسلوباً ومنهجاً للرسالة ! فالفكرة الأولى نرفضها بحسم والفكرة الثانية نقبلها بيقين .

- الثاني : إن تفسير الظاهرة القرآنية لا بد أن يعتبر هو المصدر الأساس في جميع الأحكام التي تصدر على محتوى القرآن وأسلوب العرض فيه . قد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين مختلفين نتيجة للإختلاف في تفسير أصل وجود القرآن ، لذلك لا بد للمفسر أن يكون تفكيره إسلامياً .

فالظاهرة القرآنية الإلهية كيفما انقلب أمرها ، وليس من النتائج البشري في شيء ، إن الشبهات التي أثّرت حول المكي والمدني كانت بدافع الإنكار لفكرة الوحي وظاهرته . للشبهات المثارة حول القرآن المكي والمدني جانبان : جانب يرتبط بالأسلوب وجانب يرتبط بالمادة والموضوع .

❖ شبهة الأسلوب :

والشبهة التي أثّرت حول الأسلوب المكي والمدني لها أشكالها المختلفة ، ولها صياغتها المتعددة . ونتوقف عند صياغتين من هذه الصيغ :

١ . الأسلوب المكي ميزته العنف والسباب :

لقد قال هؤلاء المستشرقون المنكرون للوحي المحمدي أصلاً بأن الأسلوب للمكي من أخصّ خصائصه اتصافه بطابع الشدة والعنف والسباب ، مما يشير إلى تأثير محمد ببيئته المعنوعة بالغلظة والجهل . هذه للشبهة اعتمد في مدّعاها على السور والآيات المكية التي تتسم بطابع الوعيد الرّاعد ، والتهديد القانف ، وللتعنيف المرعب أمثال سورة " المدد " " العصر " " التكاثر " " الفجر " .

مناقشة هذه الشبهة : يمكن مناقشة هذه الشبهة ودفعها بالآتي :

- ١- القرآن المكي لا ينفرد بطابع للوعيد المنذر ، ولا التهديد الراعد ، بل للقرآن المدني حظٌ من ذلك .
- ٢- وللاقرآن المدني لا يختص بالأسلوب الهادئ ، والتعبير اللين السمح ، بل المكي له مشاركات في هذا الأسلوب ، وهذا التعبير .

أنظر إلى الأسلوب المدني الشديد التباس ، العنيف الملمس :

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾
البقرة : الآية - ٢٤ .

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾
البقرة : الآية - ٢٧٥ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُغُوسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَنْظُمُونَ وَلَا تُنْظَمُونَ﴾
البقرة : الآيات - ٢٧٨ - ٢٧٩ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعَتٌ لِيَوْمٍ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾
عمران : الآيات - ١٠-١٢ .

وانظر إلى الليونة والسماحة في الأسلوب المكي :

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا أُولُو حُظٍّ عَظِيمٍ﴾
الآيات - ٣٣ - ٣٥ .

﴿فَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَلْقَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا لُصِقَتْهُمْ ذُنُوبُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ

عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَنِيبٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿
 الصُّورى : الآيات - ٣٦ - ٤٣ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ الْمِثْقَالِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَحْسَبُ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الحجر : الآيات - ٨٧ - ٨٨ .

﴿ هَلْ يَأْتِي عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر : الآية - ٥٣ .

١ كل المواقع القرآنية تخلو من السب ، وكل الأساليب القرآنية لا أثر فيها للسب .
 أو لم يَنْهَ القرآن نفسه عن كل ما يقال له سب وشتم ؟
 ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام : الآية - ١٠٨ - .

هناك التحذير والوعيد بسوء المصير الذي ينتهي إليه أبو لهب والكافرون بالله في سورة " المسد " أو سورة " التكاثر " وليس البذاءة ، ولا السباب .
 في المذنب كما في المكي فريغ وعف ، وإن كان ذلك في المكي أظهر وأكثر بأسباب الإضطهاد الأسود ، والقسوة البشعة التي كانت تعامل بها الدعوة وأتباعها .

إن هذا الواقع الصعب الذي كانت تمر به الدعوة كان من مقتضياته أن تكون مواجهة القرآن له بالعنف المفرغ لحيانا ، لشدة عزائم المسلمين ، وتقوية معنوياتهم ، والنيل من غلظة الأعداء وشراستهم .

انظر إلى هذا التفريع المذنب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَلْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمَنْ لِلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ... ﴾ البقرة : الآيات - ٦ - ٨ ، إلى قوله تعالى : ﴿ صُمُّ بَكْمُ عُتَىٰ فَهُمْ لَا يَحْقُقُونَ ﴾ البقرة : الآية - ١٧١ .

﴿ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكَنَةُ وَبَاعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة : الآية - ٦١ .

﴿ بِنَسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ نَبِئًا أَنْ يَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاعُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ البقرة : الآية - ٩٠ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ البقرة : الآية - ١٥٩ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِقَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرَكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّيْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ آل عمران : الآية - ٥٥-٥٦ .

﴿ قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ المائدة : الآية - ٦٠ .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَظْلُونَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ المائدة : الآية - ٦٤ .

الأسلوب المكي ميزته قصر السور والآيات :

ومن الذي أثاره المستشرقون وغيرهم من المنكرين للوحي من شبهات حول الأسلوب القرآني هو قصر السور والآيات في القسم المكي والتفصيل والأسهاب في الأسلوب المدني ، كسورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها . فالبيئتان متباينتان منقطعتان .

إن المجتمع المكي هو مجتمع أمي غليظ لم يكن بمقدوره أن يتقبل التبسيط والتفصيل في شرح المفاهيم ، لكن المجتمع المدني البزري هو مجتمع أهل الثقافة والتحضّر ، ويمكنه أن يتقبل التفصيل والإسهاب والشروحات للمفاهيم والموضوعات .

مناقشة هذه الشبهة :

ويمكننا مناقشة هذه الشبهة وردّها بوجهين :

- الأول : إن القرآن المكي لا ينفرد بالإيجاز ، ولا يختص بالقصر في سوره وأياته دون المدني . ألا نجد أن سورة النصر والزلزلة والبيّنة المكيّة هي على قصر وإيجاز ؟ وإن الطول والتفصيل لا ينفرد بهما القسم المدني . ألا تلاحظ أن سورتين كالأنعام والأعراف المكيّتين هما من السور المفصّلات الطوال ؟

قد يكون الإيجاز هو الأظهر والأعجب في الأسلوب المكي ، وقد يكون الإسهاب هو الأعجب في الأسلوب المدني ، ولكن كل ذلك لا يعني انقطاع الصلة بين القرآنيين ، وحسب القرآن المكيّ بعض السور الطوال ليدلّ على التمكن من الارتقاء إلى مستوى التفصيل للموضوعات .

والذي يدفع هذه الشبهة بوضوح أكثر هو أن سوراً مكيّة تتخللها آيات مدنيّة ، وأن سوراً مدنيّة تتخللها آيات مكيّة دون أن يؤثر ذلك على التلاحم والانتقال والوحدة بين أجزاء السورة .

- الثاني : فنيماً قيل خير الكلام ما قلّ ودلّ .

فالإيجاز هو لون من ألوان التعبير التي لا تدلّ على عجز إنما هو مؤشر على القدرة الخارقة على التعبير .

فليس من مظاهر الإعجاز القرآني الإيجاز ؟

لو لم يتحدث القرآن العرب بأن يأتوا بسورة من سوره وإن قصيرة ، وأن يأتوا بآية من آياته وإن موجزة ؟

❖ شبهة العادة والموضوع :

ومن الشبهة التي أثارها المنكرون والمستشرقون شبهة تختص بموضوعات

للقرآن المكيّ والمدنيّ .

لقد كان من جملة ما ادّعه وزعموه أن القرآن المكيّ لم يتعرض للتشريع ، ولم يشتمل على أحكام وقوانين ولنظمة خلافاً للقرآن المدنيّ الذي ركّز على هذا الجانب وتناوله مفصلاً . ألا يفيدنا كل هذا بأن جانباً آخر من البيئة والظروف الاجتماعية قد تأثر بها القرآن .

فالمجتمع المكي لم يكن على تحضر ، ولم يكن على علاقة بما عند أهل الكتاب من معارف وتشريعات ، خلافاً لمجتمع المدينة الذي كان له انفتاحه على ما عند أهل الكتاب من معارف ، وكان له تأثره الثقافي بما كان عند الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية .

مناقشة هذه الشبهة :

ولذا أن تناقش هذه الشبهة بأمرين :

- أولاً : خطأ وإجحاف أن يقال بأن القرآن المكي كان خلواً من التشريع والأحكام لأن هذا القرآن قد تناول من التشريع أصوله ، ومن الدين جملة أهدافه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِهْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ الْأَنْعَامُ - الآية - ١٥١ - ١٥٢ .

- ثانياً : إن الإسلام لم تكن له في مكة دولته وحكمه ، فكيف سيكون له تشريعاته المفصلة ، وأحكامه المعسبة ؟

ألا يمكننا القول بأن التشريع بمكة يكون سابقاً لأوانه لو كان ؟ وأنه لا يتفق مع المرحلة التي تمرّ بها الدعوة ؟

إن الدولة الإسلامية قد نهضت في المدينة فكيف تكون تشريعاتها وقوانينها في المرحلة المكية ؟ ألا يكون ذلك صيحات في فراغ ؟

❖ شبهة الأدلة والبراهين :

ومن هذه شبهة التي أثبتت حول المكي والمدنيّ هو أن الأدلة والبراهين على العقيدة وأصولها لم يكن للمكيّ منها حظ ، بل لم تكن بجملتها إلا من مشتملات القرآن المدنيّ.

إن هذه الظاهرة إن دلّت على شيء فإنما تدل على عجز الظاهرة القرآنية عن الأخذ بأسباب الأدلة والبراهين التي تدل على دقة في النظر ، وعق في الفكر ، وبعد في التأمل للحقائق الكونية عندما كان محمد (ص) الأمي يعيش في المجتمع المكي الأمي . أما في مجتمع المدينة المتطور فقد استفاد محمد (ص) ، وتطورت الظاهرة القرآنية ،

وأخذ المستوى القرآني سبيله إلى السمو والارتقاء بأسباب مجاورته ومعاشرته واقتباسه من أهل الكتاب .

مناقشة هذه الشبهة :

ويمكن رد هذه الشبهة ودفعها بوجهين :

١- الأول : كثرة الأدلة التي استخدمها القرآن المكي في مختلف الشؤون ، وثنى المجالات .
من ذلك :

١- الاستدلال والبرهنة على التوحيد :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ المومنون : الآية - ٩١ .
﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا يُكَذِّبُ مَنْ سَبِيَ وَكَذِّبُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ الانبياء : الآيات - ٢٢-٢٤ .

٢- البرهنة على نبوة محمد (ص) :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرُحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت : الآيات - ٤٨-٥١ .

٣- الاستدلال على البعث والحساب :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ق : الآية - ٩-١١ .

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ق : الآية - ١٥ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المومنون : الآية - ١١٥ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَحْمَلَهُمْ كَاتِبِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَخْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ الجاثية : الآيات - ٢١ - ٢٢ .

الثاني :

ولو صرفنا النظر عن هذه الآيات الأتفة ، ولم نعتمدها أدلة موازية بالعمق والكثرة لأدلة القرآن المدني ، فما الذي يضير في ذلك ؟ ما هو وجه الخلل والانقطاع بين القرآنيين طالما كل مجتمع يحتاج إلى ثون من الخطاب ، وطالما القرآن يخاطب الناس بما يناسبهم ويتقنعهم ويعلمهم ؟

يقول (ص) : إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونخاطبهم على قدر عقولهم .

ولطالما المجتمع المكي والمجتمع المدني على مستويات مختلفة في الواقع الفكري والثقافي ، ولطالما المواجهات للدعوة في المجتمعين على تباين في الأسلوب فلا بد أن يكون الخطاب المكي مختلفاً عن الخطاب المدني .

فدعوة في مكة كانت تواجه المشركين وعبدة الأصنام ، كما كانت تواجه الأميين الجيلة ، ألا يتطلب الخطاب للقرآني في دوره ومناقشاته لهؤلاء أدلة وجدانية مسطحة يمكن أن يستوعبها أولئك الخصوم ويدركوها ، ويعلموا بواسطتها أن عقيدتهم الوثنية على بطلان ؟ أما طبيعة الموقف المدني في مواجهة الدعوة فإنها تختلف عن طبيعة الموقف المكي في هذه المواجهة . إن طبيعة الموقف للمدني تعقيداً أشد صعوبة كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب .

إن هذا التعقيد في الموقف المدني اقتضى تعقيداً في الأسلوب المكي من حيث الأدلة والتفصيل . وقيماً قيل : السيف يقرع بالسيف ، والحجة تفرع بالحجة^١ .

❖ مقارنة سريعة بين المكي والمدني :

وإذا أراد الحديث أن يقارن بين ما هو مكي وبين ما هو مدني لانهى إلى ما هو ملخصه :

^١ - راجع كتاب : منازل العرفان ، الزرقاني ١٩٩١ - ٢٢٢ .

١. المكي توقف عند مبادئ الشرك طويلاً ، وما نترك وراءها من آثار فكرية ونفسية ، أخلاقية واجتماعية .

٢. القرآن المكي تحدث عن الكون بعجائب خلفه ، وبدائع تكوينه ، وكل ما يشهد فيه بالآلة الخلق المدبّر ، وتحدث المكي عن عالم الغيب والبعث والسوحي بالعقل والبرهان والوجدان .

٣. للقرآن المكي كانت له جولات واسعة في الحديث عن الأخلاق الفاضلة وغير الفاضلة . لقد تحدث عن الإيمان والتقوى ، وطاعة الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعلم والمحبة والرحمة والعفو والصبر والإخلاص واحترام الآخرين وبرّ الوالدين وإكرام الجار ، والكلمة الطيبة والخبيثة والعذل والظلم ، والصدق والكذب ، والاعتدال والإسراف ، والأمانة والخيانة ، والتواضع والتكبر ، والغبية والغبية ، والإحسان والكرم والبخل ، والنزّة الحسنة والسيئة ، وسفك الدماء والعصبية ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل أموال الناس ، والكفر والعصيان والتوبة

٤. ولتخص الأبياء والرسل وعظمتها وغيرها مساحات واسعة في القرآن .
٥. وأسلوبه يمتاز بالإيقاع الصوتي والإيجاز ، أما الأسلوب المدني فيكاد يخلو من هذه الخصائص أو هو على خلاف ذلك ، ويمتاز بأمرين :
أ- مناقشة أهل الكتب وبيان زيفهم وانحرافهم ودعوتهم إلى الإسلام .
ب- التشريع والأحكام على وجه من التفصيل ، والانطلاق إلى معالجة مختلف المشاكل للعلاقات الانسانية ، والمجتمعات البشرية .

وبعد هذه المناقشات للشبهات التي أثيرت حول القرآن المكي والمدني انطلقاً من الإنكار للوحي المحمدي يمكننا التوضيح السليم ، والتفسير الصحيح للفرقات بين المكي والمدني من القرآن .

إن الفترة المكية تعتبر فترة إرساء أسس العقيدة الإسلامية سواء ما يتصل بالجانب الإلهي والغيبى أو الأخلاقى أو الاجتماعى ، وسواء ما يتصل بالجانب الإيجابى كعرض مفاهيمها عن الكون والحياة والأخلاق والمجتمع ، أو ما يتعلق بالجانب السلبي كمنافسة الأفكار الكافرة الجافة التي كانت تسود المجتمع آنذاك .

هذه الحقيقة تقضي بأن يكون القرآن المكي أكثر شمولاً واتساعاً وأكثر كمية من القرآن المدني .
إن المجتمع المكي وشي عقيده فكان من البدهة التأكيد على فكرة رفض الشرك والوثنية ومناقشتها بالعمق والتفصيل .

وإن المجتمع المكي لم يكن يؤمن بفكرة الإله الواحد ، ولم يعتقد بفكرة الغيب والبعث والجزاء والوحي ، هذه الأفكار هي من القواعد الأساسية للرسالة الإسلامية فكان من الضروري أن يؤكد القسم المكي على هذه القواعد كونه المرحلة الأولى للرسالة ، وكون هذه القواعد أساسية في الرسالة . ألا تجد أن القرآن لو لم يؤكد هذه القواعد في مكة لكان بحاجة إلى تأكيدها في المدينة ؟ إن التأكيد المكي لهذه القواعد جعل القرآن في غنى عن تأكيدها وبيانها في المرحلة المدنية .

وإن التأكيد المكي على الأخلاق كان باعتبار الأخلاق قاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن ، وكان لاستشارة المواطن الإنسانية الخيرة في سبيل نجاح الدعوة ، وكان هذا التأكيد لأن المجتمع المكي كان يعيش فيه المسلمون حياة اضطهاد ، وكانت الأخلاق الجاهلية الجانحة هي التي تمارس .

- إن القرآن المكي كثرت فيه القصص التي تناولت بموضوعاتها معظم القضايا التي عالجهها القرآن كالإيمان بالله الواحد وعالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء والقوانين الاجتماعية ومراحل الدعوة ، والقصص هي واحد من أسباب الإعجاز القرآني الذي ساعد على نجاح الدعوة ، ورغم ذلك لم يكن القرآن المدني خالياً من القصص التي تتلاءم مع طبيعة مرحلته .

- ولطالما القرآن في موقع التحدي كان الإعجاز في السورة أبلغ في إظهار الإعجاز القرآني وأعق تأثيراً وأبعد مدى .

- ويخلص بنا القول بعد الدراسة لخصائص القرآن المكي إلى أن خصائص القرآن المدني له مبرراته : فالنصوص الأحكام والأنظمة الاجتماعية ، ومناقشة أهل الكتاب في عقائدهم المنحرفة كانت بأسباب ظروف الحكم في المدينة ، والحاجة إلى تنظيم العلاقات بين الناس إلى بيان هذه التفاصيل في الأنظمة ، كما أن المعركة في المدينة انتقلت من الأصول

والأسس العامة لتعقيد إلى جوانب تفصيلية منها مرتبط بحدودها وبأشكالها ، وبالعامل على
تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها^١ .

ألا نزول الشبه التي أثارها المستشرقون بعد هذه الدراسة وهذه المناقشة ؟
ألا يبدو أمراً يقينياً أن القرآن كان سراعاً للظروف من أجل تحقيق أهدافه وغاياته حين كان له
خصائصه المكيّة والمننّية ؟

لم يكن القرآن متأثراً ببيئته ، ولم يكن وحى مجتمعه ولا نتاجه لينقلب صناعة بشرية
محمّدية إنما كان الكتاب الإلهي المعجز الذي أرسل خطابه للناس بأسلوب مناسب ، وطريقة
ملائمة ، ليتمكن من الوصول إلى أهدافه ، وتحقيق غاياته .

^١ - راجع : علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم ، ص ٦٤ .

جدول في ترتيب السور العددي والمكاني والزمني

إن عدد السور التي نزلت بمكة يبلغ خمسا وثمانين سورة وما نزل بالمدينة يبلغ تسعا وعشرين سورة على اختلاف الروايات^١.

هناك بعض السور المكية وفيها آيات مدنية ، وهناك بعض السور المدنية وفيها آيات مكية . ولعل من المناسب أن نضع جدولاً بحسب ترتيب السور القرآنية في المصحف الشريف ، نشير فيه إلى رقم السورة من المصحف ، ثم نذكر اسمها المشهور ، ثم نكتب عدد آياتها ، ثم نشير إلى مكان النزول ، ثم ننتج تاريخ النزول ، معتمدين بذلك على ترتيب المصحف الإمام ومحققين في المعلومات المدونة على أوثق المصادر وأثبتها ، ومن ثم نعقب في الهامش بالآيات المستثناة من السور مكية ومدنية اعتماداً على الروايات الذاهية ذلك المذهب .

ولعل ما نفقده من عرض قد لا نجد قبولاً له لدى بعض من الباحثين ، لا سيما في استثناء الآيات المكية من السور المدنية ، والآيات المدنية من السور المكية .

إن صاحب تفسير الميزان قد ناقش في أغلب ذلك ، واعتبر أن السياق لا يساعد على جملة منها ، بل والأدلة نظامية عليه ، وطريقته في تعيين ذلك تعتمد النظم والسيقاق أولاً وأساساً^٢ ، وكيفية انقلب الأمر فهو يتفق معنا في الأصل المشار إليه كما في الترتيب التالي :

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
١	الفاتحة	٧	مكية	نزلت بعد المدثر ^٣
٢	البقرة	٢٨٦	مدنية	أول سورة مدنية ^٤
٣	آل عمران	٢٠٠	مدنية	نزلت بعد الأنفال

^١ - الحق أن قائمة مكات مكية لأمرين : الأول ذكرها في سورة الحجر " ولقد آتيناك سماً من المثالي والقرآن العظيم ، وألصق المثالي في الحائفة لأفانتي في الصلاة ، وسورة الحجر مكية . الثاني أن الصلاة شرعت في مكة ولا صلاة إلا غفلة الكتاب . مصافح إلى أن هناك قولاً أقسها قول ما نزل من الوحي .
^٢ - الطحطاوي ، الميزان في أحواله كونه .
^٣ - وفيه إجماع مدنية عن جماعة .
^٤ - ما عدا الآية (٢٨١) .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٤	النساء	١٧٦	مدنية	نزلت بعد الممتحنة
٥	المائدة	١٢٠	مدنية	نزلت بعد الفتح
٦	الأنعام	١٦٥	مكية	نزلت بعد الحجر ^١
٧	الأعراف	٢٠٦	مكية	نزلت بعد (ص) ^٢
٨	الأنفال	٧٥	مدنية	نزلت بعد البقرة ^٣
٩	التوبة	١٢٩	مدنية	نزلت بعد المائدة ^٤
١٠	يونس	١٠٩	مكية	نزلت بعد الإسراء ^٥
١١	هود	١٢٣	مكية	نزلت بعد يونس ^٦
١٢	يوسف	١١١	مكية	نزلت بعد هود ^٧
١٣	الرعد	٤٣	مدنية	نزلت بعد محمد
١٤	إبراهيم	٥٢	مكية	نزلت بعد يوسف ^٨
١٥	الحجر	٩٩	مكية	نزلت بعد يوسف ^٩
١٦	الفرقان	١٢٨	مكية	نزلت بعد الكهف ^{١٠}
١٧	الإسراء	١١١	مكية	نزلت بعد القصص ^{١١}
١٨	الكهف	١١٠	مكية	نزلت بعد الغاشية ^{١٢}
١٩	مريم	٩٨	مكية	نزلت بعد فاطر ^{١٣}

^١ - ما عدا الآية (٣) فلما نزلت في حجة الوداع ، وهذا لا يعارض مدنيته .

^٢ - ما عدا الآيات : ٢٠-٢٣-١-٣-١١٤-١٥١-١٥٢-١٥٣ فلما مدنية .

^٣ - ما عدا الآيات : ١٦٣-١٦٤ ١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠ فلما مدنية .

^٤ - ما عدا الآيات : ٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦ فلما مكية .

^٥ - ما عدا الآيتين : ١٢٨-١٢٩ فسكتان .

^٦ - ما عدا الآيات : ٤٠-٩٤-٩٥-٩٦ فلما مكية .

^٧ - ما والآيات : ١٢-١٧-١١٤ فلما مدنية .

^٨ - ما عدا الآيات : ١-٣٢-٧٠ فلما مدنية .

^٩ - ما عدا الآيتين : ٢٨-٢٩ فسكتان .

^{١٠} - ما عدا الآية : ٨٧ فسدتية يضمها الكهفون .

^{١١} - ما عدا الآيات : ١٢٦-١٢٧-١٢٨ فلما مدنية .

^{١٢} - ما عدا الآيات : ٢٩-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥-٣٦-٣٧-٣٨-٣٩-٤٠-٤١-٤٢-٤٣-٤٤-٤٥-٤٦-٤٧-٤٨-٤٩-٥٠ فلما مدنية .

^{١٣} - ما عدا الآيات : ٢٨-٨٣-٨٤-٨٥-٨٦-٨٧-٨٨-٨٩-٩٠-٩١-٩٢-٩٣-٩٤-٩٥-٩٦-٩٧-٩٨-٩٩-١٠٠-١٠١

فسدتية .

^{١٤} - عدا الآيتين ٥٨-٧١ لسكتان .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٢٠	طه	١٣٥	مكة	نزلت بعد مريم ^١
٢١	الأنبياء	١١٢	مكة	نزلت بعد ابراهيم
٢٢	الحج	٧٨	مدينة	نزلت بعد النور ^٢
٢٣	المؤمنون	١١٨	مكة	نزلت بعد الأنبياء
٢٤	النور	٦٤	مدينة	نزلت بعد الحشر
٢٥	الفرقان	٧٧	مكة	نزلت بعد يس ^٣
٢٦	الشعراء	٢٢٧	مكة	نزلت بعد الواقعة ^٤
٢٧	النمل	٩٣	مكة	نزلت بعد الشعراء
٢٨	التقصص	٨٨	مكة	نزلت بعد النمل ^٥
٢٩	العنكبوت	٦٩	مكة	نزلت بعد الروم ^٦
٣٠	الروم	٦٠	مكة	نزلت بعد الانشقاق ^٧
٣١	لقمان	٣٤	مكة	نزلت بعد الصافات ^٨
٣٢	السجدة	٣٠	مكة	نزلت بعد المؤمنون ^٩
٣٣	الأحزاب	٧٣	مدينة	نزلت بعد آل عمران
٣٤	سبا	٥٤	مكة	نزلت بعد لقمان ^{١٠}
٣٥	فاطر	٤٥	مكة	نزلت بعد الفرقان
٣٦	يس	٨٣	مكة	نزلت بعد الجن ^{١١}
٣٧	الصفات	١٨٢	مكة	نزلت بعد الأنعام
٣٨	ص	٨٨	مكة	نزلت بعد القمر

^١ - ما عدا الآيتين ١٣٠-١٣١ فمدنيّة.

^٢ - ما عدا الآيات ٥٢-٥٣-٥٤ فولت بين مكة والمدنية.

^٣ - ما عدا الآيات ٦٨-٦٩-٧٠ فلها مدنيّة.

^٤ - ما عدا الآيات ١٩٧-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧ فلها مدنيّة.

^٥ - ما عدا الآيات ٥٢-٥٣-٥٤-٥٥-٨٥ فولت ما ختمه أثناء الهجرة.

^٦ - ما عدا الآيات ١-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-١٠-١١ فلها مدنيّة.

^٧ - ما عدا الآية ١٧ فلها مدنيّة.

^٨ - ما عدا الآيات ٢٧-٢٨-٢٩ فلها مدنيّة.

^٩ - ما عدا الآيات ١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠ فلها مدنيّة.

^{١٠} - ما عدا الآية ٦ فلها مدنيّة.

^{١١} - ما عدا الآية ٤٥ فلها مدنيّة.

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٣٩	الزمر	٧٥	مكية	نزلت بعد سبا ^١
٤٠	المؤمن	٨٥	مكية	نزلت بعد الزمر ^٢
٤١	فصلت	٥٤	مكية	نزلت بعد غافر
٤٢	الشورى	٥٣	مكية	نزلت بعد فصلت ^٣
٤٣	الزخرف	٨٩	مكية	نزلت بعد الشورى ^٤
٤٤	الدخان	٥٩	مكية	نزلت بعد الزخرف
٤٥	الجاثية	٣٧	مكية	نزلت بعد الدخان ^٥
٤٦	الأحقاف	٣٥	مدنية	نزلت بعد الجاثية ^٦
٤٧	محمد	٣٨	مدنية	نزلت بعد الحديد ^٧
٤٨	الفتح	٢٩	مدنية	نزلت بعد الجمعة ^٨
٤٩	الحجرات	١٨	مدنية	نزلت بعد المجادلة
٥٠	ق	٤٥	مكية	نزلت بعد المرسلات ^٩
٥١	الذاريات	٦٠	مكية	نزلت بعد الأحقاف
٥٢	الطور	٤٩	مكية	نزلت بعد السجدة
٥٣	النجم	٦٢	مكية	نزلت بعد الإخلاص ^{١٠}
٥٤	القمر	٥٥	مكية	نزلت بعد الطارق ^{١١}
٥٥	الرحمن	٧٨	مدنية	نزلت بعد الرعد
٥٦	الواقعة	٩٦	مكية	نزلت بعد طه ^{١٢}

^١ - ما عدا الآيات : ٥٢-٥٣-٥٤ فلها مدنية .

^٢ - ما عدا الآيتين : ٥٦-٥٧ فمدنيتان والسورة تسمى عافر أيضاً .

^٣ - ما عدا الآيات : ٢٣- ٢٤- ٢٥- ٢٧ فلها مدنية .

^٤ - ما عدا الآية : ٥٤ فلها مدنية .

^٥ - ما عدا الآية : ١٤ فلها مدنية .

^٦ - ما عدا الآيات : ١٠- ١٥- ٣٥ فلها مدنية .

^٧ - ما عدا الآية : ١٣ فلها نزلت في الطريق أثناء الهجرة .

^٨ - نزلت هذه السورة في الطريق عند الانصراف من المدينة .

^٩ - ما عدا الآية : ٣٨ فلها مدنية .

^{١٠} - ما عدا الآية : ٣٢ مدنية .

^{١١} - ما عدا الآيات ٤٤- ٤٥- ٤٦ مدنية .

^{١٢} - ما عدا الآيتين ٨١- ٨٢ فمدنيتان .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٥٧	الحديد	٢٩	مدنية	نزلت بعد الزلزلة
٥٨	المجادلة	٢٢	مدنية	نزلت بعد المناقون
٥٩	الحشر	٢٤	مدنية	نزلت بعد البينة
٦٠	الممتحنة	١٣	مدنية	نزلت بعد الأحزاب
٦١	الصف	١٤	مدنية	نزلت بعد التغابن
٦٢	الجمعة	١١	مدنية	نزلت بعد الصف
٦٣	المناقون	١١	مدنية	نزلت بعد الحج
٦٤	التغابن	١٨	مدنية	نزلت بعد التحريم
٦٥	الطلاق	١٢	مدنية	نزلت بعد الإنسان
٦٦	التحريم	١٢	مدنية	نزلت بعد الحجرات
٦٧	الملك	٣٠	مكية	نزلت بعد الطور
٦٨	النجم	٥٢	مكية	نزلت بعد العلق ^١
٦٩	الحاقة	٥٢	مكية	نزلت بعد الملك
٧٠	المعارج	٤٤	مكية	نزلت بعد الحاقة
٧١	نوح	٢٨	مكية	نزلت بعد النحل
٧٢	الجن	٢٨	مكية	نزلت بعد الأعراف
٧٣	الزمر	٢٠	مكية	نزلت بعد القلم ^٢
٧٤	المنثر	٥٦	مكية	نزلت بعد الزمر
٧٥	القيامة	٤٠	مكية	نزلت بعد القارعة
٧٦	الدھر	٣١	مدنية	نزلت بعد الرحمن
٧٧	المرسلات	٥٠	مكية	نزلت بعد الهمزة ^٣
٧٨	النبا	٤٠	مكية	نزلت بعد المعارج
٧٩	النازعات	٤٦	مكية	نزلت بعد النبا
٨٠	عبس	٤٢	مكية	نزلت بعد النجم
٨١	التكوير	٢٩	مكية	نزلت بعد الممد

^١ - الآية ١٧ حتى الآية ٣٣ ومن الآية ٤٨ حتى الآية ٥٠ فمدنية .

^٢ - الآية ١٠-١١-٢٠ فمدنية .

^٣ - ما عدا الآية ٤٨ فمدنية .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
٨٢	الانفطار	١٩	مكة	نزلت بعد الفاتحات
٨٣	المطففين	٣٦	مكة	نزلت بعد العنكبوت ^١
٨٤	الانشقاق	٢٥	مكة	نزلت بعد الانفطار
٨٥	البروج	٢٢	مكة	نزلت بعد الشمس
٨٦	الطارق	١٧	مكة	نزلت بعد البلد
٨٧	الأعلى	١٩	مكة	نزلت بعد التكويد
٨٨	الغاشية	٢٦	مكة	نزلت بعد الذاريات
٨٩	الفجر	٣٠	مكة	نزلت بعد الليل
٩٠	البلد	٢٠	مكة	نزلت بعد ق
٩١	الشمس	١٥	مكة	نزلت بعد القدر
٩٢	الليل	٢١	مكة	نزلت بعد الأعلى
٩٣	الضحى	١١	مكة	نزلت بعد الفجر
٩٤	الانشراح	٨	مكة	نزلت بعد الضحى
٩٥	التين	٨	مكة	نزلت بعد البروج
٩٦	العلق	١٩	مكة	أول ما نزل من القرآن
٩٧	القدر	٥	مكة	نزلت بعد عبس
٩٨	البينة	٨	مدينة	نزلت بعد الطلاق
٩٩	الزلزلة	٨	مدينة	نزلت بعد النساء
١٠٠	التعاذيات	١١	مكة	نزلت بعد العصر
١٠١	الفارعة	١١	مكة	نزلت بعد قريش
١٠٢	التكاثر	٨	مكة	نزلت بعد الكوثر
١٠٣	العصر	٣	مكة	نزلت بعد ألم نشرح
١٠٤	الهجرة	٩	مكة	نزلت بعد القيامة
١٠٥	الفيل	٥	مكة	نزلت بعد الكافرون
١٠٦	قريش	٤	مكة	نزلت بعد التين
١٠٧	الماعون	٧	مكة	نزلت بعد التكاثر ^٢

^١ - هي آخر سورة نزلت بمكة .

^٢ - آيات الثلاث الأول مكة والبقية مدينة .

رقم السورة	اسم السورة	عدد آياتها	مكان النزول	تاريخ النزول
١٠٨	الكوثر	٣	مكية	نزلت بعد العاديات
١٠٩	الكافرون	٦	مكية	نزلت بعد الماعون ^١
١١٠	النصر	٣	مدنية	آخر ما نزل من سور القرآن
١١١	الممد	٥	مكية	نزلت بعد الفاتحة
١١٢	الإخلاص	٤	مكية	نزلت بعد الناس
١١٣	الفلق	٥	مكية	نزلت بعد الفيل
١١٤	الناس	٦	مكية	نزلت بعد الفلق

^١ - وقد نزلت بمن في حجة الوداع .

سور القرآن وآياته

❖ تحديد السورة :

قال أبو عبيدة وغيره : إنها غير مهموزة ، مأخوذة من سورة النبأ ، وكل مفزلة رفيعة يمكن أن يقال عنها : سورة . يقول النابغة :

لَمْ تَرِ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً
تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَنْتَذِبُ

وتذهب أقوال إلى أنها مهموزة ليكون معناها القطعة من القرآن انفصلت عما سواها وأُقيمت فصارت وحدة مستقلة تشتمل على مقدار من الآيات وتحمل اسماً خاصاً بها .

قال القتبي : السورة تهمز ولا تهمز ، فمن همزها جعلها من أسارت : أي أفضلت ، من السور : وهو ما بقي من الشراب في الإثناء كأنها قطعة من القرآن ^٢ .

وقيل : إن السورة هي طائفة من القرآن والتي أقلها ثلاث آيات ^٣ .

❖ تحديد الآية :

الآية لغة : العلامة أو الدلالة . قال تعالى :

﴿ مَن رَّبِّهِمْ أَيْتَنَّا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت : الآية - ٥٣ .

أما الآية اصطلاحاً : فهي الواحدة من المحدودات في سور القرآن ، وهي علامة أو دلالة على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى عجز من تحداهم ، لذلك فهي دليل معجز . فالآية هي : أصغر الوحدات التي يتألف منها النص القرآني .

^١ - من كثير : تصغر القرآن ج ١/٧ ، الفيثولي ، الاثقان ج ١/٥٢ .

^٢ - التركماني ، الموهبات ج ١/٢٦٣ .

^٣ - صاحب الجواهر ، الشيخ محسن ، الفرائد العوالي على شواهد الأمان لتسليد المرتضى ص ١٥٨ .

❖ كيف تعرف السورة ؟

تعرف السورة بأمر توقيفي من الشارع دون قياس واجتهاد ، حيث تستمد شكلها واستقلالها من النص التشريعي .

كل سورة تبدئ بالبسملة ما عدا سورة براءة . وقد علل علي عليه السلام ذلك بقوله : " إن البسملة أمان ، وهذه السورة نزلت لرفع الأمان بالضعيف ، بعد أن نقض المشركون العهد ، أو هموا بنقضه . فأمر الله تعالى أن تنقض عهودهم ، ويرفع الأمان ، ويجرد السيف . والبسملة جزء من آية / ٣٠ من سورة النمل^١ .

وكل سورة تتألف من آيات تراوح عددها بين ثلاث ، كسورة العصر ، وبين مائتين وست وثمانين كسورة البقرة .

❖ معرفة الآية :

ولا تعرف الآية إلا بالأمر التوقيفي على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فالتوقيف هو وحده مصدر معرفتنا بذلك .

ولهذا فإن " ألم " تعد آية حيث وقعت من السور المفتحة بها كما في سورة البقرة وآل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، حم ، المص أما [طس] و [ق] فليست أي منها آية لعدم ورود نص بذلك . وهذا مذهب الكوفيين ، وغيرهم لم يعتبروا شيئاً منها آية .

❖ ترتيب الآيات والسور :

هناك ترتيب للسور والآيات نزولاً وتدويناً وتلاوة لما بين هذه الأمور الثلاثة من فوارق .

١. أولاً : ترتيب الآيات

١. ترتيب النزول :

وعرفنا مما سبق أن نزول الآيات كان على سبيل التجسيم والتفرق والتدرج ، ورغم ذلك لم يكن هذا النزول كما هو للتابع الخاص المدون في سور المصحف ، قد يكون هناك فصل زمني يطول أو يقصر بين آية وآية حسب مقتضى الحكمة التشريعية الإلهية لتبقى السورة طيلة هذه المدة مفتوحة بانتظار بقية آياتها .

^١ . راجع مسائل فقهية للإمام شرف الدين ، الدكتور إبراهيم بسيوي ص ١٣ .

والذي يمكن ملاحظته أنه خلال ذلك الفاصل الزمني قد يكون نزول الآيات من سورة أخرى حتى إذا اقتضت الحكمة الإلهية ، وظروف البشر إلى تكملة السورة الأولى نزلت بقية أو بعض آياتها .

لكن كيف يمكننا معرفة ترتيب نزول الآيات ؟

إن هذه المعرفة لا تتمّ إلا عن طريق الروايات والنصوص التاريخية ، والشواهد التي قارنت النزول ورافقته ، فليسور والآيات لم تثبت في القرآن على ترتيب نزولها على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلماء الإسلام الماضون ، وخاصة أهل السنة منهم كانوا يعتمدون في ترتيب السور والآيات على ما جاء في الأثر ، ومن جملة الآثار المذكورة بهذا الشأن حديث مروى عن ابن عباس أنه قال^١ : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء ، لكن الحديث يحتاج إلى التأييد القرآني ، لذلك فلا بد من عرض الحديث على القرآن كما ورد في أحاديث عن الرسول وأهل بيته عليهم السلام .

بهذا الاعتبار فإن سبب النزول الوارد حول آية من الآيات إذا لم يكن متواتراً أو قطعيّ الصدور فيجب عرضه على القرآن ، فما وافق مضمونه مضمون الآية يؤخذ به ، وما خالف يطرح جانباً ؛ فلحديث هو الذي يعرض دائماً على القرآن لا القرآن يعرض على الحديث .

وهذه الطريقة تسقط أكثر أحاديث أسباب النزول ، إلا أن الباقي منها يكسب كل الاعتبار والثوق ، ولنعلم أن الأهداف القرآنية العالية التي هي المعارف العالمية لا تحتاج كثيراً أو لا تحتاج أبداً إلى أسباب النزول كما يقول الطباطبائي^٢ .

٢. ترتيب التكوين :

كل آية لها موقعها الخاص بها بين آيات سورتها ، هذا الموقع توقيفي ، يعرف عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

^١ - الامتياز ١٠/١ نداء عن فضائل عمر - لا من صبره .

^٢ - القرآن في الإسلام ص ١٥٨ .

عن جبريل عن الله تعالى :

هذا الترتيب ، وهذا النهج التوقيفي ثابت لا رخصة فيه ولا خلاف بين المسلمين في شأنه ، والمصاحف الشريفة التي بين أيدينا مدونة على هذا الترتيب .
فكلما نزلت آية أو آيات من القرآن كان جبريل يبلغ الرسول ، والرسول يلقي أصحابه وكتبه وحيه بموقع هذه الآية أو الآيات ووجب تدوينها بعد آية كذا ، في سورة كذا ، إن ترتيب السور والآيات والتدوين أمر إلهي توقيفي قطعي بالإجماع .

٣. ترتيب التلاوة :

وكما هو ترتيب الآيات في تدوينها توقيفي فإنه في التلاوة لهذه الآيات كما هو تتابعها في السورة توقيفي . فالتلاوة حسب للترتيب الموضعي هي وحدها المأخوذ بها ، ولا يجوز تلاوة غيرها .

□ ثانياً : ترتيب السور :

١. ترتيب نزول السور :

إن ترتيب نزول السور ليس كما هو ترتيبها في المصاحف ، أول سورة نزلت هي سورة " العلق " في مكة ، وأول سورة في المدينة هي سورة " البقرة " ثم " الأنفال " ، أما آخر السور نزولاً فهي سورة " النصر " التي نزلت في " منى " في حجة الوداع ، وآخر الآيات كانت ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَنِّيكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ للمائدة : الآية - ٣ ، ونزلت بعرفات في حجة الوداع أيضاً .

٢. ترتيب التدوين :

تأمل المصاحف وتوقف عند ترتيب نزول سورها وتدوينها ، فلا شك أنك لتلاحظ الاختلاف الكلي بين ترتيب السور وترتيب التدوين .
فترتيب السور في تدوينها يبدأ بسورة " الفاتحة " وهي مكية مدنية ، ثم سورة " البقرة " التي هي مدنية ، ثم سورة " آل عمران " لينتهي المصحف بسورة " الناس " المكية .

وذهب الباحثون في شأن ترتيب التدوين للسور لمذاهب ثلاثة :

- الأول : يذهب إلى أن هذا الترتيب هو أمر اجتهادي ، قال ابن كثير : فأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ^١ . إن هذا المذهب يرى بأن الرسول قد فوض هذا الأمر إلى أمته بعده .
 - الثاني : وينتهي به الموقف والقرار إلى أن هذا الترتيب توقيفي لا أثر فيه للرأي ، وغير مسموح فيه للاجتهاد .
 - الثالث : هو مذهب التفصيل حيث قال : إن هذا الترتيب منه ما هو توقيفي ، ومنه ما هو اجتهادي وقد اعتمد كل مذهب من هذه المذاهب الثلاثة على أدلة مختلفة ، وروايات متعددة لتدعيم موقفه ، وتقوية نظريته .
- لكن ألا تجد أن اختلاف مصاحف الإمام علي (ع) وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، والإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد في ترتيب سورها ، إن دل على شيء فإنه يدل على أن ترتيب السور لم يكن إلا أمراً اجتهادياً تم على أيدي الصحابة الجامعين ، خلافاً لترتيب الآيات الذي كان توقيفياً وينص متواتر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أثر عنه .

٣. ترتيب تلاوة السور :

وتلاوة السور تأخذ سبيلها إلى إرادة القارئ ومشيبته ، إنها ليست توقيفية كما هو حال التلاوة لتكديات بل للقارئ أن يقرأ من السور ما يشاء ويختار ، ما يتيسر له دون التزام بترتيب معين دل عليه حديث حذيفة وهو في الصحيح أنه عليه السلام قرأ في قيام الليل " البقرة " ثم " النساء " ثم " آل عمران " ^٢ .

ولا ننسى أن للقارئ أن يرتل ما يتيسر له من آيات سورة من السور دون التزام بتكملة تلك السورة ، ولكن على حسب ترتيب آياتها المدونة في المصحف ^٣ .

لماذا تجزئة القرآن إلى سور ؟

ما هي الحكمة الإلهية من جعل القرآن سوراً ؟

^١ - فضائل القرآن ص ١٦ ، وهذا مذهب مالك وإمامي الشافعي ، أنظر هوكشي ، البرهان ج ١ / ٢٥٧ .

^٢ - ابن كثير ، فضائل القرآن ص ٦٤ .

^٣ - القرآن وعلمه ، دبر لمطار : ٦٦ .

جوابنا المباشر على هذين السؤالين هو أن الله في كل شيء حكمة ، لأن الله منزّه عن العينية ، ولطالما شاعت إرادته أن يكون القرآن سوراً لا باباً واحداً فإنه لا بد من القصد والتدبير والحكمة وراء هذا التقسيم القرآني .

ولئن كانت الحكمة الإلهية في كل شيء هي أسرار تختص بعلم الله وحده فإن للعقل إمكانية للتدخل ليبدل ببلوه في هذه الحكمة ، سواء أصابه النجح في تفسيره وتوضيحه أم لم يصبه ، بهذا الاعتبار يمكننا أن نستخلص الحكمة الإلهية من وراء هذا التقسيم القرآني ونردّها إلى الآتي :

١. التعجيز والتحدّي :

إنّ القرآن معجز كلياً وجزئياً : كل سورة من سورته ، بل كل آية من آياته تتحدّى أن يؤتى بمثلها .

إنّ السور القرآنية لا تتساوى بعدد آياتها ، ولا تتكافأ بطولها وقصرها ، وإنّها لمتباينة بموضوعاتها وأساليبها ، وصور فصاحتها ، وضروب بلاغتها ، ورغم ذلك فسورة " الكوثر " بآياتها الثلاث تتكافأ بالإعجاز مع سورة " البقرة " الطويلة . إنّ إعجاز القرآن لا يتوقف على طول السورة أو قصرها ، وليس قصراً على التشريع ، أو القصة ، أو أخبار التاريخ ، أو القضايا العقلية والعلمية ، إنّما كل سور القرآن معجزات طالت هذه السور أم قصرت .

ألا ينهض الإعجاز القرآني أظهر وأقوى حين تكون كل سورة معجزة بسبل أن تكون السور مجتمعة هي المعجزة .

٢. التيسير :

إنّ القرآن سورة سورة أسهل في التلاوة ، وأيسر في الاستظهار وأبعث على استمرار التلاوة والاستظهار من كونه باباً واحداً ، أو متصلاً دون تجزئ .

٣. التشويق :

عن أنس أنه قال : كان للرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فتيّاً . القراء كانوا ذوي اعتزاز لأنهم قراء ، وكان لهم شأنهم لأنهم يحفظون للقرآن آياته وسوره . إنّ الاستظهار للجزئي يحرك الشوق ، ويبعث للرجعة في الاستمرار ، وهكذا يكون الانتقال من سورة إلى سورة بنشاط وشوق .

٤. التوبيخ والتوبيخ :

إنَّ القرآنَ له موضوعاته وأهدافه ، له قضاياها وغاياته ، كل سورة لها بلاغتها ، وكل سورة لها نظمها ، وكل سورة لها صورها وأسلوبها لتتقلب كل سورة لها خصوصياتها وفراستها في الموضوع والأسلوب والهدف ، بل لها معالمها الخاصة ولها استقلاليتها عن سائر السور ، ولها عيبرها للفواح ، وإحساسها الحي .

إنَّ سورة يوسف تترجم عن قصته .

إنَّ سورة المجادلة ضمت كل آية فيها اسمه تعالى .

إنَّ سورة المنافقين تترجم عن سيكولوجية النفاق ، وتوضح مكاند المنافقين ، وتكشف أساليب خداعهم ومكرهم .

وإنَّ سورة التوحيد على قصرها اختصرت تنزيه الله عن أن يكون له شريك أو شبيه أو ولد .

كل سورة لها نكهتها ، وكل سورة لها معطياتها ، ولها فعلها .

❖ أسماء السور وتقسيمها :

١. أسماء السور : لكل سورة قرآنية اسم خاص بها دون سواها ، وفي هذه

التسمية دلالة على موضوع السورة الذي تدرسه ، وغايتها التي تبغي تحقيقها.

وعرفنا مما سبق أنَّ السورة وحدة قرآنية أقصرها تشتمل على آيات ثلاث

كسورة " الكوثر " وأطولها تضم مئتين وستاً وثمانين آية هي سورة " البقرة " .

لكل سورة اسم ، وبعضها يحمل اسمين ، والبعض الآخر يحمل أكثر ، سورة

الفاتحة تسمى " فاتحة الكتاب " و " أم الكتاب " و " السبع المثاني " ومما يفتن :

لإنَّ لهذه السورة نيفاً وعشرين اسماً لشرفها ، وسورة " غافر " قد تسمى سورة

" المؤمن " وسورة " براءة " قد تسمى سورة " التوبة " . قد تسمى السورة

باسم الكلمة الأولى فيها ، كسورة " التوبة " التي تسمى أيضاً سورة " براءة " .

لأنها ابتدأت بهذه الكلمة ، وقد تسمى السورة باعتبار موضوعها كسورة " النساء " التي اهتمت بالنساء من حيث الحقوق والواجبات وكثرة ذكرهن ، وقد

تسمى باسم قصتها ، أو باسم الأحكام التي تفصلها وتشرعها كسورة " البقرة " ،

وآل عمران ، والإسراء والتوحيد . وربما تكون جملة من سورة معرفة لها

١ - راجع : القرآن وعشره ، فادو معيار : ١٧٧ .

كمسورة : " إقرأ " وسورة " إنا أنزلناه " وسورة " لم يكن " وكثيراً ما يكون وصف السورة معرفاً لها كمسورة " فاتحة الكتاب " " وأم الكتاب " " والسبع المثنى " " والإخلاص " بمناسبة اشتغالها على التوحيد للخالص . لعل هذه الأسماء للمسور القرآنية هي أسماء اجتهادية لا توقيفية ، ويبدو ذلك تعدد الأسماء للسورة الواحدة أحياناً .

إن تقسيم القرآن الكريم إلى السور هو تقسيم قرآني كتفسيه إلى آيات ، وقد صرح تعالى في مواضع بلقطة السورة فقال " سورة أنزلناها " النور : الآية - ١ ، و " إنا أنزلت سورة " التوبة : الآية - ٨٦ ، " فأتوا بسورة من مثله " البقرة : الآية - ٢٣ ، إن أسماء ونعوت السور كانت معروفة في الصدر الأول لشهادة الآثار والتاريخ . إن بعض أسماء للمسور وردت في الأحاديث النبوية كمسورة البقرة وآل عمران وهود والواقعة . من هنا يمكننا القول بأن كثيراً من هذه الأسماء تعيينية منذ عهد الرسول لكثرة الاستعمال ، وليس شيء منها توقيفياً شرعياً .

٢. تقسيم السور :

المسورة ، أي سورة ، مؤلفة من عدد من الآيات ، وهذه للمسور منها الطويلة ومنها القصيرة ، منها ذات العدد الكثير من الآيات ، ومنها ذات العدد القليل من الآيات ، وتقسم السور القرآنية باعتبار عدد الآيات إلى :

أ- السبع الطوال :

وسميت بهذا الاسم لأنها أطول سور القرآن ، هذه السور هي : " البقرة " ، " آل عمران " ، " النجم " ، " المائدة " ، " الأنعام " ، " الأعراف " أما المايعة فقليل أنها سورة " يونس " ^١ ، وقيل أنها سورة " الكهف " ^٢ .

ب- العنون :

وسميت لذلك لأن آياتها تزيد على المائة ، وهي أقصر من السور المنبع الطوال ، هذه السور هي : " التوبة " ، " النحل " ، " هود " ،

^١ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ج ٣/١ ، ميسولي : الانعام ، ج ٦٤/١ .

^٢ - آيات سورة " يونس " ١٠٩ وآيات سورة " الكهف " ١١٠ ، ولعل ثمة في أي منها السابعة اعتماداً عند اخبروف لا الآيات ، لذلك اعتبرت سورة " الكهف " هي الأقصر لا " هود " رغم أن كلا منهما مؤلف من ثلاث آيات .

يوسف ، الكهف ، الإسراء ، الأنبياء ، ص
المؤمنون ، الشعراء ، الصافات .

ج- المثاني :

هذه السور التي آياتها أقل من مائة ، وقيل : سميت بهذا الاسم لثنتيها
الأمثال التي تكررت .

د- المفصل :

وهي قصار السور وتبدأ بسورة "الحجرات" وتنتهي بسورة "الناس".
سميت بذلك لكثرة الفصول بين سورها بالبسطة .

❦ عدد سور القرآن وآياته وحروفه :

والتق المسلمون على أن عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ، أولها " الفاتحة "
وأخرها " الناس " كما هي في المصحف العثماني ، ومن جعل سورتي " الأنفال " والتوبة
سورة واحدة عد مائة وثلاث عشرة وتسمى سورنا " الأنفال " والتوبة القريبتين لأنهما لم
يفصل بينهما " بسم الله الرحمن الرحيم " فربما عدّهما الماتون سورة واحدة .

وأما ما يروى على أن مصحف عبد الله بن مسعود فيه مائة وثنتا عشرة سورة فسيب
ذلك أنه لم يدون المعوتتين تشبيه الرقية ثم رجع عن ذلك .

وإن عدد آيات القرآن على طريقة الكوفيّين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب
السلمي عن عليّ (ع) ٦٢٣٦ آية ^١ . وأما عدد حروفه فقد بلغت [٣٢١٢٥٠] حرفاً .

نعل اختلاف العلماء في عدّ الأي والكلم والحروف مرّة إلى أن النبي صلى الله عليه
وآله وسلم ، كان يقف على رؤوس الأي ، وقد لا يقف فينظم السامع بفواصل الأي ، ولما
من حيث الاختلاف في الكلام فإن الكلمة لها حقيقة ومجاز ورسم واعتبار كل منها جائز ، فكل
من العلماء عند الكلام اعتبر أحد الوجوه الجائزة ، كما في [عم] و [مم] و [ييم] ونحوها ^٢ .

^١ - هرفية : أن يستعان بقوى القوى الطبيعية لأمر من الأمور . وأما اعتبر ابن مسعود فمعدّته رقية حرك قبل : إن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها ، وكذا آخرها (ع) على الحسن والحسين عليهما السلام خلفاً جداً من الشرور .

^٢ - وحكي ذلك أبو عمرو وثقاني في كتابه البيان ، أنظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ج ٧/١ ، الزركشي : شرحه ج

٢١٩/١ ، السيوطي : الاقتاد : ج ١ - ٦٦ - ٧٠ .

^٣ - القرآن وعظمه ، الدكتور داود طهطار ، ص ١٨١ .

جمع القرآن وتدوينه

وتنزل القرآن الكريم بفترة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة ، وكان هذا النزول منجماً متفرقاً حسب المناسبة والحاجة ، والروايات المتواترة تذهب إلى أن الجمع القرآني قد تم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كلما كان ينزل قرآن كان كتاب الوحي يدونه على فوره بأمر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة ولم يمض الرسول إلى ربه إلا والقرآن منون ومجموع بكل آياته وسوره حسب ترتيب مصاحفنا التي بين أيدينا .

فما معنى جمع القرآن ؟ ما هي الأدوات التي دون عليها القرآن وجمع ؟ كيف تم هذا الجمع ؟

❖ معاني جمع القرآن :

وتدفع القائلون بتحريف القرآن بمسألة الجمع ، وأنها تستلزم وقوع التحريف والتغيير ، لذلك كان لا مناص من دراسة مسألة " الجمع القرآني " دراسة متمهلة محققة لإزالة شبهة التحريف والتغيير عن القرآن تحقيقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : الآية - ٩] .

ومصدر شبهة التحريف قائم ومستخلص من الروايات التي ترى بأن جمع القرآن كان بأمر من أبي بكر عقب مقتل سبعين رجلاً من القراء في بئر معونة ، وأربعمائة نفر في حرب اليمامة ، فكأن الخوف شديداً من أن يذهب القرآن ضياعاً ، أو تحريفاً ، أو تغييراً إن في الزيادة وإن في النقصان ، فتصدى عمر وزيد بن ثابت لجمع القرآن من العصب والرقاع ، والخاف ، ومن صدور الناس شريطة أن يكون التوثيق بشاهدين على أنه قرآني .

إن هذه الشبهة تقضي بغوات شيء من القرآن على التصدي لهذا الجمع ، وخاصة أنه غير معصوم . أليس شاهداً هذا الغوات لمن يتصدى لجمع شعر شاعر إذا كان هذا الشعر متفرقاً هنا وهناك ؟

أليست هذه المهمة معرّضة للثغرات ، واحتمال التحريف ، وعدم إمكان توفر شاهدين على بعض ما مسموع من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟

وأيّ اللغة بعدم التمييز والتحريف إذا كانت هذه الاحتمالات ، وخاصة حين تختلف الروايات وتتناقض حول هذا الجمع في العهد الذي تمّ فيه هذا الجمع ؟ لذلك لا بدّ من الاحتياط والحذر وعدم الوقوع في الوهم حين قراءة هذه الروايات أو سماعها ، والسماع هو الأضعف بين مختلف المصادر العلمية والمعرفية .

إنّ جمع القرآن له مدلولات مختلفة لدى بعض الباحثين ، لكن بعد التحقيق في الروايات ، وبعد البحث في هذا الشأن يبدو أنّ لفظ " الجمع " قد استخدم وأريد به واحداً من هذه المعاني التالية :

١. حفظه في الصدور ، واستظهاره في لوح القلب ، ومنه يقال لحفاظ القرآن جماعة .
٢. تدوينه على أصوات متوفرة ، كالرقاع ، والعصب ، والأكتاف ، ولكن مفرق الآيات والصور ، أو مرتب الآيات ، مفرق للسور ، وكل سورة على رقعة من الرقاع .
٣. كتابته متسلسل الآيات ، مرتّب السور في مصحف واحد .
٤. نسخه على قراءة واحدة متواترة في مصحف واحد .

لهذه المعاني تطبيقات مختلفة ، وعهد مرّت بها متبينة . من ذلك :

١. إن استظهار القرآن وحفظه تجمّداً في صدر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وصدور أصحابه العشرات والمئات . لقد كان القرآن ما تنزل آية من آياته ، أو سورة من سوره حتى تتحول إلى الصدور محفوظة ، وإلى الألسنة مرندة ، وإلى الصلاة مقروءة وأدعية ، وإلى الحياة العلمية فضيلة وممارسة .
٢. وإنّ المعنى الثاني قد تحقّق في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة كتّاب الوحي وهم قلّة ، واحتفظ به بعض الصحابة ، ووجد عندهم .
٣. أما المعنى الثالث فقد تمّ في عهد أبي بكر ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .
٤. المعنى الرابع فكان تحقيقه على يد الخليفة عثمان .

❖ أدوات التدوين :

واستخدم كتّاب الوحي في تدوين القرآن الأدوات الآتية :

١. الرقاع : جمع رقعة ، وتكون من جلد أو ورق .

٢. الخفاف : [بكسر اللام] جمع لخفة [بفتح اللام] وهي صفائح الحجارة الرقاق .
٣. الأقتاب : جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليحمل عليه، لقد كان هذا الخشب يستخدم لنقل الكتابة عليه .
٤. الأكتاف : جمع كتف ، وهو عظم بعير أو شاة ، وهذا الكتف لا يصلح للكتابة إلا بعد جفافه .
٥. العصب : جمع عسيب ، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص الذي يصلح منه للكتابة عليه هو طرفه العريض ، ومثلها الكرائيف .

وكانت الكتابة معروفة ومنتشرة في مكة إلى حد أبعد مما ذهب إليه النقد الحديث لمدة طويلة ، وقد دوت أجزاء من القرآن على مواد مختلفة متيسرة في بلاد العرب في القرن السابع الميلادي ، كالرقاق والغفار الذي استعمله البابليون والآشوريون للكتابة وعظام الواح الكتف ^١ .

❖ أحاديث جمع القرآن واتجاهاتها :

واختلفت الروايات ، واختلف الباحثون في مسألة جمع القرآن : متى جمع وتوون ؟ من الأمر بذلك ؟

لقد قيل :

١. إن الجمع كان في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن جامعيه كانوا من الكثرة .
٢. إن القرآن جمع في عهد أبي بكر من الصحف المنفرقة ، أو أنه جمع من صدور الرجات بشهادة شهود
٣. إنه جمع في عهد عمر بن الخطاب .
٤. إن ابتداء جمعه كان أيام أبي بكر ، وإتمامه كان في عهد عمر .
٥. إن للجمع لم يكن إلا في عهد عثمان .
٦. وإن الجمع كان على يد علي (ع) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة .

^١ نظم الإلهام ص ٧٣ .

وإذا أردنا الوقوف على الحقيقة في هذا الشأن فما علينا إلا أن نذكر ما ورد في مسألة الجمع من روايات لنحقق فيها ونعقب عليها ، لأن شبهة التحريف القرآني معتمدة على صحة هذه الروايات .

١. روى زيد بن ثابت . قال :

" أرسل إلي أبو بكر يخبرني عن قتل أهل يمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر : إن عمر أثناني ، فقال : إن القتل قد استمر يوم اليمامة بقرآن القرآن ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقرآن بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال عمر : هذا والله خير . فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتتبع القرآن فأجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبع القرآن أجمعه من العصب ، والتخاف ، وصنور للرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة : الآيات - ١٢٨-١٢٩ ، حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر^١ .

٢. وروى ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه :

" أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغاري أهل الشام في فتح أرمينية وأنذربيجان مع أهل العراق ، فأفرع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف

^١ - صحيح البخاري ، باب: جمع القرآن ج ٩ ص ٩٨ .

اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها فيه ثم ردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فلمسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا فصحف في المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أئمة بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .^٣

قال ابن شهاب : " وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال : فقد قرأ أئمة من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ بها ، فائتمناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ، " من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه " ٣٣ : ٢٣ " فالحقناها في سورتها في المصحف .^٤

٣. وروى ابن أبي شيبة بإسناده عن علي ، قال :
 " أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر ، إن أبا بكر من جمع ما بين التوحيين ."
 ٤. وروى ابن شهاب عن سالم بن عبد الله وخارجة :
 أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قراطيس ، وكان قد مال زيد بن ثابت النظر في ذلك ، فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل ، فكانت للكتب عند أبي بكر حتى توفي ، ثم عند عمر حتى توفي ، ثم كانت عند حفصة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليها عثمان فأبى أن تدفعها ، حتى عاهدوا ليرتتها إليها فبعثت بها إليه فنسخ عثمان هذه المصاحف ثم ردها إليها فلم تزل عندها .^٥

٥. وروى هشام بن عروة عن أبيه ، قال :
 " لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، فقال : اجلسا على باب المسجد فلا يأتينكما أحد بشيء من القرآن تنكرانه يشهد عليه رجلاًن إلا أثمتاه ، وذلك لأنه قتل باليمامة ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جمعوا القرآن ."

^٣ صحيح البخاري ج ٦ ص ٩٩ ، وهاتان الروايتان وما بعدهما إلى الرواية الحادية والعشرين المذكورة في منتخب كسر العمام هاشم مسند أحمد ج ٢ ص ٤٣-٥٢ .

٦. "وروى محمد بن سيرين ، قال : قتل عمر ولم يجمع القرآن " .
 ٧. "وروى الحسن : أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله ، فقيل كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة . فقال : إنا لله ، وأمر بالقرآن فجمع فكان أول من جمعه في المصحف " .

٨. وروى يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب . قال :
 "أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من القرآن فليأتنا به ، وكانوا كتبوا ذلك في المصحف ، والأكواح ، والعصب ، وكان لا يقبل عن أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ، فقتل وهو يجمع ذلك إليه ، فقام عثمان ، فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به ، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان فجاء خزيمه بن ثابت ، فقال : إني قد رأيتمكم تركتم آيتين لم تكتبوهما ، قالوا : ما هما ؟ قال : تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
 "قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم " .

إلى آخر السورة ، فقال عثمان : وأنا أشهد أنهما من عند الله ، فابن نرى أن نجعلهما ؟ أختم بهما آخر ما نزل من القرآن ، فختمت بهما براءة " .

٩. وروى عبيد بن عمر ، قال :
 "كان عمر لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان ، فجاء رجل من الأنصار بهاتين الآيتين : "لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها ، فقال عمر : لا أسألك عليها بيعة أبداً ، كذلك كان رسول الله " ١ .

١٠. وروى سليمان بن أرقم ، عن الحسن وابن سيرين ، وابن شهاب الزهري . قالوا :
 "لما أسرع القتل في قراءة القرآن يوم اليمامة قتل منهم يومئذ أربعماية رجل ، لقي زيد بن ثابت عمر بن الخطاب ، فقال له : إن هذا القرآن هو الجامع لديننا ، فإن ذهب للقرآن ذهب ديننا ، وقد عزمتم على أن أجمع القرآن في كتاب . فقال : انتظر حتى أسأل أبا بكر ، فمضيا إلى أبي بكر فأخبراه بذلك . فقال : لا تعجل

١ - "تراوحت التي نقلها عن الشَّحْب مذكورة في كسرة عثمان " جمع القرآن " قطعة ثانية ج ٢ ص ٣٦١ هذه الرواية ، ولكن بحسب الرواية عن يحيى بن محمد .

حتى تُشاور المسلمين ، ثم قال خطيباً في الناس فأخبرهم بذلك . فقالوا : أصبت ، فجمعوا القرآن ، فأمر أبو بكر منادياً ، فنادى في الناس : من كان عنده شيء من القرآن فليجي به * .

. وروى خزيمة بن ثابت ، قال :
" جئت بهذه الآية : لقد جاء رسول من أنفسكم ... إلى عمر بن الخطاب ، وإلى زيد بن ثابت . فقال : زيد من يشهد معك ؟ قلت : لا والله ما أدري . فقال عمر : أنا أشهد معه على ذلك * .

. وروى أبو اسحق عن بعض أصحابه ، قال :
" لما جمع عمر بن الخطاب المصحف سأل من أعراب الناس ؟ قيل : سعيد بن العاص . فقال : من أكتب الناس ؟ فقيل : زيد بن ثابت . قال : فليمثل سعيد ، وليكتب زيد . فكتبوا مصاحف أربعة ، فأخذ مصحفاً منها إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، ومصحفاً إلى الشام ، وترك مصحفاً في المدينة * .

. وروى عبد الله بن فضالة ، قال :
" لما أراد عمر أن يكتب الإمام أقعد له نفرأ من أصحابه ، وقال : إذا اختلفتم في اللغة فاكتبوها بلغة مضر ، فإن القرآن نزل على رجل من مضر * .

. وروى أبو قلاية ، قال :
" لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم ليعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل العلماء يلتقون ويختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كثر بعضهم بقراءة بعض ، فبلغ ذلك عثمان فقام خطيباً فقال : انتم عندي تختلفون وتلحنون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً ، وأشدّ لحناً ، فاجتمعوا فقال : يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً . قال أبو قلاية : فحسبني مالك بن أنس . قال أبو بكر بن أبي داود : هذا مالك بن أنس جدّ مالك بن أنس . قال : كنت فيمن أمني عليهم فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقّاها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمّله أن يكون غائباً أو في بعض البوادي ، فيكتبون ما قبلها وما بعدها ، ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل إليه ، فلما فرغ من المصحف كتب إلى أهل الأمصار أنني قد صنعت كذا ، وصنعت كذا ، ومحوت ما عندي ، فامحوا ما عنكم * .

١٥. وروى معصب بن سعد ، قال :

" قام عثمان يخطب الناس . فقال : أيها الناس ، عهدكم ببنيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن تقولون قراءة أبيّ أو قراءة عبد الله ، يقول للرجل والله ما نقيم قراءتك ، فاعزم على كل رجل منكم كان معه من كتاب الله شيء لما جاء به ، فكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن ، حتى جمع من ذلك كثرة ، ثم دخل عثمان ودعاهم رجلاً رجلاً ، فناداهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو أملاه عليك فيقول : نعم ، فلما فرغ من ذلك عثمان ، قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ، فكتب زيد ، وكتب مصاحف ففرقها في الناس ، فسمعت بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول : قد أحسن " .

١٦. وروى أبو المليح ، قال :

" قال عثمان بن عفان حين أراد أن يكتب المصحف ، تملّي هنيل ، وتكتب تعقيف " .

١٧. وروى عبد الأعلى بن عبد الله بن عبد الله بن عامر القرشي ، قال :

" لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه . فقال : قد أحسنتم وأجملتم ، أرى شيئاً من لحن ستقيمه العرب بالسنتها " .

١٨. وروى عكرمة ، قال :

" لما أتى عثمان بالمصحف رأى فيه شيئاً من لحن ، فقال : لو كان المملي من هنيل والكاظم من تعقيف لم يوجد فيه هذا " .

١٩. وروى عطاء :

" أن عثمان بن عفان لما نسخ القرآن في المصاحف ، أرسل إلى أبيّ بن كعب فكان يملّي على زيد بن ثابت ، وزيد يكتب ، ومعه سعيد بن العاص يعربه ، فهذا المصحف على قراءة أبيّ وزيد " .

٢٠. وروى مجاهد :

" إن عثمان بن عفان أمر أبيّ بن كعب أن يملّي ، ويكتب زيد بن ثابت . ويعربه سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث " .

٢١. وروى زيد بن ثابت :

" لما كتبت المصاحف فكتبت آية كنت أسمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوجدتها عند خزيمة بن ثابت : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله

عليه ... الى تبديلا . وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين أجاز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهادته بشهادة رجلين ^١ .

٢٢. وقد أخرج ابن أثنه عن الليث بن سعد ، قال :

"أول من جمع القرآن أبو بكر ، وكتبه زيد ، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت ، فكان لا يكتب أية إلا بشهادة عدلين وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت . فقال : أكتبوها ، فإني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين ، فكتب وإن عمر أتى بأية الرّجم فلم نكتبها لأنه كان وحده ^١ .

هذه هي أهم الروايات التي وردت في كيفية جمع القرآن ، ورغم أنها أحاد ولا تقيننا علما فإنها مخدوشة ومشبوهة ومتناقضة .

يستنتج من هذه الروايات الاثنين والعشرين بعد ضمها بعضها إلى بعض أنها روايات متضاربة متناقضة ، وبقليل من التأمل لهذه الروايات نلاحظ أن لجمع القرآن من خلالها تاريخاً متناقضاً ، لقي بتبعته على القرآن ، وللقرآن الكريم منزّه عن أن ينال منه تعارض روايات ، وتداخل أهواء . إنه الكتاب الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " وإنه الكتاب المحفوظ كما نزل ، والسالم كما أوحى " إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون " .

إن هذه الروايات تنتهي إلى نتائج متضاربة وغير متوافقة ، وتسفر عن تاريخ لجمع القرآن متناقض ومثير للاستغراب والاستكار ، هذه الروايات تقضي بالآتي :

١. إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قضى القرآن مدون كله على الأدوات المتوفرة في ذلك العهد ، كالعصب واللخاف والرقاع والأكتاف ، ولكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه لم يجمعه في مصحف واحد . وحين استمرّ لقتل بالقرءاء بعد معركة اليمامة في السنة الثانية للهجرة ارتاع أبو بكر ، وأسرع يستشير عمر ويتداول معه الأمر في هذا الشأن ، فقرأ معاً جمع القرآن من الصحف إلى المصحف ، أو من العصب واللخاف والأكتاف إلى المصحف ، وكثفا بالمهمة زيد بن ثابت . من الروايات ما تذهب إلى أن أبا بكر قد مارس تأليف الرقاع التي كان القرآن مدوناً عليها ، واستنسخ عنها مصحفاً كاملاً ومنسقا ومرتباً .

^١ - الانتداب للع ١٨ ج ١ ص ١٠١ . هذه الروايات كلها منقولة عن كتاب : البيان للإمام بخاري ص ٢٥٨ - ٢٦٥ .

فبعثنا كثر القتل بالقراء واستمر في معركة اليمامة عند قتال مميلمة الكذاب قاتل عمر لأبي بكر : 'إن حملة القراء قد قتل أكثرهم يوم اليمامة ، فلو جمعت القرآن ، فبأنى أخاف عليه أن يذهب حملته . فقال : أبو بكر أفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فلم يزل عمر حتى جمعه وكتبه في صحف وكان مقرئاً في الجريد غيره ^١ .

ويبتدى في هذه الرواية أن أبا بكر قد أشكل على عمر توحيد الرقاع حيث لم يتم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بل ترك الرسول القرآن متوناً ولكن مفرقاً بين تلك الرقاع وغيرها .

٢. إن عمر بن الخطاب كان أول من جمع القرآن بعد أن سأل عن أية فلم يجب عليها ، ونهض بالمهمة زيد بن ثابت .

٣. إن أبا بكر قد مضى ، وإن عمر قد قتل ، ولم يكن القرآن قد جمع ، والمسلمون على كثير من الارتباك والفوضى من شريعتهم وكتبهم ، فجاء عثمان وجمع القرآن في مصحف تارة ، ووحد المصحف تارة أخرى .

والذي يروى أن المسلمين بالرغم من جمع القرآن في مصحف واحد ، فقد استمروا بقراءته بقرآن مختلفة لاختلاف ألسنتهم ، من جملة هذا الاختلاف هو الاختلاف في الحركة الإعرابية . الأمر الذي حمل حذيفة بن اليمان [ت ٣٦ هـ] بعد عودته من فتح بلاد أرمينية وأنذربجان مع أهل العراق ، أن يمرح إلى الخليفة عثمان ، وذكره بمنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الاختلاف في القرآن بقوله .

أدرك هذه الأمانة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ^٢ . وما أكثر الروايات التي تذكر أسباباً مختلفة لتوحيد المصحف .

وحقق عثمان القراءة الواحدة للقرآن وجمع المسلمين عليها ، هذه القراءة هي التي كانت متداولة بين المسلمين ، وهي التي تلقاها المسلمون بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن عثمان منع سائر القراءات الأخرى القائمة على أحاديث نزول القرآن على

^١ - شافعي ، تاريخه ج ١ / ١٢٥ ، البروكشي : الوهمان : ج ١ / ٦٢٢ ، تفسير : الإبانة ص ٢٤ .

^٢ - ابن كثير ، فضائل القرآن ص ١٠ " البروكشي : الوهمان ج ١ / ٢٣٦ ، تفسير : الإبانة ص ٢٧ .

سبعة أحرف ، وإنه أحرق المصاحف أو أنلقها ، عدا المصحف الذي اختاره واستخدمته لجنة زيد بن ثابت وغيرها ^١ .

هذا العمل من عثمان لم يستكره أحد من المسلمين ، وذلك لأن الاختلاف في القراءة كان يؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين ، وتمزيق صفوفهم ، وتقريق وحدتهم ، بل كان يؤدي إلى تكفير بعضهم بعضاً ، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم قد منع عن الاختلاف في القرآن ، ولكن الأمر الذي انتقد عليه هو إحراقه لبقية المصاحف ، وأمره أهالي الأمصار بإحراق ما عندهم من المصاحف ، وقد اعترض على عثمان في ذلك جماعة من المسلمين ، حتى سموه بحرق المصاحف ^٢ .

وفي كلام لابن طائوس في كتاب [سعد السعود] أن عثمان عاد وجمع المصحف برأي علي ، وهذا يوافق ما ذكره الشهرستاني في مقمته تفسيره برواية سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : أيها الناس إياكم والغلو في أمر عثمان ، وقلوكم حرق القرآن فواشه ما حرقها إلا من ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، جمعنا وقال : ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها : يلقي الرجل الرجل ، فيقول قراعتي خير من قراعتك ، وهذا يجزئ إلى الكفر ، فقلنا بالرأي ، قال أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد ، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً ، فقلنا نعم ما رأيت : فأرسل إلى زيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص قال : يكتب أحكما ويملي الآخر ، فلم يختلفا في شيء إلا في حرف من سورة البقرة فقال أحدهما : [التابوت] وقال الآخر [التابوه] ، واختار قراءة زيد بن ثابت لأنه كتب الوحي ^٣ .

وإنه لعمل جليل حققه عثمان بتوحيد المصاحف من حيث اختاره ما تواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلغاء سائر القراءات ، إن عثمان لم ينسق سور القرآن وآياته ولم يرتبها بين لوحين كما فعل الإمام (ع) .
لإن عثمان لم يقصد قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين اللوحين ، وإنما قصد جمعه على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلغاء ما ليس كذلك ^٤ .

^١ - البيان : الحرفي ص ٢٧٧ .

^٢ - انصاري ص ٢٧٧ .

^٣ - انصاري : تدوين القرآن ص ٦٨ .

^٤ - الترمذاني ج ٢٣٥/١ ، الاتقان ، ج ٦٠/١ .

وقال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي :

" المشهور عند الناس أن جامع القرآن هو عثمان ، إنما حمل عثمان على قراءته برحه واحد ، على اختيار وقع بينه وبين من شهره من المهاجرين والأنصار فتم توحيد الناس على مصحف موحد على العريضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر رمضان من عمره ، فإنه عارضه به يومئذ مرتين^١ ، والحق يقال إن أهم ما قام به عثمان من أعمال هو جمع الناس على حرف واحد حيث قطع دابر الفتنة والخلاف ، وفي ذلك الجراءة كل الجراءة حيث تحدى بها كثيراً من الصعوبات ، وحل بها كثيراً من الإشكالات .

يقول طه حسين :

" وليس من شك في أن ما أقدم عليه عثمان من توحيد المصحف ، وحسم هذا الاختلاف ، وحمل المسلمين على حرف واحد أو لغة واحدة ، يقرؤون القرآن ، عمل فيه كثير من الجراءة ، ولكن فيه من النصيح للمسلمين أكثر مما فيه من الجراءة ، فلو قد ترك عثمان الناس يقرؤون القرآن قراءات مختلفة بلغات متباينة في ألفاظها ، لكن هذا مصدر فرقة لا شك فيها ، ولكان من المحقق أن هذه الفرقة حول الألفاظ ستؤدي إلى فرقة حول المعاني بعد أن كان الفتح ، وبعد أن استعرب الأعاجم ، وبعد أن أخذ الأعراب يقرؤون القرآن " .

إن عثمان قد جمع القرآن لكن لا بمعنى أنه جمع الآيات والصور في مصحف بل بمعنى أن جمع المسلمين على قراءة إمام واحد ، وأحرف المصاحف الأخرى التي تختلف مصحفه وكتب إلى البلدان أن يحرقوا ما عندهم منها ، ونهى المسلمين عن الاختلاف في القراءة^٢ .

وحين تم إقرار المصحف الإمام واستنسخت المصاحف وسيرت إلى الآفاق ، وكان ذلك في سنة خمس وعشرين من الهجرة النبوية ، اطمأن عثمان إلى صنيعة ، وعمد إلى توثيقه وفرد به صيغتين :

- الأول : إرسال من يثق المسلمون بحفظه وإقرائه مع مصحف كل إقليم بما يوافق قراءته ، وكان ذلك موضع اهتمام في أشهر الأقاليم .

^١ - السمرقاني : الألفاظ . من كتب : فضائل القرآن ص ١٠ .

^٢ - المصنف : تاريخ المصنف . ج ١ / ١٦٠ .

- الثانية : أمر بحرق كل مصحف أو صحيفة غير المصحف الإمام .

لكن هذا الإحراق كان مدعاة للنقد ، ومناسبة للتشهير به . قال الخوئي :
" ولكن الأمر الذي انتقد عليه هو إحراقه لبقيّة المصاحف ، وأمره أهالي الأمصار بإحراق ما عندهم من المصاحف ، وقد اعترض على عثمان في ذلك جماعة من المسلمين حتى عدّه بحراق المصاحف " ^١ .

وكان لظه حسين على ذلك تعقيب بقوله :

" وربما تحرّج بعض المسلمين من تحريق ما حرق عثمان من المصحف ، ولم يقبلوا اعتذاره لحسم الفتنة ، وقطع الخلاف ، ولو قد كنت الحضارة تقدّمت بالمسلمين شيئاً لكان من الممكن أن يحتفظ عثمان بهذه الصحف التي حرقها على أنّها نصوص محفوظة لا تتاح للعامة ، بل لا تكاد تتاح للخاصة ، وإنّما هي صحت تحفظ ضمناً بها على الضياع . ولكن المسلمين لم يكونوا قد بلغوا في ذلك العصر من الحضارة ما يتيح لهم تنظيم المكتبات وحفظ المحفوظات ، وإذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل من جهة الدين ولا من جهة السياسة ، فقد يكون لنا أن نأسي لتحريق تلك الصحف ، لأنّه إن لم يكن قد أضاع على المسلمين شيئاً من دينهم فقد أضاع على العلماء والباحثين كثيراً من العلم بلغات العرب ونهجاتها ، على أن الأمر أعظم خطراً وأرفع شأناً من علم العلماء ، وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات " ^٢ .

وهكذا ، فالمصحف العثماني يقيناً هو النصّ القرآني الوحيد الذي أجمع عليه المسلمون وعملوا به في كل أقطار الدنيا ، بل هو الكتاب المقدّس الوحيد الذي كانت له الرعاية وبه العناية ، وكان نقله بالتواتر للقطني عبر الأجيال .

عدد مصاحف عثمان :

أمّا المصاحف العثمانية التي استنسخها بعد توحيد الناس على قراءة واحدة ، والتي فرّقها في الأمصار ليكون الاعتماد عليها فقد اختلف في عددها .

الأشهر أنّها خمسة كما ورد في إبتقان السيوطي .

أبو عمر الداني في كتابه " المفتع في رسم القرآن " قال :

^١ بيان ، ص ٢٥٨ .

^٢ الفتنة الكبرى ١٨٣/١ وما بعدها .

أكثر العلماء على أن عثمان كتب المصاحف وجمعها على أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدة : الكوفة ، البصرة ، الشام ، وترك واحدة عنده ^١ .

وقال اليعقوبي :

" إن عدد المصاحف المستنسخة تسعة ، قال وبعث بها إلى الأمصار ، وعند الكوفة ، والبصرة ، والمدينة ، ومكة ، ومصر ، والشام ، والبحرين ، واليمن ، والجزيرة ^٢ .

والجزري ذكر أنها ثمانية ، قال :

" فكتب منها عدة مصاحف ، فوجه بمصحف إلى البصرة ، ومصحف إلى الكوفة ، وترك مصحفاً بالمدينة ، وأمسك لنفسه مصحفاً الذي يقال له الأم ، ووجه بمصحف إلى مكة وبمصحف إلى اليمن ، وبمصحف إلى البحرين ^٣ .

وقال ابن أبي داود :

" سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ^٤ .

ومما يثير الانتباه أن عثمان أرسل مع كل نسخة إقليم حافظاً قارئاً يوافق قراءته وذلك لضمان توحيد القراءات بين المسلمين على الوجه المختار ، وعلى سبيل التواتر ، فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرئ المصحف المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ المصحف الشامي ، وأبو عبد الرحمن الملمي مقرئ المصحف الكوفي ، وعامر بن عبد الرحمن مقرئ المصحف البصري .

وكيفما انقلب الأمر فالمصاحف العثمانية التي نشرها عثمان في الأمصار ، وعممها على العواصم ، كانت خلواً من التعارض والتناقض ، بل كانت على تطابق تام ، وتمثل كفي . لقد كانت هذه المصاحف على غير زينة أو نقصان ، وكانت منقولة عن النبي نقلاً متواتراً ، وتمثلت على مائة وأربع عشرة سورة .

^١ - مقتلة هكوى ، ١٨٢/١ .

^٢ - الخولي ، الباب ص ٢٥٨ .

^٣ - ابن الجزري : النشر في القراءات العشر ج ١/٧١ .

^٤ - كتاب المصاحف ، ابن أبي داود ص ٣٤ .

لقد كانت تلك النسخ على غير تنقيط وتشكيل ونقوش ، كما كانت خالية من أسماء السور والافواصل . أمّا كيف انتهت تلك المصاحف وكيف كان مصيرها ، فإن ذلك مجهول . وإن ذلك على غير جلاء . لكن ابن كثير [ت ٧٧٤] قد شاهد مصحف الشام ، يقول :

« أمّا المصاحف العثمانية ، فأنشدها اليوم في الشام بجامع دمشق عن الركن ، ترقى المقصورة المعسورة بذكر الله ، وقد كان قديماً بمدينة طبرية ، ثم نقل منها إلى دمشق فسي حدود سنة [٥١٨ هـ] ، وقدر آيته كتاباً عزيزاً جليلاً عظيماً بخط حسن مبين قوي بحبر محكم ، في رقّ أظنه من جلود الإبل * » .

وفي مكتبة الإمام الرضا على بن موسى عليه السلام في خراسان نسخ من القرآن الكريم يعتقد أو يحتمل أنها بخط الإمام علي عليه السلام ومائل أنبأه الأئمة المعصومين (ع) .

قال الزنجاني :

« ورأيت خمسة شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٣ هـ في دار الكتب العلوية في النجف ، مصحفاً بالخط الكوفي كتب على آخره : كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة^١ وقال أيضاً مصحف الشام رآه ابن فضل الله العمري في أواسط القرن الثامن الهجري ، فهو يقول في وصف مسجد دمشق : [وإلى جانبه الأمير المصنف العثماني] ويظن قوياً أن هذا المصحف هو الذي كان موجوداً في دار الكتب في ليننغراد وانتقل إلى انكلترا^٢ لكن التحقيق لم يظهر بحصينة يضمن إليها بوجود المصحف في المتحف البريطاني^٣ .

هناك مصاحف عدة في دار الكتب المصرية ، مكتوبة بالخط الكوفي ، ولكن الزخارف والنقوش توحي بأنها لا علاقة لها بأية نسخة من المصاحف العثمانية . وبعد أن قضى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تحصيل المسلمون بالقرآن إلى الصنور وإلى السطور تبركاً به وإيماناً ، صلاة به ودعاء ، حفاظاً عليه ، وخشية ضياعه ، وصوناً له من تحريف إن زيادة وإن نقصاناً .

^١ - القرآن وعظيمه ، د. دود المطاط ص ١٦٦ .

^٢ - تاريخ القرآن ، ص ٦٨ .

^٣ - الزنجاني : تاريخ القرآن : ٦٧ .

واستظهره المسلمون واستنسخوه ليكون في كل جيل الألوف المؤنفة من المصاحف والحفّاط والقراء والنساخ . لقد كانت دائماً ألوف المصاحف هي الرقبة على الحفّاط ، وعلى المشبهين ، وكان ألوف الحفّاط هم الرقباء على نسخ المصاحف .

شهادات وتناقض روايات :

لم يكن من التواتر ودقة النقل ما كان للقرآن .
ثم يكن لكتابت من أسباب الحرص على صيانه ووسائل العمل على حفظه كما انتقل للقرآن .
وليس لك أن تعجب لذلك .

أليس محمد صلى الله عليه وآله وسلم آخر حلقة في سلسلة الأنبياء ؟
أليس القرآن هو خاتم الكتب السماوية ، وهو الرسالة الرحمة للعالمين ؟

إن الله صادق بوعدده ، ومنجز لإرادته ، وقال تعالى :
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر : الآية - ٩ .

" وليست كهذه حال العهد القديم - التوراة - الذي لم تعترف له بالصحة الدراسة النقدية للمُترّاح المحدثين ، فيما عدا واحداً من كتبه هو كتاب " أرمياء " .
وليس العهد الجديد - الإنجيل - بأبعد حالاً ، فقد ألغى مجمع أساقفة نيقية كثيراً من أخباره ، ممّا زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأناجيل .

وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصحاح ، لأنّ النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن ، أي بعد عصر الحواريين الذين تنسب إليهم التعاليم المسيحية . وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية " ١ .

لقد كان المستشرق ' لوبلو ' موضوعياً حين أكد بقوله :
" إن القرآن هو اليوم الكتاب الربّاني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر " ٢ .

وقال السيد ولیم مویر :

١ - النظارة القرآنية ص ١٠٨ .

٢ - محمد عبد الله دراز ، ناسخ إلى القرآن الكريم ص ٤٠ وانظر ص ٤٠ .

سب الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد إلى يد حتى وصل إلينا به
أي تحريف ، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر ، بل نستطيع
نقول: أنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ الذي لا حصر لها ، والمتداولة في
البلاد الإسلامية الواسعة ^١ .

وحسب القرآن في سلامته أن يشهد به أعداؤه ، وكلنا يعلم أن الفضل ما شهدته به
الأعداء ، إن الحق يفرض حضوره وذاتيته وموضوعيته أحياناً .

تناقض روايات الجمع :

وإذا كان لنا وقفة مثالية لزاء روايات الجمع فلا شك ولا ارتياب بأننا سنخلص إلى
نتائج تقضي بأن هذه الروايات نفي تناقض ظاهر وتعارض واضح . وقد كفانا السيد الخوئي
مونة الخوض في دراسة هذه الروايات الواردة في صحيح البخاري ، ومسنده أحمد ، وكنز
العسل ، وماتخب كنز العمال ، والانتان للسيوطي . هذه الروايات التي عَقِبَ عليها للسيد
الخوئي بلغت اثنتين وعشرين رواية . تبدو عيوب هذه الروايات في دراسة السيد الخوئي في
الأسور التالية :

- ١ . التناقض في تحديد العهد الذي تم فيه جمع القرآن مترتداً بين عهود أبي بكر ،
عمر ، عثمان ، ومن هو المتصدي لذلك ؟
هل هو أبو بكر ، أو عمر ، أو زيد بن ثابت ؟
هل بقي من الآيات ما لم يحوز إلى زمن عثمان ؟
من الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن ؟
ومتى ألحقت بعض الآيات في القرآن ، وبماذا ثبت ذلك ، وهل يكفي ذلك لتواتر
القرآن ؟ ^٢

- ٢ . وكان من السيد الخوئي معارضة هذه الروايات بروايات أخر تثبت أن جمع القرآن
قد تم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً فيها إلى منتخب كنز
العسل ، وصحيح البخاري ، وإنتان السيوطي ، وقد اعتبر التمهّل بأن المراد من
الجمع في هذه الروايات هو الجمع في المصنوع لا السطور ، دعوى لا دليل عليها
لأن الحفاظ والقراء كانوا على كثرة ، بل أكثر من أن يحصوا ^٣ .

١ - محمد عبد الله دراز ، أدب إلى القرآن الكريم ، ص ٤٠ وانظر مصدرو .

٢ - الخوئي ، البيان ١١٧ - ١٤٩ .

٣ - نفسه ، ٢٩٩ - ٢٥١ .

٣. إن القول بأن جمع القرآن قد تمّ بغير عهد الرسول هو معارض لكتاب الله ، ومخالف لحكم العقل ، ومناقض صريح لإجماع المسلمين بأن القرآن لا سبيل لإنشائه إلا التواتر .
هذه الروايات لا بدّ من طرحها وردّها لأنّها تقول بنبوت القرآن بغير التواتر ، وهذا يعتبر على بطلان بإجماع المسلمين ^١ .

٤. ذهب السيد الخوئي إلى أن القول بروايات الجمع قد تحقّق بعد وفاة النبيّ يؤدّي إلى القول بالتحريف ، لأنّ للجمع على هذا السبيل يكون قابلاً للزيادة وقابلاً للتقصّر ^٢ .

٥. وأقرّ السيد الخوئي جمع عثمان للقرآن لا بصورة الجمع ثلثت والمصور في مصحف ، إنما بصورة أن عثمان قد جمع المسلمين على قراءة إمام واحد ، وهذا العمل من عثمان لم ينتقد عليه أحد من المسلمين ، وذلك لأنّ الاختلاف في القراءة، كان يؤدّي إلى الاختلاف بين المسلمين وتمزيق صفوفهم ، وتفريق وحدتهم، بل كان يؤدّي إلى تكفير بعضهم بعضاً ، النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد منع الاختلاف في القرآن ^٣ .

إنّ الذي يثير الانتباه ، ويلفت للنظر بأسباب الاعتقاد بأنّ أبا بكر قد جمع القرآن في مصحف ، هو مصير هذا القرآن المجموع ، فليس بين أيدينا رواية واحدة تتحدث عن هذا القرآن بأنّه قد جمع للمسلمين ، أو جعل قيد الاستعمال ، أو استنسخ منه ولو نسخة واحدة إلى مكة مثلاً ، وهي حرم الله ، وقد بقي هذا الحرم فيما يزعم دون قرآن يقرأ ، أو يتعلّم أو ينظر فيه ^٤ .

ولئن صحت روايات الجمع هذه فلماذا لا يكون قد جمع قرأناً في مصحف خاص به دون غيره كما جمع غيره من الصحابة ؟
لماذا لم يوزّع أبو بكر نسخاً من هذا المصحف على الأمصار كما فعل عثمان فيما بعد وخاصة أنّ المسلمين يحتاجون القرآن في عباداتهم ومعاملاتهم اليومية ؟

^١ - الخوئي ، أعيان ، ٢٥٢ - ٢٥٦ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٢٥٧ .

^٣ - أعيان ، السيد الخوئي ص ٢٥٨ .

^٤ - تاريخ القرآن ، د. محمد الصنع ص ٨٦ .

ولو قيل بأن حياة أبي بكر لم تكن بالطويلة ، فلماذا لم ينفذ هذه المهمة عمر ؟
والذي هو أكثر غرابة أن أحداً لم يستسخ من هذا القرآن شيئاً في عهد أبي بكر
وعمر . يقول دراز :

" ولكن رغم قيمة هذا المصحف العظيمة ، ورغم ما يستحقه من العناية التي بذلت في
جمعه . فإن مجرد بقاءه محفوظاً بعناية عند الخليفين الأولين أسبغ عليه الطابع الفردي أو
الشخصي بعض الشيء ، ولم يصبح وثيقة للبشر كافة إلا من يوم نشره ولكن فرصة نشره لم
تتح إلا في خلافة عثمان بعد معارك أرمينية وأذربيجان " ^١ .

ويضيف دراز قائلاً بأن مصحف أبي بكر يرجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وآله
وسلم :

" لا يفتونا أن ننبه هنا إلى أن آيات مصحف حفصة لا ترجع إلى الخليفة الأول ،
وإنما ترجع بنصها الكامل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " ^٢ .

وقد صرح الحاكم في مستدركه أن هذا الجمع كان في المصحف لا في المصحف يقول :
" فكانت المصحف عند أبي بكر ، حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة
بنت عمر " ^٣ .

وكيفما انقلب الأمر ، فالذي أورده ابن حجر استناداً على صحة بعض الروايات في
شأن الكتابة واضح وصريح ، يقول :
" ولم يأم أبو بكر إلا بكتابة ما كان مكتوباً " ^٤ .

ومما يروى عن ابن شهاب أنه قال :
" إن أبا بكر الصديق كن جمع القرآن في قرطيس ، وقد سأل زيد بن ثابت النظر في
ذلك ، فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل " ^٥ .
ليست هذه الرواية تفيد الاستساح ، وأن أبا بكر قد طلب من زيد الذي هو أحد كتّاب
الوحي ، أن يراجعه وينظر فيه لتأكيدهِ وتقويمه ؟

^١ - د. محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٨ .

^٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٦ .

^٣ - الألفان ، ج ١ / ١٦٥ .

^٤ - ابن حجر ، فتح الباري ، ١٣ / ٩ .

^٥ - إمامي ، ص ٢٤٤ وانظر مقدمه .

- أنظر إلى التعارض في روايات الجمع حين تعتبر بعضها أن الجمع قد تم في عهد عمر لا في عهد أبي بكر . لقد سأل عمر يوماً عن آية من كتاب الله ، فقيل : كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة ، فقال : إنا لله ، ثم أمر بالقرآن فجمع ، فكان أول من جمعه في المصحف^١ .

وقال ابن اسحق في رواية أخرى :

"لما جمع عمر بن الخطاب المصحف"^٢ .

هذا التعارض الواضح في روايات الجمع هو الذي حمل بعض المستشرقين على الشك في روايات جمع أبي بكر ليقولوا بروايات الجمع العمري .

من هؤلاء المستشرقين الذين ذهبوا هذا المذهب "شواللي" و "بروكلمان" القائِل :
 "ومما يحتمل كثيراً من الشك ، ما ذكرته الرواية من أن معركة اليمامة الحاسمة مع مسيلمة سنة ١٢ هـ / ٦٦٣ م التي قتل فيها عدد كبير من قراء الصحابة هي التي قدّمت الدّاعي إلى جمع القرآن ... على أن الخليفة عمر هو الذي أمر زيد بن ثابت - وكان شاباً مدينياً كتب كثيراً للنبى - أن يقوم بجمع القرآن ، وكتابات الوحي ، وبقي هذا المجموع في حوزة عمر ، ثم ورثته حفصة ، ولعل هذا المجموع الأول كان صحفاً متناثرة "^٣ .

روايات غريبة :

وأكثر الروايات غريبة ما أخرجه بن أشته حين قال :

"مات أبو بكر ولم يجمع القرآن ، وقتل عمر ولم يجمع القرآن "^٤ .

- لعل هذه الروايات ، والأخذ بها على تعارضها وتناقضها ، سواء كان ذلك الأخذ من المستشرقين ، أم من غيرهم ، إن ذلك يقضي بأن القرآن قد تناولته يد التحريف ، لأنه قد مرت عليه عهود دون أن يتوّن ، وإمّا كان تدوينه اعتماداً على نصوص غير موثقة ، بل قد تكون متعاضدة أو ناقصة أو ممزقة ، أو هي شفووية معرضة للخطأ تارة ، وللسهو أو النسيان تارة أخرى .

^١ - أخرجه عن أبي داود ، مصاحف ، ١٠ ، طيسوطي ، الاثبات ١/١٦٦ .

^٢ - بخري ، البيان ص ٢٤٤ .

^٣ - بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ١/١٣٩ وما بعدها .

^٤ - الاثبات ١/٢٠٢ .

... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْإِسْلَامَ الْقُرْآنِيَّةَ بِشَاهِدِينَ ، وَإِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي لَمْ تَوْجَدْ إِلَّا مَعَ أَشْخَاصٍ مُحْسِنِينَ وَمُعِينِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ ، لِيَنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَمُورَهُ لَمْ تَكُنْ مَرْتَبَةً حَسَبَ أَمَاكِنِهَا بِأَمْرِ تَوْقِيفِي ، وَإِنَّمَا بِأَمْرِ اجْتِهَادِي مِنَ الصَّحَابَةِ .

قَالَ زَيْد :

" كَتَبْتُ الْمَصَاحِفَ ، فَفَتَتْ آيَةً كُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدْتُهَا عِنْدَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ : "مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ" الْاِحْزَابِ ٢٣ ، وَكَذَلِكَ آيَةٌ : "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ" التَّوْبَةِ : الْآيَةُ - ١٢٨ .

إِنَّ تَوْقِيفَ الْآيَاتِ وَالْمُورِ أَمْرٌ لَا شِبْهَةَ فِيهِ ، وَالْإِجْمَاعُ ثَابِتٌ فِي شَأْنِهِ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ قَدْ جُمِعَ عَلَى عَهْدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ :

" وَأَحْسَنُ مَا يَحْتَجُّ بِهِ أَنْ يَقَالَ : إِنَّ هَذَا التَّأْلِيفَ لِكِتَابِ اللَّهِ مَأْخُوذٌ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَخَذَهُ عَنْ جَبْرِيلَ " . لَا شَكَّ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ جُمِعَ الْقُرْآنُ بِتَأْيِدهِ وَسُورِهِ عَلَى قِرَاءَةِ إِمَامٍ وَاحِدٍ ، وَأَحْرَقَ الْمَصَاحِفَ الْأُخْرَى ، لَا أَنَّهُ جُمِعَ الْآيَاتُ وَالْمُورُ فِي مِصْحَفٍ . قَالَ ابْنُ أَشْتَمَةَ : " اِخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى عَهْدِ عُثْمَانَ حَتَّى اقْتَتَلَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُعَلِّمُونَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، فَقَالَ : عِنْدِي تَكْذِيبُونَ بِهِ وَتُلْحِنُونَ فِيهِ فَمَنْ نَأَى عَنِّي كَانَ أَشَدَّ تَكْذِيبًا ، وَكَأَثَرُ لِحْنًا ، يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ : اجْتَمِعُوا فَالْكِتَابُ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، فَاجْتَمِعُوا فَكُتِبَ بِهِ " .^١

إِنَّ عُثْمَانَ قَدْ لَاحَظَ فِي الْمَدِينَةِ الْاِخْتِلَافَ فِي الْقِرَاءَاتِ وَاللُّغَاتِ ، فَرَاغَهُ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِالْقِرَاءَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَبَلُغَةً وَاحِدَةً هِيَ لُغَةُ قُرَيْشٍ ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَزَلَ بِهَذِهِ اللَّغَةِ .

جُمِعَ عَلَى (ع) لِلْقُرْآنِ :

وَبَعْدَ أَنْ ارْتَحَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، جَلَسَ عَلِيُّ (ع) الَّذِي كَانَ يَنْصَحُ مِنَ النَّبِيِّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ ، فِي بَيْتِهِ^٢ حَتَّى جُمِعَ الْقُرْآنُ فِي مِصْحَفٍ عَلَى

^١ - انظر السهرطى ، لاقتان ١/ ١٦٧ .

^٢ - لاقتان ، ٣٠٩/١ .

^٣ - انصهر نمرة ، ١٧٠/١ .

^٤ - انصهر نمرة ، ٥٩/١ .

ترتيب النزول ، ولم يمض سنة من الشهور بعد وفاة الرسول حتى كان عليّ قد فرغ من عمل الجمع وحمله للناس على بعير ^١ .

إن المقصود من جمع عليّ (ع) للقرآن أنه كتبه عما كان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأضاف إليه التنزيل ، والتأويل كما في الرواية .

فالتنزيل هو كل ما نزل من الله حول القرآن ، وإن لم يكن منه ، والتأويل : كل ما يرجع إليه فبأنه أعرف به من الكل .

يقول الكلبي :

" لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قعد عليّ بن أبي طالب في بيته فجمعه على ترتيب نزوله ، ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير " ^٢ .

ويقول محمد بن سيرين :

" ولو أصيب ذلك الكتاب لكان فيه العلم " ^٣ .

ولعل مصحف النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان مع عليّ حينئذ يكتب مضيفاً إليه التفسير والتأويل ، فلم يتمكن منه أبو بكر ، إنه لا خير ولا منافاة بين القول في أن القرآن قد جمع في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين القول بأنه جمع بيد باب مدينة علمه مع التفسير والتأويل . وإضافة التنزيل وغير ذلك من خصائص القرآن وثقافته بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

إن القرآن الذي كان في بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد جمعه عليّ (ع) إلى بيته بأمر من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له :

" يا عليّ هذا كتاب الله خذه إليك ، فجمعه عليّ في ثوب ، ومضى إلى منزله ، فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم جلس فآلفه كما أنزل الله ، وكان به عالماً " ^٤ ، وبذلك يكون النبي قد أمر عليّاً بجمع القرآن وحذر من تضييعه ^٥ .

^١ - نهج السجستان .

^٢ - الشهيد في علوم القرآن ، ج ١ ص ٢١٩ عن تسهيل لمصر التبريد .

^٣ - تاريخ خفاه للتبريد ، ص ١٨٥ .

^٤ - الشهيد في علوم القرآن ، ج ١ ص ٢٢٧ عن ابن شهر آشوب .

^٥ - نهج السجستان : تاريخ القرآن ، ص ٦٦ .

وفي رواية عليّ بن إبراهيم عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهم السلام قال :

« إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ : يا عليّ ، إن القرآن خلف فراشي في الصحف والحبر والقراطيس ، فخذوه واجمعوه ، ولا تضيّعوه كما ضيعت اليهود التوراة ، وانطلق عليّ عليه السلام فجمعه في ثوب أصفر ثم ختم عليه ^١ .

وروى العياشي في تفسيره في نيل رواية له ، قال عليّ (ع) :

« إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصاني إذا أريته في حفرة ، أن لا أخرج من بيتي حتى أؤلف ^٢ كتاب الله ، فإنه في جرائد النخل ، وفي أكتاف الإبل ... ^٣ .

وحين أتم الإمام علي (ع) تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتكفينه وتغفنه ، والناس منصرفون إلى شؤون البيعة والخلافة في سفينة بني ساعدة ، انصرف أمير المؤمنين (ع) إلى تنسيق تلك الرقاع وتنظيمها وترتيب سورها وآياتها ، وجعلها كتاباً موحداً يحقق ما لم يسبق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحقيقه ، وعكف في بيته يجمع القرآن في مصحف واحد من الرقاع المتنوعة غير المنتظمة . وهذا هو معنى الجمع الذي مارسه علي بن أبي طالب (ع) لا الجمع من صدور الرجال كما توهم بعضهم ^٤ .

وذكر الكليني :

« أن علياً (ع) قال : عندما جمع القرآن هذا كتاب الله ... وقد جمعته من اللوحين ^٥ ، والمقصود بالجمع جعله بين يدي المصحف ، لا كتابته ابتداء ، فإنه كان مدوناً لديه .

وعن عكرمة قال :

« لما كان بعد بيعة أبي بكر قد علي بن أبي طالب (ع) في بيته ، فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك ، فأرسل إليه فقال : أكرهت بيعتي ؟ قال : لا ... قال : ما أقعدك عليّ ؟ قال :

^١ - نسخة منه ص ٤٤ .

^٢ - متألف : «جمع ، ومنه قوله تعالى : فالتف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمة إسماعيل .

^٣ - تدوير القرآن ، ص ٤٤ .

^٤ - راجع : القرآن وعظمته ، ص ١٦٠ .

^٥ - أصول الكافي ، ص ٤٥٣ .

رأيت كتاب الله يزاد فيه ، فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه ، قال أبو بكر : فإنك نعم ما رأيت ^١ .

وعن محمد بن سيرين قال :

" لما توفي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ^٢ .

ولقد أثار المستشرقون وغيرهم التحريف القرآني من نصوص تاريخية مروية عن أهل البيت (ع) وغيرهم تذكر وجود مصحف خاص لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، يختلف كثيراً عن المصحف المتداول بين المسلمين في أيامنا . هذا المصحف يشمل على موضوعات ليست موجودة في المصحف المألوف والمعروف .

إن هذه النصوص ، أو هذه الروايات تتحدث عن مجيء علي بن أبي طالب (ع) بهذا المصحف إلى الخليفة الأول أبي بكر بقصد أن يأخذ المصحف المذكور مكانه من التنفيذ بين المسلمين ، ولكن أبا بكر لم يقبل بذلك ورفض هذا المصحف .

شبهة وردّها :

وإذا كان علي (ع) أفضل الصحابة علماً ، وخبرهم ديناً ، وأكثرهم التزاماً ، وأوضحهم حرصاً على سلامة الإسلام ، فمن البدهة أن تكون قد تناولت القرآن يد التحريف والنقصان نتيجة للطريقة الخاطئة التي اتبعت في جمعه .

ولتوضيح هذه الشبهة يورد أنصارها بعض هذه النصوص التاريخية :

١. النص الذي جاء في احتجاج علي على جماعة من المهاجرين والأنصار :

فقال علي (ع) : ' يا طلحة ، إن كل آية أنزلها الله جلّ وعلا على محمد عندي بإملاء رسول الله وخط يدي ، وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وخط يدي حتى أرش الخدش ^٣ .

٢. النص الذي يتحدث عن احتجاج علي (ع) على الزنديق ، والذي جاء فيه :

^١ - مشيخي ، الاثنان ح ٥٨/١ .

^٢ - من كتبه فضائل القرآن ، ص ١٤ .

^٣ - احتجاج مطهرسي ، ٢٢٣/١ .

" إِنْهُ أَتَى بِالْكِتَابِ عَلَى الْمَلَأِ مُشْتَمِلًا عَلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّنْزِيلِ وَالْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ لَمْ يَسْقُطْ مِنْهُ حَرْفٌ أَلْفٌ وَلَا لَامٌ . فَلَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ^١ .

٣. النَّصْرُ الَّذِي رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكَلِينِيُّ فِي الْكَافِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْكَافِيِّ (ع) أَنَّهُ قَالَ :

" مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَنَّ أَنَّ عِنْدَهُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ كُلَّهُ ، ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ غَيْرَ الْأَوْصِيَاءِ " ^٢ .

٤. النَّصْرُ الَّذِي رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الْكَلِينِيُّ أَيْضًا فِي الْكَافِيِّ عَنِ الْبَاقِرِ (ع) :

مَا ادَّعَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ كَمَا أَنْزَلَ إِلَّا كَذَّابٌ ، وَمَا جَمَعَهُ وَحَفَظَهُ كَمَا نَزَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ (ع) وَالْأَئِمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ (ع) .

إِنَّ هَذِهِ الشَّبِيهَةَ تَطْرَحُ مَسْأَلَةً وَجُودِ إِضَافَاتٍ قُرْآنِيَّةٍ ، أَضَافَهَا عَلِيٌّ (ع) لِيَكُونَ فِي الْقُرْآنِ تَحْرِيفٌ بِالزِّيَادَةِ .

وَالْحَقُّ يَقَالُ : إِنَّ الزِّيَادَةَ مُوجُودَةٌ فِي مَصْحَفِ عَلِيٍّ (ع) وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ زِيَادَةً قُرْآنِيَّةً إِنَّمَا هِيَ تَأْوِيلَاتٌ لِلنَّصْرِ الْقُرْآنِيِّ أَيْ هِيَ تَنْزِيلَاتٌ مِنَ السُّوْحَى الْإِلَهِيِّ نَزَلَتْ عَلَى صَدْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي تَقْسِيرٍ وَشَرْحٍ لِلْقُرْآنِ ، وَعَلِمَهَا إِلَى بَابِ عِلْمِ مَدِينَةِ عَلِيٍّ (ع) .

وَلَعَلَّ كَلِمَتَيْ التَّأْوِيلِ وَالتَّنْزِيلِ لَا تَعْنِيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ مَا يَرَادُ فِي اصْطِلَاحِ عُلَمَاءِ الْقُرْآنِ بِأَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى غَيْرِ ظَاهِرِهِ ، وَلِأَنَّ التَّنْزِيلَ هُوَ خُصُوصُ النَّصْرِ الْقُرْآنِيِّ ، وَإِنَّمَا يَرَادُ مِنْهَا الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةُ الَّذِي هُوَ فِي الْكَلِمَةِ الْأُولَى مَا يُؤْوِلُ إِلَيْهِ الشَّيْءَ وَمُصَدِّقُهُ لِلخَارِجِيِّ ، وَفِي الثَّانِيَةِ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَحْيًا عَلَى نَبِيِّهِ سِوَاهُ كَانَ قُرْآنًا أَمْ أَيْ تَنْزِيلَ آخَرَ .

وَاعْتِمَادًا عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ لِلْمَوْقِفِ تَتَضَحُّ جَوَانِبٌ كَثِيرَةٌ ، حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ تَحْمَلَ الرُّوَايَاتُ الَّتِي أَشَارَتْ إِلَيْهَا الشَّبِيهَةُ عَلَى مَعْنَى يَنْسَجِمُ مَعَ هَذَا الْمَوْقِفِ

^١ - تفسیر الصالحی ، المجلد السادس ص ١١ .

^٢ - أصول الكافي ١/ ٢٢٨ .

ليصاً كما فعل علامتنا الطباطبائي في بعض هذه الروايات^١ ومن جنب آخر ،
ألا يمكن ملاحظة ضعف السند لهذه الروايات حيث لا يصح الاحتجاج بها أو
الاعتماد عليها إزاء النص القرآني المتواتر والثابت ؟

والذي يمكننا استخلاصه من هذه الروايات هو أمران :

❖ أولاً :

أن القرآن كان مجموعاً سورة وآياته في عهد الرسول صلى الله عليه وآله
وسلم ، لأن أمير المؤمنين قد جمع القرآن في عهد الرسول (ص) ويأمر من
الرسول .

❖ ثانياً :

إن إضافات علي (ع) وزياداته في جمعه لم تكن قرآنية لتكون شبهة التحريف
كما يذهب المستشرقون وغيرهم ، إنما الزيادة لأن كانت فائماً لا تخرج عن
دائرة التلويل والتفسير والتنزيل الذي ليس هو بالقرآن .

❖ ثالثاً :

مصحف أبي بكر قد يكون مصحفه الخاص به دون غيره ، ولا يختلف عن
مصحف علي (ع) ولا عن مصحف غير علي (ع) إلا في شيء هو أن سورة
البراءة من مصحف الخليفة الأول كانت بين المثني وسورة الأنفال كانت في
المثاني وفي مصحف الإمام وضعت سورة الأنفال والبراءة في مكان واحد
بين سورة الأعراف وسورة يونس .

❖ رابعاً :

إن القرآن لم تتناوله يد التحريف لا زيادة ولا نقصاناً ، فالآيات والمور كانت
موزعة عند المسلمين قبل الجمع الأول والثاني ، وكانت موضع اهتمامهم
صدوراً وسطوراً وأسنة .

^١ - إيران ، جلد ١/ ٢٢٨ .

إنَّ جمع القرآن قد تمَّ بحضور جماعة من الصحابة والتابعين من القراء ، وكلهم قد
قبِلوا المصحف الذي وضع بين أيديهم ، وتحت تصرفهم ، واستسبحوا بلا رد ولا
إيراد .

وارادوا في الجمع الثاني " جمع عثمان " حذف الواو من آية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ﴾ التوبة : الآية - ٣٤ ، فمنعواهم من هذا ، وهداهم أبي بن كعب الصحابي بإعمال
السين إن لم يثبتوا الواو ، فأنشئوها^١ وقرأ الخليفة الثاني في أيام خلافته جملة ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
بِإِحْسَانٍ﴾ من آية ﴿وَالْمُتَافِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾
التوبة : الآية - ١٠٠ ، بدون واو العطف فخاصموه حتى ألزموه بقراءتها مع الواو .

الجمع كان في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

يمكن لهذا المبحث أن توزع دراسته على الأمور التالية :

❖ أولاً : إندفاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لاستظهار القرآن والاهتمام
به .

❖ ثانياً : روايات الجمع والتدوين

❖ ثالثاً : تنقُض روايات الجمع البكري والعمرى والعثماني ، ونتائجها .

❖ رابعاً : العقل والجمع .

❖ خامساً : دلالة لفظة " الكتاب " على الجمع .

❖ سائساً : دلالة لفظة " المصحف " على الجمع . حكم عام .

أولاً : اندفاع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لاستظهار القرآن والاهتمام به .

لذي لا مرية فيه ولا ريب أن الجمع القرآني بالمعنى الاستظهاري ، أو بمعنى تحوله
إلى الصنور الحافظة قد تمَّ في العهد النبوي ..

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان أول الحفظة ، لقد كان صاحب القلب الواعي،
والصدر الحافظ ، واللسان الذَّاكِر .

فالقرآن كان ينزل آية آية ، وسورة سورة ، وسرعان ما كانت تتحول تلك الآيات والمنور على فورها إلى صدر النبي ، وإلى صدور أصحابه .

وأقبل عليه العرب بنهف وشوق يتمتعون بالاستماع إليه ، ويرتاحون لقراءته ، ويقصدون من الأمكنة القصية ليتعرفوا عليه ، ويسمعوه مثلاً على شفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

وانتشر بالسرعة المذهبة في آفاق الجزيرة لفصاحته التي لا تبارى ، وبلاغته التي لا تجارى ، والعرب عشق لفصاحة والبلاغة .

أو لم يكن عظماء مكة والناقدون فيها يحاربون الدعوة بدون هوادة ، ويدعون بأن القرآن سحر أو شعر أو كهانة ، ورغم ذلك كانوا يتخذون الثيل المظلم مطية لهم ، ويترصدون قرب بيت النبي ، ويصغون إلى تلاوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن ؟ ألم تأخذ الوليد الحمية الجاهلية فيسرع إلى بيت النبي ليلاً ليكفي المشركين شر النبي بقتل النبي ، لكنه ما أن يقترب من البيت النبوي حتى يسمع قرأناً يتلى لينكفي على عقبيه مأخوذاً وهو يقول لبني قومه :

" لقد سمعت قولاً ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة ، قولاً ين أعلاه لمنشر ، وإن أسفله لمعذق ، وما هو بقول بشر " .

وجذ بالمسلمين الجد في حفظ القرآن وضبطه لأن النبي أمر بتعليم القرآن إياهم ، ولأنهم كانوا يعتقدون أنه الكلام الإلهي ، وأنه السند الأول لمعتقدهم ، وأنه لا بد في صلاتهم من قراءة الفاتحة ومقدار آخر من القرآن .

وهاجر النبي ليأمر جماعة من أصحابه بالاهتمام بالقرآن وشؤونه ، بالقرآن تعلماً وتعليماً ، بالقرآن نشرأ لدعوته ، وبالقرآن ترسيخاً له ومعتقداً .

ودون القرآن يوماً يوماً ، وسجل آية آية ، وسورة سورة خشية الضياع ، وخلص القرآن بذاته وبأسباب لقد أعفى هؤلاء المهتمون بشؤون القرآن ، والمنصرفون لضبطه وتعليمه عن المشاركة في الجهاد وحضور الجبهات كما هو صريح القرآن .

(٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ النحل :

الآيات - ٤٤-٤٣ .

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ فَعَلَّمَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ التوبة : الآية - ١٢٢ .

فلنمهاجرون بمعظمهم ، لم يكونوا على الإمام بقراءة أو كتابة ، فالتقت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الثقافة واعية ، التفاته بعيدة الذكاء فكانت فدية الأسير البدري الذي يلم بالقراءة والكتابة تعليم عشرة صبيان من أبناء المسلمين مبادئ القراءة والكتابة . ولعل هذه الفدية هي الأول من نوعها في التاريخ .

إن فدية الأسير كانت إما أسيراً أو مالاً ، وتحولت على يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فتح مدرسة لتعليم ، وطلب الرسول أيضاً من الأسرى اليهود أن يعلم كل واحد منهم مجموعة من أصحابه . وبهذه الطريقة النبوية الحكيمة والمنيرة توفر المتعلمون للذين يعرفون قراءة وكتابة من الصحابة . من هؤلاء المتعلمين جماعة كان شغلها الشاغل قراءة القرآن وحفظه ، وضبط سوره وآياته ، أولئك الذين عرفوا فيما بعد بالقراء ، والذين استشهد منهم في واقعة بدر معونة أربعين أو سبعين^١ والمتواتر من الروايات يشهد بأن كل ما كان ينزل من القرآن ، أو ينزل تدريجاً كان يدون على الألواح أو الأكتاف للشاة ، أو الجريد للنخل ، متحولاً إلى الصدور حفظاً ، وإلى الألسنة ذكراً .

والذي لا سبيل إلى إنكاره هو أن السور القرآنية بمعظمها كانت منتشرة في الناس ، دائرة على السنة الصحابة قبل أن يقضي النبي .

لقد وردت أسماء كثيرة من السور في أحاديث جمّة منقولة من طرق الشيعة والسنة ، تصف كيفية تبليغ النبي الدعوة الإسلامية والصلوات التي كان يصلّيها ، وسيرته في قراءة القرآن ، لنجد في الأحاديث أسماء خاصة قبل رحلة الرسول لطائفة من السور كالطوال والمئين والمثاني والمفصلات^٢ . فالآيات والسور كانت موزعة في كل بيت معلم على عهد

^١ - ٧٢/١ .

^٢ - "سيد محمد الطباطبائي ، القرآن في الإسلام ص ١٧٠ .

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل الجمع الأول والثاني ، وكانت مدار اهتمامهم ، ومحور شغلهم .

ألم يعمل جماع القرآن في الجمع الثاني^١ على حذف الواو ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ السَّدَّابِ وَالْفِئْتَةَ﴾ التوبة : الآية - ٣٤ ، فمنعهم جماعة من الصحابة كان قد سمَّ جمع القرآن بحضورهم ، من هذا الحذف؟ ألم يهتد بهم أبي بن كعب الصحابي بإعمال السيف إن لم يثبتوا الواو فأنبتوها ؟^٢

ألم يقرأ الخليفة الثاني في عهد خلافته ، "والذين اتبعوهم بإحسان" من آية ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ النَّاجِحِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ التوبة : الآية - ١٠٠ ، بدون واو العطف ، فنازعوه وخاصموه حتى ألزموه بقراءتها مع الواو ؟^٣
لئن الشواهد على ما قدمنا لكثيرة ، وإن الروايات على ما أسلفنا من مسألة استظهار القرآن لمختلفة فإليك منها للبعض :

(١) قال تعالى :

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾ للقيامة : الآيات - ١٦-١٩ .

يقول الطبرسي مفسراً : " لا تحرك لسانك يا رسول الله للتأكيد على كلمات الآيات قبل فراغ جبريل ، إن علينا جمعه وقرآنه عليك حتى تحفظه ، ويمكنك تلاوته ، فلا تخف فوت شيء منه " ، " إن علينا جمعه في صدرك وإجراء قراءته على لسانك " .

" إن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكول إلى صاحبه ، ونور النبي هو التلقي والبلاغ ، فليضمنن بالآ ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً " .^٤

^١ - جمع عثمان .

^٢ - ظهير المنور ٢/٢٢٦ .

^٣ - الدر المنصور ٣/٣٩٩ .

^٤ - مجمع فيان ١/٣٩٧ .

^٥ - تفسير شتر ، ص ٥٤١ .

^٦ - في طلال القرآن ، سيد قطب ٨/٢٠٤ .

(٢) وقال تعالى :

﴿ سَتَجِدُنَا فَلَاقَسْنِي ﴾ الأعلى : الآية - ٦ .

وبأنها لكفالة من الله لقلب الرسول (ص) فلا ينسى ما يقرنه به ، لأنه (ص) كان إذا انزل وحى يصرع إلى إعادة القراءة لما نزل مخافة أن ينساه ، بل كان يردد المنتزلة آية آية مباشرة ودون إبطاء لئلا ينسى من جانب ، وحرصاً عليه وشغفاً به من جانب آخر .

(٣) إن حفظ القرآن أيام الرسول (ص) كانوا كثرة . قتل منهم في السنة الرابعة للهجرة

سبعون في بئر معونة . قال الزنجاني :

" ولأجل ذلك أمر النبي (ص) علياً (ع) بجمعه وحذر من تضبيبهم " .^١

ورد أنه قتل يوم اليمامة سبعون من القراء والحفظة في عهد أبي بكر ، وفي رواية أنهم كانوا أربعماية مقرأ . ورواية أخرى تقول بأنه :

" لما استمر القتل بالقراء ، أي اشتد وكثر في قراء القرآن يوم اليمامة ، يعني يوم قتل مسيلمة الكذاب وأصحابه بني حنيفة بأرض اليمامة قتل من القراء يومئذ قريب من خمسمائة " .^٢

وكان مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة يعمر بتلاوة القرآن ، ويدوي بالقراءة كدوي النحل . لقد كان النشاط فيه صلاة قائمة ، وألسنه ذاكرة ، وتلاوة خاشعة ، وأصواتاً للحفظة ضاجة متداخلة ، فكانت الأوامر النبوية بخفض الأصوات خشية التغافل .

(٤) ما أعظمها من التفاته نبوية !

ما أكثر ما كان صلى الله عليه وآله وسلم - يدفع المهاجرين الجدد إلى الحفاظ ليعلموهم القرآن تلاوة وحفظاً !

وشاع حفظ القرآن بين الرجال والنساء ، وملك هذا الحفظ القلوب شغفاً ، والنفوس حباً ، لقد كان مهر المرأة المسلمة قرآناً أو سورة من القرآن .

^١ - تاريخ طبرستان ص ٦١ .

^٢ ابن كثير ، فضائل القرآن ص ٩ .

لقد أنت النبي (ص) امرأة فقلت إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله فقال : " ما لي في النساء من حاجة " فقال رجل : زوجنيها . قال : أعطها ثوباً . قال : لا أجد ، قال : أعطها ولو خاتماً من حديد . فاعتلّ له . فقال : ما معك من القرآن ؟ قال : كذا وكذا . قال : زوجتكها بما معك من القرآن ^١ .

وذكر أبو عبيدة في كتاب القراءات القراء في العهد النبوي ، فعذ من المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم ، وأبا هريرة ، وعبيد الله ابن المناب ، والعبادلة ^٢ وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، ومن الأنصار عبادة بن الصامت ، ومعاذ الذي يكنى أبا حليمة ، ومجمع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلد ^٣ .

٥) وهذا هو الرسول (ص) يبادر في إرسال مصعب بن عمير إلى المدينة مع الذين يابغوه بالمعينة الأولى ، وكلفه أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ^٤ .

٦) وعقب الفتح المكي أخذ التعليم القرآني واستظهاره يأخذان سبيلهما إلى الناس في صورهم وقلوبهم وعقولهم .

" وطلب النبي (ص) من معاذ بن جبل أن يبقى في مكة بعد فتحها لكي يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن ^٥ . ووفد جماعة على الرسول (ص) فبعث معهم عباد بن بشر ، وطلب منه أن يعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن ^٦ .

٧) كثيراً ما كان الرسول (ص) هو نفسه يمرع لتعليم المسلمين القرآن . قال عبد الله بن مسعود لأصحابه في الكوفة : إني قرأت من لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين سورة ^٧ .

^١ - عن سهل بن معاذ ، ابن كثير ، فضائل القرآن ص ٤٠ .

^٢ - عبد الله بن عمر [ج ٧٣ ص] . عبد الله بن عمرو بن العاص [ج ٦٥ ص] . عبد الله بن عباس [ج ٦٨ ص] : عبد الله بن مسعود [ج ٣٢ ص] .

^٣ - القرطبي : تاريخ القرآن ص ٤٠ .

^٤ - ابن هشام ، السيرة ج ٧/٤ .

^٥ - مطهرى ، تاريخ الملوك ، ج ٣٦٦/٢ .

^٦ - ابن سعد : الخطبات ، ج ١١٦/٢ .

^٧ - مطهرى ، التفسير ج ٢٨/١ .

وروى الطبري عن أحدهم أنه قال :

" حدثنا الذين كانوا يقرئوننا ، أنهم كانوا يستقرئون من النبي (ص) فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخفوها حتى يعلموا ما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً " ^١ .

وقال عبد الله بن عباس :

" كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا التشهد ، كما يعلمنا القرآن " ^٢ .

وقال أبي بن كعب :

" رحلت إلى المسجد فسمعت رجلاً يقرأ ، فقلت من أقرأك ، فقال رسول الله (ص) " .

قال المستشرق م . غود فروا :

" ومنذ الأيام الأولى للجماعة الإسلامية دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أتباعه إلى الاجتماع ليقضي إليهم بالوحي ويحتمل أن تكون هذه الاجتماعات لفرض العبادة ، وتلاوة القرآن ، واحتمال تفسير بعض غوامضه ، ومحاولة تنبيته في ذاكرة المؤمنين والواقع ، أن ذاكرة هؤلاء المؤمنين الأوائل أصبحت خير مؤتمن على الوحي ونقل له ومما يميز الإنسان ويرفع من قدره أن يكون حافظاً ، يحوي القرآن كله في صدره " ^٣ .

انظر إلى مدى الاهتمام بقراءة القرآن وحفظه ، أيام الرسول (ص) !

عن عبد الله بن عمرو ، قال : قلت : يا رسول الله ، في كم أقرأ القرآن ؟ قال اختمه في شهر ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في عشرين ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في خمس عشرة ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : اختمه في خمس ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، فما رخص لي ^٤ .

وروي عنه (ص) قوله :

" لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث " ^٥ .

^١ - الطبري ، مختصر ، ج ٨٠/١ .

^٢ - السهيمي : تاريخ جرحان [حيدر آباد ١٩٥٠ م] . المصدر نفسه : ج ٣٢/١ .

^٣ - غودفروا : تنظيم الإسلام ص ٧٣ . وضع في هذا البحث كتاب القرآن وعلمه ، د. داود المضار ١٥١ - ١٤٤ .

^٤ - مفتنار في علوم القرآن ، ٢٧ - ٢٨ .

^٥ - المصدر نفسه .

ومن المشهور أنَّ عمر بن الخطاب قد أقام من صلَّى التراويح بالناس في ليالي رمضان ، وأمره أن يقرأ في الركعة الواحدة نحواً من عشرين آية ، فكان يحكي القرآن في الشهر مرتين ، ومعلوم أنَّ ذلك لم يكن من المصحف الذي كتبه زيد لأنَّ المصاحف لم تنسخ منه^١ .

أليس في هذا الحفظ دليل قوي وجوهري على أنَّ القرآن كان مجموعاً أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؟
أليست هذه الروايات في قراءة القرآن وختمه في عهد الرسول (ص) تنطق بوجود جمعي له ، إذ كيف يقرأ فيه من لم يحصل عليه ؟

إنَّ الكثرة الكثيرة من الصحابة والمسلمين كانت تحفظ القرآن وتندرسه وتكرّر تلاوته ، وأقل ما في ذلك أن نقارن الحفظ والاستظهار بما لديها من نصوص قرآنية ، وهذا هو المتعين لدى المسلمين نظراً لورعهم واحتياطهم من جهة ، وتعبيراً عن شغفهم بالقرآن وحبهم لمتابعته من جهة أخرى ، فقد يتبدى من كثير من الروايات كونهم يتحلقون لتلاوته ليلاً ، فقد رفع إليه صلى الله عليه وآله وسلم :
" إني لأعرف أصوات رفقة لأشعرين بالليل حين يدخلون ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بكلي ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار"^٢ .

وهكذا جدَّ المسلمون في حفظ القرآن وضبطه ، واندفعوا مهتمين بكل شأنونه لأنَّ الرسول (ص) أمر بتعلمه وتعليمه ، ولأنَّه المعتمد الأول لعقيدهم ، ولأنَّه كتاب عبادتهم ومعاملاتهم ، ولأنَّه معجزة الفصاحة والبيان والبلاغة ، والعرب عشاق الفصاحة ، وعبد البلاغة ، وأرباب البيان .
إنَّ الدوافع التي حملت المسلمين على استظهار القرآن وحفظه في الصور ، والاهتمام به ، هو كون هذا القرآن :

- أولاً : دستور المسلمين وكتاب عباداتهم وفقهم الذي يبين الأحكام إن في الحلال وإن في الحرام .

^١ - مُدْتَنان في علوم القرآن ، ص ٣١ .

^٢ - ترمذاني ، معجم شريف ١/ ٣١٣ .

- وثانياً : أن المسلمين كانوا يطبقون أحكامه ، ويعملون بمقتضاه ، ويتخذون منه وسيلة تربية وأخلاق حيث لم يكن القرآن عندهم وسيلة تكتب وارتراق ، ولا كتاباً يتلى في حفلة أو مناسبة أو يتلى في أذان الموتى من على قبورهم ، متتامين أن القرآن هو للمسلمين المستور ، وهو للمسلمين سبيل السعادة والعزة والنجاة والرفعة إن في الدنيا وإن في الآخرة .

إن المسلمين الأوائل لم تكن علاقتهم بالقرآن كما هي علاقة مسلمي العصر الذين يتلونه ولا يعملون بمقتضاه ، والذين يتلونه بالسننهم لا بقلوبهم وعقولهم ليكتبوا بتلاوته ، ويرتقوا بقراءته .

- ثالثاً : كون القرآن آية الآيات في الفصاحة والبلاغة .

ألم يكن العرب يستظهرون الخطبة لفصاحتها وبلاغتها ، ويحفظون القصيدة لرائع بيانها ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف بالقرآن المتحذي لكل بليغ أو فصيح ؟

- رابعاً : إن الحفاظ والقراء كانوا ذوي منزلة مشهودة ومامية في المجتمع الإسلامي عامة ولدى الرسول (ص) خاصة . قال معاذ :

" سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ما من رجل علم ولده القرآن إلا توّجه الله به يوم القيامة تاج الملك ، وكسي حلتين لم ير الناس مثلهما " ^١ .

وإذا كان للحفظة هذه المنزلة الاجتماعية ألا ينتظر منهم أن يتزاحموا أو يتنافسوا على استظهار القرآن الكريم وحفظه ؟

- خامساً : روايات الجمع والتدوين :

إن تدوين القرآن قد تحقّق في عهد الرسول (ص) ، وكان كلما هبط وحى بآيات أسرع تلك الآيات إلى حافظه الرسول (ص) وإلى ذاكرة صحابته ، وسجلتها على فورها أيدي أمناء الوحي بما كان لديهم من أنوات كالمعصب والخاف والرقاع ، لتودع في بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

^١ الطبري : تفسير ، ج ١ ، ص ١١١ .

أما الروايات التي تنفي بأن النبي قد قضى القرآن لم يجمع بعد في مصحف فقد كفانا السيد الخوئي مسألة تنقيدها ، وكفانا مؤنة الخوض والتحقيق في هذه الروايات التي وردت في صحيح البخاري ، ومسنند احمد ، وكنز العمال ، ومنتخب كنز العمال ، والإتقان للسيوطي ، وكان أهم هذه الروايات التي عُب عليها السيد الخوئي اثنتين وعشرين رواية ^١ .

لقد خلاص السيد الخوئي إلى بيان تنقض هذه الروايات في تحديد العهد الذي جمع فيه القرآن متردداً بين عهود أبي بكر ، عمر ، عثمان ، ومن هو المتصدي لذلك ؟ هل هو أبو بكر أو زيد أو عمر ؟ وهل بقي من الآيات ما لم يدون إلى زمن عثمان ؟ ومن الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن ؟ ومتى ألحقت بعض الآيات في القرآن ؟ وبماذا ثبت ذلك ، وهل يكفي ذلك لتواتر القرآن ؟ ^٢

وقد عارض الخوئي هذه الروايات بروايات أخرى تدل على جمع القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً فيها إلى منتخب كنز العمال ، وصحيح البخاري ، وإتقان السيوطي ، وقد اعتبر التمثل بأن المراد من الجمع في هذه الروايات هو الجمع في الصدور لا التدوين ، دعوى لا شاهد عليها ، لأن الحفاظ أكثر من أن يحصيهم عدد ^٣ .

والذي ثبت لديه هو أن جمع القرآن قد تمّ بعهد الرسول (ص) واعتبر ما سوى هذا معارضاً لكتاب الله ، ومخالفاً لحكم العقل ، ومناهضة صريحة للإجماع الذي عليه المسلمون كافة بأن القرآن لا سبيل لإثباته إلا للتواتر ، فليس من سبيل إلا طرح هذه الروايات لأنها تدل على ثبوت القرآن بغير التواتر ، وقد ثبت ذلك بإجماع المسلمين ^٤ .

لقد اعتبر السيد الخوئي أن القول بهذه الروايات يستلزم فتح للقول بالتحريف ، باعتبار الجمع على تلك الطرق يكون قابلاً للزيادة والنقصان ، وهذا الذي نلاحظه من تعقيبات بعض المستشرقين وغير المستشرقين .

وقد اعتبر جمع عثمان للقرآن مقبولاً لكن لا بمعنى أنه جمع الآيات والصور في مصحف ، بل بمعنى أنه جمع المسلمين على قراءة إمام واحد ، وهذا العمل من عثمان لم

^١ - البيان ٢٤٠-٢٤٦ .

^٢ - انصهر نفسه ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ .

^٣ - انصهر نفسه ، ٢٤٩-٢٥١ .

^٤ - انصهر نفسه ، ٢٥٢-٢٥٦ .

ينتقده عليه أحد من المسلمين ، وذلك لأن الاختلاف في القراءة كان يؤدي إلى الاختلاف بين المسلمين ، وتمزيق حقوقهم ، وتقريق وحدتهم ، بل كان يؤدي إلى تكفير بعضهم بعضاً^١ .

”والحق أن الخوئي قد تتبع هذه القضية بكل جزئياتها وتفصيلاتها ، وانقضى عليها بفنائها ويجرحها ، مثبتاً أن القرآن قد دون في عهد رسول الله (ص) ، وهذا ما نذهب إليه من خلال اصطلاحاً بأدلة جمة تستقطب جملة من الروايات ، وطائفة من الأدلة الخارجة والداخلية حول الكتاب وضمن الكتاب . وعلى هامش الكتاب ، تثبت دون ريب تكامل الجمع التكويني للقرآن في عهد النبي (ص) . ولا نريد إثبات الحقيقة والوصول إليها بكل الطرق المختصرة^٢ .

شواهد متواترة :

إن الشواهد على تكوين القرآن في عهد الرسول (ص) لكثيرة ومتواترة . إليكم البعض منها :

١. قال أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى (ت ٢٤٣هـ) في كتاب فهم السنن :

” كتابة القرآن ليست بمحدثه ، فإنه (ص) كان يلزم بكتابته ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب كان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ” .

٢. قال زيد بن ثابت :

” فتبعت القرآن أجمعه من العصب وللخاف ”^٣ .

ولعل زيد بن ثابت كان يقصد بقوله ”..... وصدر الرجال أن يفار بين ما هو مدون لديه بما هو مستظهر من القرآن عند الحفاظ ، لجمع بذلك صحة الاستظهار وصحة التكوين في مصحف واحد .

^١ - إبيد ، ص ٢٥٨ .

^٢ - القرآن وعلمه ، المطاوع ، ١٥٦ .

^٣ - تاريخ القرآن ، محمد فضيل ، ص ٧٢ .

^٤ - انظر السيوطي ، الانتذان ج ١/ ٥٨ ، الخرباي ، تاريخ القرآن ص ٤٥ ، البركني ، هجران ٢٣٨/١ ، القسطلاني : لطائف الاشارات ، ج ١/ ٥٢ .

٣. حديث الثقلين : قال النبي (ص) :
 " إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، ما أن تمسكتم بهما
 لن تضلوا بعدي أبداً " .
 ٤. روى جماعة كالطبراني وابن عساکر عن الشَّعْبِي أَنَّهُ قَالَ :
 " جمع القرآن على عهد الرسول (ص) سنة من الأنصار : أبي بن كعب ،
 وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد ، وأبو زيد -
 قيل هو قيس بن السكن - وكان مجمع بن جارية قد أخذته إلا سورتين أو
 ثلاث " .
 ٥. وكان الرسول (ص) يأمر أمناء الوحي كلما نزل عليه وحي قائلاً :
 " ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وتنزل عليه الآيات فيقول
 ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا " .
 ٦. عن أبي عبد الله جعفر ابن محمد عليه السلام قال :
 " إني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعليّ : يا عليّ : إن القرآن
 خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس ، فخذوه واجمعوه ، ولا
 تضيّعوه كما ضيَّعت اليهود التوراة ، وانطلق عليّ (ع) فجمعهم في ثوب أصفر
 ثم ختم عليه " .
 ٧. وحين أسلم عمر وجد في يد أخته فاطمة صحيفة فيها آيات من القرآن ،
 وكان بينه وبينها الذي كان ممّا حمله على إسلامه * .
 ٨. حرص الرسول (ص) على تعليم صحابته الكتابة ، لقد ذكر الحافظ الأذهبي
 في تذكرة (الحافظ) روى خارجة بن زيد عن أبيه قال : أتى النبيّ (ص)
 المدينة ، وقد قرأت سبع عشرة سورة ، فقرأت على رسول الله (ص)

* - ابن كثير ، فضائل نبيّين ص ٩ .

* - الزركشي ، المعجم ، ج ١/١٦٤ .

* - ابن أبي داود : كتاب المصاحف ص ٣١ ، الزركشي : المصاحف ج ١/٢٣٦ .

* - المصباح : تلويح القرآن ص ٤٤ .

* - المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

فأعجبه ذلك وقال : يا زيد تعلمُ كتابة يهود فإني ما أمنهم على كتابي قال
فحدقته في نصف شهر^١ .

٩. ورد في البخاري أن الذين جمعوا القرآن على عهد النبي (ص) أربعة ،
قال قتادة : سألت أنس بن مالك : من جمع القرآن على عهد رسول الله
(ص) قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ،
وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان^٢ واختلفوا في رجلين
من ثلاثة : أبو الدرداء ، وعثمان ، وقيل : عثمان وتميم الداري^٣ .

١٠. عن الشعبي ، جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) ستة : أبي ، وزيد ،
وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد ، وأبو زيد ، ومجمع بن جارية ، وقد أخذوه
إلا سورتين أو ثلاث قال : ولم يجمعه أحد من الخلفاء من أصحاب محمد
غير عثمان^٤ .

١١. وجمع بعض من الصحابة القرآن كله على عهد النبي (ص) ، وبعض منهم
جمع القرآن ثم أمّنه بعد النبي (ص) ، وذكر محمد بن إسحق في
القهرست : " أن الجماع للقرآن على عهد النبي (ص) هم :
علي بن أبي طالب عليه السلام ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وأبو الدرداء
عويمر بن زيد ، ومعاذ بن جبل بن أوس ، وأبو زيد ثابت بن زيد ، وأبي
بن كعب ، وعبيد بن معاوية ، وزيد بن ثابت^٥ .

١٢. وذكر الحافظ شمس الدين الذهبي أن الأعداد المتقدمة من الذين عرضوه
على النبي (ص) واتصلت بنا أسانيدهم ، وأمّا من جمعه منهم ، ولم يتصل
بنا فكثير ، وأمّا الذين عرضوا القرآن على النبي فمسيعة : عثمان بن

^١ - الشرح : تاريخ القرآن ، ص ٣٨ .

^٢ - البرهان ١ / ٢٤١ .

^٣ - المصدر نفسه ، ٢٤١ / ١ .

^٤ - المصدر نفسه ، ٢٤١ / ١ .

^٥ - البرهان ، تاريخ القرآن ص ٤٦ ، وانظر مصبوره .

عفان، وعليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء .
وقد أكد الحافظ الذهبي نفسه الجمع في عهد النبي (ص) فقال : وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة ، كعلاء بن جيل ، وأبي زيد ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعبد الله بن عمر ، وعقبة بن عامر ^١ .

١٣. روى الخوازمي في مناقبه عن عليّ بن رباح ، قال : جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) علي بن أبي طالب ، وأبي بن كعب ^٢ .

١٤. أخرج ابن أبي داود عن محمد بن كعب القرطبي قال : جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) خمسة من الأنصار ، معاذ بن جبل ، وعبد الله بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري ^٣ .

١٥. قال الحارث المحاسبى فيما أكده الزركشي : " وأما أبي بن كعب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، فبغير شك جمعوا القرآن ، والدلائل عليه متظاهرة " ^٤ .

١٦. وذكر ابن أبي داود فيمن جمع القرآن : قيس بن أبي صعصعة ، وهو خزرجي يكنى : أبا زيد ^٥ .

١٧. قال أبو أحمد العسكري : لم يجمع القرآن من الأوس غير سعد بن عبيد . وقال ابن حبيب في المسجد : سعد بن عبيد أحد من جمع القرآن على عهد النبي (ص) ^٦ .

١٨. قال السيوطي : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن ، ولم يصنق أحد ممن تكلم في ذلك فأخرج ابن سعد في الطبقات : لياناً الفضل بن نكين قال حدثنا : الوليد عبد الله بن جميع قال : حدثتني جدتي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

^١ - البرهان ٢٤٢/١ .

^٢ - الزبدي ، تاريخ القرآن ٤٧ .

^٣ - السوحي اتفاق ٢٠٢/١ .

^٤ - البرهان ٦٣٩/١ .

^٥ - اتفاق ٢٠٢/١ .

^٦ - المنبر نفسه ٢٠٣/١ .

١٩. يقول السيد المرتضى :

" إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار مما توفرت الدواعي على نقله.... إلى أن ذكر : إن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن ، ثم استدلّ بأنّه منها : أن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب وغيرهما اختصوا للقرآن على عهد النبيّ (ص) عدة ختمات ، وهو يدلّ بأنّني تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتباً غير منشور ، ولا ميثوث ^١ .

٢٠. قال السيوطي يروي حديثاً عن زيد يقول فيه :

' كنا عند النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نؤلف القرآن من الرقاع " ^٢ .

٢١. ونقل أيضاً في الإتيان عن القاضي أبي بكر في الانتصار قوله :

" والذي نذهب إليه : إن جمع القرآن الذي أنزله الله ، وأمر بإثبات رسمه ، ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هذا بين اللفتين . ثم قال : وإن ترتب به ونظمه ثابتان على ما نظمهم الله تعالى ورتبه عليه رسوله من أي المنور ^٣ هذه روايات لبعض المتقدمين من العاملين في الحقول القرآنية ، وهناك مواقف لبعض المتأخرين العاملين في هذه الحقول وفي مقدماتهم السيد الخوئي الذي نفى مختلف الروايات التي تقول بغير هذا للمذهب في مسألة الجمع ، واعتبرها مخالفة للكتاب والسنة والإجماع .

٢٢. يقول مصطفى الرافعي :

^١ - الإتيان ، ٢٣/١ . هذه المرأة هي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله قد أمرها أن ترمي أهل دارها .

^٢ - مجمع البيان ، الطبرسي ج ١ ص ١٥ .

^٣ - الإتيان البوح ١٨ ص ٦٢ ج ١ .

^٤ - الإتيان ، البوح ١٨ ص ٦٣ ج ١ .

” وللنبيّ (ص) صحابة كانوا يكتبون القرآن إذا أنزل ، إما بأمره أو من عند أنفسهم تاماً أو ناقصاً . وأما الذين جمعوا القرآن بتمامه بالاتفاق فهم خمسة ، ثم عدّهم ^١ .

٢٣ . ويقول مناع القطان :

” قد عرفنا أن القرآن كان مكتوباً من قبل في عهد النبيّ (ص) ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف ، والعصب ، فأمر أبو بكر بجمعه في مصحف واحد ... إلى أن قال : فكان أبو بكر أول من جمع القرآن بهذه الصفة في مصحف ^٢ .

ومما يجدر الالتفات إليه قوله المؤلف : إن أبا بكر أمر بجمعه في مصحف واحد ، مما يشير إلى أنه كان في صحف متعدّدة ، خلافاً لمن ادّعى بأن القرآن جمع من صدور الصحابة بشاهدين أو بشاهد واحد ، إذا كان ذلك الواحد ، هو ذا الشهادتين .

٢٤ . ويقول الزرقاني :

” إن الجمع ليس من محدثات الأمور الخارجية ، ولا من البدع والإضافات ، بل هو مستمد من القواعد التي وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كتاب الوحي ، وجمع ما كتبه عنده ، حتى مات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم قال المحامسي في كتاب : فهم السنن ما نصّه : كتابة القرآن ليست بمحدثّة ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم . كان يأمر بالكتابة ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعصب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط ، حتى لا يضيع منها شيء ^٣ .

ولو أراد بنا التنوين والتعداد لأمثال هذه الروايات لذهب بنا بعيداً التدوين والتعداد .

^١ - إجماع القرآن ص ٣٦ .

^٢ - مباحث علوم القرآن : ثلاثة مناع القطان مدير معهد بالرياض .

^٣ - مناهل العرفان في علوم القرآن تأليف الأستاذ في الأهر ج ١ ص ٢٤٢ .

❖ موقفنا من هذه الروايات :

إزاء هذه الروايات لا يمكننا إلا أن نأخذ بأسبابها ، ونطمئن إليها دون غيرها لما تحمل من خصوصيات البداة ، ومقومات الاقناع ، إنَّ موقفنا الذي يقرّ هذه الروايات ويعتد بما تقتضيه في مسألة الجمع القرآني إنما له أسبابه ومن هذه الأسباب :

١. إن هذه الروايات التي تذهب إلى أن جمهرة من أعلام المهاجرين والأنصار قد جمعوا القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، إن هذه الروايات بكثرتها ، وعلى اختلاف عصورها يبعد أن تكون قد توافقت على الكتب ، واجتمعت واتفقت على الانتحال .
٢. هذا الجمع ليس جمع حفظ من الصدور ، ولكنه جمع في السطور ، وتكوين في الصحف. إن دلالة هذه الروايات على الجمع التتويني قاطعة وحاسمة. هنالك من يقول بأن القرآن قد جمعه زيد من صدور الرجال اعتماداً على شهادة شاهدين ، أو شهادة شخص واحد كذبي الشهادتين .

إنَّ هذا القول يقضي بأن القرآن قد وصل إلينا اعتماداً على أخبار الأحاد رغم أن القرآن متواتر السند ، ومستند بدون شرط أو التباس .
فإذا كان الجمع القرآني يعتمد على روايات الأحاد ، ألا يقضي ذلك بإسماح المجال للشك في القرآن أن يلعب دوره ، ويفعل فعله ؟ أليس من الجائز وفي غفلة غافل أن يتسرب التحريف إلى القرآن إن بالزيادة وإن بالنقصان ؟
إنَّه التعصّب الغافل والأسود أن يكون هذا المذهب وهذا الموقف .

إنَّ هذا التفسير للجمع القرآني هو خروج باللفظ عن معناه الأصلي والحقيقي إلى سواء لكن بدون قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى الأصلي والحقيقي .

لقد كان للماوردي تعقيب مستنكر للرواية القائلة بأنه لم يجمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أربعة فقال :
" وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة ، والصحابة متفرقون في البلاد ؟
وإن لم يكمله سوى أربعة ، فقد حفظ جميع أجزائه متون لا يحصون ^١ .

^١ - مهران ١٤٢/١ .

لأن الفرق بين الجمع والقراءة والحفظ هو من الوضوح والجلء بحيث لا يحتاج إلى تبيان أو بيان . والماوردي يفرق هنا بين الجمع والحفظ ، وأنه يعرف معجم للجمع والحفظ ، وأنه يدرك دلالة اللفظ ، وماهية العبارة ، وفحوى الخطاب .

٣. روي عن زيد بن ثابت قوله :

‘كنا حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نؤلف القرآن من الرقاع’^١ ،
وروى أيضاً:
‘ أنه لم يجمع القرآن كله إلا نفر يسير من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ’^٢ .

وماذا تفيد رواية زيد بتأليف القرآن من الرقاع غير للجمع والتدوين ، وضَمَّ السورة إلى السورة والآية إلى الآية ؟ بل ماذا تفيد الرواية الثانية غير الجمع والتدوين للقرآن كله على أيدي نفر اليسير من الصحابة ؟

٤. ومن له أن يشك بأن بعض الصحابة ليس عندهم بعض المصاحف في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلا فكيف كانوا يحفظونه ويتداولونه ؟
لئن ما زعمه الزركشي : بأن بعض القرآن قد جمع بحضرة النبي يحتاج إلى برهنة بل هذا الزعم يحتاج إلى دليل^٣ .

لماذا لا يكون القرآن بجملة قد جمع بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ لقد سبق الزركشي من صرح بأن القرآن قد جمع بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كله لا بعضه .

٥. إن الذي لا ريبه فيه أن بعض المصاحف في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت متداولة عند بعض الصحابة ، والأخير مجمعة على ذلك .
لو لم يكن جمع لما كانت تلك المصاحف موجودة . يقول صلى الله عليه وآله وسلم :

^١ - أخر شامة ، «فرشذ الرحير» ٤٤ .

^٢ - «البرهان» ٢٣٧/١ .

^٣ - «تكملة» ٢٣٧/١ .

” لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ، فمن كتب عني غير القرآن فليحبه “^١ .

ما معنى التسمية بالمصاحف ؟

ما معنى اختلاف هذه المصاحف فيما تذهب إليه هذه الروايات ؟

لقد ورد في كتاب المصاحف قائمة بأسماء مصاحف الصحابة ، وما فيها من الاختلاف الذي يعود في نظرنا إلى التأويل لا إلى التنزيل ، أو إلى عدم الضبط في أسوأ الاحتمالات ، وقد عقد باباً سماه ” باب اختلاف مصاحف الصحابة “^٢ .

من هذه المصاحف : مصحف عمر بن الخطاب ، مصحف علي بن أبي طالب ، مصحف أبي بن كعب ، مصحف عبد الله بن مسعود ، مصحف عبد الله بن عباس ، مصحف عبد الله بن الزبير ، مصحف عبد الله بن عمرو بن العاص ، مصحف عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مصحف حفصة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، مصحف أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم^٣ .

إن المصاحف المشهورة في زمن الصحابة كانت مقروءة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعروضة^٤ .

٦. إن الروايات في قراءة القرآن كلّها وختمه في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تقول بوجود جمعيّ له .

لقد روي عن عبد الله بن عمرو قال : قلت : يا رسول الله في كم أقرأ القرآن ؟ قال : أختمه في شهر ، قلت إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : أختمه في عشرين ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : أختمه في خمس عشرة ، قلت إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : أختمه في عشر ، قلت إني أطيق أفضل من ذلك ، قال : أختمه في خمس ، قلت : إني أطيق أفضل من ذلك ، فما رخص لي^٥ .

^١ - الخطيب البغدادي ، تهذيب المعجم ص ٢٩ .

^٢ - ابن أبي دارود ، كتاب المصاحف ، ٥٠ - ٨٨ .

^٣ - انظر نفسه ، والمصاحف نفسها .

^٤ - طبراني ، تاريخ القرآن ص ٢٩ .

^٥ - مقدمان في علوم القرآن ص ٢٧ .

وزوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله :

” لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث “^١ .

أي قرآن هو الذي يشير إليه النبي ﷺ إن لم يكن مجموعاً ، ومتداولاً بما تنبئ سر قراءته عند المسلمين ؟

٧. إن العقل ومنطقه يدلان على أن القرآن قد جمع في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم . أمّا القول بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد كان منه إهمال للقرآن ولم يجمعه إلى أن جاء زيد وجمعه من صدور الرجال بشاهدين ، أو بذي الشهادتين ، هذا القول مشبوه ولا ينسجم مع مقتضيات العقل .

هل يأتلف مع العقل القول بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يهتَم بالقرآن كل الاهتمام ، ولم يضبطه ، ولم يحفظه ، رغم أن الله نهاه عن العجلة به قوله ” لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه “ القيامة : الآية - ١٥ - ١٦ ، ورغم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم العلم اليقين أن القرآن هو محور الحضارة الإسلامية إلى يوم الدين ؟ كيف لنا أن نتصور النبي صلى الله عليه وآله وسلم يترك القرآن موزعاً في صدور متفرقة دون تدوينه ؟

٨. ليس هناك من أخبار تشير إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان له كُتُب يكتبون الوحي. إذا نزل ، بل كان النبي ﷺ يرسل في طلبهم إذا نزل الوحي ولم يكونوا متواجدين . كيف يمكننا القول بأن النبي ﷺ قد أهمل القرآن لئلا ياتي بعده زيد ويجمعه من صدور الرجال وقد كان للنبي ﷺ كُتُب الوحي ؟

ولطالما النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائد معصوم فلا بد له أن يعنى بالقرآن ويضبطه ويدونه ليصونه !

ليس مقبولاً القول بأن زيداً قد جمع القرآن بعد النبي ﷺ بشاهد أو شاهدين من صدور الرجال ، خاصة أن هذه الأخبار لها من يقول بصحتها ، ويلتزم بها .

^١ - مقدمة في علوم القرآن ، ص ٣١ .

٩. إن القرآن هو الدستور الرئيس للأمة الإسلامية من حيث العقيدة والتشريع والثقافة والإجماع والأخلاق .

إن القرآن هو أصدق وأوثق المصادر التاريخية ، وأروع النصوص الأدبية لدى المسلمين . إن القرآن بالنسبة للمسلمين يمثل المحتوى الروحي والفكري والاجتماعي .

١٠. ألم يعكف المسلمون منذ البدء على حفظ القرآن واستظهاره انطلاقاً من شعورهم بالأهمية التي يحتلها في حياتهم الاجتماعية .
إن الصحابة الذين عرفوا بحفظ القرآن ... مهما بلغوا من السور والتقوى والأمانة والإخلاص فهم لا يخرجون عن كونهم أشخاصاً عتيقين يعتبرهم الخطأ والنسيان ، كما أنهم كانوا معرضين للاستشهاد ، والانتشار في الأقطار الإسلامية بغية الدعوة له سبحانه ، وكلّ هذه الأمور التي كانت متوقعة تصبح خطراً على النص القرآني إذا ترك مرتبطاً في حفظه بهذه الوسيلة ، ومرتبناً بهذا الأسلوب^١ .

١١. وعاش للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع الأمة في آمالها وآلامها ، وأدرك حاجاتها ، ووعى مسؤوليته إزاءها . كما عاش حياة الاضطهاد التي كانت وليدة قيامه بالدعوة إلى الله سبحانه ، وعمله على قلب الواقع الفكري والاجتماعي للأمة .

لقد عاش حياة القيادة وسياسة الأمة وإدارة شؤونها في أيامها الصعبة ، لقد مارس الحرب والجهاد ، وبنى المكر والخداع والنفاق والارتداد . وعرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم تاريخ الرسالات الإلهية ونهايتها على أيدي المزورين والمحرفين والمتاجرين بالدين .
مثل هذا الإنسان ليس لنا أن نشك في إدراكه لمدى ما يمكن أن يتعرض له النص القرآني من خطر حينما يربط مصيره بالحفظ والاستظهار في صدور الرجال .

^١ - علوم القرآن ، محمد باقر حكيم ص ١٠ .

١٢. إن التسجيل كان ممكناً ، وإن التكوين لم يكن في عصر النبي صعباً . فللسألة تحتاج إلى إخلاص في العمل ، وتوفير أدوات الكتابة . وليس هذا من الصعوبة في شيء في ذلك العهد .

١٣. إن الإخلاص النبوي للقرآن لا مجال للشك فيه ، لأن النبي كان يؤمن بأن القرآن معجزته ، وبرهان دعوته . هذا كله يكون اليقين بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتكوينه في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأن أهمية القرآن الذاتية مع وجود الخطر عليه ، والشعور بهذا الخطر ، وتوفير أدوات التكوين والكتابة ثم الإخلاص للقرآن حين تجتمع لا يبقى مجال للشك بتكوين القرآن في عهد رسول الله وكتابته في زمانه ^١ .

وينتهي بنا الحديث في هذا الشأن إلى أن الضرورة تفرض علينا الالتزام بأن القرآن قد انتهى به الجمع والتكوين أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على صورة متقنة وناقضة تحول بين القرآن والتحريف ، وتدفع عنه شرَب التشويه والتزوير .

❖ تتفاضل الجمع البكري والعمرى والعثماني :

إن النصوص والروايات التي تحثت عن الجمع لا تتفق على صيغة واحدة ، ولا على مضمون واحد . إنها تنسب الجمع إلى أشخاص مختلفين كما أنها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه .

هناك الروايات المختلفة التي تذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قضى والقرآن لم يجمع في مصحف بعد ، وقد وردت هذه الروايات في كل من صحيح البخاري ، ومسند أحمد ، وكنز العمال ، ومنتخب كنز العمال ، والإتقان .

هذه الروايات على كثرتها فإنها ضعيفة لا يمكن الأخذ بها أو الاعتماد عليها . وحسب هذه الروايات ضعفاً تناقضها في جوانب كثيرة . من هذه الجوانب المتناقضة في تحديد عهد الجمع :

١. تحديد العهد الذي جمع فيه القرآن ، هذا التفاضل يتردد بين عهود أبي بكر ، عمر ، عثمان .

^١ علوم القرآن ، عهد باقر الحكيم ص ١٢ .

متى جمع القرآن في مصحف ؟
من الروايات ما يشير إلى أن الجمع قد تحقق في العهد العثماني ، ومنها ما يذهب إلى أنه قد تم في العهد البكري ، وبعضها ما يفيد إلى أنه قد تم في العهد العمري .

٢. المتصدّي لهذا الجمع :
من هو المتصدّي لهذا الجمع ؟ هل هو أبو بكر ، أو عمر ، أو زيد بن ثابت ؟
هناك من الروايات ما يفيدنا بأنّ الذي تصدّى لهذا الجمع هو زيد بن ثابت ، ومنها ما يقول بأنّه أبو بكر ، وأخرى تصرّح بأن المتصدّي لهذا الجمع هو زيد وعمر .
٣. هل بقي من الآيات ما لم ينوّن إلى زمن عثمان ؟
معظم الروايات تصرّح بأنّه لم يبق شيء لم ينوّن ، وقليل منها يفيد بأن بعض الآيات لم تنوّن .

٤. من الذي طلب من أبي بكر جمع القرآن ؟
من روايات تقول بأنّه عمر ، وروايات ترى بأن عمر وزيداً قد طلبا بالإحاح منه ذلك ، فكانت الاستجابة بعد مشاورة المسلمين .
٥. متى ألحقت بعض الآيات في القرآن ؟ وبماذا ثبت ذلك ؟ وهل يكفي ذلك لتواتر القرآن ؟
صريح بعضها أنّ إلحاق الأيتين بأخر سورة براءة كان في العهد البكري ، وظاهر غيرها أنّه كان في العهد العمري .

وثبت أنّهما من القرآن بشهادة الواحد هو أبو خزيمة في بعضها وخزيمة بن ثابت في بعضها الآخر ، وهما رجلان ليس بينهما نسبة أصلاً ، وفي بعض الروايات قد ثبت بأنّ الأيتين من القرآن بشهادة اثنين هما أبو خزيمة وعثمان ، وبشهادة أبي خزيمة وعمر في رواية أخرى .

٦. من جمع الإمام ولرسل منه نسخاً إلى البلاد ؟
الذي قام بهذه المهمة هو عثمان في رواية وعمر في رواية أخرى .
٧. هل محا عثمان ممّا كان مدوّناً قبله من القرآن ؟

كثيرة هي الروايات التي تحكم بأن عثمان لم يحذف شيئاً من ذلك ، ورواية تذهب إلى أنه قد حذف شيئاً مما كان متواتراً قبله وأمر المسلمين بمحو ما محاء .

٨. من أي مصدر جمع عثمان المصحف ؟

لقد اعتمد على المصحف التي جمعها أبو بكر في روايات ، واعتمد على شهادة شاهدين ، وبأخبار من سمع الآية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في روايات أخرى .

٩. من الذي كلفه عثمان بكتابة القرآن وإملائه ؟

وتختلف الروايات في هذا الشأن أي اختلاف :

- هو زيد ، وابن الزبير ، وسعيد وعبد الرحمن في روايات .
- وهو زيد للكتابة ، وسعيد للإملاء في روايات .
- ثقيف للكتابة ، وهذيل للإملاء في روايات أخرى .
- المملي هو أبي بن كعب^١ .

وكما تتناقض روايات الجمع البكري والعمرى والعثماني في تحديد عهد الجمع فهناك

تعارض في روايات الجمع .

وقد كان السيد الخوئي معارضة لهذه الروايات بروايات أخر نزل على جمع القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً فيها إلى كنز العمال ، وصحيح البخاري ، وإتقان السيوطي ، وقد اعتبر التمهّل بأن المراد من الجمع في هذه الروايات هو الجمع في الصدور لا التدوين ، دعوى لا شاهد عليها ، لأن الحفاظ أكثر من أن يعدوا فكيف يمكن حصرهم في أربعة أو ستة ؟^٢

من أجل ذلك كان لا يمكن الأخذ بمضمون هذه الروايات وإن كثرت وإنما يمكن تفسيرها بأنها جاءت بصدد الحديث عن جمع القرآن بشكل مصحف منظم الأوراق والصفحات ، الأمر الذي تمّ في عهد الصحابة ، وليست بصدد الحديث عن عملية جمع القرآن بمعنى كتابته عن بعض الأوراق وصدور الرجال كما تشير إليه بعض الأحاديث . وهذا

^١ - راجع شياب ، الحوفي ص ٢٦٥ .

^٢ - البيان ، ١٦٩ .

سسير هو ما يفرضه منطق الالتزام بصحة المضمون الإجمالي الذي تؤكد عليه الروايات بأكملها^١.

❖ العقل والجمع :

إن روايات جمع القرآن في العهد النبوي هي التي نأخذ بها لأن ذلك يتسجم مع أحكام العقل .

أما روايات الجمع المبكر والعمري والعثماني فهي متناقضة مع كل ما يحكم به العقل ومخالفة لكل ما يقضى به العقل .

ألين للقرآن قيمة عظيمة في ذاته ؟

ألم يهتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحفظه وقراءته ؟

أو لم يكن المسلمون يهتمون بما يهتم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما يستوجبه ذلك من الثواب ؟

إذا ثبت ذلك فإنه يتعارض مع جمع القرآن على النحو الذي ذهبت إليه روايات الجمع بعد العهد النبوي .

إن القرآن في البلاغة لا يجارى وفي الفصاحة لا يبارى ، والعرب يمتلكون ذائقة عربية مرهفة ، ويهتمون بحفظ الكلام والفصح والبليغ . فكيف بالقرآن المعجزة في هذا الشأن ؟ فالؤمن العربي يحفظه لإيمانه ، والكافر يحفظه لأنه يرغب في معارضته ، ويعمل على إبطال حجته .

إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان للقرآن شغله الشاغل تلاوة وحفظاً وعبادة وممارسة ، والمسلمون كانوا يهتمون بما يهتم به نبيهم . لأنه قدرتهم ، وتقهرهم ، ومطمهم .

وإن حفظ القرآن يكسب صاحبه مكانة مميزة بين الناس . ونسب كهذا أقبل للناس على القرآن يقرأون ويتلون ، ويحفظون . إن لقراءة القرآن ثواباً عظيماً ، وأجرأ بالغاً .

لقد أخرج ابن سعد في الطبقات :

^١ علوم القرآن ، السيد حكيم ص ١٢ .

١- أنبأنا الفضل بن دكين ، حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع . قال : حدثتني جدتي عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزورها ، ويسمّيها التمهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن . إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين غزا بدرأ قالت له : أتأذن لي فأخرج معك أدوي جرحاكم ، وأمرض مرضاكم لعل الله بهدي لي شهادة . قال : إن الله مهلك لشهادة ١ .

وما أكثر قراءة القرآن في العهد النبوي !

قال القرطبي :

٢- " قد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء ، وقتل في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين معونة مثل هذا العدد ٣ ونزل القرآن نجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة . وإن كان هذا ليبعث على اليقين القاطع بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر بكتابة القرآن وتكوينه .

قال زيد :

٤- " كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نؤلف القرآن من الرقاع " .

روي عبادة بن الصامت قال :

٥- " كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يشغل ، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفعه إلى رجل منّا يعلمه القرآن " ٥ .

وروى كليب ، قال :

٦- " كنت مع علي عليه السلام فسمع ضججتهم في المسجد يقرأون القرآن . فقال : طوبى لهؤلاء ... " ٦ .

بعد الذي تقدم من زوايات تدلّ على اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصحّابته والمسلمين بالقرآن ، هل يجوز لنا القول بأن جمع القرآن قد تأخر إلى العهد البكري ، وأنّ أبنا بكر احتاج في القرآن إلى شاهدين يشهدان أنّهما سمعا ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

١- الإيضاح للشرح ٢٠ ج ١ ص ١٢٥ .

٢- الإيضاح للشرح ٢٠ ص ١٢٢ .

٣- مسند أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ .

٤- كنز العمال ، مسائل القرآن النظم الثانية ج ٢ ص ١٨٥ .

وأجمع المسلمون على أن القرآن لا طريق لإنشائه إلا التواتر ، نكس إنشأت الآيات القرآنية بشهادة الواحد يخالف هذا الإجماع . إن القطع بلزوم كون القرآن متواتراً يحتم القول بكتب هذه الروايات .

لا بد من طرح هذه الروايات لأنها تدل على ثبوت القرآن بغير التواتر ، وهذا باطل بالإجماع .

❖ دلالة لفظة " الكتاب " على الجمع :

لقد ورد لفظ " الكتاب " في القرآن والسنة النبوية المؤثقة للدلالة على ما هو مجموع ومحفوظ . لقد استعمل لفظ " الكتاب " في القرآن بهذا الشأن في أكثر من مائة موضع، وإليك نماذج منها :

١. " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " البقرة : الآية - ٢ .
٢. " نزل عليك الكتاب بالحق " آل عمران : الآية - ٣ .
٣. " هو الذي أنزل عليك الكتاب " آل عمران : الآية - ٧ .
٤. " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق " النساء : الآية - ١٠٥ .
٥. " وأنزلنا إليك الكتاب بالحق " المائدة : الآية - ٤٨ .
٦. " وهذا الكتاب أنزلناه مبارك " الأنعام : الآية - ٩٢ .
٧. " كتاب أنزل إليك " الأعراف : الآية - ٢ .
٨. " أئر ، تلك آيات الكتاب الحكيم " يونس : الآية - ١ .
٩. " أئر ، كتاب أحكمت آياته " هود : الآية - ١ .
١٠. " أئر ، كتاب أنزلناه إليك " إبراهيم : الآية - ١ .

وكما ورد لفظ " الكتاب " في القرآن فقد ورد هذا اللفظ في السنة النبوية الشريفة في مواطن كثيرة أبرزها حديث الثقلين :

قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

" إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي " ^١ .

^١ - ابن كثير ، جامع الأصول ١/ ١٨٧ .

ومن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

" إني مخلف فيكم الثقلين ، ما إن تمسكتن بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي أهلي بيتي " .^١

إن لفظ " الكتاب " الوارد في هذه الآيات ، وفي الحديثين ، إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن القرآن منونٌ تدويناً جمعياً ، وإلاّ لما صحّ أن يطلق عليه لفظ " الكتاب " ، فلفظة " الكتاب " تعارض بل تتناقى مع روايات الجمع البكريّ والعمرىّ والعثمانيّ .

إن السور القرآنيّة كانت على انتشار واسع بين المسلمين ، كما كانت على تداول ناشط لدى المشركين وأهل الكتاب . وهذا هو القرآن يتحدّى الكفار والمشركين على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب ، وبعض سور مثله مقريّات ، وبسورة من مثله ، وبآيات كتابته .

ألا يشير هذا التحدي إلى أن سور القرآن وآياته كانت في متناول أيدي هؤلاء القوم دراسة وتداولاً وتلاوة ؟ ألا يفيد هذا التحدي أن سور القرآن كانت مشهورة في الخارج مشهودة بحيث يتسنى للمشركين أن يظفروا بها ، أو أن تعطى لهم ، وإلاّ كان التحديّ بغير الموجود ، وهو لا يصح .

في لفظ " الكتاب " دلالة على أنه كان مكتوباً مجموعاً ، لأنه لا يصح إطلاق الكتاب عليه وهو في الصدور ، بل ولا على ما كتب في اللخاف ، والعصب ، والأكتاف ، إلّا على نحو المجاز والعناية ، والمجاز لا يحمل اللفظ عليه من غير قرينة ، فإن لفظ الكتاب ظاهر فيما كان له وجود واحد جمعي ، ولا يطلق على المكتوب إذا كان مجزّأً غير مجتمع ، فضلاً عما إذا لم يكتب ، وكان محفوظ في الصدور فقط ^٢ .

إن أحاديث الثقلين مشهورة معروفة لدى المسلمين ، وفي هذه قد أطلق الكتاب على ما تركه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أمته .

فإن الكتاب لا يطلق إلّا على شيء مكتوب ذي خصوصيات معنيّة ، فلا يصدق على ما يحفظه الناس في صدورهم ، وما يقرأه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لهم أنه كتاب . وإذا

يقال لأشعار يحفظها الناس في صدورهم لشاعر معيّن ؟

^١ - العنبري ، البيان ، ٣/١ .

^٢ - شيبان ، الخولي ، ٢٧٦ .

بن عابه ما يمكن أن يقال فيها : إنها أشعار فلان ، ولا يطلق عليها ديوان .
وقال الخولي فيما تقدم : إن لفظ " الكتاب " لا يطلق على مكتوبات متفرقة في اللغات،
والعسب ، والأكتاف إلا على نحو المجاز والعناية ، فإن لفظ الكتاب ظاهر فيما كان له وجود
واحد . مرفوض أن يقال بأن الكتابة في العهد النبوي كانت محدودة ، فكان عظم التسديين
القرائي . لأن كانت الكتابة محدودة فإنها لم تكن بحدود الأرقام التي أوردها المؤرخون . وإن
شكنا ليزداد حينما نسمح البلاذري يقول :

" دخل الإسلام وفي قریش سبعة عشر رجلاً يكتب " .^١

وما أورده ابن عبد ربه الأندلسي بخضع لهذا الشك :

" لم يكن أحد يكتب بالعربية حين جاء الإسلام إلا بضعة عشر رجلاً " .^٢

ومما لا اريب فيه أن العرب كأمة كانوا أميين ، لكن من جانب آخر لا يخلو العرب من
أفراد منتشرين هنا وهناك كانوا يلمون بالقراءة والكتابة وأدواتها .

وهناك دلالات أخرى للأمية ، نل أفضلها تعليل ما رواه ابن أبي عمير ، عن معاوية
بن عمار ، عن الإمام جعفر الصادق (ع) في تفسير قوله تعالى :
﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة : الآية - ٣ .
قال الصادق : " كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ، ولا بُعث إليهم
رسول ففسبهم الله إلى الأميين " .^٣

وما الذي يحول بين القرآن وتكوينه ؟

هل أمية المعلم ؟ هل ندرة الكتاب ؟ هل قلة وسائل الكتابة ؟

ليس من المنطق في شيء ، ولا من المقبول بالمطلق ، أن يقال أن هذا يحول دون
تكوين القرآن !

لَمْ يَتَّخِذِ النَّبِيُّ عِندَآ مِنَ الْكُتَّابِ سِوَا بَكَّتَابِ الْوَحْيِ ، فِي كُلِّ مِنْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَبِى
طَبِيعَتِهِمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ ، وَزَيْدٌ ، وَأَبِي " .^٤

^١ - فروع الشبان / ٤٧٧ .

^٢ - حشد الفرد ، ١٤٢/٤ .

^٣ - الطبقات ، الميزان ، غير مصدر .

^٤ - إعتباري ، الرزاة والكتاب ، ص ١٤ .

قال للافاضي أبو بكر الباقلائي :

"وما على جديد الأرض أجهل ممن يظنّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه أهمل في القرآن أو ضيَّعه ، مع أنّ له كتاباً أفاضل معروفين بالانتصاب لذلك من المهاجرين والأنصار ، فمن كتب له من قریش من المهاجرين : أبو بكر وعمر وعثمان ، وعليّ ، وزيد بن أرقم ، وخالد بن سعيد ، وذكر أهل التفسير أنّه كان يملئ على خالد بن سعيد ، ثمّ يأمّره ببطي ما كتب وختمه ... ومنهم الزبير بن العوام ، وحنظلة ، وخالد بن أسد ، وجهم بن الصلت ، وغير هؤلاء " .^١

وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حريصاً على سلامة التتوين القرآنيّ ، وكان يحقّق ويدقّق في هذا التتوين ، بل كان يشرف بنفسه مباشرة على هذا التتوين ليضمننّ إلى مطابقة الذي دوّن للوحي . قال زيد بن ثابت :

"كنت أكتب الوحي عند رسول الله ، وهو يملئ عليّ ، فإذا فرغت قال : اقرأه ، فأقرأه ، فإن كان فيه سقط أقمه ، ثم أخرج به إلى الناس " .^٢

يمكننا أن ندرك مدى اهتمام الجاهليين في تتوين المأثورات الدينية من حديث سويد بن الصامت :

"إنه قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن الذي معك مثل الذي معي ، فقال : وما الذي معك ؟ قال سويد: مجلّة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها عليّ ، فعرضها عليه ، فقال له : إنّ هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى ، هو هدى ونور " .^٣

يبدو أنّ العرب في جاهليّتهم كانوا يهتمون بتتوين الموروثات الثقافيّة والدينيّة ، لعن القرآن هو ادّعى لديهم للتتوين من غيره بعد أن أعلن العرب إسلامهم ، وبعد أن أصبحوا يعتبرون القرآن كتاب عقيدتهم وأخلاقهم واقتصادهم ، وقانونهم ، ومعاملاتهم ، وسياساتهم ، وخاصة أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يوجههم إلى حفظه ويدعوهم إلى مدرسته.

^١ - جبالاوي ، نكت الانتصار ص ١٠٠ .

^٢ - الفتوي ، أدب الكاتب ص ١٦٥ .

^٣ - ابن هشام ، السيرة النبويّة ٦/١ ، والزحدرى ، طلائع ١/٢٦١ .

ألم يكن للرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدفعه الذي يعلن إسلامه إلى أصحابه ليعلموه ؟
القرآن ؟

فكان الرجل إذا هاجر دفعه النبي إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن ، وكان يسمع
تمسجد رسول الله ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله أن يخفوا أصواتهم لئلا
يتغالبوا^١ ، يقول محمد عبد الله دراز :

" إن النص المنزل لم يقتصر على كونه قرآناً أو مجموعة من الآيات تتلى أو تقرأ ،
وتحفظ في الصدور ، وإنما كان أيضاً كتاباً مدوناً بإعداد ، فهاتان الصورتان تتضافران
وتصح كل منهما الأخرى ، ولهذا كان الرسول كلما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين
أمله من فوره على كتبه الوحي^٢ " .

وحل هنالك من ريب هو أن الاسم البارز والأمثل لسورة الحمد هو فاتحة الكتاب ؟
وكيف سميت بفاتحة الكتاب ؟
نقد ثبت بالإجماع أن هذه السورة ليست بفاتحة سور القرآن نزولاً وإنما هي فاتحته
نظماً وترتياً وتكلاً^٣ .

❖ دلالة لفظة " المصحف " على الجمع .

إن لفظة " المصحف " لا تقوم مقامها ألفاظ المعيب ولا الرقاع ولا اللخاف ولا
الأكثاف، ولا تكل دلالتها ، لأن " المصحف " يفيد الجمع المنظم والمنسق بينما تلك
تفيد التفرق والتشردم والتفريق .

لقد أورد ابن حجر ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس بن أبي أوس ، وكان في الوفد
الذين أسلموا على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : " فسلنا أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث
سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ،
وحزب المفصل من " ق " حتى نختم " يعني للقرآن " .

^١ - الرقاع ، سهل الترمذاني ٢٢٤/١ .

^٢ - مدخل في القرآن الكريم ٣٤ .

^٣ - مقدمة في علوم القرآن ، ٤١ ، وما بعدها .

قال ابن حجر : فهذا يدلُّ على أنَّ ترتيب المور على ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد رسول الله ^١ .

ولورد السيوطي بأنَّ القراءة في المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، لأنَّ النظر في المصحف عبادة مطلوبة . لقد أورد روايات عدة مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها ذكر المصحف ، ممَّا يفيد بأن لفظ " المصحف " المجموع فيه القرآن ، كان شأنهما معروفاً ، وإذا دلالة معيّنة منذ عهد النبي ، فما رفع إليه على سبيل المثال ^٢ :

- ما أخرجه الطبراني ، والبيهقي في الشعب من حديث أوس الثقفي مرفوعاً :
" قراءة الرجل في غير المصحف ألف درجة ، وقراءته في المصحف
تضاعف ألفي درجة " .

- ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود مرفوعاً :
" من مرَّه أن يحب الله ورسوله ، فليقرأ في المصحف .
- وأخرج بسند من حسن موقوفاً :
" أديموا النظر في المصحف " .

- وأخرج غير السيوطي ، عن أبي هريرة : أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :
" الغرباء في الدنيا أربعة ، وعدَّ منها مصحفاً لا يقرأ فيه " ^٣ .

وروى بن ماجه وغيره ، عن أنس مرفوعاً :
" سبع يجري للعبد أجرهن بعد موته ، وهو في قبره ، وعدَّ منهن : من ورث مصحفاً " ^٤ .

وعن ابن عمر ، قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسافر بالمصاحف إلى أرض العدو ، مخافة أن ينزلوها ، وفي لفظ آخر : نهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو ^٥ .

ألا تكلَّ هذه الأحاديث على وجود جمعي وتألفي ، في مصحف ؟

^١ - ابن حجر ، فتح الباري ٤٢/٨ .

^٢ - الإتيان ٣٤/١ .

^٣ - الحارثي ، عجمي القدير .

^٤ - السرخسي ، الإتيان ١٦٦/٤ .

^٥ - ابن أبي داود ، كتاب النماذج ١٨٠ - ١٨١ .

وهذا هو دراز يعتبر ما جمعه أبو بكر مصحفاً إلا أنه أرجعه إلى عهد رسول الله بالطريقة التي عثر عليها بقوله :

"ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن آيات مصحف حفصة لا ترجع إلى الخليفة الأول ، وإنما ترجع بنصها الكامل إلى رسول الله ^١ .

وإن كان للجمع البكري من صحة فإنه قد استتمخ لنفسه مصحفاً شأن بقية الصحابة .

لقد أورد ابن حجر في شأن الكتابة قوله :

"ولم يأمر أبو بكر إلا بكتابة ما كان مكتوباً" ^٢ .

وينتهي بنا للحديث في الجمع القرآني إلى الأمور الآتية :

١. تتفاضل روايات الجمع البكري والعمرى والعثمانى ، وتعارضها فيما بينها ومجافاتها للمنطق العقلي .

٢. الجمع البكري لا يتجاوز مصحفاً خاصاً به كما هو شأن سائر الصحابة الذين اتخذ كل واحد منهم مصحفاً لنفسه كعلمي ^٣ (ع) وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود وغيره .

٣. الجمع العثماني ما هو إلا جمع على قراءة واحدة لا جمع تأليفي تنظيمي ترتيبى . وهذا الجمع كان فيه الخير الكثير ، وفيه دفع للخلاف المحتمل وقوعه بين المسلمين حول القرآن ، وإن كنا نرفض عملية إحراق المصاحف على يد الخليفة عثمان كل الرخص .

٤. الجمع القرآني كان في العهد النبوي ، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان له كتاب الوحي وكان يهتم بالقرآن حفظاً وتلاوة وتويناً ، تعليمياً ونشراً وتفسيراً . فالمقل يحملنا على القول بهذا الجمع ، والنقل يوثق مسألة هذا التدوين . إن لفظة "الكتاب" وإن لفظة "المصحف" تشيران إلى هذا الجمع . وحسبنا من هذا كله قوله تعالى : "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" ، وهل الحفظ في الصدور لا يعرض القرآن للتحريف إن زيادة وإن نقصاناً ؟ إنه التدوين ، وإنه الجمع التأليفي وحده الذي يحفظ القرآن من الضياع ، ويصونه من التحريف .

^١ . مدخل إلى القرآن الكريم ص ٤٦ .

^٢ فتح الباري ١٢/٩ .

مصاحف الصحابة

تدوين العلوم أمر يستحسنه العقل ويتقضيه الطبع لما في هذا التدوين من صون للعلوم، وحفظ لها من الضياع .

وورد في صحيح مسلم حديث يقول :

" لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليحبه " ^١ .

هذا الحديث ينهي الصحابة عن تدوين الحديث كما في ظاهره لكن لا بد أن يحل هذا الحديث على وجه لا يتعارض مع الحسن العقلي أو الحسن الطبيعي .

لسبب كهذا قيل : كان النهي أولاً خيف اختلاطه بالقرآن ، والإن بعده ، لما آمن من ذلك ، وكان بين السلف من الصحابة والتابعين خلاف في جواز كتابة الحديث ، ثم أجمعت الأمة على جوازها واستحبابها ^٢ .

والإسلام في قرانه وحديثه يحث الناس على تعلم الكتابة . ألم يمجّد القرآن القلم ويعظمه ؟ ألم يقسم الله تعالى بالقلم " ن ، والقلم وما يسطرون " . ألم يجعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تعليم الكتابة فداء للأشرف البشريين ؟

وقال الصادق (ع) : " القلب يتكلم على الكتابة " ^٣ .

يلحظ بأن كل من كان من الصحابة يتم بالكتابة كان يدون ما كان يسمعه من كتاب الله تعالى بمقدار ما كانت وسائل الكتابة ، وأدوات الكتابة في ذلك العصر تسمح له بذلك من تلك الوسائل الكتابية في ذلك العصر كانت الرقاع ، والأحجار وعظام الأكتاف ، والعصب وغيرها .

ونسبت مصاحف إلى الصحابة ، وسميت بأسمائهم ، لأنهم كتبوها فبيدوا لها قراءة وتلاوة واستظهاراً واستكثراً ومدارسةً .

^١ - عن أبي سعيد الخدري .

^٢ - صحيح مسلم ، شرح النووي ج ١ ص ٢٤٤ .

^٣ - الترمذي ، ج ١ باب فضل الكتابة .

عدد من الصحابة جمعوا مصاحف خاصة بهم . من هذه المصاحف :
 مصحف أمير المؤمنين (ع) ، مصحف الزهراء (ع) ، مصحف الخلفاء الثلاثة
 [مصحف حفصة] ، مصحف عبد الله بن مسعود ، مصحف أبي بن كعب ، مصحف عبد الله
 بن عباس ، مصحف عائشة ، مصحف أم سلمة .

١. مصحف أمير المؤمنين (ع) :

ورد في كتاب " سليم بن قيس " عن سلمان : " أن علياً عليه السلام بعد وفاة النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم لزم بيته ، وأقبل على القرآن ، يؤلفه ويجمعه ، فلم يخرج
 من بيته حتى جمعه ، وكان في المصحف ، والمشظاظ^١ ، والأسفار^٢ ، والرقاع ...
 إلى أن قال : فجمعه في ثوب واحد وختمه^٣ .

وعن ابن شهر آشوب :

" أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يا علي ، هذا كتاب الله خذ به إليك ،
 فجمعه علي عليه السلام في ثوب ، ومضى إلى منزله ، فلما قبض النبي جلس فألفه كما أنزل
 الله ، وكان به عائلاً^٤ .

وعن الكليني ، قال :

" لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعد علي بن أبي طالب في بيته
 فجمعه على ترتيب نزوله ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كثير^٥ .

وعن الاحتجاج لعلي (ع) على جماعه من المهاجرين والأنصار :

" أن علياً عليه السلام ، قال : يا طلحة ، إن كل آية أنزلها الله على محمد صلى الله
 عليه وآله وسلم غندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط يدي وتأويل كل آية
 أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل حلال أو حرام أوحى أو حكم ، أو

^١ - مشظاظ : جمع مشظة : حبة عفاء .

^٢ - أسفار : فتحة من بلد مستطيلة .

^٣ - سليم بن قيس ، ص ٦٥ .

^٤ - الشهيد في علوم القرآن ، ج ١ ص ٢٢٧ .

^٥ - تفسيره ، ص ٢١٩ ومقدمة تفسيره ص ٢٧ .

شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط يدي حتى أُرش الخدش^١ .

عن محمد بن سيرين قال :

" ولو أصيب ذلك الكتاب لكان فيه العلم^٢ .

ويقول ابن النديم :

" أنه رأى عند أبي يعلى حمزة الحميمي مصحفاً بخط عليّ بنو الحسن^٣ .

هذه الأحاديث وهذه الروايات يستفاد منها أن علياً (ع) كتب ما كان عند النبي ، وأضاف إليه التزويل والتأويل ، أي أنه أضاف إليه كل ما نزل من الله حول القرآن وليس من القرآن ، ولعله في تفسير القرآن . أمّا التأويل فهو أنه أضاف إلى القرآن كل ما يوضحه ويدور في فلكه لأنه أعرف به من الكل . لا تعارض ولا منافاة بين القول بأن القرآن قد تمّ جمعه في العهد النبوي وبين القول بأنه جمع بيد باب مدينة علمه مع التفسير والتأويل وغيرهما من خصائص القرآن ودقائقه بعد أن قضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحبه .

لقد ورث الأئمة عليهم السلام هذا المصحف إماماً بعد إمام حتى انتهى إلى الأخير من الأئمة . لقد ورد في الحديث المروي في الاحتجاج من أن طلحة سأل علياً بعض المسائل ، ومن جملتها قوله له : أخبرني مما في يدك من القرآن وتأويله ، وعلم للحلال والحرام ، إلى من تنفعه ومن صاحبه بعدك ؟ قال : إن الذي أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أن أدفعه إلى وصيي ، وأولى الناس من بعدي بالناس : ابني الحسن ، ثم يدفعه ابني الحسين إلى ابني الحسين (ع) ثم يصير واحداً من ولد الحسين حتى يرد آخرهم^٤ .

ومن الروايات في شأن المصحف العلوي احتجاجة (ع) على الزنديق من أنه :

" أتى بالكتاب كاملاً مشتملاً على التأويل والتزويل ، والحكم والمشابه ، والناسخ والمنسوخ ، لم يسقط منه حرف ألف ولا لام فلم يقلوا ذلك^٥ .

^١ - مقدمة تفسير القرآن ص ٣٨ .

^٢ - تنزيح الغلاء للسيوطي ص ١٨٥ .

^٣ - شهرت ص ٤٨ .

^٤ - مقدمة تفسير الصافي ، ص الاحتجاج ص ١٠ .

^٥ - تفسير الصافي ، المقدمة السادسة ص ١١ .

ومنها ما رواه في الكافي بإسناده عن جابر ، عن أبي جعفر (ع) قال :
 "ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ، ظاهره وباطنه غير الأحياء"^١ .
 وبالإسناد عن جابر ، قال :

سمعت أبا جعفر (ع) يقول : ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كما أنزل إلا
 كذّاب ، وما جمعه كما نزله الله تعالى إلا على بن أبي طالب ، والأئمة من بعده عليهم
 السلام^٢ .

إن الذي لا شك فيه أن لأمر المؤمنين (ع) مصحفاً يشتمل على زيادات ليست في
 القرآن الموجود بين أيدينا ، إلا أنه لا دلالة في ذلك أن هذه الزيادات كانت من القرآن ، وقد
 أسقطت منه بالتحريف بل تلك الزيادات كانت تفسيراً بعنوان التأويل ، وما يؤول إليه الكلام أو
 بعنوان التنزيل من الله شرحاً للمراد^٣ .

فالزيادات وإن كانت صحيحة فإنها ليست من القرآن ، إنما هي تنزيل وحى ولكنها
 ليست قرآناً ، وإنها تأويل أي لما يؤول إليه الكلام ويرجع ، كل ذلك يؤدي إلى أن القرآن لا
 تحريف فيه في هذا المصحف كما ادعى البعض .

إن الروايات متضاربة على جمع الإمام عليّ (ع) للقرآن حتى سمي ذلك بمصحف
 عليّ ، هذا المصحف لا يختلف في قليل أو كثير عن مصاحف سائر الصحابة ممن جمعوا
 القرآن ، ولا عن القرآن المعاصر بشيء ، لأن الإمام (ع) كان قد ولي الخلافة ، ولو كان في
 القرآن شيء منه لم يثبت لأثبته وفق ما يراه وهو الإمام الحاكم آنذاك. قد يستفاد من النصوص
 أن علياً قد جمع القرآن ورتبه تاريخياً بحسب النزول وأسبقيته كما أنه قد قسمه على سبعة
 أجزاء بحسب ما أثبته الرزجاني بعنوان "ترتيب السور في مصحف عليّ" ، وقد طبع في
 لايبزك عام ١٨٧١ م^٤ .

مصحف عليّ في سورة وآياته ونصوصه لا يختلف عن مصاحف المسلمين في شيء ،
 إلا أنه قد جمع التأويل والتنزيل ، ليكون مصحفه قد اشتمل على التأويل الصادر عن النبي أو
 النازل على النبي ، وأخير به الإمام ، أو الصادر عنه هو بالذات مضافاً إلى أصل القرآن
 الكريم ، ومن قال بغير هذا فأهل البيت والإمامية والمؤمنون على براءة منه .

^١ - إوابي ، ج ٢ كتاب الحجة باب ٧٦ ص ١٣٠ .

^٢ - إوابي ، ج ٢ كتاب الحجة باب ٧٦ ص ١٣٠ .

^٣ - تبيان ، اجوني ص ٢٤٣ .

^٤ - الرزجاني ، تاريخ القرآن ٦٩ .

إن مصحف علي (ع) لم يعرف كسائر المصاحف لأن علياً (ع) قد دفعه إلى الحسن (ع) ومنه إلى الحسين إلى أن انتهى إلى الإمام المنتظر (ع) ^١.

٢. مصحف الزهراء (ع) :

هناك روايات تقضي بأن لفاطمة عليها السلام مصحفاً كانت تستأجر به وتطمئن إليه ^٢.

لا يمكننا أن نذكر وجود مصحف قرأني للزهراء (ع) نقرأ فيه لأن القراءة في المصحف والنظر فيه أفضل من القراءة عن ظهر قلب كما في الروايات ^٣.

٣. مصحف الخلفاء الثلاثة : ومصحف حفصة :

المشهور أن أبا بكر قد أمر زيد بن ثابت بأن يجمع مصحفاً يحول بين كتاب الله تعالى والصنّاع ، وجمع زيد للقرآن من الصحف والنسب واللخاف التي دونت في العهد النبوي .

وكان المصحف عند أبي بكر ثم عند عمر ، ثم عند حفصة ، إلى أن طلبه منها عثمان ، فبعثت به إليه ، فأمر عثمان بنسخة في المصاحف فنسخ ثم رده إلى حفصة .

يلاحظ من الذي تقدم أن مصحف الخلفاء الثلاثة كان واحداً ، انتقل من واحد إلى واحد منهم .

٤. مصحف عبد الله بن مسعود :

قال ابن التديم :

' قال الفضل بن شاذان : وجدت في مصحف عبد الله بن مسعود تأليف مسور القرآن على هذا الترتيب ... ثم ذكره ... إلى أن قال الفصل : قال محمد بن اسحاق : رأيت عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف عبد الله بن مسعود ^٤ .

○ ونذكر ابن اشته في كتابه ' المصاحف ' بعد ذكره لسند الرواية :

^١ - كتاب سليم بن قيس ، ص ١٠١ .

^٢ - ابن جرير ، تاريخ القرآن .

^٣ - أصول النكاح للكاتب ، ص ١١٨ .

^٤ - المهرست ، ص ٤٥ .

تأليف مصحف عبد الله بن مسعود : الطوال : البقرة والنساء ... إلى آخر ما ذكره من الترتيب ^١ .

○ وقال ابن أبي داود :

عندما جاء رسول الخليفة إلى الكوفة لأخذ المصاحف ، قام بن مسعود خطيباً قائلاً : أيها الناس ، إني غلّ مصحف ، ومن استطاع أن يغلّ مصحفاً فليغلّ ، فإنه من غلّ يأت يوم القيامة بما غلّ ، ونعم الغلّ المصحف ^٢ .

○ وقال ابن الأثير :

إن أهل الكوفة قبلوا مصحف عثمان ، إلا أن بعضهم ، وهو كثير - أمسكوا مصحف ابن مسعود ، فيقرأون بقراءته ^٣ .

○ وفي رواية سليم بن قيس :

أن طلحة قال لعليّ (ع) : ما يمنعك برحمتك الله أن تخرج ما ألقت للناس ، وقد شهدت عثمان حين أخذ ما ألّف عمر ، فجمع له الكتاب ، وحمل الناس على قراءة واحدة ، وفرّق مصحف أبي بن كعب ، وابن مسعود ، وأحرقهما بالنار فما هذا الحديث ^٤ .

لنا من هذه الروايات أن نلاحظ بأن ابن مسعود كان له مصحفه الخاص به دون غيره ، قد جمعه ليتداوله تلاوة وحفظاً .

أما الروايات التي تنفي بأن لابن مسعود قراءة خاصة فلا تدلّ على أن له مصحفه الخاص به . ألا يحتمل أن يكون ابن مسعود الحافظ للقرآن ، إذا قرأه عن ظهر قلب أن يقرأه على طريقته الخاصة به ؟

من هنا قال الصادق (ع) : إن كان ابن مسعود لا يقرأ على قراءتنا فهو ضال . فقال ربيعة : ضالّ ؟ فقال : نعم ، ضالّ ^٥ .

^١ - لاقاد ، ص ٦٦ .

^٢ - المصاحف ، ص ١٥ .

^٣ - الكافي ، ص ١١٢ .

^٤ - كتاب سليم بن قيس ، ص ٩٩ .

^٥ - أصول الكافي ، ط قم ص ٦٠٨ .

و عجباً لابن مسعود !

لقد نقل عنه جواز تبديل الكلمة القرآنية بمرادفها . كان يقرأ قوله تعالى :
" للذين آمنوا انظرونا " أهملونا ، أو آخرونا .

ونقل أيضاً أنه أقرأ رجلاً: لئن شجرة الزقوم طعام الأثيم . فقال الرجل : طعام اليتيم ،
فردّها عليه ، فلم يستقم لسانه . فقال : أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر ؟ قال : نعم : فافعل^١ .
كما روي عنه أنه كان لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف ، وقال لو كتبها لكتبتهما
في أول كل شيء^٢ .

وخطير أن يحك ابن مسعود المعوذتين من المصحف ويقول :
" لا تخطوا القرآن بما ليس منه ، إنهما ليسا من كتاب الله ، إنما أمر النبي صلى الله
عليه وآله وسلم أن يتعوذ بهما وعن البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة^٣ .

لكن الرّاكزي يحسن الظنّ به ويطلب إلينا أن نحسن الظنّ به ، وأن نقول : بأنه رجع
عن هذه المذاهب^٤ ولا يضر بنا شيء أن نحسن الظنّ بهذا الصحابي لنقول باحتمال تراجعهم ،
أو بأن هذه الروايات غير يقينية .

٥ . مصحف أبيّ بن كعب :

قال ابن النديم :

قال الفضل بن شاذان : أخبرنا الثقة من أصحابنا ، قال : كان تأليف السور في
قراءة أبيّ بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها : قرية الأنصار على رأس
فرسخين ، عند محمد عبد الملك الأنصاري ، أخرج إلينا مصحفاً ، وقال : هو
مصحف أبيّ ، رويّه عن أبيّنا^٥ .

ورد عن ابن أثنه في كتاب * المصاحف :

^١ - الإفتاح ، ج ١ ص ٤٨ .

^٢ - الدر المنور ، ج ١ سورة العنق .

^٣ - الحصر نفسه ج ٦ سورة الفلق .

^٤ - الحصر الكبير ، ج ١ ص ٢١٢ .

^٥ - الفهرست ص ٤٦ .

" أنبأنا محمد بن يعقوب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو جعفر الكوفي . قال : هذا تاليف مصحف أبي ... ثم ذكر كيفية تأليفه ^١ .

قال ابن سيرين :

" كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب والمعوذتين ، واللهم إني نستعينك ، والهنم إنيك نعيد ... وتركهن ابن مسعود ، وكتب منهن عثمان فاتحة الكتاب ، والمعوذتين ^٢ . وقال الطبرسي :

" روي أن أبياً لم يفصل في مصحفه بين سورتي الفيل والإبل ^٣ .

لقد كان أبي كعب الله بن مسعود القائل بجواز تبديل الكلمات القرآنية بمرادفاتها :

يقول في الآية " كلما أضاء لهم مشوا فيه " يجوز تبديله بـ " سعوا فيه ، أو مروا فيه " .

وأضاف كلمة " حم " في أول سورة الزمر ... ولم يكتب في مصحفه البسطة بين سورتي الفيل ^٤ و " الإبل ^٥ .

٦. مصحف عبد الله بن عباس :

لقد حكى عن محمد بن عمر الرازي في كتاب الأربعين : أن ابن عباس هو رئيس المفسرين ، كان تلميذ علي بن أبي طالب (ع) فآثرنا نقل ترتيب مصحفه كما ذكره الشهرستاني ، وهو سند أمين ^٥ .

لكن السجستاني استدل عليه بقراءاته المتميزة ، وهذا لا يدل على أن لابن عباس مصحفاً خاصاً به ، لأنه ليس بعيداً أنه إذا قرأ القرآن من محفوظات صدره ، أو عن ظهر قلبه لن يقرأ على خلاف المتعارف .

^١ - الافتتاح ، ج ١ ص ٦٦ .

^٢ - المصدر نفسه ، ج ١ ص ٦٧ .

^٣ - مجمع البيان ، ج ١٠ تفسير سورة الإبل .

^٤ - المصدر نفسه ، ج ١٠ ، سورة الإبل .

^٥ - تنزيح القرآن ، الزمخاري ص ٥٤ .

٧. مصحف عائشة :

لقد ورد عند المسجستاني ذكر هذا المصحف . وروى ذلك عبد الرزاق عن هشام بن عروة قال : قرأت في مصحف عائشة [رضى] : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، و صلاة العصر ، وقوموا لله قانتين ^١ .
وكيفما انقلب الأمر ، فإن كل ما خالف المصحف المتداول والمشهور بين المسلمين في أيامنا ، هو مردود على قائله ، ولا مجال للأخذ به ، أو الاعتداد به .

٨. مصحف أم سلمة :

ذكره المسجستاني أيضاً ، ويذكر عليه ما رواه عبد الرزاق عن عبد الله بن رافع أنه قال :
أمرتني أم سلمة أن أكتب لها مصحفاً ، وقالت : إذا بلغت : حافظوا على الصلوات ، والصلوة الوسطى ... فأخبرني ، فأخبرتها فقالت : أكتب : ' حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى [وصلاة العصر] وقوموا لله قانتين ^٢ .

لكن هذه الزيادة الأنفة ليست زيادة قرآنية ، أو إضافة على القرآن كما هو واضح من النص .

٩. وقد ذكر المسجستاني للصحابة مصاحف أخرى منها : مصحف عبد الله بن الزبير ومصحف عبد الله بن عمر ، ولكن المسجستاني لم يكن له ما يوثق هذا الذي ذكره ، ولم يكن له من دليل عليه .

إن توحيد المصاحف في العهد العثماني ، وملاحقة الصحابة في ذلك لا يترك لهذا البحث من فائدة . لأن المصاحف بأجمعها قد اُتلفت في العهد العثماني إما بالإحراق ، أو بالغسل .

❖ توحيد المصاحف :

وقضى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وبعد فترة طويلة من الزمان بعده ، وبعد أن شاع من الناس جواز الأكفاظ القرآنية بمراءياتها تأثيراً بأبي وابن مسعود

^١ - 'المصنف عبد الرزاق ، ج ١ ص ٥٧٨ .

^٢ - 'المصنف عبد الرزاق الصنعاني ، ج ١ ص ٥٧٩ .

وأضرابهما ، اشتد الخلاف ، واحتدم الجدل في هذا الشأن حتى كثر اتِّهام الناس بعضهم لبعض ، وحتى كُفر الناس بعضهم بعضاً .

روي عن أبي قلابة قوله :

" لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كُفر بعضهم بعضاً ، فبلغ ذلك عثمان ، فخطب ، فقال : أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أنشد اختلافاً " .

وانطوت فترة من الزمان ، جاء بعدها حذيفة بن اليمان الأنصاري ، وأحد أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، وطلب من عثمان أن يدرك الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى .

قال البخاري :

" حدثنا موسى ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا ، وأذربيجان ، مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم حذيفة في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة ، أن أرسلني إليك بالمصحف تنسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، ومعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ... إلى أن قال : ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان المصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق " .

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث :

" وفي رواية عمارة بن عزيّة : أن حذيفة قدم من غزوة ، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أدرك للناس ، قال : وما ذلك ؟ قال : غزوت خراج

^١ - مناهل العرفان ، ج ١ ص ٢٤٩ ، عن شحاتي في مصاحف .

^٢ - صحيح البخاري ، ج ٦ ص ٩٩ .

أرمينية ، فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضاً *^١ .

واطمأن الناس لهذا الإنجاز ، وتلقّى الصحابة ما أنجزه عثمان في هذا الشأن بالقبول والارتياح . لكلّ كانوا موافقين مباركين لهذا العمل الذي يعود على الشريعة بالخير ، وعلى الناس بالوحدة في الموقف وبالاطمئنان إلى القرآن .

لم يكن هنالك من معترض ، ولم يكن هنالك من موقف سلبيّ إلا موقف عبد الله بن مسعود . قال اليعقوبي :

* كان عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر ، وكتب إليه عثمان أن شخصه ، إن لم يكن هذا الدين خيلاً ، وهذه الأمة فساداً . فدخل المسجد ، وعثمان يخطب ، فقال عثمان : إنه قد قدمت عليكم دابة سوء ، فكلم ابن مسعود بكلام غليظ ، فأمر به عثمان ، فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان ، فتكلمت عائشة ، وقالت قولاً كثيراً *^٢ .

وقيل :

" إنه أيضاً رجع إلى رأي عثمان ، ولا خلاف *^٣ .

روي عن عليّ (ع) أنه قال :

" لا تقولوا في عثمان ، إلّا خيراً ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملائمة ، قال : ما تقولون في هذه القراءة ، فقد بلغني أن بعضهم يقول : إن قراءتي خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفراً . قلنا : فما ترى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : نعم ما رأيت *^٤ ، وفي هذه المناسبة أضاف ابن الأثير أن عليّاً قال :

" فلو وليت منه ما ولي عثمان لسكنت سبيله *^٥ .

^١ - فتح الباري ، ج ٩ ص ١٤ و ١٥ .

^٢ - تاريخ الخلفاء ، ج ٢ ص ١٥٨ .

^٣ - مسند في علوم القرآن ، صهي الصالح ، حديث ص ٨٢ .

^٤ - الانساب ، النوع ١٨ ص ٦١ .

^٥ - الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ١١٢ .

أما سليم بن قيس فيروي قاتلاً :

' إن طلحة سأل علياً عليه السلام عن أمور ، ومنها قوله : وما يمنك رحمك الله ، أن تخرج ما ألقت للناس ، وقد شهت عثمان حين أخذ ما ألف عمر ، فجمع له الكتاب ، وحمل الناس على قراءة واحدة ، ومزق مصحف أبي بن كعب ، وابن مسعود ، وأحرقهما في النار فما هذا ... إلى أن قال طلحة : ما أراك يا أبا الحسن أجبتني عما سألتك عنه من القرآن ألا تظهره للناس ؟ قال : يا طلحة ، عمداً كفت عن جوابك .

قال : أخبرني عما كتب عمر وعثمان ، قرآن كله ؟ أم فيه ليس بقرآن ؟ قال علي : بل قرآن كله ، قال : إن أخذت بما فيه نجوم من النار ، ودخلت الجنة ، فإن فيه حجتنا ، وعين حقنا ، وفرض طاعتنا^١ ، لذا من هذا الحديث نتيجتان :

الأولى : أن ما فعله عثمان هو قرآن كله من أخذ به نجا من النار ، وأنه أزال إبدال الكلمات القرآنية بمفرداتها ، وأنه وحد القرآن لهجة وألغى المناسبات التي يتهم للمسلمون بعضهم بعضاً بالكفر ، ويتحريف القرآن وتلفيقه .
الثانية : أن علياً (ع) حين كانت له الخلافة ، وأصبح بيده أمر المسلمين ، وحين توفرت له القدرة على رفع ما يضر بالقرآن ، وبالإسلام ، لم يغير شيئاً مما أنجزه عثمان ، من إنجاز قرآناً واحداً يسمى إماماً .

إن إقرار علي (ع) لما فعله عثمان ، وعدم اعتراضه على ما أنجز سواء قبل خلافته أم بعد خلافته ، كل ذلك يشير إلى سلامة ما حققه عثمان في توحيد المصاحف .
إن عصر عثمان كان عصر توحيد المصاحف ، وأقر الصحابة هذا العمل وشجعوا عليه حتى حسبت مائة الخلاف بين المسلمين في هذا الصدد .
وبعد أن انتهى عثمان من كتابة المصاحف على لهجة قریش سرعان ما أمر بتوزيعها على الأنصار والأقارب ، إلا واحداً منها أبقاء في حوزته ، وسمي " إماماً " .

يقول اليعقوبي :

' وبعث بها إلى الأنصار ، وبعث بمصحف إلى الكوفة ، وبمصحف إلى البصرة ، ومصحف إلى المدينة ، ومصحف إلى مكة ، ومصحف إلى مصر ، ومصحف إلى الشام ،

^١ - كتاب سليم بن قيس ، ص ١٠٠ .

ومصحف إلى البحرين ، ومصحف إلى اليمن ، ومصحف إلى الجزيرة ، وأمر الناس أن يقرأوه على نسخة واحدة^١ .

وقال السيوطي :

‘ اختلف في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الأفاق ، والمشهور أنها خمسة. وأخرج ابن أبي داود من طريق حمزة للزيات ، قال : أرسل عثمان أربعة مصاحف ، فأرسل إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحدة^٢ .

وقال الزرقاعي :

كانت المصاحف سبعة في قول مشهور ... إلى أن قتل : ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة ، أو مصحف أن يحرق ، ولم يجعل في عزمته تلك رخصة سائغة لأحد ، وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ للهجرة^٣ .

لكن عثمان تحول اللثمة والاعتراض عليه لإحراقه المصحف حتى سمى بحرق المصاحف .

ومن الذين كان لهم هذا الاعتراض في عصرنا السيد الخوئي في كتابه ‘ البيان ‘ رغم أنه أيد إنجازات عثمان في توحيد المصاحف .

أما مصحف عليّ (ع) فإنه لم يحرق ، لأنه - كما في رواياتنا - قد دفعه إلى ابنه الحسن (ع) وهو دفعه إلى أخيه الحسين (ع) ، ثم صار من واحد نواحد من ولد الحسين حتى وصل إلى الإمام المهدي المنتظر ، والتابع من ولد الحسين (ع) ... وهو الذي يخرج المصحف الذي كتبه جده عليّ (ع) .

وقال ابن التميمي :

‘ وقد رأيت عند أبي يعلى حمزة الحسين مصحفاً بخط عليّ ليتوارثه بنو حسن^٤ وهكذا ، بعمل عثمان ، وغيره قد حفظ القرآن من الضياع ، وأصبح للعالم الإسلامي قرآن

١ - تاريخ الخلفاء ، ج ٢ ص ١٥٨ .

٢ - الإنتباه ، الجزء ١٨ ص ٦٢ .

٣ - إمعان القرآن ، ص ٣٩ .

٤ - المهرست ، ص ٤٧ .

واحد ، تطبع منه الملايين من النسخ دون أي تفاوت فيها . وبهذا وبغير هذا تحققت صيانة القرآن ، وتحقق قوله تعالى :
" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " ^١ .

فالقرآن خالد بذاته لأنه معجزة وخالد بأسباب خارجية عملت وتعمل على صيانتة وحفظه .

^١ - راجع هنا المسحت في كتاب : بحوث في تاريخ القرآن وعلمونه ، أبو الفضل ، مور محمدي ص ١٤٨ - ١٦٦ .

سلامة القرآن وصيانه من التحريف ا

للمباحث :

- u أولاً : معنى التحريف
- د ثانياً : الادعاءات
- u ثالثاً : الافتراضات
- u رابعاً : الروايات وأخبار الأحاد
- u خامساً : الاتهامات
- o سادساً : الشبهات
- o سابغاً : المحاولات

د. أولاً : معنى التحريف

إنَّ التحريف هو على معانٍ مختلفة ، ومدلولات متباينة ، هذه المعاني كان للمسلمين منها مواقف ثلاثة :

١. بعض هذه المعاني واقعة في القرآن باتفاق المسلمين .
٢. قسم آخر لم يقع في القرآن بإجماع المسلمين .
٣. أما للقسم الثالث من معاني التحريف فقد وقع في شأنه خلاف حاد^١ .

١. التحريف الذي لم يقع فيه خلاف

- نقل الشيء عن موضعه وتحويله عن غيره " قال تعالى :

﴿مِنَ الَّذِينَ هَاتُوا بُحْرًا فَعُودُوا لَكُمْ﴾ النساء : الآية - ٤٦ .

وحرّف القول : " غيره عن مواضعه " .^٢

إنَّ كلَّ من ذهل في تفسيره عن مقاصد النصِّ القرآنيّ أو فسّره على غير حقيقته ، أو حمّله على غير معناه فقد حرّفه ، وغيّره في مواضعه .

كثيرون من ذوي المقاصد المعادية للقرآن ، والبدع المخالفة كان على أيديهم التأويلات لأبيات القرآنية انسجاماً مع خلفياتهم وأهوائهم .

وكثيرة تلك الروايات التي ترفض هذا التحريف وتمنعه . لقد جاء عن الباقر (ع) :

" وكان منْ نَبَذَهم الكتاب أن أقاموا حروفه ، وحرّفوا حدوده ، فهم يروونه ولا يروونه ، والجهال يعجبهم حفظهم الرواية ، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية ... " .^٣

٢- النقص أو الزيادة في الحروف أو في الحركات ، مع حفظ القرآن وعدم ضياعه ، وإن لم يكن متميزاً في الخارج عن غيره " .

هذا للتحريف لا شك في وقوعه ، والمسلمون على اتفاق في شأنه ولم يخزّه واحد من علمائهم لأنَّه كان مذهبه .

^١ - نظير تحفيظ رقم | ٦ | تقدم دار الفکر في قسم تعليقات .

^٢ - مسجد ، ص ١٢٦ .

^٣ - الروايات أخر كتاب " الصلاة " ، ص ٢٧٤ .

فالقراءات غير متواترة ، والقرآن الكريم إنما هو على تطابق مع واحدة من تلك القراءات .
ولمّا ما عداها فهو بين أن يكون زيادة في القرآن وبين أن يكون نقصاناً ، وكلا الحالتين
محال وقوعهما في القرآن .

جـ - " النقص أو الزيادة بكلمة أو كلمتين مع التحفظ على القرآن المنزل " .
إنّ هذا التحريف كان منه الحصول في عصر صدر الإسلام ، وفي أيام الصحابة . ألم
يحرق عثمان مجموعة من المصاحف التي كانت تخالف الذي جمعه ؟ وإلا فلماذا كان
الإحراق ؟

ألم يضبط بعض العلماء موارد الاختلاف بين تلك المصاحف وعلى رأسهم عبد الله
ابن أبي داود السجستاني الذي سَمّى كتابه بكتاب " المصاحف " ؟
فالتحريف في النقص أو الزيادة ، بكلمة أو كلمتين مع التحفظ على نفس القرآن المنزل
قد وقع ، ولا ريب ، لا من الذي جمعه عثمان ، إنما من غيره ، لأن القرآن الذي بين أيدينا
ليس فيه زيادة ولا نقصان .

تلك المصاحف التي أحرقتم لم تكن متواترة وقد حصل فيها التحريف في عهد
للصحابة . لكنّ هذا التحريف قد انتهى أمره ، وقطع دابرهُ على يد عثمان ، وانحصر
المصحف بما ثبت تواتره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

- " التحريف بالزيادة والنقصان في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن المنزل ، والمتشاكل
على قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أيّها " .
- من الثابت يقيناً أنّ البسملة ، قد أجمع المسلمون ، على أن الرسول صلى
الله عليه وآله وسلم قد قرأها قبل كل سورة إلاّ سورة التوبة .

أما العلماء من الأخوة أهل السنة فقد كانت مواقفهم في هذا الشأن على خلاف .
بعضهم يذهب إلى أن البسملة ليست من القرآن . ولعل المالكية قد ذهبت إلى كرامة الإنجيل
بها قبل قراءة الغائصة في الصلاة المفروضة ، إلاّ إذا نوى المصلي أن يخرج بذلك من دائرة
الخلافة ، كما ذهب جماعة منهم إلى أن البسملة هي من القرآن .

أما الشيعة فهم على اتفاقٍ كلّي على أن البسملة هي جزء من كل سورة قرآنية ما عدا التوبة . وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس وابن المبارك وأهل مكة كابن كثير وأهل الكوفة كعاصم والكسائي وغيرهما إلا حمزة ، كما نحا هذا النحو معظم أصحاب الشافعي^١ وجزم به قراء مكة والكوفة^٢ . وروي هذا القول عن ابن عمر ، وابن الزبير ، وأبي هريرة ، وعطاء ، وطائوس ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، والزهري ، وأحمد بن حنبل في رواية عنه ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عبيد القاسم بن سلام^٣ وعن البيهقي نقل هذا القول عن الثوري ومحمد بن كعب ، واختاره الرازي في تفسيره ونسبه إلى قراء مكة ، وأكثر فقهاء الحجاز ، وإلى ابن المبارك والثوري ، واختاره أيضاً جلال الدين السيوطي مدّعياً تواتر الروايات الدالة عليه معنى^٤ .

وقال بعض الشافعية وحمزة : " إنها آية من فاتحة الكتاب خاصة دون غيرها " ومنسب ذلك إلى أحمد بن حنبل ، كما نسب إليه القول الأول^٥ .

وذهب جماعة : منهم مالك ، وأبو عمرو ، ويعقوب إلى أنها آية فذّة ولكنها ليست جزءاً من فاتحة الكتاب ولا من غيرها . وقد أنزلت لبيان رؤوس السور تيمناً ، وللفصل بين السورتين ، وهو مشهور بين الحنفية^٦ .

إلا أن أكثر الحنفية ذهبوا إلى وجوب قراءتها في الصلاة قبل الفاتحة ، وذكر الزاهدني عن المجتبى أن وجوب القراءة في كل ركعة هي الرواية الصحيحة عن أبي حنيفة^٧ .

وأما مالك فقد ذهب إلى أن قراءتها في نفسها غير مستحسنة بل مكروهة ، ولئن كانت قراءتها مستحبة فلأجل الخروج مما يقال له خلاف^٨ .

أما الأدلة على أن البسملة هي جزء من السورة أو القرآن فتتوزع على الآتي :

-
- ^١ - تفسير الأكرسي ج ١ ص ٢٩ .
 - ^٢ - تفسير الشوكان ج ١ ص ٧ .
 - ^٣ - تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦ .
 - ^٤ - لاقتان ، النوع ٢٢ - ٢٧ ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ .
 - ^٥ - تفسير الأكرسي ج ١ ص ٢٩ .
 - ^٦ - تفسير الأكرسي ج ١ ص ٢٩ .
 - ^٧ - المصدر نفسه .
 - ^٨ - الله على الذاهب الذريعة ج ١ ص ٢٥٧ .

١. أحاديث آل البيت :

هي الروايات الموثقة ، والأحاديث الصحيحة والمأثورة عن أهل البيت النبوي عليهم السلام . هذه الروايات تغني عن كل الروايات ، ولا تغني عنها الروايات ولا الأدلة .
لأنهم يجعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم صفواً للقرآن في وجوب التمسك بهم ^١ .

- عن معاوية بن عمار :

" قال : قلت لأبي عبد الله (ع) إذا قمت للصلاة اقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة القرآن ؟ قال : نعم . فإذا قرأت القرآن اقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم مع السورة . قال : نعم ^٢ .

- عن يحيى بن أبي عمران الهمداني :

" قال : كتبت إلى أبي جعفر (ع) - جعلت فداك ، ما تقول في رجل ابتدأ : بسم الله الرحمن الرحيم في صلاته وحده في أم الكتاب ، فلما صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها ؟

فقال العباسي : ليس بذلك بأس ، فكتب بخطه ، يعيدها - مرتين - على رغم نفسه ، يعني العباسي ^٣ . هذه الروايات الواردة عن آل البيت في شأن البسملة كثيرة ، فلا حاجة بنا للإطالة .

٢. أحاديث أهل السنة :

- ما رواه أنس :

" قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغنى إخفاء ثم رفع رأسه مبتسماً ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أنزلت علي أنفاً سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكثير ... ^٤ .

^١ - لمعرفة هذه الروايات راجع فروع الكافي باب فرائض القرآن ص ٨٦ والاستبصار باب أظهر بالصفة ج ١ ص ٣١١ ، والتهذيب : باب كمية الصلاة ومفاتها ج ١ ص ١٥٣ ، ٢١٨ ، ووسائل الشريعة باب ثبوت البسملة أية من الفاتحة ج ١ ص ٣٥٢ .

^٢ - الكافي ج ٣ ص ٣١٢ ط دار الكتب الإسلامية .

^٣ - انصهر نفسه ص ٣١٣ .

^٤ - صحيح مسلم ، باب حقة من قال أن البسملة أية ج ٢ ص ١٢ ، وسنن النسائي باب فرائض البسملة ج ١ ص ١٤٣ ، وسنن أبي داود ، باب أظهر بالصفة ج ١ ص ١٢٥ .

- ما أخرجه الذرقطني بسند صحيح عن عليّ (ع) :
" أنه من عن السبع المثاني ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقيل له : إنما هي ست
آيات ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم آية " ^١ .

- ما أخرجه ابن خزيمة والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس :
" قال : السبع المثاني فاتحة الكتاب . قيل فأتين السابعة ؟ قال : بسم الله الرحمن
الرحيم " ^٢ .

- ما رواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس :
" قال : كان المسلمون يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل : بسم الله الرحمن الرحيم
فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت " ^٣ .

- ما رواه ابن جريج :
" قال : أخبرني أبي أن سعيد بن جبيرة أخبره ، قال : ولقد أتيتك سبعا من المثاني .
قال : هي أم القرآن ، قال أبي : وقرأ عليّ سعيد بن جبيرة : بسم الله الرحمن الرحيم الآية
السابعة ، قال سعيد بن جبيرة : وقرأها عليّ عباس كما قرأتها عليك ، ثم قال : بسم الله
الرحمن الرحيم الآية السابعة ، قال ابن عباس : فأخرجها الله لكم ، وما أخرجها لأحد قبلكم " ^٤
إلى غير ذلك من الروايات المتعددة ، ومن كان له رغبة في الاطلاع عليهما فليراجعها في
مواضعها .

٣. الروايات المعارضة :

هناك روايتان لا ثقلة لهما تدلان على عدم جزئية البسملة للسورة :

^١ - الإتيان الدع ٢٢ ج ١ ص ١٣٦ .

^٢ - المعجم بضمه ، ورواه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٥٥٩ .

^٣ - مستدرک الحاكم ج ١ ص ١٣٤ . قال الحاكم : هذا صحيح على شرطه لمشيجين .

^٤ - المعجم بضمه ، كتاب فضائل القرآن ص ٥٥٥ .

١٥ الأولى : رواية قتادة عن أنس بن مالك . قال : صَلَّيْتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم^١ .

١٦ الثانية : ما رواه ابن عبد الله بن مغفل يزيد بن عبد الله ، قال : " سمعني أبي وأنا أقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : أي بُنَيَّ ! لَيْتَكَ قَالَ : ولم أرَ أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُغضضُ إليه حديثاً في الإسلام منه ، فإني قد صَلَّيْتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع أبي بكر وعمر ومع عثمان ، فلم أسمع أحداً منهم يقولها فلا تقلها . إذا أنت قرأت قل : الحمد لله رب العالمين^٢ " .

يمكننا مناقشة الرواية الأولى والرد عليها من وجوه ثلاثة :

١٧ الوجه الأول :

حسبها من ضعف وثبات أنها تتعارض مع الروايات المأثورة عن أهل البيت . يضاف إلى ذلك مخالفتها معنى للروايات المنوثة والمنقولة عن أهل السنة سيما وأن مجموعة منها صحيحة الأسانيد ، موثقة الرواية . فكيف لنا الأخذ بهذه الرواية أو تصديقها ؟ ألم يشهد ابن عباس وأبو هريرة وأم سلمة بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ البسمة ويعتبرها جزءاً من الفاتحة وآية منها ؟

ألم يقل عمر : لِمَ كُنْتُ إِنْ لَمْ تُقْرَأْ ؟

علي (ع) كان يقول :

من ترك قراءتها فقد نقص ، ويقول : " هي تمام السبع المثاني " .

١٨ الوجه الثاني :

إنها تختلف كل الاختلاف عما اشتهر وعرف بين المسلمين من قراءتها في الصلاة . ومما يروى أن معاوية لم يقرأها في صلاته في يوم من أيام خلافته ، فقال له المسلمون : " أفسرت أم نسيت ؟ "

^١ - مسند أحمد ج ٣ ص ١٧٧ - ١٧٣ - ٢٧٨ ، وصحيح مسلم باب حجة من لا يهجر بالبسمة ج ٢ ص ١٢ ، وسنن الترمذي

باب ترك الجهر بالبسمة ج ١ ص ١٤٤ .

^٢ - مسند أحمد ج ٤ ص ٨٥ ، ورواه الترمذي باختلاف يسير ، باب ما جاء في ترك الجهر بالبسمة ج ٢ ص ١٣ .

هذه الرواية تخالف لما كثر نقله ، واستفاضت روايته عن أنس نفعه .
ألا تلاحظ أن الرواية هذه موضوعة مدسوسة ، وأنه لا ريب في وضعها ونسبها بعد
هذه الروايات المستندة والتي تثبت جزئية البسلة من الفاتحة ؟
أما الجواب على الرواية الثانية فهو أن هذه الرواية تحمل في طياتها ما يخالف
ضرورة الإسلام . هل من أسلم يشك في استحباب التسمية قبل الحمد والسورة ولو بقصد
التيمّن والتبرك بصرف النظر عن كون البسلة جزءاً أو آية من السورة ، فكيف لابن المغفل
أن ينهي عن قراءتها بدعوى أنها حدث في الإسلام^١ .

براهين الذين نفوا جزئية البسلة :

كان لهؤلاء النفاة أدلة ثلاثة لإثبات ما ذهبوا إليه من أن البسلة ليست جزءاً من السورة.
١. إن البسلة قد وقع فيها نزاع ، وكل ما وقع فيه نزاع في ثبوته ليس من القرآن ،
ومعلوم أن طريق ثبوت القرآن ينحصر بالتواتر .
لكننا نعود إلى القول بأن البسلة هي مما تواتر عن أهل البيت عليهم السلام ،
ولطالما اتباع أهل البيت واجب ونيسب من الإسلام في شيء مخالفتهم ، فإنه لا فرق
بين أن يكون التواتر عنهم وبين أن يكون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أليسوا قلة أولئك الذين قالوا بعدم جزئية البسلة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا
يضير التواتر في شيء !
لقد تواتر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قرأ البسلة حينما كان يبدأ بقراءة
آية سورة من القرآن دون أن يبين أنها ليست منه .

٢. ومن أدلة هؤلاء النفاة ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة :

" قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : قال الله تعالى : قسمت
الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبيدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب
العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أنشئ
عليّ عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال الله تعالى : مجدني عبد الله ، وإذا قال
العبد : لا إله إلاك نعبد وإياك نستعين . قال الله تعالى : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبيدي ما
سأل ، فإذا قال : إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب

^١ البيان ، لتسديد اخواني ص ١٧٤ .

عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل^١ . إن الاستدلال فى هذا الحديث أن ما بعد آية : إياك نعبد وإياك نستعين يساوي ما قبلها فى العدد ، ولو كانت البسمة جزءاً من الفاتحة لم يستقم منلول الرواية ، لأن سورة الفاتحة سبع آيات ، فلو كانت البسمة جزءاً من الفاتحة لكان للذي بعد آية : إياك نعبد وإياك نستعين آيتين فقط.

وهذا كله يشير إلى أن ما قبل هذه الآية هو ضعف ما بعدها . فالفاتحة لا تنقسم إلى نصفين فى العدد .

ونعتمد فى مناقشة هذه الرواية رد السيد الخوئي القائل :

- بأن الرواية مروية عن العلماء ، وقد اختلف فيه بالتوثيق والتضعيف .
- وبأن لو تمت دلالتها ، فهي معارضة بالروايات الصحيحة المتقدمة لذالة على أن الفاتحة هي سبع آيات مع البسمة لا بدونها .
- كما لا دلالة فى الرواية على أن التقسيم هو بحسب الألفاظ ، بل الظاهر أنه بحسب المعنى . فالمراد أن أجزاء الصلاة بين ما يرجع إلى الله وما يرجع إلى العبد بحسب المنلول .
- وأنه لو سلمنا أن التقسيم إنما هو بحسب الألفاظ فأتى دليل على أنه بحسب عدد الآيات ، فقلعه باعتبار الكلمات ، فإذن الكلمات المتقدمة على آية " إياك نعبد وإياك نستعين " والمتأخرة عنها مع احتساب البسمة وحذف المكررات عشر كلمات^٢ .

٣. ومن أدلة هؤلاء الذين يذهبون إلى أن البسمة ليست آية ، وليست جزءاً من

السورة ، هو ما رواه أبو هريرة :

" من أن سورة الكوثر ثلاث آيات ، وأن سورة الملك ثلاثون آية " فلو كانت البسمة جزءاً منها لزال عددنا على ذلك .

^١ - صحيح مسلم ، باب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ج ٢ ص ٧ ، وسنن أبي داود من ترك القراءة فى صلاته ج ١ ص ١٢٠ ، وسنن الترمذى باب ترك قراءة البسمة فى صلاة الكتاب ج ١ ص ١٤٤ .

^٢ - طبرانى ، ص ٤٧٧ .

^٣ - مستدرک الحاكم ج ١ ص ٥٦٥ ، وصحيح الترمذى باب ما جاء فى فصل سورة التثنية ج ١١ ص ٣٠ ، وكثير المعاني فضائل السرور والآيات ج ١ ص ٥١٦-٥٢٥ .

والحق يقال بأن رواية أبي هريرة حول سورة الكوثر لو افترضنا أن سندها صحيح فبئها من جانب آخر تتعارض مع رواية أنس التي نكرناها آنفاً ، والتي هي رواية مقبولة وردت في جميع الصحاح ما عدا موطأ مالك^١ وإن البسلة مشتركة بين جميع السور القرآنية.

ويخلص بنا القول في مسألة البسلة إلى الأمور التالية :

- إن سيرة المسلمين وقراءاتهم القرآنية قد استقرت على قراءة البسلة في أوائل السور ما عدا سورة براءة^٢ "التوبة" .

- لقد ثبت بالتواتر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها .

- لو لم تكن من القرآن لكان ينبغي على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يحيط المسلمين علماً بذلك .

- إن قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظاهرة في أن جميع الذي يقرأه هو قرآن.

- إذا لم يكن بعض الذي يقرأ قرآناً ثم لم يصرح به لكان ذلك إغراء منه بالجهل وفي ذلك التلح كل القبح .

- لو صرح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأن البسلة ليست قرآناً لنقل إلينا ذلك التصريح بالتواتر رغم أنه لم ينقل حتى ولا بالأحاديث .

- إن مصاحف الصحابة والتابعين قبل الجمع العثماني وبعده كانت تشتمل على البسلة ، ولو لم تكن من القرآن لما أثبتوها المسلمون في مصاحفهم .

- إن الصحابة منعوا أن يدرج في المصاحف ما ليس من القرآن ، بعض المتقدمين رفضوا للمصحف أن ينقط أو يشكل . لذلك فثبتت البسلة في مصاحفهم شهادة منهم يقينية بأنها من القرآن كمناثر الآيات .

- إن هذا الذي ذهبنا إليه يبطل احتمال النفاة بأن إثبات الصحابة والتابعين للبسلة في مصاحفهم كان للفصل بين السور ، ولو كانت للفصل بين السور لما أثبتت في

^١ مستدرک الحاكم ج ١ ص ٥٦٥ ، وصحيح إرمذي باب ما جاء في نزل سورة مالك ج ١١ ص ٣٠ ، ذكر المال نصاً

لسور والآيات ج ١ ص ٥٢٥-٥٢٦ .

^٢ - نسو الوصو ج ١ ص ١٩٩ .

سورة فاتحة الكتاب وكانت أثبتت في سورة براءة . بهذا الاعتبار فالبسملة يعيننا هي آية من الفاتحة وسائر السور ما عدا سورة براءة .

وبخلص بنا القول إلى أن التحريف والتفنيص في الآية والسورة مع التحفظ على القرآن المنزل ، والتسالم على قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها قد وقع في القرآن .

- التحريف بالزيادة بمعنى أن بعض المصحف الذي بأيدينا ليس من الكلام المنزل ، هذا التحريف وبهذا المفهوم بالكل بجماع المسلمين ، وبطلانه يقيني ومعلوم بالضرورة .

- التحريف بالتفنيص ، بمعنى أن المصحف الذي نتناوله ، والذي هو بين أيدينا لا يشمل على جميع القرآن الذي نزل من السماء ، وأنه قد ضاع بعضه على الناس^١.

وهذا التحريف هو الذي وقع فيه الخلاف ، فأتبته قوم ، ونفاه آخرون .

❖ الإذاعات :

قبل أن يخوض الحديث بهذه المفترقات التي لا تستند إلى برهان إنما برهان منطقيها إما جهالة وإما خلفية مشبوهة . من البدهة القول بأن القرآن قد وصل إلينا كما نزل ، وأن خلوه من الزيادة والنقصان هو ضرورة حتمية ولا مجال للشبهة في ذلك ، ولعل الأمر لا يستدعي القول بأن القرآن الكريم قد بقي هو محفوظاً ومصاناً بين دفتيه كما كان وجهه .

وسلم القرآن من التحريف في آياته وكلماته إن حذفاً ، وإن إضافة ، إن نقصاناً ، وإن زيادة . إن دراستنا لظاهرة الوحي القرآني ونزول القرآن وجمع القرآن وما عرفناه من خلال هذه الدراسة ، كل ذلك أحاطنا علماً بأن الذي بين أيدينا هو النص القرآني الكامل .

إن حفظ القرآن كما ورد في الآية الكريمة :

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " قد تحقق من ناحيتين اثنتين :

الأولى : هي العناية الإلهية وقدره القرآن الذاتية على البقاء ، كون القرآن كلاماً إلهياً .

^١ - البيان ، محمد الحوني ، ص ٢١٨ .

أما الناحية الثانية : فكان بأسباب بشرية تجسدت في جمع القرآن ، وشكل القرآن ، واستظهار القرآن ، وتدوين القرآن ، وأهل القرآن وحملته وعلمائه .

بهذا الاعتبار فإن علامة القرآن وصيائمه كياناً هو على تماسك مستقل ، لم تتحققاً بصورة اعتباطية ، ولم تتحكم فيها المصادفات ، إنما هي إرادة العيب التي تحققت بأعمال وأسباب بشرية .

هناك مغزيات كاذبة ، ودعاوى باطلة ، وشبهات قد أثرت ولا بد من مواجهتها ودحضها وتصفيتها حتى لا ينقلب الباطل حقاً والحق باطلاً .

من شروط المواجهة في هذا الشأن أن تتوفر القدرة على الاستنتاج ، والإحاطة بالموضوع ، ورصد جزئياته ، والإخلاص في الدراسة والموضوعية في الحكم .

وبلى من المستشرقين في معظم ادعاءاتهم التي لا تعتمد على مستند ، وويل للموضوعية من خلفياتهم وأهوائهم التي تكون أحياناً ، عصى على عين البصيرة .

كثيرون من هؤلاء المستشرقين بنوا مترددين متخائلين لضعفهم إزاء الحق ، ولعدم وضوح الرؤيا لديهم ، وبعضهم بدا متحاملاً إيماناً لعناده ، وإيماناً لجهله ، وإيماناً لهوى فاسد ويمسكه في نفسه .

هذا هو المستشرق " فوللرز " الإيماني له كتابه المشهور الذي يتحدث فيه عن لغة الكتاب ، واللغة الشعبية عند العرب القدماء . وزعم هذا المستشرق في كتابه بأن القرآن الكريم ألف بلهجة قريش ، وأنه قد أصابه التعديل والتزييف حسب ما يتناسب وأصول اللغة الفصحى في عصر ازدهار الحضارة العربية .

ألا يشير هذا القول إلى أن القرآن هو من صناعة البشر ، صناعة محمد ، لا من وحي التنزيل الإلهي ؟

ألا يشير أيضاً إلى أن القرآن قد امتدت إليه يد التحريف والتزييف زيادة ونقصاناً ، ولأنه كان يتلاءم في أسلوبه وألفاظه مع العرب القدماء ؟ ولما كانت الحضارة العربية كان التعديل والتزييف ليتلاءم للقرآن مع العصر والحاجة ، وذلك تطبيقاً لقول : لكل عصر ألفاظه وأدبه ؟

وهذا هو المستشرق الألماني المنظور إليه الدكتور ' تيودور نولدكه ' والذي كان له كتابته الشهير والقيم في تاريخ القرآن ^١ ، نراه يعقد في كتابه فصلاً بعنوان : الوحي الذي نزل على محمد ولم يحفظ في القرآن " وينتهي فيه ملتحاً بالقول على أن في القرآن تحريفاً .

هذا المستشرق بصريح بهذا القول في مادة " قرآن " بدائرة المعارف الإسلامية :
" إنه مما لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن قد ضاعت " ، ويتابع هذا المستشرق قائلاً : " إن القرآن غير كامل الأجزاء " ^٢ .
" إنها لأذعاءات بجانبها الاستدلال المنطقي . وإن موقفه لا يخلو من غرابة ويتناقض .
ها هو ذا ينبري للرد على ما زعمه ' فوللزر " وأذعاءه موضحاً أن كلامه لا صحة فيه ، وأنه لا علاقة له بالتحقيق العلمي " ^٣ .

وينتهي نولدكه إلى حكم أو قرار بأن النصوص القرآنية هي على أحسن صورة من الكمال والمطابقة ^٤ .

ألا يبدو تنقصه فاحشاً حين يقول بتحريف القرآن ثم ينقلب مدافعاً عنه ، ومنزهاً إياه عن النقص ؟

ألا يشير هذا الموقف إلى تخاذل وتردد ؟

أنيس في ذلك مؤشر لعدم وضوح الرؤية في ما كان يذهب إليه ؟

إن مسألة التحريف القرآني قد أثارها بعض المستشرقين ، ولكن الموقف السني منها أشد ما يكون وضوحاً وحدة في البحث الذي دونه المستشرق "بول" في دائرة المعارف الإسلامية ^٥ .

والذي يمكن التوقف عنده من دراسته ما يلي :

١- إن النبي لم يكن من رغبته الحصول على تأييد أهل الكتاب بالمعنى الذي أشار إليه ، وإنما هو تعبير عن وحدة الديانات والشرائع والأنبياء في جملة الأبطال ، وإن

^١ - "مستشرق نولدكه ١٨٣٦ - ١٩٣٠ ولد في هيمبورغ من مشاهير المستشرقين الإنكان ، اشتهل خصوصاً في اللغات السريانية والآرامية والعبرية ، له كتاب " تاريخ القرآن " .

^٢ - ط : المؤلف ، المستشرقون والدراسات القرآنية ، ٣٠ ، داهر مصفوه .

^٣ - ط : أثيرت ديتريش ، دراسات العربية في ألمانيا ١٣ .

^٤ - ط : نولدكه ، تاريخ القرآن ١٣/٢ .

^٥ - ط : بول ، دائرة المعارف الإسلامية ١١/٤ - ٦٠٨ .

أصول هذه الديانات واحدة ، وإن تغير هذه الحقيقة الواقعة يعتبر فريقاً بالمعنى الذي أشار إليه القرآن : ﴿ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ النساء : الآية - ٤٦ .

٢. وذهب هذا المستشرق إلى أن خصوم النبي قد أخذوا عليه نسخ بعض أحكام القرآن بأحكام أخرى ، مما حدا بعلماء المسلمين أن يذهبوا مذاهب شتى في تقديرهم للحقائق التي يقوم عليها هذا الاتهام .^١

٣. " وقد أثبتت تهمة التحريف فيما وقع من جدل بين الفرق الإسلامية المختلفة ، فالشيعة يصرون عادة على أن أهل السنة قد حفظوا وأثبتوا آيات في القرآن بغية محو أو تنقيح ما جاء فيه من الشواهد ، معزراً لمذاهبهم ، وقد كمال أهل السنة بطبيعة الحال نفس التهمة للشيعة " .^٢

٤. ووردت في البحث ألفاظ تجريحية بحق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا بجانب الموضوعية ، كما لا يتفق مع آداب المنهجية العلمية .

وأضاف إلى ذلك بأن القرآن هو من صناعة النبي ، ولأن القرآن الذي هو من صناعة محمد مبهم في كثير من جوانبه وآياته .

ويمكننا للقول بأن نسخ الأحكام ليس تحريضاً ولا تغييراً ، إنما هو إحلال لحكم مكان حكم ، أو هو رفع لحكم من قبل الله تعالى تخفيفاً عن عباده ، أو رعاية لمصلحة المسلمين ، أو استغناء عن حكم موقوف بحكم ثابت ومستمر ومستديم .

لقد ضرب على وتر حساس حين جعل تهمة التحريف تصدر على السنة المسلمين في جلهم ومناظراتهم لينهم بعضهم بعضاً في شأنهم . لقد عجز عن إعطاء دليل واحد لإثبات ما ذهب إليه ، كما أنه لم يشر إلى مصدر واحد يتتبع هذا الاتهام أو يتحدث عنه ، فالمسلمون جميعاً متفقون على سلامة القرآن من التحريف .

يضاف إلى ذلك أن بعض علماء الاستغراق قد تركوا سلامة للنص القرآني من التحريف دون كتب الديانات الأخرى .

^١ - تاريخ الفرق ، عبد الصمد ص ١٥٦ .

^٢ - ط : بول ، دائرة المعارف الإسلامية الأثنية ٦٠٨/٤ .

لقد خلط هذا المستشرق غير الموضوعي في بحثه خلطاً غير متناسق ، كما أن عباراته كانت مشحونة بالزعمات المشبوهة ، وأحكامه تجسست فيها ، فكان الإسراف والإفراط التذان لا علاقة لهما في استكناه الحقائق .

إن كثيراً من آراء هذا المستشرق في بحثه ليست صادرة عن غفلة أو غفوة ، إنما عن تعامل وجفوة . وكثيرة هي الأحكام الاستشراقية التي تملئها خلفيات عدائية وتبشيرية ، فما عينا إزاء ذلك إلا أن نعارض مع المستشرقين بكثير من الحيلة ، وكثير من الحذر .

وبمكنتك أن تعرف على بعض هؤلاء المستشرقين المشبوهين وأرائهم في كثير من الدراسات الإسلامية وخاصة في كتاب ' الظاهرة القرآنية ' لمالك بن نبي وكتاب ' النبي الخاتم ' لأبي الحسن للتدوي .

❖ الافتراضات :

لن الذي يطلب من دعوى التحريف بادئ ذي بدء ، هو تحديد الزمن الذي وقع فيه التحريف ، وإلا فالدعوى ضائعة منذ ولادتها . إذا لم تستطع الدعوى تحديد الزمن لحصول التحريف فهي واهية أو باطلة أصلاً .

ولنا أن نسأل : متى حصل التحريف ، وفي أي عهد امتدت الأيدي العابثة للقرآن محرقة إن بالريادة ، وإن بالنقصان ؟

وإذا كان من تحريف فليس لنا إلا الافتراض بأنه قد حصل في واحد من العهود الأتية: عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عهد أبي بكر وعمر ، عهد عثمان ، عهد الإمام علي ، عهد بني أمية ، وبعد هذا العهد لم يزع أحد بحصول تحريف .

الافتراض الأول :

هذا الافتراض الذي يقضي بوقوع التحريف في العهد النبوي لا مستند له يوثقه ، ولا رواية له تدعاه ، فهو باطل إجماعاً .

لن على هذا الافتراض لا بد من الكشف عن حياة النبي الخاصة مرتبطة بظاهرة الوحي الإلهي ومعرفة مدى الاتصال والانفصال بينها .

محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بدعاً من الرسل ، إنما كان حلقة من هذه السلسلة المتعاقبة التي لم ينقض بعضها البعض الآخر ، إنما كان التوافق الكلي في مصدر الرسالة وغايتها ، لقد أوحى إليه كما أوحى إليهم :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ نَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَيُوحَنَّا وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ النساء : الآيات - ١٦٣-١٦٤ .

لئن دلت هذه الآية على أمر فإنما تدل على حقيقة الوحي الشاملة والتي لا تفرق بين الرسل .

هل هذه الظاهرة ، ظاهرة الوحي هي حقيقة تصدر عن ذات النبي أم هي ظاهرة منفصلة عنه تمام الانفصال ؟
كيف عرفها النبي ومن حوله ، وكيف آمن بها ومن حوله على أنها إلهية غير بشرية ، وعلى أنها منفصلة عنه لا متصلة به لو صادرة عنه ؟

والدراسة الدقيقة لهذه الظاهرة ولهذه الافتراضات تنتهي إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان العبد المأمور المحتسب ، للعبد الذي ينفذ ولا يسأل ، يبلغ ولا يضيف .
إن مهمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت التلقي والتبليغ ، وكانت الأداء والتبليغ بكل موضوعية واستقلال ، وبكل أمانة وانفصال عن ظاهرة الوحي .

رغم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وهب حياته للوحي ، مبعثاً ولا إضاعة ، ورسولاً كريماً ولا تحريف ، إلا أن شخصيته حقيقة لها خصوصياتها ، والوحي حقيقة أخرى ولها خصوصياتها .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَيْنَهُمَا فَيُشَاءُ لَهُ عَظِيمٌ ﴾ النجم : الآيات - ١-٤ .

﴿ وَاللَّحْمُ إِذَا هُوَ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ الشورى : الآية - ٥١ .

ليست ظاهرة للوحي هي المكاشفة أو هي ما يقال له : الوحي النفسي تارة ، أو الإلهام المطلق تارة أخرى .

إنّ الوحي تلقائي لا يشغل التفكير ، وغير قابل للتفكير ، بينما الوحي النفسي يدور حول معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير .

إنّ المكاشفة لا تنتج عن صاحبها يقيناً ، لمّا يقين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان كاملاً ، مع وثوقه بأنّ المعرفة الموحى بها غير شخصية ، وطارئة ، وخارجة عن ذاته^١ . فالوحي الإلهي هو الفصل الذي يكشف به الله للإنسان عن الحقائق التي تجاوز نطاق عقله^٢ إنّ الإلهام ، أو المكاشفة ، أو الوحي النفسي يعود إلى الميدان التجريبيّ لعلم النفس ، ويتأرجح بين الشك واليقين .

فالوحي لا يخضع إلى التجربة وإنّه اليقين ، وإنّه الظاهرة الشعورية التي تتسم بالوحي والإدراك خلافاً لحالات الكشف التي هي لا شعورية ولا إرادية .

يقول نولدكه :

إنّ الوحي خاص بالأنبيا ، والإلهام خاص بالأولياء إذ لا يوحى إليهم^٣ . مصدر الإلهام باطني ، ومصدر الوحي خارجي .

فالإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق ، ويصلح للبرهان والإلزام ، وإنّما هو كشف باطني ، أو حدس يحصل به العلم للإنسان في حق نفسه لا على وجه اليقين بل على أساس الاحتمال الاعتقادي ، خلافاً لحالة الوحي^٤ .

من هذا المنطلق ليس لنا الأخذ بما ذهب إليه محمد عبده من أن الإلهام وجدان تستيقنه النفس ، وإنّه طريق لإمكان الوحي^٥ .

^١ - مالك ، ص ، الظاهرة القرآنية ١٦٧ .

^٢ - د. جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ٥٧٠ .

^٣ - المنشرق تيودور تودر تودر كه الإلهام [١٨٣٠ - ١٩٣٠ م] .

^٤ - جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ١٣١/١ .

^٥ - محمد عبده ، رسالة التوحيد ١٠٨ .

" إن القول بأنّ الوحي كان على سبيل الإلهام ، وكل شيء يلقي في نفس الإنسان ، ويهدي له من طريق الخاطر والهاجس الذي يهيج في القلب ، فذلك مما يستعاذ بالله منه ، فإنه تطرّق للإلحاد " ويدّعي أحد الباحثين الكهنوتيين بأنّ الوحي :

" هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين ، لاضلاعهم على الحقائق الروحية ، والأخبار الغيبية من غير أن يفقد هؤلاء الكتاب بالوحي شيئاً من شخصياتهم ، فكلّ منهم نمطه في التأليف ، وأسلوبه في التعبير " .^١

إن المفهوم القرآني للوحي لا يضيء منأخاً باطنياً في الحلول والاتحاد كما يذهب هذا المذهب الكهنوتي . إن طريق الوحي هو التنقي مع استقلال في شخصية الوحي عن شخصية المتلقّي .

وبإنّ عملية الوحي الإلهي تظهر لنا حواراً بين ذاتين :

" ذات متكلمة أمرة معطية ، وذات مخاطبة مأمورة متلقية " .^٢

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾ التورى : الآية - ٥١ .

هذه الآية للكرامة تشير إلى أنّ الوحي هو ظاهرة مرئية ومسموعة ، ولكنها خاصة بالنبيّ وحده دون أن يسمع أصحاب النبيّ هذا الوحي أو يروه ، ورغم ذلك فقد أدركوا صحة هذا الوحي وصنقه ، بأدلة الإعجاز ، وقرائن الأحوال ، واعتبارات الاختصاص . فالنفس الإنسانية وإن كانت واحدة في الأصل والجوهر ، لكنها تختلف شفاعية كما تختلف تخويلاً من قبل الله تعالى ، فالنبيّ يرى ويسمع ويعي ما حوله من الظاهرة بيقين مرئى مشاهد ، ومن حوله لا يرون ولا يسمعون ولكنهم يصدقون ويؤمنون .^٣

^١ عبد القاهر الجرجاني ، الرسالة التكميلية ١٥٦ .

^٢ جورج بوست ، قاموس الكتاب المقدس ، وانظر : صبي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ٢٥ .

^٣ - مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ١٩٤ .

^٤ - تاريخ القرآن ، د. محمد الصفور ، ص ١٩ .

أليس الناس متفاوتين في فطرتهم واستعداداتهم رغم أن النفس الإنسانية واحدة في جوهرها ؟
وورد في الميزان أن الذي ينلقاه النبي من الروح الأمين ، وهو رسول الوحي :
' هو نفسه الشريف من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في
إبراك الأمور الجزئية ، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يرى ويسمع حينما يوحي إليه ، من
غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع ، كما روي بأنه كان يأخذ شبه إغضاء يسمى برحاء
الوحي ، فكان يرى الشخص ويسمع الصوت ، غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه
الماديتين في ذلك كما نستخدمهما ، ولو كانت رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديتين لكان ما
يجده مشتركاً بينه وبين غيره ، فكان سائر الناس يرون ما يراه ، ويسمعون ما يسمعون ، والنقل
القطعي يكذب ذلك ، فكثيراً ما كانت تأخذه برحاء الوحي ، وهو بين الناس ، فيوحي إليه ،
ومن حوله لا يشعرون بشيء ، ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ، ولا كلاماً يلقي إليه ' .

يقول تعالى :

﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴾ .

والمراد بالروح الأمين جبريل ملك الوحي ، وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على
أنه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيه ، لا يغير شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف ،
يعمد أو سهو أو نسيان . إن عمى الألوان قسمان : كلي وجزئي .

فالكلي هو العجز عن التمييز بين الألوان مع بقاء الإحساس البصري سليماً من
الاضطراب ، والجزئي هو العجز عن إدراك لون بعينه ، أو عن تمييز ذلك اللون عن غيره .
وقد يفسر هذا بأنه ظاهرة ذاتية ولكن عمى الألوان له تأثيره ، فلا يمكن أن ترى
بعض الألوان بالنسبة لكل العيون .

" هناك مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر وفوق الضوء البنفسجي
لا تراها أعيننا ، ولا شيء ثبت علمياً إنها كذلك بالنسبة لجميع العيون ، فلقد توجد عيون
يمكن أن تكون أقل أو أكثر حساسية أمام تلك الأشعة ، كما يحدث في حالة الخلقة للضوئية
الكهربية " .^٢

١ - الميزان ، المطاطي ، جلد ١ ص ٣١٧ .

٢ - المعجم الفسي ، صلب ، ١٠٨/٢ .

٣ - الظاهرة انفرادية ١٧٨ .

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين تلقّيه الوحي على وعى كامل لهذا الوحي، وأنّه من خارج وإن كان يبدو على وجهه وجبينه أثناء التلقّي شحوب أو احتقان أو تصبّب عرق .

لم يكن النبي مريضاً لا في خلقه ولا في خلقه ، لقد كان سويّ الجسم والروح والعقل ، لكن بعض المستشرقين اعتبروا هذه الظواهر الجسدية أعراضاً للتشنج والإغماء :

‘ وهذا الرأي يشتمل خطأ مزدوجاً حين يتخذ من هذه الأعراض الخارجية مقياساً يحكم به عمل الظاهرة القرآنية بمجموعها ، ولكن من الضروري أن نأخذ في اعتبارنا قبل كل شيء ، والواقع النفسي المصاحب ، الذي لا يمكن أن يفسّر أي تعليل مرضي ... فإذا نظرنا إلى حالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجدنا أنّ الوجه وحده هو الذي يحتقن ، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية ، وبحريّة عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية ، بحيث يستخدم ذاكرته استخداماً كاملاً خلال الأزمة نفسها ، على حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة ، فالحالة - إذن - ليست حالة تشنّج ، هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية في أساسها ، وحالة معينة ، هو الطابع الخارج المميّز للوحي ’^١ .

فالوحي عند هؤلاء المستشرقين الحاقدين هو أثر لنوبات الصرع ليغيّب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن وعيه وصوله ، وتعتريه التشنّجات ، وتخرج من فيه الرغوة ، فإذا أفارق من نوبته ذكر أنه أوحى إليه ، وتلا على المؤمنين به ما يزعم أنه وحي من ربه^٢ . عجباً : كيف يكون هذا الغياب عن الوعي ، ويصدر على لسانه هذا الكلام المعجز في معانيه ونظمه ؟

وإنّبرى بعض من المستشرقين يردّون على هذه المزاعم التي تغضّ من شأن النبي والوحي ، من هؤلاء المستشرقين : هنري لامنس ، وفون هامر ، والمير وليم موير [١٨٩٦ - ١٩٠٥ م] من هذه الدراسة التي كان لا بدّ فيها من هذه الاستقاضة ، ولا مجال فيها إلا بالاستطراد . لقد ثبت لدينا أن الوحي منفصل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شخصيته المستقلة ، وأنّه مؤتمن على الرسالة ، وأنّ هناك شخصية الملقّي الذي هو الوحي ، وشخصية المتلقّي الذي هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

^١ - - ظاهرة القرآنية ، ١٨٢ .

^٢ - بكرى أمين ، التفسير العلمي في القرآن ١٨ .

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم : الآية - ٤ .

﴿إِنْ تُتَّبَعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ الأحقاف : الآية - ٩ .

لقد أذى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الأمانة متكاملة غير منقوصة ، يقول تعالى :
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة :
الآية - ٣ .

ولطالما القرآن كمال ، فلا قول بالتحريف لأن التحريف عامة ونقص .
ولطالما ثبت أن القرآن معجز " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " فإنه لا سبيل إلى
القول بالتحريف ، لأن التحريف يخرق الإعجاز ، وما قول البشر بمعجز !

الافتراض الثاني

أما الافتراض الثاني الذي يقضي بوقوع التحريف في عهد الشيخين ، فلا وثيقة
تدعمه ، ولا معتمد يعضده ، ولا نص يقويه ، ولا دليل للعقل يشد منه أزره ويدفعه مقبولاً
ومعقولاً .

فالشيطان بإيمانها الوثيق ، وثقتها المطلقة بالوحي والقرآن ، كانا حريصين أشد
الحرص على النص القرآني ، ولا سبيل للشك في هذا الحرص ، فالدعوى مردودة أصلاً
وفراً .

أما العهد العثماني الذي شهد توحيد المصاحف ، فقد أجمع المسلمون على تزكية هذا
للتوحيد وإقراره ، وأجمعوا على أنه كان توحيد قراءات على لهجة قریش ، ولا علاقة له
بالنص القرآني . فالقرآن في ذلك العهد ، وفي كل عهد ، كان مكفولاً ومضموناً في الصدور
والسطور في كل الأقطار الإسلامية .

لن المبادرة التي كانت من الخليفة عثمان كانت مبادرة مشكورة ، وكانت مبادرة تدور
في فلك الخدمة البشرية للقرآن حرصاً عليه ، من أن يمسّه أي طائف من الالتباس والإنسكاف
من حيث نطقه ولفظه .

إن واقع الانتشار القرآني كليل بالحيولة بين القرآن وتحريفه ، هذا بالنسبة للأسباب
البشرية ، فكيف بالأسباب الإلهية القائلة :

" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " ؟

وأما في العهد العلويّ فأولى أن لا يصحّ هذا الافتراض . لأن الأسباب التي حالت بين القرآن وتحريفه كانت لا تزال قائمة في ذلك العهد ، يضاف إلى ذلك اعتبارات ذات علاقة مباشرة بشخصية الإمام (ع) وإيمانه وحرصه على القرآن .

ألم تكن للإمام (ع) مواقف جريئة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ؟
ألم يتورّع محتاطاً في الجزئيات التشريعية فكيف بالقرآن الأصيل ؟

لقد احتجّ (ع) بالقرآن في صفين والجمال ورضي به قاضي التحكيم ، واعتمد منهجه الأعظم على منبره ، وعظاً وإرشاداً !

عليّ (ع) لا يسمح بتحريف القرآن ، ولو كان من تحريف لأتغاه في خلافته .
عليّ الذي هو من هو في ذات الله لو كان هناك شيء من التحريف لأنكره وأبانه ، ولاحتجّ فيه على من تقدّمه ، ولقاتل من أجل سلامة القرآن ولو مهما كانت العواقب !
يقول الخوئي :

‘ أما دعوى وقوع التحريف بعد زمان الخلفاء فلم يدّعها أحد فيما تعلم ، غير أنها نسبت إلى بعض القائلين بالتحريف ، فادعى أنّ الحجاج لما قام بنصرة بني أمية أسقط من القرآن آيات كثيرة كانت قد نزلت فيهم ’ .

وهذه الدعوى تشبه هذين المحمومين ... فإِنَّ الحجاج واحد من ولاة بني أمية ، وهو أقصر باعاً ، وأصغر قدراً من أن ينال القرآن بشيء ، بل هو أعجز من أن يغيّر شيئاً من الفروع الإسلامية ، فكيف يغيّر ما هو أسس الدين ، وقوام الشريعة ، وكيف لم يذكر هذا الخطب العظيم مؤرخ في تاريخه ^١ وينتهي بنا القول إلى أنّ هذه الافتراضات موهومة أو موضوعة ، مشبوهة أو حاكمة . إنها عاجزة وقاصرة علمياً وعقلياً ، وبها باطله جزءاً جزءاً ، وزاوية زاوية ، في دائرة الموضوعية والعقلانية .

❖ الروايات أخبار الأحاد

هناك روايات أحاد لا روايات تواتر يفيد ظاهرها التحريف ونكثها لا تصلح دليلاً في دعوى لأنها رواية أحاد ، ورواتها ليسوا موثوقين ، وأسنيدها مضطربة متناقضة ، والكذب والتليس معالمهما واضحة . من هذه الروايات :

١. روى ابن عباس عن عمر أنه قال :
 " إن الله عز وجل بعث محمداً بالحق ، وأنزل من الكتاب ، فكان مما أنزل إليه آية
 الرجم ، فرجم رسول الله ورجمنا بعده : ثم قال : كنّا نقرأ " ولا ترجعوا عن آبائكم
 فإنه كفر بكم " ١ .

هذه الرواية على تواتر ، وهي أبعد من أن تصدر عن عمر . يضاف إلى ضعف هذه
 الرواية أن حكم الرجم ثابت في السنة ، وليس كل ما ثبت في السنة ثابت في القرآن
 كأعداد الصلاة ، وأنصبة الزكاة ، وبعض مناسك الحج .

٢. روى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت :
 " كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي مائتي آية ، فلما كتب عثمان المصاحف لم
 تقدر إلا ما هو الآن ... " ٢ .
 ويمكننا أن نقول في هذه الرواية :

- أ- ابن عروة بن الزبير غير موثوق الرواية .
- ب- هناك إجماع على أن المصحف العثماني هو القرآن كله ولا إسقاط منه . ولم
 يعترض عليه أحد إن في الزيادة وإن في النقصان .
- ج- لماذا اخفت عائشة هذا الأمر الخطير بعد الجمع مباشرة ؟
- د- لماذا لم ترفع صوتها جهورياً لتعلن للملأ خلال معارضتها لعثمان ، هذا
 التحريف بالنقصان ؟

٣. والتعجب أنهم نسبوا إلى ابن مسعود أنه أسقط الفاتحة من مصحفه ٣ ، ونحن نقول :
 أ- كما قال ابن حزم : هذا الكذب على ابن مسعود ٤ .
 ب- ولئن صحت الرواية فيمكن أن تكون هذه السورة التي هي أم الكتاب ، ولقيت
 نكلى في كل صلاة ، قد أسقطت سهواً ، طالما أن مصحف ابن مسعود هو
 مصحف فردي ، وخاص به ، فإن أسقطت هذه السورة فلا يعني ذلك أنه
 يطال القرآن في شيء .

١ - مسند أحمد ٤/١ .

٢ - البيهقي ، الإقناع ، ٤٠/٢ .

٣ - البيهقي ، الإقناع ٨٣/١ .

٤ - الإقناع ، ٢٢١/١ .

أليس القرآن اليوم هو المصحف الإمام الذي كان متداولاً بين المسلمين ؟

٤. وروى السيوطي أن هناك سورتين لم تثبتا في المصحف وهما : سورة الحفد ، وسورة الخلع ، عندما كان الجمع العثماني . وقد علم هاتين السورتين كل من علي وعمر ، وكان أبي يقتت بهما كما ورد في المروزي ، وأنه كان قد كتبهما في مصحفه إلى جانب ذلك هناك طائفة من الصحابة كانت تستظهرهما وتقرؤهما في الصلاة أو القنوت كما ورد في رواية السيوطي^١ من هذا يتبين لنا أنه قد نقل بطرق عديدة عن ثبوت هاتين السورتين في مصحف ابن عباس وأبي بن كعب " اللهم إنا نستعينك ونستغفرك وننثي عليك ، ولا نكفرك ، ونخضع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمك ، ونخشى عذابك ، إنا عذابك بالكافرين ملحق " . وغير ذلك مما لا بهمنا استقصاؤه .

والرد على هذه الرواية يتوزع على الآتي :

أ- القرآن كان مجموعاً في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لذلك فكل رواية تقول بالإسقاط هي باطلة طالما أن الجمع العثماني لم يتدخل في النص ، إنما تدخل في القراءات لتوحيدها .

ب- لماذا لم يلحق كل من علي وعمر هاتين السورتين بالمصحف ؟

ج- لم ترد رواية عن علي (ع) تشير إلى هاتين السورتين ، لا إلى نزيلته ، ولا إلى أصحابه !

د- بالمقارنة بين السورتين والقرآن أسلوباً ونظماً يتبدى التفاوت .

٥. قال لييب السعيد في نفي أدلة التحريف وذكرنا آياتها ، ما لأصاء بعض الغلاة المنتسبين إلى الشيعة :

أن علياً جمع القرآن فكان فيه ما سموه " فضائح المهاجرين والأنصار " وأن عمر طلب زيد بن ثابت أن يسقط من القرآن هذه الفضائح^٢ .

^١ - الإتيان ، ١٨٤/١ نص السورتين في الإتيان ، ١٨٤/١ .

^٢ - تضع عمرو الأول للقرآن .

هذه الرواية مفسوحة النص ، مكتشفة البطلان لأسباب :

أ- على (ع) جمع القرآن جمعاً فردياً ، مصحفه هو كمصحف أي صحابي ، بل كالمصحف الذي نتداوله في أيامنا .

ب- قد يكون المصحف العلوي قد جمع للنص القرآني وتفسيره ، وجمع التنزيل والتأويل معاً ، وهذا لا ضير فيه ، لأن التنزيل يبقى تنزيلاً والتأويل تأويلاً .
لقد ورد أنه كان لأمير المؤمنين (ع) قرآن مخصوص جمعه بنفسه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعرضه على القوم ، فأعرضوا عنه ، فحجبه عنهم ، والمعروف أنه كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في هذا القرآن الذي بين أيدينا .

وفي هذا المدعى نقول :

بأنه إذا اتفق وصحت الرواية هذه ، فإن زيادة قرآنه (ع) على ما في هذا القرآن الموجود ، إنما هي تفسير وتأويل ، أي ما يؤول إليه الكلام ، أو بعنوان التنزيل من الله تعالى شرحاً لمراده ، كما في الأحاديث القدسية ، بعنوان القرآن المعجز .

ج- لا سبيل إلى اتهام المهاجرين والأنصار ، ولا إلى الحديث عن فضائح .
المهاجرون عامة ، والأنصار عامة ، لم يذكرهم القرآن إلا بخير . لقد نوه القرآن بأسميتهم إلى الإسلام ، وبريادتهم في الإيمان والجهاد ، وخصوصياتهم في خدمة الإسلام !
وإذا كان هنالك من أنصار ومهاجرين قد أساءوا وتجاوزوا فما هم إلا بأفراد .
ألم يمدح القرآن الأنصار حين قال :
' ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ' ؟

ألم يتنزل قوله تعالى في أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم معتدحاً .
إن مهاجرين كان أولئك الأصحاب أو أنصاراً :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ

فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ الفتح : الآية - ٢٩ .

٦ . قال المسور بن مخرمة :

" قال عمر لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل علينا :
" أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة " ، فإنها لا نجدها . قال :
أسقطت فيما أسقط من القرآن " .

ومن هو عبد الرحمن بن عوف بالمقارنة مع عمر حتى يسأله عمر بشأن قرآني ؟
ولا بد من الإشارة هنا بأن صاحب كتاب " المباني " قد عقد فصلاً قيمياً في مقدمته
بعنوان الفصل الرابع [في بيان ما ادّعى على المصحف من الزيادة والنقصان ، والخطأ
والنسيان والكشف عنها بأوجز بيان] ، وقد نتبع فيه هذا الباب نتبعاً إحصائياً ، وفد فيه
مزاعم للتحريف .

التهامات :

لا بد لهذا البند من مقدمة أو إشارات إلى علم الكلام وما تخلله من مناظرات وظهور
فرق يتيم بعضها البعض بالمخالفات في الأصول والفروع على السواء . إن علم الكلام هو
علم يبحث في العقيدة الدينية بالأدلة العقلية .
وحين بزوغ فجر الإسلام كانت مهمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إبلاغه للناس ،
وشرح ما عصى من آيات القرآن ، والإجابة على أسئلة من يسأل .

كان في القرآن الآية المحكمة التي تحتل وجهاً واحداً من المعنى ، وكان فيه الآية
المتشابهة التي تحتل ابتداء معنيين أو أكثر من المتشابه قوله تعالى :
﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ الشورى : الآية - ١١ .
﴿ الرِّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ طه : الآية - ٥ .
﴿ يَذَّالَهُ فَوْقَ أُنْبُيِهِمْ ﴾ الفتح : الآية - ١٠ .
﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الشورى : الآية - ١١ .

^١ السبيوطي ، الاتقان ، ٤٢/٢ .

^٢ - مقدمتان في علوم القرآن ٧٨ .

وكان المسلمون في العصر الأول يسلّمون بهذه الآيات ، ويعتمدونها دون تَسَنُّؤل أو استفسار ، ودون شعور بالحاجة إلى نقاش أو تَأويل .
لقد كان المسلمون الأوائل يكتفون بما فطروا عليه من معرفة محاز اللغة نفهم
نصوص الآيات القرآنية .

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم استمر أصحابه يتذكرون القرآن والأحاديث ، ولما كانوا يتضمنان قصصاً وتشريعاً وأدباً وقانوناً وعقيدة اتجهت أنظار المسلمين نحو ذلك فدرسوا تاريخ الأمم الغابرة ، ورواية النثر والشعر لما بينهما وبين القرآن والحديث من صلة حميمة ، ودرسوا القواعد ليضبطوا لغتهم ، لغة القرآن والحديث خشية اللحن فيهما ، واتجهت عنايتهم إلى التشريع غير أن ذلك كله لم يكن ليتجاوز القرآن والحديث وما يتصل بهما .
بعد ذلك كان الاحتكاك بأسم أخرى غير عربية كانت قد مرت في تجارب دينية ، وصراعات مذهبية أدت إلى مساجلات ومناظرات ، ومجادلات .

وتعرض المسلمون إلى خلافت داخلية أُلجئهم إلى القرآن لحسم النزاع ، وللتفتيش فيه عن حلول لتلك النزاعات كما فعل الخوارج حين أثاروا مسألة المحاسبة على الأعمال ، وقضية مرتكب الكبيرة ، وموضوع الكفر ، ومسألة الجبر والاختيار الذي انماقوا إليه بسبب خصوماتهم .

وفي مطلع القرن الثالث للهجرة ابتدأ عصر الترجمات يتسع نشاطه ، وانفتحت عقول المسلمين على التراث القديم ، وخاصة التراث للفلسفي اليوناني . عند ذلك ابتدأ عصر التسنؤلات ، تسؤلات كان منطلقها ما تسلبه من الآيات .

الله سميع ما معنى ذلك ؟

الله بصير كيف يكون إيصاره ؟

الرحمن على العرش استوى ، ما هي كيفية جلوسه واستوائه ؟ وما هي هيئة العرش ؟

من العلماء من توقف في شرح هذه الآيات ولم يأت منها بتفسير ، ومنهم من قال بأن هذه التسؤلات إنما هي بدعة لا تجوز ، إذ كل بدعة ضلالة .

لقد نجم عن الاحتكاك والصراع الداخلي ، ولترجمة والتعاقبة الفلسفية مواقف كلامية متباينة ، لا يسعنا هنا أن نأتي عليها جميعاً ، فكانت من جراء ذلك فرقة الجبرية والمرجبة

والمعتزلة وغيرهم . إن موقف المشبهة أو المجسمة كان حافظاً لبعض المخلصين أن يبحثوا عن أساليب المحاجة لمصلحة الدين .

ورفض الأمويون القول بحرية الإنسان ، وقدرته على صنع فعله ، واحتضنوا المذهب الجبري محافظاً على سياستهم كطبقة حاكمة ، ليبرزوا حكمهم شرعاً بعد انتصارهم على خصومهم ، اعتباراً أن كل فعل هو من إرادة الله وخلق الله .

نكن تلك المواقف الكلامية بذأت بداية مرتجلة ينقصها الشمول والعمق والحجج المنطقية ، وهذا ما نلاحظه في المواقف الأولى كموقف الجبرية ، والمرجئة والقدريّة ، فجاغت أعمال هذه الفئات محدودة في مسألة أو مسألتين واستمرت حال الحركة الكلامية على هذا الشكل الضيق إلى أن ظهرت المعتزلة وتبلورت فيها أفكار المتكلمين ، وفيها انصهرت وتماسكت .

وانتظمت الحركة الكلامية حين تجذ لها بعض المفكرين المتقنين من المعتزلة وغيرهم ، بعد أن كانت تعتمد البديهية والأرتجال والمواقف الخطابية سبيلاً إلى الإقناع .

نقد كان مفكرو المعتزلة يلجأون إلى الآثار اليونانية المنقولة ، والتي تتلاءم في مضامينها مع المواضيع التي يجادلون فيها ، ففاصوا في أصول المنطق ولشكائه ، يسفرونها للمحاجة .

نقد حاولوا أن يحكموا العقل في شؤون الدين وذلك على أسس ثقافي مكيّن ، وموقف منهجي منظم . فالمعتزلة هي فرقة كلامية انصهرت فيها نزعات كثيرة مناوئة للموقف الرسمي ، بحيث بقنا نجد لدى أهل الاعتزال كل المشكلات الكلامية التي أثرت ، مثل الجبر والاختيار ، وموضوع العزلة بين المنزلتين ، وخلق القرآن والعدل ... وارتفع مستوى النقاش في كل ذلك إلى ما يمكن تسميته بعلم الكلام القائم على أسس البرهان .

إن الموقف الاعتزالي الذي قال بإمامة العقل وأنه يمكن أن يكون شريعة ثانية ، وأنه قادر على معرفة الحسن والقبح في الأشياء ، وأن كل فعل يحاسب عليه الإنسان حسب مقتضى العقل ، وأنه هو المنبث للحكم لا الشرع . إن هذا الموقف الاعتزالي أخرج السلفيين الذين كانوا جبهة واسعة ، وجعلوها تبحث عن أساليب منطقية للدفاع عن مواقفها ، من هنا نشأت الأشعرية التي اعتبرت نفسها الفئة المتفلسفة وليس ذلك إلا لأنها اعتمدت المنطق الأرسطي في دحض حجج خصومها .

إنَّ خصوم المعتزلة قالوا بأنَّ للعقل عاجز عن الوصول إلى الحق ، ولا سبيل له إلا معرفة ما يدور في دائرة الحسِّ والتجربة ، وإدراك الظواهر لا الجواهر . هؤلاء الخصوم كان على رأسهم الأشاعرة الذين يرون أنَّ العقل قاصر ، وغير قابل للتحوص في القضايا الدينية .

إنَّ علم الكلام بدأ خطواته الأولى في العصر الأول ، أما بروزه كعلم له أصوله وقواعده ، إنما كان في القرن الثالث . يقول الشهرستاني :
" لفظ الكلام أصبح اصطلاحاً فنيّاً في عهد المأمون " .

فالعوامل التي أدت إلى ظهور هذا العلم ، وحملت على نموه منها ما هو داخلي ، ومنها ما هو خارجي . أما الداخلي فيتوزع على القرآن ، وعلى الانقسام بين المسلمين ، وعلى الاستقرار بعد الفتح .

فالقرآن تعرّض لساثر الأديان وردّ عليها . لقد تعرّض للشرك ، ولمن آله عيسى ، وتعرّض لمن أنكر نبوة محمد كما تعرّض لمشكلتي الجبر والاختيار ، ولأشجار جدلاً بين المسلمين وغيرهم ، وبين المسلمين بعضهم وبعض .

وكان انقسام المسلمين ، وتناولت الأحزاب الذين للحكم على مرتكب الكبيرة ومنها للقتل . ذهب طائفة إلى القول بيمين القاتل ، وقالت طائفة بكفره ، وتوقفت ثلاثة عن الحكم وترك ذلك لله .

وبعد الفتح كان الاستقرار ، وكان طلب العلم ، مما أدّى إلى خلاف في الرأي . أما العوامل الخارجية التي أثرت على علم الكلام فهي :
العناصر الأجنبية التي اعتنقت الإسلام كاليهود والمسيحيين والفرس ، وأدخلوا معهم بعض مشاكلهم القديمة كمسألة الجبر والاختيار .

وكذلك أنصار الديانات الأخرى ، أولئك الذين هاجموا الإسلام ، فأنبرى المسلمون لردّ هجومهم .

ومن العوامل الخارجية الفلسفة اليونانية التي تزود المسلمون بعلومها ومنطقها لتوفير الألفة . وإن ننس لا ننس العرفانية [الغنوصية] التي كانت واضحة الانتشار في الفرق الإسلامية الأولى التي امتزجت بسبب الترجمة بالروح الأفلاطونية الحديثة ، وتغلغلت في المذاهب الصوفية والباطنية .

المسلمين ، وإذا بطعن الكلام يثير مشكلة خلق القرآن ، ومسألة قدمه وحدوثه . فإذا باعتبارات تتخالف بالآتهم المختلفة ومنها التكفير .

والقول بالتحريف وجد أرضاً خصبة في هذا النقاذف ، وفي هذه النهج التي كانت وبلاد على المسلمين .

كل فرقة تنزّه نفسها عن القول به ، وتتهم الأخرى ، والحكم الحاسم بقضي بأن التحريف لم يكن لا من هنا ولا من هناك .

هذا هو القاضي أبو بكر الباقلاني [ت ٤٠٣ هـ] يقدف بالآتهم الشيعة ، ويتناولهم بالسباب المقذع ويدعي أنهم قالوا بالتحريف زيادة ونقصاناً ، وعقد لذلك أبواباً عدة^١ وبالمقابل يتوجه الطبرسي [ت : ٥٤٨ هـ] إلى الحشوية وينسب إليهم الريادة والنقصان . لكن الحكم الذي هو جدير بالاعتبار وجدير الأخذ به هو حكم السيد الخوئي القائل :

" المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف ، وأن الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد صرح بذلك كثير من الأعلام ، منهم رئيس المحدثين الصنوق ، محمد بن بابويه ، وقد عدّ القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية ، ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، وصرح بذلك في أول تفسيره^٢ التبيان " ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى ، واستدلاله على ذلك بأنّه دليل ، ومنهم المفسر الشهير الطبرسي في مقدمة تفسيره " مجمع البيان " ومنهم مشيخ الفقهاء جعفر كاشف الغطاء في بحث القرآن في كتابه " كشف الغطاء " وادّعى الإجماع على ذلك ، ومنهم العلامة الجليل الشهباني في بحث القرآن من كتابه " المعروة الوثقى " ونسب القول بعدم التحريف إلى جمهور المجتهدين ، ومنهم المحدث الشهير المولى محسن القاساني في كتابه " الوافي وعلم اليقين " ومنهم بطل العمل للمجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي في مقدمة تفسيره " آلاء الرحمن " .

وقد نسب جماعة القول بعدم التحريف إلى كثير من الأعلام ، منهم شيخ المشايخ المفيد ، والمختار الجامع الشيخ البهائي ، والمحقق القاضي نور الله ، وأحزابهم^٣ .

^١ - خاتماني ، نكت الانصار ٩٥ - ١٠٣ .

^٢ - مخزني ، البيان ص ٢٠٠ .

وقال السيد المرتضى [ت ٤٣٦ هـ] نافياً التحريف :

« إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار ، والوقائع العظام ، والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتمت ، والتواصي تسوفرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه ، لأن القرآن معجزة النبوة ، وماخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد ... إن العلم بتفسير القرآن وأبعاضه في نسخة نقله كالعلم بجملته ، وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة ككتاب سيبويه والمزني ، فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما ، حتى لو أن مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً من النحو ليس من الكتاب كغرف ومميز وعلم انه ملحق ، وليس من أصل الكتاب ، وكذلك القول في كتاب المزني ، ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه ، أصدق من للعناية بضبط سيبويه ودواوين الشعر »^١ .

وأردف للشيخ الطوسي [ت ٤٦٠ هـ] بعد السيد المرتضى قائلاً في مقدمة تفسيره :

« المقصود من هذا الكتاب علم معاينة وفنون أغراضه ، وأما الكلام في زيادته ونقصانه فما لا يليق به أيضاً ، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها ، والنقصان منه ، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه ، وهو الأليق الصحيح من مذهبنا ، وهو الذي نصره المرتضى رحمه الله ، وهو الظاهر في الروايات غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من أي القرآن ، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع ، طريقها الأحاد التي لا توجب طعماً ولا عملاً ، والأولى الإعراض عنها ، وترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها »^٢ .

ومن ذلك الكلام في زيادة القرآن ونقصانه ، فإنه لا يليق بالتغيير ، فالما للزيادة فيه فجمع على بطلانها ، ولما للنقصان منه ، فقد روى جماعة من أصحابنا ، وقوم من حشوية العامة : أن في القرآن تغييراً أو نقصاناً ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذي نصره المرتضى قس الله روحه ، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل

^١ - الطبرسي ، مجمع البيان ١٥/٦ .

^٢ - الباق ٣/١ .

مربسبين . وكان للكبار من الباحثين من أهل العصر آراء ومواقف حول هذه المسألة ، من هؤلاء السيد محسن الحكيم القائل :
 " إنَّ سلفَ المسلمين كافةً ، وعلماء الإسلام عامَّة ، منذ بدأ الإسلام إلى يومنا هذا ، يرون أنَّ القرآن في ترتيب سورهِ وآياته ، هو كما بينَ نبيُّنا ، ولم يعتقد أحد من السلف في التحريف " .

ويقول السيّد الخوئي :

" إنَّ أيَّ حديث حول أيِّ تحريف في القرآن ، لا يعدو أن يكون خرافة ، فإن القرآن الكريم لم يعبثه أي تغيير من أي نوع " .
 للعجب العجيب ، بعد هذه التصريحات المتلاحقة والموثقة لأكابر علمائنا أن يطعن علينا الدكتور محمد عبد الله دراز المصري بإفتراء وحقد بقوله :
 " ولقد ظن بعض الشيعة أنَّ عثمان قد بطل في نص القرآن ، أو أنه على وجه التحديد أسقط شيئاً يتعلّق بعلي بن أبي طالب " .

ويبدو التناقض واضحاً في مواقفه من جهات منها :

- أولاً : لم يستند في موقفه على وثيقة واحدة أو مرجع واحد .
- ثانياً : يقول أيضاً : " ومهما يكن من أمر ، فإنَّ هذا المصحف هو الوحيد المتداول في العالم الإسلامي - بما فيه فرق الشيعة - منذ ثلاثة عشر قرناً من الزمان .
- ثالثاً : وأضاف إلى قوله :

" ونذكر هنا رأي الشيعة الإمامية التي هي أهم فرق الشيعة ، كما ورد بكتاب أبي جعفر الأم :

" إنَّ اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيِّه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو كل ما تحويه نفثا المصحف المتداول بين الناس لا أكثر ، وعدد السور المتعارف عليه بين المسلمين هو ١١٤ سورة ، أمّا عندنا فنسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة ، وكذلك سورتا الفيل وقريش ،

^١ - خضري ، جمع البيان ١/١٥١ .

^٢ - فيب السعيد ، وضع المصنف الأول للقرآن ٢٥١ ، انظر مصدره .

^٣ - المصدر نفسه ، ٢٥١ .

^٤ - مدخل في القرآن الكريم ، محمد عبد الله دراز ، ٣٩ .

وأيضاً سورتا الأنفال والقوة ، أما من ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هذا فهو كاذب ^١ .

كيف لنا أن نأخذ بهذه الاتهامات الواهية ، والتي لا يمتد إلى ما هو موثوق من الوثائق والمصادر بعد الذي عرضناه من آراء الكبار ، الكبار من علمائنا ومجتهدينا ؟ إنها اتهامات باطلة ، بل هي قبض الريح .

نتنهي إلى القول بأنه ليس من مسلم يشك بالقرآن الذي بين أيدي المسلمين على اختلاف طوائف المسلمين ، وهذه هي ملايين الملايين من النسخ القرآنية يتداولها المسلمون في كل صقع سواء كانوا سنة أم شيعة . إن النسخ التي تطبع في بلاد الشيعة ، كيران - تقابل أولاً مع النسخ المصرية ، وترسم على الصفحة الأولى من كل نسخة : إنه قول مع القرآن السلطاني ^٢ ، وليس من أحد يعتريه شك بوحدة هذه المصاحف ، سواء كانت المصاحف منقولة أم شيعية . إن ما بين الدفتين قرآن ولا إشكال .

هناك جماعة قالوا بأن القرآن الذي بين أيدينا ليس هو كل القرآن ، لأنه اعتوره فريق بالنقصان ، ورغم ذلك فهم لا يشكون بقرآنية أية سورة ، وأية أية في مصاحف العصر .

قال الشيخ المفيد :

" إن الذي بين الدفتين من القرآن جميعه كلام الله وتنزيله ... قد صح عن أئمتنا (ع) أنهم قد أمروا بقراءة ما بين الدفتين ، وأن لا نتعداه ^٣ .

وقال الفيض الكاشاني :

" فالأولى الإعراض عنها [أخبار التحريف] وترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها ، ولو صحت لما كان ذلك طعناً على ما هو الموجود بين الدفتين ، فإن ذلك معلوم صحته لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه ^٤ .

^١ - مدني في القرآن الكريم ، محمد عبد الله دراز ، ص ٣٩ .

^٢ - أي الذي كتب في عصر السلطان سليم الثاني ، بعد فتح مصر وإشراف لجنة التحقيق المصرية .

^٣ - فصل الخطاب ص ٢٧ .

^٤ - تفسير الصافي ، مقدمة السادسة .

وإذا كان الفرقاء يقولون بحجية هذا القرآن وقرآنيته ، وأنه كلام الله ، فلا يبقى للبحث عن التحريف قيمة أصلاً ، بل ينقلب بحثاً علمياً صرفاً ، لا يفيد أحداً ، سواء نسي طرف الإثبات ، أم في طرف النفي .

❖ الشبهات :

ويبرز القائلون بالتحريف موقفهم بشبهات تدل على هذا التحريف ، ولكن ليس في هذه الشبهات دليل يشير إلى إقناع ، ويؤدي إلى إقناع^١ .

□ الشبهة الأولى :

إن التحريف قد وقع في التوراة والإنجيل ، وسائر الكتب الدينية ، فما المانع من وقوعه في القرآن ؟

ويمكننا الرد على هذه الشبهة بالآتي :

١. ليس من سنة الكون التحريف ، لأن نواحيه ثابتة وحق ، والله خلق كل شيء بقدر ، وجعل نظام الكون بميزان وعدل ، وأنقذ كل شيء صنعا .
٢. التوراة والإنجيل ليسا معجزتي موسى وعيسى (ع) ، إنما معجزهما خارج هذين الكتابين كقلب العصا ثعباناً ، والمشي على الماء ، وإبراء الأكمه والأبرص .
- فإنه لم يتعهد بحفظ هذين الكتابين ولا بصيانتهم ، وإنما ترك ذلك للبشر امتحاناً واختباراً .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَانُوا
وَالرَّيْبَانِيُّونَ وَالْأَخْيَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ
وَأَخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة : الآية - ٤٤ .

٣. أما القرآن فهو المعجزة الخالدة ليعطي المعلم الراشد للمرشد للإنسان في كل زمان ومكان ، لذلك كان لابد من حفظه وصيانته لتأبيده .

^١ - جامع الحقاني ، البيان ص ٦٣٩ .

أما للكتب السابقة فلم تكن إلا لفئة محدّدة من الناس ، ولمكان معيّن في المعمورة ولزمن خاص لا تتجاوزه ، فلا حاجة لحفظها وخاصة أنّها لم تكن للإعجاز ، ولا للتحدي ، إنّما الإعجاز والتحدي كانا خارج دائرتيها .

❏ الشبهة الثانية :

الأحاديث الكثيرة الدالة على أنّ ما وقع في بني إسرائيل يقع في هذه الأمة ، بل كل ما وقع في الأمم السابقة لا بدّ أن يقع في هذه الأمة . ولطالما وقع للتحريف عند الأمم السابقة ، وفي القرون الغابرة ، فالتحريف لا بدّ أن يقع في هذه الأمة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسب رواية الإمام الصادق (ع) كل ما كان في الأمم السابقة ، فإنه يكون في هذه الأمة مثله ، حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة^١ .

ألم يصرّح القرآن بأنّ بني إسرائيل قد حرّكوا كتابهم ؟ ولطالما الأمر كذلك ، فلا بدّ من وقوع ذلك في هذه الأمة فيحرف أبناؤها كتابهم !

وورد في صحيح البخاري ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لتنبئن سنن من كان قبلكم شيراً شيراً ، وشرّاً بزرّاً ، حتى لو دخلوا حجر ضرباً لاتبعنموه لاح .

والرواية على ما قاله العلامة الطباطبائي مستفيضة مروية في جوامع الحديث عن عدّة من الصحابة ، ومستفيضة أيضاً من طرق الشيعة ، عن عدّة من أئمة أهل البيت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كما في تفسير القمّي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لتركبن سبيل من كان قبلكم حذو النعل بالنعل ، والقذّة بالقذّة^٢ .

^١ - عار الأمان ، المجلد ١ ، ص ٤٨ .

^٢ - تفسير تهرن ج ١٢ / ١٢٣ .

وركتنا على هذه الشبهة . يقول :

١. إن هذه الروايات هي روايات أحاد لا روايات تواتر ، ومثل هذه للروايات لا تفيد لا علماً ولا عملاً .
٢. ليس بالضرورة أن كل ما وقع في بني إسرائيل سيقع بالممثلة في كل الجهات في هذه الأمة ، بل يكفي الممثلة له في الجملة .

يؤيد ذلك ما رواه ابن الأثير في جامع الأصول [كما حكى عنه] من كتب الترمذي ، عن ابن عمرو بن العاص : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشرّكين ، كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط ، فقالوا : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سبحان الله : هذا كما قال قوم موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتسركبنّ سنن من كان قبلكم ' .

إلا تلاحظ هنا أن سؤال الممّننين نيّهم لا يتفق مع سؤال بني إسرائيل نيّهم في جميع الجهات ؟

أنيس في ذلك أنه شبيه له في الجملة ؟

هذا شاهد واضح على أنه يكفي في الممثلة اتحاد القصّيتين في الجملة !

لعلّ المراد أن هذه الأمة تشبه بني إسرائيل في الكتاب من جهة أنها سوف تفتقر إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كل فرقة تذهب لما تذهب إليه بالكتب الكريم ، وهو ليس إلا من جهة تحريفهم الكلم عن مواضعه : أي تفسيره بتفسيرات بعيدة عن مضمونه المقصود .

فالمشابهة كما يبدو هي من بعض الوجوه بين الأمم لا في التفصيلات ، فإن وقع التحريف عندها في كتبها ، فيكفي في وقوع التحريف في هذه الأمة عدم اتباعهم لحدود القرآن، وإن أقاموا حروفه ' .

٣. كثيرة هي الوقائع التي حدثت في الأمم السابقة ولم تقع في هذه الأمة ، ولم يقع من المسلمين أمثالها ، كعبادة العجل ، وتيه بني إسرائيل ، وغرق فرعون ،

١ - فحول خطب الترمذي ص ٣٩ .

٢ - محرمي ، البيان ، ص ٢٤٠ .

وملك سليمان ، وزفع عيسى إلى السماء ، وموت هارون وهو وصي موسى قبل موت موسى نفسه ، وولادة عيسى من غير أب ، وعذاب الاستئصال ، ومسح كثير من السابقين قردة وخنازير^١ .

ن الشبهة الثالثة :

هذه الشبهة من مقتضياتها أن كيفية جمع القرآن تستلزم عادة وقوع التغيير والنقص فيه ، وتستلزم نسيان بعض القرآن ، إما بموت من معه شيء من القرآن فضايع ، وإما على سبيل السهر والخطأ وعدم الضبط ، شأنه في ذلك شأن للجامع الأخرى التي تتعرض للطوارئ . إن أبا بكر قد كلف زيد بن ثابت بجمع القرآن من الألواح وصدور الرجال ، وأن لا يكتب أية فيه إلا بشهادة شاهدين على أنها من القرآن ، ومن البدهة أن زيدا وغيره لم يكونوا من المعصومين ، ويحتمل أن لا يقف على جميع القرآن ، لاحتمال بقاء بعض الآيات عند بعضهم .

وللإجابة على هذه الشبهة وكشف ومنها نقول :

بأن للقرآن الذي نتداوله اليوم قد تم جمعه كاملاً في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت المصاحف التي جمعت في العهد البكري تنقل مما جمع في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا من صدور للصحابة بشهادة شاهدين . لم يكن للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كتاب للوحي يسجلون ويدونون على الرقاع بين يديه ؟

أما أبو بكر فلم تكن مهمته إلا أن أمر زيدا بجمع الأوراق المتفرقة في الرقاع في مصحف واحد .

قال السيوطي : قال أبو شامة :

وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا من مجرد الحفظ^٢ .

^١ - الحولي ، البيان ، ص ٢٤٠ .

^٢ - إسناده ٦٠/١ .

وقال السيد المرتضى علم الهدى [ت ٤٣٦] :

«إن القرآن كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعاً ، مؤلفاً على ما هو عليه الآن ، واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له ، وأنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتلى عليه ، وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدة ختمات ، وكل ذلك يبنى بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير مبدول ولا مبدول ، وأن من خالف ذلك من الإمامية والحنوية لا يعتد بخلافهم ، فإن الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث ، نقلوا أخباراً ضعيفة ، ظنوا صحتها ، لا يرجع بمثلها عن المعلوم للمقطوع على صحته»^١ .

لقد رأينا أن مصدر هذه الشبهة هو الزعم بأن جمع القرآن كان بأمر من أبي بكر بعد أن قتل سبعون رجلاً من القراء في بئر معونة ، وأربعماية نفر في حرب اليمامة ، فخيف على القرآن من الضياع ، فصدى عمر وزيد لجمع القرآن من العصب والرقاع والخاف ومن صدور الناس شريطة أن يشهد شاهدان على أنه من القرآن . وكان بهذا الشأن روايات عدة ، وإعادة تقضي بفوات شيء منه على المتصدي لذلك إذا كان غير معصوم ، كما هو مشاهد فيمن يتصدى لجمع شعر شاعر واحد أو أكثر إذا كان هذا الشعر متفرقاً ، وهذا الحكم مقطوع به بمقتضى العادة ، ولا أقل من احتمال وقوع التحريف فإن من المحتمل عدم إمكان إقامة شاهدين على بعض ما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا يبقئ وثوق بعدم النقيصة^٢ .

ولكن هذه الشبهة قائمة على صحة الروايات الواردة في كيفية جمع القرآن . والحق أن هذه الروايات كانت متناقضة ومتضاربة ، وحسبها أن تتعارض مع ما هو ثابت وقطعي من أن الجمع كان على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . إن هذه الروايات معارضة للكتاب وحكم العقل ، ومخالفة لإجماع المسلمين على أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر .

وحسبنا من الرد ما كان على لسان السيد المرتضى علم الهدى ، الذي كان حاسماً في نفيه ومقتعاً في مذهبه وموقفه ، ولا سبيل بعد ذلك لمثل هذه الشبهة أو التوقف عندها .

^١ - مطبوع في مجمع الباء ١٥/١ .

^٢ - طوسي ، الباء ص ٢٥٧ .

٥ الشبهة الرابعة :

تذهب هذه الشبهة إلى أن الإمام علياً عليه السلام كان له مصحف غير المصحف المتداول . وهناك روايات عن الأئمة تشير إلى أن مصحفه (ع) كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في القرآن ، وأنه (ع) قد أتى به إلى القوم فلم يقبلوا به ، فحجبه عنهم .

يترتب على هذا وجود تغاير بين المصحفين أو فرضية الزيادة والنقصان بين النصين .
من هذه الروايات :

١ . قول أمير المؤمنين (ع) محتجاً على جماعة من المهاجرين والأنصار :
" يا طلحة إن كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط يدي ، وتأويل كل آية أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل حلال أو حرام ، أو حد ، أو حكم ، أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة ، فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط يدي حتى أرى الخدش " ١ .

٢ . ومنها ما في احتجائه (ع) على الزنديق من أنه :
" أتى بالكتاب كل مشتملاً على التأويل والتنزيل ، والمحكم والمنشأ ، والناسخ والمنسوخ ، لم يسقط منه ألف ولا لام ، فلم يقبلوا ذلك " ٢ .

٣ . ومنها ما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري قال :
سمعت أبا جعفر يقول : ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب ، وما جمعه وحفظه كما نزل الله إلا علي بن أبي طالب ، والأئمة من بعده عليهم السلام ٣ . ومنها ما رواه في الكافي بإسناد عن جابر ، عن أبي جعفر (ع) قال :
" ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء " ٤ .
لقد سبق لنا أن قلنا أن علياً قد جمع القرآن وفق ترتيب خاص ، اشتمل على التنزيل والتأويل ، وفصل فيه بين الناسخ والمنسوخ ، ورتب فيه السور أو الآيات ترتيباً

١ - مقدمة تفسير الرهان ص ٢٧ .

٢ - تفسير الصافي ، المقدمة السادسة ص ١١ .

٣ - ثواب ج ٢ كتاب الحجة باب ٧٦ ص ١٣٠ .

٤ - ثواب ج ٢ كتاب الحجة باب ٧٦ ص ١٠٣ .

تاريخياً محدّد للنزول مناسبة وزمناً . ولكن لا يذهبن بك الظن أنّ هذا الجمع وهذا الترتيب يتعارض مع القرآن في نصّه وأصله .

لعلّ التّأويل هو الوحي غير القرآنيّ أو ما يقال له الحديث القدسيّ الذي من غايته توضيح ما أبهم من القرآن ، وشرح ما غصص من الآيات ، وبهذا الاعتبار يكون الإمام عليّ (ع) قد علم من الرسول ما لم يعلمه غيره .

روى المدي عن عبد خبّرأ عن الإمام عليّ (ع) :

* أنّه رأى من الناس طيرة عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأقسم أن لا يضع عن ظهره رداء حتى يجمع القرآن ، قال : فجلس في بيته حتى جمع القرآن ، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن ، جمعه من قلبه وكان عند آل جعفر^١ ، هذه الشبهة إنّ باطله جملة وتفصيلاً .

إنّ مصحف عليّ هو مصحف فردّي خاص به يُتدارسه ويعمل فيه تأويلاً وتفسيراً لا أنّه قرآن يختلف عن القرآن المتداول بنصّه إن في الزيادة أو في النقصان .

□ الشبهة الخامسة :

ذكر أكثر أهل السنّة ، وجماعة من الشيعة أنّ النسخ على أقسام ثلاثة :

- أحدها نسخ التلاوة دون الحكم .
- وثانيها نسخ الحكم دون التلاوة .
- وثالثها نسخ التلاوة والحكم .

وروي أخبار كثيرة دلّالة على أباث قرآنيّة ليس في هذا القرآن الموجود منها أثر ، ويقولون أنّها مما نسخت تلاوته .

روى مسلم بسنده عن عائشة ، أنّها قالت :

^١ - بخوري ، أباث ص ٥٠٣ .

كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرَمْنَ ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهن فيما يقرأ من القرآن^١ .

قال في هامش صحيح مسلم هنا :

تعبادة قاصرة عما أراده ، فإن مراده : أن عشر رضعات نسخن بخمس رضعات تلاوة وحكماً ، ثم نسخ هذا للناسخ ، وبقي حكمه ، كآية للرجم .

قال المستدل :

هذه الرواية ونظائرها تدل على سقوط آيات من القرآن ، وحيث إننا لا نقول بنسخ التلاوة تعين لقول بسقوطها منه عمداً أو عن غير عمد

وجوابنا على هذه التوجه :

أنه إذا ثبت نسخ التلاوة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنحن نقبله ... وإن لم يثبت ، فالواجب هو حمل هذه الروايات على أن المراد : على أن هذه الكلمات : مثل قوله : ' عشر رضعات ، أو خمس رضعات ' هي من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا من القرآن ، وقد اتفق مثل ذلك لبعض الصحابة كما قيل . فقد نسب إلى أبي بن كعب : أنه كتب الدعاء ، وهو : اللهم إنا نستعينك ، ونشهد ... الخ " في صحفه ، وسماه سورة الخلع والحف ، لورود مادة هاتين الكلمتين فيه ، وبالمقابلة لهذا ، ما يذكرونه عن عبد الله بن مسعود من أنه قال :

إن المعوتتين ليستا من القرآن ، لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يعوذ بهما الحسن والحسين ، فظن أنهما دعاء ، وليستا من القرآن .
ونخلص إلى القول :

بأنه ليس محالاً أن يشبه على البعض بعض كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، أو بالعكس ، كما حصل في الأعصار السابقة لبعضهم .
روي عن ابن عباس : أنه كان يشك في بعض كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، إتّها من القرآن وأنه قال مرة بعد نقله لحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم : فلا أدري أمن القرآن هو أم لا ؟^٢

^١ - صحيح مسلم ، ج ٤ ص ١٦٧ .

^٢ - صحيح مسلم ، ج ٣ ص ١٠٠ .

□ الشبهة السادسة :

وهذه الشبهة تذهب إلى أن عثمان حينما استولى على أسر الأتمة ، جمع المصاحف المتفرقة ، واستخرج منها نسخة سمّاها "الإمام " ، ومزّق ، وأحرق سائر المصاحف ، ولم يفعل ذلك إلا لإعدام ما تبقى منها . وقد أقره الصحابة عثمان على هذا العمل الجليل ، لكن السيّد الخوئي وإن كان قد أقره على هذه المبادرة ، واعتبر عمله هذا مشكوراً ، ولكنه أخذ على الإحراق والتعزيق .

ولذا أن نردّ على هذه الشبهة بأنّ عثمان إنّما جمع الناس على قراءة واحدة ، ولم يجمع القرآن ، لأنّ القرآن كان مجموعاً على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم . عن الحارث المحاسبى : أنّ المشهور عند الناس أنّ جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنّما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار بينه وبين من شهد من المهاجرين والأنصار ، ثمّ خشي للفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات ^١ .

وبهذا الاعتبار لم ينقص عثمان من القرآن شيئاً ، بل حمل الناس على القراءة للوحدة حين اختلفت القراءات في الأمصار ، وهذه القراءة الواحدة هي قراءة العصر .

□ الشبهة السابعة :

القرآن اعتوره تحريف في النقصان كما تقول روايات وأخبار تدلّ على أنّ ما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر بكثير من القرآن المتداول .
١ . روى الكليني عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (ع) قال : إنّ القرآن الذي جاء به جبرائيل إلى محمد سبعة عشر ألف آية ^٢ ، إنّ الآيات القرآنية لا تزيد على ستة آلاف آية إلا قليلاً ، فالحصيلة تنتهي إلى أنّ القرآن قد ضاع منه ثلثاه .

٢ . وزوى السيوطي عن الطبراني عن عمر بن الخطاب ، مرفوعاً :
القرآن ألف وسبعة وعشرون ألف حرف ، فمن قرأه محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين .

^١ - الإتيان ج ١ ص ٦١ .

^٢ - أصول الكافي ص ٦٠٨ .

قال السيوطي : رجاله ثقة إلا شيخ الطبراني ، وتكلم فيه الذهبي ^١ .
 وإحصائية الحروف القرآنية المتداولة لا تبلغ بها الأرقام ثلث هذا
 العدد، مما يقضي بأنه قد سقط من القرآن أكثر من ثلثيه .

٣. عن ابن بابويه ، بسنده عن عبد الله بن سنان ، عن أبي عبد الله (ع) ،
 قال : يا بن سنان : إن سورة الأحزاب فضحت نساء قريش من
 العرب ، وكانت أطول من سورة البقرة ، ولكن نقصوها وحرقوها ^٢ .

٤. عن حذيفة قال : قال لي عمر بن الخطاب :

كم تعنون سورة الأحزاب ؟

قلت اثنتين أو ثلاثاً وسبعين . قال : إن كانت لتقارب سورة البقرة ،
 وإن كان فيها الآية الرجم ^٣ . والروايات التي لها هذه الإشارات كثيرة ،
 كل ذلك يقضي بأن القرآن قد فقد الكثير من آياته .

ويرد على هذه الروايات بوجهين :

أولاً : بأن أهل السنة يقولون بنسخ ثلاثة بعض الآيات .

ثانياً : ما قاله بعض المحققين من حملها على الزيادة في مصحف أمير
 المؤمنين (ع) ، تلك الزيادة التي ليست قرآناً إنما هي تأويل وأحاديث
 قديمة .

٥. وهناك روايات عن الأئمة تدل بظاهرها على التحريف من هذه

الروايات :

~ ما رواه جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

" يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون ، للمصحف ، والمصحف ، والمصحف ،

والعترة . يقول المصحف : يا رب حرقوني ومزقوني ، ويقول

المسجد ، يا رب عطلوني وضيعوني ، وتقول العترة : يا رب

قتلونا ، وطرودنا ، وشرودنا " ^٤ .

^١ - الإنان ج ١ ص ٧٢ .

^٢ - تسميم الزهراء لفرابي ج ٣ ص ٢٨٨ .

^٣ - منتخب كرم الممال ، هامش مست أحمد ج ٢ ص ١ .

^٤ - النخائل ، الصدوق ، العدد ٢٣ ، المحرقي ، ج ١ ص ٢٨٨ .

- ويقول الإمام موسى بن جعفر (ع) :

"أوتمنوا على كتاب الله فحرقوه ، وبذلوه " ^١ .

- وقال أبو عبد الله (ع) :

" أصحاب العربية يحرقون كلام الله عز وجل عن مواضعه " .

وثمة روايات أخر تسير بهذا التوجّه ، ليس من ضرورة لسردها .

وهذه الرواية الأخيرة فهي ظاهرة في اختلاف القراءات .

وأما ما سواها فالمراد من التحريف لعله حمل الآيات على غير معانيها ، ويؤيده ما ورد عن الإمام الباقر (ع) في رواية أخرى :

" وكان من نيزهم الكتاب ، أنهم أقاموا حروفه ، وحرقوا حدوده " ^٢ .

وكيفما انقلب الأمر فهذه الروايات تدلّ على التحريف بمعنى إلغاء نصوصه ، إتّما تحمل أن القرآن قد حُرّف بحدوده وضوابطه ، حيث لا يعمل به ، ولم يحرق بنصوصه وأصوله ، فهي ثابتة لم تتبدل ، وسالمة لم تتغيّر .

وجمّة ما يلاحظ على هذه الروايات أن القرآن لا يعمل به ، ويشكّي من ذلك عداً عند الله .

د الشبهة الثامنة : فيما نسب إلى عبد الله بن عباس :

١ . قوله : ﴿ أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾

الرعد : الآية - ٣١ .

روي أن ابن عباس قرأ :

" أفلم يتبين الذين آمنوا " من البيان .

قال القشيري : قيل لابن عباس :

" المكتوب [أفلم يائس] قال :

أظن الكاتب وهو ناصب ، أي : زاد بعض الحروف حتى صارت

الكلمة " يئس " ^٣ .

^١ - إحصاء ، لسدوق ، العدد ٢٣ ، الحرني ، البيان ص ٢٨٨ .

^٢ - نفس المصدر : لحنوي .

^٣ - فخر رزي ٣٢٠/٩ ، لاقتان ١٨٥/٩ ، فخر الرازي ٥٣/١٩ .

٢. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُوا إِلَّا يَتَاءَ ﴾ الإسراء : الآية - ٢٣ .

روي أنه كان يقول في قوله [وقضى ربك] إنما هي " ووصى ربك " .
الفرقت اللو بالصاد . ويقول :

" ولو كانت " قضى " من الرب " ، لم يستطع أحد رد قضاء الرب " ،
ولكنه وصية أوصى بها العباد " .

٣. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ النور : الآية - ٢٧ .

روي عن أبي ، وابن عباس ، وابن جبير ، فيما ادّعت بعض الروايات
أن أصلها : " حتى تستأذنوا " ، ولكن وقع خطأ ، أو وهم من الكاتب ،
فكتبها هكذا " .^١

٤. ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ النور : الآية - ٣٥ .

نسب إلى ابن عباس أنه قال :

هي خطأ من الكاتب ، إذ هو أعظم من أن يكون نوره مثل نور
المشكاة ، إنما هي : " مثل نور للمؤمن كمشكاة " .^٢

والجواب على هذه الشبهة ينطلق من الآتي :

١. لقد أجاب العلماء بأن هذه الروايات ضعيفة لا يصح نسبة شيء منها إلى ابن

عباس ، إذ عورضت بروايات أخرى عن ابن عباس وغيره تثبت هذه
الكلمات والأحرف في القراءة .^٣

٢. هذه الروايات المعارضة للروايات الأخرى المتواترة ، المجمع عليها ،

والمنقطع بها هي روايات آحاد ، وروايات الآحاد لا تستلزم عملاً ، ولا
تستوجب يقيناً .

^١ - انظر في ٢٣٧/١ ، الإقناع ١/ ١٨٥ .

^٢ - انظر في ٢١٣/٢ ، انظر في ٢١٤/١٢ .

^٣ - الإقناع ١/ ٣٨٥ .

^٤ - انظر في ١٨٥/٢ ، سامع العرفان ١/ ٣٨٤ .

بحكم هذا ، تنقلب هذه الروايات ساقطة ، ولذا لا يعول عليها ، ولا يلتفت إليها ، ولا يؤخذ بها ، وحسبك أن هذه الروايات كونها مضطربة في ألفاظها ، مع تخليط في إسنادها ، فوق ما فيها من إرسال ، وانقطاع في السند^١ .

٣. ومن المعلوم أن أكثر ما ذم من ساقط الروايات ، كان ينسب إلى ابن عباس [رضى] كما هو معزوف^٢ ونعنع هذا النسب المتكاثر على ابن عباس صانداً عن رغبة في تشويهه والانتقاص منه ، لأنه بحر العلوم .

ولذا لا يبعد كثيراً أن هذه الروايات قد دست لغرض خبيث له خلفاته ، وإسن عباس بريء منها ومما نسب إليه فيه .

٤. يقول د. لبيب السعيد داخضاً هذه الروايات :

“وعندي أن أقوى ما يدحض هذه الروايات وأمثالها ، أن رواية القرآن لم تكن من الكتابة فحسب ، إن لم تكن بنونها نهائياً ، ولم تكن الكتابة في المقام الأول ، وإنما مصدرها الأول والأوثق هو التلقى الشفوي المتواتر . وهو خال – هنا – من ذلك الاختلاف المزعوم^٣ .

٥. “أفلم يئأس الذين آمنوا” هي القراءة المشهورة المتواترة عن ابن عباس ، أما قراءته [أفلم يئيبين] من باب البيان والتفسير لا من باب القراءة .

إن ما ينسب إلى ابن عباس بعيد بعيد عن الصحة والصدق ، لأنه يقتضي كون القرآن محلاً للتحريف والتصحيف ، وذلك يخرج عن كونه حجة ، وهو مما لا يصدق في كتاب الله تعالى :

﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ فصلت: الآية – ٤٢ .

^١ - المفتح ص ١٢٤ .

^٢ - أنظر في ذلك توسيع : التفسير والمفسرون د. الفذهي ٨٢/١ بشر دار الكتب الحديثة .

^٣ - التجميع المصروف ص ٤٢٩ .

ويقول الفخر الرَّاكزي في هذا :

" إنَّ هذا القول بعيد جداً ، لأنَّه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرَّق إلى القرآن ، ولو جَوَّزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن ، ونلك يخرجُه عن كونه حجة ، ولا شك أنَّه طعن عظيم في الدين " ^١ .

والمناقشة الموضوعية تقول بأنَّه كيف يصحَّ تفريط الأئمة والصحابة في ضبط القرآن الكريم ، وإهمالهم في حفظه حتَّى ينسوه ، فلا يعرفه إلَّا الواحد والإثنان من الأطراف ، وحتَّى لا يوجد إلَّا في الأكتائب والخفاف والرقاع ؟

هذه الدعوة هي ظاهرة فساد ، إذ يلزم منها ، أنَّ هذه الآيات لم يحفظها أحد حتَّى صحت ! لذلك ، فالروايات هذه واهية ضعيفة ، بل غير صحيحة أصلاً لأنها تطعن في دقَّة عمل الصحابة وفي يقظتهم ، وفي يقينهم من جانب ، وهي تقضي بصحة التحريف للقرآن الذي جاء فيه قوله تعالى : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " .

المحاولات :

مخاوفنا على القرآن من تحريفه في العصر الحديث كانت من المستشرقين المشبوهين ، ومن المنكرين الجاحدين ، ومن الارساليَّات وجماعة التبشير ، ومن إسرائيل وموارثها على العرب والمسلمين وعلى الأخصَّ في قرآنهم الذي هو مصدر خوفها وقلقها .

وأثيرت الشكوك حول ظاهرة الوحي عامة عند الملحدين الذين يزعمون بأنَّ السنين أفيون الشعوب ومخدرهم ، وأنَّه الخرافة الخاوية ، كما أثيرت الشكوك حول الوحي المحمديَّ خاصَّة في نظريات أهل الاستشراق والتبشير .

المعتدلون من هؤلاء يرون أنَّ القرآن هو مرآة للحياة الجاهلية بكلِّ جوانبها . إذا أردت أن تعرف الحياة الجاهليَّة بكلِّ ما لديها فما عليك إلَّا بالتعرُّف على القرآن .

فالحالة الدينيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والفكريَّة ، والأخلاقيَّة لا يصوِّرها أكمل تصوير إلَّا القرآن .

^١ - تفسير الرازي ٢٠ / ١٨٠ .

أنظر إلى المعتدلين من هؤلاء المستشرقين أمثال " جب " ودرنهام ، ومرجليوت ،
أنتجدهم ينتهون بمواقفهم من القرآن إلى أنه نتاج هذه الجاهلية بزمانها ومكانها . ومحمد ابن
هذه الجاهلية . فالقرآن هو صناعة محمد ونتاجه ، ليكون محمد مصلحاً إنسانياً مستغلاً القداسة
الدينية عند العرب ؟

ولا ينسى حديثنا أولئك المتغربين من العرب والمسلمين في مقاعد دراساتهم وثقافتهم
واتجاهاتهم الفكرية في صدد موقفهم من ظاهرة الوحي والقرآن .
أولئك الذين أخذهم الانبهار بما عند الغرب ، وبما يفرزه الغرب من آراء جاهلة أو
متجاهلة لحقيقة الوحي المحمدي .
ومن أراد مثلاً على ذلك الموقف المتأثر بالاستشراق فعليّه بقراءة كتاب " الأدب
الجاهلي " وتفهم ما ينطوي عليه من خلفيات خبيثة حول القرآن ، وحول الوحي المحمدي .
وكان ذهنونا واضطرابنا يوم أعلن الإعلام المصري أن إسرائيل كان منها التحريف ، وكانت
منها محاولة العبث في القرآن .

في أيلول عام ١٩٦٠ أفادت أنباء القاهرة أن إسرائيل قد قامت بطبع مائة ألف نسخة
من القرآن الكريم ، فيها أكثر من ألف من الأخطاء المطبعية واللغوية المتعمدة .
ونشطت إسرائيل في توزيع هذه للنسخ المحرفة في العديد من البلدان الآسيوية والإفريقية ،
كالمغرب ، وغانا ، وغينيا ، ومالي ، ودول أخرى .

في المغرب اكتشفت هذه المحاولة الخطيرة ، وقد اكتشفتها سفارة الجمهورية العربية
المتحدة في المغرب ، وأشعرت بذلك السلطات في القاهرة ، وبعثت إليها ببعض النسخ
المحرفة لتتف على حقيقة الأمر ، وتستيقن من واقع المحاولة التي تريد كيداً بالعرب
والمسلمين في دينهم وعقيدتهم وشريعتهم^١ .

وأبرز مظاهر هذا التحريف ما يلي :

١ . حذف الآيتين التاليتين من القرآن الكريم ، ومنع تدريسهما في مدارس العرب
والمسلمين في الأرض المحتلة :

^١ - جريدة الإهرام القاهرة عدد ٢٨ ديسم ١٩٦٠ - مجلة آخر ساعة عدد ١١ سبتمبر ١٩٦١ بالقاهرة ، راجع هذه المقالة في دراستنا
لقرآن القرآن .

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَكُّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿ المتمتحنة : الآيات - ٨-٩ .

٢. حذف كلمة " غير " ليتقلب المعنى معكوساً من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ آل عمران : الآية - ٨٥ .

٣. حذف كلمتي " ليست " من الآية الكريمة : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ البقرة : الآية - ١١٣ .

٤. إبدال عبارة " والله عزيز حكيم " بعبارة " والله غفور رحيم " من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ والمآرق والمناقب فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبتا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴿ المائدة : الآية - ٣٨ .

٥. حذف " لا " الدخالية من بعض المواضع ، ليكون المعنى عكس الذي نزل به القرآن الكريم .

والذي كانت تقصده إسرائيل فيما قيل وقتها ، هو صرف الأظفار عن جرائمها التي ارتكبتها ، في حق العرب بإخراجهم من ديارهم ^١ ، ولا شك أن المسلمين قد بلغ بهم الاهتمام بهذا الحادث الخطير ما بلغ ^٢ .

وكيف لا يهتم المسلمون والعرب بهذا الحدث الخطير ، وإسرائيل قد تحولت إلى كتابهم الأقدس تعبت به وتحرقه ؟

من هذه الاهتمامات الإسلامية ، وخاصة الجمهورية العربية المتحدة :

^١ - جريدة الجمهورية المصرية عدد ١١ ديسمبر ١٩٦١ .

^٢ - المجمع المصري ٢٧٤ .

١. بحث وزير الأوقاف المصرية مع شيخ الأزهر محمود شلتوت الإجراءات الواجب اتخاذها ضد هذا العدوان الخطير ، ومنها تشكيل لجنة مشتركة لمراجعة المصحف المحرف ، وإبراز أخطائه وتحذير المسلمين من تداوله ^١ .

٢. لقد كان لشيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت دوره المشرف ، وموقفه المؤمن الشجاع . فقد أرسل إلى الرئيس عبد الناصر رسالة في هذه المناسبة يستشير به ، ويبعث فيه حميته :

.... " إن إسرائيل التي قامت على البغي والطغيان والاعتداء ، على المقدرات والمقتسات ما زالت تعيش في هذا العيث ، وتحيا في إطار هذا الطغيان ، وإنها - بتحريفها للقرآن الكريم - تريد القضاء على معتقداتنا وديننا ، وهي بذلك تمارس ما كان عليه أساؤهم من تحريف الكلم عن مواضعه ابتغاء كبت للدعوة الإسلامية وإعاقتها .

إن المسلمين في أنحاء الأرض يدعون إليكم ، وكلهم أمل في قوة إيمانكم ، وغيرتكم على دينكم ، أن تعملوا على حفظ كتاب الله ، فتقوا في وجه هذا العدوان الأثيم . إن الأمة الإسلامية كلها من ورائكم " ^٢ .

٣. مصر وحدها كان صوتها صوت الإيمان الحق والشجاع ، كان صوتها الأكثر حيوية وقوة بين أصوات البلاد العربية والإسلامية لشجب هذا الاعتداء العاثم باستثناء الاقواء السوداني ، والحكومة الأردنية .

٤. وأمر مفتي الديار السودانية كل موظفي المحاكم الشرعية ، وأصحاب المكتبات العامة ، بضرورة مراجعة المصاحف - قبل تداولها - للتأكد من سلامتها من التحريف ، وذلك عن طريق تسرب هذا المصحف الذي نشرته إسرائيل ووزعته في الأمصار .

٥. وأصدر شيخ العلماء في السودان بياناً أهاب فيه بالمسلمين أن ينتبهوا لهذا الخطر ، وأن لا يقللوا أي مصحف ، إلا إذا كان موافقاً عليه الأزهر ، أو إحدى الهيئات الدينية الرسمية في البلاد الإسلامية ^٣ .

^١ - جريدة الأهرام عدد ٢٩ ديسمبر ١٩٦٠ .

^٢ - الأهرام نفسه ، وعدد الجمهورية بنفس التاريخ .

^٣ - جريدة النساء عدد ١٠ فبراير ١٩٦١ .

٦. وأصدرت الحكومة الأردنية بياناً استنكرت فيه التحريف ، وذكرت ما نأذى إليها من أن إسرائيل عرضت على الدول الأفريقية التي وزعت فيها المصاحف المحرقة ، أن ترسل إليها مدرسين لتدريس اللغة العربية في إطار النسخة المشوهة من المصحف^١.

وطلبت الأردن إلى المسؤولين في البلاد العربية إحباط أعمال إسرائيل الشنيعة . وثارت ثائرة المسلمين على هذه المؤامرة الخطيرة حيث تم اكتشاف الجريمة مبكراً ، وكان القضاء عليها بصورة حاسمة ، ليقضى عليها في مهدها ، بسبب عزل تلك النسخ المحرقة .

وبذلك لم تنجح المؤامرة الخبيثة من إسرائيل التي تعتبر الشر المطلق ، والشيطان على إطلاقه .

٧. ولقد كان حدثاً عالمياً كبيراً ما توصل إلى ابتكاره الأصل ، الأستاذ لبيب السعيد من تفكيره في تسجيل المصحف المرسل ، وبعد محاولات ومشاريع وأوليات وعقيات ، تم تسجيل القرآن الكريم كاملاً ، وحفظ صوتاً مسموعاً مرتلاً برواية حفص لقراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ، بصوت المرحوم الشيخ محمود الحصري ، عدا تسجيلات سواء من القراء ، وخصصت مصر إلى اليوم إذاعة خاصة يتلى بها ليل نهار أممتها : إذاعة القرآن الكريم^٢ .

وتم هذا الحدث الجليل في صورته النهائية التنفيذية في ٢٣ يوليو ١٩٦١ ، وتقرر توزيع أسطوانات المصحف المرسل في الدول التي وزعت فيها إسرائيل المصاحف المحرقة^٣ . وهكذا تحقق للقرآن في هذا الزمان البعيد البعيد عن زمان نزوله من الضبط والشكل ، من الرسم والقراءة ، من النلاوة والطباعة ، من العناية والرعاية من كل الوجود ما لم يتحقق له في أي زمان وأي مكان ، وهذه الأسباب البشرية تتناسب مع التأكيد الإلهي بقوله تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " . وهذا الحفظ وهذه الصيانة هما من معجزات القرآن المتحدية ، ومن أسرار الغنية التي لا حدود لها . وهكذا توثق النص القرآني جملة وتفصيلاً ، وسلم من التحريف والتزييف وأنجز الوعد الإلهي بحفظه وصيانيته لبقى هذا القرآن النسخة المفردة لخير الناس ، وهداية الناس على ساحة كل زمان ، وكل مكان .

^١ - جريدة الأسبوع الثقافية عدد ٨ أبريل ١٩٦١ م .

^٢ - المجمع الصوتي الأول للقرآن ١١٤ .

^٣ - جريدة الجمهور الثقافية عدد ٢ ١٩٦١ م .

بعد هذه الدراسة المستفيضة بالأدلة والوثائق لمسألة سلامة القرآن من التحريف ، وبيان أن الذي بين الدفتين هو كل القرآن ، يمكننا إجمال هذه الدراسة ، التي نعتبرها من الأهمية بمكان الآتي :

١. " إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون " الحجر : الآية - ٩ .
من البدهة أن الذكر إنما يقصد به القرآن لا غير ، ومناسبة الآية ومظاهرها لا يشيران إلى غير القرآن بشيء .

وما المراد من حفظ هذا الذكر ؟
المنطق العقلي لا يقضي إلا بالحكم على هذا الحفظ إلا بأنه الإبقاء لهذا القرآن كما نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم .
وهو إسقاط أية واحدة منه تتسجم مع هذا الحفظ ؟
ألا يؤدي هذا الإسقاط إلى عدم وفاء الله بوعده ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٢. " إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَكُنْابَ عَزِيزٍ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " فصلت : الآيات - ٤١ - ٤٢ .
ولطالما التحريف هو من الباطل ، فلا سبيل إلى أن يتطرق إلى القرآن هذا التحريف .

٣. المجموعة الكبيرة ، والطوائف الكثيرة من الأحاديث التي تشير إلى أن ما بين الدفتين هو كل القرآن :

- الطائفة الأولى :

هي الأحاديث والأخبار الواردة في بيان الثواب لسور القرآن الكاشفة عن عدم تحريف السور ، حيث لا مبرر للثواب على قراءة السور المحركة .

- الطائفة الثانية :

الأحاديث التي تكل على وجوب عرض الأخبار على كتاب الله لمعرفة مدى تطابقها أو انسجامها مع روحه وتعاليمه ومقاصده ، إذ ما هو المبرر لعرض الأخبار على قرآن محرف ؟

ألا يفقد ذلك الثقة بهذا القرآن ، ويحمل على الشك في صحته ؟

- الطائفة الثالثة :

هي الأخبار الدالة على لزوم ووجوب التمسك بالقرآن ، يقول صلى الله عليه وآله وسلم: " إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي آل بيتي ... " .
فما هي الأمور التي نستلزم التمسك بهذا الكتاب طالما هو محرف بالنقيصة ؟

٤. التحريف بالنقصان ، السقوط من القرآن ، فقدان بعض من آيه وسوره ، كل ذلك يحمل على الشك فيه ، ويبحث على عدم الثقة في الرجوع إليه واعتباره المصدر للحق الذي لا شبهة فيه ، ولا ريبه .

٥. العناية بالقرآن والاهتمام به ضبطاً ، وتوثيقاً واستظهاراً ، وتدارساً في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعد عصر النبي ، وانتشاره في الأمصار والأقطار ، كل ذلك حال بينه وبين سقوط أي شيء منه ، بل أخرج سقوط شيء منه عن مجرى العادة والمألوف .

٦. أما التحريف بالزيادة فالإجماع مطلق على بطلانه . إن القرآن المتداول في أيامنا هو قرآن كله وهو وحى كله ، ولا دخيل عليه ، لا من الأحاديث القدسية ولا من كلام البشر .

وعنده الألفة في هذا الشأن هي :

- أ- السيرة العملية القطعية منذ عصر جمع القرآن إلى أيامنا ، من المسلمين أجمعين .
- ب- استدلال الأئمة (ع) بهذا القرآن على ما يريدون ، وعلى ما يرشدون ويعظون ، وعلى ما يريدون دفع الشك عنه والارتياح به .

روي عن الإمام الباقر (ع) أنه قال لزرارة ، حينما سأله زرارة :

من أين علمت أن المسح ببعض الرأس ، وبعض الرجلين ؟ قال : لمكان الباء !
ج- والمعلمون أجمعون ما زالوا يقرأون هذا القرآن تفرقاً إلى الله ، وتبركاً
به ، واستجابة لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .
* من قرأ سورة كذا ، أعطى من الحسنات كذا وكذا * .

د- والذين يقرأون القرآن لا زالوا يجنون فيه الإعجاز المتهدي إن في
أحكامه ، وإن في عدم تناقضه ، وإن في نظمه ونسقه ، وإن في فصاحته
وبلاغته ، وحسبه أن يكون آيات تنزلت من حول العرش لتكون الأرض
بهذه الآيات سماء ، والسماء منها كواكب . حسبه أن يكون في الفصاحة
لا يبارى ، وفي البلاغة لا يجارى .

وكيفما انقلب به أمره ، ومن أي الجهات أتته ، فالبشرية يعقلوها وفونها وألستها
تعجز عن الإتيان بمثله في الحاضر والمستقبل كما عجزت في الماضي .
هـ- المسلمون المؤمنون هو عندهم موطن التوقير والتكريم والتقدّس . إنهم لا
يمسّونه إلا على طهارة ، وإن كانت الآيات تلك التي نسخ حكمها .

أبواب قراءة القرآن

هناك دراسات حديثة للقرآن في موضوعات مختلفة ، وجوانب متعددة تقضي بأن كل
معلم منصف ، وكل مسلم سليم الدين واللوّية والقطرة يؤمن بأن القرآن لا تحريف فيه وهو
المعجز في كل مناحيه .
من هذه الدراسات التي يمكن أن نخص بالذكر منها أبواب قراءة القرآن التي عرضها
لنحزّ العاملي في وسائله .

إنكم بعض هذه الأبواب على إيجاز :

١. باب وجوب تعلم القرآن : قال الباقر (ع) :

* مراسلات ، مطبعة شهيد ح ١ ص ٢٩١ .

يا سعد ، تعلّموا القرآن ، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظير إليهما الخالق .

٢. باب وجوب إكرام القرآن . قال الإمام الصادق (ع) :
إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين ، إذا هم بشخص قد أقبل لم ير قط أحسن منه ، فإذا نظر إليه المؤمنون - وهو القرآن - قالوا : هذا منا ...

٣. باب استحباب التفكير في معاني القرآن . قال فيه أبو عبد الله الصادق (ع) :
" إنَّ هذا القرآن فيه منار الهدى ، ومصابيح الدجى ... "

٤. باب استحباب حفظ القرآن . قال أبو عبد الله (ع) :
" الحافظ للقرآن ، العامل به ، مع المفرة ، الكرام البررة ... "

٥. باب استحباب تعلّم القرآن في الشباب . قال أبو عبد الله الصادق (ع) :
" من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه " .

٦. باب عدم جواز ترك القرآن تركاً يؤدي إلى النسيان . وفيه :
أن يعقوب الأحمر قال : قلت لأبي عبد الله (ع) :
جعلت فداك ، إنّي كنت قرأت القرآن ، فتعلّلت منّي ، فادع الله عز وجل أن يعلمني ،
قال : فكانه فزع لذلك ، ثم قال : علمك الله هو وإيانا جميعاً ...

٧. باب استحباب الطهارة لقراءة القرآن .
عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (ع) : سأله : أقرأ القرآن ، ثم يأخذني البول ،
فأقوم وأبول ، واستنجي ، وأغسل يدي ، وأعود إلى المصحف ، فأقرأ فيه ؟ قال : لا ،
حتى تنوضاً للصلاة .

٨. باب استحباب الاستعاذة ، عند التلاوة .
عن الحلبي ، عن أبي عبد الله (ع) قال :
سأله عن التعوذ من الشيطان عند كل سورة يفتتحها ؟ قال : نعم فتعوذ بالله من
الشيطان الرجيم .
وكانه (ع) أشار بقوله : فتعوذ الخ إلى قوله تعالى : " وإذا قرأت القرآن ، فاستعذ بالله
من الشيطان الرجيم " .

وفي الحديث : من تأتّب بأدب الله [الاستعاذة عند قراءة القرآن] آذاه إلى الفلاح الدائم .

٩ . استحباب ختم القرآن بمكة .

عن أبي حمزة الثمالي ، عن أبي جعفر (ع) قال :
من ختم القرآن بمكة ، من جمعة إلى جمعة ، أو أقلّ من ذلك ، أو أكثر ، وختمه في يوم الجمعة ، كتب الله له من الأجر كذا وكذا

١٠ . باب استحباب القراءة في المصحف .

عن أبي عبد الله (ع) قال :
" من قرأ القرآن في المصحف متّع ببصره ، وخفّف على والديه وإن كانا كافرين " .

١١ . ثم هناك بقية الأبواب المختلفة التي تبلغ بتعدادها واحداً وخمسين باباً ، الكاشفة على سبيل القطع عن الموجود بين الثّقين ، وما كان بأيدي صحابة الأئمة قرآن وحجة يجب العمل به واحترامه ، والاستضاءة بنوره ^١ .

وفضائل القرآن ، والحثّ على تعلّمه وقراءته ، ووجوب تعظيمه وتقديره لم يكن قد ورد فيه أحاديث وأخبار عن طريق الإماميّة فحسب ، بل ورد في ذلك عن غير هذه الطريق ، كالذي ورد في الصحاح ، وما أكثره .

روى البخاري عن عثمان بن عفان ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم :
" إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعلمه . "

إنّ الحديث الذي يوافق كتاب الله ، يؤخذ ويعمل به ، وإنّ الحديث الذي يتعارض معه ويخالفه يطرح ولا يعتبر .

وفي باب الوافي باب جمع الكثير من الأحاديث التي تدور حول هذا الموضوع :

١ . عن الكافي بسنده عن أبي عبد الله ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
" ... فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه ... " .

^١ امرواسي ، الممر الداني ، الطبعة الجديدة ، كتاب الصلاة ج ٤ ص ٨٢٣ .

٢. عن الكافي بسنده عن ابن أبي يعفور : أنه قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ، ومنهم من لا نثق به ، قال :
 " إذا ورد عليكم حديث ، فوجدتم له شاهداً من كتاب الله ، أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلا فالذي جاء به أولى به " [أي رده إليه] .

٣. عن الكافي ، عن أيوب بن الحر ، قال : سمعت أبا عبد الله يقول :
 " كل شيء مردود إلي الكتاب والسنة ، وكل حديث لا يوافق كتاب الله تعالى فهو زخرف " ١ .

وبعد :

هذا هو قرآننا ينطق بالحق لأنه من عند الحق .
 واجتمعت إليه الأسباب الإلهية ، وأسباب المنطق والعقل ، وأسباب الرعاة والدعاة له ، وأسباب الحفظ والمصلحة فكانت صيانته من كل عبث ، ونجاته من كل غش ، وبقاؤه على نصته وكما نزل . " إنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ... " .

نحن نؤمن بالتوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية كما نطق بها القرآن وأقره ، ونولاه لما كان لنا هذا الإيمان !
 نحن نصدق ما ورد عن الرسل بالحدود التي يصدق القرآن .

كل ما ورد في الكتب السماوية ، وكل ما جاء على السنة للرسل كان عرضة للتزييف .
 إلا القرآن المعجز على مساحة كل الزمان وكل المكان .

الذين أنثروا شبهات التحريف بالنقصان من علمائنا لا نؤاخذهم إلا على تصور ، أما الذين أنثروا الشبهات من المشبوهين ، إن في القديم ، وإن في الحديث ، إن من الشرق ، وإن من الغرب فالموأخذة مزدوجة : حيث تتوجه للخلفيات المريضة ، وللقصور والتقصير الحائتين .

يا الله : إيماننا بقرآنك أنه لا يحول ولا يزول لا من قبل ولا من بعد كما هو إيماننا بك وأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

١ - ابن أبي عمير ، المعنى لكاتب ، باب العقل والسمع ج ١ ص ٦٧ .

موضوع الزيادة والنقصان عند الإمامية :

المشهور بين علماء الشيعة الإمامية ومحققيهـم ، بل المتـصـالم عليه بينهم هو القول بعدم

التحريف :

- الشيخ الصدوق :

اعتقدنا أنَّ القرآن الذي أنزله الله على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم هو ما بين الدفتين ، وهو ما في أيدي الناس ليس أكثر من ذلك ^١ .

- وقال الشريف المرتضى :

المحكي : أنَّ القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن ، فإنَّ القرآن كان يُحفظ ويدرس جميعه في ذلك للزمان حتى عيّن على جماعة من الصحابة في حفظهم له ، وأنّه كان يعرض على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتلى عليه ... وكلّ ذلك يدلّ بأنّني تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتّباً غير منشور ولا مبيوث ^٢ .

- وقال الشيخ الطوسي :

وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به ^٣ .

- ويقول الطبرسي في مقدّمة تفسيره :

" فإنّ العناية اشـدّت والدواعي توفرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حدّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوة، وماخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية ، حتى عرفوا كلّ شيء اختلف فيه من إعرابه ، وقراءته ، وحروفه ، وآياته ، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ، أو منقوصاً مع العناية الصادقة ، والضبط الشديد " ^٤ .

^١ كتاب "الاختصار" والصدوق : هو من كبار علماء الإمامية في القرن الثالث هجري .

^٢ - ينظر الترمذ في شرح الترمذ ٩٩ عام ١٣١٤ .

^٣ - تعميم شيبان ٣/١ عام ١٣٧٦ هـ .

^٤ - مجمع البيان ١/١٥٠ .

- وقال الفيض الكاشاني :

فإن الله عز وجل : * وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لا يُلَاقِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ * . وقال : * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * ، فكيف ينطرق إليه التحريف والتغيير ؟^١

- وقال الشيخ جعفر الجناحي النجفي :

لا زيادة فيه من سورة ولا آية من بسمة وغيرها لا كلمة ولا حرف . ولا ريب في أنه محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديان كما نلّ عليه صريح القرآن ، وإجماع العلماء في جميع الأزمان ، ولا عبرة بالنادر^٢ .

- وقال العلامة محمد حسن الآشتياني :

والمشهور بين المجتهدين ، والأصوليين ، بل أكثر المحققين عدم وقوع التغيير مطلقاً ، بل اتّعى غير واحد الإجماع على ذلك^٣ .

- وقال الإمام شرف الدين :

والقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إنّما هو ما بين اللّفتين ، وهو ما في أيدي الناس لا يزيد حرفاً ، ولا ينقص حرفاً ، ولا تبدل فيه لكلمة بكلمة ، ولا لحرف بحرف ، وكل حرف من حروفه متواتر في كل جيل تواتراً قطعياً إلى عهد الوحي والنّبوة ، وكان مجموعاً على نلسك العهد الاقدس ، مؤلفاً على ما هو عليه الآن ، وكان جبرائيل (ع) ، يمارض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن في كل عام مرة ، وقد عارضه به عام وفاته مرتين .

والصّحابة كانوا يعارضونه ، ويتلوّنه على للنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى ختموه عليه صلى الله عليه وعلى آله مراراً عديدة وهذا كله من الأمور المعلومة الضروريّة لدى المحققين من علماء الإمامية^٤ .

^١ - تفسير الصافي : ٣٣٢/١ .

^٢ - كشف الغطاء عن غمّيات عماد شريعة القرآن كتاب القرآن ، طبع ١٣٧٧ هـ ، ص ٢٩٨ .

^٣ - بحر مرقاة في شرح ألفاظه ص ٩٩ عام ١٢١٤ هـ .

^٤ - مفصول نهضة في تأليف الأمانة ص ١٦٣ .

ثم قال الإمام شرف الدين :

نسب إلى الشيعة القول بتحريف القرآن بإسقاط كلمات وآيات . فأقول :
نعوذ بالله من هذا القول ، ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الجهل ، وكل من نسب
هذا الرأي إلينا جاهل بذهبنا ، أو مفتر علينا ، فإن القرآن العظيم والذكر
الحكيم متواتر من طرقنا بجميع آياته وكلماته وسائر حروفه ، وحركاته ،
وسكنته ، نواتراً قطعياً عن أئمة الهدى من أهل البيت عليهم السلام ، لا
يرتاب في ذلك إلا معتوه ، وأئمة أهل البيت كلهم أجمعون رفعوه إلى جندهم
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى ، وهذا أيضاً مما لا ريب
فيه ، وظواهر القرآن الحكيم ، فضلاً عن نصوصه ، أبلغ حجج الله تعالى ،
وأقوى لدلة أهل الحق بحكم الضرورة الأولية من مذهب الإمامية ،
وصحاحهم في ذلك متواترة من طريق العنصرة الطاهرة ، وبذلك تراهم
يعتريون بظواهر الصحاح المخالفة للقرآن عرض الجدار ولا يسلبون بهما
علاً بأولمير أنتمهم عليهم السلام^١ .

- وقال الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء :

وإن الكتاب الموجود في أيدي المسلمين هو الكتاب الذي أنزله الله للإعجاز ،
والتحدي ، وتمييز الحلال من الحرام ، وأنه لا نقص فيه ولا تحريف ولا
زيادة ، وعلى هذا إجماعهم^٢ .

- وقال الإمام الحكيم :

وبعد : فإن رأي المحققين ، وعقيدة علماء الفريقين ، ونسوخ المسلمين من
صدر الإسلام إلى اليوم على أن القرآن بترتيب الآيات والسور والجمع كما
هو المتداول بالأيدي ، لم يقل الكبار بتحريفه من قبل ، ولا من بعد .

^١ - أحوية مسائل حداد الله ص ٣٣ عام ١٣٧٣ هـ .

^٢ - نعل الشيعة وأسموعه ص ١٣٣ .

- وقال آية الله الكليني :

إن احتمال التغير زيادة ونقصاً في القرآن كاحتمال تغيير المرسل به ، واحتمال كون القبلة غير الكعبة في غاية السقوط لا يقبله العقل ، وهو مستغل بامتناعه عادة^١ .

- وقال الإمام الخوئي :

إن حديث التحريف خرافة ، وخیال ، لا يقول به إلا من ضعف عقله أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل ، أو من ألجأ إليه حب القول به ، والحبس يعني ويصم . وأما العاقل المنصف ، المتدبر فلا يشك في بطلانه وخرافته^٢ .

- وقال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي :

“ أوضح دليل على أن القرآن الذي بأيدينا اليوم هو القرآن الذي نزل على النبي الكريم ولم يطرأ عليه أي تحريف أو تغيير^٣ ” وقال :
من ضروريات التاريخ أن النبي العربي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جاء قبل أربعة عشر قرناً - تقريباً - ودعى النبوة ، وانتفض للدعوة وأمن به أمة من العرب وغيرهم ، وأنه جاء بكتاب يسميه القرآن وينسبه إلى ربه ، متضمناً لجمال المعارف ، وكليات الشريعة التي كان يدعو إليها ، وكان يتحدث به ويعدّه آية لنبوته ، وأن القرآن الموجود اليوم بأيدينا هو القرآن الذي جاء به وقرأه على الناس المعاصرين له في الجملة بمعنى أنه لم يضع من أصله بأن يفقد كله ثم يوضع كتاب آخر يشابهه في نظمه ، أو لا يشابهه ، وينسب إليه ، ويشتهر بين الناس بأنه القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذه أمور لا يرتاب في شيء منها إلا مصاب في فهمه ، ولا احتمال بعض ذلك أحد من الباحثين في مسألة التحريف من المخالفين والمؤلفين ثم قال :

^١ - مع الخشب في حفره الخربة .

^٢ - ثبت في تفسير القرآن ص ٢٥٩ .

^٣ - القرآن في الإسلام ص ١٢٩ يودت عام ١٣٩٨ هـ .

فقد تبين ممّا فستناه أنّ القرآن الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وآله ، ووصفه بأنّه ذكر محفوظ على ما أنزله مصون بصيانة الهيّة عن الزيادة والنقصية والتغيير كما وعد الله نبيه فيه .

وخلاصة الحجّة أنّ القرآن أنزله الله على نبيه ووصفه في آيات كثيرة بأوصاف خاصّة لو كان تغيير في شيء من هذه الأوصاف بزيادة أو نقصية أو تغيير في لفظ ، أو ترتيب مؤثّر فقد أثار تلك الصفة قطعاً ، لكننا نجد القرآن الذي بأيدينا واجداً لأثار تلك الصفات المعدودة على أنّها ما يمكن ، وأحسن ما يكون ، فلم يقع فيه تحريف يسلبه شيئاً من صفاته ، فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعينه ، فلو فرض سقوط شيء منه أو إعراب ، أو حرف ، أو ترتيب وجب أن يكون في أمر لا يؤثر في شيء من أوصافه كالإعجاز ، وارتفاع الاختلاف والهداية ، وانهيئة على سائر الكتب المساوية إلى غير ذلك ، وذلك كآية مكررة ساقطة ، أو اختلاف في نقطة أو إعراب ونحوها^١ .

وقال أمير المؤمنين (ع) :

واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ ، والهادي الذي لا يضلّ ، والمحدث الذي لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزيادة أو نقصان ، زيادة في هدى ، ونقصان من عمى ، واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفعوا من أدوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم^٢ .

وقال آية الله الشيخ الصافي :

هذا القرآن هو كل ما بين التقنين ليس فيه شيء من كلام البشر ، وكل مسورة من سوره ، وكل آية من آياته متواتر مقطوع به ، ولا ريب فيه دلّت عليه الضرورة ، والعقل ، والنقل القطعي المتواتر .

هذا هو القرآن عند الشيعة الإماميّة ، ليس إلى القول فيه بالنقصية فضلاً عن الزيادة سبيل ، ولا يرتاب في ذلك إلّا الجاهل ، والمبتلى بالشذوذ^٣ .

^١ - نفس المصنف ١٠٤/١٢ - ١٠٧ .

^٢ - ملح السلافة ٢ : الخطة ١٧١ مطبعة الأنظمة بمصر .

^٣ - مع الخطب في حطوطه العريضة ص ٤٠ الطبعة الثالثة عام ١٣٨٩ هـ .

تحديد الآية لغة واصطلاحاً :

لغة : للآية لغة ستة معانٍ :

١. المعجزة : " سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة " أي معجزة واضحة .
٢. الجماعة : قال أبو عمرو الشيباني : تقول العرب : خرج القوم بأيتهم أي بجماعتهم ، والمعنى أنهم لم يدعوا وراءهم شيئاً .

٣. العجب : تقول العرب : فلان آية في العلم وفي الجمال . قال الشاعر :

آية في الجمال ليس له في ال
حسن شبه وما له من نظير
فكان كل آية عجب في نظمها ، والمعاني المودعة فيها .
وقال تعالى : " وجعلنا ابن مريم وأمه آية " .

٤. العلامة أو الدلالة : " إن آية ملكه أن ياتيك التابوت فيه سَكينة من ربك " أي علامة ملكه .

" منزيهم أيا تتلقى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق " ، لو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " ، فكان كل آية في القرآن هي علامة ودلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

٥. العبرة : " إن في ذلك لآية " أي عبرة لمن له قابلية لأن يعتبر .
٦. البرهان والدليل : " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " أي من براهين وجود الله واقتداره ، وأنصافه بالكمال ، خلق عوالم السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان .

❏ اصطلاحاً : قيل : حد الآية قرآن مركّب من جمل ولو تقديرأ ، ذو مبدأ مقطع مندرج في سورة " .

وقيل : الآية طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينهما شبه ما سواها.

^١ - نعلت : الآية - ٥٣ .

^٢ - المعجمي الكتاب : المفرد في معرفة معدد .

جـ - جمعة من المعنويات في المور ، سميت به لأنها علامة على صدق من أتى بها ، وعلى عجز المتحدث بها .

وقيل : لأنها علامة انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعها عما بعدها ، قيل الواحدي : وبعض أصحابنا يجوز على هذا القول تسمية أقل من الآية آية ، لولا التوقيف ورد بما هي عليه الآن^١ ، وقال ابن المنير في البحر : ليس في القرآن كلمة واحدة إلا "مدهامتان"^٢ .

وقيل : هي الواحدة من المعنويات في سور القرآن ، وهي علامة أو دلالة على صدق رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى عجز من تحدثهم ، لذلك فهمي دلييل معجز . فالآية هي : أصغر الوحدات التي يتألف منها النص للقرآني^٣ .

❦ العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي :

للمناسبة بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي جليلة . فالآية القرآنية معجزة ولو باعتبار انضمام غيرها إليها ، ثم هي علامة على صدق من جاء بها صلى الله عليه وآله وسلم وفيها عبرة ونكر لمن أراد أن يتذكر ، وهي من الأمور العجيبة لمكانها من السموات والإعجاز ، وفيها معنى الجماعة لأنها مؤلفة من جملة كلمات وحروف ، وفيها معنى البرهان والدليل على ما تضمنته من هداية وعلم وعلى قدرة الله وعلمه وحكمته ، وعلى صدق رسوله في رسالته^٤ .

❧ وزنها :

وكان وزنها موضع خلاف :

- سيبويه يقول : " فُعْلة " بفتح العين ، وأصلها " آيئة " تحركت الياء وانفتح ما قبلها فجاءت آية .

- أما الكسائي فيقول : أصلها " آيئة " على وزن " فاعلة " حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في دابة^٥ .

^١ - شوهان لفرزكني ١٠ / ٢٦٧ .

^٢ - يرجع : الآية - ٦٤ .

^٣ - القرآن وعلمه ، أبو الفضل منو محمد ص ١٧٨ .

^٤ - مناهل العرفان لمؤلفه ١ / ٣٣٩ .

^٥ - لوهان ص ٢٦٦ .

٢ طريقة معرفة الآية :

لا سبيل إلى معرفة الآية إلا بتوقيف من الشارع ، فالتوقيف الشرعي وحده مصدر معرفتنا بذلك .

بالرغم من معرفتنا أن الآية هي طائفة من حروف القرآن الكريم ، ولأنها أصغر الوحدات التي يتألف منها النص القرآني ، ويفصل بين الوحدة والأخرى فاصل ، فإنه علم بالتوقيف انقطاعها معنى من الكلام الذي بعدها في أول القرآن ، وعن الكلام الذي قبلها في آخر القرآن ، وعن الكلام الذي قبلها والذي بعدها في غيرهما ، غير مشتمل على شكل ذلك ، وبهذا التقيد خرجت السورة .

قال الزمخشري : الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه ، فعدوا^١ ألم^٢ آية حيث وقعت من السور المفتحة بها ، وهي ست : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، وكذلك [ألمص]^٣ آية ، و [ألمر]^٤ لم تعتبر آية ، [ألر]^٥ ليست بآية في سورها الخمس ، و [ططم]^٦ آية في سورتيها ، و [طه] و [يس] آيتان ، [طس]^٧ ليست بآية ، [وح]^٨ آية في سورها كلها ، [حم عسق]^٩ آيتان و [وكيعص]^{١٠} آية واحدة ، و [ص] و [ق] و [ن] ثلاثها لم تعد آية هو مذهب الكوفيين ، وما سواهم لم يعتدوا شيئاً منها .

أما غير الكوفيين فلا يعتبرون شيئاً من الفوائض آية .
ولطالما المسألة توقيفية فلا التباس ولا شبهة في هذا الخلاف لأن كلا من الفريقين وقف عند حدود ما بلغه أو علمه . لذلك ليس لنا التساؤل : كيف عدوا ما هو كلمة واحدة آية مثل [الرحمن] [مدهامتان] آية طائفاً المسألة توقيفية ؟

^١ - الأعراف .

^٢ - الزعد .

^٣ - يونس : هود ، يوسف ، إبراهيم ، الخضر .

^٤ - النضر ، القصص .

^٥ - النبل .

^٦ - غافر ، فصلت ، الشورى ، الزمر ، الشعراء ، الجاثية ، الأحقاف .

^٧ - الشورى .

^٨ - مريم .

أ رأي أول :

ذهب بعض العلماء إلى أن معرفة الآيات منها ما هو سماعي توقيفي ، ومنها ما هو قبلي ، ومرجع ذلك إلى الفاصلة ، وهي الكلمة التي تكون آخر الآية ، نظيرها قرينة السجع في الثنث ، وقافية البيت في الشعر .
يقول هؤلاء : فما ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقف عليه دائماً تحققتا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحققتا أنه ليس فاصلة ، وما وقف عليه مرة ، ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة أو لتعريف الوقف التام أو الاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها ، وفي هذا مجال للقياس ، وهو ما ألحق غير المنصوص عليه لأمر يقتضي ذلك ، ولا محذور فيه لأنه لا يؤدي إلى زيادة ولا نقصان في القرآن ، وإنما غايته تعيين محل الوصل والفصل ^١ .

أ الكلمة القرآنية :

هي اللفظة الواحدة ، وقد تكون على حرفين مثل : ما - لي - له - لك ، وقد تكون أكثر ، وأكثر ما تكون عشرة أحرف [ليستخلفنهم] ^١ ، [أنزلكموها] ^٢ [أنسفيناكموها] ^٣ وقد تكون للكلمة آية: والفجر ، والضحى ، والعصر ، مدهمتان .

أ عدد آيات القرآن :

يبلغ عدد آيات القرآن على طريقة الكوفيين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي عن علي بن أبي طالب (ع) [٦٢٣٦] وأن حروفه بلغت [٣٢١٢٥٠] حرفاً .

قال صاحب البيان * : وأما عدد أي القرآن فقد اتفق العاتون على أنه ستة آلاف ومائتا آية وكسرة إلا أن هذا الكسر يختلف مبلغه باختلاف أعدادهم :

^١ - مناهل العرفان ، الزرقاني ٣٤٢/١ .

^٢ - النور : ٥٥ .

^٣ - هود : ٣٨ .

^٤ - الشعر : ٦٢ .

* أبو عمرو الشنقي في كتابه بيان نظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٧/١ . الدرهمان ٢٤٩/١ ، السبوطي ، الاثنتان ٦٤/١ .

ففي عدد للمدني الأول : سبع عشرة وبه قال دافع . وفي عدد المدني الأخير أربع عشرة عند شيبه وعشر عند أبي جعفر . وفي عدد المكّي عشرون ، ومنسوب ذلك إلى عبد الله ابن كثير وهو يروي ذلك عن مجاهد عن أبي عبيس عن أبي بن كعب وفي عدد الكوفي ست وعشرون وهو مروى عن حمزة الزيات . وفي عدد البصري خمس وهو مروى عن عاصم الجحدري ، وفي رواية عن البصريين أنهم قالوا : سبع عشرة روي ذلك عن قتادة . وفي عدد الشامي ست وعشرون وهو مروى عن يحيى بن الحارث الدّمّاري .

□ سبب هذا الاختلاف :

ورد في مناهل العرفان :

لعل ذلك يعود إلى أنّ النبيّ كان يقف على رؤوس الأي تعلّماً لأصحابه أنّها رؤوس أي ، حتى إذا علموا ذلك وصل الآية صلى الله عليه وآله وسلم بما بعدها طلباً لتمام المعنى ، فيظنّ بعض الناس أنّ ما وقف عليه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ليس فاصلة ، فيصلها بما بعدها معتبراً أنّ الجميع آية واحدة ، والبعض يعتبرها آية مستقلة فلا يصلها بما بعدها ، وقد علمت أنّ الخطب في ذلك سهل ، لأنّه لا يترتب عليه في القرآن زيادة ولا نقص^١ . أما كلمات القرآن فقد روي أنها : سبع وسبعون ألف كلمة وأربعماية وسبع وثلاثون كلمة.

وقيل : أنّ الحاجب بن يوسف بعث إلى قرّاء البصرة فجمعهم واختار منهم الحسن البصري ، وأبا العالية ونصر بن عئصم ، وعاصماً للجحدري ، ومالك بن دينار وقال : عدّوا حروف القرآن أربعة أشهر يعدّون بالشعير ، فأجمعوا على أنّ كلماته سبع وسبعون ألف كلمة وأربعماية وتسع وثلاثون كلمة ، وأجمعوا على أنّ عدد حروفه ثلاثماية ألف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً ، قال : فأخبروني عن نصفه ، فإذا هو الفاء من قوله ، في الكهف : [وَلْيَبْتَاطِفْ]^٢ وثقلته الأول عند رأس مائة من براءة ، والثاني على رأس مائة أو إحدى مائة من الشعراء ، وللتالث إلى آخره ، وسبعة الأوّل إلى الدالّ في قوله : [فمنهم من آمن به

^١ الزرقاني ٣١٤/١ .

^٢ - الكهف : الآية - ١٦ .

ومنهم من صدَّ عنه ^١ ، والسبع الثاني إلى التاء من قوله في الأعراف : [حبطت أعمالهم] ^٢ والثالث إلى الألف الثانيه من قوله في الرعد [أكلها] ^٣ ، والرابع إلى الألف في الحج من قوله [جعلنا منسكاً] ^٤ ، والخامس إلى الهاء من قوله في الأحزاب [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة] ^٥ ، والسادس إلى الواو من قوله في الفتح [الظانين بالله ظنَّ السوء] ^٦ والسابع إلى آخر القرآن ، قال سلام : علمنا ذلك في أربعة أشهر ^٧ .

□ طول الآيات وقصرها :

يُنَّ بين آيات القرآن اختلافاً طويلاً وقصراً . أطول آية هي آية الثين في سورة البقرة التي هي أطول سورة ، وأقصر آية كلمة [يس] التي هي المفتحة لمسورة [يس] .

وفي الطول والقصر للآيات لالة على القرآن للمدني والمكي بصورة عامة . يُنَّ الآيات القصيرة هي من معالم القرآن المكي ، أما الطويلة فهي من خصوصيات القرآن المدني .

□ ماذا نستفيد من معرفة الآيات ؟

وذهب البعض إلى أنه لا فائدة من معرفة الآيات . والتفاته يسمرة تكشف لنا أن لمعرفة الآيات فوائد وفوائد . من هذه الفوائد :

١ . يقول البعض بأنها العلم بأن ثلاث آيات قصار هي معجزة وفي حكمها الآية الطويلة التي تعدل بطولها تلك للثلاث القصار ، ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدي بالمسورة الواحدة فقال سبحانه " وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بمسورة من مثله " والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة ، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر وهي ثلاث آيات

^١ - النساء : الآية - ٥٥ .

^٢ - الأعراف : الآية - ١٤٧ .

^٣ - الرعد : الآية - ٣٥ .

^٤ - الحج : الآية - ٣٩ .

^٥ - الأحزاب : الآية - ٣٦ .

^٦ - الفتح : الآية - ٦ .

^٧ - الترمذ في تارخ كني : ٦٥٠/١ .

قصار ، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة ، وفي قوتها الآية الواحدة التي تكافئها^١ .

" أما نحن فنقول بأن الآية سواء كانت طويلة أم قصيرة فإنها معجزة . إن التحدي بالآية جاء لاحقاً على التحدي بالسورة ، ولذلك زيادة في الإقحام ، حيث جاء التحدي متدرجاً^٢ .

ألم تكن الفواتح الحرفية لبعض السور من معالم الإعجاز القرآني عند بعض المفسرين ، حيث نزل القرآن بلغة هذه الحروف التي يتداولها العرب ، لكنهم لا يدرون لهذه الحروف معانيها ومدلولاتها ، ولا يستطيعون الإتيان بمثها من حيث للدلالة ؟

٢. إذا لم نعرف الآية فكيف يكون الموقف ؟

إن معرفة الآية تحيطنا علماً بمناسبة الوقف ، كيف نقف ؟ ومتى نقف على رأس الآية ؟ بعضهم ذهب إلى أن الوقف على رأس الآية سنة .

روى أبو داود عن أم سلمة أن النبي كان إذا قرأ أقطع قراءته آية آية . يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم " ثم يقف ، " الحمد لله رب العالمين " ثم يقف ، " الرحمن الرحيم " ثم يقف .

وروى الترمذي أن أم سلمة سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلاته فقالت : ما لكم وصلاته ؟ ثم نعتت قراءته مفسرة حرفاً حرفاً .

يقول صاحب المناهل : ويمكن الجمع بين هذين الحديثين بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان تارة يقف على كل فاصلة ولو لم يتم المعنى بياناً لرؤوس الآي وكن تارة يتبع في الوقف تمام المعنى فلا يلتزم أن يقف على رؤوس الآي ، لتكون قراءته مفسرة حرفاً حرفاً ، وعلى هذا يمكن القول : حيثما كان للناس في حاجة إلى بيان الآيات حسن الوقف على رؤوس الآي ، ولو لم يتم

^١ - ساهي المعروفان ١/ ٣٤٤ .

وترتيب النزول ، وكيف يعرف ذلك للترتيب من الروايات والنصوص التاريخية والمناسبات والشواهد التي اقترنت بالنزول .

٢. ترتيب التنوين :

والذي يمكن ملاحظته هو أن لكل آية موقعها الخاص بين آيات سورتها . ولقد انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على ما هو عليه في المصاحف قسي أياماً كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله ، وأنه لا مجال لتدخل رأي ، ولا فسخة لاجتهاد في هذا الأمر ، لأن جبريل كان ينزل بالآيات على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويحدد له موضع كل آية من سورتها ، وهذا لا مجال للشك فيه لأنه ثبت ثبوتاً قطعياً لا خلاف فيه بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، لأنه منقول نقلاً متواتراً عن الرسول الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد كان للرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ الآيات فور نزولها من الوحي على أصحابه وكتبته ، ويامر كتّاب الوحي بتدوينها محكداً لهم السورة وموقع الآية منها ، حتى أنه كان يتلو عليهم مراراً في صلاته وعظاته ، وفي حكمه وأحكامه ، وكان يعارض به جبريل كل عام مرة ، وعارضه به في للعام الأخير مرتين ، وكل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف ، وكذلك كان حفظ القرآن أو شيئاً منه من الصحابة حفظه مرتب الآيات على اللسق، وشاع ذلك وذاع ، وملأ البقاع والأسماع ، يتلونه في المساجد ويرتلونه كخلائ النحل ، ويتدارسونه فيما بينهم ، ويقرأونه في صلاتهم ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن ^١ .

الحق يقال : إنه لم يكن لصحابي يد في ترتيب شيء من القرآن الكريم ، فالتجمع البكري لم يتجاوز نقل القرآن من العصب واللخاف وغيرهما في صحف ، والجمع العثماني لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف من أجل صيانة قراءته .

ولهذا فإن ترتيب الآيات في سورها ترتيب توقيفي إلهي تولاّه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أخبره به جبريل عن أمر ربه ، لأن القرآن محفوظ في اللوح المحفوظ الثابت

^١ - رجع معالج العلمان للرفقي ١/٣٤٦ .

على هذا الترتيب ، وليس في ترتيب الآيات أية رخصة . إذن فقد انعقد الإجماع بشأن هذا الترتيب . يقول الزركشي في برهانه :

ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وآله وسلم وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين ^١ .

وقال القاضي أبو بكر: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم ، فقد كان جديلاً يقول :
ضعوا أية كذا في موضع كذا .
وقال غيره : ترتيب الآيات في السور هو من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بلا بسطة ^٢ .

روى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص قال :
كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ شخص ببصره ثم صوته ، ثم قال : أتاني جبريل ، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا للموضع من السورة : " إن الله يأمرنا بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ... " إلخ .

ومنها ما ثبت في السنن الصحيحة من قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبسور عديدة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، ومن قراءته لمسورة الأعراف في صلاة المغرب ، وسورة " قد أفلق المؤمنون " وسورة الروم في صلاة الصبح ، وقراءة سورة السجدة ، وسورة " هل أتى على الإنسان " في صبيحة يوم الجمعة ، وقراءته سورة " الجمعة " و " المنافقين " في صلاة الجمعة ، وقراءته سورة " ق " في الخطبة ، وسورة " القدر " و " ق " في صلاة العيد .
كان يقرأ ذلك كله مرتب الآيات على النحو الذي في المصحف على ما رأى ومسمع من الصحابة ^٣ .

ومنها ما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان : " والذين يتوَفَّونَ منكم ويذرون أزواجاً " نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي لا أعير شيئاً من مكانه .

^١ - محمد ٢٥٦/١ .

^٢ - المعجم عنه ، ٢٥٦/١ .

^٣ - سنن شريم بن المقداد ٢١٨/١ .

أليس إثبات هذه الآية في مكانها رغم نسخها كما ورد في هذه الرواية يشير إلى أن هذا الإتيان أمر توقيفي وليس بإمكان عثمان حسب اعترافه أن يتصرف فيه ، لأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه وفي أمثاله .

وروى مسلم عن عمر قال : ما سألت النبي عن شيء أكثر مما سألته عن الكلائة حتى طعن بإصبعه في صدري وقال : تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء .

فأنت ترى أنه صلى الله عليه وآله وسلم دلَّه على موضع تلك الآية من سورة النساء وهي قوله سبحانه :

” يَسْمَعُونَكَ ؟ قَالَ اللَّهُ يَفْتِكُمْ فِي الْكَلَاةِ ... “ .

٣. ترتيب التلاوة :

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ من القرآن سوراً مختلفة حسب ترتيب آياتها والذي دونت بموجبه في التلاوة لا حسب ترتيب نزولها ، فكان ذلك من الأدلة القاطعة على أن ترتيب الآيات توقيفي في تدوينها وفي تلاوتها .

□ ترتيب السور :

تحديد السورة لغة واصطلاحاً :

-- لغة : قال صاحب القاموس : السورة : المنزلة من القرآن معروفة لأنها منزلة بعث منزلة : مقطوعة عن الأخرى ، والشرف ، وما طال من البناء وحسن ، والعلامة ، وعرق من عروق الحائط .

قال أبو عبيد وغيره : إنها غير مهموزة ، مأخوذة من سور البناء ، وكل منزلة رفيعة فهي سورة . ومنها قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

فهي إذن : من السور المدنية لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ومنه السور لإحاطته بالساعة ، ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة لأن الآيات مرتبة من كل سورة ترتيباً مناسباً .

وقال ابن جنى في شرح منهوكة أبى نواس : إنما سميت سورة لارتفاع قدرها ، لأنها كلام الله تعالى ، وفيها معرفة الحلال والحرام ، ومنه رجل سوار أي معرب ، لأنه يعلو بفعله ويشنط .

ويقال : أصلها من السورة وهي الوثبة تقول سرت إليه وثرث إليه . وجمع سورة القرآن سور بفتح الواو ، وقيل بمعنى : العلو ومنه قوله تعالى ' إذ تسورا المحراب ' نزلوا عليه من علو . وقيل : لعلو شأنه ، وشأن قارنه ^١ .

- واصطلاحاً : السورة هي طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع . قالوا : وهي مأخوذة من سور المثنية ، وذلك إما لما فيها من وضع كلمة بجانب كلمة ، وأية بجانب أية ، كالسور توضع كل لبنة فيه بجانب لبنة ، ويقام كل صف منه على صف .

وإما لما في السورة من معنى العلو والرفعة المعنوية الشبيهة بعلو السور ورفعته الحصية ، وإما لأنها حصن وحماية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما جاء به من كتاب الله القرآن ، ودين الحق الإسلام ، باعتبار أنها معجزة تخرس كل مكابرة ، ويحق الله بها الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، هي أشبه بسور المدينة يحصنها ويجمعها من غارة الأعداء ، وسطوة الأشقياء .

وقيل : أنها مهموزة فيكون معناها المقطعة من القرآن انفصلت عما سواها وأبقيت ، فصارت وحدة مستقلة تشتمل على مقدار من الآيات وتحمل اسماً خاصاً بها ^٢ .

وقال الفتيبي : السورة تهمز ولا تهمز فمن همزها جعلها من أسارت : أي أفضلت ، من السور : وهو ما بقي من الشراب في الإناء كأنها قطعة من القرآن ^٣ .

وقال الجعبري : حد السورة قرآن يشتمل على أي ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات .

وقيل هي طائفة من للقرآن والتي أقلها ثلاث آيات ^٤ .

^١ - ثوركني ، طبعه ١٩٤٤ .

^٢ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ١/٧ ، السبوطي : الأتقان ١/٢٦٠ .

^٣ - ثوركني ، طبعه ١٩٦٣ .

^٤ - صاحب الخواصر المسبح بحسن ، الفرائد الباقية على شواهد الأمالي للسيد المرتضى ص ١٨٥ .

❏ طولها وقصرها :

سور القرآن مختلفة طولاً وقصراً .

أقصر السور هي سورة الكوثر ، وهي ثلاثة آيات قصار . وأطول سورة فيه هي سورة البقرة وهي مائتان وست وثمانون آية ، وأكثر آياتها من الآيات الطوال ، بل فيها آية الذين التي هي أطول آية قرآنية ، وبين سورة الكوثر وسورة البقرة سور تختلف طولاً وتوسطاً وقصراً . وهذا الاختلاف ترجع معرفته وحكمته إلى الله وحده .

❏ ترتيب نزول السور :

إن ترتيب نزول السور ليس كما هو في القرآن . أول السور نزولاً هي سورة العلق في مكة وأول آيات نزلت منها هي :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق : الآيات ١ - ٤ ، ثم "المدثر" ثم "والقلم" ويستمر النزول مستغرقاً المرحلة المكية البالغة ثلاث عشر سنة تقريباً ، ثم تلحق بها الهجرة النبوية إلى المدينة ليبدأ النزول بسورة "البقرة" ثم "الأفقال" وكانت آخر سورة نزلت هي سورة "النصر" نزلت في "مضى" في حجة الوداع .

آخر ما نزل من الآيات ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة : الآية - ٣ ، نزلت بعرفات في حجة الوداع . وبعد شهرين كان انتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى .

❏ ترتيب التكوين :

إن ترتيب التكوين في المصاحف ليس كما كان نزول السور .

فالقرآن يبدأ بسورة [الفاتحة] وهي مكية مدنية ، ثم سورة البقرة وهي مدنية ، ثم سورة [آل عمران] ، ثم سورة [النساء] وهي مدنية ، وهكذا حتى ينتهي المصحف بسورة [الناس] ، وهي مكية ، وهذا الترتيب منقح عليه ولا استثناء .

واختلف الناس في ترتيب تدوين السور في المصاحف على أقوال أو اتجاهات .

- الأول : يقول بالاجتهاد لا بالتوقيف . ترتيب السور كما هو في المصاحف ما كان توقيفياً من النبي ، إنما كان باجتهاد من الصحابة وينسب هذا القول إلى جمهور من العلماء .

قال ابن كثير :

فأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ^١ .
وينسب هذا القول إلى جمهرة من العلماء ، منهم مالك والقاسمي أبو بكر الباقلائي .

يقول مالك :

' إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم ^٢ ' . وإلى هذا المذهب يشير ابن فارس في كتابه " المسائل الخمس " بقوله :

جمع القرآن على ضربين : أحدهما : تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعيينها بالمئين ، فهذا الذي قولته الصحابة رضي الله عنهم . ولما الجمع الآخر وهو الآيات في السور ، فذلك شيء تولاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل .

وقد استدلوا على رأيهما هذا : بأن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان ، فلو كان هذا الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ساع لهم أن يهملوه ، ويتجاوزوه ويختلفوا فيه . فهذا مصحف أبي بن كعب ، روى أنه كان مبدوءاً بالفاثحة ، ثم البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران ، ثم الأنعام .

وهذا مصحف ابن مسعود كان مبدوءاً بالبقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران السخ على اختلاف شديد وهذا مصحف علي ، كان مرتباً على النزول ، فأوله " اقرأ " ثم " المدثر " ثم " ق " ثم " المزمل " ثم " نبت " ثم " التكوثر " وهكذا إلى آخر المكي والمدني ^٣ .

^١ فضائل القرآن لأبي عبيد .

^٢ - طبري ركني ، طبعه دار ٢٥٧/١ .

^٣ - سهل النعمان ، الزرقاني ٣٥٣/١ .

- القول الثاني :

يذهب البعض إلى أن ترتيب السور توقيفي كنه ولا يفسح المجال للاجتهاد والبرأي وذلك كترتيب الآيات . فالترتيب كان بحكم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأمره ، ولا رخصة فيه للاجتهاد .

من أئمة أصحاب هذا الاتجاه هو أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد ، وهذا الإجماع لا يتم إلا إذا كان الترتيب توقيفياً ، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بمخالفاتهم ، لكنهم لم يتمسكوا بها ، بل عدلوا عنها وعن ترتيبهم ، وعدلوا عن مصاحفهم وأحرفوها^١ .

لقد أخذ هذا المذهب أبو جعفر النخاس فقال :

" المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحديث وثلة : أعطيت مكان التوراة والسمع الصّوال^٢ .

وكذلك ذهب أبو بكر الأنباري هذا المذهب حيث قال :

" أنزل الله القرآن إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً لمستخبر ، ويقف جبريل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على موضع السور والآيات والحروف . كله من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن قرأ سورة أو أخرها أفسد نظم القرآن^٣ . وأخرج ابن أخته في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل ، لم قمت البقرة وآل عمران ، وقد أنزل قبلهما بضع ومائون سورة بمكة ، وإنما أنزلنا بالمدينة ؟ فقال : فُتْمْنَا وَأَلْفَ الْقُرْآنِ عَلَى عِلْمٍ مِنْ قَلْبِهِ ، بَلَى أَنْ قَالَ : فَبِذَا مِمَّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَلَا يُسْأَلُ عَنْهُ .

- القول الثالث :

من الباحثين الإسلاميين من فصل ، فقال : منه ما هو توقيفي ، ومنه ما هو اجتهادي^٤ ، وقد اجتهد كل فريق بحشد أدلة من الروايات والميرة لتأييد وإسناد ما ذهب إليه^٥ .

^١ - مسند العرفان ، خرزقان ، ص ٢٥٤ .

^٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .

^٣ - نظم الخزان ، تاريخ القرآن ، ابن أبي داود ، كتاب تصحيح ، ابن كثير ، فضائل القرآن ص ٢٦ .

يقول الزرقاني :

لعلّ هذا القول هو أمثل الآراء لأنّه وردت أحاديث تفيد ترتيب البعض توقيفياً ، وخلوّ البعض مما يفيد التوقيف ، بل وردت آثار تصرّح بأن الترتيب في البعض كان عن اجتهاد^١ .

يقول القاضي أبو محمد عطية :

"إنّ كثيراً من السور قد علم ترتيبها في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كالسبع الطوال والحواميم والمفصل ، وأما ما سوى ذلك فيمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده^٢ .

وكيفما انقلب الأمر ، فليس هناك من مشكلة معقّدة إنّما الأمر على سهولة فالزركشي في برهانه رأى أنّ هذا الخلاف لفظي ، فقال :

والخلاف بين الفريقين ، أي القائمين بأن الترتيب عن اجتهاد ، والقائلين بأنّه عن توقيف لفظي لأنّ القائل بالثاني يقول : إنّ رمز إليهم ذلك نعلمه بأسباب نزوله ، ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : إنّما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع قوله بأنّ ترتيب السور كان باجتهاد منهم فإنّ الخلاف إلى أنّه هل هو توقيف قوليّ ، أو بمجرد إسناد لفظي ، بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر ، وسبقه في ذلك جعفر بن الزبير القائل :

الأثر تشهد بأكثر مما نصّ عليه ابن عطية ، ويبقى منها قليل يمكن أن يجري فيه الخلاف .

وينتهي بنا القول إلى أنّ هذا الترتيب سواء كان توقيفياً أم اجتهادياً فإنّه لا بدّ من الأخذ به واحترامه كما هو مدوّن وإلاّ كانت الفتنة ، وسدّ ذرائع الفتنة والفساد واجب ، وخاصة فيما له علاقة بالقرآن طالما لا يدخل هذا الترتيب في دائرة التحريف زيادة ونقصاً .

□ ترتيب التلاوة :

أما تلاوة السور فليست توقيفية كتلاوة الآيات ، بل للقارئ أن يقرأ ما تيسر له دون الإلزام بترتيب معيّن . ولحذيفة حديث في الصحيح أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في قيام الليل [البقرة] ثم [النساء] ثم [آل عمران] .

^١ - السمل ٣٥٦/١ .

^٢ - مبرهان الزركشي ، ٢٥٧/١ .

كما أن للقارئ أن يتلو من آيات سورة من السور ما تيسر له دون التزام بتكملة تلك السور ولكن على حسب ترتيب آياتها المدونة في المصحف^١ . قيل : ترتيب السور في التلاوة ليس واجباً إنما هو مندوب^٢ .

قال النووي في كتابه التبيان :

قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب ، سواء أقرأ في الصلاة أم في غيرها .
المستحب لا الواجب ، أنه إذا قرئت سورة ، أن يقرأ بعدها التي تليها ، لكن لو كانت المخالفة ، فقرئت سورة لا تلي الأولى ، أو خولف الترتيب ، فقرئت سورة قبلها جاز .

وكره جماعة مخالفة ترتيب المصحف في التلاوة . روى ابن أبي داود عن الإمام الحسن (ع) أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تاليه في المصحف .

أما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فلا رخصة فيها ، بل مرفوضة كل للرفض هذه القراءة . قيل لابن مسعود : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً فقال : ذلك منكوس القلب .
إن قراءة السورة من آخرها يزيل بعض معالم الإعجاز القرآني ، كما يزيل حكمة ترتيب الآيات .

❖ تعدد أسماء السور :

معظم سور القرآن ليس لها إلا اسم واحد لكن الذي يثير الالتفات أن السورة قد يكون لها اسمان كمسورة البقرة ، يقول لها : فسطاط القرآن لعظمها وبهائها . والنحل تسمى سورة النعم لما عتد الله فيها من النعم على عباده . سورة [حم عسق] ، وتسمى الشورى . وسورة الجاثية وتسمى للثريعة .

وقد يكون لها أسماء ثلاثة كمسورة المائدة ، والعنود والمنقذة ، ومسورة غافر ، والطول ، والمؤمن ، لقوله [وقال رجل مؤمن]^٣ . وقد يكون لها أكثر من ذلك ، كمسورة براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحاخرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين .

^١ . القرآن وخبره ، د . جواد الصمّاع ص ١٧٦ .

^٢ . سنن أبي داود ، ٣٥٨/١ .

^٣ - غافر : الآية ٢٨ .

وكسورة الفاتحة ، ذكر بعضهم لها بضعة وعشرين اسماً لأهميتها وشرفها : أم الكتاب ، أم القرآن ، والسبع المثاني ، والصلاة ، والحمد ، ومثاني ، والواقية ، والكنز ، والشافية ، والشفاء ، والكافية ، والأساس .

❖ اختصاص كل سورة بما سميت :

وكانت تسمية السورة باسم الأهم بين أحداثها وموضوعاتها .

سورة البقرة لقربة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب حكمها .

سورة النساء سميت بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء .

سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها ، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها ، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى [ومن الأنعام حمولة وفرشاً] إلى قوله [أم كنتم شهداء] لم يرد في غيرها ^١ .

قد تسمى السورة باعتبار أولها ، فسورة التوبة تسمى [براءة] لافتتاحها بهذه الكلمة . كما تسمى سور باسم واحد كالمصمات بسور [الر] و [الم] على القول بأن فواتح السور هي أسماء لها .

وليس لنا أن نجزم على أن أسماء السور توقيفية مع ما لدينا من كثرة أسماء للسورة الواحدة .

ومن تعاليل لهذه التسميات ، أن سورة [غافر] سميت بهذا الاسم لأن فيها [غافر الذنب ...] وهي تسمى [مؤمن] لأن فيها [وقال رجل مؤمن] ^٢ .

وإن ننس لا ننس أن بعض المسلمين عارضوا وضع الأسماء على مسور المصحف العثماني ، وأن لدينا بعض السور خالية من هذه الأسماء مما يرجح القول بأنها أسماء اجتهادية كانت نتاج للرأي وليست توقيفية .

❖ أقسام السور :

قال العلماء : القرآن الفريد أربعة أقسام : الطول ، والمنون ، والمثاني ، والمفصل .

^١ الإجماع : الآيات - ١٤٢ - ١٤٤ .

^٢ - القرآن وعلموه : د . دار المطابع ١٧٩ .

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله :
أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ،
وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وفُضِّلَت بالمفصل .

١. السبع الطوال :

جمع طول ، تأنيث الأطول ، كالكبر جمع كبرى مؤنث أكبر ، وسميت بهذا الاسم
لأنها أطول سور القرآن . هذه السور هي :
[البقرة] وهي الأطول ، و [آل عمران] ، و [النساء] ، و [المائدة] ، و [الأنعام]
و [الأعراف] . فهذه ست ، واختلفوا في السابعة أي [الأنفال] و [براءة] معاً لعدم الفصل
بينهما بالمعملة ، ولأنهما نزلتا جميعاً في مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقيل
أنها سورة يونس^١ وفي رواية أنها سورة الكهف .

آيات سورة يونس [١٠٩] وسورة الكهف [١١٠] ولعل للتردد في أيّ منهما السابعة
مبعثه طول السورة اعتماداً على عدد حروفها لا على عدد آياتها . ولذلك صارت سورة
[التکوثر] أقصر السور رغم أنها ثلاث آيات . وسورة [النصر] ثلاث آيات ولكن الأولى أقل
حروفاً .

٢. المئون :

ما ولي السبع الطول . أي التي هي أقصر من الطول . وهي : [التوبة] و [النحل]
و [هود] و [يوسف] و [الكهف] و [الإسراء] و [الأنبياء] و [طه] و [المؤمنون]
و [الشعراء] و [الصافات] .

٣. المثاني :

ما ولي المئين في عدد الآيات .
قيل في سبب تسميتها : إنها ثنت المئين بعد السبع الطوال . وقيل : لتثنيها الأمثال
والقصص التي ذكرتها ، وهي السور التي آياتها أقل من مائة .
قال الفراء : هي السور التي آياتها أقل من مائة آية لأنها تُتلى ، أي تكرر ، أكثر مما
تُتلى الطول والمئوية .

^١ - ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ٣/١ ، نسبي ، الإفتاء ١/٩١ .

وقد سَمِيَ سور القرآن كلها مثنائي ، ومنه قوله تعالى : [كتاباً متشابهاً مثاني] ^١ ، [ولقد أتيناك سبعاً من المثاني] ^٢ .

ويقال : إنَّ المثنائي في قوله تعالى : [ولقد أتيناك سبعاً من المثاني] هي آيات سورة الحمد ، سمّاها مثنائي لأنّها تتلى في كل ركعة ^٣ .

المفصل : وهي قصار السور ، من سورة الحجرات حتّى سورة الناس ، سمّيت بذلك لكثرة الفصول بين سورها بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ فيه ولهذا يسمّى المحكم أيضاً .

وكان في تحديد أوله اختلاف على اثني عشر قولاً :

- الجانية .
- القتال [محمد] .
- الحجرات .
- ق .
- الصافات .
- الصف .
- تبارك .
- إنا فتحنا لك .
- الرحمن .
- هل أتى على الإنسان حين من الدهر .
- سبح .
- والضحى .
- لكن الأصح هو [الحجرات] ، وإن كان الصحيح عند الكثيرين من أهل الأثر [ق] .

المفصل أقسام ثلاثة :

طوال - أوساط - قصار .

الطوال : من أول [الحجرات] إلى سورة [البروج] .

^١ - الزمر : ٢٤ - ٢٣ .

^٢ - الزمر : ٢٤ - ٢٧ .

^٣ - محمد بن ، ٢٤٥/١ .

الأوساط : من سورة [الطارق] إلى سورة [لم يكن] .
القصار : من سورة [زلزلت] إلى آخر القرآن .

❖ عدد سور القرآن :

يبلغ ١١٤ سورة ، إن عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحل والعقد مائة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني ، أولها [الفاتحة] ، وآخرها [الناس] ، ومن جعل سورتي الأنفال والتوبة سورة واحدة عدّها مائة وثلاث عشرة .
وتدعى سورتا الأنفال والتوبة القريوانين لأنهما لم يصل بينهما [بسم الله الرحمن الرحيم] ، فليّما عدّها العاتون سورة واحدة ، وذلك لاشتباه الطرفين وعدم اليمسلة^١ لكن يرد هذا القول تسمية النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلّاً من السورتين باسمها .
وكان في مصحف ابن مسعود مائة واثنًا عشرة سورة ، لم يكن فيها الموعذتان لشبهة الرقية^٢ .

❖ الحكمة من تقطيع القرآن سوراً :

وله الحكمة في كل ما يصدر عنه ، وعلى إطلاق الحكمة !

أنيس الله هو الحكيم . يقول تعالى :

’ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ’ ، هذا بالنسبة إلى العبد في حكمه ، فكيف بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء ” والله المثل الأعلى ’ .
فألف عن العبث منزّه ، ومن اللغو مبرا !

شاعت إرادة الله أن يكون القرآن سوراً وآيات ، لا باباً ولحداً وذلك لحكمة اقتضت ” والله عزيز حكيم ” .

وليس شرطاً أن نحيط علماً بحكمة الله في كل شيء ، ومنها بحكمته في تقسيم القرآن إلى سور . وما هو مجهول لا يعني أنه غير موجود .

^١ - مبرهان ٢٥١/١ .

^٢ - مرقية بأن يستعان بقوى نفوس الفجر الطبيعية لأمر من الأمور ، وإنما اختار ابن مسعود التعدادين رغبة حيث قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرئها ، وكذا طرأها فاضمة (ج) على الحسن والحسين عنهما السلام حفظاً لها من الضور .

يخفى علينا الكثير من غاياتها ، والله أعلم بها .
ورغم ذلك فالعقل يمكنه أن يستشف من هذا التقسيم حكماً لها ما وراءها من الخير
والسوء والمصلحة . هذه التجزئة القرآنية إلى سور من حكمها :

١. للتيسير .

إن استظهار القرآن سورة سورة هو أبعد على النشاط وإدامة الاستظهار من
استظهار القرآن بأكمله واحداً ، إذ السور في طونها وقصرها تساعد على التدرج في
الحفظ ، وخاصة في الحفظ والتعلم لدى الأطفال .
'فلو كان القرآن سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب على الناس حفظه وفهمه ،
وأعياهم أن يخوضوا عباب هذا البحر للتحصن الذي لا يشاهدون فيه عن كثب
مراقبي ولا شواطئ' .

٢. للتشويق :

ألا ينشط ويمتد بنفسه من يحفظ سورة ؟
ألا يشده هذا الحفظ ويشوقه لحفظ سورة أخرى ؟
قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا .

٣. للتبويب :

للقرآن أهداف متعدّدة ، وموضوعات متباينة ، وأساليب تختلف حسب الموضوع
وحسب المخاطبين ، وحسب المناسبة .
ألا يتحتمّ عن ذلك أن يكون لكل سورة مضامينها ، وأساليبها ، ومعالمها الخاصة
بها ، واستقلاليتها عن سائر السور بخصوصياتها ؟

فالقارئ للقرآن يجد في كل سورة حقلاً ملوّناً من الزهر ، وفي كل آية نسماً
وعطراً بل نفحة تشبع في نفسه إحساساً خاصاً ليس لغيرها .
فالتقسيم إلى سور فيه دلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام ، وألوانه
البلاغية والبيانية ، وأساليبه النظمية ، وتصويراته الحسية .

كل سورة لها موضوعها الأبرز الذي نتحدث عنه ، كمسورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة النمل ، وسورة الجن
سورة [يوسف] تترجم عن قصته ، وسورة المجادلة ضمت كل آية اسم الله تعالى ، وسورة المنافقين تترجم عن سيكولوجية النفاق ، وتوضح المنافقين ومكائدهم وخداعهم .

٤ . التعجيز والتحدي :

ليس في هذا التقسيم أن طول السورة ليس شرطاً في إعجازها ، بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر . كمسورة الكوثر ؟
فالقرآن تحدى الخصوم والناس أجمعين أن يأتوا بسورة من مثله .
لكن سورة القرآن ليست واحدة في طولها وأسلوبها وصورها وغنياتها .
ألا يشير هذا التقسيم إلى أن سورة ' الكوثر ' التي لا تزيد عن ثلاث آيات هي معجزة بمقدار ما هي سورة [البقرة] معجزة ؟

هذا التقسيم يشير إلى أن الإعجاز ليس متوقفاً على طول السورة أو قصرها ، ولا على موضوعها إن كان تشريعياً أو أخلاقياً أو عقدياً ، ولا على أسلوبها سواء كان مباشراً أم غير مباشر ، محكماً أم متشابهاً ، حسيّاً أم غير حسي ، مجملاً أم مفصلاً .
كل سورة معجزة ، ابتداءً كانت السورة . كل سورة هي في البلاغة لا تبارى ، وفي الفصاحة لا تجارى .

أن تكون السورة وحدها وإن قصرت معجزة فذلك أظهر وأقوى في التحدي والإعجاز من أن يكون القرآن بكامله المعجزة .

قال الجعبري :

فإن قيل : فما الحكمة في تقطيع القرآن سوراً ؟ قلت :

هي الحكمة في تقطيع السور آيات معدودات . لكل آية حد ومطلع ، حتى تكون كل سورة ، بل كل آية فناً مستقلاً ، وقرناً معتبراً ، وفي تصوير السورة تحقيق لكون السورة بمجزئها معجزة وآية من آيات الله تعالى . وسوّرت السور طوالاً وقصاراً ولوساطاً ، تنبيهاً على أن الطول ليس من شرط الإعجاز . فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات ، وهي معجزة إعجاز سورة البقرة . ثم ظهرت لذلك حكمة في التعليم ، وتدريب الأطفال من السور القصار إلى ما فوقها يسيراً يسيراً ، تيسيراً من الله على عباده لحفظ كتابه ، فترى الطفل يفرح بتمام السورة ،

فرح من حصل على حدٍ معتبر ، وكذلك المطيل في التلاوة يرتاح عند ختم كل سورة ارتياح المسافر إلى قطع المراحل المسماة مرحلة بعد مرحلة أخرى ، إلى أن كل سورة نمط مستقل ، فسورة يوسف تترجم عن قصته ، وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وكل من أصرارهم .
فإن قلت : فهلاً كانت الكتب السالفة كذلك ؟

قلت لوجهين : أحدهما : أنها لم تكن معجزات من ناحية التنظيم والترتيب ، والآخر أنها لم تيسر للحفظ^١ .

وقال الزمخشري صاحب الكشاف في فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة :
الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة - وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزيور ، وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة ، ويؤتب المصنفون في كتبهم أبواباً موشحة الصدور بالتراجم :

- منها : [أي الفوائد] أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف ، كن أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً .
- ومنها : أن للقارئ إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ، ثم أخذ في آخر كان انشط له ، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على التكتاب بطوله ، ومثله المسافر إذا قطع ميلاً أو فرسخاً نفس ذلك عنه ، ونشط للسبر ، ومن ثم جزأ القرآن أجزاء وأقساماً .
- ومنها : أن الحافظ إذا حلق السورة ، اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها فيعظم عنده ما حفظه ، ومنه حديث أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فينا . ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل .
- ومنها : أن التفصيل يسبب تلاحق الأشكال والنظائر ، وملاءمة بعضها لبعض ، وبذلك تتلاحظ المعاني وتنظم إلى غير ذلك من الفوائد^٢ .

❖ أنصاف القرآن :

د أنصاف القرآن ثمانية :

١. نصفه بالحروف : [النون] من قوله [نكراً] في سورة الكهف والكاف من نصفه الثاني .

^١ - البرهان ، غاركني ، ٢٦١/١ .

٢. نصفه بالكلمات : [الدال] من قوله [والجلود] سورة الحج ، وقوله تعالى :
 " ولهم مقامع من حديد " [الشعراء] في نصفه الثاني .
٣. نصفه بالآيات " يَأْتِكُون " [الشعراء] وقوله تعالى " فَأَلْقَى السِّحْرَ " [الشعراء] من نصفه الثاني .
٤. نصفه على عدد السور : فالأول الحديد ، والثاني من المجادلة .

التعريف بالقرآن :

" القرآن هو كلام الله المعجز المنزل وحياً على قلب الرسول الأمين صلى الله عليه وآله بألفاظ العربية ومعانيه الحقّة ليكون معجزة له ، ونسوراً له ولأمّته ، وهو الموجود ما بين الدفتين المنقولة عنه بالتواتر جملة وتفصيلاً والمتبّد بتلاوته المتبدّد بسورة الفاتحة والمختّم بسورة الناس ، وهو خاتم الكتب السماوية " ^١ .

يستنتج من هذا التعريف ما يلي :

١. القرآن هو كلام الله تعالى ولا صنعة فيه لمحمد ولا لأحد من الخلق ، هذا يقضي بوجود العمل والانصياع له من ندى الناس كافة .
- هناك أصول أخرى غير القرآن هي السنة النبوية والإجماع والعقل ، يضاف إلى ذلك عند البعض : القياس ، المصالح المرسلة ، الاستحسان ، العرف .
٢. القرآن هو دستور دائم ، ونظام كامل ، ويتجاوب مع دوام الدعوة الإسلامية واستمرارها ^٢ .
- " فالقرآن لم يجرى ليكون متاعاً عقلياً ، ولا كتاب أدب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ ، وإن كان هذا من محتوياته ، وإنما جاء ليكون منهج حياة " ونسوراً خالداً للبشرية كلها " .
- ولو أن القرآن الكريم قد نزل في هذا العصر لما تغيّرت نظرتّه إلى الكون ولا وصاياه ، ولا إرشاداته إلى مكانه .

^١ - " توجيز في أصول الفقه " حسين علي الأعظمي . مباحث في علوم القرآن ، : الدكتور صبحي الصالح . الناظم : الدكتور

محمد عبد الله . أصول الفقه : الشيخ محمد الغصيني . التشريع النهائي للإسلامي : عبد القادر عوده .

^٢ - محمد علي الأعظمي "كتاب هبتم من تاريخ علوم القرآن ص ١٦ عام ١٩٦٥ .

^٣ - " معاني في الطريق : سبب قطب .

٦ ولو أن الرسول صلى الله عليه وآله جاء للإنسانية في أممها القريب أو يومها الحاضر ، أو لو أن عشرات الأنبياء انطلقوا من بعده بين المذائن والقرى مبشرين ومنذرين ما عدوا حدود القرآن في هديهم ولا تجاوزوا حلوله السمحة في المشاكل التي تعترضهم ^١ .

فالشريعة الإسلامية يرتبط أولها بأخرها ، وصغيرها بكبيرها ، فهي إما أن تؤخذ كلها أو لا تؤخذ ^٢ ف نظام الله خير في ذاته لأنه من شرع الله ولن يكون شرع العبيد يوماً كشرع الله ^٣ .

١. القرآن هو عربي اللغة ، لقد جاء القرآن بلغة الضماد التي هي لغة الأمة العربية ، وقد أثنى الله تعالى أن يكون خاتم رسله من بين صفوفها ، حيث أن كل نبي جاء إلى قومه بلسانهم .

٢. القرآن متواتر لأنه آية ولا حرف قد اختلف فيه اثنتان من المسلمين . فالقرآن هو الموجود ما بين الدفتين ، هو نفسه الذي هبط على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من دون زيادة أو نقصان ، ودون أي تغيير أو تحريف ^٤ وسيظل كذلك حتى نهاية الكون وزوال الحياة على سطح هذه الكرة الأرضية . كل كلمة نها مكانها المطلوب وليست فيه كلمة واحدة تغيرت ولا أخرى تبثت ولو لأجل الفاصلة .

٣. والقرآن معجزة ، وقد جاء معجزة لإثبات صحة دعوة الرسول ونبوته ، وأنه رسول قد خصه الله بهذا الكتاب وهذه المعجزة .

٤. القرآن تلاوته عبادة لأنه كلام الله . لقد دعا سبحانه في مواطن كثيرة من كتابه إلى حفظه وتلاوته وقراءته بإمعان وتأمل . لقد ورد في الخبر : " أن البيت الذي يقرأ فيه القرآن وينكر الله تعالى فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض " . وجاء في خبر آخر :

^١ - عبد العزيز ، تأملات في الدين والحياة .

^٢ - معاني في الطريق : سبب لطف .

^٣ - كل كتب التفسير .

دلووا مرضاكم بالصدقة واستشفوا بالقرآن فمن لم يشفع القرآن فلا شفاء له^٥ .
فانصلاة غير مقبولة إن خلت من الآيات القرآنية الكريمة .

٥. القرآن هو خاتم الكتب السماوية ، ولما كان الرسول خاتم الرسل كان لا بد أن يكون القرآن الحكيم خاتم الكتب المنزلة من الله ، يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ الأحزاب : الآية - ٤٠ .

ولما كان القرآن خاتم الكتب السماوية كان لا بد أن يضم كافة التشريعات والأنظمة والأحكام والنواهي والأوامر والتعليمات التي يحتاجها الإنيمان لتنظيم شؤونه وحل مشاكله ومطالبه إلى اللحظة الأخيرة من عمر الحياة على سطح الأرض .

٦. وكما تحدثنا من قبل عن فضل التلاوة فإننا نذهب إلى أن أسباب نزول القرآن أن يتعبد الناس بتلاوة القرآن ، ويتقربوا إلى الله بهذه التلاوة ، فيكون لهم الأجر والثواب على مجرد ترتيل لفظه ، ولو من غير فهمه ، فإذا ضموا إلى التلاوة فهماً اضيف لهم أجر آخر . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَرْزِقَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فاطر : الآية - ٢٩ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً :

* أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن *

* هذه خصيصة امتاز بها القرآن ، أمّا غيره فلا أجر على مجرد تلاوته بل لا بد من التفكير فيه وتبذره ، حتى الصلاة التي هي عماد الدين فليس للمرء من ثوابها إلا بمقدار ما يعقل منها^٦ .

^٥ . البرقي ، ساهل نعمان ، الجزء الثاني ص ١٢٩ .

و انفرد القرآن بهذه الخصوصية لحكم مامية وفوائد ذات شأن .

- أولها : توفير عامل ذي أهمية من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصنوعاً من التحريف والتبديل اللذين أصابا كتب الله من قبل .
فكثرة التلاوة تنفع إلى الاستظهار وكثرة الدوران على الألسنة ، وهذا مما يحفظ القرآن من التبديل أو التغيير .

- ثانيها : إيجاد وحدة للمسلمين لغوية تعزّز وحدتهم الدينية ، وتيسر وسائل التعاون والتفاهم فيما بينهم ، فتقوى بذلك صفوفهم وتعلو كلمتهم^١ وهذه مياسة إلهية عالمية فطن عليها الإسلام على يد هذا النبي الأمي ، ونجحت هذه السياسة نجاحاً باهراً .

- ثالثها : * استدراج القارئ إلى التدبّر والاهتداء بهدي القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق وبواسطة هذا الأسلوب للحكيم^٢ .

القرآء :

هناك اختلاف في الآراء حول القراءات السبع المشهورة بين الناس . لقد ذهب البعض من علماء الأخوة أهل السنة إلى تواترها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لقد نقل عن السبكي القول بنواتر القراءات للعشر . وذهب بعضهم إلى أنّ القول بعدم تواتر القراءات السبع هو كفر على حدّ ما ذهب إليه مفتي الديار الانتلمسية أبي سعيد فرج بن لب^٣ أما الشيعة فقد ذهبوا إلى أنّ هذه للقراءات غير متواترة . فالقراءات عندهم بين ما هو اجتهد من القارئ وبين ما هو منقول بخبر الواحد . وهذا القول هو الصحيح . من هنا لا بد من ذكر أمرين :

- الأول : قد أطبق المسلمون بجميع مذاهبهم على أنّ ثبوت القرآن ينحصر طريقه بالتواتر . من هنا لم يختلف المعمولون في أنّ القرآن ينحصر طريق ثبوته والحكم بأنّه كلام إلهي بالخبر المتواتر ، فهو الأساس للدين الإسلامي والمعجز الإلهي لدعوة بين المسلمين وكل شيء يتوفر فيه للدواعي لنقله لا بدّ أن يكون متواتراً .

^١ - الرزقي ، ساحل القرآن جزء ٢ ص ١٣٠ .

^٢ - انصاف نسب ، ص ١٣٠ .

^٣ - شرفاني ، ساحل القرآن ص ٤٢٨ .

- الثاني : إنَّ الطريقَ الأفضل إلى إثبات عدم تواتر القراءات هو معرفة القراء أنفسهم ، وطرق روايتهم ، وهم سبعة . وهناك ثلاثة آخرون تتم بهم العشرة ، وهذه هي تراجمهم واستقراء أحوالهم^١ .

١. عبد الله بن عامر النمشقي
كنيته أبو عمران ، لقبه اليحصي ، ولد سنة ٢١ هـ وتوفي بدمشق في عاشوراء سنة ١١٨ .

هو من القراء السبعة ، لقد قرأ القرآن على يد المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، لقد كان عبد الله بن عامر رئيس أهل المسجد في عهد الوليد بن عبد الملك ، ولي قضاء دمشق واتخذ أهل الشام إماماً كما يقول أبو عمرو اللذاني .

لعبد الله راويان هما : عبد الله بن زكوان المتوفي سنة ٢٤٢ ، وهشام بن عمار المتوفي سنة ٢٤٠ هـ اسمه عبد الله بن أحمد بن بشير المتوفي سنة ٢٤٥ هـ . قال يحيى بن معين : ثقة وقال النسائي : لا بأس به وقال اللذاني : صدوق^٢ .

٢. عبد الله بن كثير المكي :
هو عبد الله بن كثير المكي ، إنه فارسي الأصل . كنيته أبو معبد ، ولادته سنة ٤٥ هـ ووفاته سنة ١٢٠ هـ ، منقط رأسه : مكة .
أساتذته في القراءة : أخذ للقراءة عرضاً عن عبد الله بن السائب وعن دريس مولى بن عباس ، ومجاهد بن جبر المكي تلميذ ابن عباس . ولعبد الله بن كثير راويان .

أ- محمد بن عبد الرحمن المخزومي (قَبْل) قرأ على أبي الحسن القوامس .

ب- أحمد البري : فارسي من أهل همدان ، أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي .

^١ - لأوام بخاري ، التيهان في تفسير القرآن ص ٢٦ .

^٢ - طبقات القراء ج ٢ ص ٣٥٤ .

٣. عاصم بن بهدلة الكوفي :
كنيته أبو بكر لقبه بهدلة .
مسقط رأسه : الكوفة .
وفاته : سنة ١٢٧ أو ١٢٨ هـ .

قال عاصم : ما أقرأني أحد حرفاً إلا أبو عبد الرحمن السلمي .
قال ابن سعد : كان ثقة إلا أنه كان كثير الخطأ في حديثه ، وقال : عبد الله بن أحمد عن أبيه : كان خيراً وثقة ، والأعمش أحفظ منه . وقال العقيلي : لم يكن فيه إلا سوء الحفظ . وقال النسائي ليس به بأس^١ إنسه من القراء السبعة .

أساتذته : في القراءة :

- أبو عبد الرحمن السلمي تلميذ أمير المؤمنين (ع) .
- نسر بن حبيش تلميذ عبد الله بن معمود .
- زيد بن ثابت .

الرواه : شعبة بن عمار الكوفي . قطع الإقراء قبل موته بسبع سنوات ، وكان إماماً كبيراً عاملاً عالماً . وكان يقول : أنا نصف الإسلام ، وكان من أئمة السنة ، ولما حضرته الوفاة بكى أخته فقال لها : ما يبكيك ؟ أنظري إلى تلك الزاوية فقد ختمت فيها ثمانى عشرة ألف ختم . ولد سنة ٩٥ وتوفي سنة ١٩٣^٢ .
قال ابن سعد : كان ثقة صدوقاً عارفاً بالحديث والعلم إلا أنه كثير للغلط^٣ .

- حفص بن سليمان البزاز الكوفي . قال الذهبي :

أما القراءة فتحة ثبت ضابط لها بخلاف حاله في الحديث . لقد نكر حفص : أنه لم يخالف عاصماً في شيء من قراءته إلا في حرف في سورة الروم آية ٣* الذي خلقكم عن ضعف^٤ قرأه بالضم وقرأ عاصم بالفتح . قيل فيه الكثير بأنه غير موثق في الحديث . قال

^١ - راجع الباب في التفسير للأمام الحنفي ص ١٣٠ .

^٢ - طبقات القراء جزء ١ ص ٣٢٥ .

^٣ - فقه الشافعي ج ١٢ ص ٣٥ .

ابن حيان : كان يقلب الأسانيد . وقال ابن المديني : ضعيف الحديث وتركته على عمد . وقد
اليزنار : لم يكن بالحافظ^١ .

٤. أبو عمرو بن العلاء المازني البصري :

اسمه : زيان بن العلاء بن عمار المازني البصري .

كنيته : أبو عمرو .

مسقط رأسه : البصرة وقيل بأنه فارسي .

ولادته ووفاته : ولد سنة ٦٨ وتوفي سنة ١٥٤ هـ .

لقبه : المازني .

نشاطه في القراءة : توجه مع أبيه لما هرب من الحجاج فقرأ بمكة
والمدينة ، وقرأ أيضاً في الكوفة والبصرة على جماعة كثيرة ، فليس
في القراء السبعة أكثر شيواً منه . لقد كان يلقن الناس بالجامع
الأموي على قراءة أبي عمرو^٢ .

أساتذته القراء : أبو جعفر يزيد بن الققاع ، يزيد بن رومان ، شيبه
بن نصاح ، عبد الله بن كثير ، مجاهد بن جبر ، حميد بن قيس
الأعرج المكي ، عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، عاصم بن أبي
النَّجود الكوفي ، أبو العالية رفيع بن مهران اليربوعي البصري تلميذ
ابن عباس وأبي . لقراءة أبي عمرو راويان بواسطة يحيى بن
المبارك الليزدي هما : الدوري والموسمي .

يحيى بن مبارك : هو كما يقول الجزري : نحوي مقرر ، ثقة ،
علامة كبير^٣ . أخذ القراءة عرضاً عن أبي عمرو وأخذ أيضاً عن
حمزة .

الدوري : هو حفص بن عمرو الدوري الأزدي البغدادي . قال ابن
الجزري : ثقة . ثبت كبير ضابط . أول من جمع القراءات .

- غريب التهذيب ، ج ٢ ص ٤٠١ .

- الثيات في تفسير القرآن الأئمة الاثني عشر ص ١٢٢ .

السوسي : هو أبو شعيب صالح بن زياد بن عبد الله . قال ابن
الجزري : ضابط محرر ثقة . أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن أبي
محمد اليزيدي . قال فيه أبو حاتم : " صدوق " .

أقوال في أبي عمرو :

الأصمعي : سمعت أبا عمرو يقول : ما رأيت أحداً قبلي أعلم
منّي .

أبو خيثمة : كان أبو عمرو بن العلاء رجلاً لا بأس به ولكنه
لم يحفظ .

شعبة : انظر ما يقرأ به أبو عمرو ، فما يختاره لنفسه فإكتبه ،
فإنه موصير للناس أستاذاً .

أبو معاوية الأزهري في التهذيب : " كن من أعلم الناس
بوجه القراءات ، وألفاظ العرب ، ونوادر كلامهم ، وفصيح
أشعارهم " ١ .

٥. حمزة الكوفي :

هو ابن حبيب بن عمار بن إسماعيل أبو عمار الكوفي النخعي .

الكنية : أبو عمار .

منقط رأسه : الكوفة .

لقبه : الزيات .

ولأنه وافته : ولد سنة ٨٠ وتوفي في سنة ١٥٦ ٢ .

أساتذته :

الإمام الصادق عليه السلام .

سليمان بن سهران الأعشى تلميذ .

حمران بن أعين تلميذ أبي الأسود التؤلي تلميذ أمير المؤمنين

(ع) .

لحمزة راويان هما : خلف بن هشام وخلاء بن خالد .

١ - تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ١٧٨ .

٢ - صفات القراء ج ١ ص ٢٦١ .

خلف بن هشام :

هو أبو محمد الأسدي البغدادي . قال ابن الجزري : هو أحد القراء العشرة وأحد الرواة عن سليم عن حمزة . حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين ، وابتدأ في الطلب وهو ابن ثلاث عشرة ، وكان ثقة كبيراً زاهداً عبداً عالماً . وقيل أنه كان يأخذ بمذهب حمزة إلا أنه خالفه في مائة وعشرين حرفاً . ولد سنة ١٥٠ ومات سنة ٢٢٩^١ وقال النسائي : "بغدادية ثقة" وقال الذارقطني : "كان عبداً فاضلاً" .

خلاد بن خالد :

هو أبو عيسى الشيباني الكوفي . قال ابن الجزري : "إمام في القراءة ، ثقة عارف محقق أستاذ" . توفي سنة ٢٢٠ هـ^١ . ما قيل فيه :

عن الإمام جعفر الصادق (ع) قتلوا : "استفتح حمزة القرآن من حمران وإليه صارت الإمامة في القراءة بعد عاصم والأعمش ، وكان إماماً حجة ثقة ثبتاً عديم النظير" . قال سيفان الثوري : "غلب حمزة للناس على القرآن والفرافض" .

قال عبد الله بن موسى : "وكان شيخه الأعمش إذا رآه قد أقبل يقول : هذا حبر القرآن" . قال العجني "ثقة رجل صالح" . قال ابن سعد : "كان رجلاً صالحاً عنده أحاديث وكان صدوقاً صاحب سنة" .

لقد ذمّه جماعة من أهل الحديث في القراءة ، منهم الساجي القائل : "سمعت سلمة بن شبيب يقول : كان أحمد يكره أن يصلي خلف من يصلي بقراءة حمزة" . قال أبو بكر بن عيَّاش : قراءة حمزة عندها بدعة^٢ .

^١ - طبقات القراء ج ١ ص ٢٧١ .

^٢ - التبصير نسخة ج ١ ص ١٧٤ .

^٣ - لمذهب ج ٣ ص ٢٧ ، راجع كل هذا في كتاب البيان في تفسير القرآن للأستاذ الحارثي ص ١٢٧ .

٦. نافع ابن عبد الرحمن ابن أبي نعيم المدني :

كنيته : أبو نعيم .

لقبه : الليثي .

وفاته : ١٦٩ .

بلده : المدينة ، هو أحد القراء السبعة .

معلّموه : أبو جعفر يزيد بن القعقاع - شيبه بن ناصح - عبد الرحمن بن هرمز الأعرج . عبد الله بن عيسى تلميذ أبي بن كعب تلميذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

لنافع راويان هما :

قالون المولود سنة ١٢٠ والمتوفى سنة ٢٢٠ هـ .

ورش المولود سنة ١١٠ والمتوفى سنة ١٩٧ هـ .

قالون : هو عيسى بن ميناء بن وردان أبو موسى . يقال أنه ربيب نافع وهو الذي سمّاه قالون لجودة قراءته . فإن قالون باللغة الرومية جيد . قال ابن أبي حاتم " كان أصمّ يقرأ القرآن ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة " ^١ .

ورش : هو عثمان بن سعيد المعروف بـ [ورش] .

قال ابن الجزري : " انتهت إليه رئاسة الإقراء في الديار المصرية في زمانه ، وله اختيار خالف فيه نافعاً ، وكان حجة ثقة في القراءة " ^٢ . نافع كما يقول ابن الجزري " أحد القراء السبعة والأعلام ثقة صالح أصله من أصبهان .

لقد أخذ القراءة عن جماعة من أهل المدينة . قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن أنس يقول : قراءة أهل المدينة سنة ، قيل له قراءة نافع ؟ قال نعم * . وقيل عنه بأنه كان يؤخذ عنه القرآن وأنه ثقة صدوق ولا بأس به " ^٣ .

^١ - طبقات القراء ج ١ ص ٦١٥ ، مبادئ للسيد الحلبي ص ١٤٠ .

^٢ - المصدر نفسه ، ج ١ ص ٥٠٢ .

^٣ - المذهب منهج ج ١ ص ٤٠٧ .

٧. علي بن حمزة بن عبد الله النحوي الكسائي الكوفي :

كنيته : أبو الحسن .

لقبه : النحوي الكسائي .

وفاته : ١٨٩ .

بلده : الكوفة .

أساتذته : حمزة - أبان بن تغلب . عيسى بن عمر . ابن أبي ليلى .
الإمام .

قال ابن الجزري : " الإمام الذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الرزين . أخذ القراءة عرضاً عن حمزة أربع مرات وعليه اعتماد " وعلم الرشيد ثم علم ولده الأمين . وقيل فيه : كان الكسائي أعلم الناس على رفق فيه ، كان يديم شرب النبيذ إلا أنه كان ضابطاً قارناً عالماً بالعربية صدوقاً " .^١

وللكسائي رواية منهم : قتيبة بن مهران - نصير بن يوسف - الليث بن خالد - أبو حمدون للراشد - حمدون بن ميمون للزجاج - حفص أو عمرو النوري .

أشهر هؤلاء الرواة هما اللذان :

الليث بن خالد وحفص بن عمر .

الليث هو أبو لحارث بن خالد البغدادي . قال ابن الجزري :

" ثقة معروف حاذق ضابط " ، هو من أجلة أصحاب الكسائي مات سنة ٢٤٠ هـ .^٢

٨. خلف بن هشام البزار :

كنيته : أبو محمد .

لقبه : البزار .

وفاته : ٢٢٩ هـ .

هو ليس من القراء المبيعة .

^١ مجمع الأدباء ج ٥ ص ١٨٥ .

^٢ طبقات القراء ج ٢ ص ٢٤١ .

نه راويان : إسحاق الوراق .

إدريس الحداد .

إسحاق الوراق : قال ابن الجزري : " إسحاق بن إبراهيم البغدادي ثقة توفي في سنة ٢٨٦ هـ .

إدريس : قال ابن الجزري : إدريس بن عبد الكريم إمام ضابط ، متقن ثقة . قرأ على خلف بن هشام . سئل عن الذارقطني فقال : ثقة وفوق الثقة بدرجة . توفي سنة ٢٩٢ هـ ^١ .

٩. يعقوب بن إسحاق :

هو يعقوب بن إسحاق الحضرمي .

كنيته : أبو محمد .

لقبه : الحضرمي .

وفاته : ٢٠٥ هـ .

البلد : البصرة . ليس من القراء السبعة .

قال ابن الجزري : " هو أحد القراء العشرة " . وقال أحمد وأبو حاتم " صدوق " . وقال ابن سعد : " ليس هو عندهم بذاك للثبوت " ^٢ . أسأذته : القراء :

قال يعقوب : قرأت على سلام في سنة ونصف ، وقرأت على شهاب بن شرنقة المجاشعي في خمسة أيام ، وقرأ شهاب على مسلمة في تسعة أيام ، وقرأ مسلمة على أبي الأسود الدؤلي الذي قرأ على علي عليه السلام ^٣ .

ليعقوب راويان :

رويس - روح .

رويس : هو محمد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي البصري .

^١ - طبقات القراء ، ص ١٥٤ .

^٢ - تهذيب التهذيب ج ١١ ص ٣٨٢ .

قال ابن الجزري : مقررٌ حاذق ضابط مشهور أخذ القراءة
عرضاً عن يعقوب الحضرمي .
وقال الذّاني " هو من أحق أصحابه " توفي سنة ٣٣٨ هـ ^١ .

روح : هو أبو الحسن بن عبد المؤمن الهذلي .
قال ابن الجزري : " مقررٌ جليل ثقة ضابط مشهور " توفي ٣٣٥ هـ ^٢ .

١٠ . يزيد بن القعقاع :
قال ابن الجزري : " يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي
المدني القارئ . أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر .
كنيته : أبو جعفر .
لقبه : المخزومي .
البلد : المدينة .
وفاته : ١٣٠ هـ ^٣ .

ليس من للقراء السبعة بل العشرة .
قال ابن معين : كان إمام أهل المدينة في القراءة فسّمى القارئ بذلك .
وكان ثقة قليل الحديث .
أسننته القراء : عبد الله بن عباس ومولاه . عبد الله بن عباس بن
أبي ربيعة تلميذ أبي بن كعب تلميذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم .
ليزيد أبي جعفر راويان هما : عيسى بن وردان ومسلم بن جمان .

عيسى : هو أبو الحارث عيسى بن وردان المدني الحذاء .
قال ابن الجزري : " إمام مقرر حاذق وراو محقق ضابط " ^٤
وقال الذّاني : " هو من أجلة أصحاب نساف وقدمائهم وقد
شاركه في الإسناد " توفي سنة ١٦٠ هـ ^٤ .

^١ - طبقات القراء ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

^٢ - المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٨٥ .

^٣ - المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٨٢ .

^٤ - المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٨٢ .

سليمان بن جَمَّاز : هو سليمان بن مسلم بن جَمَّاز أبو الربيع الم
قال ابن الجزري : "مقرئ جليل ضابط" تسوفي سند
فيما أحسب " ١ .

" إن من ذكرناهم من رواة القرآن العشرة هم المعروفون بين أهل التتبع . وأما
القرائة المروية بغير ما ذكرناه من الطرق فغير مضبوطة " ٢ .

١-ت القرآن ١ ج ١ ص ٣٩٥ .

الخروج : الميدان في تفسير القرآن ص ١٤٧ .

القراءات

من البداية أن يقرأ القرآن الكريم على الطريقة التي كان النبي وأصحابه وأهل بيته يقرأونه . هناك اختلاف حول القراءات السبع هل هي متواترة أم غير متواترة .

من الذين قالوا بتواترها أي تواتر القراءات للقراء السبعة وهم : ابن عامر الدمشقي ، وابن كثير المكي ، وعاصم الكوفي ، وأبو عمرو بن العلاء البصري ، وحزمة الكوفي ، ونافع المدني ، والكناسي الكوفي . إلى جانب تواتر قراءة ثلاثة آخر مع هؤلاء السبعة وهي قراءة خلف ويعقوب ويزيد بن القعقاع ، من الذين قالوا بتواترها : العلامة الحلي - الشهيد الأول (الشيخ محمد بن مكي ، الحاجي) يقول للعلامة الحلي : ' يجوز أن يقرأ بأي قراءة شاء من السبعة لتواترها أجمع ' .

ويقول الشهيد الأول : ' يجوز القراءة بالتواتر ، ولا يجوز بالشواذ ، ومنع بعض الأصحاب من قراءة أبي جعفر ويعقوب ، وخلف وهي كمال العشرة ، والأصح جوازها لتبوت تواترها كتبوت قراءة القراء السبعة ' .^١
المشهور عند الإخوة من علماء أهل السنة أنهم يقولون بالتواتر . هذا هو أبو شامة يقول في مرشده : ' قد شاع على السنة جماعة من المقرنين المتأخرين وغيرهم من المعتدين : أن القراءات السبع كلها متواترة ' .^٢

ويقول أحمد بن محمد الشهير بالبناء حيث أنه بعد أن نقل عن بعض : أن للقراءات العشر متواترة ، ومعلومة من الذين بالضرورة ، وأنها منزلة على رسول الله (ص) . أن السبع متواترة اتفاقاً وكذا الثلاثة على الأصح وهو الذي تلقيناه من عامة شيوخنا ' .^٣

القاتلون بالتواتر للقراءات السبع لهم أئمتهم المختلفة . من هذه الأئمة :

١. الإجماع من السلف إلى الخلف على تواتر للقراءات .
٢. اهتمام الصحابة والتابعين بالقرآن يقضي بتواتر قراءته .

^١ - انتهى : كتاب الصلاة ، باب القراءة ص ٢٧٤ .

^٢ - قد كرى ، كتاب الصلاة ، تراجم الرابع .

^٣ - النشر في القراءات العشر ص ١٣ .

^٤ - الخلاف فصولاً عشر ص ٤ .

٣. القراءات السبع لو لم تكن متواترة لم يكن القرآن متواتراً ، والثاني باطل بالضرورة .
 ٤. لو لم تكن القراءات متواترة لكان بعض القرآن غير متواتر مثل "مالك يوم الدين" ،
 ومالك يوم الدين " ونحوهما ، وهذا الدليل ذكره ابن الحاجب وتبعه جماعة بعده^١ .

وهذا جماعة صرحوا بعدم تواتر القراءات . من هؤلاء :

١. أبو شامة [شهاب الدين الشافعي المقرئ النحوي الممشقي] .
 قال في كتابه المرشد الوجيز : " فلا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى واحد
 من هؤلاء الأئمة السبعة ، ويطلق عليها لفظ الصحة ، وأنها كذلك أنزلت ،
 إلى أن قال : وللقراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى
 المجمع عليه والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع
 عليه في قراءتهم : تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم^٢ .

٢. ابن الجزري :

((كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ،
 ولو احتمالاً وصح مندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ، ولا
 يحل إنكارها ، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب
 على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة ، أم عن العشرة ، أم عن
 غيرهم من الأئمة المقبولين ، ومتى اختلف ركن من الأركان الثلاثة أطلق عليها
 ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت من السبعة أم عن غيرهم أكبر منهم ...
 هذا هو المحقق من السلف أو الخلف ، صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو
 عثمان بن سعيد الداني)) .

٣. السيوطي :

" وأحسن من تكلم في هذا النوع إمام القراء في زمانه شيخ شيوختنا أبو الخير
 ابن الجزري^٣ .

٤. وقال أبو شامة في كتاب البسملة :

^١ - راجع البيان في تفسير القرآن للأستاذ المحمدي ص ١٥٧ .

^٢ - السنن في القراءات العشر ج ١ ص ٩ .

^٣ - الألفاظ ج ١ ص ١٦٩ .

‘إننا لسنا ممن يلتزم بالتواتر في الكلمات المختلف فيها بين القراء ، بل القراءات كلها منقسمة إلى متواتر وغير متواتر ، وذلك بين عمن أنصف وعرف ، وتصفح القراءات وطرقها ‘^١ .

٥. الرافعي :

“قراءات هؤلاء السبع هي المتفق عليها إجماعاً ، ولكل منهم سند في روايته ، وطريق الرواية عنه ، وكل ذلك محفوظ ثبت في كتب هذا العلم ‘^٢ .

٦. وذكر بعضهم :

“إنه لم يقع لأحد من الأئمة الأصوليين تصريح متواتر للقراءات ، وقد صرح بعضهم بأن التحقيق أن القراءات السبع متواترة عن الأئمة السبعة بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات ، وهي نقل الواحد عن الواحد ‘^٣ .

٧. وقال بعض المتأخرين من علماء الأثر :

‘ادعى بعض أهل الأصول تواتر كل واحد من القراءات السبع ، وادعى بعضهم تواتر القراءات العشر وليس على ذلك إثارة من علم ... وقد نقل جماعة من القراء الإجماع على أن في هذه للقراءات ما هو متواتر ، وفيها ما هو آحاد ، ولم يقل أحد منهم بتواتر كل واحد من السبع فضلاً عن العشر ، وإنما هو قول قاله بعض أهل الأصول ، وأما الفن الأخير بفنهم ‘^٤ .

٨. وممن اعترف بعدم التواتر حتى في القراءات السبع :

الشيخ محمد سعيد العريان في تعليقاته حيث قال :

‘لا تخلو إحدى القراءات من شواذ فيها حتى السبع المشهورة ، فإن فيها من ذلك أشياء وعندهم أن أصح القراءات من جهة توثيق سندها نافع وعاصم ، وأكثرها توثيقاً للوجود هي أقصح أبو عمرو والكسائي‘^٥ .

^١ - التبيان ص ١٠٢ .

^٢ - إحصاء القرآن الكريم ، ص ٥١ .

^٣ - المصدر نفسه ، ص ١١٥ .

^٤ - المصدر نفسه ، ص ١٠٦ .

^٥ - إحصاء القرآن الكريم ، الطبعة الرابعة ص ٥٢ .

٩. ومن الإمامية الذين قالوا بعدم التواتر :

- الشهيد الثاني قدس سره حيث قال في شرح الإلغية :

"واعلم أنه ليس المراد أن كل ما ورد من هذه القراءات متواتر ، بل المراد انحصار المتواتر الآن فيما نقل من هذه القراءات ، فإن بعض ما نقل من السبعة شاذ فضلاً عن غيرهم ، كما حققه جماعة من أهل هذا الشأن "١ .

- السيد الجزائري :

فإنه بعد أن قال بعدم التواتر قال : " نعم اتفق التواتر في الطبقات اللاحقة "٢ .

- الميرزا القمي :

" إن كان المراد من تواتر القراءات تواترها عن النبي (ص) فيشكل على ما ذكر في القانون السابق ، وإن كان المراد تواترها عن الأئمة ، بمعنى تجزير قراعتها والعمل على مقتضاها ، فهذا هو الذي يمكن أن يدعى معلوميته من الشارع ، لأمرهم بقراءة القرآن كما يقرأ الناس "٣ .

- الشيخ الأنصاري في الفرائد ، والشيخ الخراساني في كفاية الأصول والشيخ الحائري اليزدي في كتاب الصلاة ، والإمام الخوئي في تفسير البيان وغيرهم ممن قارب هذا العصر ممن يقول بعدم تواتر للقراءات ، مع القول بجواز القراءة بكل من القراءات السبع .

تلك هي الأقوال في تواتر للقراءات وعدمها ، وهي توضح أنه لا إجماع على تواتر للقراءات ولا على عدمه .

❖ أدلة الإمام الخوئي على عدم التواتر :

١. إن استقراء الرواة يورث القطع بأن القراءات نقلت إلينا بأخبار الأحاد .

١ - بحر الفرائد في شرح الفرائد للأصنافي ص ٩٤ .

٢ - بحر الفرائد | لعدم السابق ص ٩٤ | .

٣ - الخوئي ج ١ ص ٣٩٠ .

٤ - شبلان ص ١٥٩ .

٢. التأمّل في الطرق التي أخذ عنها القراء يدلّنا دلالة قطعية على أنّ هذه القراءات إنّما نقلت إليهم بطريق الأحاد .

٣. اتّصال أسانيد القراءات بالقراء أنفسهم يقطع تواتر الأسانيد حتّى لو كان رواها ممن يمتنع توطؤهم على الكتب . فإن كل قارئ إنّما ينقل قراءته بنفسه .

٤. احتجاج كل قارئ من هؤلاء على صحة قراءته دليل قطعيّ على أنّ القراءات تستند إلى اجتهاد القراء وأرائهم .

٥. إنّ في إمكان جملة المحقّقين على جملة من القراءات دلالة واضحة على عدم تواترها ، إذ لو كانت متواترة لما صحّ هذا الإنكار .

٦. إنّ دعوى قيام الإجماع عليه من السلف إلى الخلف ، يردّ عليه الإمام الخوني بقوله : إنّ هذا الدليل إنّما يثبت تواتر نفس القرآن لا تواتر كيفة قراءته ، وخصوصاً مع كون القراءة عند جمع من هؤلاء مبتنية على الاجتهاد أو على السماع ولو من الواحد ، وإلّا تكون جميع القراءات متواترة وإنّ القول بأنّ القراءات السبع لو لم تكن متواترة لم يكن القرآن متواتراً ، يردّ الخوني على هذا الدليل بقوله :

- إنّ تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات ، وإنّ اختلاف الرواة في خصوصيات هجرة النبي لا ينفي تواتر الهجرة نفسها .

- إنّ الواصل إلينا بتوسط القراء إنّما هو خصوصيات قراءاتهم ، وأمّا أصل القرآن فهو واصل إلينا بالتواتر بين المسلمين ، وينقل السلف عن الخلف .

- فالقرآن ثابت بالتواتر حتّى لو لم يكن هؤلاء القراء السبعة موجودين أصلاً .
- ويردّ أيضاً على ما ذهب إليه البعض من أنّه لو لم تكن القراءات متواترة لكان بعض القرآن غير متواتر ، مثل ملك ومالك ونحوهما ، يردّ الإمام الخوني على هذا الدليل بقوله :

إنّ مقتضى هذا الدليل الحكم بتواتر جميع القراءات وتخصيصه بالسبع أيضاً تحكّم باطل ولا سيّما أنّ في غير القراء السبعة من هو أعظم وأوثق . إنّ الحكم بتواتر جميع القراءات باطل بالضرورة ، وخاصة

إن الاختلاف في القراءة لا ينافي تواتر أصل القرآن ، فالمادة متواترة وإن اختلف في هيئتها أو في إعرابها . إن تواتر القرآن لا يلزم عنه تواتر القراءات . يقول الزرقاني معترفاً بذلك : " يبالغ بعضهم بالإشادة بالقراءات السبع ، ويقولون من زعم أن للقراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقلوه كفر لأنه يؤدي إلى عدم تواتر القرآن جملة . ويعزى هذا الرأي إلى مفتي البلاد الأنطلسية الأستاذ أبي سعيد فرج بن لب ، فالقول بعدم تواتر القراءات السبع لا يستلزم القول بعدم تواتر القرآن . كيف وهناك فرق بين القرآن والقراءات السبع بحيث يصح أن يكون القرآن متواتراً في غير القراءات السبع " ^١ .

' للقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد (ص) للبيان والإعجاز ، والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكورة في الحروف وكيفية من تخفيف وتشديد . فالقراءات متواترة عند الجمهور والتحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة ، أما تواترها عن النبي ففيه نظر ، فإن إسنادهم بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات ، وهي نقل الواحد عن الواحد " ^٢ .

وينتهي الإمام الخوئي قدس سره ، إلى القول :
' تأمل بربك هل تبقى قيمة لدعوى التواتر في القراءات بعد شهادة هؤلاء الأعلام كلهم بعدمه ؟ وهل يمكن إثبات التواتر بالتقليد ، وباتباع بعض من ذهب إلى تحققه من غير أن يطالب بذنيل ، ولا سيما إذا كانت دعوى التواتر مما يكذبها الوجدان ؟ وأعجب من جميع ذلك أن يحكم مفتي الديار الأنطلسية أبو سعيد بكفر من أنكر تواترها !!!

ويتابع الخوئي القول :
" نفرض أن القراءات متواترة عند الجميع ، فهل يكفر من أنكر تواترها إذا لم تكن من ضروريات الدين ؟ ثم نفرض أنها بهذا التواتر الموهوم أصبحت من ضروريات الدين ، فهل يكفر كل أحد بإنكارها حتى من لم يثبت عنده ذلك ؟ اللهم إن هذه الدعوى جراءة عليك ، وتعدّ لحنودك ، وتفرق لأهل كلمة دينك " ^٣ .

^١ - سائل البرلمان ، ص ٢٤٨ .

^٢ - الإفتان ، ج ١ ص ١٢٨ .

^٣ - بيان ، ص ١٥٦ .

١- تلك هي الأقوال في تواتر القراءات وعدمها ، وهي توضّح أنّه لا إجماع على تواتر القراءات ، ولا على عدمه ، ومن هنا فلا مضايقة في أن يختار الباحث أيّاً من القولين ، إذا قام لديه الدليل على ضرورة أو رجحان الالتزام به ، ولا يكون بذلك مخالفاً للإجماع . ولما هو معلوم بالضرورة ^١ .

❖ القراءات والأحرف السبعة

إنّ الأحرف السبعة التي أنزل عليها القرآن لا يمكن أن يراد بها القراءات السبع المشهورة . لقد توهم الكثيرون من القدماء والمحدثين أنّ هذه القراءات هي هاتيك الأحرف .

قال أبو شامة في كتابه "المرشد" الوجيز إلى علوم تتعلق بالقرآن العزيز :

٢- "ظن قوم أنّ القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنّما يظنّ ذلك بعض أهل الجهل" . لعلّ اللوم الأكبر يقع في هذا الإيهام على عاتق أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد الذي كان شيخ القراء في زمانه ، والذي توفي سنة ٣٢٤ هـ . فقد قام هذا المقرئ على رأس الثلاث مئة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات ^٣ لسبعة من أئمة الحرمين والعراقين والشام الذين اشتهروا بالنقطة والأمانة والضبط وملازمة القراءة ، وجاء جمعه لها محض مصادفة ، إذ كان في أئمة القراء من أجلّ منهم قدراً ، وكان عددهم لا يستهان به ^٤ . فإنّ أبو العباس بن عتار يلوم ابن مجاهد ويقسو عليه في تعبيره فيقول :

٥- "لقد فعل ممّيع هذه السبعة ما لا ينبغي له ، وأشكل الأمر على العامة بابهامه كل من قلّ نظره أنّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر ، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل التشبهة" ^٥ .

^١ - بحث في تاريخ القرآن وعلومه ، أبي فضل سو عدي ص ١٨٢ .

^٢ - لاقتان ١/١٣٨ ، ونظّر الرافعي على موطأ من ذلك .

^٣ - البرهان ١/٣٢٧ .

^٤ - المصدر نفسه ، ١/٣٢٩ .

^٥ - لاقتان ١/١٣٨ .

إنّ ليس لنا أن نتوهم أو نتخيّل أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن هي القراءات السبع فيتمسك لإثبات كونها من القرآن بالروايات التي دلّت على أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ، فلا بدّ أن ننّبه على هذا الخطأ ، وأنّ ذلك لم يتوهمه أحد من العلماء المحقّقين . هذا إذا سلّمنا بورود هذه الروايات^١ .

قال الجزائري في هذا الموضوع :

” لم تكن القراءات السبع متميّزة عن غيرها حتى قام الإمام أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد - وكان على رأس الثلاثمائة ببغداد - فجمع قراءات سبعة من مشهوري أئمّة الحرمين والعراقين والشام ، وهم : نافع ، وعبد الله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم وحمزة ، وعلي الكسائي ، وقد توهّم بعض الناس أنّ القراءات السبعة هي الأحرف السبعة ، وليس الأمر كذلك ... وقد لأم كثير من العلماء ابن مجاهد على اختياريه عدد السبعة لما فيه من الإيهام^٢ .

وقال الأستاذ إسماعيل بن إبراهيم بن محمد القراب الشافعي :

” التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سمة وإنّما هو من جمع المتأخّرين ، لم يكن قرأ بأكثر من السبع فصنّف كتاباً ، وسماه كتاب السبعة ، فانتشر ذلك في العامة^٣ .

وقال الإمام أبو محمد مكي :

” قد ذكر الناس من الأئمّة في كتبهم أكثر من سبعين ممّن هو أعلى رتبة ، وأجل قدراً من هؤلاء السبعة ... فكيف يجوز أن يظنّ ظانّ أنّ هؤلاء السبعة المتأخّرين ، وقراءة كل واحد منهم أحد الحروف السبعة المنصوص عليها - هذا تخلف عظيم - أكان ذلك بنصر من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أم كيف ذلك !!! وكيف يكون ذلك ؟ والكسائي إنّما ألحق بالسبعة بالأمس في أيّام المأمون وغيره ، وكان السليح يعقوب الحضرمي ، فأثبت ابن مجاهد في سفة ثلاثيّة ونحوها الكسائي موضع يعقوب^٤ .

^١ - البيان في تفسير القرآن للأئمّة الخوئي ص ١٦٠ .

^٢ - الاثنتان ١٣٨/١ .

^٣ - راجع اليحيى في تفسير القرآن ص ١٦١ .

^٤ - البيان ص ٨٦ .

وقال أنشرف المرمي :

" وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها الأحرف السبعة - القراءات السبع وهو جهل قبيح " ^١ .

وقال كثير من علمتنا كالذاودي ، وابن أبي سفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست من الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها ، وإنما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذي جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره ، وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء " ^٢ .

ثم قال الجزري :

" إنما أوقع هؤلاء في الشبهة كونهم سمعوا " أنزل القرآن على سبعة أحرف " وسمعوا القراءات السبعة فظنوا أن هذه السبعة هي تلك المشار إليها ، ولذلك كره كثير من الأئمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء ، وخطأوه في ذلك ، وقالوا : ألا اقتصر على دون هذا العدد أو زاده أو يبين مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة . ثم نقل ابن الجزري - بعد ذلك - عن ابن عمار المهدي وأبي محمد مكي ما تقدم نقله عنهما آنفاً " ^٣ .

وقال أبو شامة :

" ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريت في الحديث ، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة . وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل " ^٤ . وكما سبق معنا الحديث لقد منع التواتر الشيخ ابن تيمية في [التبيين] والسيد ابن طائوس في سعد السعود والسيد الجزائري والمولى جمال الدين الخونساري ، ومن العامة جمع كثير كالتزمخشري والزركشي والحاجبي والعصدي .

وكيفما انقلب الأمر بالقراءات السبع لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات ، والسايقون منهم كابني عبيد القاسم بن سلام ، وأبي جعفر الطبري ، وأبي حاتم السجستاني ذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات ، وإنما بدأت هذه

^١ - تنبيه ص ٦١ .

^٢ - تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٦ .

^٣ - نشر في القراءات المشر ج ١ ص ٢٣ .

^٤ - إلهام ج ١ ص ١٢٨ .

العبرة تشتهر على رأس المنتين بإقبال الناس في الأمصار الإسلامية على قراءة بعض الأئمة دون بعض ، فاشتهرت في مكة قراءة عبد الله بن كثير الداري المتوفى سنة ١٢٠ ، وقد لقي من الصحابة أنس بن مالك وعبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصاري ، وفي المدينة قراءة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المتوفى سنة ١٦٩ هـ والذي تلقى القراءة عن سبعين من التابعين أخذوا عن أبي بن كعب وعبد الله بن عباس ، وفي الشام قراءة عبد الله اليحصبي المشهور بابن عامر والمتوفى ١١٨ هـ أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان ، ولقي من أصحابه النعمان بن بشير ، وفي البصرة قراءة كل من أبي عمرو ويعقوب ، فأما أبو عمرو فهو زبائن بن عامر المتوفى سنة ١٥٤ هـ وقد روى عن مجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبيرة عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب ، وأما يعقوب فهو ابن إسحاق الحضرمي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وقد قرأ على سلام بن سليمان الطويل ، عن عاصم وأبي عمرو ، وفي الكوفة قراءة كل من حمزة المتوفى سنة ١٨٨ هـ وعاصم المتوفى سنة ١٢٧ هـ .

مما يلاحظ أن معظم القراء هم من السوالية ولا سيما الذين كانوا من أصل فارسي . أما القراء العرب فهم قلة بل ليس من هؤلاء القراء السبعة عرباً إلا ابن عامر وأبو عمرو^١ .

وحين جمع مجاهد قراءات هؤلاء الأئمة السبعة حذف اسم يعقوب وأثبت مكانه الكسائي^٢ ، ونحن نعلم أن الكسائي كان كوفيّاً ويعقوب كان بصرياً ، فكان ابن مجاهد اكتفى بذكر مقرئ واحد للبصرة وهو أبو عمرو بينما أثبت من أسماء المقرئين الكوفيين حمزة وعاصماً والكسائي .

* وبهذا الاستعراض يستبين للقارئ ، ويظهر ظهوراً تاماً أن القراءات ليست متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا عن القراء أنفسهم من غير فرق بين السبع وغيرها ، ولو سلمنا تواترها عن القراء فهي ليست متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قطعاً ، فانقراءات إما أن تكون منقولة بالأحاد وإما أن تكون اجتهادات من القراء أنفسهم^٣ .

❖ هل يستدل بهذه القراءات على الحكم الشرعي ؟

ذهب جماعة هذا المذهب فجوزوا أن يستدل بها على الحكم الشرعي كما استدل على حرمة وطء الحائض بعد نقائها من الحيض وقبل أن تغتسل ، بقراءة الكوفيين - غير

^١ - راجع ترجمة هؤلاء القراء السبعة جميعاً في كتاب طبقات القراء .

^٢ - إبراهيم ح ١ / ٣٢٩ .

^٣ - شيبان نعموني ص ١٦٤ .

حفص - قوله تعالى " ولا تقربوهن حتى يطهرن " بالتشديد . ومن شاع على السنة العلماء : " واختلاف القراءات يظهر اختلاف الأحكام " .^١ كلمة الحق نقول بعدم حجية هذه القراءات ، فلا يستدل بها على الحكم الشرعي لأن كل واحد من هؤلاء القراء يحتمل فيه اللط والاشتباه ، ولم يرد دليل من العقل ولا من الشرع على وجوب اتباع قارئ منهم بالخصوص ، وقد استقل العقل ، وحكم الشرع بالمنع عن اتباع غير العلم.^٢

ولعل أحداً يحاول أن يقول : إن القراءات وإن لم تكن متواترة ، إلا أنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فتشملها الأدلة القطعية التي أثبتت حجية الخبر الواحد، وإذا شملت هذه الأدلة القطعية خرج الاستناد إليها عن العمل بالاطن بالورود أو التخصيص.^٣

- ويجب الإمام الخوئي على ذلك بقوله :

أولاً : إن القراءات لم يتضح كونها رواية لتشملها هذه الأدلة ، فلعلها اجتهادات من القراء . وقد صرح بعضهم بذلك ويؤيد هذا الاحتمال ما تقدم من تصريح بعض الأعلام بذلك ، بل إذا لاحظنا السبب من أجله اختلف القراء في قراءاتهم هو غلو المصاحف المرسلة إلى الجهات من النقط والشكل فإن ذلك يقوي هذا الاحتمال جداً.^٤

قال الزرقاني :

" كان العلماء في الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله * مبالغة منهم في المحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي ذلك إلى التغيير فيه ولكن الزمان تغير - كما علمت - فاضطر المسلمون إلى إجماع المصحف وشكله لنقص ذلك السبب ، أي للمحافظة على أداء القرآن كما رسمه المصحف ، وخوفاً من أن يؤدي تجرده من النقط والشكل إلى التغيير فيه " .^٥

^١ - الإجماع ٣٧٧ .

^٢ - شيان للمعنى ص ١٦٤ .

^٣ - المصدر نفسه ، ١٦٥ .

^٤ - البيان ص ١٦٦ .

^٥ - معاني العرفان ص ٤٠٢ أنظمة ثمانية .

ثانياً : إن رواة كل قراءة من هذه القراءات لم تثبت وثافتهم أجمع .
 ثالثاً : بعض هذه القراءات لم تصدر عن النبي قطعاً فنكون هذه الروايات متعارضة،
 وتكون كل واحدة مكذبة للأخرى فتسقط جميعها عن الحجية ^١ .
 هذه النتيجة حاصلة أيضاً إذا قلنا بتواتر القراءات ، فإن تواتر القراءتين المختلفتين
 عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يورث القطع بأن كلا من القراءتين قرآن منزّل
 من الله فلا يكون بينهما تعارض بحسب السور بل يكون بينهما تعارض بحسب
 الدلالة ^٢ .

❖ هل يجوز القراءة بها في الصلاة ؟

إن كل قراءة لم تثبت قرأتها لا يجوز تلاوتها في الصلاة ولا مساوها ولا يجب
 اعتقادها على أحد . قال النووي في [شرح المذهب] لا تجوز القراءة في الصلاة
 ولا غيرها بالقراءة الشاذة لأنها ليست قرآناً لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ،
 والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومن قال غيره فغالط أو جاهل ، فهو خالف وقرأ
 بالشاذ أنكر عليه قراءتها في الصلاة وغيرها . وقد اتفق فقهاء بغداد على استنباطه من
 قرأ بالشواذ ، ونقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ ،
 ولا يصلى خلف من يقرأ بها ^٣ . ولذلك قال الإمام مالك فيمن قرأ في صلاة بقراءة
 ابن مسعود وغيره من الصحابة مما يخالف المصحف ولم يصلى وراءه ^٤ .

وموقف للعلماء من قراءة ابن مسعود - على تقواه وورعه وعلمه الغزير - ربما دعا
 إليه ما شاع عنه من إنكاره المعونتين والفتحة من القرآن وإن كان كثيرون يفسرون تصرفه
 تفسيراً منطقياً . قال ابن قتيبة في " مشكل القرآن " : " ظن ابن مسعود أن المعونتين ليستا من
 القرآن ، لأنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعمد بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه .
 ولا نقول أنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار . قال : وأما إسقاطه الفتحة من
 مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القرآن - معاذ الله - ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتبت
 وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ورأى أن ذلك مأمون في سورة
 الحمد لقصرها ووجوب تعلمها على كل أحد .

^١ - البيان ، ص ١٦٦ .

^٢ - مصدر نفسه ، ص ١٦٦ .

^٣ - البرهان ، ٢٣٣/١ .

^٤ - مصدر نفسه ، ٢٢٢/١ .

وقراءة أبيّ بن كعب تماثل قراءة ابن مسعود في الشذوذ لما ينسب إليه من إثباته دعاء الاستفتاح والقنوت في مصحفه كالمسوريتين^١ ، مع أنّه لم تقم حجة بأنّه قرآن منزل ، بل هو ضرب من الدّعاء ، وإنّه لو كان قرآناً لنقل نقل القرآن وحصل العلم بصحته^٢ .

ويرى الباقلاني بصورة عامّة : " أنّه لا يجوز أن يضاف إلى عبد الله أو إلى أبيّ ابن كعب ، أو زيد أو عثمان أو عليّ ، أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرفاً من كتاب الله ، وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الأحاد ، أن ذلك لا يحلّ ، ولا يسمع بل لا تصلح إضافته إلى أنبي المؤمنين في عصرنا ، فضلاً عن إضافته إلى رجل من الصحابة^٣ " .

ولتمييز القراءات المقبولة من الشاذّة وضع العلماء ضابطاً للقراءات المقبولة ذا ثلاثة شروط :

أحدها موافقة القراءة لرسم أحد للمصاحف العثمانيّة ، ولو تغيّراً . والثاني موافقتها العربيّة ولو بوجه ، والثالث صحة إسنادها ولو كان ممّن فوق السبعة والعشرة من القراء المشهورين^٤ .

لقد أثار ابن الجزري في كتابه منجد المقرئين أن يبدّل شرط صحة الإسناد في هذا الضابط بتواتره لأنّ القرآنيّة لا تثبت إلا بالإسناد المتواتر . فالقراءات الأربع الزائدة على العشرة صحيحة الإسناد ، ولكنّها أحادية فليست متواترة ، وليست قرآناً يتعبد به ويتلى في الصلاة ، وإنّما القراءات المتواترة التي تلقّتها الأئمة بالقبول هي العشر التي أخذها الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا ، ولا يوجد اليوم قراءة متواترة وراء هذه العشر^٥ .

وقال الإمام الخوئي :

ذهب الجمهور من علماء الفريقين إلى جواز القراءة بكل واحدة من القراءات السبعة في الصلاة بل ادّعى على ذلك الإجماع في كلمات غير واحد منهم ، وجوّز بعضهم القراءة

^١ - البرهان ، ١ / ٢٥٦ .

^٢ - المصدر نفسه ، ١٢٨ / ٢ .

^٣ - المصدر نفسه ، ١٢٧ / ٢ . راجع مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح ص ٢٥٢ .

^٤ - الأنوار ، ١ / ١٢٩ .

^٥ - مبحث مباحث في علوم القرآن للدكتور صالح ص ٢٥٦ .

بكل واحدة من العشر. وقال بعضهم بجواز القراءة بكل قراءة وافقت اللغة العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصحّ سندها ، ولم يحصرها في عدد معين^١ .

والحق أن الذي تقتضيه القاعدة الأولية ، هو عدم جواز القراءة في الصلاة بكل قراءة لم تثبت القراءة بها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو من أحد أوصيائه المعصومين عليهم السلام ، لأن الواجب في الصلاة هو قراءة القرآن ، فلا يكفي قراءة شيء لم يحرز كونه قرآناً ، وقد استغلّ العقل بوجود إحراز الفراغ اليقيني بعد العلم باستغفال الذمّة ، وعلى ذلك فلا بدّ من تكرار الصلاة بعد القراءات المختلفة ، أو تكرار مورد الاختلاف في الصلاة الواحدة لإحراز الامتنان القطعي ، ففي سورة الفاتحة يجب الجمع بين قراءة "مالك" وقراءة "ملك" . أما السورة الثامنة التي يجب قراءتها بعد الحمد - بناء على الأظهر - فيجب لها إما اختيار سورة ليس فيها اختلاف في القراءة ، وإما التكرار على النحو المتقدم ، وأما بالنظر إلى ما ثبت قطعياً من تقرير المعصومين عليهم السلام ، شيعتهم على القراءة بأية واحدة من القراءات المعروفة في زمانهم ، فلا شك في كفاية كل واحدة منها . فقد كانت هذه القراءات معروفة في زمانهم ، ولم يرد عنهم أنهم ردعوا عن بعضها ، ولو ثبت الردع لوصل إينا بالتواتر ، ولا أقل من نقله بالأحاد ، بل ورد عنهم عليهم السلام إمضاء هذه القراءات بقولهم : " إقرأ كما قرأ الناس . إقرأوا كما عثتم^٢ " ، وعلى ذلك فلا معنى لتخصيص جواز القراءات السبع أو العشر . نعم يعتبر في الجواز أن لا تكون القراءة شاذة غير ثابتة بنقل النفاة عند علماء أهل السنة ، ولا موضوعة ، أما الشاذة فمثالها قراءة " ملك يوم الدين " بصيغة الماضي ونصب يوم ، وأما الموضوعة فمثالها قراءة " إنما يخشى الله من عباده العلماء " برفع كلمة الله ونصب كلمة العلماء على قراءة الخزاعي عن أبي حنيفة .

وصفوة القول : إنه تجوز للقراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام^٣ .

❖ أنواع القراءات :

ينقل السيوطي عن ابن الجزري في النشر أن أنواع القراءات ستة :

^١ - طيبان ص ١٦٧ .

^٢ - فكاكي : باب الشواهد كتاب فضل القرآن .

^٣ - طيبان ص ١٦٨ .

- الأول : المتواتر وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم . وغالب القراءات كذلك ، مثاله ما اتفقت الطرق على نقله عن السبعة . والجمهور يذهبون إلى أن القراءات متواترة .

- الثاني : المشهور ، وهو ما صحّ سنده ، ولم يبلغ درجة التواتر وذلك بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ، ووافق العربية ، ووافق أحد المصاحف العتباتية سواء كان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين ، واشتهر عند القراء فلم يعتوه من الخط ، ولا من الشذوذ ، إلا أنه لم يبلغ درجة مثاله : ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض . ومن أشهر ما صنّف في هذين النوعين التيسير للداني ، والشاطبية وهي المنظومة المنسوبة إلى أبي محمد الشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ نظم فيها كتاب التيسير في ١١٧٣ بيتاً ، وطبّية للنشر في القراءات العشر لابن الجزري . وهذان النوعان هما اللذان يُقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز إنكار شيء عنهما .

- الثالث : الأحاد وهو ما صحّ سنده ولم يبلغ درجة التواتر وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ولا يقرأ به ولا يجب اعتقاده . من ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجدي عن أبي بكر ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ : " متكئين على رفارف خضر وعقاري حسان " ، وقراءة حفص : " متكئين على رفرف خضر وعقاري حسان " الرحمن : الآية - ٧٦ ، ومنه قراءة : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم " بفتح الفاء وقراءة حفص " من أنفسكم " بضم الفاء .

- الرابع : الشاذ ، وهو ما لم يصحّ سنده ، كقراءة ابن السمين : " فالليوم ننجيك ببذك " بالحاء المهملة " لتكون لمن خلفك آية " للتوبة : الآية - ١٢٨ ، بفتح اللام من كلمة " خلفك " وقراءة حفص " فالليوم ننجيك ببذك لتكون لمن خلفك آية " .

١ - كتاب التيسير في القراءات السبع نشره وحققه الدكتور مرتضى في الإستانة سنة ١٩٣٠ في اعمد شاتي من امكة الإسلامية

ويشتمل على مدقق القراء السبعة .

٢ - أظهر كشف الشذوذ ١/٦٤ .

أصل . مثال ذلك القراءات التي جمعها حمد بن جعفر للخزاعي مؤلف 'المتنبي' والذي جمع فيه ما لم يجمعه من قبله ، والمتوفي سنة ٤٠٨ هـ . للخزاعي جمعها ونسبها إلى أبي حنيفة ، كقراءة * إنما يخشى الله من عباده العلماء * برفع اسم الجلالة ونصب العلماء .

- للنوع السادس : وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير كقراءة سعد بن أبي وقاص " وله أخ لو أخت من أم " بزيادة لفظ : " من أم " وقراءة " ليس عليكم جناح أن يتبعوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج " بزيادة " في مواسم الحج " .

ومما هو جدير بالذكر أن قارئ القرآن لا يسمى مقرئاً حتى ولو حفظ العشر كلها والأربع عشرة إلا إذا أحكمها بالمسماع والمشافهة .

وهذا التقسيم الذي استخرجه الميوطي مما أفاضه ابن الجزري جدير بالأهمية إذ هو جامع مانع كما يقول المناطقة .

ونعود إلى القول بأن النظرة إلى هذه القراءة متأرجحة بين التقييد والمناقشة ، فمن يقتسها يعتبرها قرأناً ، ومن يناقشها يعتبرها علماً بكيفية أداء كلمات القرآن ، وفرق واضح بين القرآن وأداء القرآن^١ .

فالباقلائي يذهب :

إلى أن القراءات قرآن منزل من عند الله تعالى ، وأنها تنقل خلفاً عن سلف ، وأنهم أخذوها من طريق الرواية لا من جهة الاجتهاد لأن المتواتر المشهور أن القراء السبعة إنما أخذوا القرآن رواية ، لأنهم يمتنعون من القراءة بما لم يسمعه^٢ .

بينما خالفه الزركشي في هذا الجانب واعتبر للقرآن حقيقة والقراءات حقائق أخرى : " والقرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان ، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد صلى الله

^١ - راجع مباحث في علوم القرآن للذكور الصالح ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

^٢ - تاريخ القرآن ، محمد حسني المنير ص ١١٢ .

^٣ - كُنْتُ الانصار لفضل القرآن ص ٤١٥ .

عليه وآله وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات : اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيةها من تخفيف وتشديد وغيرها ^١ .
 وللواقع أن مذهب الزركشي يتفق مع تعريف القراءات المتداول عند أئمة التحقيق ، فقد ذهبوا إلى أن علم القراءات : هو علم يعرف منه اتفاق النافقين لكتاب الله واختلافهم في اللغة والإعراب ، والحنف والإثبات ، والتحريك والإسكان ، والفصل والاتصال ، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع ^٢ .

ويذهب بنا القول إلى أنه لا علاقة بين حقيقة القرآن وحقيقة القراءات . فالقرآن هو النص الإلهي المحفوظ ، والقراءات هي أداء نطق ذلك النص اتفاقاً أو اختلافاً ، والقرآن لا اختلاف في حقيقته إطلاقاً . وكيف يكون اختلاف الإجماع مطلق على أنه الوحي الإلهي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فالقراءات قال الزركشي بتواترها عن القراء السبعة ، " أما تواترها عن النبي (ص) فيه نظر ، فإن إسماعيل الأئمة السبعة بهذه القراءات السبع موجود بكتب القراءات ، وهي نقل الواحد عن الواحد ، ولم تكمل شروط التواتر في استواء الطرفين والواسطة ، وهذا شيء موجود في كتبهم ، وقد أشار الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتابه " المرشد السجيز " إلى شيء من ذلك ^٣ .

وقد ذهب مذهبه من المتأخرين السيد الخوئي وزاد عليه حيث قال :
 " إنها غير متواترة بل القراءات بين ما هو اجتهد من القارئ وبين ما هو منقول بخبر الواحد ^٤ .

وقد حشد لهذا الرأي جملة من الأكلة خلص منها إلى عدم تواتر القراءات ، وأنها نقلت بأخبار الأحاد ^٥ .

ويكاد ينعقد إجماع المسلمين على حجية هذه القراءات وتواترها ، سواء كان تواترها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو عن أصحابها وعلى جواز القراءة بها في الصلاة .

^١ - الزركشي ، القواعد ، ٣١٨/١ .

^٢ - النسطاسي ، الطائفة الإشارات ، ١٧٠/١ .

^٣ - الزركشي ، القواعد ، ٣١٩/١ .

^٤ - البيان ص ١٢٣ .

^٥ - المصدر نفسه ، ١٥١ ، وما بعدها .

يقول الإمام جعفر الصادق (ع) :
" إقرأوا كما غنتم " ^١ .

وقال الشيخ الطوسي [ت ك ٤٦٠ هـ] وهـ و يتهـ دتـ عن رأي الإمامية في الموضوع:

" واعلموا أن العرف من مذهب أصحابنا ، والشائع من أخبارهم وروايتهم أن القرآن نزل بحرف واحد ، على نبي واحد ، غير أنهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء ، وإن الإنسان محبّر بأي قراءة شاء قرأ ، وكرهوا تجريد قراءة بعينها ، بل أجازوا القراءة بالمجاز الذي يجوز بين القراء ، ولم يبلغوا بذلك حد التحريم والخطر " ^٢ .

وقد حكى الطبرسي [ت : ٥٤٨ هـ] الإجماع عليه فقال :
" أعلم أن الظاهر من مذهب الإمامية أنهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء بينهم من القراءات ، إلا أنهم اختلفوا القراءة بما جاز بين القراء ، وكرهوا تجريد قراءة مفردة " ^٣ .

وذهب الشهيد الأول [ت : ٧٨ هـ] من الإمامية إلى أن القراءات متواترة ، ومجمع على جواز القراءة بها ، وتابعه الخوانساري في ذلك ، ونفى الخلاف في حجية السبع منهم مطلقاً ، والثلاث المكملة للعشر في الجملة ، بل اعتبر تواترها بوجودها السبعة عن رسول الله (ص) عند قاطبة أهل الإسلام " ^٤ .

وقد انتهى العاملي إلى الإجماع على تواتر القراءات ، ونقلها به وحكاها عن المنتهى والتحرير والتكررة ، والموجز الحاشي ، وغيرها من أمهات كتب الإمامية ممّا يقطع معه بتواترها حرفاً حرفاً ، وحركة حركة " ^٥ .

وينتهي بنا القول إلى ما ذهب إليه السيد الخوئي إلى عدم حجية هذه القراءات ، فلا يستدل بها على الحكم الشرعي ، إذ لم يتضح عنده كون القراءات رواية ، فلعلها اجتهادات، في

^١ - تنقيح ، أصول الفكاك ٢/ ٦٣١ .

^٢ - نفوس ، البيان ١/ ٧٠ .

^٣ - نفوس ، جمع البيان ١/ ١١ .

^٤ - مغايري ، ووجعات لغات ٢٦٣ .

^٥ - ط : عاملي ، منهاج الكرامة ٢/ ٢٩٠ .

القراءة كما أسلفنا ، ولكنه جَوَّزَ بها الصلاة نظراً لتقرير المعصومين لها ، وذلك عنده يشمل كل قراءة متعارفة زمن أهل البيت (ع) إلا الشاذة فلا يشملها التقدير^١ .

❖ فضل قراءة القرآن وتلاوته وتعلّمه وتعليمه :

لقد أوصى النبي بإكرام أهل القرآن وسماهم^٢ أهل الله وخاصته^٣ وقال فيهم : " أشرف أمتي حملة القرآن " وقال " خيركم من تعلّم القرآن وعلمه " . ومن أجل هذا الحديث فقد أبو عبد الرحمن السلمي أربعين عاماً يقرئ الناس بجامع الكوفة ، مع جلالة قدره وكثرة علمه^٤ .

لقد سنل سفيان الثوري عن الجهاد وتعليم القرآن ، فرجّح الثاني ، واستدلّ بهذا الحديث .

لقد كان النبي يعطي مرتبة أصحاب القرآن أيّما إعلاء ، إذ يقول إنهم يكانون يحوزون في صنورهم ما حاز الأنبياء ، لولا أنهم لا يتلقون وحي السماء ، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم " من قرأ القرآن فقد استخرج النبوة بين جبينه ، غير أنه لا يوحى إليه " .

والنبي يؤثر أهل القرآن بإمامة الصلاة ، فيقول :

" يوم تقوم أكثرهم قرأناً ، فإن كانوا في القرآن واحداً فآلهمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة واحداً فآلهمهم فقهاً ، فإن كان في الفقه واحداً فأكبرهم سنّاً " .

والقرآن يعني صاحبه عن كل حسب ونسب ، وشرف التنقّه فيه فوق كل شرف . ألا ترى أنه لا يصدّ واحداً من أهل القرآن عن إمامة الناس أن يكون أعرابياً أو عبداً مملوكاً . والقيام على خدمة المصحف وتعليمه للناس هو فخر الفاضلين ، وعزة المعتزّين .

لقد سمى القرآن ذكراً ، ونوعه المعرض عنه فقال :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْنَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْنَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ طه : الآية - ١٢٤ .

وخوف النبي المسلمين من نسيان القرآن تخويفاً فعلاً ومرعباً ، فقال :

^١ - الحارثي ، البيان في تفسير القرآن ١٦٤ .

^٢ ابن خنوزي ، فقه في القرآن ج ١ ص ٣ .

” ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة لحنجته “^١.

وكما أن الناس متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه ، فإنه قد ورد في الحديث :
” أفضل العبادة قراءة القرآن “^٢ ، كما ورد أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن “^٣.

وقد أنشئ الله تبارك وتعالى على من كان لديه تلاوة القرآن ، فقال :
﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ آل عمران : الآية - ١١٣ ، ﴿ إِنَّ السَّابِقِينَ
يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ
تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْتِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ فاطر : الآيات -
٢٩ - ٣٠ .

والنبي يحضّر على حفظ القرآن ودوام تلاوته والعمل به ، فيقول :
” مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة “ ربحا طيباً ، ومثل المؤمن الذي يقرأ
القرآن مثل الثمرة : لا ربح لها ، وطعمها طيب حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن ، كمثل
الحنظلّة : ليس لها ربح ، وطعمها مر “^٤.

وفي صحيح مسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ” الماهر بالقرآن مع
السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ، ويتمتع فيه “ وهو عليه شاق له أجران “.

ويقول يوسف علي مترجم معاني القرآن إلى الإنجليزية :
” ليس في الدنيا كتاب وضعت في خدمته مثل هذه الكثرة من المواهب التي وضعت
في خدمة القرآن ، ولا مثل هذه الوفرة من العمل والوقت والمال “.

^١ - أنظر الفراء : مصابح السنة ج ١ ص ١٠٥ .

^٢ - البخاري : بعض القدر ج ٢ ص ١٤ .

^٣ - تصغير نفسه .

^٤ - هي ثم جامع الطب طبعم والرائحة وحسن اللون .

^٥ - أسعده البخاري ج ٧ - كتاب الأطعمة ، ورواه الثاني .

^٦ - بمن في سائر ملائكة لأن يحمل معهم كتاب الله تعالى .

^٧ - أسر ثمارة وأسر المشقة .

" وهذا هو الحق ، فقد عني المسلمون بالقرآن " عناية لم يظفر بها - على مدى التاريخ - أي كتب سماوي أو غير سماوي . ولعل من مصاديق هذه العناية هذه الأعداد الضخمة من الكتب الجليلة التي خدمت علوم القرآن منذ أقدم القرون الإسلامية ، وهذه البحوث والعنون التي كان القرآن دائماً موضوعها " ^١ .

ويذكر السيوطي أن أبا بكر بن العربي ذكر في قانونه " التأويل " أن علوم القرآن ٧٧٤٥٠ ، على عدد كلم القرآن مضروبة في ٤ ، على أساس أن لكل كلمة ظهراً وبطناً ، وحذاً ومطلعا ، وذلك في المفردات وجدها ، فأما إذا اعتبرت التراكيب وما بينها من روابط كان لا يحصيه إلا الله تعالى ^٢ .

لقد كان المسلمون يتسابقون ويتنافسون فيما بينهم في عدد المرات التي ختموا بها قراءة القرآن ، كما كانت تقام في المكاتب والمدارس وإلى عهد قريب مسيرات وحفلات خاصة على شرف الطالب الذي فرغ لتوّه من ختم القرآن ، حيث تطوف الممسيرة طرقات البلدة وهي تضم كافة الطلبة ، ويقتمها الطالب الفائز بشرف الختم ، وتوزّع عليه وعليهم الهدايا والأموال والتي تزد من أهل الطالب ومعلميه وأصدقائه وأهل الخير ^٣ . ونفرض الحرص على حفظ القرآن الكريم ودراسته فقد تمّ تقسيم القرآن إلى أحزاب وأجزاء وأرباع حيث الأحزاب ستون والأجزاء ثلاثون والأرباع [٢٤٠] وكان تقسيم كل سورة إلى خمسينات [خمس آيات] وعشرات [عشر آيات] إضافة إلى تقسيم القرآن إلى :

١. الطوال وهي سبع .

٢. المنين وهي التي تزيد على المئة .

هذا وقد اصطلح الناس الآن على أن يسموا من يقرأ القرآن عن ظهر قلب ووفق قواعد التجويد بالحافظ ، ولمن يقرأ من المصحف وفق تلك القواعد بالقارئ أو المقرئ .
علماً بأن " القراءة في المصحف تعتبر أكثر أجراً وأجزل ثواباً من القراءة عن ظهر قلب ^٤ لأن الأولى تجمع بالإضافة إلى القراءة النظر إلى القرآن بينما تقتصر الثانية على القراءة

^١ - فلا عن السبحي : الاتقان ج ٢ ص ١٢٦ تعرف .

^٢ - انصهر نفسه ، ص ١٢٨ .

^٣ - اغات من تاريخ القرآن ، عبد الأضهر ص ٣١٦ .

^٤ - البيان ، للمحوي .

فقط ، ويذكر هنا أن الصحابة كانوا يقرأون في المصحف ويكرهون أن يمرّ يوم ولم يمتعوا
أنظارهم برؤية المصحف الشريف . يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم :
" فصل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً كفصل الغريضة على الناقلة " .
ونشير إلى أن القراءة المثلى للقرآن وسبيلها الصحيح ينبغي أن تكون وفقاً لما قاله الشاعر
الباكستاني المسلم الدكتور محمد إقبال وهو :

" إذا أردت أن تفقه القرآن ، عليك أن تقرأه كأنه نزل عليك ، وكأنك أنت المخاطب
الرئيسي فيه والمعنى به " أو كما قال الإمام محمد عبده حاكياً عن نفسه :

" إنّي عندما أسمع القرآن أو اتفوه أحسب أنّي في زمن الوحي وأن الرسول صلى الله
عليه وآله وسلم ينطق به كما أنزل عليه أو نزل به عليه " ^١ .

❖ تاريخ القراءة للمجاهدين

١. في العهد النبوي :

كان الفرد إذا أسلم وجد الحاجة إلى قدر من القرآن يؤدي به الصلاة المفروضة ،
ويتبين منه شيئاً من تعاليم دينه الجديد . وكان النبي نفسه أو بعض الصحابة كابي بن
كعب يتولى إقراء للمسلم الجديد ببعض القرآن .

ولما كان القرآن هو المصدر الأول للعقيدة والشريعة والسلوك فقد كان النبي (ص)
يحرص على تلاوته ويحجب إلى المسلمين حفظه . يقول :
" خير المسلمين هو من تعلّم القرآن وعلمه " .

غير أن ذلك لم يكن عملاً سهلاً بسبب طبيعة القرآن المتأبّية على الحفظ السدائم من
جهة ، ومن جهة أخرى بسبب ما يتطلبه ذلك من معرفة القراءة وامتلاك القرآن مكتوباً ، أو
وجود من يقوم بمهمة التحفيظ أو الإقراء ، وإلى ما يحتاجه استيعاب نصوص القرآن من
مستوى ثقافي معين ومرونة لمنايئة كافية .

^١ " طرهان ، التور كشي .

" - نحات من تاريخ القرآن ، محمد علي الأشرف ص ٣٢٠ .

يروى أن ابن مسعود أقرأ رجلاً ﴿إِنْ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ﴾ (٤٣) طعاماً الأبيم^١ الدخان :
 الآيات - ٤٣ - ٤٤ ، فقال الرجل [طعام الزيتيم] فردّها عليه فلم يستقم بها لسانه ، فقال :
 أستطيع أن نقولك [طعام الفاجر] قال : نعم : فاقبل ، فقد يتعسر على كثير من العرب التلاوة
 بلفظ واحد لعلمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ^٢ .

إلا أن جماعة يقظين بادروا إلى حفظ القرآن وتدارسه وتعليمه بعد إسلامهم كمصعب
 بن عمير ، وأبي بن كعب .

ويبدو أن أشجع عبد القيس رئيس وفد البحرين إلى النبي كان يحرص على أن يسأل
 النبي عن الفقه والقرآن ، فكان النبي (ص) يدينه منه إذا جلس كما كان يأتي أبي بن كعب
 فيقرأ عليه^٣ .

ويبدو أن هناك صلة وثيقة بين أهل الصفة - أولئك الصحابة الفقراء أقاموا بالمسجد ،
 إذ لم يكن لهم مساكن ولا عشاير بالمدينة - وبين حفظ القرآن ، فقد انقطع جماعة من شباب
 الأنصار إلى النبي ، ينفقون نهارهم ، يستعذبون ويحطبون ، أي يجينون بالماء فيضعونه في
 المسجد ، ويقطعون الحطب فيبيعونه ويشتررون به الطعام لأهل الصفة - وأغلب الظن أنهم
 كان منهم - الفقراء ، فإذا كان الليل جلسوا في المسجد يقرؤون القرآن ، ويتدارسون
 ويحطبون ، ثم قاموا إلى السواري فأسندوا إليها أعوادهم في صلوات طويلة خاشعة يرتلون فيها
 ما حفظ من القرآن^٤ .

ولحظ جولدزهر^٥ التشابه بين أعمال هؤلاء القراء الأتقياء وبين أعمال سكان جيعون
 الذين كلفهم رؤساء بني إسرائيل أن يكونوا محتطبي حطب ، ومستمقي ماء لكل الجماعة ،
 ولمنبح الرب^٦ .

لقد سمي هؤلاء الرجال بالقراء لأنهم في رأي ابن خلدون يقرأون الكتاب وليسوا أميين
 لأن العرب كانوا لمة أمية ، ولأن الأمية يومئذ كانت صفة عامة في الصحابة بما كانوا
 عرباً^٧ .

^١ - السروطي : الاثنان ١٧/١ .

^٢ - ابن سعد : الخصائص ٥ : ٤٠٦ .

^٣ - ابن سعد : الخصائص ج ٢ ، ف ٣٦ : ١ .

^٤ - كتاب الفقه والشرعة ٢٤٣ .

^٥ - جامع العهد القديم ، سفر يشوع : (صالح التاسع ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

^٦ - مقدمة ٣٧٢ : ١٧٧ .

لذلك نستبعد أن يكون سعد بن عبيد الأنصاري هو الصحابي الوحيد الذي يسمى القارئ^١ ، والذي يقوي ذلك أن مصعب بن عمير الذي هو أول من أقرأ الأنصار كان يسمى المقرئ^٢ . وكذلك عمير بن عدي الخطمي كان يدعى للقارئ أيضاً^٣ .

لم يصبح هؤلاء القراء كياناً متميّزاً ، ولم يكن لهم اسم خاص بهم إلا في المدينة . وبالرغم من أن الروايات تختلف في عدد الذين أفلحوا في حفظ القرآن كله على عهد النبي فتتوزع بهم إلى أربعة وترتفع إلى عشرين ، فإن معظم من تتركز أسماؤهم في هذه الروايات منفيون أصلاً ، ومن أشهرهم معاذ بن جبل ، أبي بن كعب ، أبو الترداء ، وزيد بن ثابت .

ومحال أن يكون ذلك مصادفة ولا من صنع الروايات على أي حال ، فلا شك في أن الدين الجديد قد استطاع أن يجد في بيئة المدينة ذات الثقافة المتأصلة سواء كانت ثقافة عامة أم دينية ، الأفراد المتقنين القادرين على أن يفهموا كتابة المقدس ويحفظوه ويمنجلوه . ولسنا نستبعد أن يكون هؤلاء القراء هم للصورة الإسلامية لرجال الدين لليهودي الفاتمين على حفظ التوراة^٤ .

كان هؤلاء القراء مستبشرين مرتين مخلصين بمسجبيون للدعوة الإسلامية النقضية الثائرة ، فإذا بالنبي (ص) يتخذ منهم طليعة فكرية يدعون للإسلام ، ويشيرون به ، ويقرأون كتابه ، وينقون تعاليمه .

بعد أن يسلم الفرد كان عليه أن يحفظ شيئاً من القرآن ، ويتعلم كيف يصلي ويصوم ويؤدي الزكاة ، ويعرف ماذا يحل له ، وماذا يحرم عليه ، وكان النبي يتولى بنفسه الجانب الهام فقرئ المسلمين للجند للقرآن ويعلمهم الدين .

فلما كثر المسلمون وتباعدت بينهم الديار لم يجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكفأ من القراء يمثلونه في ممارسة هذا العمل . وكان عبد الله بن مسعود من أوائل من ألقى القرآن بين الناس ، وكتب أهل المدينة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد العقبة الأولى أن " ابعث إلينا رجلاً يفقهنا في الدين ، ويقرئنا القرآن ، فبعث إليهم مصعب بن عمير الذي

^١ - هو أشهر باسم القارئ وهو أحد من جمعوا القرآن في عهد النبي في زاوية الكوفيين واستشهد يوم القادسية ١٦ هـ .

^٢ - سورة آل عمران ١ : ١٣٤ .

^٣ - هو أحد أولي من أسلموا من بني عطيبة الذي تطوع لقتل الشاعرة الفاتكة عصفاء بنت مروان .

^٤ القرآن وعلمه في عصر الدكتور عبد الله حورشيد البري ص ١١٢ .

كان يأتي المدنيين في دورهم وقبلانهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان ، حتى ظهر الإسلام وفشا في نور الأنصار كلها تقريباً ، ثم كان مصعب يقرنهم للقرآن ويعلمهم .

ومنذ أن كان المهاجرون الأولون من مكة ، قبل خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ظل سالم مولى أبي حذيفة - ذلك المسلم الاضطخري الذي لم يعرف له نسب - يؤمهم في الصلاة حتى بلغوا المدينة - لا شيء إلا لأنه أقراهم ، أي أكثرهم قرأناً ، فقد كان رابع أربعة أمر النبي المسلمين أن يأخذوا القرآن منهم .

وفي المدينة كان أبي بن كعب ، الذي شهد له النبي بأنه أقرأ أمته ، والذي كان النبي نفسه يقرأ عليه ، من خيرة الصحابة استعداداً لتعريف من يدخلون حديثاً في الإسلام - عن طريق التعليم - بنجوم الوحي للقرآني .

ولقد تقلد على يده كثيرون من المسلمين الجدد ليصبح من أعظم المعلمين مقاماً في أقدم طبقة إسلامية^١ .

وفي السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أحد مباشرة قدم على النبي جماعة من قبائل عضل فقالوا " إن فينا إسلاماً فابحث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام . فأرسل معهم النبي عشرة أو ستة من أصحابه لا بد أنهم كانوا قراء ، غير أن رجال القبائل غدروا بهم وقتلوه عند ماء لهذيل بناحية المجاز يعرف باسم " الرجيع"^٢ ، وبعد حوالي ثلاثة أشهر تعرض القراء لكارثة مماثلة عند بئر في الجبال ، الطريق من المدينة إلى مكة تعرف باسم بئر معونة ، وذبحهم جميعاً إلا واحداً .

لقد حزن النبي على استهدافهم أشد الحزن ، ومما يروى أن النبي (ص) ظل شهراً كاملاً يقنت في صلاة للصباح على قتلة هؤلاء الشهداء فكان ذلك بدء القوات .

^١ جوسزيفر : مذاهب التفسير .

^٢ - ابن هشام : السيرة - ٢ : ١٦٩ . ابن سعد الطبقات ج ٢ ف ٢٩ ، ج ٢ ف ٢ : ٢٣٣ .

وليس غريباً أن يحزن النبي هذا الحزن الشديد لهذه الكارثة التي أودت بحياة العدد الكبير من المعلمين الممتازين^١.

ولمّا كان القوم يؤمّمهم أكثرهم قرأناً ، فقد كان معاذ بن جبل مع النبي ، ثمّ يجيء فيؤمّم قومه ، ولمّا خرج للنبي في السنة الثامنة للهجرة إلى حنين خلفه بمكة بفقه أهلها ويقرّئهم القرآن ثقة منه في علمه ، واطمئناناً إلى حسن معرفته بالدين ، بل إن النبي أراد أن يرسل إلى أهل اليمن المثقفين معلّماً يعلمهم الدين الجديد ، ويقضي بينهم لم يجد خيراً من معاذ الغزالي الشاب العالم فأرسله إليهم على رأس وفد في السنة التاسعة للهجرة مع كتاب يقول فيه لليمنيين بأنّه قد أرسل إليهم من خير أهلهم أكثرهم علماً وديناً^٢.

ولمّا قدم وفد ثقف على النبي في السنة التاسعة للهجرة طلب من النبي أن يجعل عليهم أميراً ، فلم يتردّد في تأمير عثمان بن أبي العاص على صغر سنّه قائلاً :
"إنه كئيب ، وقد أخذ من القرآن صدرأ ، ومنذ تلك اللحظة ظل عثمان يحكم أهل الطائف ويصلّي بهم ويقرّئهم القرآن"^٣.

ويُعَدُّ فردة بن مسيب مثلاً آخر للقارئ الذي ولي الحكم ، فقد امتنع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مراد وزبيو ومذحج كلها بعد أن قدم عليه سنة ١٠ هـ فأسلم وتعلّم القرآن وفرأى الإسلام وشرائعه^٤ ويوضّح الكتاب الذي كتبه النبي لعمر وابن حزم بتولّيته على بني الحارث بن كعب بنجران سنة ١٠ هـ الواجبات التي كان النبي يكلف بها عماله القراء إتقانها ، ومن أهمّها : تبشير الناس بالخير وأمرهم به - تعليم الناس للقرآن وتفهّمهم فيه - نهى للناس فلا يعمد للقرآن إنسان إلّا وهو طاهر - إخبار الناس بالذي لهم والذي عليهم -

^١ أمّا لا ننس ماكّه بتشكك في هذه الرواية في دائرة المعارف الإسلامية مادة عمر معونة ١ : ٣٨٦ رغم تأكيد على صحة الرواية تاريخياً . يرى أنّه ليس من حاحّة تطلب سبيل غارثاً لصحيف القرآن . وليس في المدينة من ذلك العدد . وكان النبي يرسل غارثاً لم الذين فقد في مثل هذه الأحوال ، ويقول بأنّها كانت حملة عسكرية تتكرّر من حين فارتاً من الأنصار أرسلهم النبي ليتحدّوا في السرايا بين الرعيين التائبين أي براء عامر بن مالك الذي كان سيّد بني عامر بن صعصعة ، وعامر بن بطيخ الكلبي ، فقدرهم هذا الأمر الذي أصبح لغة الروايات منذ ذلك الوقت ، ثم اخترع المحدثون هذه القصة لشميلة تلك الحملة التي حرّتها شريق ، وحنّ كانت أشدّ ما يتلّى به النبي بعد أحد ، ولآيات كثيرة عدد القراء وشجّة قديمهم وإسراع تنقاسه عليهم . ولكن كلّ هذا التقدّ لا سعي اشترك القراء في هذه الحملة ، وهو ما بهتة .

^٢ - سيرة ابن هشام : ٥٩/٦ .

^٣ - ابن هشام : السيرة - ٢٠ : ٥٣٧ .

^٤ - ابن هشام : السيرة - ٥٨٣ - ابن سعد : الطبقات - ٥ : ٥٨٣ .

تبصير الناس الجنة وبعلها ، وإنذارهم وعملها - استتلاف الناس حتى يفقهوا في الدين -
تعليم الناس معالم الحج ومنته وفرائضه - تعليم الناس الوضوء والصلاة - أخذ خمس الله من
التمائم ^١ . فالمرئى كان إذن شخصاً مستتيراً مخلصاً ، متحسناً .

القرآن القادة :

ويسبب ذلك عهد إليه النبي وظيفة التوجيه والقيادة ، فهو داعية ومعلم وإمام وحاكم .
فالحكم كان يستند لأهل العلم والفضل بالمعقيدة .

وحين بدأت الدعوة الإسلامية بالكفاح الإيجابي الممنوح في المدينة كان على القارئ أن
يحمل السيف في نفس الوقت الذي ينحني فيه فوق القرآن ، فإذا بالقارئ معلّم ومحارب .

كان لواء المهاجرين في يوم بدر مع مصعب بن عمير ^٢ ، وحمل اللواء في معركة
أحد أيضاً ^٣ وظل متشبّثاً به بالرغم من ضربه بالسيف وطعنه بالرمح حتى قتل وهو يردد :
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران : الآية -
١٤٤ ، فتأثر النبي لمصعب وهو صريع على وجهه في التراب فوق يتلو :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ الأحزاب : الآية - ٢٣ ، ثم قال : إن الرسول يشهد أنكم الشهداء
عند الله يوم القيامة ^٤ . ومثلما كان القرآن ميزة لحافظه في الحياة استمر كذلك عند الموت ،
ذلك بأن النبي أمر عند دفن شهداء أحد بتقديم أكثرهم قرأناً .

ومن مشاهير القراء الذين شهدوا المشاهد كلها مع النبي ، أي خاضوا إلى جانبه جميع
المعارك كان : معاذ بن جبل وسعد بن عبيد وعبد الله بن مسعود .

^١ ابن هدم : السيرة - ٢ : ٥٩٤ - ابن سعد الطائفة ج ٣ ف ١ : ٨٥ حصلت هذه الغزوة في السنة الثانية للهجرة في سنة ٣ للهجرة.

^٢ - ابن سعد : الطائفة - ج ٣ ف ١ : ٨٥ حصلت هذه الغزوة في السنة الثانية للهجرة .

^٣ - في سنة ٣ للهجرة .

^٤ - ابن سعد : الطائفة . ج ٣ ف ١ : ٨٥ .

وكان للقراء أثر حاسم في تحويل هزيمة حنين المبدئية في السنة الثامنة للهجرة إلى نصر ، فعندما كان المسلمون يفرون منهزمين نادى مناد [يا أصحاب سورة البقرة] . فثبيل هؤلاء الذين يحفظونها بسببهم كلهم تشهب ، فهزم الله المشركين .

٢. في العهد الراشدي :

ما أن نحق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى حتى ظهرت في الأفق حركة مضادة ذات طابع ديني مزيف . وقد عرفت تلك الحركة باسم الردة في أولئك الأنبياء الكذبة الذين اخترعوا قرأناً جديداً . ورد على لسان مسيلمة في معارضة القرآن وانتهاج خطته قوله :

" يا ضفدع نقي ننقن ، فلا الماء تكثرين ولا الشارب تمنعين " ^١ .

وكانت معركة البماة في السنة الحادية عشرة للهجرة بين بني حنيفة قبيلة مسيلمة الكاذب وبين المجاهدين المسلمين .

لقد استمات القراء في هذه المعركة . يروى أن أحد القراء كان هدفه السدائم في المعركة : يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعل ، ثم هجم على الأعداء واستشهد ^٢ . وقتل عبد الله حفص بن غانم صاحب الرواية فليتموها لقارئ اسمه سالم بن عبد الله فقال لهم على فورهم بوعي وإيمان : ما أعلمني لأي شيء أعطيتونيها ! قلت : صاحب قرآن ، وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات . قالوا : أجل ، فانظر كيف تكون . فقال : بنس والله حامل القرآن إنه لم أثبت وكاد المسلمون ينهزمون لو لا انسحاب القراء وتكوينهم ما يشبه الكتيبة المستقلة ، ولو لا صدقهم في حملتهم وقتالهم العنيف ، كانوا يتنادون خلال هجمتهم : " يا أصحاب سورة البقرة " وكانوا يذكر بعضهم بعضاً بمسؤوليتهم كقراء ، وكان النصر الكبير بفضل حملة القرآن وحفظته ، لكنهم دفعوا الثمن غالياً . فقد استشهد منهم سبعون وفي رواية خمسمائة ^٣ .

واتجه المسلمون بعد حروب الردة إلى خارج الجزيرة حيث كانت الفتوحات للتبني شارك فيها كثيرون من القراء ، واتسعت رقعة البلاد بالفتوحات ، وانتشر القراء في الأمصار يعلمون الناس ويقرئونهم القرآن ، كانوا يجمعون الناس في المساجد أيام الجمع ويفقهونهم في

^١ - تاريخ الأوطان لعربي لزيادات ص ٨٦ . وقد ورد أن ابن المقفع وثني وأما العلماء قد سئلوا: هل ذلك .

^٢ - الطبري : تاريخ - ١ : ١٩٤٥ .

^٣ - المصدر نفسه ، ١ - ١ : ١٩٤٥ .

الذين ، وقصد الناس هؤلاء القراء وجلسوا بين أيديهم في حلقات أو صفوف يستمعون إنسيهم ويتعلمون عليهم^١ .

عرفت البصرة في عهد عمر عمران بن الحصين بن عبيد ، وعبد الله بن المغفل ، وعرفت الكوفة عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود^٢ وكان في الشام : معاذ بن جبل وأبو الدرداء . وكان معاذ يجلس في مسجد حمص ودمشق شاباً أكحل العينين ، براق الثنايا ، فيمطّق الناس حوله ، ويقلّون عليه ويستمعون حديثه ، وإذا اختفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه^٣ . ولكن يبدو أنّ معظم إقامة معاذ كانت بفسطاط حيث توفي بالقصير من أرض الأردن بالغور في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ^٤ . أما أبو الدرداء فقد أقام في دمشق ، وكان إذا صلى الغداة يجامعها اجتمع الناس للقراءة عليه فكان يعلمهم عشرة عشرة ، وعلى كل عشرة عريف ، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم ، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء فسأله عن ذلك . وتزعّم إحدى الروايات أنه كان يقرأ عنده القرآن هناك ألف وستماية ونيف^٥ .

وجاء عثمان وعثمان واستفحل الانحراف في عهده ، الأمويون الذين كانوا العهد قريب ينزعون الوثنية أصبحوا للحاشية ، وقد ظهر شرب الخمر في المدينة^٦ . لقي هذا الانحراف معارضة عنيفة من كبار الصحابة وسكان العاصمة وأهل الأمصار .

وكان القراء أول من شرع في مهاجمة هذا الانحراف ، وكان مندوب الثور إلى عثمان في دار الخلافة قارئاً ، وأخذ يجالسه بالقرآن . ومما أخذ الثور عليه عليه صلابة توحيد المصحف حيث أنّ القرآن كان كتباً فتركها إلا واحداً^٧ ، وفي آخر جمعة شهدها عثمان سنة ٣٥ هـ قام إليه رجل من الثور ثلاث مرّات وهو يقول له : أقم كتاب الله ، وعندما وقف

١ - تاريخ العرب نجيب حتى - ٢ : ٢٢٢ .

٢ - ابن سعد : الطبقات - جزء ٣ ف ١ : ١١٠ .

٣ - المصدر نفسه ، جزء ٣ ف ٢ : ١٢٣ .

٤ - المصدر نفسه ، ج ٧ ف ٢ : ١١٥ .

٥ - تروني ٣٢ هـ .

٦ - ابن خوري : غابة : ١ : ٦٠٦ .

٧ - تاريخ الطبري - ١ : ٣٠٢٧ .

٨ - المصدر نفسه ، ١ : ٢١٥٢ .

القرءاء يناقشون وهو محصور في داره كانوا يأخذون حجّتهم من القرآن بما يظهر أنّهم يحفظونه ويدرسونه ^١.

وفي معركة صفّين صرّح أحد القرءاء من جيش أمير المؤمنين (ع) ، أن عثمان "إنما قتله أصحاب محمد ، وأبناء أصحابه وقرءاء الناس حين أحدث الأحداث وخالف حكم الكتاب" .

ونولى أمير المؤمنين الأمر والفتن كقطع لليل المظلم ، ولا ننسى أن بين القرءاء من كان يلتبس عليه الأمر ، ولأنّ بينهم أيضاً من كان إيمانه على حرف ، فإذا باين منجم السذي يروى أنه كان من القرءاء المصريين يقتل الأمير (ع) في غفلة من ليل ليتحوّل الأمر إلى بنسى أمية بعد أن حارب قسم كبير من القرءاء في صفّين إلى جانب معاوية ^٢.

٣. في العهد الأموي :

لم يكن القرءاء - كما يقول بروكلمان - إلاّ أن ينشطوا في مقاومة الحكومة الجديدة للظلمة ، ولم يكن لهم إلاّ أن يحتفظوا بتأثيرهم على الجماهير ونفسوهم في الحياة العامة ^٣ وظلّوا اللسان المعبر عن مخطئ المتكبرين على الحكومة القائمة الظالمة ^٤ وقفوا مع الشيعة عندما ناروا في النخيلة سنة ٦٥ هـ . وفي جيش قطري بن الفجاءة الخارجي [٧٨ هـ] كان هناك - كما تزعم الرواية ثمانية آلاف من القرءاء ^٥.

أما ثورة ابن الأئمت الكبري ضدّ الحجاج [٨٣ هـ] فقد لعب القرءاء دوراً هاماً فيها إذ كانوا أشدّ الناس حماساً ، وأقواهم صوتاً في الاشتراك في الثورة ، وكانوا في كل مناسبة كهذه يظهرون في المقدمة باليد واللسان ^٦.

^١ تاريخ حضري ، ١ : ٣٢٥ .

^٢ - سنة ٣٧ هـ .

^٣ تاريخ الشعوب الإسلامية : ٢ : ٤١ .

^٤ - فهدوزن : تاريخ الدولة العربية : ٦٠ .

^٥ - فهدوزن : الخوارج والشيعة : ١٩٤ .

^٦ - انصهر نفسه ، ١٠٦ .

^٧ - فهدوزن : تاريخ الدولة العربية : ٢٣٥ .

من مشاهير القراء الذين اشتركوا في هذه الثورة أو استشهدوا للتابعي الكوفي العالم الزاهد عبد الرحمن بن أبي ليلى^١ والتابعي البصري أبو الجوزاء الزبيري^٢ والتابعي المدني عبد الله بن شداد بن الهاد اللبني^٣ ، وقد قتل هؤلاء جميعاً في الثورة سنة ٨٣ هـ . وكان هناك القارئ القاصد النبليخ ذر بن عبد الله الهمداني^٤ والفارسان الكوفيان الكبيران : عامر بن شراحيل الشعبي^٥ وطلحة بن مصرف^٦ .

ولا شك أن أهم من اشترك في هذه الثورة من القراء كان التابعي الكوفي العالم الزاهد الفاضل سعيد بن جبير الذي قتله للحجاج سنة ٩٤ هـ . هذا الشائر الذي كان يقول لزملائه يوم دير الجمجم وهم يحاربون " قاتلوهم على جورهم في الحكم ، وخرجهم من الدين ، وتجزئهم على عباد الله ، وإمامتهم الصلاة ، واستدلالهم المسلمين " . هذا وقد كان القراء على رأس عامة المؤمنين في ثورة يزيد بن المهلب في البصرة سنة ١٠١ هـ^٧ .

أما في مصر فقد كان عقبة بن عامر الجهني عاملاً مائلاً لمعاوية رغم كونه فارساً ، ورفض عبد الله بن عمرو بن العاص مبايعة يزيد بادئ بدء ثم بايعه أخيراً . وتخلّى القراء طيلة الحكم العباسي عن موقفهم الثوري ، وزكّنوا إلى النشاط العملي ، وأصبحوا كالقضاة والفقهاء يتمتعون بنفوذ أبيي يستمتون من صفته العملية الدينية لتبدأ مرحلة جديدة هي مرحلة الاحتراف .

❖ تاريخ القراء المحترفين :

١ . العهد الراشدي :

ولعل الاحتراف بقراءة القرآن يعود بجذوره إلى العهد الراشدي . لقد شرعت القراءة تميل إلى الحرفة والتكسب .

^١ - ابن سعد قطيقات ٦ : ٧٧٠ .

^٢ - المصدر نفسه ، ج ٧ ف ٦ : ١٦٢ .

^٣ - المصدر نفسه ٦ : ٨٦ .

^٤ - المصدر نفسه ٦ : ٢٠٥ .

^٥ - المصدر نفسه ٦ : ١٧٢ .

^٦ - المصدر نفسه ٦ : ٢١٥ نوي ١١٢ هـ .

^٧ - المصدر نفسه ٦ : ١٨٣ .

^٨ - فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ٣٠٦ .

وتوقع أمير المؤمنين (ع) أن يحرم القراء الأجر يوم القيامة لأنهم يتقاضونه في الدنيا فعلاً في صورة منافع مادية وتقدير أدبي^١.

ويروي أن عمر كان يلاحظ هذه الظاهرة وأن بعض القراء أصبحوا يريدون الدنيا بالقراءة ، فكان له قوله في إحدى خطبه الواعظة^٢ :

" ألا فأريدوا الله بأعمالكم ، وأريدوه بقراءتكم " . وكان لعمر شك حول أبي بن كعب في أن يكون قد تقاضى أجراً من الشاميين الذين جاءوا إلى المدينة يكتبون مصحفاً لهم ، ولكن أبياً نفى ذلك بشدة^٣.

ولئن كان لعمر هذا الإرتياب في أبي فقد أخطأ الظن ، أبي هو من الصائقين الموثوقين المجاهدين ، ولطالما قد نفى أبي بهذه الصورة ، فلا مدعاة بعد ذلك للوقوف عند هذه الشكوك .

٢. الأموي :

من المتيقن أن الاحتراف بالقراءة قد كان واضحاً في أواسط القرن الأول الهجري .

ولقد وجد من يسول في هذا العهد بالقرآن في طرقات البصرة^٤ وهاجم الشاعر ذو الرمة^٥ للقراء المحترفين بعنف حين قال : " هم اللصوص وهم يدعون قرأء " .

وفضاً الاحتراف فشوراً عجبياً في القرن الثاني . وجاء عيسى لسان الحسن البصري^٦ ما يؤكد أن من القراء من اتخذ القرآن بضاعة ينقله من مصر إلى

^١ - الغزالي : إحياء - ١٠ : ١٣٠ .

^٢ - ابن عبد الحليم : فترج مصر : ١٦٧ .

^٣ - السجستاني : المصاحف : ١٥٧ .

^٤ - الأجري : أخلاق حملة القرآن ١٠٦ .

^٥ - جولدزيجر : معيضة : ٧١ ، توفي الشاعر ١٠١ هـ .

^٦ - توفي ١١٠ هـ .

مصر يطلب به ما عند الناس^١ . وطلب ميمون بن مهران الزاهد^٢ وألح في الطلب من القراء ألا يتخذوا من القرآن وسيلة كسب في الدنيا^٣ .

وكان للحافظ عبد الله بن المبارك^٤ تنديد شديد اللهجة بأولئك القراء الذين يقصنون بغداد العاصمة حيث الثروة :

أيها التنمك الذي ليس الصو
ف ، وأضحى يُعذُّ في العباد
إلزم التغر والتعبد فيه
ليس بغداد مسكن الزهاد
إن بغداد للملوك محل
ومناسخ للفسائر السعيات^٥

ورسم المحدث الكوفي عيسى بن يونس السبعي أخلاقية القارئ حين قرز بأنه ينبغي على القارئ ألا يتأكل بالقرآن ، ولا يقضي حوائجه به ، ولا يجالس الأغنياء به ليكرمه .

٣. العهد العباسي :

واشتدت ظاهرة الاحتراف في هذا العهد ، وتكالب القراء على المادة وضُمعوا في الدنيا مما أدى بهم إلى اندراف في الملوك خطير وإلى سوء في الخلق فاحش . ولعل كل باحث في القراءة والقراء في هذا العهد لم يكن له إلا أن يسجل هذه الظاهرة البشعة .

وصف الصوفي المصري ذو لقون القراء في أوائل القرن الثالث بأنه قد غلب عليهم التهاون بالذنوب ، وأقبلوا على أكل الحرام ، وأنهم عبيد الدنيا لا علماء الشريعة ، واتخذوا من العلم شبكة يصطادون بها الدنيا^٦ .

ورأى الأجري في القرن الرابع^٧ أن القارئ في عهده لا يريد الله عز وجل بقراءته لأنه اتخذ القرآن بضاعة يتأكل به الأغنياء ، ويستغني به الحوائج ، ويعظم أبناء الدنيا ،

١ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ٤ : ٢٤٠ .

٢ - توفي ١١٧ هـ .

٣ - السمعاني : الضعفات ١ : ١٤١ .

٤ - توفي ١٨٠ هـ .

٥ - الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١ - ٦ : ٦١ .

٦ - توفي ٢٤٥ هـ .

٧ - توفي ٣٦٦ هـ .

ويحقّر الفقراء ، إن علم الغني رفق به طمعاً في دنياه ، وإن علم الفقير زجره وعنفه لأنّه لا دنياه له ، وإن كان حسن الصوت أحبّ أن يقرأ للملوك ويصليّ بهم طمعاً في دنياهم^١ ويكره المقدّسُ الرخالة^٢ القراء الذين قابلهم لأنهم ذوو طمع وسوء نية^٣ . ومن معاصري القراء الذين سجلوا عليهم مخطّأتهم وانحرافاتهم : المزيّ المقطبي^٤ والشمعي^٥ وشعبة بن الحجاج المحدث البصري^٦ والفضيل بن عياض^٧ وعبد الله بن وهب^٨ وذو النّون المصري^٩ والأجري^{١٠} .

❖ أخلاقية القراء في هذا العهد :

- انتماس في الترف الذي يظهر في غلظ الرقاب ، ورقة الثياب ، والمثَره في الطعام^{١١} .
- القراء أصحاب غُجب وتكبر وازدراء للعامّة ، إن أحبّوك مدحوك بما ليس فيك ، وإن غضبوا شهدوا عليك زوراً ، وقيل ذلك منهم ، كما أن الغيبة فاكتهتهم^{١٢} .
- منع عبد الله بن وهب شهادة القارئ على القارئ لأنهم أشدّ الناس تحاسداً وتباغضا^{١٣} .
- غرق القراء في شهوة بطونهم وفروجهم ، ولبسوا الثياب على قلوب الذناب^{١٤} .
- أصبح الشيطان يلعب بهم كما يلعب الصبيّ بالجوّز^{١٥} .

^١ - منز : الحسارة - إلامية ١ : ٧٣ .

^٢ - نزل ٣٧٨ هـ .

^٣ - الأجري : أحلاق : ١١ - ١٢ ط .

^٤ - نزل ٢٥٢ هـ .

^٥ - نزل ١١٣ هـ .

^٦ - نزل ١٦٠ هـ .

^٧ - نزل ١٨٧ هـ .

^٨ - نزل ١٩٧ هـ .

^٩ - نزل ٢٤٥ هـ .

^{١٠} - نزل ٣٦٠ هـ .

^{١١} - ابن عسّكر ، دمشق ٧٠ : ١٤٢ .

^{١٢} - الشمراني : طبقات ١ : ٨٦ .

^{١٣} - السبكي : طبقات النعمانية ١ : ١٨٨ .

^{١٤} - الشمراني : الطبقات ١ : ٧٦ .

^{١٥} - مختار شه ١ : ٦٣ .

- الدنيا سخارة قلوب القراء ، تلعب بهم كما يلعب الصبيان بالأكرة ^١ .
وسجل الأجرى على القارئ المعاصر له بأنه تائه ، منكبر ، كثير الكلام
بغير تمييز ، يعيب كل من لم يحفظ كحفظة ، ليس للخشوع في قلبه موضع ،
كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه ، لا يخشع عند استماع القرآن ولا
يبكي ولا يحزن ، أخلاقه في كثير من أمور أخلاق الجهال الذين لا
يعلمون ^٢ .

❖ ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أحاديث في القراء المحترفين
على سبيل التنبيه :

سيخرج قوم ' يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، ويمرقون من الدين مروق
المه من الرمية ، بالرغم من أن صلاتهم وصيامهم وأعمالهم على درجة
عليها من الإقتان ^٣ .

- بعض الأفراد سيقبلون على تعلم القرآن لمجرد التباهي ^٤ .
- القراء يشكلون الجزء الأكبر من منافقي الأمة الإسلامية ^٥ .

وهناك أحاديث تقول بأنهم سيحلون شعورهم ^٦ وهناك أحاديث تأمر بقتلهم لأن من
قتلهم له أجر يوم القيامة إلى جانب أحاديث تقضي بأن هؤلاء القراء سيعاقبون يوماً
بأن يسحبوا على وجوههم حتى يلقوا في النار ^٧ وعند البخاري حديث يشبه المنافق
الذي يقرأ القرآن بالريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ^٨ .

❖ صفوة من القراء لم يحترفوا :

رغم طغيان الاحتراف في القراءة ، ورغم فساد أخلاقية القراء فقد التزم نخبة منهم
أخلاقية القرآن ، وعفة المؤمنين المستقلين على الدنيا .

^١ - التبراني : المعجم ، ١ : ٨٢ .

^٢ - أسلاف : ١١ : ١٢ ط .

^٣ - مرة ماثل ، تولى ١٧٩ هـ : ١ : ٢٠٤ . كتاب القرآن ، وروى ابن سعد والبخاري ما يشبه هذا الحديث .

^٤ - ابن سلام تولى ٢١٤ هـ . فضائل : ٢٣ .

^٥ - سعد : ١٠ : ٦٦٢٣ .

^٦ - البخاري .

^٧ - المفرد : الترغيب والترهيب ١ : ٦١ .

^٨ - طبع - ٦ : ٢٤٠ كتاب فضائل القرآن .

وثبت عن أمير المؤمنين (ع) تقريره ونبوءه بأنه بالرغم من أن أناساً سيحفظون القرآن تكتمياً أو تباهياً فسيظل هناك من يقرؤه الله^١ . طلب بعضهم من علقمة بن قيس النخعي القارئ الكوفي^٢ أن يتصل بالأمراء فيعرفوا له فضله ، ولكنه رفض خشية أن يذاتوا منه^٣ أكثر مما ينال منهم .

أرسل بعضهم إلى أبي عبد الرحمن السلمي^٤ إبلاً عظيمة لأنه علم ابنه القرآن فردّها قائلاً : إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً^٥ .

قسم الحسن البصري قراء زمانه في ثلاثة :

قارئ محترف يتخذ من القرآن سلعة ويتجر بها في البلاد ، وآخر يقترب به إلى الحكيم ، ويستطبل به على الناس ، وثالث قرأ القرآن ووضع دواءه على داء قلبه ، فليسهر ليله ، وأظمأ نهاره ، ومنع شهوته ، وتسربل الخشوع ، وارتنى الوفاق ، واستشعر الحزن ، وبفضل هذا اضطرب من القراء يسقي الله الغيث ، وينفي العدو ، وينزل النصر ، وينفع البلاد^٦.

ظل القارئ المشهور حمزة القرطبي^٧ يكره أن يشرب من بيت من يقرأ عليه القرآن الماء^٨ لكن هذا النخبة كانت نادرة وتلاشت فيما بعد .

^١ أبو عبيد : فضائل ٢٣ . الأخرى : أحلاق : ١٠ ط .

^٢ - تولى ١٠٢ هـ .

^٣ - المصدر نفسه ، ٦ : ١٢٠ .

^٤ - تولى ٧٤ هـ .

^٥ - المصدر نفسه ، ٦ : ١٢٠ .

^٦ - من عبد ربه ، المقصد الفريد - ٢ : ٢٤٠ . الأخرى : أحلاق : ٢١ و .

^٧ - تولى ١٥٦ هـ .

^٨ - الأخرى : أحلاق : ٢٠ و .

مرّ معنا في العصر العباسي النشاط في رواية قراءات الذكر الحكيم ، وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعة هي قراءات لقراء :

نافع في المدينة ، وعبد الله بن كثير في مكة ، وعاصم وحزمة والكسائي في الكوفة ، وأبي عمرو بن العلاء في البصرة ، وعبد الله بن عامر في دمشق ، وشاعت في العالم الإسلامي إلى اليوم مدونة بكتابه السبعة الذي مضى العلماء منذ عصره يتدارونه^١ ، وألف كتاباً ثانياً في شواذ القراءات عني بالتعليق عليه ابن جني مسمىً بتعليقه المحقّب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنّه لا تقلّ عن القراءات السبع التي دونها بكتابه قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع شيخ نافع المتوفى ١٣٠ هـ ، ويعقوب بن إسحق الحضرمي البصري المتوفى سنة ٢٠٥ ، وخلف بن هشام البغدادي المتوفى سنة ٢٢٩ . ويضمّ هذه القراءات ، قراءات هي قراءة محيصة للمكي معاصر ابن كثير ، وقراءة الأعمش الكوفي ، وقراءة اليزيدي البصري تلميذ أبي عمرو بن العلاء ، وقراءة الحسن البصري ، وبذلك تصبح القراءات أربع عشرة ، وتنشط العراق في التآليف فيها ، نارة يؤلف في السبع ، وتارة يؤلفون في العشر أو الأربع عشرة . في ذلك كتاب الجامع في القراءات العشر لعليّ بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادي في إحدى عشرة قراءة ، وقد توفي سنة ٤٠٨ ، وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٤٢ ، وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٥٤٥ ، وكتاب المستنير لأحمد بن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ ، وهو أيضاً في القراءات العشر ، وكتاب المذهب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد للخياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ ، وكتاب الإرشاد في العشر للواسطي المتوفى سنة ٥٢١ ، وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ ، وكتاب المبهم في القراءات الثمان سبط الخياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ ، وله كتاب الكفاية في القراءات الست ، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ ، وكتاب الكنز في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ ، وله كتاب الكفاية ، وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية ورويتها ، وكذلك لمعاصره أبي الحسن عليّ لديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ ، قصيدة مماثلة للشاطبية ،

^١ هذا الكتاب نشر في دار المعارف .

وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر ، وترجم لأصحابها في كتابه ' غاية النهاية ' في طبقات القراء^١ .

وهكذا منذ انتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني ، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة ، وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره . وظلّت قراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره . وظلّت قراءة كل منهما تتداول في بلدته ، وينقلها جيل من القراء إلى جيل . وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيى المكي المتوفي سنة ٣٤٤ ، وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة والمتوفي سنة ٣٧٢ ، ويكتظّ كتاب المقدّمين بترجم كثير من القراء في مكة والمدينة ، وكانت دارين للقراءات وعلوم الشريعة .

لقد اهتمّت اليمن أيضاً منذ القديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرة موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراءات السبعة ، قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها في اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد^٢ بن الحسن الغايثي المتوفي سنة ٤٥٨ ، وكان عالماً بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها للقراءات التي أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة ، وعليه تفقه يحيى بن أبي الخير الماز ذكره ، ومن أعلام القراء أيضاً مئمن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شدّاد البرعي بن أبي بكر للزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزييد لقرأ بها زمناً وسمع الحديث . توفي سنة ٧٧٠ هـ وخلفه أحمد بن محمد الأشعري العبدلي شيخ زيد في القراءات . ويقول ابن الجزري : لما دخلت اليمن لازمني كثيراً ، وسمع مني نصف كتاب النشر وكتباً أخرى . ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر^٣ .

ومعروف ابن الجزري في القراءات ، ولا شك أن اليمن أفادت منه كثيراً . وهذا النشاط في القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية ، وجميع البلدان اليمنية^٤ .

^١ - انظر في الكتب السابقة وأصحابها ، النشر في رقم ١١ ، وستان المحدثين لعمد العمري المصوري ٣٦٦ ، القراءات العشر لابن

الجزري ص ٢٩٤ ، والشمس الزهرية ١٣٨/٤ ، والمواعيد البهية ١٢٧/١ - ٧٤ - ٩٥ .

^٢ - راجع ترجمة في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ .

^٣ - غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري .

^٤ - راجع شوقي ص ٢١ في كتابه عصر الدول والامارات ص ٣٠٥ دار المعارف .

الاهتمام بالقرآن ورعايته والاعتناء به

واهتم المسلمون بالقرآن أي اهتمام ، ورعوه حق الرعاية ، إقراء القرآن أول ما عمد إليه النبي في إبلاغ دعوته الكبرى .

لقد كنّ رسل النبي إلى الأقطار ومختلف الجهات أول عمل ينهضون به هو إقراء للناس القرآن .

من جملة ما كلف النبي ابن حزم حين وجهه إلى اليمن " أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه " ^١ .

لقد كنّ الرجل من المسلمين إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن ^٢ .

ولما فتح النبي مكة خلف عليها معاذ بن جبل بقرئهم القرآن ويفقههم لقد جاء جماعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فطلبوا منه أن يرسل معهم رجلاً يعلمونهم القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء ، ولقد سمى النبي أهل القرآن ، " أهل الله وخاصته " ^٣ ، وقال : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " ^٤ .

وكنّ النبي يعلي مرتبة أصحاب القرآن إذ يقول إنهم يكانون يحوزون في صدورهم ما حاز الأنبياء لولا أنهم لا يتلقون الوحي .

فالنبي كنّ يؤثر أهل القرآن بإمامة الصلاة حيث يقول :

" يؤمّ القوم أكثرهم قرأناً ، فإن كانوا في القرآن واحداً فأقمتهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة واحداً فأقمتهم فقها ، فإن كانوا في الفقه واحداً فأكبرهم سنناً " ^٥ .

وكما أن الناس متعبدون باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ، فهم متعبسون بتلاوته وحفظ حروفه " ^٦ ، " وأفضل العبادة قراءة القرآن " ^٧ . ويقول صلى الله عليه وآله وسلم

^١ - من همام ، السيرة ج ٤ ص ١٠٥ .

^٢ - مسلم . الجامع الصحيح ج ٦ ص ٤٥ .

^٣ - روضة ابن مائة وأحد من حديث أنس .

^٤ - البخاري في صحيحه .

^٥ - أنظر أحكام السابري : المستدرک ج ١ ص ٥٥٢ .

^٦ - ابن الجوزي النشر ج ١ ص ٣٨ .

^٧ - شاوي : جيب التذکر ج ٦ ص ٤٤ .

للماهر بالقرآن مع السفرة^١ الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع^٢ فيه وهو عليه شاق^٣ له أجران^٤ أي أجر القراءة وأجر المشقة .

فالقرآن محفوظ في التصور والسطور - لا يغسله الماء * كما جاء في حديث قدسي أي أن محوه عن الصحف بالماء لا يؤثر فيه ولا يزيله .

لقد عنى المسلمون بالقرآن عناية لم يظفر بها - على مدى التاريخ - أي كتاب سماوي أو غير سماوي . ولعل من مصانيق هذه العناية هذه الأعداد الضخمة من الكتب الجنبلة التي خدمت علوم القرآن منذ أقدم القرون الإسلامية ، وهذه البحوث والفنون التي كان للقرآن دائماً موضوعها^٥ . من صنوف هذه العناية بالقرآن :

١ . عناية القراء بضبط لغات القرآن ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعند سجداته ، وحصر الكلمات المتشابهة ، والأيت المتماثلة^٦ .

٢ . واشتغل النحاة بالمعرب منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وتكلموا في الأسماء وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم والمتعدي ، ورسوم خط الكلمات ، وتوسعوا في شواذه ، حتى لقد أحصوا منها - فيما قيل - ثلاثمائة ألف بيت من الشعر . يقول مصطفى صادق الرافعي تعقيباً على هذا :

" ولعمري أليك إنها لمعجزة في فنها " وبلغ من عناية بعضهم من أعربه كلمة كلمة .

٣ . والتفت المفسرون إلى ألفاظه وإلى معانيه ، فأوضحوا الخفي منها ، وخاضوا في ترجيح المعاني التي يختارونها للألفاظ ، وقد ذكر " حاجي خليفة " من تفسير القرآن وكتب معانيه ومشكله ومجازه وغريبه ولغاته وقراءاته ، ذكر من هذا بعض ما عرف في زمنه ، فبلغ ما ذكره مئات كثيرة^٧ .

^١ - يعني في سائر الملائكة .

^٢ - يردد في تلاوته كشأن حفظه .

^٣ - غلا عن السهومي : الامتحان ج ٢ ص ١٢٦ .

^٤ - بحسب القرآن هـ ص ١١٩ .

^٥ - كشف عشقون عن أسامي الكتب والعشرون ص ٤٣ .

٤. واتجه الأصوليون إلى القرآن يستنبطون مما فيه من الأئمة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية علم أصول الدين كما يستنبطون منه أحكام اللغة : من الحقيقة والمجاز ، والتخصيص ، والإخبار ، والنسب ، والظاهر ، والمحتمل والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهي ، والنسخ إلى غير ذلك من الأقيسة ، واستصحاب الحال ، والاستقراء .

٥. وتخصص علماء الفروع في أحكام الضر والفكر فيما نفي القرآن من الحلال والحرام ، وسائر الأحكام .

٦. وأخذ أهل التاريخ والتقصص من معين القرآن تاريخ الأمم الخالصة ، وقصص القرون السالفة .

٧. واعتمد الخطباء والوعاظ - في وعظهم - على ما في القرآن من الوعد ، والوعيد ، والتخدير ، والتبشير ، وذكر الموت ، والمعاد ، والحرش ، والحسب ، والعقاب ، والثواب ، والجنة ، والنار .

٨. وأقام علماء الفرائض علمهم على نصوص القرآن وشروحها .

٩. كما استخرج أصحاب علم المواقيت قواعد علمهم من آيات القرآن .

١٠. وكذلك استنبط البلاغيون علوم المعاني والبيان والبديع من نظهرهم إلى ما في القرآن من جزالة اللفظ ، وبديع النظم ، وخمن السياق ، والمبادئ والمقاطع ، والمخلص ، والنثوين في الخطباء ، والاطناب ، والإيجاز أو غير ذلك .

١١. ومن معاني القرآن ، وقائمه أخذ الصوفية مصطلحات فهم ، وقبسوا أنوار طريقهم . فالقرآن في كل بلد إسلامي هو دستوره الحي الأصل .

ليس لمعتز أن يقول بأن القرآن هو لعصره لا للأعصر الحديثة ، لأن القرآن منهجا خاصا في تقرير الأحكام ، فهو يضع بما يسائر روحه ويناسب وجهته - الأصول الكلية ، والمبادئ العامة - ثم يدع للسنة تفسير هذه الأصول والمبادئ ، ويدع للأئمة والمجتمع تطبيقها بما يكفل مواجهة ظروف الحياة المتجددة ، ومطالب الأزمنة والبيئات المتغيرة .

"وليس يصعب على أهل القرآن إذا عرفوا الأشياء ، ورجعوا إلى أعراف الناس ، وانتفعوا بالاستدلالات ، والتقرينات ، وسائر قوانين الاستنباط ، مما عني به علم الأصول ... ليس يصعب - إذا فعلوا ذلك أن يستخلصوا من أي الكتاب ، ومن السنة الشارحة ، ومن

١ - راجع كتاب مجمع العرفي الأول للفرز هكريم ، ليب السعيد ص ٦٩ .

تطبيقات الأنسة والسلف : مبادئ مثالية على الدوام ، توائم أحوالهم ، وتحقق مصالحهم ، وإن يطبقوها متميزين ، أخذين من كتابهم : نصوصه وروحه ، مسيعين ما يأخذون ، منبوعين غير تابعين ^١ . واهتم المسلمون بتعليم أولادهم القرآن قراءة وحفظاً .

إن تعليم القرآن هو من شعارات الدين ، أخذ به المسلمون ودرجوا عليه في جميع أوصافهم وجعلوه أصل كل تعليم عندهم .
فالقرآن مطلوب للحفظ لفظاً ومعنى ، بل إن فهم المعنى ، والأخذ به لا يكون إلا عن طريق تلاوة الألفاظ أو استماعها ، ثم تدبرها والتفكير بها .

إن الإسلام أوجب على كل مسلم أن يحفظ شيئاً من القرآن حتى تصح صلاته ، والصلاة في الإسلام هي أحد أركانه .
فالأخبار التعليمية عند المسلمين تفيد أن كثيرين حفظوا القرآن في سن مبكرة ، لقد ذكر أن جلال الدين السيوطي حفظ القرآن وله دون ثمان سنين ^٢ .

واختلفت مذاهب البلاد الإسلامية في طريقة تعليم القرآن للصبي ، ولكنها ترمي إلى التمكن منه ، وسنوا للمحفظين أدباً ، ورسموا لهم مناهج وشرطوا فيهم شروطاً . فالبلاد الإسلامية - على مسار الزمن - وجيلاً بعد جيل - ما برحت تنتشئ في مدائنها وقراها ألووف الكتاتيب والمدارس القرآنية .

إن تعليم القرآن والبدن من أجله من أول وسائل للتقرب إلى الله ، لذلك وصف أنبياء المسلمين التمكن من أموالهم على هذا التعليم .

وما برح القرآن يرتل في المحارب ، والمحافل ، وفي مناسبات كثيرة ولا من فرق بين الرجال والنساء عند المسلمين في الاهتمام بحفظ القرآن وتلاوته وتدبر معانيه . لقد عرض ابن الجزري السيرة العلمية لابنته سلمى ، فذكر ضمناً أنها " عرضت للقرآن حفظاً بالقرءات الخشر قراءة صحيحة مژودة مشتملة على جميع وجوه القراءات ، بحيث وصلت - في الاستحضار - إلى غاية لا يشاركها فيها أحد في وقتها " ^٣ وفي القصص العربي ما يؤيد إمكان وجود الجارية المسلمة بالقراءات . فالجارية " تؤد " من أشخاص ألف ليلة

^١ - المسند المرفق ، لب المسند ص ٣٠ .

^٢ - السيوطي : مس الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ١٤٠ ، المطبعة النصرية .

^٣ - غاية النهاية ، ج ١ ص ٢٦٠ .

وفيلة تفخر بأنها تقرأ القرآن بالمسبح وبالأربع عشرة ومما رونه السنة أن تعليم المرأة شيئاً من القرآن يصح - في الإسلام - أن يكون مهراً لها^١.

والمكفوفون من المسلمين: هم لاعتبارات دنيوية، فضلاً عن الاعتبارات الدينية - من أشد الفئات حاجة إلى حفظ القرآن وتجويده، وقد جرى المسلمون فعلاً على هذا، منذ قديم، فظهر في أغلب البلاد الإسلامية حفاظ وقراء ومقرنون كثيرون من المكفوفين^٢.

وقد ذكر ابن رهب الحنبلي الذي عاش في القرن الثامن الهجري، عن أحد أئمة المساجد في بغداد، أنه كان معنياً بتعليم العميان القرآن، فبلغ عدد من أقرأهم القرآن منهم سبعين ألفاً^٣.

إن طريقة التلقين الشفهي هي الطريقة المثلى لتعليم القرآن، ولكن المبصرين يضيفون إليها طريقة الحفظ من المصحف المكتوب، أما المكفوفون، فالتلقي الشفهي هو طريقهم الوحيدة.

فمن أجل تعميم ونشر القرآن فقد ورد في الأخبار كراهية أخذ الأجرة على تعليم شيء منه، وكذلك على نسخه. ذهب للبعض إلى إباحته لأن فيه منفعة بتعليم القرآن وتعميمه، وحيث أنه يجوز جعله مهراً، فإنه يجوز أخذ الأجرة عليه، إذ لو حرمت الأجرة لحرم جعله مهراً.

إن القراءة في المصحف تعتبر أكثر أجراً وثواباً من القراءة عن ظهر قلب^٤. فالنظر إلى القرآن ليس علة الأجر وسبب الثواب فحسب بل هو وسيلة للاحتفاظ بالمصحف والاعتناء به وربما نسخه^٥.

يقول صلى الله عليه وآله وسلم: "فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً كفضل القريضة على النافلة" إذن قراءة القرآن نظراً هي عبادة من جانب ووسيلة للاحتفاظ به والعناية به من جانب آخر.

^١ - انظر رشيد رضا: تفسير المارح ج ٥ ص ١٩.

^٢ - ابن الحرزي: غاية الشفاء ج ١ ص ١٨ و ٦٥.

^٣ - دلي ضفقات الحاشية ج ١ ص ٩٦.

^٤ - البيان في تفسير القرآن للمعوني.

^٥ - لمحات من تاريخ القرآن، محمد الأشهر ص ٣١٧.

وكان المسلمون يقرأون القرآن تجويداً ، والتجويد هو : إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله ، وتلطيف النطق به على كمال هيئة من غير إسراف ولا تمسك ولا إفراط ، ولا تكلف *^١ .

خير قراءة للقرآن تلك التي تكون أشد تأثيراً في النفس وخشوعاً في الفكر والبصيرة * لا يقرأ العبد القرآن إذا كان على غير ظهور حتى يتطهر *^٢ .

يقول الشاعر الباكستاني الدكتور محمد إقبال :

* إذا أردت أن تفقه القرآن ، عليك أن تقرأ كأنه نزل عليك ، وكذلك أنت الخاطب الرئيسي فيه ، والمعنى به * .

ويقول محمد عبده حاكياً عن نفسه :

* إنني عندما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أنني في زمن الوحي وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ينطق به كما أنزل عليه ، أو نزل به عليه * .

أما عن كتابة القرآن وتدوينه فقد كان ذلك بادئ بدء وجود كثيرين من المؤمنين والصلحين يقرعون لكتابة المصاحف .

* وقد كان البعض من هؤلاء يكتب مصحفاً واحداً أو خمسة أو عشرة في العمر ، كما وتمكن قلائد من كتابة مائة مصحف في حياتهم ، حيث كان الواحد منهم يحتفظ لنفسه بنسخة من هذه المصاحف ، ويقسم البقية كهبة إلى المساجد ودور العلم ومعاهد التدريس طلباً للأجر والتسابغ للثواب *^٣ .

هذا كله يحتاج إلى صبر وأموال لتغطية نفقات الصّرف طيلة سنوات الكتابة والتدوين.

لقد أسهم الخطّاطون الملمّون بثورهم في تجويد القرآن وتحسين خطه وكتابته *^٤ .

وكان العرب قبل الإسلام يكتبون بالخط الحيري - نسبة إلى الحيرة ، وهو الخط الميريثي ثم نشأ عن هذا الخط ما يسمى بالخط الكوفي * أو النبطي . وما أن أطل القرن

* - ساحت في علوم القرآن - ساجد القحّان .

^١ - وسائل الشريعة - الشيخ محمد بن الحسن تهراني .

^٢ - لغات من تاريخ القرآن ، محمد لأشقر ص ٣٢٢ .

^٣ - المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

^٤ - أظهرت لآين الدم .

الخامس الهجري حتى شرعوا يكتبون بخط الثلث حتى القرن الثامن ، ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم يكتبون بالخط النسخي وهو الأجود والأجمل بين الخطوط .

وأصبح القرآن حينئذ يضم كافة النقط والحركات التي لا تزال نستعملها دونما زيادة أو نقصان^١ .

لقد كان أصحاب السلطة وأرباب المال ينفقون المبالغ بسخاء في سبيل اقتناء أندر المصاحف خطأ ، كما وشرعوا بتجليد المصاحف تجليداً فنياً لحفظ الأوراق ، كما أنه كان ابتكار كرسي المصحف لتكون القراءة مريحة أثناء الجلوس ، وكان النقّش في زخرفة هذه الكرسي بالزخارف النباتية والكتابات المختلفة^٢ .

لأجل هذا حفظ القرآن في مكان أمين ونظيف ، في صناديق من الخشب المطعم بالنحاس أو الفضة أو بالزخارف المختلفة حتى أصبحت تحفة فنية يشار إليها بالبنان^٣ ، وكانت المراجعات الكثيرة للمصاحف خشية الخطأ في التكوين ليكون التصحيح .

ومما يروى أنه عثر في إحدى المراجعات على التباس كان قد جرى عند كتابة الآية التالية من قبل الكاتب^٤ : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفنيها وعزني في الخطاب^٥ .

هذا الالتباس ورد عن طريق تقديم الجيم على العين في لفظة * النعجة * الثانية فكانت نعجة ، أما عن طباعة المصحف فكانت مرتبطة بظهور الطباعة .

يروى أن فن الطباعة كان معروفاً في شرق آسيا قبل مدة طويلة من اختراع المطابع خلال القرن الخامس عشر في أوروبا . وقد كان الصينيون في القرن الحادي عشر يستخدمون مطبعة مصنوعة من الخزف الصيني ، كما أنهم طبعوا كتباً للصلاة سنة ٨٩٨ م^٦ . أما المطابع في أوروبا فقد ظهرت في ألمانيا عام ١٤٣١ م . وقد مضى عليها زمن طويل حتى

^١ - تاريخ القرآن لأبي عبد الله الرحمان .

^٢ - المصحف الشريف ، الدكتور محمد عبد العزيز عفووط .

^٣ - المصدر نفسه .

^٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

^٥ - راجع إمامي لكتاب لغات من تاريخ القرآن ص ٣٢٦ .

تطورت ، ثم دخلت بعد ذلك إلى إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وبعد ذلك بفترة طويلة انتشرت في سائر أنحاء العالم .

أول طباعة للقرآن كان في مدينة البندقية بإيطاليا سنة ١٥٣٠ م ، ولكن السلطات الكنسية التي كانت تتمتع حينئذٍ بسلطات ونفوذ مطلق أصدرت حكماً قاسياً يقضي بإعدام نسخها وإتلافها ، وقيل بإحراقها ، وهي لا تزال في العهد ولم ير النور بعد . لذا لم تنتشر منه أية نسخة إلى أي بقعة من أطراف العالم^١ .

وبعد قرن ونصف أي سنة ١٦٩٤ م - ١١١٣ هـ ، تمكنت إحدى المطابع في هامبورغ الألمانية من طبع المصحف الشريف ، وبعد ذلك بأربع من السنين طبع المصحف الشريف في مدينة بارنو في فرنسا . قيل بأن نسخة من نسخ المصحفين هذين موجودة الآن في دواييب دار الكتب المصرية بالقاهرة .

لقد كانت الطباعات للقرآن محدودة لأن هذه الطباعات لم تكن لغاية دينية إنما كانت تطبع هناك نسخ محدودة بقصد الاحتفاظ بها كأثر تاريخي ثمين ، لذلك انقرضت تلك الطباعات من القرآن الكريم .

أما في العالم الإسلامي فكانت أولى الطباعات للقرآن للكريم هي التي قام بها مولاي عثمان في مدينة ليننغراد في روسيا القيصرية عام ١٧٨٧ م ، وظهرت إثرها طبعة تماثلها في مدينة قزان بجنوب روسيا ، ثم طبع للقرآن بعد ذلك طبعة هجرية في طهران عام ١٨٢٨ وذلك في عهد الملك فتح علي شاه القاجاري^٢ .

ثم ظهرت بعد ذلك طباعات عديدة للقرآن في مدينة حيدر أباد الهندية وبعدها في مدينة الأستانة [اسطنبول] عاصمة الخلافة العثمانية عام ١٨٧٧ م ، وعقب ذلك انتشرت طباعة المصاحف في مصر وسائر أنحاء العالم الإسلامي على حال من الإقتان والتوسع^٣ .

^١ - تاريخ الشرق ، محمد طاهر الكردي .

^٢ - ثقافتيون هي معاملة التي حكمت إيران للفترة من [١٧٩٥ - ١٩٢٤] .

^٣ - دحيت المقابع إلى تركيا في عهد السلطان أحمد الثالث ، وقد منع الأمير طبع المصاحف على الرغم من إبقاء منبجة الإسلام بخوار استعمال المصاحف .

لعلّ أجمل الطبوعات الحديثة للقرآن وأدقّها هي التي ظهرت عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م بمصر وبإشراف مشيخة الأزهر ، على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم ، حيث تلقى المسلمون هذه الطبعة بالاستحسان^١ .

وهناك طبوعات دقيقة وأنيقة لمصاحف طبعت في بغداد ودمشق وطرابلس وبيروت وطهران وحيد آباد بالهند .
أحدث هذه الطبوعات هو " مصحف المدينة للنبوية " والذي طبع في المملكة العربية السعودية^٢ .

❖ المصحف المرتّل المجلّد

- معناه : لفظ المصحف بضمّ الميم وكسرها ، والأصل والأشهر هو الضمّ لأنّه مأخوذ من [أصحف] ، أي جمعت فيه الصحف^٣ .
لفظ المصحف هو اسم مجموعة صحائف القرآن مرتبة الآيات والصور على الوجه الذي تلقّاه الأمة الإسلامية من النبي^٤ .

- تسميته : حكى المظفر في تاريخه ، قال :
عندما جمع القرآن قال بعضهم : سمّوه إنجيلًا ، فكرهوه .
وقال بعضهم سمّوه : السّفر ، فكرهوه من يهود .
فقال ابن مسعود : رأيت بالحيرة كتاباً يدعونه المصحف ، فسمّوه به^٥ . هذا اللفظ معرب عن الحبشيّة كما في هذه الرواية حيث دخلت العربية مع اصطلاحات دينيّة أخرى^٦ .

^١ - لمحات من تاريخ القرآن ، محمد الشريف ص ٣٦٩ .

^٢ - انظر منه ، ص ٢٢٩ .

^٣ - انظر : ابن منظور : لسان العرب - مادة ص ح ف .

^٤ - المصحف المرتّل ، ليب سعيد ، ص ٨٣ .

^٥ - انظر : السمرطى : الإقلاق ج ١ ص ٥١ .

^٦ - من اخوانيون والملائك ، والشكاه .

يقول بول كراوس :

ليس في العربية فعل ثلاثي في مادة [صحف] يمكن أن
تشتق منه كلمة [المصحف] بينما في الحبشية يستعملون للفعل [
صحف] بمعنى [كتب]^١.

لكن يمكن أن يكون المسلمون قد تداولوا هذا اللفظ بهذا المعنى . يقول
صلى الله عليه وآله وسلم : الغرباء في الدنيا أربعة " وعدّ منها
مصحفاً في بيت لا يقرأ فيه " ^٢.

- معنى المرتل والقرتيل :

المرتّل مأخوذ من [رتل] الشعر ، فهو رتلّ - من باب نَعَبَ - إذا
امتوى نياته وحسن تنزيده ، وكان متعلّجاً لا يركب بعضه على
بعض.

ومن المجاز " رتلّ القرآن ترتيلاً " إذا ترسل في تلاوته ، وأحسن
تأليف حروفه ، وهو يترسل في كلامه ويترتلّ ^٣.

والقرآن نفسه يقول :

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ الفرقان : الآية - ٣٢ .

والترتيل اصطلاحاً : هو القراءة بتؤدة واطمئنان ، وإخراج كل حرف من مخرجه ،
مع إعطائه حقه ومستحقه ومع تدبّر المعاني .

وقيل : هو رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف .

وقيل أيضاً : هو خفض للصوت ، والتحرّيف بالقراءة ^٤.

والقرتيل - بهذا أوبى هو الكيفية التي نزل بها القرآن " ورتلناه ترتيلاً " الفرقان :

الآية - ٣٢ ، هو أفضل مراتب القراءات الأربع :

^١ - ات بديوان [المصحف] مجلّة لثقافة عام ١٩٤٣ .

^٢ - ابن تيمية : فيض القدير ، شرح الجامع الصغير ج ٤ ص ٤٠٩ .

^٣ - الرمحشري : أنسب البلاغة : [رت ل] .

^٤ - علي المرحاني : الترميمات ص ٥٧ .

الترتيل ، ثم التحقيق الذي هو أكثر اطمئناناً ، والذي يؤخذ به في مقام التعليم ، ثم الحذر الذي هو الإسراع في القراءة مع مراعاة الأحكام ، ثم التدوير الذي هو مرتبة متوسطة بين الترتيل والحذر .^١

والنبي كان يرتل ، لقد قام بأية يرندها حتى الصباح^٢ . يقول صلى الله عليه وآله وسلم: يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها^٣ ، ويسن ترتيل القرآن ولو لمن لا يفهم^٤ .

لقد استهزئ بمشروع المصحف المرتل غداة الإعلان عنه وعدّ بدعة محدثة لا يجزئ عليها إلا عابث أو مأجور . يقول الشيخ أبو زهرة : إن هذا عبث لا يجب أن يقول به أحد . إن الذين يقومون بهذه الدعوات ناس مأجورون ، فقراءة القرآن هي التي تجعل الإنسان يحسن بروحانيته^٥ .

يذكر هنا أن الصحابة كانوا يقرأون في المصحف ، ويكرهون أن يمرّ يوم ولم يمتعوا أنظارهم بروية المصحف الشريف .

يروى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قول :

" فصل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً كفضل الفريضة على النافلة " .

وروى إسحق بن عمار مائل الإمام للصاق (ع) ، وقال له : جعلت فداك : إنني أحفظ القرآن عن ظهر قلبي ، فأقرؤه عن ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف ؟ فأجابه الإمام : لا بل اقرأه وأنظر في المصحف فهو أفضل ، أما علمت أن النظر في المصحف عبادة .

لقد كانوا يقرأون الآيات تجويداً ، والتجويد هو :

إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ، وردّ الحرف إلى مخرجه وأصله ، وتلطيف النطق به على كمال هيئة من غير إسراف ولا تعسف ، ولا إفراط ولا تكلف^٦ .

^١ - ترتيل مدح وروح وعاصم وحرة وإحسان مدح ابن كثير وأبي عمر وفائز ، والتقدير مدح ابن عمر والحكامي ،

[إشهار] كشاف اصطلاحات العلوم ج ١ ص ١٩٦ ، أنظر المصنف ترتلي ، ليب سعيد ص ٨٨ .

^٢ - شرح المرقا في ج ١ ص ٣٦٥ .

^٣ - السطّاني : لطائف الإشارات ج ١ ورقة .

^٤ - طرمصاني ، مغربي ، كتابه : الحركة في فضل السمي والحركة ص ١٦ .

^٥ - صحيفة الجمهورية ١٤/٣/١٩٥٩ .

^٦ - مباحث في علوم القرآن : متاح للطلاب .

إن معرفة ونراسة قواعد التجويد العامة وأوليائه ، أي مراعاة الوقف النَّسَمَ والحسن والإيتان بالحروف على الهيئات المعتمدة ، واجب وضرورة لكل هؤلاء .

وقد ذهب البعض إلى أنه يجب الامتناع عن قراءة القرآن الكريم دون العلم المسبق بأنفسهم قواعد التجويد العامة ، لأن الإمام بذلك سيجنب القارئ الأخطاء والمزالق عند القراءة والتجويد حيث سيفقد في محلات الوقوف ، ويعطي كل حرف حقه ، فضلاً عن الإدغام في حروف "يرملون" .

على القارئ عند القراءة أن يسكن الحرف الذي يقع في نهاية كل لفظ أو جملة يقف عندها ، كما وعليه أيضاً إذا التقى لديه حرفان من حروف "يرملون" السَّنة أن يدعم الحرف الأول ، [فلا يقرأه] في الحرف الثاني الذي عليه أن يقرأه ويظهر صوته ، وكمثل بسيط على ذلك هو أنه قد قرأ الآية [لم يكن له كفواً أحد] أن يدعم النون باللام لتقرأ الآية هكذا^١ . ولم يكن له كفواً أحد^٢ .

من أحكام القراءة ما لا يمكن إحكامه أبداً إلا بالتلقي الشفهي ، فالتخمين ، والترقيق ، والمد ، والقصر ، والإدغام ، والإظهار ، والإخفاء ، والروم والإشمام ، والإبدال ، والنقل ، والإقلاب ، والحذف ، والإثبات ، والإحلاق ، والإمالة ، والفتح وما بينهما ، وتخفيف الهمزة ، كل هذا لا يكفي المصحف المكتوب لتعليمه .

وكذلك إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها ، ورد كل منها إلى مخرجه وأصله ، والنطق به على كمال هيئته ، من غير إسراف وتعتف ، ولا إفراط ، ولا تكلف ... تلك كلها لا يحققها المصحف المكتوب إلا أن يوجد الملقن الضابط ، وتلك كلها لا يسهل شرحها المكتوب على طالب القرآن ، بل ربما أدَّى به عدم السَّماع إلى التفريط أو الإفراط ، فيؤد الحروف من الحركات ، أو يكرّر الرّاءات ، أو يحركه السواكن ، أو يطنن النّونات بالمبالغة في الغنات إلى آخر هذه العيوب^٣ .

^١ - غنات من ترويح القرآن ، محمد الأشهر ص ٣١٨ .

^٢ - تصحيف الرتل ، لب سيد ، ص ١٤٢ .

كتب تعليم التجويد :

وقد وضعت كتب غير قليلة لتيسير تعليم التجويد ، ولكنها لم تكن أبداً عن التعليم الشفهي الذي يذلل صعبها ، ويوضح غموضها .

من هذه الكتب التي بعضها نفيس ومخطوط ويستحق النشر :

- تحفة نخباء العصر في أحكام النون الساكنة والمد والقصر ^١ .
- تحفة الأنام في الوقف على الهمز ^٢ .
- الفصول العشرة في ضوابط القراءة لأبي عمرو البصري .
- فرة العين في الفتح والإمالة بين اللغتين لابن القاصح .
- اللطائف المحسنة في مباحث الغنة لإبراهيم التتويحي الحصري .
- مرشدة المشتغلين في أحكام النون الساكنة والتتوين لأبي النصر الناصر الطيلاوي زمن المخطوطات التي تعلم أحكام الوقف والابتداء :
- تقييد وقف القراءات لمحمد بن أبي جمعة الهبطي .
- التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوف لعبد السلام بن أبي الحسن علي بن عمر الذواودي .
- مسعف المقرئين ومعين المشتغلين بمعرفة الوقت والابتداء وعذ الآي لمحمد المقرئ الشهير بالقارئ .
- المكتفي في الوقف والابتداء لأبي عمرو الذاهي ^٣ .

من أمثلة ما ورد في هذه الكتب من التعريف بمخارج الحروف المبعة عشر قولهم عن مخرج الضاد : إنه جزء من حافة اللسان بُعيد الوسط . وقيل : مخرج اللام مع ما يليه من الأضراس العليا اليسرى على كثرة ، أو اليمين على قلة . هذا التعريف - فيما هو ظاهر - ليس سهل الفهم على كل فرد ^٤ .

^١ - ذكره الأنصاري .

^٢ - حمزة وجليل .

^٣ - هذه الكتب جميعها ، بطبع منها ونحفظ موجود في دار الكتب المصرية .

^٤ - انصف الشرح ص ١١٣ .

لقد وجد من المؤلفين في قواعد التجويد من يعطمه بالرسم كوسيلة أيضاً^١ ويستصعب بعض الناس تلك الأحكام المأثورة للقراءة ، فيفكرونها ، ويبرزون بها ، ويحاولون صرف الناس عنها . وقد صور أحد الكتب المعاصرة حركات المد والفتح والإشمام بأنها " حركات بهلوانية غير مفهومة ، وغير معلومة ، بل غير لازمة كحركات القسود والمهرجين " .
ويصف للكتاب التجويد - في بعض أحكامه - بأنه باطل مردود ، وسمح مردول ممجوج^٢ .
ومما وصفت به قراءة النبي أنها كانت ترتيلاً لا هذا ولا عجلة ، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً ، وكان يقطع قراءته أية أية ، وكان يمد عند حروف المد ، فيمد " الرحمن " ويمد " الرحيم " .
لقد عني التابعون وتابعوهم - ما وسعته العناية - بصون الأسماء عن الخطأ في النطق بأي حرف من حروف القرآن ، ومنع أي لبس أو اشتباه في القراءة ، فأضافوا إلى النص المكتوب النقط والتشكيل والضوابط والمحسسات الخفية .

من أوائل هؤلاء : أبو الأسود الدؤلي الذي تقول إحدى الروايات أن زياداً أمير العراق طلب إليه أن يضع للناس علامات تضبط قراءتهم ، فشكل أواخر الكلمات ، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحت الحرف ، والضمة نقطة إلى جانب الحرف ، وجعل علامة الحرف المنون نقطتين^٣ .

وهناك رواية أخرى تقول بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) سمع قارئاً يقرأ :
" أن الله بريء من المشركين ورسوله " التوبة : الآية - ٣ ، بكسر اللام في رسول " وهو كفر ، ففتقن إلى أبي الأسود " حتى وضع للناس أصلاً ومثالاً وقياساً ، وبعد أن فقه له حاشيته ، ومهد له مهاده ، وضرب له قواعدة^٤ .

وقيل في رواية ثالثة إنَّما وضع أبو الأسود النحو حين سمع رجلاً يقرأ " أن الله بريء من المشركين ورسوله " التوبة : الآية - ٣ ، بالجر ، فقال لا يصحني إلا أن أضغ شيئاً أصح به لحن هذا ، أو كلاماً هذا معناه^٥ .

^١ - رسالة في غريب القراءات لم يعلم مؤلفها فيها رسم الفساد ومخارج الحروف : دار الكتب المصرية .

^٢ - كتاب القوافي ، محمد بن محمد عبد اللطيف بن الخطيب ص ١٢٤ : وهذا الكتاب يحكم بمصادره في مصر .

^٣ - ص ١٣٥ .

^٤ - السجاني ص أنس ونظر ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ج ١ ص ١٣٤ .

^٥ - أبو عمرو الدعال : وابن الأثير ، نزهة الأكل في طبقات الأئمة ص ١٠ .

^٦ - أبو حنيفة التبريدي . عيضاة والذخائر ج ١ ص ٢١٦ .

^٧ - الشري : ألف با ج ١ ص ٢١٠ .

وكان من أوائل هؤلاء العلماء نصر بن عاصم الذي نَقَطَ الحروف بنقط الحروف كما قيل . ومن أوائلهم أيضاً الحليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي الذي شكَّل الكلمات : فجعل الفتحة ألفاً مسطوحة فوق الحرف والكسرة ياء تحته ، والضمّة واواً في أعلاه ، وجعل علامات للمدّ والتشديد ^١ .

ولم يكن هذا غريباً - فاللحن عندهم هو - لغة - العدول عن طريق الصّواب . يقول أبو سعيد السيرافي :

" ما عرفت حقيقة معنى النّحو إلّا من معنى اللّحن الذي هو ضده ، فإن اللّحن عدول عن طريق الصواب ، والنحو قصد إلى الصواب ^٢ . لقد كان العرب يستيقنون اللّحن ويعتبرونه أفتح من الجدي في الوجه .

يقول كشاجم في كتاب النديم :

" واللحن عند العرب يجوز الجمال [أي يقوّضه] كما أن الفصاحة تعفّي على القبح ^٣ . لا شك أن العرب استهولوا اللّحن في القرآن ، وعدّوه أشدّ بشاعة مما هو في أي كلام ، فهو قد يغيّر المعنى تغييراً يفر منه القرآن نفسه ، فمثلاً لو قرأ الرجل عماداً الآية ^٤ هو الله الخالق البارئ المصور ^٥ الحشر : الآية - ٢٤ ، بفتح اللوا في المصور لكفر .

قيل إنّ أول لحن كان على لسان ابنة أبي الأسود الدؤلي حين قال لها في إحدى الليالي وهما على سطح المنزل : ما أجمل السماء ، فقالت : نجومها . فقال متألماً : ما قصدت الاستعظام بل التعجب ، لذلك كان عليك أن تقول ما أجمل السماء ! وذهب فوراً إلى أمير المؤمنين شاكياً له أمر ابنه في هذا اللّحن ، فلم يكن من أمير المؤمنين إلّا أن أحاطه علماً بكان وأخواتها ، وإن وأخواتها وحروف الجر وحروف العطف وقال : أتخ هذا النحو يا أبا الأسود ، فسوّى منذ ذلك الحين هذا العلم يعلم للنحو .

ومخافة اللّحن في القرآن ولدرئته نشأت له ، منذ القديم ، علوم خاصة غايتها كفالة إحكام قراءته ، وقد عدا لهذه القراءة ، فنّ تخصصت فيه طبقات متعاقبة من العلماء برز منهم أئمة لهم شهرتهم .

^١ أبو عمرو الدّاني : خفط ص ٣ .

^٢ - هاشم عمران وفتنين لحاحم ج ١ ص ١٦٠ .

^٣ - ابن فنية : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٥٨ .

وقد كتبت خلال أربعة عشر قرناً مصاحف لا عدّها ، وقد سلمت كلها من التغيير والتبديل ، والغليل من التحريف أو التصحيف الذي وقع في بعض المصاحف ، لم يستطع الحياة قط ، هذا مع كثرة أعداء القرآن ، والمتربصين به ^١ .

❖ الترتيل للقرآني والغناء :

❖ الترتيل الشرعي :

لقد وقع في قراءة القرآن - حتى من بعض الممسنين من جرّاء جهلهم أو تماهلهم بدع ليست في قولتين الأداء القرآني .

* من أشهر هذه البدع الصوتيّة في قراءة القرآن طريقة القرآن ابتغاء جذب الناس إلى السماع ، ولو أنّت هذه الطريقة إلى إخراج التلاوة عن أوضاعها لتسي نزلت بها ^٢ .

لقد حذر النبي من هذه القراءة الغنائية فقال :

" إقرأوا القرآن بلحون العرب ، وإياكم ولحون أهل الفسق والكبائر ، فإنه سيجيء أقوام من بعدي يرجعون لقرآن ترجيع الغناء والرّهانية والنّوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم " ^٣ .

في اللغة :

معنى لحن في كلامه : إذا مال به عن الإعراب إلى الخطأ .

هناك فرق ظاهر بين الغناء الذي يخرج القراءة عما يجب فيها ولها من الخشوع والوقار ، وبين حسن الصّوت بالترتيل ، فإنّ هذا الحسن يعين - غالباً - على أمر منشود هو التأثير بالسماع .

إنّ للقراءة الواجبة ، لما يبنو من السنّة النبويّة - هي القراءة المتدبّرة التي تستغرق النفس كلها ، ومن ثمّ هي القراءة المعبرة . فالسنّة أكدت استحباب تحسين الصوت بالقرآن .

^١ - انصف افريل ، ليب سيد ص ١٥٥ .

^٢ - الترتيل لصوتي : ليب سيد ص ٣٠٩ .

^٣ - مثلك من انس : سورة ، كتاب ١٥ حديث ١٠ .

- يقول النبي (ص) :

"لم يأت الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يُجهر به " .

- وقال :

"زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا " .

- وقال :

" لكل شيء حلية ، وإن حلية القرآن للصوت الحسن " .

- وقال :

" ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن " .

-- وعن جابر عبد الله ، يقول :

" كان في كلام رسول الله (ص) ترتيل وترسيل " .

وسار للصحابه والتابعون وتابعوهم نفس السيرة .

- كان علقمة أبو شبل النخعي الفقيه من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، وكان

إذا سمعه ابن مسعود يقول :

" لو رأيك رسول الله (ص) لسُرُّ بك " .

- كان عمر بن عبد العزيز حسن الصوت بالقرآن ، فخرج ليلة يقرأ ، وجهر

بصوته ، فاستمع له الناس ، فقال سعيد بن المسيّب : ففتت النفس " .

- وقيل إن ورشاً - أحد الرواة المشهورين للناقع - كان إذا قرأ على نافع

أغشى على كثير من الجلساء ، لحسن صوته ، وجودة قراءته .

القرآن (أغراضه - أساليبه - أوزانه)

إن للقرآن أغراضاً منها :

^١ - البخاري في باب قول النبي (ص) " لا يرفع بالقرآن " .

^٢ - رواه أحمد ، وابن حبان ، والترمذي .

^٣ - رواه أس .

^٤ - ابن سعد : الطبقات ذكرى ج ١ ص ٩٧ .

^٥ - أنظر المعروفين من الصحابة بحسن الصوت في : الكسالي : ترتيب الإدارية ج ٢ ص ١٢٥ .

^٦ - ابن الجوزي ، غابة النهاية ج ١ ص ٥١٦ .

^٧ - القسطلاني : لطائف الإشارات ، الورقة ٢٢ .

الإعلام ، التنبيه ، الأمر ، النهي ، الوعد ، الوعيد ، وصف الجنة والنار . الإحتجاج على المخالفين . الرّة على الملحين ، البيان عن الرّغبة والرّغبة ، الخير والشر ، الحسن والتقبيح ، ومدح الأبرار ، وذمّ الفجار

ليس مقبولاً أن نقرأ موضوعات هذه الأغراض كلها بأسلوب واحد . وإذا كنّا نترنّم الليكني مقبولاً ، مثلاً ، في آيات التوبة والاستغفار والاسترحام ، فهذه هو مقبول في آيات التحريض على القتال ؟

فقلّين غير الشّدّة ، والأمر والنّهي غير للدعاء والاتّمسك ، والخير غير الاستفهام ، والإقرار غير التّجبّ ، والوعد غير الوعيد^١ .

إنّ تحلين القرآن ، بمعنى قراءته قراءة معيّنة ، وأحياناً بمعنى قراءته على بعض أساليب الغناء أمر قديم .

- روي أن النبيّ قال :

" إنّ أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحرّز فيه " .

- ويروي الصحابة بأنّ النبيّ قال :

" أتلو القرآن ، وابكوا ، فإني لم تبكوا ، فتباكوا . وكان تحلية الصوت بالقرآن هي شرط أساسي في قراءته .

والمسلمون يستحبّون البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن وفي دينهم أن الأنبياء كانوا يبكون إذا تتلى عليهم آيات الله :

" أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذريّة آدم وممّن حملنا مع نوح ومن ذريّة إبراهيم وإسماعيل وممّن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكياً " مريم : الآية - ٥٨ .

- يقول ابن قتيبة :

أول من قرأ بالآلحان : عبد الله بن أبي بكر ، وكانت قراءته حزناً أي فيها رقة صوت - ليست على شيء من ألحان الغناء والحداء^٢ .

^١ - المصحف المرفق ص ٣١٩ لبيب السعيد .

^٢ - رواد طغري في " نكير " عن ابن عباس .

^٣ - الخليل : سليمان بن عمر المعبدي ج ٣ ص ٦٧ .

وكان القراء كلهم كالأباضي وسعيد المثلث ، والهيثم ، وأبان ، وابن أعين وغيرهم يدخلون في القراءة ألحان الغناء والحداء والرهبانية : فمنهم من كان ينسّ الشيء من ذلك دسّاً رقيقاً ، ومنهم من كان يجهر بذلك ^١ . إن إخوان الصفاء يتكلمون عن أسباب استخراج التحكيمات صناعة الموسيقى ، فيشيرون إلى أنّ الناس كانوا يستمعون المناحس والدلاء بالذعاء ، واليكاء ، وكانوا يستعملون - عند الضراعة والقراءة - الألحان من الموسيقى تسمى [المحزن] ، وهي التي ترقّق القلوب إذا سُمعت ، وتبكي العيون ، وتكتب النفوس الندامة على سالف الذنوب ، وإخلاص السرائر ، وإصلاح الضمائر ^٢ .

للرحالة ابن جبير يروي في رحلته أنّه رأى للقراء "بين أيدي اللوغاظ، يأتون بالآحان تكسب الجماد طرباً وأريجاً، كأنها المزامير الداووبية" ^٣ .

وقد بكى الطنّيب البصري ماسرجويه - وهو يهودي - من قراءة أبي الخوخ ، فقيل له : كيف بكيت من كتاب الله ، ولا تصدق به ؟ قال : إنّما أبكاني الشجى ^٤ . للقرآن موسيقاه الخاصة التي لا يفوت إدراكها أحداً من قرائه ، ومن أنواع بدائعه ، ما يمكن أن نرى فيه - ضمناً - دلائل موسيقية ذابغة منه ، وليمت مستجلية إليه .

من هذه الأنواع ^٥ :

١ . الانسجام : يقول السيوطي إذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد ... ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً :

- منه بحر الطويل : " فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر " الكهف : الآية -

٢٩ .

- المديد : " واصنع الفلك بأعيننا " هود : الآية - ٣٧ .

^١ - المصنف التركي ، ليب سميه ص ٣١٦ .

^٢ - الرسائل - المجلد الأول ص ١٨٦ .

^٣ - ص ١٤٠ .

^٤ - الجاحظ : الحيوان ج ٤ ص ١٩٢ .

^٥ - كتاب اللغات للبرهاني ج ٩ ص ٨٣ - ٩٦ .

- البسيط : " فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم " الأحقاف : الآية - ٢٥ .
- الواقف : " ويخزهم وينصرمهم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين " التوبة : الآية - ١٤ .
- الكامل : " والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " النور : الآية - ٤٦ .
- الهزج : " فأنلقوه على وجه أبي يأت بصيراً " يوسف : الآية - ٩٣ .
- الرجز : " ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تضليلاً " الإنسان : الآية - ١٤ .
- الرَّمَل : " وصفان كالعواب وقدور راسيات " سبأ : الآية - ١٣ .
- السريع : " أو كالذي مرَّ على قرية " البقرة : الآية - ٥٦ .
- المنسرح : " إنا خلقنا الإنسان من نطفة " الإنسان : الآية - ٢ .
- التخفيف : " لا يكادون يفقهون حديثاً " النساء : الآية - ٧٨ .
- المضارع : " يوم التناد يوم تولون مدبرين " غافر : الآيات - ٣٢-٣٣ .
- المقتضب : " في قلوبهم مرض " البقرة : الآية - ١٠ .
- المجتث : " ننبئ عبادي أنني أنا الغفور الرحيم " الحجر : الآية - ٤٩ .
- المتقارب : " وأملئ لهم إن كيدي متين " الأعراف : الآية - ١٨٣ .

٢. التثلاث اللفظ مع اللفظ .

٣. التثلاث اللفظ مع المعنى .

٤. للتعدد : وهو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد " وهو الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيم العزيز الجبار المتكبر " الحشر : الآية - ٢٣ .

٥. حسن النسق : وهو أن يأتي المتكلم بكلمات متتاليات معطوفات متلاحمات تلاهما سليماً مستحسنًا :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود : الآية - ٤٤ .

٦. المشاكلة : وهي ذكر الشيء بلفظ غيره ، توقعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا :

﴿ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ المائدة : الآية - ١١٦ .

﴿ وَتَكُونُوا وَكُنَّا اللَّهُ ﴾ آل عمران : الآية - ٥٤ .

٧. الترويد : وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، لم يرتدأ بعينها ، ويعلقها بمعنى آخر :

﴿حَتَّى نُوْتِي مِنْهُ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَكْثَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾
الأنعام : الآية - ١٢٤ .

٨. التماثلة : أي تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزنة دون التقفية .
﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أُنْزِلَ مِنَ الطَّارِقِ (٢) السَّحَابِ الْثَّاقِبِ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا خَافِطٌ﴾ الطارق : الآية - ٢-٣-٤ .

ومن الذي يوفقه القرآن من الموسيقى الذاتية أنه هو نفسه يوفر الانسجام بين ألفاظه وأصواته منها :

- أ- حذف ياء المنقوص المعرّف :
﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الرَّعد : الآية - ٩ .
- ب- حذف ياء الفعل غير المجزوم :
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَنسَرُ﴾ الفجر : الآية - ٤ .
- ج- زيادة حرف المدّ :
﴿الظُّنُونَا - للرُّسُولَا - السَّبِيلَا﴾ الأحزاب : الآيات - ١٠ - ٦٦ - ٧٨ .
- د- إيقاؤه مع الجازم :
﴿سَتَقَرُّنَاكَ فَلَا تَنْسَى﴾ الأعلى : الآية - ٦ ، على القول بأنه نهي .
- هـ- صرف ما لا ينصرف :
﴿فَوَلِّرِبْرًا﴾ الإنسان : الآية - ١٥ .
- و- إختيار أغرب اللفظين :
﴿قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ النجم : الآية - ٢٢ ، ولم يقل جائرة .
- ز- إظهار بعض أوصاف المبالغة على بعض :
﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ ص : الآية - ٥ ، أوتر على " عجيب " مراعاة للفاصلة .
- ح- تغيير بنية الكلمة :
﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ التين : الآية - ٢ ، والأصل سينا .

يقول السبوطي :

" وحكمته : وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنموا بلحون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت - ويتركون ذلك إذا لم يترنموا ، وجاء القرآن على أسهل موقف ، وأعذب مقطع " ^١ .

مسايرة القرآن في عباراته للمعاني :

عباراته في التقرير ، والأعذار ، والإنذار ، والتحذير ، والتخويف ، ذات ألفاظ شديدة مزعجة ، فإذا بشر ، ووعد ، وحمد ، فألفاظه بأسطة بهيجة مشوقة ^٢ .

لقد قيل إن هذه الموسيقى في الأصوات القرآنية تلعب في تكييف عقل السامع ، وتهينته لتلقي الدعوة دوراً هو فوق للتعريف ، وإن الجمال الفني في القرآن هو رأس ما جذب العرب إلى الإسلام .

' وعندنا أن الموسيقى في القرآن - وتلك كلها من أدلتها - أوضح من أن تجمد ، وعندنا أيضاً أنه ليس يمس قداسة القرآن وعظمته أن نقول أنه تحرى الموسيقى ، فذلك - في الواقع - من دلائل إعجازه ، سيما أن موسيقاه غير الموسيقى فيما يكتب البشر من نثر فني قد يعد إليه بعضهم ، فيضحي من أجله - قليلاً أو كثيراً ، بدقة المعنى المراد " ^٣ .

❖ لاختلاف الحكم على القراءة بالألحان المقتبسة من الغناء :

أ- روي عن النبي أنه قال :

" اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم لحون أهل الفسق ، ولحون أهل الكتابين ، وسيجيء بعدي أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح " .

ب- وأنكر التطريب أنس بن مالك خاتم النبي ، فقد جاءه قارئ فقرأ وطرب ، وكان رفيع الصوت فكشف أنس عن وجهه ، وكان على وجهه خرقعة سوداء فقال له : يا هذا ! ما هكذا كانوا يفعلون " ^٤ .

^١ - الإيمان ج ٢ ص ١٠٥ ، وانظر في معنى القواميل على الرفع ، الزركشي : البرهان في علوم القرآن : ج ١ ص ٦٨ .

^٢ - المصحف المرتل ص ٣٣٢ .

^٣ - المصحف المرتل ، لب سعيد ص ٣٣٣ .

^٤ - أنظر ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٧٤ .

- ج- وممن كره القراءة بالألحان من التبعين : سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جببر ، والقاسم بن محمد ، والحسن البصري ، وابن سيرين .
 د- ابن بطّة العكبري المتوفى بالعراق سنة ٣٨٧ هـ يرى أن " من البدع قراءة القرآن والأذان بالألحان وتشيبيها بالغناء " .

هـ- والمؤرخ الاجتماعي ابن خلدون يرى :
 " أن صناعة الغناء مביئة للقرآن بكل وجه ، ومن ثم لا يمكن اجتماع التلحين والأداء للمعتبر في القرآن " : كما أنه يرى :
 " الأخذ بالتلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمّن ، فيردّد أصواته تردّداً ، على نمب يدركها العالم بالغناء وغيره " .
 " أن القرآن محلّ خشوع ، يذكّر الموت وما بعده ، وليس مقام التذاذ بإدراك الحسن من الأصوات " .

ويبدو أن هذه القراءة كانت مسرفة في المخالفة إلى الحد الذي تَضيق عنده معاني القرآن ، فقد ضرب ابن الحاج مثلاً للقراءة المحرّمة الكثيرة تردّد الأصوات والترجيحات ، والتي تخفّي معها معاني القرآن " ما يفعله القراء بالديار المصرية وغيرها من الذين يقرّون أمام الملوك والجنائز ، ويأخذون عنيا الأجور والجوائز " .

فأما الذين أجازوا الألحان في القرآن فقد عضّدوا رأيهم :
 أ- روي أن ابن عباس وابن مسعود أجازا هذه القراءة الملتحّة " . وقيل بأنّ هذا هو اختيار ابن جرير الطبري " .

^١ - برقيم الخوزيه ، زاد المعاد ج ١ ص ١٣٤ .

^٢ - أنظر كتابه : التلحاح والإدانة على أصول حسنة والذنبه ص ٨٩ .

^٣ - المقدمة : يصل إلى ساعة غناء ج ٣ ص ٩٦٨ .

^٤ - نفس نفسه .

^٥ - نفس نفسه .

^٦ - فذل ج ١ ص ٥٠ .

^٧ - ابن قيم الخوزيه : زاد المعاد ج ٦ ص ٩ .

^٨ - نفس نفسه .

بـ. وروي عن ابن جريج أنه قال :

« سألت عطاء^١ عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء ، فقال : وما بأس
ذلك بين أخى^٢ . »

جـ. وقالوا في الرد على محرّمى هذه القراءة :

« إن المحرّم لا بد أن يشتمل على مفسدة راجحة أو خالصة ، وقراءة للتضريب
والألحان لا تتضمن شيئاً من ذلك ، فإنها لا تخرج الكلام عن وضعه ، ولا تحول
بين السامع وبين فهمه^٣ . »

وقد انتهى صاحب زاد المعاد في أمر التطريب والتغنّي بالقرآن هو تحميمهما إذا
اقتضتهما الطبيعة ، وسمعت بهما من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم ، وأن النفوس تقبل هذا ،
ولأن هذا هو الذي كان السلف يفعلونه ، ويستمعونه ، وهو الذي يتأثر به السامع والمثالي .

أمّا ما كان - من ذلك - يعلم بأنواع الألحان البسيطة والمركبة ، على إيقاعات
مخصوصة ، وأوزان مخترعة ، ولا يحصل إلا بالتعليم والتكلف ، فهي التي كرهها السلف ،
ولكروا على من قرأ بها^٤ .

مثل عباس محمود العقاد يوماً عن رأيه في أثر القراءة بالألحان فيمن قد يثير الصوت
الجميل نزواتهم ، فقال بعد أن حسن قراءة الترتيل :

« ولكن ينبغي أن نذكر القارئ غير مسؤول عن عوج الطبع ، واختلال
الأمزجة^٥ . »

لقد أحبّ الناس للمصحف المكتوب أن يكون جميل الخطّ ، وهذا الجمال هو من
بواعث القراءة وميسراتها .

هناك بعض الناس وخاصة الموسيقيين يرغبون في تلحين القرآن تلحيناً تصحبه
الموسيقى . وبعض هؤلاء يقترح لتلحين القرآن آلات موسيقية أساسية هي - بضعة مبتدئة - :
النّاي ، والمثلث ، والأرغن .

^١ - ابن عبد ربه ، العقد المفرد ج ٦ ص ٩ .

^٢ - من فهم الخيرية : زاد المعاد ج ١ ص ١٣٦ .

^٣ - نقضه نفسه ، ص ١٣٧ .

^٤ - حريدة الأخبار في ٨ يونيو ١٩٥٩ .

ويرى البعض من هؤلاء أن القرآن سيمفونية ضخمة من حركات كثيرة ، لكن في الواقع إن الفراءات السبع تختلف عما أسموه شرعية التحنين للقرآن .

قيل بأن صالح أمين المصري قد أتمّ تحنين سور هي :
المكثّر - الإنسان - النور - الفرقان - الأنفال .

وعندي أن قراءة القرآن على الآلات الموسيقية ، تمرّ قدامته ، وتخلط بصوته القمسي أصوات المعازف ، وقد تصرف السامع عن تدبير المعاني والتأثير بها إلى الاستمتاع بالموسيقى ، وأنغمها ، وإيقاعاتها ، وقد نقم - في القرآن - حركات ، ونزاع منه حركات ، فمثلاً قد تمّ المقصور ، وتقتصر الممدود ، بل قد تحدث ما لا أصل له ، وهذا يفرض غالباً إلى تغيير المعاني أو - على الأقل - وقوع اللبس فيها . ومثل هذا حقيق - من الناحية الدينية - أن يفسق صناعه ، ويؤثم سامعه . ثم ما جدوى قراءة القرآن على المعازف ، وهو كما نشرنا أنفاً له موسيقاه الخاصة ، وليس كالكتب الأخرى التي تستعين بالموسيقى من الخارج لتظهر معانيها ، وتكمل نقصها ؟^١

هذا كله يحملنا على القول بالترتيل المرسل ، والتأبّت أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ القرآن مترسلاً .

من المبتدعات الصوتية التي تتأفي جلال القرآن ، وتخرج عن قواعد أدائه ، وتقاله بشيء من التحريف ، وتحوق حسن فهمه ، وللتأثير به :

١. القراءة بالترديد :

وهو أن يردد القارئ صوته ، كأنه يردد من برد ، أو من ألم أصابه .^٢

٢. القراءة بالمفعد للمعنى :

وهو أن يترنم القارئ بالقرآن ، ويتغنم به على نحو من شأنه أن يمد في غير مواضع المد ، ويزيد في المد على ما ينبغي .^٣

٣. القراءة بالتحزين المصطنع :

١ - راجع المصحف المرتل ص ٣٤٤ .

٢ - الهنري : كشاف اصطلاحات الفنون ، مجلد ٢ ص ٥٥٢ .

٣ - الهنري : الترميز السابق مجلد ٢ ص ٩٠٠ .

وهو أن يأتي القارئ بثلاثه ، على وجه فيه حزن وتباكٍ منكلفان هما
مظنة الرياء^١ .

٤. القراءة بالترقيص :

ومعناه : أن يرقص القارئ صوته بالقرآن ، فيزيد من حروف المد
حركات ، بحيث يصير كالمتكسر الذي يفعل الرقص^٢ .
وقيل : القراءة بالترقيص هي أن يروم القارئ المسكت على الساكن ، ثم
ينفر عنه مع الحركة في عدو وهرولة^٣ .

٥. القراءة بالتحريف :

وهو ما أحدثه الذين يجتمعون ، ويقرأون بصوت واحد فيقطعون القراءة
ويأتي بعضهم ببعض الكلمة والآخر ببعضها الآخر ، ويحافظون على
مراعاة الأصوات^٤ .

تحدث عن هذه القراءة علي بن سلطان القارئ فقال :

« عن القراءة المنهية ما أحدثه الجماعة الأزهرية ، حيث يجتمعون ، فيقرأون بصوت
واحد ، ويقطعون القرآن ، فيأتي بعضهم ببعض الكلمة والآخر ببعضها ، ويحذفون حرفاً
ويزيدون آخر ، ويحركون الساكن ويسكنون المتحرك وأمثالها ، ويمتدون تارة ويقصرون تارة
في غير محالها مراعاة للأصوات خاصة دون أحوالها ، مع أن الغرض الأهم من القراءة إنما
تصحیح مبانيها ، لظهور معانيها بما فيها^٥ .

٦. القراءة بالرخاوة في الحروف وكونها غير صلبة ، بحيث تشبه قراءة
الكميلان^٦ .

٧. النقر بالحروف عند النطق بها ، بحيث يشبه القارئ المتشاجر .

^١ - مسيوحي : الاقنآن ج ١ ص ١٠١ .

^٢ - علي الصبّاح : مشتمعات القرءاء في قراءة القرآن ، مجلد كوز الفرقان ، ربيع الأول ١٣٢٨ .

^٣ - دنيهاوي ، المرجع السابق مجلد ١ ص ٥٦٣ والسيوطي : الاقنآن ج ١ ص ١٠٢ .

^٤ - السيوطي : الاقنآن .

^٥ - الشيخ الفكرة على من انجوبة ص ٢٨ .

^٦ - أنظر - ن شأ هذا العيب والمهرب الثالثة - على الصبّاح : البحث السابق .

٨. تقطيع الحروف بعضها مع بعض بما يشبه السمكت ، وخصوصاً الحروف المظهرة وذلك بقصد زيادة بيانها .
٩. إشباع الحركات بحيث يتولد منها حرف مد ، مع ما في ذلك من إفساد للمعنى .
١٠. مبالغة القارئ في الفتلة في حروفها ، حتى يبلغ بها مرتبة الحركة .
١١. إعطاء الحرف صفة مجاوره ، قوية كانت أو ضعيفة .
١٢. تخفم الراء الساكنة ، ولو كان ما قبلها ما يوجب ترقيقها .
١٣. إشباع حركة الحرف الذي قبل الحرف الموقوف عليه .
١٤. تحريك الحروف المتواكن كعكسه .
١٥. زيادة المد في حروفه ، على المد الطبيعي ، بدون سبب .
١٦. المبالغة في إخفاء الحروف بحيث يشبه المد .
١٧. ضمّ الشفتين عند النطق بالحروف المنخمة المفتوحة ، لأجل المبالغة في التضخيم .
١٨. شوب الحروف المرققة شيئاً من الإمالة ، ظناً من القارئ أن ذلك مبالغة في الترقيق .
١٩. مد ما لا مد فيه ، كمد ولو "مالك يوم الدين" الفاتحة : الآية - ٣ ، وصلأ ، ويا " غير المفضوب عليهم " الفاتحة : الآية - ٧ ، لأن الواو والياء إذا انفتح ما قبلهما _ كانا حرفي لين لا مد فيهما .
٢٠. تشديد الهمزة إذا وقعت بعد حرف مد كما في كلمتي "أولئك" و "يسا" أنها " بقصد المبالغة في تحقيقها وبيانها .
٢١. لوك الحروف ، كما يفعل السكران ، فإنه _ لاسترخاء لسانه وأعضائه نتيجة السكر _ يفقد الفصاحة في لسانه .
٢٢. المبالغة في نبر الهمزة وضغط صوتها حتى تشبه صوت المنقيء .
٢٣. ترك التجويد مطلقاً^١ .

^١ - راجع في هذا الكتاب : نصف المرقى ، لبيب سعد ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

قيل بأنَّ قراءة المقرئ مصطفى إسماعيل ، وعبد الباسط عبد الصمد كان السبب في بكرها لأنَّ فيها لمحات غنائية . لذلك ظهرت قراءة التلاوة للمقرئ الحصري المصري التي تتلاءم مع قداسة القرآن .

لقد طلبت مشيخة الأزهر من وزير الأوقاف المصري محمد البهي منع ما سوى رواية حفص من الروايات ، وما سوى صوت الشيخ الحصري من الأصوات ، حتى لا يثير ذلك - حسبما قرر كتاب المشيخة - اختلاف المعتمدين حول أي القراءات أولى ، وأي الأصوات أحلى^١ .

كما قيل بأنَّ المغنية المشهورة أم كلثوم المصرية طلبت من علماء الأزهر السماح لها أن تقرأ القرآن قراءة غنائية فكان الرفض لسببين : أولهما لأنَّها امرأة ، والثاني لعدم جواز التغنّي بالقرآن وتلحينه بالآلات الموسيقية وقد أحدث المغني اللبناني ضجة كبرى لأنه غنى في إحدى أغانيه الآية القرآنية ، ' أنا يوسف يا أباي ' لذلك تولى القضاء محاكمته بطلب من مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد قباي ، ولقد أصدر رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى فتوى بتحريم هذه الأغنية ، لأنَّ القرآن لا يلحن بالآلات الموسيقية ولا يغنى لأنَّه يفقد قداسه .

لقد أفتى رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين بأنَّ حكم الشريعة الإسلامية يمنع بالمطلق تحويل النص القرآني إلى مادة مغناة وملحنة . وأكد في معرض الرد على بعض رجال الدين الذين أجازوا هذا الأمر بأنَّ الفقه واستنباط الأحكام ليس أمراً توقيفاً ومزاجياً مكيفة حسب مقتضيات جنب الجمهور وانتزاع حالات الدهشة للحصول على صيغة الحداثة .

وقارب شمس الدين في حكمه الشرعي لدار الفتوى حول عدم جواز تحويل النص القرآني إلى مادة مغناة أيضاً .

وجاء موقف شمس الدين ردّاً على مجموعة من الاستثناءات والأسئلة وردت إلى رئاسة المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى حول التغنّي بالقرآن وتلحينه وجواز استعمال القرآن في الشعر والنثر عادة صدور القرار الظني الذي اتهم الفنان مارسيل خليفة بتحقيق الشعارات الدينية بسبب تضمينه أغنية ' أنا يوسف يا أباي ' نصّاً قرآنياً .

^١ حريدة السفير الثلاثاء، ١٢ تشرين الأول ١٩٩٩ العدد ٨٤٢٣ ص ٥ .

وحاء في نصّ الفتوى الصادر عن شمس الدين الآتي : بسم الله الرحمن الرحيم
هنا قضيتان :

- إحداهما : تضمين النصّ القرآني في كلام بشريّ شعريّ أو نثريّ .
- وثانيها : تحويل النصّ القرآني إلى مادة مغناة وملحّنة .

أما بالنسبة إلى القضية الأولى فإن تضمين الشعر أو النثر لأيات أو مقاطع قرآنية هو أمر مشروع من حيث المبدأ إذا روعي فيه توفر شرطين أساسيين : الأول : أن لا يستخدم النصّ القرآني في عملية التضمين لغاية مخالفة لوظيفته ، وهي أنه بيان إلهيّ للهدى إلى الإيمان والأخلاق الكريمة . فلا يجوز أن نستعمل النصّ القرآني في كلام بشري يصرفه عن وظيفة الهداية ، وبطريق أولى لا يجوز الاستعمال بما يؤدي إلى الباطل ، لأن هذا الاستعمال - في كلتا الحالتين - يكون من تحريف الكلم عن مواضعه ، وينطبق على من يقوم بعملية التضمين قوله تعالى في سورة النساء ، الآية ٢٦ وسورة المائدة ، الآية ١٣ [... يحرّقون الكلم عن مواضعه] .

الثاني : أن لا يستعمل النصّ القرآني في صيغ تعبيرية تخلق موقفاً ساخراً أو هزلماً ، أو تكون من ضمن حالة لهو أو طرب ، بل يجب أن يكون الاستعمال في سياق موقف جادٍ وهاذف يتناسب مع وظيفة القرآن التربوية والتوجيهية والإيمانية .

وأما بالنسبة إلى القضية الثانية فإن تحويل النصّ القرآني إلى مادة مغناة وملحّنة بالمعنى الذي نعرفه ، وبأية صيغة من صيغه ، وبأي مستوى من مستوياته ، فإن الحكم الشرعيّ هو المنع من ذلك مطلقاً لدلالة القرآن الكريم والسنة الشريفة عليه ، سواء قلنا بمشروعية وإباحة بعض صيغ أنواع الغناء ، أو قلنا بعدم مشروعية الغناء مطلقاً ، كما هو الرأي المشهور في المذاهب الإسلامية ، وخاصة في مذهب الشيعة الإمامية .

إن القرآن الكريم كتاب عقيدة وتشريع وهدى ، وقد اعتبر الشارع أن تلاوته عبادة من العبادات الإسلامية ، وهو يتلى بحالة من الصفاء النفسي ، أو بهدف الوصول إلى حالة الوعي الروحي والصفاء النفسي . ويستفاد من تأكيد الشارع المقدّس سبحانه وتعالى على تلاوة القرآن في حالة التوجّه إلى الله تعالى ، واستحباب الطهارة من الأحداث والظنافة من الأخيثر،

إنَّ هذه العبادة - عبادة التَّلاوة - يجب أن تؤدَّى في حالة خاصة يقطع الفقيه بأنَّ حالة الغناء ليست منها - حتى بناء على مشروعية بعض صور وأنواع الغناء ، لا علاقة قطعاً بين الغناء والتَّقدُّم الحضاري ، ولا وجه لتربُّط بين التَّقدُّم الحضاري وتحويل النَّصِّ القرآني إلى مادة مغنَّاة .

وهنا ينبغي أن نعي ونقول بوضوح وحزم أنَّ الفقه واستنباط الأحكام ليساً أمراً ذوقياً ومزاجياً نكتفه حسب مقتضيات جذب الجمهور ، وانتزاع حالات الازدهار للحصول على صفة الحداثة والمعاصرة .

ونقول لذوي النَّيَّات الطَّيِّبة في الحقل الفني وللجمهور : إنَّ إدخال المعاني الدُّنيَّة والإنسانيَّة إلى الغناء لا ينحصر في ابتذال النَّصِّ القرآني في الغناء ، فإنَّ الفنَّان الذي يعتبر نفسه ذا دور إنسانيّ يستطيع أن يغني بنصوص بشريَّة [غير قرآنيَّة] تتضمَّن المعاني الحضاريَّة والإنسانيَّة .

وعن رأيه في بيان دار الفتوى أجاب شمس الدين : إنَّ بيان دار الفتوى موافق للاعتبارات الشرعيَّة الإسلاميَّة .

وعن رأيه في رفع قضية مارسيل خليفة إلى القضاء قال شمس الدين : إنِّي لا أرجح نقل هذه الأمور إلى القضاء ، ومهمتنا باعتبارنا مرجعاً دينياً أن نعلن حكم الشريعة الإسلاميَّة في هذا المجال .

❖ التجويد في معناه وقواعده :

□ تعريفه :

- هو علم يبحث فيه عن صحة النطق بالحروف ، ومراعاة الوقوف^١ .
فالتجويد يعرف به أمران :
- أولاً : تلفظ كل حرف من حروف القرآن الكريم تلفظاً صحيحاً .
 - ثانياً : أحوال الوقوف على آيات القرآن ، وكلماته الشريفة .

□ موضوع التجويد :

لل كلمات القرآنية .

□ غاية التجويد وقوائده :

تعلم النطق بلفظ القرآن على نحو ما بلغه النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وصون اللسان عن الخطأ في قراءته . من فوائده ، أنه يحفظ اللسان عن
الخطأ في كلام الله تعالى ، لذلك كان العمل به فرضاً على كل قارئ وقارئة .

□ حكم التجويد :

يحاول المسلم أن يؤدّي حروف القرآن وألفاظه على النحو الذي تلاها الرسول
الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم كما يأخذ منه معاني القرآن لإقامة أحكامه ،
وإجراء حدوده وفق ما يبيّنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

□ أهمية التجويد :

إن إجادة القراءة وصحة النطق بالحروف توجب التقمّم في إمامة الجماعة في
الصلوة^٢ . إن هذا العلم وإن كان غير واجب الإمام بتفاصيله ودقائقه لن يقرأ
في القرآن ، أو يقرأ بعض سوره في الصلوات ، إلا أن معرفة ودراسة
قواعده العامة وأصولاته ، أي مراعاة الوقف التام والحسن والإتيان بالحروف
على الهيئات المعبّرة واجب ضروري لكل هؤلاء .

^١ - المصحف العربي ، عبد سعيد ص ١١٥ .

^٢ - التجويد في القرآن المفيد ، ص ٦ .

وقد ذهب البعض إلى أنه يجب الامتناع عن قراءة القرآن الكريم دون العلم المسبق بألف باء وقواعد التجويد العامة لأن الإمام بذلك سيجنب القارئ الأخطاء والمزالق. عند القراءة والتجويد ، حيث سيقف في محلات الوقوف ، ويعطي كل حرف حقه فضلاً عن الإدغام في حروف 'يرملون' .

وفي الحقيقة فإن خير قراءة للقرآن تلك التي تكون أشد تأثيراً في النفس ، وخشوعاً في الفكر والبصيرة ، وهذه لا تتم إلا بحضور القلب ، وتنبير لمعاني الكلمات والتكسر في مقاصدها وأهدافها والانفصال في مضامينها بعد الاستعادة من الشيطان الرجيم .

نقول الجزرية قولتها المشهورة : من لم يجود القرآن فهو أثم .

وقد صحح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمى قارئ القرآن بغير تجويد فاسقاً ، هذا كله جدير بأن ينكرنا بما جاء في نهج البلاغة منسوباً إلى أمير المؤمنين (ع) من أنه سيأتي زمان - ليس عند أهله سلعة أثور من الكتاب إذا تلي حق ثلاثه ، ولا أنفق منه إذا حزف عن موضعه ' .

لقد وضعت كتب غير قليلة لتيسير تعليم التجويد ، ولكنها لم تكن أبداً عن التعليم تشفيهي الذي ينال صعبها ويوضح غموضها .

من آداب القراءة : أن يكون القارئ على طهارة ووضوء " لا يمسّه إلا المطهرون " ، وأن يكون القارئ في مكان لائق ، ويقرأ بخشوع وسكينة ووقار ، وأن يبدأ القراءة بالتعوّد " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " كما يطلب الاستماع لتلاوة القرآن ، وترك اللفظ والحديث عندها لقوله " إذا قرئ القرآن فاستمعوا وإنصتوا لعلكم ترحمون " ، ويكره قطع مكالمة أحد ، إلا لسؤال عن تجويد أو تفسير ، كما يكره إلقاء السلام على القارئ أثناء قراءة الآية ، لأن كلام الله لا ينبغي أن يؤثر عليه كلام غيره ، وله أن يلقي التحية بعد انتهاء الآية .

❖ الحروف التي يجب أن يكون فيها غنة :

❑ ما هي الغنة :

هي صوت خفيف يخرج من الخيشوم [داخل الأنف] لا عمل فيه للسان .

❑ حروف الغنة : هي :

١. النون المشددة والميم المشددة يغنان دائماً مثل : إيمان - لما .

٢. الميم الساكنة قبل الباء تغن دائماً مثل : أم به .

٣. النون الساكنة والتنوين يغنان إلا في حالة واحدة ، وهي ما إذا جاء

بعدهما حرف من الحروف الثمانية الآتية وهي :

(أ - هـ - ح - خ - ع - غ - ل - ر) .

مثال غنة التنوين : " صفّاً صفّاً " و " آياتٍ بيّنات " .

مثال عدم الغنة : " إن هو " و " علّم حكيم " .

هذه القواعد جدية بالاهتمام إذ يستطيع القارئ أن يصحح معظم قراءته ابتداءً في

كثير من الألفاظ التي لا تخلو من غنة .

❖ أحكام النون والتنوين :

□ النون : هي حرف أصلي يثبت لفظاً وخطاً ووصلًا ووقفًا ، وتكون في وسط

الكلمة وفي آخرها مثل : " مَنْ خلق " .

□ التنوين : هو نون ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظاً لا خطاً ، ووصلًا لا

وقفًا ، أي تثبت لفظاً في الوصل ، وتسقط في الوقف ، وحكمه مع حروف الهجاء

حكم النون الساكنة .

- للنون الساكنة والتنوين أربعة أحكام :

١. الإظهار الحلقى .

٢. الإدغام .

٣. الإخفاء الحقيقي .

٤. الإقلاب .

١. الإظهار الحلقى :

الإظهار هو النطق بالحرف طاهرًا من غير إدغام ولا إخفاء أو هو إخراج كل حرف

من مخرجه من غير غنة .

أما الإظهار الحلقى فهو النطق بالنون الساكنة أو التنوين على حدة عند حروف الحلق،

يكون الإظهار في النون الساكنة والتنوين إذا جاء بعدهما أحد حروف الحلق الستة

التالية :

همزة فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

أ هـ ع ح غ خ .

أو في أوائل الكلمات الثانية :

" أخي هالك علماً حازه غير خاسر .

مثل : " للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم و " لنن أنجانا من هذه لتكون من الشاكرين " و " وكان الله غنياً حميداً " .

٢. الإدغام :

هو إدخال حرف ساكن بحرف آخر متحرك بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً من جنس الثاني مثل : " من نعمة " فكان النونين في اللفظ نون واحدة مشددة ، وهكذا : منعمة - من يعمل : مئعمل - من تكير : منكير .

□ حروف الإدغام : ستة

يكون الإدغام في النون الساكنة والتنوين إذا جاء بعدهما أحد الحروف الستة التالية :

" ي - ر - م - ل - و - ن " .

هذه الحروف الستة المجموعة في كلمة [يرملون] تدغم فيها النون الساكنة أو التنوين .

د الإدغام ينقسم إلى قسمين :

١. إدغام بغنة

٢. إدغام بلا غنة

١. الإدغام بغنة :

هو إدغام النون الساكنة أو التنوين في الحروف الأربعة التالية :

الياء - النون - الميم - الواو (ي - ن - م - و) وهي مجموعة في كلمة ينمو ، وهي من حروف " يرملون " . لا بد من الإدغام من جعل الحرف الأول من جنس الحرف الثاني في اللفظ عند إدغامه فيه .

يسمى الإدغام بغنة ناقصاً لأن الإدغام لم يتم حيث بقي من الحرف الأول صفته وهي الغنة ، ويشترط فيه أن يكون الحرفان من كلمتين ، وأما إذا كان الحرفان

في كلمة واحدة فإنه بجب الإظهار مثل : دنيا - صنوان - بيان . ويسمى حينئذ إظهاراً شاذاً .

مثل : ' بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ' .

٢. الإدغام بلا غنة :

هو إدغام النون الساكنة أو التنوين في الحرفين الباقيين من " يرملون " وهما السلام والراء " لر " مثل : " من رحمة " ادغمت النون الساكنة في الراء فصارتا في اللفظ راء تامة مشددة من غير غنة " مرحة " ، " جزء من ربك " ، " وهدى للمتقين " ، " غفور رحيم " ، " إن في ذلك لعلوة لمن يخشى " . يسمى هذا الإدغام بالكامل .

٣. الإخفاء :

هو حالة بين الإظهار والإدغام عني عن التشديد مع بقاء الغنة في الحرف الأول أي النون الساكنة والتنوين .

إن الإخفاء في النون الساكنة يكون في كلمة واحدة أو كلمتين ، أما حروفه فهي خمسة عشرة حرفاً وهي مجموعة في أوائل كلمت هذا البيت :

صف ذا ثنا كم جاد شخص قد سما دم طيباً زد في تقي ضع ظالماً
ص ذ ث ك ح ج ش ق س د ط ز ف ت ض ظ
مثل : تنصرون - صفاً صفاً . فأنزركم ماء ثجاجاً .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا لَهُمْ مُنْذِرِينَ أُولَئِكَ يَنْزِعُ اللَّهُ أَلَهُمْ مِنْ سَمَاءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ فاطر : الآية - ٤٤ .

٤. الإقلاب :

هو قلب النون الساكنة أو التنوين ميماً عند الباء مع بقاء الغنة أو هو جعل حرف مكان حرف آخر مع مراعاة الغنة شرط أن يكون الإقلاب في النون الساكنة أو التنوين إذا جاء بعدهما الباء ، وتقليبان عندئذ ميماً مخففة بغنة مثل ذلك في كلمة واحدة " لينبذن " " نذرت لكم " " أنبئهم " ، ومثاله في كلمتين : " من بعد " " آيات بيّنات " " سميع بصير " " أن بورك " وكان الله معيماً بصيراً " .

❖ أحكام الميم الساكنة

للميم الساكنة أحكام ثلاثة :

١. الإدغام .
٢. الإخفاء .
٣. الإظهار .

وحيث أن الميم حرف شفوي فجميع أحكامه شفووية .

١. الإدغام .

هو إدغام الميم الساكنة بميم بعدها بحيث تصيران ميماً واحدة مشددة مع غنة كاملة ، ويقال له إدغام متمميتين شفوي بغنة . مثل : " لهم مغفرة " " لكم من " " والله يدعكم مغفرة " " لهم ما يشتهون " " من ماء مهين " " وأعرضوا لهم مسا استطعتم من قوة " .

٢. الإخفاء .

هو إخفاء الميم الساكنة بياء بعدها مع بقاء الغنة . مثل : " وما هم بخارجين " " إن ربهم بهم " " أم به " " ترميهم بحجارة " " يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم " .

٣. الإظهار .

هو النطق بالميم الساكنة ظاهرة عند بقية الحروف ، بمعنى أنها تظهر عند غير الميم والياء ، ويكون أشد إظهاراً عند الواو والفاء . مثل : " أيهم أشد " " إنهم كانوا " " لكم تذكرة " " ألم تر " " عليهم ولا الضالين " " وهم فيها " منها خلفناكم ، ومنها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى " .

❖ أحكام الميم والنون المشدتين :

يجب إظهار الغنة والشدة في الميم أو النون المشدتين سواء أكانتا في كلمة واحدة أم في كلمتين ، مثل : " إن " " الجنة " " النار " " جهنم " " المزمك " " محمد " " ما لهم من " " كم من فئة " .

❖ إدغام المثلين والمتجانسين :

١. إدغام المثلين :

هو إدغام حرف ساكن بحرف مثله متحرك ، وقد اتفقا في الصنعة والمخرج : " قد دخلوا " إضرب بعصاك " فما ربحت تجارتهم " يوجه " يدرككم " إذهب بكتبي " بل لا يخالفون " يكرهن " .

٢. إدغام المتجانسين :

هو إدغام حرف ساكن بحرف متحرك لا يماثله في الوصف ، بل يتفق معه ويجانسه في المخرج ، أو هو أن يتفق الحرفان مخرجاً ، ويختلفا صفة . " عبدتم " فأمنت طائفة " .

هناك أدغمت الذال في التاء ، والتاء في الطاء لآحاد مخرجهما وهي لا تماثلها في بعض الصفات .

ويبدو ذلك في خمسة مواضع بثلاثة مخارج ، هي :

١. مخرج الطاء والتاء والذال .

ويجب الإدغام في موضعين :

أ- الذال في التاء ، نحو : " قد تَبَيَّنَ " مهتً " " لقد تقطَعَ " عبتً " .

أو للتاء في الذال ، نحو :

" أنقلت " " أجيبت دعوتكما " .

ب- التاء في الطاء أو العكس ، نحو :

" همت طائفة " " بسطت " .

٢. مخرج الطاء والذال والتاء .

يجب إدغام الطاء والذال في موضعين :

أ- الذال في الطاء نحو : " إذ ظلمتم " .

ب- التاء في الذال نحو : " يلهث ذلك " .

٣. مخارج الميم والباء :

وذلك في موضع واحد هو : الباء في الميم نحو : " إركب معنا " .

الثالث التقارب : -

وهو أن يتقارب الحرفان مخرجاً وصفةً وذلك يكون بمخرجين :

أ- مخرج اللام والراء - نحو :

"قل رب" "بل رفعه"

ب- مخرج القاف والكاف نحو :

"ألم نخلقكم"

ومعنى التقارب في الصفة هو أن يتفق الحرفان في أكثر الصفات .

❖ المد وأقسامه :

المدّ هو إطالة الصوت بحرف من حروف المدّ الثلاثة .

حروف المدّ :

١. الألف الساكنة المفتوح ما قبلها .

٢. الواو الساكنة المضموم ما قبلها .

٣. الياء الساكنة المكسور ما قبلها .

لقد جمعت في كلمة "نوحياً" من البيت :

حروفها ثلاثة فـيـها من لفظ وأي وهي في نوحياً

ينقسم المدّ إلى قسمين :

١- أصلي . ٢- فرعي .

١. المدّ الأصلي :

ويسمى بالمدّ الطبيعي ، وهو ما لا تقوم ذات الحروف إلّا به ، ولا يتوقف على

سبب من همز أو سكون ، وهو إطالة الصوت بالحروف الثلاثة المنقّمة [١ - و -

ي] ، ومقدار مدّه حركتان ، مثلاً الثلاثة "نوحياً" .

ومقدار الحركة هو مقدار ما يقبض الإنسان أصبعه أو يبسطها .

* - التحديد في القرآن المجيد ، الجمع العلمي الإسلامي ص ٣٦ .

* - قد لا يمد حرف المدّ الطبيعي إلّا لتعاطل "له ما يـ" ويكون مدّه هاء الضمير الواقعة بين حركتين ، ويقال له صلة صغرى ، فإذا وقعت بين محرك وساكى فلا مدّ مثل "منه" فيه "إلّا في موضع واحد وهو "فيه مهاناً" في سورة الفرقان ، ويقال له مدّ تأكيد .

٢. المد الفرعي :

هو ما يتوقف على همز أو سكون ، أو هو المد الزائد على المد الأصلي بسبب همز أو سكون .

فالمد الذي يتوقف على همز ثلاثة أقسام :

١. المد المتصل .

٢. المد المنفصل .

٣. مد البدل .

١. المد المتصل :

هو أن يوجد حرف المد مع الهمز في كلمة واحدة . مثل :

' ملآنكة - ينوء - جيء - ميئت - شاء - سوء ' .

هذا المد مقدار خمس حركات ولا يجوز قصره كتنطبيعي .

٢. المد المنفصل :

هو أن يوجد حرف المد في كلمة والهمز في كلمة ثانية أو هو أن يكون حرف

المد في آخر كلمة ، والهمزة في أول كلمة أخرى . مثل :

' إنا أعطيناك ' * توبوا إلى الله ' إني أخاف الله ' * يا أيها ' * قالوا أمنا ' - إني
أمنت ' * ويمد خمس حركات ' .

٣. مد البدل :

هو أن يأتي قبل حرف المد همز ، مثل :

' آمن ' * آوتوا ' * إيماناً ' ، وهو مبذل عن همزة ثانية ساكنة ، ويمد
حركتين .

أصل آمن : أامن - آتوا - إيماناً إيماناً - فأبدلت للهمزة الثانية الساكنة مداً بحسب
حركة ما قبلها .

❖ أقسام المد :

إن المد الفرعي الذي يتوقف على سكون هو ثلاثة أقسام :

* - قد لا يوجد حرف المد في "دهصل إلا لعظاً من" - عنده إلا - بحسب أن ماله احمده ' ولا يكون ذلك إلا بفتحاً .

١. المذّ اللين :

٢. المذّ العارض للسكون :

٣. المذّ اللازم :

١. المذّ اللين :

هو مذّ الواو والياء الساكنتين المفتوح ما قبلهما ، مثل :

" التبيت - خوف " ويجوز أن يُعذّ حركتين أو أربعة أو ستة .

٢. المذّ العارض للسكون :

هو أن يوجد بعد حرف المذّ حرف ساكن سكوناً عارضاً للوقف ، مثل :

" يؤمنون - عليم - جنتان " ويمذّ كالتلين بالقصر ، والتوسط والطول .

٣. المذّ اللازم :

هو أن يوجد بعد حرف المذّ حرف ساكن سكوناً أصلياً في الوصل والوقف ،

وهو أربعة أقسام :

١. المذّ اللازم الكلميّ المخفّف .

٢. المذّ اللازم الكلميّ المنقّل .

٣. المذّ اللازم الحرفيّ المخفّف .

٤. المذّ اللازم الحرفيّ المنقّل .

١. المذّ اللازم الكلميّ المخفّف :

هو أن يوجد بعد حرف المذّ حرف ساكن مخفّف أي غير مشدّد . مثل " ألآن " فقط ،

وهو مذّ الألف التي بعدها لام ساكنة ، ولا يوجد غير هذه الكلمة في القرآن ، وقد

ذكرت مرتين في سورة بونس ، ويمذّ ستّ حركات .

" أنتم إذا ما وقع آمنتم به ، ألآن وقد كنتم به تستعجلون " .

" ألآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين " .

٢. المذّ اللازم الكلميّ المنقّل :

هو أن يوجد بعد حرف المذّ حرف مدغم مشدّد مثل :

" الصاخة - الله - للحاقة - أتأجّونني - دابة - الضالين " ويجب هذه ستّ

حركات .

٣. المدّ اللازم الحرفي :

هو مدّ الحرف الذي هجأه ثلاثة أحرف أو سطرها مدّ ساكن ، مثل :
" ن " فهجأه " ن و ن " أو سطرها و ساكنة ، ولا يكون إلا في أوائل بعض
الصور " ساد - فاف - سين - ميم - كاف " الموجودة " ين " ، " حم - عسق " ،
" الر " ، " كهيعص " .

وإذا كان هجاءه حرفين ثانيهما ساكن فيمدّ مدّاً طبعياً وهو خمسة أحرف
مجموعة في " حي طهر " . والحروف التي تمدّ مدّاً لازماً ثمانية بجمعها " نقص
عسلكم " .

أ- المدّ اللازم الحرفي للمخفّف :

هو مدّ الحرف الذي لا يدغم آخر هجائه بما بعده ، مثل :
" ن ~ ق ص ~ ، والميم من حم " ، والكاف والعين والصاد من "
كهيعص " ، والعين فقط يجوز فيها القصر والتوسط والطول أي مدّها من
الأربع إلى الست حركات .

ب- المدّ اللازم الحرفي للمثقل :

هو مدّ الحرف الذي يدغم آخر هجائه بما بعده كمدّ اللام من [ألم] فإن آخر
هجائه ميم وقد ادغمت في أول هجاء الميم التي بعدها ساكن ، ومقدار المدّ
في أقسام اللازم الأربعة ست حركات .

❖ بعض صفات الحروف الهجائية :

الحروف هي ثمانية وعشرون حرفاً أولها الألف وآخرها الياء ، وكل حرف منها لا
يذ له من خمس صفات أو أكثر ، غير أننا هنا لا نذكر إلا بعض الصفات الضرورية ،
وهي كما يأتي :

أ- الحروف للثوية :

هي ثلاثة : التاء - الذال - والفاء .
سميت لثوية لأنه يجب عند النطق بها إخراج طرف اللسان إلى حدّ اللثة ،
مثل : " انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب " .

u حروف الصغير :

هي ثلاثة : الزَّاي - التَّيْن - الصاد .

سميت حروف صغير لأنَّ الصوت الذي يخرج معها عند النطق بها يشبه الصغير وهو يحصل بقوة .

u حروف التّخفيف والاستعلاء :

هي سبعة : الخاء - الصاد - الضاد - النّين - الطاء - القاف - الظاء . إنها مجموعة في قول " خصّ ضغطّ قظ " .

سميت حروف تخفيف واستعلاء لأنَّ الصوت يفخّ عند النطق بها ويعلو اللسان بها إلى الحنك الأعلى إلا إذا كسرت فيقلّ تخفيفها مثل : " قيل غيظ " .

ت حرف التّفشّي :

واحد وهو الثّين .

سمي بذلك لأنَّ الصوت يتفشّى وينتشر في مخرجه عند النطق به ،
مثل : " يشهد " .

❖ بعض صفات الحروف :

د حروف الهمس :

هي عشرة :

" الفاء - الحاء - التاء - الهاء - الثّين - الخاء - الصاد - السين - الكاف -
التاء " .

مجموعة في قول [فحّنه شخص مكث] .

سميت حروف همس لأنَّ الصوت بها يكون خفياً كالهمس . لذلك يجري النَّفس معه عند النطق بها لضعف الاعتماد عليها عند خروجها ، مثل :
" أفترى ، فحدث ، يحكم " .

u حروف القلقة :

هي خمسة :

" الفاء - الطاء - الباء - الجيم - الدال " .

مجموعة في قول " قطب جد " .

والقلقة هي إظهار نبرة للصوت حال النطق بحرف من حروفها ، وسميت حروف قلقة لأنه يخرج معها عند النطق بها بهذه النبرة على أن يوتى بها ساكنة .

القلقة قسمان :

أ- كبرى :

وهي إذا كانت آخرأ ، مثل :

" الفلق " عند الوقف ، أي تقلل حالة الوقف لأصالة الوصل .

ب- صغرى :

وهي إذا كانت وسطأ ، مثل :

" ادخلوا " " يقطعون " " يطمعون " " يدعون " " يجعلون " " ليتلون " .

وتكون حروف القلقة صغرى إذا كانت ساكنة ، وسكونها كان أصليأ .

□ حرفا القنة :

هما : " الميم والنون " المشدتان .

سمينا بذلك لأن فيهما غنة ، ولكنها تخرج معهما بشدة . يقال نكل منها حرف

أغنّ مشدّد ، مثل :

" ثم ، أنكم " .

□ حروف الاستطالة :

واحد ، وهو " الضاد " .

سميت بذلك لأنها استطالت على الفم عند خروجها لما فيها من القوة بالجهر

والاستعلاء مثل : " فاضرب " .

❖ لام الفعل وللتعريف [أحكام اللام]

١. لام الفعل :

تعريف اللام : هي صوت أسناني لثوي جانبي مجهور ' .

' كما أنها أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً في اللغة العربية لأن نسبة

شيوعها حوالي [١٢٧] مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة ' .

' - علم اللغة العام : الأصوات ١٦٩ .

' - الأصوات الفونية ١٤٨ .

٥. مخرجها :

مخرج اللام كما جاء في الكتاب " من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وما بين ما يليها من الحنك الأعلى ممّا فوق الضحك والانسحاب والرباعية والثنية ^١ .

ويشارك مع اللام في المخرج : النون - والراء - قال سيبويه : " ومخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا ، ومخرج الراء لأدخل من مدخل النون واللام في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام " . إذن فاللام والنون والراء أخوات من المخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا .

ويقترّب اللام في المخرج الأصوات التالية : الطاء - الذال - اللّاء - الطّاء - الذّال - اللّاء - السين - الشّين - الصّاد - الضّاد - الزّاي . فتلاصق صوت مجهور لتتجنب الأثر الصوتية حالة النطق به .

هي التي تكون من أصل بنية الفعل ، هذه اللام يجب إظهارها دائماً سواء كان الفعل ماضياً : " جعلنا - التقى - ألهمكم - فآلقاها - وسواء كان مضارعاً : " يلتقطه ، أم أمراً نحو : " كلوا - قل نعم - وليطوّقوا [إلّا إذا جاءت بعدها " لام " أو " راء " فتدغم وجوباً ، مثل : " قل لا أملك لنفسي ضرراً ولا نفعاً " . " وقل رب زدني علماً " .

٢. لام التعريف :

هي لام خاصة بالأسماء ، وهي لام زائدة تدخل على أوائل الأسماء لإفادة تعريفه .

ملاحظة :

تكون لام التعريف ساكنة فإنها تدخل عليها همزة الوصل للنطق بها مثل :

للكتاب . هي قسمان :

١. شسمية .

٢. قمرية .

^١ - كتاب : ج ٤٠٥/٢ .

أولها حكمان : الإدغام والإظهار .

١. اللام الشمسية :

هي التي لا تظهر في اللفظ بل تدغم في الحرف المشدد الذي بعدها وجوباً .

تدغم لام المعرفة إذا جاء بعدها الحروف الهجائية الأربعة عشر وهي :

" ط ، ث ، ص ، ز ، ت ، ض ، ذ ، ن ، د ، س ، ظ ، ز ، ش ، ل " .

الطاء " السماء والطَّارِق " ، التاء " النِّجَم النَّاقِب " ، الصاد " أَخْلِي الصَّرْح " ، الراء " الرَّحْمَن الرَّحِيم " ، " التَّاء " وقابل التَّوب " ، الضاد " والضَّحَى " ، الذال " تنبت بالذَّهْن " ، " الذال " غافر الذَّنْب " ، النون " ومن النَّخْل " ، السين " والسَّابِحَات سَبَّحَا " ، الضَّاء " يحسبه الطَّمَان " ، " للزَّاي " باليِّنَات والزَّيْر " ، الشين " والشَّمْس وضحاها " ، اللام " وهو اللَّطِيف " .

وهي مجموعة في أوائل كلمات هذا البيت :

طَبِثَ صِلَ رَحِيماً تَغْزُ ضِفْ ذَا نَعْمُ دَعِ سَوْءَ ظَنِّ زَرْ شَرِيفاً لِلْكَرَمِ

وتسمَّى هذه اللام باللام الشمسية نسبة إلى لام الشمس المدغمة ، مثل :

" الرحمن - السميع - الثواب - الصدق - الرسول " .

تدغم فيها اللام وجوباً بغير غنة ما عدا النون فإنها تدغم فيها بغنة ، مثل :

" الناس - الذي " .

٢. اللام القمرية :

حكما الإظهار :

هي التي تظهر في اللفظ ويكون الحرف الذي بعدها متحركاً ، وتسمَّى بـاللام

القمرية نسبة إلى لام كلمة " القمر " الظاهرة .

تظهر لام المعرفة إذا جاء بعدها أحد الحروف الأربعة عشر التالية :

" أ ، ب ، غ ، ح ، ج ، ك ، و ، خ ، ف ، ع ، ق ، ي ، م ، هـ " .

الهمزة " إنَّ الأولين والآخرين " الواقعة : الآية - ٤٩ ، الباء " ففتقنوا في البلاد " ق :

الآية - ٣٦ ، الجيم " والجروح قصاص " المائدة : الآية - ٤٥ ، الحاء " واتَّبَعُوا الْحَجَّجَ "

البقرة : الآية - ١٩٦ ، الخاء " وهو الحكيم الخبير " الأنعام : الآية - ١٨ ، العين " والله

رُوف بالعباد - البقرة : الآية - ٢٠٧ ، الغنم - علم الغيب - الزمر : الآية - ٤٦ ، الفاء - ما كذب الفؤاد - النجم : الآية - ١١ ، الفاف - القمر إذا تلاها - الشمس : الآية - ٢ ، الكاف - ذلك الكتاب - البقرة : الآية - ٢ ، الميم - والعرش المجيد - البروج : الآية - ٥ ، الهاء - ويبدأ من الهدى - البقرة : الآية - ١٨٥ ، الواو - فترى الودق - النور : الآية - ٤٣ ، الياء - كأنهن للياقوت - الرحمن : الآية - ٥٨ .

هذه الحروف القمرية مجموعة في :

" ائح حأك وخف عقيم " .

فإذا وقعت هذه اللام قبل أحد هذه الحروف وجب إظهارها ، مثل :

" الكتاب ، الأرض ، الجنة ، لياقوت ، المرجان ، الإيمان ، الغرور ، البيئة " .

٢ ترقيقها : اللام من الأصوات المرققة ، وقد تَقَحَّم . ومن هنا كان الترقيق هو الأصل فيها . إنها تَرَقَّق إذا كانت مضمومة نحو " ورأيت الناس يسدخلون " النصر : الآية - ٢ ، وإذا كانت مكسورة نحو : " لإسلاف قريش " وإذا كانت ساكنة نحو " فليعبثوا رب هذا البيت " ، وإذا كانت مفتوحة نحو " والجآن خلقناه الحجر : الآية - ٢٧ .

٣ تخفيفها : يعرض التخفيف للام في مواضع سقيمة ، وذلك حينما يتوافر الشرطان التاليان :

١. أن تكون اللام مفتوحة لأن التخفيف إشباع فتح .
٢. أن تكون مسبوقة بواحد من حروف الإطباق [الصاد ، الضاد ، الطاء ، الظاء] ، وذلك لأن الإطباق مخفم ، فتتخفم اللام بعد حروقه ليعمل اللسان عملاً واحداً في التصويت وذلك في مثل : " ميصلى " المسد : الآية - ٣ ، " فقد ضلّ ضللاً بعيداً " النساء : الآية - ١١٦ ، " حتى مطلع الفجر " القدر : الآية - ٦ ، " لا يظلمون فتيلاً " النساء : الآية - ٤٩ ، وعُـلِّل مكي تخفيفها - هنا بشاركتها الزاء والنون في المخرج ، والزاء حروف تخفيف ، كما أن النون حرف غنة^١ .

^١ - لا تكسب ٢١٨/٢ .

❖ لام لفظ لجلالة " الله " :

١. تقدم لام لفظ الجلالة في الأمور الآتية :

أ- إذا كان مبدوءاً به مثل :

" الله لا اله إلا هو الحي القيوم " .

ب- إذا كان قبلها فتحة مثل :

" قال الله " " وما الله بغافل عما تعملون " " إذ قال الله يا عيسى " .

ج- إذا كان قبلها ضمة مثل :

" يدُ الله فوق أيديهم " " لما قام عبدُ الله " .

د- ساكن بعد ضم نحو :

" قالوا اللهم " " ما نفدت كلمات الله " .

هـ- ساكن بعد فتح نحو :

" وإلى الله " .

٢. وترقّق إذا تقدمها :

أ- كمرة نحو :

" بالله " " وبسم الله الرحمن الرحيم " " من دین الله " " قل اللهم " بسم

الله " " لله " .

ب- ساكن بعد ياء مكسورة نحو :

" وينجّي الله " " كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم " .

ج- تنوين مثل :

" قوماً الله " فيكون اللفظ هكذا : " قومن الله " .

د- اللام غير التعريفية :

١. لام هل كانت موضع اختلاف بين الإظهار والادغام في الحروف الثمانية

التالية والأولى الإظهار التاء " هل تعلم " مريم : الآية - ١٥ ، والتاء " هل

تُوب " المطففين : الآية - ٣٦ ، والسين " بل سولت " يوسف : الآية - ١٨ ،

والزاي " بل زين " الرعد : الآية - ٣٣ ، والطاء " بل طبع " النساء : الآية

- ١٥٥ ، والطاء " بل ظننتم " الفتح : الآية - ١٢ ، وللضاد " بل ضلّوا " الأحقاف : الآية - ٢٨ ، والنون " هل ننلکم " سبأ : الآية - ٧ .

٢. مع النون الساكنة والتنوين :

يُجمع للقراء على القول بلزوم إدغامها بغير غنة نحو " إلا من بعد إنه " .
يونس : الآية - ٣ ، و " آيات لغرم يعقلون " يونس : الآية - ٦ .

٣. مع الراء الساكنة :

يجوز الإدغام والإظهار ، والأولى الإظهار لأن الإظهار أشهر أما إدغام اللام في الراء في قوله تعالى " بل ران " المطففين : الآية - ١٤ ، فهو محسن عند جميع للقراء النحويين لأنك تبدل من اللام حرفاً أقوى من اللام بكتسب وهو الراء . تنتهي إلى القول : بأن اللام صوت أسناني لنوي ، جانبي ، مجهول ، إن الأصل فيها الترقيق ويجوز تخفيفها إذا كانت مفتوحة ومسبوقة بحرف إطباق مفتوح أو ساكن . ويجب تخفيف لام الجلالة إذا وقعت بعد فتح أو أنف أو ضم أو واو ساكنة وترقيقها إذا سبقت بكسر أو بياء مساكنة كما يجب إدغامها مع الحروف الشمسية وإظهارها مع الحروف القمرية .

يجوز إدغامها وإظهارها إذا كانت غير تعريفية مع جميع الحروف التسي تقاربها في المخرج ، ويجب إظهارها مع الحروف التي تقاربها في المخرج .

أحكام الراء :

للراء أحوال ثلاث أو أحكام ثلاثة :

١. التثخيم .
٢. الترقيق .
٣. جواز التثخيم والترقيق .

١. التثخيم :

هو تضخيم الحرف ، ويكون في المواضع التالية .
أ. إذا كانت مفتوحة مثل :
" مَراباً " " مِرْجاً " " حَزَنَ الموت " .

ب- مضمومة :

"عشرون" "رزقنا" "يُنصرون" .

ج- إذا كانت ساكنة بعد ضم :

"غرفة" "مُربّعين" أو بعد فتح : "قرية" "يُرْجُون" .

د- إذا كانت ساكنة بعد كسر عارض مثل :

"ألم ارتابوا" "لمن ارتضى" "إرجع" .

هـ- إذا كانت ساكنة بعد كسر أصلي وأتى بعدها حرف استعلاء نحو :

"مرصاد" "فرطاس" "فرقة" .

و- إذا كانت ساكنة بعد حرف ساكن غير الياء وكان قبل الساكن فتح أو ضمّ نحو :

"القطر" "الأمور" "يسر" .

٢. الترقيق :

هو تخفيف الحرف ويكون في المواضع التالية .

أ- إذا كانت مكسورة مطلقاً ، سواء في الاسم أم في الفعل ، أم في أول الكلمة ،

أم وسطها ، أم آخرها ، نحو :

"والغارمين" ، "رزقاً" ، "الزقاب" ، "الرجال" ، "والفجر" ،

وليل عشر" ، "أرنا" ، "أنذر الناس" .

ب- إذا كانت ساكنة بعد كسر أصلي متصل بها في كلمة واحدة ، ولم يقع بعدها

حرف استعلاء متصل مثل :

"شريعة" ، "فردوس" ، "أنذرهم" ، "مرتبة" .

ج- إذا كانت متطرفة بعد ياء ساكنة أو بعد حرف مستقل ساكن مميّوق بكسر في

حالة الوقف ، مثل .

"خبير" ، "خير" ، "سيحز" ، "ذكر" ، "شعر" .

٣. جواز التثخيم والترقيق :

ينحصر جواز التثخيم والترقيق فيما يلي :

أ- إذا كانت ساكنة وما قبلها كسر أصلي وبعدها حرف استعلاء مكسور مثل:

"كل فرق" في سورة الشعراء ، والترقيق أولى .

ب- إذا سكّنت في آخر الكلمة وكان ما قبلها حرف استعلاء ساكن بعد حرف

مكسور مثلاً : "يسر" ، "القطر" والأولى فيهما التثخيم .

❖ السكتات وسجدات القلاوة :

١٣ السكّة :

هي قطع الصوت بدون تنفّس بنية القراءة ، أو هي المكث القصير على حرف من غير تنفّس ثم الاستمرار بالقراءة وهي أربع سكتات في القرآن الكريم :

١. في سورة الكهف :

﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا - سَكَّةٌ - فَيَمَّا ﴾ الكهف : الآية - ٢ . والسكت بمقدار

حركتين .

٢. في سورة يس :

﴿ مِنْ مَرْقَدًا - سَكَّةٌ - هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ﴾ يس : الآية - ٥٢ .

٣. في سورة القيامة :

﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ القيامة : الآية - ٢٧ .

٤. في سورة المطففين :

﴿ كَلَّا بَلْ - سَكَّةٌ - رَانَ ﴾ للمطففين : الآية - ١٤ .

وقد وجد من المؤلفين في قواعد التجويد من يعلمه بالرسم كوسيلة إيضاح كما في كتاب : رسالة في تجويد الفراءات التي لم يعلم مؤلفها ولكن جهدهم - على ما في بعضه من تقدّمية علمية مبكرة - لم يمنع الحاجة إلى التلحين الشفهي المتكرّر .

ويستدع بعض الناس تلك الأحكام المأثورة للقراءة فيذكرونها ١ ، ويزرون بها ، ويحاولون صرف الناس عنها . وقد صرّ أحد الكتب المعاصرة حركات المدّ والعنّ والإشمام بأنها حركات غير مفهومة وغير معلومة ، بل غير لازمة كحركات القروود والمهرجين ٢ .

وينقد هذا الكتاب السكت على بعض الكلمات فيقول :

١ " إن هذه السكتات لا معنى لها إطلاقاً ، ولعل أصلها أن أحد القراء القدماء تنفّس بين الكلمتين ، أو ابتلع ريقه ، أو عاقه عن متابعة القراءة عائق ، فقلّده في ذلك بغير علم ولا فهم " ٢ .

١ - كتاب القرآن محمد عبد اللطيف بن الخطيب ص ١٣٤ .

٢ - المصدر نفسه .

ويصف الكتاب التجويد في بعض أحكامه بأنه "باطل مردود ، وسمح مردود مجوج" . ويذهب بنا الظن إلى أنه لو كانت تلك الأحكام ميسرة التعلم ، دقيقة التماذج الصوتية ، كما حدث - فيما بعد - حين سُجِّلَت المصاحف المرتلة لسهل على الكافة الأخذ بها ، ولما نسب إليها ما نسب .

١. سجدة التلاوة :

هي سجدة واحدة بعد تلاوة آية سجدة .

نذكر آياتها في السور الآتية :

١. الأعراف :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عَذَّبْنَا لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَخُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ الأعراف : الآية - ٢٠٦ .

٢. الحج :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الحج : الآية - ٧٧ .

٣. الحج :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالتَّوَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الحج : الآية - ١٨ .

٤. النحل :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ النحل : الآية - ٤٨ .

٥. الرعد :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَاتِهِمْ بِالْغُفْوِ وَالْأَصْنَانِ ﴾ الرعد : الآية - ٤٩ .

^١ - كتاب القرآن محمد عبد الطلوف بن الخطيب ص ١٣٤ .

٦. الإسراء :

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأُنْقَادِ سُجَّدًا ﴾ الإسراء : الآية - ١٥ .

٧. مريم :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَنَّا وَاجْتَنَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَتُكِيًّا ﴾ مريم : الآية - ٥٨ .

٨. الفرقان :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ الفرقان : الآية - ٦٠ .

٩. النمل :

﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ النمل : الآية - ٢٥ .

السجدة : ١٠.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ السجدة : الآية - ١٥ .

فصلت : ١١.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فصلت : الآية - ٣٨ .

النجم : ١٢.

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ النجم : الآية - ٦٢ .

الانشقاق : ١٣.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ الانشقاق : الآية - ٢١ .

العلق : ١٤.

﴿ كُلًّا لَا تَطْعَمُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ العلق : الآية - ١٩ .

١٥. أما سجدة سورة [ص آية ٢٣] فهي سجدة شكر لا سجدة تلاوة وإن كان البعض اعتبرها سجدة تلاوة .

❖ الوقف والابتداء :

□ الوقف :

١. الوقف التام .
٢. الوقف كافٍ .
٣. الوقف حسن .
٤. الوقف قبيح :

١. الوقف التام :

هو الذي يتم به الكلام لفظاً ومعنى ، ويكون في وسط الآية ، وفي آخرها مثل : الوقف على آخر * ولولئك هم المفلحون " .
فالمعنى تام ومنقطع عن " إن الذين كفروا * وكالوقف على * وحملوا أعزة أهلها أذلة " .

٢. الوقف الكافي :

هو الذي يحسن الوقف عليه ، ولم ينقطع عما بعده من حيث المعنى ، كالوقف على : " لا ريب فيه " ثم يبتدئ بـ " هدى للمتقين " .
وكالوقف على : " ألم لم تنذروهم لا يؤمنون " ثم يحسن الابتداء بـ " ختم الله على قلوبهم " ، فإنه متعلق به من حيث المعنى ، لكن يحسن الوقوف عليه ، والابتداء بما بعده .

٣. الوقف الحسن :

هو ما يحسن الوقوف عليه لكن لا يصح الابتداء بما بعده لشدة تعلقه به ، فلا بد من إعادة ما قبله كله أو بعضه لأجل ارتباط اللفظ بالمعنى معاً ، إلا إذا كان رأس آية ، كالوقف في الفاتحة على : " والحمد لله " فإنَّ للمعنى حسن لكن لا يصح الابتداء : بـ " رب العالمين " لأنه صفة تابعة فلا بد من إعادة ما قبله ، وأكثر ما يكون في رؤوس الآيات ، فالوقف عليه حينئذ مستحب أو ما يقال له سنة .

٤. الوقف القبيح :

هو ما يقبح الوقف عليه لشدة تعلقه بما بعده كالوقف على المضاف دون المضاف إليه ، كالوقف على "مالك" من "مالك يوم الدين" فإن الوقف عليه قبيح لشدة تعلقه بـ "يوم الدين" ، والوقف على "إهدنا الصراط" فإنه قبيح لشدة تعلقه بـ "المستقيم" .
ولا يجوز تمتد الوقف عليه إذا غير المعنى كالوقف على : "وما خلقت الجن والإنس" إلا لضرورة ضيق النفس .

□ الابتداء :

هو الشروع بالقراءة ابتداء أو بعد التنفس في آثائها وهو أربعة أقسام أيضاً :

١. الابتداء التام .
٢. الابتداء الكافي .
٣. الابتداء الحسن .
٤. الابتداء القبيح .

١. الابتداء التام :

هو الابتداء بما ليس له علاقة بما قبله لفظاً أو معنى كالابتداء بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾ الزمر : الآية - ٤١ .

٢. الابتداء الكافي :

هو ما يحسن الابتداء به وله علاقة بما قبله لفظاً أو معنى كالابتداء بقوله تعالى : ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ الزمر : الآية - ٤١ .
فالعلامة اللفظية هي العطف ، والمعنوية هي المقابلة .

٣. الابتداء الحسن :

وهو الابتداء بما يكون معناه حسناً ، لكن له علاقة شديدة بما قبله ، كالابتداء في أوائل سورة البقرة :

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة : الآية - ٢ .

٤. الابتداء القبيح :

هو الابتداء بما يفسد به المعنى لشدة تعلقه بما قبله ، كالابتداء بـ : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْعُوْنِ﴾ الأنعام : الآية - ٢٩ . وهو غير جائز .

إنَّ الوقف والابتداء اللّذين لا يتأتّى - غالباً - لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلّة الشرعيّة منه إلا بمعرفتهما ، واللّذين يخلّان بفلفهم ، إذا كانا في غير مكانهما ، بل إنّ منهما من يكفر فاعله لو تعسّده ... هذان الموضوعان لا يعلمهما - فيما هو واضح - مثل التّفنّين الشّفهي من المعلّم المحسن .

❖ أشهر الكتب التي تعلّم التجويد :

لقد وضعت كتب غير قليلة لتيسير تعليم القرآن ، ولكنها لم تغن أبداً عن التعليم الشّفهي الذي يخلّص صعبها ويوضح غموضها . بعض هذه الكتب نفيس ، والكثير منها مخطوط ويستحق النشر .

من المخطوطات الموجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة والتي تعلّم التجويد هي :

١. تحفة نخباء العصر في أحكام النّون الساكنة والمد والقصر لذكرّيّا الأنصاري .
٢. تحفة الأنام في الوقف على الهمز لحمزة وهنام .
٣. شرح عقيلة أتراب العقائد لملاً علي .
٤. الفصول المشرّة في ضوابط القراءة لأبي عمرو البصري .
٥. قرّة العين في الفتح والإسالة بين التّفنّين لأبن القاصح .
٦. اللطائف المحسّنة في مباحث الفنّة لإبراهيم الدسوقي الحضري .
٧. مرشدة المشتغلين في أحكام النّون الساكنة والتّووين لأبي النّصر الناصر الطّيللاوي .

من المخطوطات في نفس الدار والتي تعلّم أحكام الوقف والابتداء وحدها :

١. بيان أوقاف الكفر لأبي منصور الماتريدي .
٢. تقييد وقف لقراءات لمحمد بن أبي جمعة الهبطي .
٣. التّنبّهات على معرفة ما يخفى من الوقوف لعبد السلام بن أبي الحسن عليّ بن عمر الداودي .
٤. مسعف المقرئين ومعين المشتغلين بمعرفة الوقف والابتداء وعدّ الأبي لمحمد المقرّي الشهير بالفارّ .
٥. المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني .
٦. رسالة في تجويد القراءات لم يعلم مؤلفها ، فيها رسم اللسان ومخارج الحروف .
٧. كتاب الفرقان لمحمد عبد الطّيف بن الخطيب .

❖ النسخ والمنسوخ :

□ تحديد النسخ لغة :

النسخ لغة هو الإزالة والتغيير والتبديل والتحويل وإبطال الشيء ورفعته وإقامته شيء مقام شيء ، يقال : نسخت الشمس الظل ، والشيب الشباب ، أي أزاله ، وبمعنى النقل ، يقال نسخت الكتاب ، أي نقلته كما في بعض المعاجم^١ ، قال تعالى:

- الإزالة : ﴿ فَيَنْسُخُ اللَّهُ مَا يُلْفِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ الحج : الآية - ٥٢ .

- التبديل : ﴿ بَنَيْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ النحل : الآية - ١٠١ .

- التحويل : كتناسخ الموارث لأن تناسخ الموارث هو تحويل الميراث من واحد إلى واحد ، وعلى هذا يقال : إن أصل النسخ تحويل ما في الخليقة من النحل والعسل إلى أخرى .
النقل : من موضع إلى موضع .

وقد كثر في معنى الإزالة في السنة الصحابة والتابعين فكانوا يطلقون على المخصص والمقيّد لفظ النسخ ، حيث أطلق النسخ كثيراً على التخصيص في التفسير المنسوب إلى ابن عباس .

□ تحديد النسخ اصطلاحاً * وشرعاً * :

أمّا في الاصطلاح فقد اختلفت كلمات العلماء فيه :

فقال شيخ الطائفة :

" إن استعمال هذه اللفظة في الشريعة على خلاف موضوع اللغة وإن كان بينهما تشبيهاً ووجه التشبيه " .

" إن النص إذا دلّ على أن مثل الحكم الثابت بالنص المتقدم زائل على وجه لولاه لكان ثابتاً بمنزلة المزيل لذلك الحكم لأنه لولاه لكان ثابتاً " .

^١ - أقرره - الموارد وجمع شجرين .

” إنَّ النَّاسِخَ هُوَ اللَّفْظُ الذَّالُّ عَلَى ظُهُورِ انْتِفَاءِ شَرْطِ دَوَامِ الْحُكْمِ “ .

الغزالي :

هو الخطاب الذال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه .

الخوني :

هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه ، سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية أم الوضعية ، وسواء أكان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى بما أنه شارع ، وهذا الأخير كما في نسخ القرآن من حيث التلاوة فقط “ إما قيدنا الرفع بالأمر الثابت في الشريعة ليخرج به ارتفاع الحكم بسبب ارتفاع موضوعه خارجاً ، كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان ، وارتفاع وجوب الصلاة بخروج وقتها ، وارتفاع مالكية شخص لما له بسبب موته ، فإن هذا النوع من ارتفاع الأحكام لا يسمى نسخاً ، ولا إشكال في إمكانه ووقوعه ، ولا خلاف فيه من أحد “ .

قال الفقهاء :

هو النصّ الذالُّ على انتهاء أمد الحكم الشرعيّ مع تراخيه عن مورده .

وقال المعتزلة :

هو اللفظ الذالُّ على أنّ مثل الحكم الثابت بالنصّ المتقدم زائل عنه على وجه لولاه لكان ثابتاً .

” ولم يرتض بها جلّ العلماء . وقد عرفه العلامة الشيخ البهائي والحاجبي وجماعة برفع الحكم الشرعيّ بدليل متأخر “^١ . إنَّ النسخ هو رفع حكم شرعيّ سابق بنصّ شرعيّ لاحق مع التراخي والزمان بينهما ، أي يكون بين النَّاسِخِ والمنسوخ زمن يكون المنسوخ ثابتاً وملزماً بحيث لو لم يكن النصّ قداسخ لاستمر العمل بالمتأنيق وكان حكمه قائماً .

” فالنسخ جائز عفلاً وواقع سمعاً في شرائع بنسخ اللاحق منها المتأنيق وفي شريعة

واحدة “^٢ .

^١ - المصوّل في الأمور ص ٣٢٢ .

^٢ - فیهات فی تفسیر القرآن ص ٢٧٨ .

^٣ - کتاب آراء حول القرآن ، العلامة عليّ الأصمعيّ .

^٤ - تمییز الحق - طبع عند المحصري .

وحكم النّاسخ والمنسوخ يلزم أن يتقنه ويتعلمه كل من يتصدى لتفسير القرآن ، أو
لبيان الأحكام التشريعية والفقهية من المفسرين والفقهاء وأهل الحلّ والعقد حتّى يكون في
مكنتهم الوقوف على الأحكام التي يعمل بها القرآن من تلك المنسوخة التي لا يعمل بها .

يقول الأمام عليّ (ع) بصدد النّاسخ والمنسوخ وضرورة تعلّمهما بأنّه مررت على
قاضي فقال : أتعرف النسخ من المنسوخ فأجاب بقوله :
" لا بل الله أعلم فبادره الأمام بقوله : هلكت وأهلك ... " ^١ .

وطبيعيّ أن يكون القاضي - أي قاضٍ - متّافقاً في معرفة النّاسخ والمنسوخ لئلا يطبق
حكماً كان قد نسخ مفعوله ويهلك هو ويهلك معه ضحيّته ^٢ .

لتوضيح مسألة النسخ نرى بأن الحكم الشرعيّ له نحوان :
أحدهما :

ثبوت ذلك الحكم في عالم التشريع والأشياء ، ولا فرق في الثبوت بين وجود
الموضوع في الخارج وعدمه . فإذا قال الشارع شرب الخمر حرام ، فليس معناه أنّ هذا خمر
في الخارج ، بل معناه أنّ الخمر متى ما فرض وجوده في الخارج فهو محكوم عليه بالحرمة
في الشريعة سواء أكن في الخارج خمر بالفعل أم لم يكن ، ورفع هذا الحكم في هذه المرحلة
لا يكون إلّا بالنسخ .

ثانيهما :

ثبوت ذلك الحكم في الخارج ، كما إذا تحقّق وجود الخمر في الخارج فإنّ الحرمة
الشرعية للخمر تكون ثابتة بالفعل . هذا الحكم ليس من النسخ في شيء ، إنّما الكلام في القسم
الأول ، وهو رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والأشياء .

فالنسخ إذن له معنيان : أحدهما: هو إبطال الحكم المستفاد من نصّ سابق بنصّ لاحق ،
وثانيهما: رفع عموم نصّ أو تغيير مطلقه .

^١ - إفتاؤه للجمهور والرهان لمركشي .

^٢ - عاتق في تاريخ القرآن عهد عليّ الأشهر ص ٢١٤ .

مثال الأول : الآية الكريمة المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَجَاسَيْتُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المجادلة : الآية - ١٢ ، هذه الآية نسخت بالآية :
﴿ أَسْفَقْتُمْ أَنْ تُتَمَنَّا بِإِنْ يَدِي نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاسْأَلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المجادلة : الآية - ١٣ .

مثال الثاني الآية المنسوخة ، قوله تعالى :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ البقرة : الآية - ٢٢٨ ، والآية
المنسوخة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَبُونَهَا ﴾ الأحزاب : الآية - ٤٩ .

فالأصل إذن في الآيات القرآنية هي الأحكام لا النسخ ، وحتى يقوم عليه المناديل
الصريح والقرينة الواضحة على النسخ فيؤخذ به في العمل . إن علم الناسخ والمنسوخ يمكن
اعتباره ضرباً من ضروب التدرج في نزول الوحي ، لذلك نحن بحاجة إلى علم قرآني يلقي
الضوء ساطعاً على سبب نزول الوحي وزمانه لنلتم بتلك الخطوات فنتتبعها ونرسمها بدقة بالغة
لأن هذا يعرفنا بما صح من وجوهه ، فيمكن أن نعيّن المسوق من النوازل القرآنية ، وتظهرنا
على جانب من حكمة الله في تربية الخلق ، وتقننا على مصدر القرآن الحقيقي ، وهو الله رب
العالمين الذي يحو ما يشاء ، ويثبت ما يشاء ، ويرفع حكماً ويبطل آخر من غير أن يكون
لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن ، حتى ولا خاتم النبيين^١ لذلك كان تعريف النسخ بقولهم:
' رفع الحكم الشرعي بغير شرعي ' أدق تحديد اصطلاحى لهذه اللفظة .

هذا التحديد يتناسب في أن واحد مع لسان العرب الذي يرى النسخ إزالة ورفعاً ،
ونصوص الشرع التي لا مدافعة في رفع بعض أحكامها بأدلة قوية صريحة في وقائع معروفة
محفوظة لأمرار وحكم لا يعرفها إلا الراسخون في العلم^٢ .

^١ - راجع ما سأت في علوم القرآن ، ص ٢٥٩ .

^٢ - المختصر ص ٢٦١ .

لهذا العلم القرآني أهمية خاصة وبالغة وخاصة من وجوه خمسة كما جاء في مناهل العرفان^١ .

- أولها : أنه طويل الدليل ، كثير التفاريع ، متشعب المسالك .
- ثانيها : أنه تناول مسائل دقيقة كانت مثاراً لخلاف الباحثين من الأصوليين ، الأمر الذي يدعو إلى الليقظة والتدقيق والأنصاف .
- ثالثها : إن أعداء الإسلام من ملأدة ومبشرين ومشتريين قد اتخذوا من الشرع الإسلامي أسلحة مسمومة . لقد جحثوا وقوع النسخ وهو واقع ، وأحكموا شرك شبهاتهم حتى سحرروا عقول بعض المنتسبين إلى العلم والدين من المسلمين .
- رابعها : الإلمام بالنسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامي ، ويطلع الإنسان على حكمة الله في تربيته لتخلق ، وسياسته للبشر .

- خامسها : إن معرفة النسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى حجج الأحكام ، خاصة إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا ينفع التفاضل بينهما إلا بمعرفة سابقها من لاحقها ، وناسخها من منسوخها .

لقد ورد أن أمير المؤمنين علياً (ع) دخل المسجد فإذا رجل يخوف الناس فقال ما هذا؟ قالوا : رجل يذكر الناس . فقال : ليس برجل يذكر الناس ، ولكنه يقول : أنا فلان بن فلان فأعرفوني فأرسل إليه ، فقال : أتعرف الناس من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : فإخرج من مسجدنا ولا تذكر فيه .

وروي عنه (ع) أيضاً مرة على قاص ، فقال : أتعرف الناس من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : " هلك وأهلك " . يريد أنه عرض نفسه للهلاك ما دام أنه لا يعرف للناس والمنسوخ .

^١ - نزهة ، مجلد ثاني ص ١٧٣ .

٥٠ جواز النسخ وإمكانه :

النسخ الذي هو "رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والأشياء" أو هو "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي" جائز وممكن بالمعنى المتنازع فيه .

لقد ذهب أهل الأديان مذاهب ثلاثة في النسخ :

أولها : أنه جائز عقلاً وواقع سمعاً وعليه إجماع المسلمين من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهاني ومن شايحه . وعليه أيضاً إجماع النصارى ، ولكن من قبل هذا المصير الذي خرفوا فيه إجماعهم وركبوا فيه رؤوسهم ، وكذلك رأي العيسويّة ، وهم طائفة من اليهود ^١ .

لقد خالف في ذلك اليهود والنصارى فادّعوا استحالة النسخ ، واستندوا في ذلك إلى شبهة هي أو هنّ للشبهات ، أو هي من بيت العنكبوت ^٢ .

هذه الشبهة ملخصها :

أن النسخ يستلزم عدم حكمة الناسخ أو جهله بوجه الحكمة ، وكلا هذين لللازمين مستحيل في حق تعالى ، لأنّ الحكم من الحكيم المطلق لا بدّ وأن يكون على طبق مصلحة تقتضيه ، والنسخ يستلزم الجهل منه تعالى ، وعلى ذلك فيكون وقوع النسخ في الشريعة محالاً لأنّه يستلزم المحال .

والجواب : إنّ كلّاً من إثبات الحكم ورفعها في وقته قد نشأ عن مصلحة وحكمة ، وهذا النسخ لا يلزم أنّه خلاف الحكمة ، وقد يكون الحكم المجمعول حكماً حقيقياً ومع ذلك ينسخ بعد زمن . فالحكم المجمعول مقيداً بزمان خاص ، معلوم عند الله ، مجهول عند الناس ، ويكون ارتفاعه بعد انتهاء ذلك الزمان لأنّ انتهاء أمده الذي قيد به ، وحلول غايته الواقعيّة التي أنيط بها . فالنسخ بهذا المعنى ممكن قطعاً وبداهة . فالمصلحة قد تكون لمدة ساعة أو يوم أو سنة ، ثمّ لا تترتب المصلحة بعد انتهاء تلك الأمد . أليس حينذاك ينبغي للنسخ الذي هو بمعنى الإزالة أو التغيير أو التبديل ؟ ^٣

^١ - سائر المرحان ، لمرقان عدد ٢ ص ١٨٦ .

^٢ - بيان حقوقي ص ٢٧٩ .

^٣ - راجع المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .

هناك أدلة على جواز النسخ عقلاً وسمعاً .

□ أدلة جواز النسخ عقلاً :

١. النسخ لا محذور فيه عقلاً ، وكل ما كان كذلك جائز عقلاً لأن أحكام الله تعالى تتبع المصلحة لعباده ، لأن الله تعالى هو القاطع المختار ، وله أن يأمر بما شاء وينهى عما شاء ، وأن يبقى من أحكامه على ما شاء ، وأن ينسخ منها ما شاء لكن ما هو من عند الله لا يخالف العقل .

وكيف يكون النسخ محظوراً عقلاً والمصالح تختلف بمختلف الأشخاص والأزمان والأحوال ، فالطبيب يأمر مريضه بتناول دوائه طالما هو مريض ، ثم ينهاء عنه إذا أبان من مرضه ، وعاد سليماً . مثل الآية الكريمة : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ البقرة : الآية - ١٠٦ .

هذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن كل آية يذهب بها الله تعالى على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة حكمها أو جزمها أو كليهما معاً إلى بدل .^١

٢. الدليل الثاني :

هو أن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعاً لما ثبتت رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافة ، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة العقلية القاطعة . إذن فالشرائع السابقة للإسلام ليست باقية بل هي منسوخة بهذه الشريعة الخاتمية ، إذن فالنسخ جائز واقع ، هذه الشرائع السابقة ليست باقية . إذن فالنسخ جائز واقع .

٣. الدليل الثالث :

هو دليل إلزامي للمنكرين . فالنسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعاً لما جازوا أن يأمر الشارع عباده بأمر مؤقت ينتهي بانتهائه وقته ، لكنهم يجوزون هذا عقلاً ويقولون بوقوعه سمعاً .^٢

^١ - راجع منابع الفهمان المجلد الثاني ص ١٨٨ .

^٢ - المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

❖ أدلة وقوع النسخ سماعاً :

إن الأدلة على وقوع النسخ نوعان :

أحدهما تقوم به الحجة على منكري النسخ من اليهود والنصارى من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم . والآخر تقوم به الحجة على من آمن بنبوتهم صلى الله عليه وآله وعلم كأبي مسلم الأصفهاني من المسلمين ، وكالعميسوية من اليهود ، فإنهم يعترفون برسالة صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن يقولون بأنها إلى العرب خاصة . وهؤلاء نلزمهم بأنهم متى سلموا برسالة وجب أن يصتقوه في كل ما جاء به^١ .

النوع الأول : النسخ في التوراة .

عجبا : كيف يصّر اليهود والنصارى على استحالة النسخ في الشريعة الإلهية ، رغم أن النسخ قد وقع في موارد كثيرة من كتب العهدين^٢ .

١ . لقد جاء في الإصحاح الرابع من سفر العدد " عدد ٣٠٢ " .

" خذ عدد بني قهات من بني لاوى حسب عشاثرهم ، وبيوت آبائهم من ابن ثلاثين سنة فصاعداً إلى ابن خمسين سنة ، كل داخل في الجند ليعمل عملاً في خيمة الاجتماع " . وقد نسخ هذا الحكم وجعل مبدأ زمان قبول الخدمة بلوغ خمس وعشرين سنة بما في الإصحاح الثامن هذا السفر " عدد ٢٣ ، ٢٤ " وكلم الرب موسى قائلاً هذا ما للآتين من ابن خمس وعشرين سنة فصاعداً ، يأتون ليتجنّدوا أجنّاداً في خيمة الاجتماع " .

ثم نسخ ثانياً ، فجعل مبدأ زمان قبول الخدمة بلوغ عشرين سنة بما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين من أخبار الأيام الأول " عدد ٢٤ ، ٢٥ : هؤلاء بنو لاوى حسب بيوت آبائهم رؤوس الأبناء ، حسب إحصائهم في عدد الأسماء حسب رؤوسهم عامل العمل لخدمة بيت الرب من ابن عشرين سنة فما فوق ، وليحرسوا حراسة خيمة الاجتماع ، وحراسة القدس .

٢ . وجاء في السفر الأول من التوراة أن الله قال لنوح عند خروجه من السفينة " إنني جعلت كل دابة حية أكلاً لك ولذريتك ، أطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا

^١ - راجع سفر العدد ١٠ ، ١٤ .

^٢ - راجع التوراة ، سفر العدد ١٠ ، ١٤ .

تأكلوه " ثم اعترفوا بعد ذلك بأن الله حرّم كثيراً من الذنوب على أصحاب الشرائع من
بعد نوح ، ومنهم موسى نفسه ، كما جاء في السفر الثالث من توراتهم .

٣. إن الله تعالى أمر إبراهيم بنبذ ولده - عليهما السلام - ثم قال الله له : لا تنجبه ، وقد
اعترف منكرو النسخ بذلك .

٤. ومنها أن عمل الدنيا كان مباحاً يوم السبت ومنه الاصطيدان ، ثم حرّم الله الاصطيدان
على اليهود باعتبارهم .

٥. جاء في التوراة أن الله تعالى أمر آدم أن يزوّج بناته من بنيه ، وورد أنه كان يولد له
في كل بطن من البطنون ذكر وأنثى ، فكان يزوّج توأمه هذا توأمه للآخر ، ويزوّج
توأمه الآخر لهذا ، وهكذا ، إقامة لاختلاف البطنون مقام اختلاف الآباء والأمهات
والألساب ، ثم حرّم الله ذلك بإجماع المتديّنين من المسلمين واليهود والنصارى .

٦. الطلاق كان مشروعاً في شرعة موسى ، ثم جاءت شريعة عيسى فحرّمته إلا إذا ثبت
الزنى على الزوجة .

٧. الختان كان فريضة في دين إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، لكن الحواريين
جاءوا بعد رفع عيسى فنهوا عن الختان .

٨. أكل لحم الخنزير محرّم في اليهودية ، ولكن الحواريين جاءوا بعد عروج عيسى
فأباحوا لحم الخنزير على زعم المسيحيين .

٩. وجاء في الإصحاح الثلاثين من سفر العدد " عدد ٢ " :
إذا نذر رجل نذراً للرب ، لو أقسم أن يلزم نفسه بلزّم فلا ينقض كلامه ، حسب كل
ما خرج من فمه يفعل . وقد نسخ جواز الحلف الثابت بحكم التوراة بما جاء في
الإصحاح الخامس من إنجيل متى " عدد ٣٣ و ٣٤ " . وأيضاً سمعتم أنه قيل للقاء
لا تحتث ، بل أوف للرب أقسامك ، وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة .

١٠. وجاء في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الخروج " عدد ٢٣ - ٢٥ " :
" وإن حصلت أذنة تعطي نفساً بنفس ، وعينا بعين ، ومسا بسن ، ويداً بيد ، ورجلاً
برجل ، وكفاً بكفاً ، وجرحاً بجرح ، ورضاً برضاً " .
وقد نسخ هذا الحكم بالنهي عن القصاص في شريعة عيسى بما جاء في
الإصحاح الخامس من إنجيل متى " عدد ٣٨ " .

* سمعتم أنه قيل عين بعين ، ومن بمن ، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً *^١ .

١- الأدلة العقلية على جواز النسخ عقلاً :

١. إن النسخ لا محذور فيه عقلاً ، وكل ما كان كذلك جائز عقلاً :
لئن الله يعلم مصلحة عبادته في نوع من أفعالهم وقتاً ما فيأمرهم به في ذلك الوقت ، ويعلم ضرر عبادته في هذا النوع نفسه من أفعالهم ولكن في وقت آخر فينهاهم عنه في ذلك الوقت الآخر ، وكل ما كان كذلك لا محذور فيه عقلاً .

أليس المصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأحوال .
فالطبيب يأمر مريضه بتناول الدواء ما دام مريضاً ، ثم ينهيه عنه إذا أبل من مرضه وعاد سليماً .

كذلك الأم تتقلب كما يتقلب الأفراد في أطوار شتى . أليس من الحكمة أن يصاغ لها من التشريعات ما يتناسب مع حالها في الطور الذي تكون فيه ؟ إلى هذا التليل تشير الآية الكريمة :
" ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها " .

٢. إن النسخ لو لم يكن جائزاً عقلاً وواقعاً سمعاً لما ثبتت رسالة مسيئداً محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافة في كل زمان ومكان .
لئن رسلته صلى الله عليه وآله وسلم العامة ثابتة بالأدلة للقاطعة والبراهين . إذن فالشرايع السابقة ليست باقية ، بل هي منسوخة بهذه الرسالة الختامية . إذن : فالنسخ جائز وواقع .^٢

^١ - راجع وقائع سيرة نبيه وآبائه متعددة في كتاب المذنب إلى دين المصطفى للأمام البلاغي وكتاب الظهار آخر للشيخ رحمه الله من حلق الرحمن اهدي الموشع والدقيق .

^٢ - راجع متاهل المردن ج ٢ ص ١٨٧ .

^٣ - المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

مسألة النسخ متفق عليها عند الكافة من المسلمين ، وإن كان أبو مسلم الأصفهاني ومن تبعه قد جوزوا النسخ عقلاً وأنكروه سماعاً . ولكن هذا الأكثر صوريّاً بشأول فيه ما يجعل خلقه لجمهرة المسلمين خلافاً لفظياً أو شبيهاً باللفظي .

إن أحكام الشرائع السابقة قد نسخت بأحكام الشريعة الإسلامية ، وإن جملة من أحكام هذه الشريعة قد نسخت بأحكام أخرى من هذه الشريعة نفسها ، مثل نسخ القرآن نفسه بحكم التوجه في الصلاة إلى القبلة ، فبعد أن كانت القبلة تتجه إلى بيت المقدس تحولّ التوجه في الصلاة إلى بيت الله الحرام أي للعبة .

٥ أنواع النسخ في القرآن ثلاثة :

- الأول : نسخ التلاوة دون الحكم :

يقول الزرقاني في مناهل عرفانه :

"وأما نسخ التلاوة دون الحكم فيدل على وقوعه ما صحّت روايته عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب أنّهما قالاً : كان فيما أنزل من القرآن : الشيخ والشيخة إذا زنيا فلرجموهما البتّة " وأنت تعلم أنّ هذه الآية لم يحدّثها وجود بين دفّتي المصحف ولا على السنة القراء مع أنّ حكمهما باق على إحكامه لم ينسخ ... "

ويدلّ على وقوعه أيضاً ، كما يقول الزرقاني ، ما صحّ عن أبي موسى الأشعري أنهم كانوا يقرؤون سورة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طول سورة براءة ، وأنها نُصِيتْ إلّا آية منها وهي " لئلا يأتوا منكم ولا يأتوا منكم ولا يأتوا منكم " ولا يمسأ جوف ابن آدم إلا للزنا ، ويتوب الله على من تاب " .^١ لقد قال البعض إن نسخ آية الزنا رجم تلاوة وبقي حكمها .

ألا يشير هذا الزعم إلى اللول بتحريف القرآن حين يذهب إلى جواز

نسخ التلاوة ؟

^١ - مساهم العرفان ج ٢ ص ٢١٥ ، دار الكتب الوطاني .

إن مستند هذا القول هو أخبار أحاد وهذه الأخبار الأحادية ليست ثابتة ولا يؤخذ بها في هذا المجال . مثل هذه الأخبار إنما تدل على كذب السراوي أو خطئه . وعلى هذا : فكيف يثبت بخير الواحد أن آية الرجم من القرآن قد نسخت تلاوتها وبقي حكمها .

‘ نعم قد تقدم أن عمر أتى بأية الرجم وادّعى أنها من القرآن فلم يقبل قوله للمسلمون لأن نقل هذه الآية كان منحصرأ به ، ولم يثبتوها في المصاحف ، فالترجم المتأخرون بأنها آية منسوخة الفلاوة باقية الحكم ’ .

- الثاني : نسخ الفلاوة والحكم :

نقد كان زعم بأن عائشة قالت :

‘ كان فيما أنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نُسخن بخمس معلومات وبُقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن ’ .

ويمكن الرد على هذا المزعم كما كان الرد في النوع الأول بأنه خير أحاد ، وهذا النوع من الأخبار لا يؤخذ به وراوييه ، أمّا كاذب أو مخطئ أو أنه منسوب إليه كذباً هذا من جانب ، ومن جانب آخر هذا الخبر المنسوب إلى عائشة يقضي بتحريف القرآن زيادة ونقصاً وهذا مردود ومرفوض ' لئلا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " .

- النوع الثالث : نسخ الحكم دون الفلاوة :

هذا النسخ مأخوذ به وحوله كان إجماع ، وتدلل على وقوعه آيات كثيرة : هذا القسم هو المشهور حيث اتفق الجميع على إمكان ذلك وعلى وجود آيات من القرآن ناسخة لأحكام ثابتة في الشرائع السابقة ولأحكام ثابتة في صدر الإسلام .

يقول الخوئي في ذلك :

إن نسخ الحكم الثابت في القرآن يمكن أن يكون على أقسام ثلاثة :

١ الخوئي : الباز ص ٢٨٥ .

١. إن الحكم ثابت بالقرآن ينسخ بالنسخة المنسوخة.

انقطع للكاتب عن صدور النسخ عن المصحف (ع) .
وهذا القسم من النسخ لا إشكال فيه عقلاً ونقلاً ، فإن ثبت في
مورد فهو المنع ، وإلا فلا ينزّم بالنسخ ، وقد عرفت أن
النسخ لا يثبت بخير الواحد .

٢. إن الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بأية أخرى منه ناطرة إلى
الحكم المنسوخ ، ومبيّنة لرفعها ، وهذا القسم لا إشكال فيه
وقد مثّلوا لذلك بأية النجوى :

" يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين
يدي نجواكم صدقة " هذه الآية منسوخة بقوله
سبحانه : " ألتفتت أن تقدموا بين نجواكم صدقة ؟ فإد
لم تفعلوا ، وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون " .

لقد ذهب أكثر العلماء على أن الآية الأولى منسوخة بالثانية .

روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال :

" إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها بعدي آية النجوى : إذا
ناجيتم ... كان غدي دينار فيعته بعشرة دراهم ، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقدمت بين يدي درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : ألتفتت ... " .

" ولعل سبب نسخ آية النجوى هو أنه لا ريب أن إعراسهم عن المناجاة يفوت عليهم
كثيراً من المنافع والمصالح العامة ، ومن أجل حفظ تلك المنافع رفع الله عنهم وجوب الصدقة
بين يدي للمناجاة تقديماً للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى النفع الخاص بالفقراء
، وأمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإطاعة الله ورسوله " .

١ - سورة ٥٨ : ١٢ .

٢ - سورة ٥٨ - ١٣ .

٣ - بحوالي : الزمان ٢٧٦ ، دار الزهراء .

لقد روي عن ابن عمر :

كان لعلي ثلاث لو كانت لي واحدة منهم كانت أحب إلي من حمر النعم : تزويجه فاطمة رضي الله عنها ، وإعطائه الزّاية يوم خيبر ، وآية النجوى ، وهل يقول منصف : إن مناجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقيصة . على أنه لم يرد في الآية نهى عن المناجاة ، وإنما ورد تقديم الصدقة على المناجاة ، فمن شمل في الآية حصل له الفضيلة من جهتين : من خلّة بعض الفقهاء ، ومن جهة محبة نجوى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ففيها للقرب منه ، وحل المسائل العويصة ، وإظهار أن نجواه أحبّ إلي المناجي من المال^١ .

إن الآية بعد نسخ حكمها دون تلاوتها تبقى محلاً للإعجاز ، وعبادة للناس ، وتذكيراً بعناية الله ورحمته بعباده حيث منّ لهم في كل وقت ما يسائر الحكمة والمصلحة من الأحكام ، ويضاف إلى ذلك أن الآية بعد نسخ حكمها لا تخلو غالباً من دعوة إلى عقيدة ، أو إرشاد إلى فضيلة ، أو ترغيب في خير ، ومثل ذلك لا ينسخ بفسخ الحكم ، بل تبقى الآية مفيدة له ، لأنّ النسخ لا يتعلق به كما مرّ^٢ .

• مسألة التخصيص والعام عند أبي مسلم الأصفهاني^٣ :

لقد كان الأصفهاني يسمي النسخ باسم التخصيص تجنباً لإبطال حكم قرآني أنزله الله . لقد رأى أن النسخ يتعارض مع قوله تعالى : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت : الآية - ٤٢ .

لكن العلماء قد تصنّوا لأبي مسلم حيث فرقوا بين النسخ والتخصيص . فتعريف التخصيص هو " قصر العام على بعض أفرادهِ " وليس في هذا العصر رفع حقيقتي للحكم عن بعض الأفراد لأنّ تناوله فقط إنّما يكون سبيله المجاز ، فلفظ العام موضوع أصلاً لكل الأفراد ، ولم يقصر عن بعضها إلا بقرينة التخصيص . أمّا النسخ فيبطل النصّ المنسوخ فيه مستعملاً فيما وضع له ، ويظل متداولاً لجميع الأزمان ، إلا أن حكمه الشامل يستمر إلى وقت محيّن ثم لا يبطله إلا الناسخ لحكمة يعلمها الله^٤ .

^١ - تفسير الباسوري هامش تفسير الصوري ج ٢٨ ص ٢٤ .

^٢ - طرقاتي مشاهير عمران ج ١ ص ٢١٧ ، دار الكتاب الإسلامي .

^٣ - هو محمد بن عمر مغزلي تولى سنة ٣٢٢ هـ وأهم كتبه : " جامع شاذل " ن. المتصرم .

^٤ - فزون بمجاهل شرفاء ٨٠/١ .

من هذه المبالغات أنهم قطعوا أوصل الآية الواحدة ، فزعموا أن أولها منسوخ وأخرها ناسخ كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ ﴾ المائدة : الآية - ١٠٥ ، فإن آخر الآية يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو بذلك ناسخ - في نظر ابن العربي - لأولها الذي صرح الله فيه بقوله " عليكم أنفسكم " بل زعم ابن العربي أيضاً أن قوله "خذ العفو ، وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلین" الأعراف : الآية - ١٩٩ ، أوله وآخره منسوخين ووسطه محكم ، ومن ملريف ما ذكره ابن العربي من هذا القليل أن قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَسَخَ الْأَشْيَاءَ الْحَرَّمَ وَهُوَ الْآيَةُ الْخَامِسَةُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ -- نَاسِخَةٌ لِمَا كَانَ مِنْ حَشْرَةِ آيَةٍ ، ثُمَّ صَارَ آخِرُهَا نَاسِخًا لِأَوَّلِهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ تَنَبَّأُوا لِلصَّلَاةِ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ التوبة : الآية - ٥ .

ومن المبالغات العجيبة إدراجهم في عداد المنسوخ ما أبطله القرآن من عادات الجاهلية ونفائدها كتحريم نساء الأبناء ، وتشريع الذبحة والقصاص ، وحصر الطلاق في الثلاث وما رفعه من شرائع من قبلنا كإباحة بعض الأطعمة التي كانت محرمة عليهم ، وقد رجح المحققون من العلماء إخراج هذا كله من التاريخ ، ووجهوه بأن ذلك لو عدّ فيه لعدّ جميع القرآن منه ، إذ كله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب .

من هذه الآيات آية تحريم نساء الأبناء :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ النساء : الآية - ٢٢ .

وآية تشريع الذبحة :

﴿ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَسَخَرِيرٌ رَقَبَةٌ مُؤَمَّنَةٌ ﴾ النساء : الآية - ٩٢ .

وآية تشريع القصاص :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ﴾ البقرة : الآية - ١٧٨ .

﴿الطلاق مرتان فإبساك بفَرْوَفٍ أَوْ تُشْرِيحٍ بِإِحْمَانٍ﴾ البقرة : الآية - ٢٢٩ . فمن عجب أمر المفسرين أنهم جعلوا تحديد الطلاق في الثلاث نسخاً لعمل الجاهلية التي لم تكن تقف في الطلاق عند عدد^١ ، إن النوع باكتشاف النسخ في آيات الكتاب أوقع القوم في أخطاء منهجية كان خليفاً بهم أن يتجنبوها لئلا يضمنها الجاهلون حملاً على كتاب الله : لم يكن يخفى على أحد أن القرآنية لا تثبت إلا بالتواتر ، وأن أخبار الأحاد ظنية لا قطعية ، وجعلوا النسخ في القرآن - مع ذلك - على ثلاث أضرب : نسخ الحكم دون التلاوة ، ونسخ التلاوة دون الحكم ، ونسخ التلاوة والحكم جميعاً ، وليكثر إن سألوا من شواهد الضرب الأول ، فإنهم فيه لا يمتنون السنن القرآني من قريب ولا من بعيد ، إذ الآية لم تنسخ تلاوتها بل رفع حكمها لأمرار ثربوية وتشريعية يعلمها الله . أما الجراءة للعجبية فهي في الضربين الثاني والثالث للذين نسخت فيهما - بزعمهم - تلاوة آية معينة ، أما مع نسخ أحكامها وإن دون نسخ أحكامها^٢ . في الواقع ما كان لعشاق النسخ إلا شاهد أو اثنان على كل من هذين الضربين ، كما مر معنا ، وجميع ما ذكرناه منها " أخبار آحاد ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها .

ولقد بالغ عشاق النسخ في هذا الشأن ، حيث ذهب بهم الغلو كل مذهب حتى زعموا أن الناسخ أيضاً يجوز نسخه فيصير الناسخ منسوخاً ، ومثلوا لذلك بقوله تعالى : " لكم دينكم ولي دين " الكافرون : الآية - ٦ ، فقد نسخه - بزعمهم - قوله : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْحَقِّ﴾ التوبة : الآية - ٥ ، ثم نسخ هذا بقوله ﴿حَتَّى يُخْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة : الآية - ٢٩ ، وأطرف ما في هذا الاستهزاء أن آية الجزية تتعلق بأهل الكتاب ، فكيف تنسخ آية المشركين ؟

ويقرب من هذا ما روي عن أن قوله تعالى :

^١ - راسع باحث في علوم القرآن ، صبي الصاغ ص ٢٦٦ .

^٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ البقرة : الآية - ١٠٩ ، نسسخه قونه
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّكُمْ أَعْيُنُ اللَّهِ﴾ التوبة : الآية - ٥ ، ثم نسخ هذا قونه : ﴿حَتَّى يَعْطُوا الْحِزْبَ﴾^١ .

❖ موضوعات النسخ :

النسخ هو رفع حكم شرعي بديل شرعي يقيد في وضوح بل أن النسخ لا يكون إلا في الأحكام . وهذا هو موضوع اتفاق بين الفقهاء بالنسخ ، لكن ما كان في خصوص فروع العبادات والمعاملات . أما غير هذه الفروع من العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات وملولات الأخبار المحضة فلا نسخ فيها على الرأي السديد الذي عليه جمهور العلماء . فالعقائد حقائق صحيحة ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل .

أما أمهات الأخلاق فلأن حكمه الله في شرعها ، ومصلحة الناس في التحلّق بها أمر ظاهر لا يتأثر بمرور الزمن ، ولا يختلف باختلاف الأشخاص والأمم ، لذلك لا نسخ فيها .

أما أصول العبادات والمعاملات فلو وضوح حاجة الخلق إليها باستمرار القرينية للنفس ، وتطهيرها ، ولتنظيم علاقة المخلوق بالخالق على أساسها فلا وجه من وجوه الحكمة في رفعها بالنسخ .

وأما ملولات الأخبار المحضة فلأن نسخها يؤدي إلى كذب الشارع في أحد خبريه : النسخ والمنسوخ ، وهو محال عقلاً ونقلًا . أما عقلاً فلأن الكذب نقص ، والنقص عليه تعالى محال ، وأما نقلًا فلمثل قوله سبحانه " ومن أصدق من الله قيلاً " ومن أصدق من الله حديثاً " .

فالخبر الذي ليس محضاً ، بل كان في معنى الإنشاء ، ودلّ على أمر أو نهي متصّلين بأحكام فرعية عملية فلا نزاع في جواز نسخه والنسخ به .

فالأدیان الإلهية لا تنسخ بينها فيما بيّناه من الأمور التي لا يتناولها النسخ ، بل هي متحدة في العقائد وأمهات الأخلاق وأصول العبادات والمعاملات وفي صدق الأخبار المحضة فيها صدق لا يقبل النسخ والنقص ، واليك الدليل :

^١ - لرحال ، ٣١/٦ .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ الشورى : الآية ١٣ -

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٣ .

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْمَنْ بِالْمَنْ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ المائدة : الآية - ٤٥ .

﴿ وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ وَمُو يَعْطُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ... ﴾ لقمان : الآية ١٣ -

﴿ كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَءًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ آل عمران : الآية - ٩٣ .

إبن أين يقع النسخ في الرسالات ؟

هل يمكن نسخ المفاهيم أو نسخ العقائد أو نسخ الأحكام ؟ ولماذا يقع النسخ ؟ وما هي نقطة اللقاء للنسخ مع البداء ؟

لا نسخ للمفاهيم لأن المفاهيم تمثل حقائق العقيدة ، ولذلك ليس هناك من نسخ للعقائد لأن العقائد في كل الرسالات تتلقى عند خط التوحيد . نعم يمكن نسخ الأحكام كما نلاحظ ذلك في نسخ القبلة حيث كانت وجهتها بيت المقدس ثم تمسخت إلى الكعبة .

أما التشريع فهو بيد الله وله وحده أن يحلّ وأن يحرم ، ولذلك نقول بأن عندنا شاهدين على ذلك أحدهما في قضية عيسى (ع) حينما قال ﴿ وَلَا جُزْءَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ آل عمران : الآية - ٥٠ .

كما أن الله نسخ في الإسلام استقبال بيت المقدس :

* - راجع هذا الجواب المرفوع في كتابه ساحل المرفوع ج ٢ ص ٢١٢ .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَتَنُوكُنَا فَبَيَّنَّا نَزْوَاجَهَا فَوْقَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ البقرة : الآية - ١٤٤ .

فالنسخ هنا هو نسخ الأحكام أي عندما يكون للحكم زمن خاص بحيث تنتهي المصلحة أو المفسدة فيه فأنه سبحانه وتعالى ينسخه إلى حكم آخر على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة^١ .

❦ البداء :

البداء معناه الظهور بعد الخفاء ومنه قوله تعالى : "وبدا لهم سينات ما عملوا " .

وبالبداء معنى آخر هو نشأة شيء جديد لم يك موجوداً . قال في القاموس :
 "وبدا له في الأمر بدواً ، وبداء وبداء أي نشأ له رأي ، ومنه قوله تعالى :
 ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَتْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ " .

كثيرون هم الذين استبعدوا شبح النسخ المخيف ، كأنه فسي نظرههم بمبادئ البداء ، أو كأنه - على الأقل - معبر طبيعى إلى القول بالبداء ، والإنش للجهلة فسي كل زمان ومكان بالخلط بين النسخ بأسراره الحكيمه والبداء بكل قبحه ومفسده ودلالته على الجهل .

إن البداء يصدر عن الذي يرى الرأي ثم يبدو له ، وقد فرّ اليهود من قبل من القول بالنسخ لنلا يقودهم إلى القول بالبداء ، قد حسبوا أن نسخ الشيء بعد نزوله والعمل به يرادف تغيير الله للأحكام بما يبدو له بعد أن لم يكن بادياً ، ولا يجوز نسبة شيء من هذا إلى الله ، وتصرّع بعض الباحثين المسلمين في القديم والحديث ففروا من النسخ من غير دليل كما فرّ منه اليهود ، وعدّوه من قبيل البداء ، ولا سيما حين رأوا إكثار المفسرين من النسخ من غير دليل ، وقد غلا كلا الفريقين ، فما كان لأصحاب النسخ أن يكتروا منه ويخلطوه بمفهومات أخرى لا صلة له بها ، وما كان لمنكري النسخ أن يبطلوا أمراً صرّحت به آيات في كتاب الله ، ودلّت عليه وقائع

^١ - راجع السيد حسين محمد نعل الله في مشروحة : فكر وثقافة ص ١٩ / ١ / ٢٠٠٠ .

ثابتة لا قبل للباحث المحقق بردها ، ولا كان لهم أن يشبهوا على الناس النسخ بالبداء^١.

لقد نسي منكرو النسخ أو تناسوا ، كما قال الزرقاني :
" أن الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض ما ظهر له أمر كان خافياً عليه ، وما نشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل . وإنما كان سبحانه يعلم للنسخ والمنسوخ أن لا من قبل أن يشرعهما لعباده ، بل من قبل أن يخلق الخلق ويبرأ السماء والأرض . إلا أنه - جلّت حكمته - علم أن الحكم المنسوخ بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم ، وعلم بجانب هذا أن الناس يجيء في هذا الميعاد المعلوم منوطاً بحكمة ومصلحة أخرى . ولا ريب أن الحكم والمصالح تختلف باختلاف الناس ، وتتجرد بتجريد ظروفهم وأحوالهم ، وأن الأحكام وحكمها ، والعباد ومصالحهم ، والنواسخ والمنسوخات كانت كلها معلومة لله من قبل ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه ، والجدير في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده ، لا ظهور ذلك له^٢ .

وحين قسم المقرّون في النسخ صور القرآن أقساماً بحسب ما دخله النسخ وما لم يدخله عدواً ثلاثاً وأربعين سورة فقط ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، وست سور فيها ناسخ وليس فيها منسوخ ، وأربعين سورة فيها منسوخ وليس فيها ناسخ ، إحدى وثلاثين سورة اجتمع فيها النسخ والمنسوخ^٣ .

عجباً كيف أن السور المحكمات الخاليات من النسخ لم تزد - في هذا التقسيم - على ثلاث وأربعين ، وكان القاعدة هي النسخ لا الإحكام ، وكان الأصل في سور القرآن أن يكون فيها ناسخ ومنسوخ !
والحق أن الأصل في آيات القرآن كلها الإحكام لا النسخ ، إلا أن يقوم دليل صريح على النسخ فلا مفر من الأخذ به .

^١ - راجع بإسهاب في علوم القرآن ، الدكتور الشيخ صبحي الصالح ص ٢٧٢ .

^٢ - مغل الغرغان ٧٨ / ٦ .

^٣ - أنظر هذه الأقسام في النسخ والمنسوخ لابن سلامة ، ص ١٤ وما بعدها ، وقارن بالمرهان ٣٣ / ٢ .

إن السيوطي . مثلاً . حصر دعوى التسخ في إحدى ور .

في بعضها^١ تم استثنى منها أبني الاستئذان والقسمه فذكر أن الأصح فيهما : سهـ
محكمات فصارت الآيات المنسوخة في نظره لا تزيد على سبع عشرة آية^٢ . وأولا
خضية الاستطراد لتتبعها فوجدنا الصالح منها للتسخ لا يزيد على عشر فقط^٣ .

إن آية القسمه هي قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ التمس : الآية - ٨ ، فقد قيل بأنها منسوخة بآية
المواريث ، والصحيح أنها ليست منسوخة .

أما آية الاستئذان فهي قوله تعالى ﴿ لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ﴾ النور : الآية - ٥٨ ، وهي آية لا ريب في إحكامها .

وعوداً إلى مسألة البدء أنه لا ريب في أن العالم بأجمعه تحت سلطان الله وقدرته ،
وإن وجود أي شيء من الممكنات منوط بمشيئة الله تعالى ، فإن شاء أوجده وإن لم يشأ لم
يوجد .

ولا ريب أن علم الله أيضاً قد تعلق بالأشياء كلها منذ الأزل ، وأن الأشياء بأجمعيها كان
لها تقدير على في علم الله الأزلي ، وهذا التعلق يعبر عنه بـ "تقدير له" تارة وبـ "تفضائه"
تارة أخرى ، لكن تقدير الله وعلمه سبحانه بالأشياء منذ الأزل لا يراحم ولا يناقض قدرته تعالى
عليها حين إيجادها ... فمعنى تقدير الله تعالى للأشياء وتفضائه بها : أن الأشياء جميعها كانت
ممتنية في العلم الإلهي منذ الأزل على ما هي عليه من أن وجودها معلق على أن تتعلق
الممتنية بها حسب اقتضاء المصالح والمفاسد التي تختلف باختلاف الظروف والتي يحيط بها
العلم الإلهي^٤ .

إن اليهود ذهبوا إلى أن قلم التقدير والقضاء حينما جرى على الأشياء في الأزل
استحال أن تتعلق الممتنية بخلافه ، ومن أجل ذلك قالوا : يد الله مغاوة عن القبض والبسط
والأخذ والإعلاء ، فقد جرى فيها قلم التقدير ولا يمكن فيها التغيير^٥ .

^١ - إسناده ٣٧٢٠ ، وقد ذكر السيوطي هنا جميع هذه الآيات الصالحة للقول بالتسخ .

^٢ - مباحث في علوم القرآن للشيخ الصالح ص ٢٧٤ .

^٣ - البيان في تفسير القرآن ، لغزالي ص ٢٨٥ .

^٤ - الفهرست ع ٣٨١٤ .

أما الشيعة فلا يقولون بالبداة بمعنى أن الله يكون عنده قرار بشيء ما ثم يصبح لديه قرار آخر مغاير ، في حين أن علم الله لا يتغير لأن ذلك ينسب الجهل إلى الله ، كمن يقول : بدا لي هذا الشيء ثم بدا لي شيء آخر ، بينما الأمر بالنسبة لله مختلف تماماً ، فهو يعلم بالأشياء ولا يتغير علمه كلية . لكن المقصود بالبداة الإبداء وهو يعين أن الله يظهر أمراً لمصلحة ثم يظهر غيره مثلاً أظهر لإبراهيم (ع) أنه طلب منه أن يذبح ولده ولكن في واقع الأمر كان الله لا يريد له أن يذبحه بل أراد منه أن يقوم بمقدمات الذبح ولذلك قال ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آدَمُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ مَتَّعِينِيَ إِنِّ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَتَلَّيْنَاهُ أَنْ يَأْ بِإِسْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ الصفات : الآيات - ١٠٢ - ١٠٥ ، أي أنك في الرؤيا لم تر أنك تذبحه بل رأيت التحضير للذبح ﴿ وَتَلَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الصفات : الآية - ١٠٧ ، فانه أظهر لإبراهيم (ع) بأنه مأمور بذبح ولده حتى يظهر عظمة الإخلاص والتسليم والامتنال في إبراهيم وإسماعيل لأنه لو قال له الله سبحانه وتعالى قم بتمثيلية فيها لما كان هذا الإخلاص وهذه الحالة الروحانية التي يعبر عنها الله بقوله " أسلما وتلله للجبين " أي أسلما أمرهما إلى الله ، فهذا هو البداء الذي هو إظهار الحكمة .

ولكن بعض الناس ينسبون إلى الشيعة أنهم يقولون بالبداة الذي يعني أن الله قد يريد شيئاً ثم يبدو له فيريد شيئاً آخر ، وهذا فيه نسبة الجهل إلى الله سبحانه وتعالى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولكن باعتبار شباهة البداء بالإبداء من حيث المظهر سمي الإبداء بداء .

يقول السيد الخوئي :

" وعلى الجملة فإن البداء الذي نقول به الشيعة الأمامية هو من الإبداء " الإظهار " حقيقة ، وإطلاق لفظ البداء عليه مبني على التنزيل والإطلاق بعلاقة المشاكلة . وقد أطلق بهذا المعنى في بعض الروايات من طرق أهل السنة
روى البخاري بإسناده عن أبي عمرة ، أن أبا هريرة حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن ثلاثة في بني إسرائيل : أبرص ، وأعمى ، وأقرع ، بدا الله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص ... " ١ .

١ - صحيح البخاري ج ٤ ، ما ذكر عن بني إسرائيل ص ١٤٦ .

و- ومع بصير دنت في كثير من الاستعمالات للقرآنية كقوله تعالى :

﴿إِنَّا خَفَّفْنَا لَكُمُ الْغُرُوزَ وَأَعْلَمْنَا بِكُمْ صَفْحًا﴾ سورة ٨ : ٦٦ .

وقوله تعالى :

﴿لَنِعْمَ أَنَا الْغَنِيُّ لَنُؤْتِيَ الْغَنَىٰ إِنَّا لَنُؤْتِيهِم مَّا يُؤْتُونَ آبَاءَهُمْ إِنَّا لَنَنفِخُ فِي السُّبُحِ إِنَّا شَاكِرُونَ﴾ سورة ١٨ : ١٢ .

وقوله تعالى :

﴿لَنُؤْتِيَهُم مَّا يُؤْتُونَ آبَاءَهُمْ إِنَّا لَنَنفِخُ فِي السُّبُحِ إِنَّا شَاكِرُونَ﴾ سورة ١٨ : ٧ .

وما أكثر الروايات من طرق أهل السنة في أن الصدقة والدعاء يغوران القضاء .
فالبداء الذي نقول به الأمامية إنما يقع في القضاء غير المحتوم ، أما المحتوم منه فلا يتخلف .
ولا بد أن تتعلق المشيئة بما يتعلق به القضاء .

فالقضاء ذو أقسام ثلاثة :

- الأول : قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحد من خلقه ، ولا ريب أن البداء لا يقع في هذا القسم .
- الثاني : قضاء الله الذي أخبر نبيه وملائكته بأنه سيقع حتماً . وهذا القسم أيضاً لا يقع فيه البداء .
- الثالث : قضاء الله الذي أخبر نبيه وملائكته بوقوعه في الخارج إلا أنه موقوف على أن لا تتعلق مشيئة الله بخلافه وهذا القسم هو الذي يقع فيه البداء : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعْدَهُ لَمْ وَلَكُنَّا بِهٖ﴾ سورة ١٣ : ٣٩ .
﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ سورة ٣٠ : ٤ .

فالبداء إنما يكون في القضاء الموقوف المعبر عنه بلوح المحو والإثبات ، والالتزام بجواز البداء فيه لا يستلزم نسبة الجهل إلى الله سبحانه ، وليس في هذا الالتزام ما ينافي في عظمته وجلاله . فالقول بالبداء يوجب انقطاع العبد إلى الله وطلبه إجابة دعائه منه وكفاية مهماته وتوفيقه للطاعة وإبعاده عن المعصية . فإن إنكار البداء والالتزام بأن ما جرى به قلم التقدير كائن لا محالة دون استثناء يلزمه يأس المتعبد بهذه المعصية عن إجابة دعائه وحينذاك يكون لا حاجة إلى التوسل والدعاء ويكون اليأس ، وهذا مما يؤدي إلى ترك الدعاء والتضرع لخالقه حيث لا فائدة في ذلك ، وكذلك الحال في سائر العبادات والصدقات التي ورد عن المعصومين (ع) أنها تزيد في العمر أو في الرزق أو غير ذلك مما يطلبه العبد .

❖ الآيات المذمومة نسخها :

١. الآية المنسوخة :

﴿ وَذُكِّرْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْطَفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة ٢ : ١٠٩ .

الآية النافسة :

﴿ فَاتْلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ سورة ٩ : ٢٩ .

٢. الآية المنسوخة :

﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة ٢ : ١١٥ .

الآية النافسة :

﴿ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ سورة ٢ : ١٥٠ .

٣. الآية المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى ﴾ سورة ٢ : ١٧٨ .

الآية النافسة :

﴿ وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ ﴾ سورة ٥ : ٤٥ .

٤. الآية المنسوخة :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ سورة ٢ : ١٨٠ .

فقد ادعى جمع أنها منسوخة بآية المواريث وادعى آخرون أنها منسوخة ، بما ورد حقاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله " لا وصية لوارث " .^١

٥. الآية المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة ٢ : ١٨٣ .

الآية الناسخة :

﴿ أَجَلُ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ سورة ٢ : ١٨٧ .

٦. الآية المنسوخة :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ سورة ٢ : ١٨٤ .

الآية الناسخة :

﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ سورة ٢ : ١٨٥ .

٧. الآية المنسوخة :

﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوْكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ سورة ٢ : ١٩١ .

الآية الناسخة :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ سورة ٩ : ٥ .

٨. الآية المنسوخة :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ سورة ٢ : ٢١٧ .

^١ - النسخ والشرح للنحاس .

الآية الناسخة :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ سورة ٩ : ٥ .

الآية الناسخة أيضاً :

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ سورة ٩ : ٥ .

الآية الناسخة أيضاً :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ سورة ٩ : ٣٦ .

٩. الآية المنسوخة :

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ سورة ٢ : ٢٢١ .

الآية الناسخة :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾

سورة ٥ : ٥ .

١٠. الآية المنسوخة :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ سورة ٢ : ٢٥٦ .

الآية الناسخة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ سورة ٩ : ٧٣ .

١١. الآية المنسوخة :

﴿ وَاللَّاتِ وَاللَّاتِينَ الْفَاجِصَتَيْنِ مَنْ بَشَّرْتُمُوهُنَّ فَاكْفُرُنَّ عَنْهُنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ سورة ٤ : ١٥ .

الآية الناسخة :

﴿ وَالَّذِينَ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَقُولُهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ سورة ٤ : ١٦ .

١٢. الآية المنسوخة :

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ سورة ٤ : ٢٤ .

الآية الناسخة :

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ سورة ٤ : ١٢ .

وبعضهم قال إن ناسخها هو المئنة فقد رووا عن علي (ع) أنه قال لابن عباس: 'إنك رجل تائه ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن للمتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خبير " .
وروي أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال " يا أيها الناس إنني قد أذننت لكم في الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً " .

١٣. الآية المنسوخة :

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ سورة ٤ : ٣٣ .

الآية الناسخة :

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ سورة ٨ : ٧٥ .

١٤. الآية المنسوخة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ سورة ٤ : ٤٣ .

الآية الناسخة :

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ سورة ٥ : ٦ .

١٥. الآية المنسوخة :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَسْرَتٌ مِّنْهُمُ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝ سورة ٤ : ٩٠ .

فقد ذكروا أن الآية منسوخة بالأمر بنبذ ميثاق المشركين وبالأمر بقتالهم سواء أكانوا اعتزلوا المسلمين أم لم يعتزلوهم ، فيكون في الآية موردان للنسخ .

١٦. الآية المنسوخة :

﴿فَإِنْ جَاءَكُمْ فَاحُكْمٌ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصْحُرُوا شَيْئًا وَإِنْ حُكِمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ سورة ٥ : ٤٢ .

الآية النافسة :

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۝ سورة ٥ : ٤٨ .

فقد قل بعضهم بأنها منسوخة لأنه لا تجوز شهادة كافر بحال . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى أن الآية محكمة فتجوز شهادة أهل الكتاب على المسلمين في السفر إذا كانت الشهادة على الوصية وإليه ذهب جمع من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن سيرين والشمعي .

١٧. الآية المنسوخة :

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَيَّ مُحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْهُ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلْيُنِمْ رِيقَهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ سورة ٦ : ١٤٥ .

النسخ :

قال جماعة أن الآية منسوخة بتحريم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك لبعض الأشياء غير المذكورة في الآية .

١٨. الآية المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُيِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحَقًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَنْبَالَ (١٥) وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ فَنُورًا مَّحْرُوفًا لِقَاتِلِ أَوْ مَاجِدٍ إِلَى فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاوَاةٍ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ سورة ٨ : ١٥ - ١٦ .

الآية النافذة :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ سورة ٨ : ٦٦ .

١٩. الآية المنسوخة :

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا ﴾ سورة ٨ : ٦١ .

الآية النافذة :

فذهب ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة إلى أنها منسوخة بآية السيف^١ .

٢٠. الآية المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ سورة ٨ : ٦٥ - ٦٦ .

الناسخ :

لقد ذكروا أن حكم الآية الأولى قد نسخ بالآية الثانية .

^١ - تفسير كرم ج ٢ ص ٣٦٦ .

٢١. الآية المنسوخة :

﴿إِلَّا تَتَّقُوا يَظُنِّكُمْ عَلَانِيَا﴾ سورة ٩ : ٣٩ .

الآية الناسخة :

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ سورة ٩ : ١٢٢ .

٢٢. الآية المنسوخة :

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ إِمَّا أَنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣)
لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِمَّا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿سورة ٩ : ٤٣-٤٤-٤٥ .

الآية الناسخة :

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْزَلْنَا مِنْ شَيْءٍ مِنْهُمْ﴾ سورة ٢٤ : ٦٢ .

٢٣. الآية المنسوخة :

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ سورة ٩ : ١٢٠ .
الآية الناسخة :
﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ سورة ٩ : ١٢٢ .

٢٤. الآية المنسوخة :

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة
١٠ : ١٠٩ .

الناسخ :

"فمن ابن زيد : أن هذه الآية منسوخة بالأمر بالجهاد ، والغلبة على
الكفار" ^{١٠} .

^{١٠} - الناسخ والمنسوخ للأمام ص ١٧٨ .

٢٥. الآية المنسوخة :

﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ سورة ١٥ : ٨٥ .

الناسخ :

فمن ابن عباس وسعيد وقتادة : أنها منسوخة بآية السيف ^١ .

٢٦. الآية المنسوخة :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَزِينًا خَسَنًا ﴾ سورة

١٦ : ٦٧ .

الناسخ :

" فعن قتادة وسعيد بن جبير والشعبي ومجاهد وإبراهيم أن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر " ^٢ .

٢٧. الآية المنسوخة :

﴿ الزَّالِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ سورة ٢٤ : ٣ .

الآية الناسخة :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَأَمَّا نَكُمْ ﴾ سورة ٢٤ : ٣٢ .

٢٨. الآية المنسوخة :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِيمَانَ اللَّهِ ﴾ سورة ٤٥ : ١٤ .

الآية الناسخة :

ذهبت جماعة إلى أن هذه الآية الكريمة منسوخة بآية السيف .

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ سورة ٩ : ٥ .

^١ - المصحح والمنسوخ لشمس ، ص ١٨٠ .

^٢ - المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

٢٩. الآية المنسوخة :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَاَمَّا مَنَّا بَعْدَ وَأَمَّا فِدَاءٌ ۝ سورة ٤٧ : ٤ .

للمنسخة :

لقد ذهبت جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وذهب آخرون إلى أنها ناسخة لها ^١ .

٣٠. الآية المنسوخة :

﴿ وَلِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ ۝ سورة ٥١ : ١٩ .

٣١. المنسوخة :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِلْسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ ۝ سورة ٧٠ : ٢٤ - ٢٥ -

لقد وقع الاختلاف في نسخ الآيتين ١٩ و ٢٤ وأحكامهما ^٢ .

٣٢. المنسوخة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَعْتُمْ الرُّسُولَ فَخُذُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ سورة ٥٨ : ١٢ .

للمنسخة :

﴿ اَللّٰهُمَّ اِنَّا نَقْرَءُكَ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَاِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَاَقْبِلُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَاللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ سورة ٥٨ : ١٣ .

^١ - النسخ والنسوخ للحنفي ص ٢٢٠ .

^٢ - راجع البيان للحنفي ص ٢٧١ .

﴿ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلْيُكَلِّمْهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ سورة ٥٩ : ٧ .

للناسخة :

﴿ وَاعْتَمُوا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ سورة ٨ : ٤١ .

من خلال مناقشة الأمام الخوئي [قدس سره] وغيره يتبين لنا أن آيات القرآن كلها الأحكام لا النسخ إلا أن يقوم دليل صريح على النسخ فلا مفر من الأخذ به . وما زال العلماء المحققون بالآيات التي قيل إنها منسوخة يبحثونها من وجوهها المختلفة حتى حصروا ما يصلح منها لدعوى النسخ في عدد قليل^١ . فالسيوطي حصر الآيات المنسوخة بعشرين آية^٢ .

إليك الدليل على أن هذه الآيات ليست منسوخة ، ونكتفي بأربع منها : آية الوصية :
﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْآلِ الْغَنِيِّ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة : الآية - ١٨٠ .

قال في الإقتان : الآية منسوخة ، قيل بآية الموارث وقيل بحديث : ألا لا وصية لوارث . وقيل بالإجماع ، وآية الموارث هي :
﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ خِطِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ النساء : الآية - ١١ .

لقد قال الحسن وقتادة وطائفة ومسلم بن يسار أنها محكمة غير منسوخة . وقال الأمام الخوئي : والحق أن الآية محكمة غير منسوخة .
إلى جانب ذلك يستفاد من الفقهاء الأماميين رضوان الله عليهم هو أن الوصية للوالدين والأقربين نافذة .

وقال المحقق الحلي : تصح الوصية للأجنبي والوارث . أما غير الأمامية فيقول فيلسوفنا ابن رشد : إنهم اتفقوا على أن الوصية لا تجوز لوارث لقوله (ص) : لا وصية لوارث .

^١ . راجع مباحث في علوم القرآن ، ص ٢٧٢ .

^٢ . راجع بحث في تاريخ القرآن وعلومه ، أبو الفضل مير محمد ، ما بين صفحة ٢٢١ - ٢٢٨ .

قال تعالى :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾^١
البقرة : الآية - ١٨١ .

لقد جاء في كتاب الإنقاذ : قيل إنها منسوخة بقوله : " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " البقرة : الآية - ١٨٥ ، وقيل محكمة . وقيل : هذه الآية نصفها منسوخ ونصفها محكم . وكان الرجل إذا شاء صام وإذا شاء أفطر وأطعم مسكيناً ، ثم قال تعالى : " فمن تطوع خيراً " فأطعم مسكيناً " فهو خير له " فنسخ بقوله " فمن شهد منكم الشهر فليصمه " تقديره : فمن شهد منكم الشهر حياً حاضراً ، صحيحاً عاقلاً ، بالغاً فليصمه .

ويقول البعض : إنه روي عن أبي سلمة بن الأكوع ، أنه قال : لما نزلت الآية : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ كان من شاء منا صام ، ومن شاء أن يقتدي فعلى ، حتى نسخها الآية بعدها^١ ، ثم لا يخفى أن النسخ مبني على أن يكون المراد من قوله تعالى " يطيقونه " هو يصومونه ويقوون عليه كما في مجمع البيان ، حيث قال : يقال : طاق الشيء ، يطاقه ، وأطاق إطاقة إذا قوي عليه ، وكذا قال غيره^٢ .

وأما إذا كان المراد ما قاله بعض المحققين^٣ من أن معنى يطيقون الصوم أن الصوم على قدر طاقتهم ، بأن يكونوا قادرين عليه نكن مع الشدة والحرج فلا نسخ ، لبقاء الحكم بالتخيير على من كان الصوم عليه حرجياً كالشيخ والشيخة فيجوز لهما : إما الفدية وإما للصوم ، لكن الصوم خير لهم " وأن تصوموا خير لكم " .

لقد روي عن علي (ع) أنه تأول قوله تعالى : " على الذين يطيقونه : على الشيخ الكبير " .^٤ وقال أبو جعفر (ع) " وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ " يعني الشيخ الكبير ،

^١ - متاعن مبرهان ج ٢ ص ١٥٥ .

^٢ - اقرب المواريد ، مادة طوق .

^٣ - تفسير نهج للأمام الخوئي ص ٢٠٨ .

^٤ - أحكام المهران للمصنف ج ١ ص ٢٢١ .

والحاصل : أن المراد من قوله تعالى "وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ" : من كان في الصوم عليه حرج ومشقة ، كما تدل عليه الأحاديث الكثيرة ، أمّا بإفادة اللفظ له وضعاً ، أو بتقدير كلمة : لا ، في الجملة . وعلى التقديرين فالمراد : الشيخ والشيخة وأمّاتهما ممن يكون في الصوم عليه حرج ومشقة ، وهذا الحكم قد بقي في الشريعة ، ولم ينسخ كما يظهر لمن راجع الكتب الفقهية^١ .

❖ آية التقوى :

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ آل عمران : الآية - ١٠٢ .

قال في الإنشائين : قيل : إنه منسوخ بقوله تعالى " فاتقوا الله ما استطعتم ... " المتعابن : الآية - ١٦ . قال العاتقي في جملة ما قال : قالوا يا رسول الله (ص) ما حق تقاته ؟ فقال : أن يضام ولا يعصى . وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . قالوا : ومن يطيق ذلك ؟ " ونسخها قوله تعالى : " فاتقوا الله ما استطعتم " . وعدها في تفسير النعماني ممّا رواه عن علي (ع) من المنسوخات .

لكن آخرين يقولون بعدم نسخها كالشيخ الزرقاني حيث قال في مناهل العرفان ما حاصله : أنها غير منسوخة ، فإن معنى تقوى الله حق تقاته هو الإتيان بما يستطيعه المكلفون ، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين ، بل تكون إحداهما مفسرة للأخرى ، فلا نسخ . لكن روي في حديث آخر عن أبي عبد الله (ع) أنه قال : " اتقوا الله منسوخة . قلت ونسخها ؟ قال : قول الله " اتقوا ما استطعتم ... " .

❖ حكمة الله في النسخ :

فالنسخ يعني أن الله نسخ بالإسلام كل دين سبقه ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض ، أمّا الحكمة في نسخ الأديان كلها فترجع إلى أن تشريعه أكمل تشريع يغني بحاجات الإنسانية .

^١ - بحث في تاريخ القرآن ، أبو الفضل مير محمدي ص ٢٢١ .

^٢ - مساح والفسوح لثمانلي ص ٢٨ .

لأنّ بيان ذلك أنّ النوع الأنساني يتقلب كما يتقلب الطفل في أدوار مختلفة ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دوراً غيره .
لقد جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للدينين ، ومتممّاً للشرائع ، وجامعاً لعناصر الحيويّة ومصالح الأنسانية ومرونة القواعد جميعاً وفقّ بين مطالب الروح والجسد ، وأخى بين العلم والدين ، ونظّم علاقة الإنسان بالله وبالعلم كله من أفراد وأسر وجماعات وأمم ، مما جعله نبأً عالمياً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما حكمة الله في أنه نسخ بعض أحكام الإسلام ببعض فترجع إلى سياسة الأنسة ، وتعمّدها بما يرقّوها . فالأمة الإسلامية حين البعثة المحمدية كانت تعاني فترة انتقال شاقّ ، بل كان أشقّ عليها في ترك عقائدها وموروثاتها وعاداتها . من هنا جاءت الشريعة تمشي على مهل ، متأنّة لهم ، متعاطفة في دعوتهم ، منكرّة بهم إلى الكمال رويداً رويداً ، صاعدة بهم في مدارج الرقيّ شيئاً فشيئاً لتفسير بهم من الأسهل إلى السهل ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الصعب إلى الأصعب حتى تمّ الأمر ونجح الإسلام نجاحاً لم يعرف مثله في مسرّعته وامتزاج النفوس به ، ونهضة البشرية بسببه .

هذه الحكمة تتجلى على هذا الوجه فيما إذا كان الناسخ أصعب من المنسوخ كموقف الإسلام في سموه ونبله من مشكلة الخمر في عرب الجاهلية حيث كانت مشكلة معقدة كل التعقيد يتناولها الجاهلي لا على أنّها عادة بل على أنّها أمارّة القوة وعنوان الشهامة ، لذلك كان تحريمها تدريجياً^١ .

﴿يَمَّا تُولَدُكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ البقرة :
الآية - ٢١٩ .

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَكُنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء : الآية -
٤٣ .

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ المائدة : الآية - ٩٠ .

^١ - راجع ساهل نمرعان لورفان ص ١٩٥ .

علوم القرآن

المجلد الثاني

الفهرس	
1	العصمة
80	نزول القرآن
115	أول وآخر التنزيلات
121	علم أسباب النزول
159	القرآن المكي والمدني
212	جدول في ترتيب السور العددي والمكتبي والزمني
219	سور القرآن وابتائه
228	جمع القرآن وتدوينه
254	الجمع كن في عهد الرسول
287	مصاحف الصحابة
301	سلامة القرآن وصيغته من التحريف
401	القراءات القرآنية
422	تاريخ القراء المجاهدين
437	علوم القراءات في عصر الذول والإمارات
439	الاهتمام بالقرآن ورعايته والاعتناء به
447	المصحف المرتل والمجود
469	التجويد في معناه وقواعده
494	النسخ القرآني



الرئيس - خا

هاتف، ٢٨٧١٧٩ / ٠٣ - -

ص.ب، ٥٤٧٩ / ١٤ - net.lb

nfo@daralmahaja.com

